الدَّعْوَةُ إِلى اللّٰه

فِي أقطـــارٍ مُختلِفة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م

الدَّعْــوَةُ إِلى اللّٰه فِي أَقطارٍ مُختلِفة

لِلدّكتورِ العلامة السلفي المصلح

مُحَمَّد تقي الدِّين الهلالِي

رَحِمَهُ الله تعالى

حققه

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

قدم له العلامة عميد الرحالين العرب فضيلة الشيخ

محمد بن ناصر العبودي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم[1] عميد الرحالين العرب

العلّامة الشيخ محمد بن ناصر العبودي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

الدكتور محمد تقي الدين الهلالي عالم مغربي شهير، مشهور بنشر السلفية وعدم التهاون في ذلك.

لقد قرأت اسمَه أول عهدي بالقراءة، وأول ما بدأت في معرفة البدع والمنكرات، وعرفت أنه رجل سلفي مجاهد، وربما كان ذلك في عام ١٣٦٠هـ أو نحو ذلك، وسمعنا عنه.

كنت سمعت عن شخصين مهمَّين في العقيدة السلفية متميزين بالعمل لها؛ هما: الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي من المغرب، والشيخ محمد بهجة البيطار من دمشق.

وكنت أتمنى أن أراه، وأذكر أنه جاء في عام ١٣٧٢هـ إلى مكة المكرمة مارًّا بها مسلِّمًا على من بها من المشايخ، وله علاقات بأئمة الدعوة وبالمشايخ من أهل بلادنا فزارهم، وممن زارهم شيخنا الشيخ

(١) طلبتها من فضيلة الشيخ العلامة محمد بن ناصر العبودي بواسطة أخينا الشيخ سليمان الخراشي لتكون في مطلع كتابي «رسائل الهلالي»، فوجدتها ترجمة جامعة نافعة ماتعة، وفيها ـ مما فاتني نشره ـ قصيدة في مدح الشيخ العبودي، وهي ليست في «ديوانه»، وفيها رسالة من العبودي له، وهي ليست في كتابي «رسائل العلامة الهلالي». **(أبو عبيدة)**

عبد الله بن محمد بن حميد، وقد رأيته واجتمعت به ولكن صحبتي لم تطل، لم تكن صحبة في الحقيقة وإنما كان مجرد الاستماع لما يقوله في ذلك الوقت، ولكنني سجلت في خاطري ما كنت قد سمعته وربطت بينه وبين ما رأيته اليوم، وسمعت عيانًا ما سمعت سماعًا، ورأيت ذلك عيانًا من الشيخ محمد تقي الدين الهلالي.

ومع ذلك لم تشف هذه المقابلة غليلًا، إلا أن الشيء العجيب أنني بعد ذلك بمدة طويلة يعني تقريبًا من ربع قرن كنا في المدينة المنورة أو كنا نبحث عن المدرسين للجامعة الإسلامية، فرأيت أن يكون هذا الرجل المشهور بعلمه وسلفيته أستاذًا في الجامعة الإسلامية، وقد وافق الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله على ذلك.

وكان الشيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وأما رئيس الجامعة الإسلامية فهو شيخنا العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله وهو يقيم في الرياض، فلا بد من استشارته؛ لأن الأستاذية في الجامعة أمر مهم يحتاج إلى أشخاص معروفين، فالشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله وافق على أن يكون الدكتور محمد تقي الدين الهلالي مدرسًا، واستقدمناه من المغرب.

ومن العجيب الغريب أن هذا الرجل أمنيته جاءته من غير طلب، فهو كان في المغرب ولم يعرف بالعقيدة السلفية في المغرب، كانت له طريقة صوفية مثل الطرق الصوفية، ثم سافر من المغرب إلى العراق ومن العراق إلى الهند، وطلب العلم على أهل الحديث في الهند، فتغير اتجاهه[1] وأصبح من السلفيين أهل الحديث، وأصبح من ألد أعداء الخرافيين الذين

(١) ليس كذلك، وخرج من الطريقة في المغرب، ووضّح الهلالي هذا في كثير من مقالاته وفي كتابنا هذا. **(أبو عبيدة)**

يمزجون دين الإسلام بالخرافات، وكانوا يعتقدون بأصحاب القبور، وكذلك يعتقدون النفع بالأشياء أو التوسل في الدين بالأشياء المادية.

ثم بعد ذلك ترك الهند وعاد إلى العراق، وبعد ذلك ذهب إلى ألمانيا لدراسة اللغة الألمانية ولدراسة الدكتوراه.

وفي ألمانيا حصل نشوب الحرب العالمية الثانية وهو في ألمانيا، وحصل ارتفاع الضغط في عينه، وفي ذلك الوقت لم تكن توجد أدوية؛ لأن ألمانيا تحت الحصار فتأثر نظره فصار لا يرى إلا رؤية ضعيفة، ولكنه كان قد عرف من العلوم أشياء عجيبة، مثل ذلك أنه قد حصل على الدكتوراه في ألمانيا.

وقد درس اللغة الإنجليزية أيضًا، وهو يتكلم اللغة الإنجليزية الفصحى بطلاقة وصحة التعبير، فلا يرضى أن يلحن سامعه باللغة الإنجليزية بل يصحح له ذلك.

وهو أيضًا يعرف اللغة الأردية كما يتكلم بها أبناؤها، وقد عاد وتزوج في العراق وأنجب ابنةً فاضلة، وهي أستاذة في الجامعة في بغداد.

وله ابن أخ في بغداد لا أعرف وظيفته، ولكن هذا الابن له أحفاد اتصلوا بنا بعد ذلك.

* الدكتور الهلالي أمره عجب؛ لأنه فيما يتعلق بالعقيدة رجل صلب لا يتسامح ولا يتنازل عن موقفه، ولكنه من النواحي الأخرى أديب ولطيف الطبع مهذّب الكلمات، حتى أنه كتب كتابًا في تصحيح ما يعمله الناس وما أجراه الناس من الخطأ واللحن في اللغة العربية سماه (تقويم اللسانين)، نعم لابن الجوزي كتاب باسمه (تقويم اللسان) فهذا الدكتور سماه (تقويم اللسانين) بمعنى الكتابة واللفظ.

وهذا كتاب مطبوع، وأعتقد أنه قد طبع مرتين.

والشيخ الهلالي في العقيدة السلفية على ما عليه أهل هذه البلاد، ولكنْ هنالك أمور خالف فيها أهل البلاد وهي قليلة، ومن ذلك مثلًا اعتباره أن وجه المرأة والكفين منها ليستا من العورة للمرأة[1]، فيقول إنه يجوز أن تكون المرأة سافرة الوجه والكفين. وهذا طبعًا اجتهاده، ولكن المتمسكين بالأمور القديمة من العرب حتى من غير من يسمون السلفيين لا يجيزون أن تكون المرأة سافرة الوجه، وإنما تتنقب أي تلبس نقابًا أي تضع على وجهها سترًا لا يبين منه إلا عيناها، أو أن تتلثم بمعنى أنها تغطي نصف أنفها وما كان أسفل من ذلك من وجهها وتترك عينيها وما بينهما على هيئة خط.

هذا كان في المغرب ولا يزال موجودًا عند المتمسكين، وإن كانت معظم النساء قد سفرن هناك، ولكن هو يقول بمكانته وقوته أن السنة أو الأدلة تدل على أنه يجوز للمرأة أن تكون سافرة الوجه وكذلك أن تظهر كفيها، وأما شعرها فإنه يقول إنه عورة.

ومن الأشياء العجيبة التي سمعنا فيها والتي رأيتها وعايشتها ولو كنت سمعت بها لم أصدقها أننا كنا قد أنشأنا في الجامعة مجلة أسميناها (مجلة الجامعة الإسلامية)، وهذه المجلة لها هيئة من المحررين كنت أنا فيها، كان هناك خمسة أو أربعة. كتبت فيها مقالات عن أفريقيا أخذتها مما سودت في كتابي (في إفريقية الخضراء)، وكان معنا الأستاذ محمد المجذوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وكتب الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي مقالة جواز أن تكشف المرأة عن وجهها وكفيها عند الرجال الأجانب وأورد الأدلة من الأحاديث ومفهوم الآيات القرآنية ومن الآثار.

(١) هذه مسألة فقهية لا عقدية. (أبو عبيدة)

وقد جعل مقاله في جزءين وكل جزء مطول.

وعندما نشرنا (الجزء الأول) منه اطلع الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى وهو رجل معروف بغيرته ومعروف بشدة محافظته على ما يرى أن المصلحة الإسلامية فيه، ورأى أنه لا يجوز أن يُكتب في مجلة «الجامعة الإسلامية» أن الوجه والكفين يباح للمرأة أن تظهرهما عند الرجال الأجانب، وتحمس الدكتور الهلالي لرأيه!

فذهبت أنا والدكتور الهلالي إلى الشيخ عبد العزيز بن باز في مكتبه، ومكتبي في الطابق الأرضي والشيخ عبد العزيز في الطابق الذي فوقه من مبنى الجامعة الإسلامية، ذهبت مع الدكتور الهلالي وقال الشيخ ابن باز للدكتور الهلالي: لا ينبغي في الحقيقة أن يُنشر مثل هذا في هذه المجلة؛ لأن الذين يحرصون على السفور وعلى الإباحية سوف يفرحون بهذا؛ ويتخذونه وسيلة لحث بنات المسلمين على خلع الحجاب، فهذا لا ينبغي لأجل المصلحة العامة.

* الدكتور محمد تقي الدين الهلالي يكاد يكون قاسمًا مشتركًا بين أقطار المسلمين؛ فهو مغربي ولد في المغرب، ينسب إلى بلدة في المغرب يقال لها (هلالة)[1]، وليس إلى بني هلال، وسافر في وقت مبكر إلى مكة المكرمة وحج في عام ١٣٤١هـ، وبعد دخول الملك عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مكة المكرمة صار مدرسًا في المعهد العلمي، وتزوج امرأة سعودية.

وبعد ذلك بفترة سافر إلى العراق وصار مدرسًا في مدرسة النجاة في الزبير لصاحبها الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ثم تزوج من ابنته..

(١) ليس كذلك، و(هلال) الذي في نسبه هو جده الحادي عشر. **(أبو عبيدة)**

أي ابنة الشيخ الشنقيطي؛ فرُزق منها بابن سماه (شكيب) على اسم الأمير شكيب أرسلان الذي كان الدكتور الهلالي معجبًا بعلمه وأدبه وطول باعه في البحث والكتابة؛ وقد رُزق منها أيضًا بابنته (خولة)، التي صارت بعد ذلك الدكتورة خولة بنت محمد تقي الدين الهلالي.

وقد حصل على الجنسية العراقية، وذكر بعض الأسباب على حصوله على الجنسية في كتابه «تقويم اللسانين» فقال:

«وأغرب من ذلك أني لما أردت التجنس بالجنسية العراقية سنة ١٩٣٤ قدمت طلبًا إلى الدوائر المختصة في البصرة، فبقيت الأوراق تنتقل من دائرة إلى دائرة مدة شهرين، ثم بُعثت إلى بغداد العاصمة، فسافرت لأتعقبها إلى بغداد، وبقيت شهرين أستنجد وأتشفع حتى وصلت الأوراق إلى يد مدير وزارة الداخلية، فأخذ جواز سفري يتأمله وأنا واقف أمامه، وإلى جانبي الأستاذ كمال الدين الطائي من كبار علماء بغداد تفضل بمرافقتي ليعينني ويشفع لي، فقال المدير بفظاظة: ما هي جنسيتك؟ فقلت: مغربي. فاستشاط غضبًا وقال: (جنسية هتشي ماكو) يعني لا توجد جنسية هكذا، قل: فرنسي، فقلت: بل هي موجودة، فانظر ما هو مكتوب على الجواز باللغة الفرنسية (أمبير شريفيان) أي الدولة الشريفية.

فلم يقتنع بذلك، فقلت له: هل كنت أنت إنكليزيًّا قبل سنتين؟ أي قبل المعاهدة الأخيرة بين العراق وإنكلترا؟ فقال لي: (إحنا كنا عثمانيين، ومن بعد صرنا عراقيين)، فقلت له أنا: (ونحن دولة مغربية منذ ما يزيد على ألف سنة، منذ أسس الإمام إدريس بن عبد الله الدولة المغربية واستقلت عن الدولة العباسية)، فجذبني الأستاذ كمال الدين من ثيابي وقال لي: دع هذه القضية، فسأتعقَّبها أنا، لأنه رأى أن القضية قد دخلت في طور خطير بالجدال مع مدير الداخلية.

فكتب ذلك المدير على أوراقي: الطلب مرفوض. وبذلك أحبط لي عمل أربعة أشهر، ولكن الله ﷻ رحم ضعفي وغربتي، فسقطت تلك الوزارة، وكانت إحدى وزارات جميل المدفعي، ولم تلبث في الحكم إلا اثني عشر يومًا، ولا توجد فيما أعلم وزارة عراقية تماثلها في قصر العمر.

وجاءت بعدها وزارة علي جودة الأيوبي، فأعدت الطلب وحصلت على الجنسية في ثلاثة أيام بمساعدة النبيل الشهم عارف قفطان العاني، وكان صديقًا حميمًا لعلي جودة الأيوبي.

وفي سنة **١٣٤١هـ** حججت الحجة الأولى، ووقع خصام بيني وبين صاحب حانوت بمكة فعيَّرني، وزعم أني فرنسي، فقلت له: أنت إنكليزي، فنحن في البلية سواء، وكان في زمان الشريف حسين بن علي». اهـ.

ثم وجدنا الدكتور الهلالي يذهب إلى الهند ويقرأ على مشايخها وعلمائها وبخاصة علماء أهل الحديث، ويبقى فيها حتى يجيد اللغة الأردية لغة المسلمين هناك، وقد سمعته يتكلم بها بطلاقة.

وقال لي عندما سافرنا معًا لحضور احتفال أقامته الجامعة السلفية في بنارس بالهند وكان تجاوز عمره التسعين: إنني أستعيد ذكرياتي بالهند الآن.

والمفهوم أنه تكلم اللغة الإنكليزية أولًا في الهند حتى صار يتقنها بنحوها وصرفها.

كما ذهب إلى ألمانيا ودرّس في جامعاتها، كما كان يحاضر في اللغة العربية في جامعة (بون) فيها.

وقد أجاد اللغة الألمانية وحصل على درجة الدكتوراه من هناك.

وتزوج في ألمانيا من امرأة ألمانية أسلمت على يديه وكان تعرف عليها؛ لأنها كانت تكتب له أوراقه على الآلة الكاتبة بأجر.

وقد رُزق منها بابنه (عبد الرحمٰن) الذي نشأ في ألمانيا وتزوج من امرأة ألمانية ورُزق منها بستة أولاد على خلاف العادة في الغرب.

ولا يزال ابنه وذريته في ألمانيا حتى الآن.

* كان الدكتور الهلالي كبير السن؛ إلا أنه كان حاضر الذهن، بل قد كان في كامل وعيه ونشاطه وإن كان قد تجاوز الثمانين إلا أنه كان ضعيف النظر ولا يكاد يُبصر، وسبب فقده بصره أنه أصيب بالماء الأزرق المسمى بالجلوكوما إبان الحرب العالمية الثانية فلم يكن بإمكانه الحصول على الدواء الذي كان يحافظ على الضغط داخل العين؛ لانشغال ألمانيا بالحرب وفقدان دواء الضغط في العين.

إلا أنه وهو في نفس السن كان سخيًّا إلى درجة أن يُنشد فيه قول الشاعر:

لا يألف الدّرْهمُ المضْرُوبُ صُرَّتَنَا ... لكِنْ يَمرّ عليها وَهْوَ مُنْطَلِقُ

فكان يُنفق كل راتبه الذي كان المدرسون أمثاله في الجامعة يوفرون أكثره، فكان ينفق على تلاميذه وغيرهم من طلبة العلم، فكان يحدث أن يحتاج قبل أن يأتيه راتب الشهر القادم، فيقترض من إخوانه ومحبيه لهذا الغرض.

وكان كثير الدعوات، وأذكر أنه إذا دعا الشيخ عبد العزيز بن باز ودعانا على مأدبة عشاء أو غداء قال لنا الشيخ عبد العزيز بن باز: احترسوا أن تُكثروا من اللون الأول من طعام الدكتور الهلالي فقد يأتي بعده بطعام آخر أشهى عندكم منه! وذلك لكثرة طعام الدكتور الهلالي لضيوفه.

وذلك أنه لم يكن على عادتنا نحن بأن نُحضر جميع المائدة على الخوان ـ وهو الذي يُرفع فوقه الطعام ـ بل كان يقدم لنا لونًا من الطعام، ثم يرفعه، ثم يقدم لونًا آخر، وهكذا[١].

وكذلك عندما ترك التدريس في الجامعة لم يملك من حطام الدنيا شيئًا حتى ولا النفقات اللازمة لبيته في المغرب، مما دعا الشيخ عبد العزيز بن باز جزاه الله خيرًا أن يكتب إلى الملك فيصل بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت رَحِمَهُ اللهُ كتابًا يشرح فيه حالة الدكتور الهلالي وأنه في عوز شديد ويطلب أن تخصص له المملكة راتبًا يكفيه.

وكان الملك فيصل يعرف الدكتور الهلالي، فأمر الملك فيصل بتخصيص خمسة آلاف ريال شهريًّا تدفعها له السفارة السعودية في المغرب[٢].

وقد استمر ذلك طيلة حياته، فلما مات انقطع عن أسرته.

وعهدي بالشيخ عبد العزيز كتب للحكومة السعودية باستمرار ذلك الراتب لأسرته، ولكن لم يتيسر ذلك.

* عُمِّر الدكتور الهلالي عمرًا طويلًا زاد على التسعين، ولو كان شخصًا معتادًا لقيل إنه عُمرٌ مديد، ولكنه عمر حافل بالعطاء الفكري، فكان يفيد ويستفيد، وكان يخاصم ويوافق، وكان يدافع ويمانع، طيلة عمره في مسائل علمية وفي أمور العقيدة.

---

(١) هذه عادة أهل المغرب، فهم أهل كرم، ويأتون بالطباق على تناوب. **(أبو عبيدة)**

(٢) أخبرني ولد كاتب الهلالي المانع أن الملك فيصلًا هو الذي تكفّل بنفقة نقل مكتبة الهلالي من المدينة النبوية إلى المغرب. **(أبو عبيدة)**

فكان سلفيًّا صلبًا صافيًا، يعجب المرء من طبيعته أن يجده أديبًا يعرف عددًا من اللغات الحية ويتكلم بها ويناقش فيها، وهي إلى جانب العربية: الإنكليزية والألمانية والأردية والفرنسية، ويستشهد بأبيات شعرية فيخيل إليك أنه من متساهلي الأدباء، حتى يحوم حول حمى العقيدة حائم، أو يثير أحد شبهة فيها تنقص منها، أو تجنٍّ على أهلها، فيخرج الدكتور الهلالي من صفته تلك إلى صفة الداعية الغيور بل الشديد الغيرة على العقيدة السلفية.

وظل طيلة عمره المديد متمتعًا بعقله وذاكرته مفيدًا لطلابه من حوله لكرمه ولطفه حتى توفي.

ومن شواهد عمره المديد: أنني صادفته مدعوًّا إلى مؤتمر إسلامي في إحدى ولايات الهند وقد حضره وحضرته لأنني كنت مدعوًّا إلى ذلك المؤتمر أيضًا، ولما حان وقت العشاء دعانا المسؤولون عن الضيوف في المؤتمر إلى طعام العشاء، فقال لي الدكتور الهلالي: أنا منذ وصل سني إلى التسعين لم أعد أتعشى إلا بحبات من الفاكهة أو قليل من اللبن!

* الدكتور تقي الدين الهلالي أديب متمكن، ولغوي مدقق، غيور على لغته العربية، ألف كتاب «تقويم اللسانين»: لسان القلم ولسان الحديث.

ومع ذلك هو شاعر، له شعر مذكور، وقد نظم مقطوعتين موجهتين إليَّ، ذاكرًا كنيتي «أبا ناصر».

فقد اجتمع مدرسو الجامعة فيما بينهم وقرروا أن يطلبوا زيادة رواتبهم أو تحسينها، فأوفدوا وفدًا منهم لمقابلتي ومناقشتي في الأمر، وكنت آنذاك الأمين العام للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة

وقد جاء معهم الدكتور الهلالي وقرأ الأبيات التالية موجهةً إليَّ:

قال الدكتور محمد تقي الدين الهلالي: وقلت في أبي ناصر محمد بن ناصر العبودي وحثه على قضاء حاجة المدرسين ١٨/ ٩/ ١٣٩٠هـ:

أبا ناصر قد جَاءك الوفدُ راغبًا ... وأنتَ بلا شكٍّ مُنيلَ الرَّغائبِ
وأنتَ العبوديُّ الذي شاعَ فضلُه ... ولستُ بمُحْصٍ ما لهُ من مناقبِ
ألستَ مَن القوم الذين تبوَّأوا ... من المجدِ والإحسانِ أعلا المراتبِ
أولاك بنوا عَدنان سُمُّ عِداتهم ... ونصرٌ لمظلوم وغُنم لطالبِ
وفي العلم والآداب قد نلتَ رُتبةً ... لها خضَعَتْ طَوعًا كرامُ المناصبِ
شُهودي على هذا تآليفُ قد حكَتْ ... عقودَ جُمَانٍ في نحورِ الكَواعبِ
بحورُ بها الدُّرُّ النَّفيسُ لغايصٍ ... وعذبُ زلالٍ شائق كل شاربِ
وإنْ شِئتَ جناتٌ تروقُ ثمارُها ... وريحانُ أزهارٍ خلَتْ من مشاغبِ
فطوبى لمن يجني شهيَّ ثِمارها ... ويا فوزَ مَنْ يَحْظَى بتِلكَ الأطايبِ
أَتَوْكَ على شُهب يدوي صهيلُها ... تريد قِرًى من قاتمِ اللَّونِ ساكبِ
فأَحْسِنْ قِراها زادك الله بسطة ... بعلم ومال من أحل المكاسبِ
وقرَّتْ لك العَينانِ بالشِّبْلِ ناصرٍ ... وإخوته الغرِّ السُّيوف القَواضبِ
وألبسكَ الرحمٰنُ عزًّا ورفعةً ... بها تَعْتَلي فوقَ السُّهى والكواكبِ
وليس عجيبًا أن يُقال حبوتهم ... وحرمانهم من مدهشات العجائبِ
أعِنْهُمْ على أن يصلحوا مركباتهم ... ركبتَ من العَلْياء عزَّ المراكبِ
ودمتَ نصيرًا للعلومِ وأهلِها ... ولا زلتَ مَنْصورًا بها في النوائبِ
ولا ترجعنَّهم خائبينَ فإنَّهم ... ضيوفٌ وحقُّ الضَّيف بذلُ المآربِ
ودونَكَ بِكرًا مِنْ قَريضي أزفُّها ... قبولَكها عندي أجَلُّ المطالبِ
ولم تَخْلُ من نقصٍ يشينُ جمالَها ... ولكن شأنُ الحرِّ سترُ المعايبِ
وصلِّ وسلِّم يا إلهي على النَّبي ... صلاةً بها نَحْظَى بنيلِ المأربِ
وآل والأصحابِ طرًّا ومَنْ قفا ... سبيلَهم في بذْلِهم والمواهبِ

وللشيخ تقي الدين الهلالي قصيدة أخرى أودعتها إظبارة جعلتها (المقبرة) للقصائد التي قالها الشعراء في مدحي، ولم يكن من المستساغ أن أجد أحد الإخوة وبخاصة من الشعراء العلماء والأدباء يجتهد في نظم قصيدة ليقدمها إليّ ـ كما يقول ـ من باب إظهار المحبة لشخصي الضعيف، فأسارع بأخذها منه ثم أمزقها.

فتمزيق مثل هذه القصائد التي نظمها الإخوة وقدموها أمرٌ غير مستحب أدبيًّا، ولكن يقابله أيضًا أنني لم أنشرها أو حتى أنوه بها من قبل؛ لأنني يصعب علي أن أقدم مدحًا لي.

*** من رسائلي للشيخ الهلالي** رَحِمَهُ اللَّهُ

(حضرة صاحب الفضيلة العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي حفظه الله.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فقد أُلقي إليَّ كتابكم الكريم المؤرخ في الخامس من ذي الحجة عام **١٣٩٧**هـ وسررت بما تضمنه من الإخبار عن صحتكم وصحة الأسرة، وقد أبلغت أم ناصر تحيات أم فاطمة وهي تبادلها التحية وكذلك بناتي يبلغنها وفاطمة التحية والسلام.

الشيخ محمد الدرعاوي وكذلك الأخ ابن الطيب ومن معه وصلوا جميعًا والتحق ابن الطيب والفتيان بالجامعة، وإن كان الأخ ابن الطيب ليس مرتاحًا إلى وضعه في كلية اللغة العربية ويفضل عليها أن يكون في كلية العلوم الاجتماعية إلا أن المسئولين في الجامعة أخبروه بأن ذلك لا يمكن، وطمأناه إلى ذلك، فاطمأن، نسأل الله تعالى التوفيق.

لقد اطلعت على الهجو المرسل إلى (ابن فلان)، فاكتشفت منه عبقرية مخبوءة في شخصية أستاذنا العلامة الدكتور الهلالي، وحبذا لو

ضم إلى هذه القصيدة ما كان ويكون لها من أخوات، فهي بلا شك عندي ستؤلف بابًا من «ديوان» لا بد أن يكون له وقع عظيم في أسماع الأدباء وأذهانهم وعشاق الشعر.

ولقد قرأتها فأعجبتني وأطربتني، لا سيما بيتها الأول الذي هو:

يا ليت لي من جلد وجهك رقعةً   فأقد منها حافرًا لحصاني!

أما موضوع الراتب فقد أخبرنا المسئول في وزارة المالية باستئناف إرساله إلى فضيلتكم عن طريق السفارة، حال ما علمتُ بالهاتف من فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز أنهم لم يرسلوه إليكم، فطلبوا منا كتابة رسمية بذلك فكتبنا لهم، وقد جعلت أحد الإخوة يتابع الموضوع، وسأخبركم بما يجد حوله ـ بإذن الله ـ وأرجو أن تسألوا السفارة عما إذا كان وصلها شيء.

وفي ختام هذه الرسالة أجدد الشكر لفضيلتكم، وأسأل الله تعالى أن يمنحكم المزيد من القوة في الحق وينفع بعلومكم محبي الخير والعقيدة السلفية النقية، كما أرجو إبلاغ تحياتي لمن يكون عندكم من الإخوان، وخصوصًا محمدًا أبا الفضل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تلميذكم

محمد بن ناصر العبودي

* توفي الشيخ العلامة الدكتور محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي الحسني في الدار البيضاء في المغرب في يوم الثلاثاء الموافق ٢٥ شوال ألف وأربع مئة وسبعة، فرحمه الله رحمة واسعة، ورفع درجته في المهديين، وضاعف له الحسنات، وكفّر عنا وعنه السيئات.

وكان مولده في محرم من عام ألف وثلاث مئة وأحد عشر، أخبرني

بذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشافهة في المدينة، وبذلك يكون قد عاش (٩٧) سبعة وتسعين عامًا، إلا شهرين وأيامًا.

وكان عالمًا فاضلًا، باذلًا وسعه في الدعوة إلى الله سبحانه أينما كان، وقد طوّف في كثير من البلاد، وقام بالدعوة إلى الله سبحانه في أوروبا مدّة من الزمن، وفي الهند وفي الجزيرة العربية.

ودرّس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وله مؤلفات؛ منها «الهدية الهادية للفرقة التيجانيّة»؛ لأنه كان أول حياته تيجانيًّا، ثم خلّصه الله منها، ورد على أهلها، وكشف عوارها.

وقد خلَّف ابنين وبنتين أو ثلاثًا، وفقهم الله وأصلح حالهم، وقد صلَّى عليه جمٌّ غفيرٌ، ودُفِنَ في مقبرة الدار البيضاء، جمعنا الله به في دار الكرامة، وخلفه على المسلمين بأحسن الخلف.

وجزى الله أخانا الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان خيرًا عن جمعه لمراسلات ومقالات الشيخ الهلالي؛ ليطلع عليه الجيل الناهض من شباب الأمة، فيحذوا حذوه في جده، وجهاده العلمي، ومصابرته. وصلى الله على نبينا محمد.

مقدمة المحقق

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أما بعد:

فهذا كتاب نافع ماتع، جمع فيه مؤلفه بين النظم الهادف الرزين، والنثر الذي وصف فيه تجاربه ومعاناته في نشر العقيدة الصحيحة والمنهج السليم.

ونسبة هذا الكتاب لصاحبه يقينيّة، إذ طبع لأول مرة في حياته، والأحداث التي فيه تطابق ما في بعض رسائله ومقالاته، ونسبه لنفسه في عدد منها، انظر منها كتبي: «مقالات الهلالي»، «رسائل الهلالي» (٤/ ١٧٨٥ ـ ١٧٨٦/ الفهارس)، ونسبه له جل من ترجم له وهم كثر.

عاش صاحب هذا الكتاب من أجل نشر العقيدة الصحيحة، والدعوة إلى الكتاب وصحيح السنة، فدوّن فيه مواقفه مع المخالفين، وصبره عليهم، وجلده في مناقشتهم ومقاومتهم، ونصرة الله له، عند تقواه وصبره ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وفي كثير من القصص التي أوردها المصنف مُتعة وفائدة، ونهمة وشحذ للهمّة وللعلم والدعوة، وتجربة واستخلاص قاعدة، هي سنة لله ﷻ ماضية، لا تتخلف ولا تتبدَّل.

ومن خصائص الكتاب أيضًا: أنه أُلِّف بأسلوب سهل سلس جذاب ماتع، لا يمل قارئه، وفيه استطرادت حسنة مليحة، وفوائد لغوية وفقهية وتأريخية، ومعلومات عن كثير من البلدان والشعوب والقبائل والمشاهير الأعلام، وعن عاداتهم ولغاتهم وطباعهم، فهو حديقة غنَّاء يفيد في التفسير والعربية والحديث والفقه والأصول والعقيدة.

يحتاج الداعي إلى الله على بصيرة أن يستفيد من تجاريب الآخرين، وأن يقف طويلًا عن طريقة العلماء الربانيين في معالجة الشدائد والصِّعاب، وأن يكون على دراية بطريقتهم في الدعوة إلى الله تعالى، فإن الذي يبلو أمرهم، ويخبر شأنهم، يقدِّر المصلحة، ويحسن إحكام إسقاط القواعد الكلية على وَفْق المصالح التي فيها النظر إلى مآلات الأفعال، ولذا قال كليم الله موسى عليه السلام لنبينا محمد ﷺ:

«**بِمَا أُمِرْتَ؟ قال ﷺ: قلتُ: بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذلِكَ، إِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ. فَرَجَعْتُ، فَخَفَّفَ عَنِّي خَمْسًا، فَمَا زِلْتُ أَخْتَلِفُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى، يَحُطُّ عَنِّي، وَيَقُولُ لِي مِثْلَ مَقَالَتِهِ، حَتَّى رَجَعْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَأَتَيْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ. قَالَ إِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَدْ بَلَوْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ**». قَالَ: «**لَقَدِ اخْتَلَفْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، لَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ. فَنُودِيتُ: إِنِّي قَدْ أَجَزْتُ ـ أَوْ: أَمْضَيْتُ ـ فَرِيضَتِي، وَخَفَفْتُ عَنْ عِبَادِي، وَجَعَلْتُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا**»(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (٢٦٤) وأحمد (٤/ ٢١٠) والترمذي (٣٣٤٦) والنسائي في «الكبرى» (٣١٣) وابن خزيمة (٣٠١) من حديث أنس بن مالك.

ومنه يعلم أن لبلاء الناس والتجاريب الدعوية قيمة معتبرة عند موسى عليه السلام، ولم ينكرها نبينا محمد ﷺ.

والعلامة تقي الدين الهلالي من الأكابر المفنِّنين، كثير الأسفار، عطاؤه مبارك، وجهده مثمر، وأفلح في كونه قاسمًا مشتركًا بين السلفيين، وأن يربط بينهم، وأن يتواصل مع جميعهم، وأن يكون حلقة وصل بينهم، ويعرِّف بعضهم على بعض، على اختلاف أمصارهم وأقطارهم وتعدد اهتماماتهم وتنوّع اختصاصاتهم، وذلك من خلال رحلاته إلى كثير من بلاد الدنيا، فهو ممن زار أوروبا، مثل: ألمانيا ـ ومكث فيها ثلاث سنين ـ وفرنسا، وإسكتلندا، وبريطانيا، وإسبانيا، وبلجيكيا، وهولاندا، وسويسرا[1]، والهند، والباكستان، وأفغانستان، وكثير من البلاد العربية، وعاش فيها، مثل: المملكة العربية السعودية، والعراق، وبلده الأصلي المغرب، وزار الجزائر، وتونس، ومصر، وسوريا، ولبنان، والكويت.

ولاحظ هذا بعض المعاصرين الكنديين من الراصدين لعطائه وحركته في أطروحته للدكتوراه التي قدّمها لبعض أعرق الجامعات في واشنطن باللغة الإنجليزية، وهي بعنوان «عولمة الفكر السلفي من خلال فكر تقي الدين الهلالي».

قال الهلالي في بعض (مقالاته)[2]:

---

(١) أفاد الشيخ حماد الأنصاري ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقل عنه ولده عبد الأول في «المجموع» (٢/ ٥٩٨) أن صديقه الهلالي «قد سافر إلى السويد» قال: «وما ترك بلدًا إلا ساح فيه سواء شرقًا أو غربًا، وقد وصل إلى الصين، وشاهد في سياحته هذه أمورًا عجيبة كان يحكيها لي».
قلت: وصل إلى «البنغال» الهندية، وهي على الحدود الهندية الصينية، ولم يدخل الصين، ولا ذكر دخوله إياه في كتبه ومقالاته، والله أعلم.

(٢) هي (رحلتي إلى برلين) (الحلقة السادسة والأخيرة) نشرت في مجلة «الجامعة =

«بدأت في الأسفار منذ كان عمري أربع عشرة سنة، وخبرتُ حلوها ومرَّها، ومشيتُ على قدمي مع القوافل في السهول والجبال، وفي الليل والنهار، وركبت الخيل والإبل والبغال والحمير والفيل والسفن الشراعية والبواخر والعربات بأنواعها والسيارات والقطر والطائرات، وجرتْ عليَّ شدائدُ وأهوال».

وقال فيها أيضًا:

«سافرت من المغرب إلى كلكتا عاصمة بنغال في شرقي الهند، ورأيتُ أكثر شعوب آسية وإفريقية وأوربة...»[1].

وللهلالي في كتابه هذا مواقف في الدعوة إلى الله تعالى في مصر والمغرب والمملكة العربية السعودية والهند وأفغانستان وألمانيا، ولم يفصل في مجرياتها، وذكر ما علق بذاكرته منها، وله فيما أبهم أو أجمل مقالات فيها تفصيل شديد، وكان آنذاك قريب عهد بها، ولم يتسنّ له عند إملائه لمادة هذا الكتاب الوقوف إلا على اليسير منها.

* التعريف بالكتاب

أورد المؤلِّف الحوادث المتعلِّقة بالدعوة إلى الله تعالى، والاشتغال بالعلم، مما بقي عالقًا بذاكرته مما حصل له في بلاد عدة، وفي مواقف متنوعة، مع أشخاص محبين وشانئين، علماء وجهال، أغنياء وفقراء، مسؤولين كبار وعوام.

ففي هذا الكتاب إشارات إلى لقاءات مع ملوك ووزراء، وعلماء

= السلفية» المجلد الحادي عشر، العدد التاسع، شوال ١٣٩٩هـ - سبتمبر ١٩٧٩م (ص١٣).

(١) المقالة السابقة (ص١٠).

وأدباء، وصحفيين، وأصحاب قرار من مسؤولين وأمراء، مع قصص وحكايات؛ بثَّ فيه مؤلِّفُه آراءه في الإصلاح والتعليم، وقواعده في الدعوة إلا الله، رابطًا إياها ـ غالبًا ـ بنصوص الوحيين الشريفين، موظفًا كتائب الشعر في نصرة التوحيد والسنة، وهجو أهل الشرك والبدعة.

في هذا الكتاب إشارات إلى لقاءات عملية، ومواقف ميدانية، يحتاج لها الدعاة؛ لتكون لهم زادًا في صبرهم ونجاحهم والوصول إلى مبتغاهم من نصرة دين الله ﷻ، ونشر سنة نبيِّه ﷺ، وتحصيل المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها، مع التنويه على ضرورة التسلح بالعُدّة العلمية، والتحلِّي بالسمت الحسن، والصفح عن المخالف، وعدم التمحور حول مسائل، المغلوب فيها ليس بعدو، والغالب فيها لم يكسب كبير شيء!!

وفيه أيضًا: الحرص على توحيد الله ﷻ، وأنه الأصل في دعوة المخالفين، ويبذل في سبيله كل غالٍ ونفيس، وبالبدء به يحصل الاتباع للنبيين عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

يوجد في الكتاب أشعار لصاحبه، ربطها بالحدث الذي يسرده، بل لم يكن الباعث له على النظم في بعض الأحايين إلا هو، ونقل أشعارًا متنوعة ـ ولا سيما للمتنبي ـ ولغيره؛ وظَّفها في توضيح مراده، وتحصيل مقصده، وهي دالة على تضلُّع المؤلِّف في الأدب، ومعرفته بالشعر، ومقدرته الفائقة في النظم، وصنيعه هذا يُعَدّ مثالًا لمن سخر الشعر للدفاع عن عقيدة التوحيد ومنهج أهل السنة والجماعة.

وشهد له بذلك جمع من تلاميذه وعارفيه.

قال بعض تلاميذ الهلالي عنه: «كان شاعرًا عبقريًا، صَرَفَ جُلَّ شعره في الذود عن عقيدة التوحيد والسنة المطهرة، وهاجم بقوافيه البليغة أهل الشرك وأصحاب البدع، وأرسلها عليهم شُهُبًا محرقة، تدفع

باطلهم، وتقصف إِفكهم»[١].

ويقول بعض مترجميه:

«وللمترجَم ـ أي: محمد تقي الدين الهلالي ـ شعر كثير، قاله في أغراض مختلفة من مدحٍ وهجاءٍ ورثاءٍ وغيرها، ومعظمه يتعلَّق بشؤون الدعوة التي كانت تشغلُ باله، وتملك عليه وجدانه، ويبدو في شعره صادقًا قوي العاطفة واقعيًّا، يتتبع تفاصيل الموضوع، وربما يكون ذلك ممتزجًا بروح الدعابة والفكاهة والسخرية والتحقير، ولا يتكلف قول الشعر، وإنما يأتيه طوعًا، ويجري على لسانه وقلمه طبعًا، وهو مبثوث في كتبه، وقد نشر بعضه في الصحف»[٢].

للهلالي في كتابه هذا نظرياته في الإصلاح والتربية والتعليم، ومواقفه من الأحداث السياسية الجسيمة، ورأيه في كثير من الشخصيات والأحداث العالمية، ويعدّ كتابه هذا وثيقةً تأريخية حافلة، فيه ومضات للتأريخ السياسي لبعض الدول، والانقلابات التي جرت فيها، وهو حافل بمواقف المؤلف فيما يخص كفاحه السياسي الطويل في مقارعة الاستعمار، وفيه أيضًا مواقف متعددة مع كثير من العلماء، وبيان مواقفهم من أحداث ذلك العصر، مقرونًا بهمومهم وقضايا الأمة الإسلامية على حسب حاجة بلدانهم آنذاك، وهذا لون آخر من كفاح الهلالي في ميدان الإصلاح، جدير بأن يفرد بالتأليف.

---

(١) مجلة «صوت الأُمَّة» الهندية، المجلد الأول، العدد الثاني، شعبان ١٤٠٨هـ يوافق إبريل ١٩٨٨ م، (ص٤٧)، من مقال بعنوان: «خاتمة شاهد قرن، كيف ودَّعت المغرب العالم المجاهد د. محمد تقي الدين الهلالي»، ولم يذكر فيها اسم صاحب المقالة!

(٢) «الحركة العلمية والثقافية في تطوان من الحماية إلى الاستقلال (١٣٣١ ـ ١٣٧٦هـ ـ ١٩١٥ ـ ١٩٥٦م)» للأستاذ إدريس خليفة (٢/ ٦٦٥).

ولا يخلو الكتاب من شذرات وومضات في تراجم كثير من الأعلام، وبيان صلة المصنف بهم، وأبرز عواطفه وآرائه تجاههم من غير تكلّف أو مجاملة!

وأخيرًا لا يخفى ـ إن شاء الله تعالى ـ على القارئ أنه ترجمة لعالم وأديب ومصلح ورحالة وشاعر ومحدِّث ومفسِّر، مع سياق حياته العلمية والعملية المفعمة بالذود عن الشرع الشريف، والمناداة بالعقيدة الصحيحة، ونقاء الدين من البدع والخرافات، وهي حافلة بالحِكَم والأمثال المستخلصة مما تعلّمه من الحياة، وفي بعضها بيان علاقاته مع علماء الوقت، وزعماء الإصلاح، وروَّاد الحياة، وفيها ما يكشف عن طبيعة حياته غنًى وفقرًا، وسقمًا ومرضًا، وسخاءً وجودًا، وترفُّعًا وعِفَّةً، وفيها ما يعرِّفنا بمجريات مراحل حياته في سنين مختلفة في أقطار متعددة، وفيها ما يمثِّل تشوقه إلى بلاده وهو في بلاد الغربة.

أفاد الهلالي كثيرًا في كتابه هذا: علمًا، وتربية، وخلقًا، ومعرفة، وأدبًا، ولغة، فنوّه على كثير من الأخطاء الشائعة في عصره، ولا تقِلُّ إفادته عن استفادته من رحلاته، ولقائه بالعلماء، وقراءته عليهم، وإجازته منهم، وتلاقح أفكاره مع مفكريهم ومصلحيهم، وتسديده لهم، وتعلّم لغتهم، ولا ينبغي أن يفهم أن المنهج الإصلاحي ونظرياته في التعليم والدعوة إلى الله مقتصرة على ما في هذا الكتاب! بل له مقالات في هذا المجال، حلَّق فيها إلى السماء، وأفاد فيها غاية وأجاد، وهي ـ ولله الحمد والمنة ـ مجموعة في كتابي «مقالات الهلالي».

* خدمتي للكتاب

سنح في بالي عند تفرغي لخدمة تراث تقي الدين الهلالي أن أبدأ بكتابه هذا «**الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة**»، فقرأتُه، فاحترتُ في حصر

أوجه خدمته، وإفادة القراء منه، فوجدته يسرد أحداثًا، يعتريها خفاء، ويقصّ قصصًا يلمِّح بأسماء أصحابها، ويعتذر كثيرًا على عدم تذكره لما يقول، ويبهم ويعمِّي، ويسرد سردًا شيِّقًا، ويعسر تدارك ذلك، إذ لا يحيل على مرجع، ولا يستطيع الباحث تحديد الترجمة التي يريد، فهو يذكرها باسمها الشهير من غير تفصيل أو تدقيق!

فقررت أن أؤجِّل خدمته بعد إلمامي بتراثه، والوقوف على خبايا حياته، والتدقيق في أوراقه وعلاقاته، وجمع كتبه ومقالاته، وبحثها والنظر فيها بإحاطة وعمق.

*** تعليقات العلامة أبي أويس محمد الأمين بوخبزة(١) ـ متع الله به ـ**

علمتُ في أول مشواري مع تراث تقي الدين الهلالي أن العلامة الحسيب النسيب مجيزنا فضيلة الشيخ محمد الأمين بوخبزة الحسني ـ حفظه الله تعالى ـ من تلاميذ العلامة تقي الدين الهلالي، وكان على علاقة حسنة معه عند استقرار الهلالي في المغرب، وكان من المقربين له، العارفين بأحواله، الملمِّين بالأحداث التي حصلت معه في كتابه هذا، فراسلته وهاتفته، وأسعفني ـ أحسن الله إليه ـ بما يفيدني، وتفاجأتُ من دقته وشدة عنايته بتراثه، وتفاجأ هو بحسن تتبعي، وتنقيري عن تراثه، حتى قال لي مرة: (**لو بعث التقي الهلالي من قبره لذكّرتُه بأمورٍ قد نسيها**)!

ومن المفيد النافع الماتع أن فضيلة الشيخ بوخبزة له تعليقات من رأس القلم على هذا الكتاب، وأرسلها لي قديمًا، قبل ما يزيد على خمسة عشر عامًا من الآن!

ثم في هذه الفترة تواصلت مع مجموعة من طلابه الأفذاذ، ووجدت

(١) رمزت لها بحرف: (خ)، وانظر نماذج منها في (الملاحق) المرفقة آخر الكتاب بالأرقام (٢، ٣، ٤، ٥).

أن بعضهم[1] اعتنى بهذه التعليقات وأدخلها الحاسوب، وزاد عليها تعريفًا بما أجمله شيخه أبو أويس، خصوصًا فيما يتعلق بالتراجم المنوّه بها.

فعملتُ على مقابلة ما نضده مع المرسل إليَّ من فضيلة الشيخ، وأثبتُّ ذلك في أماكنها من الحواشي.

* أوهام الشيخ تقي الدين الهلالي

تشتمل تعليقات الشيخ العلامة بوخبزة على تصويب الأخطاء المطبعية في الكتاب، وعلى بيان أوهام وأخطاء وقعت للهلالي في تأليف كتابه، وهي تخصُّ أسماء أشخاص أو مراتبهم، أو أسماء بعض الأماكن.

لم يتعنّ أبو أويس في الاستدراك، إذ دوَّن من حافظته ومعرفته، وجلها تخص بلده المغرب، والمشايخ الذين لهم ذكر فيها، أو الشخصيات وأصحاب المناصب الذين ذكرهم الهلالي على وجه لا يوافق الحقيقة.

ولا أكتم القارئ أني استفدتُ من صنيعه، وفتح لي الباب، وقدّرت أن يكون قد وقع له نحو ذلك في المادة المتبقية من الكتاب؛ ووجدتُ ذلك واقعًا من غير دافع، فأكملت العناية بهذا النوع كما تراه في عدد من الحواشي، والله الواقي والهادي.

* لماذا وقعت الأوهام في كتاب الهلالي؟

صرح تقي الدين الهلالي في آخر هذا الكتاب أنه أملاه من ذاكرته، فقال:

---

(١) هو الأستاذ عادل خزرون حفظه الله تعالى، ورمزت لتعليقاته بحرف (ع)، ومن الجدير بالذكر أن ما وجدته عند الهلالي في مقالاته، وكتبه الأخرى، اكتفيت به، دون التعليقات المنوه بها، والله الموفق.

«هذا ما حضرني من الحوادث المتعلِّقة بالدعوة إلى الله، والاشتغال بالعلم، أمليتُه مما بقي عالقًا بذاكرتي بعض مضي عشرات السنين، وتركت كثيرًا من الحوادث التي لا تمتُّ إلى الغرض المقصود بصلة».

ثم قال بعد ذلك: «وكان الفراغ من إملائه مساء يوم السبت بمنزلي بالمدينة النبوية لاثنتي عشرة[1] خَلَوْن من ربيع الثاني سنة **١٣٩١**هـ من هجرة النبي الأكرم ﷺ، والحمد لله رب العالمين».

* تأريخ تأليف الكتاب

ألّف الهلالي هذا الكتاب إملاءً؛ إذ كان نظره لا يساعده على الكتابة[2] فأملاه في منزله بالمدينة النبوية لاثنتي عشرة خلون من ربيع الثاني سنة **١٣٩١**هـ.

ومن المفيد أن العلامة أبا الحسن النّدوي استفسر من شيخه العلامة

(١) ظفرت برسالة للهلالي مؤرخة في **١٣/ ٤/ ١٣٩١** أنه فرغ من كتاب الدعوة إلى الله، قال: «ولكن لا ندري متى يتيسر طبعه». بيد أنه أفاد في **٩/ ٣/ ١٣٩١** في رسالة كتبها لزهير الشاويش: «وأنا الآن أشتغل بتأليف كتاب سميته «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة» أرجو الله أن يعينني على إتمامه وإرساله، لتروا رأيكم فيه». وهكذا قال في **٢٧/ ٣/ ١٣٩١** وزاد: «وضمنته كل ما بقي في ذاكرتي مما وقع لي في أقطار مختلفة في أثناء دعوتي إلى الله، منها: مصر والمغرب والعراق والهند. وقد ذكرتُ فيه أخانا وصديقنا سماحة الحاج أمين الحسيني. وأنا أفكر في طبع هذا الكتاب، أين يكون؟ وبماذا يكون؟»، ثم أفاد في رسالة أخرى لأخيه محمد العربي أيضًا مؤرخة بـ **٦**/ رمضان/ **١٣٩٥**هـ - **١١/ ٧/ ١٩٧٥**م أن هذا الكتاب قد طبع، انظر كتابي: «مراسلات الهلالي» (**٢/ ٦٢٧، ٣٦٦، ٧٧٠، ٧٧٢**).

(٢) شكى الهلالي فقدان بصره بالكلية نحو سنة **١٣٩٤**، انظر «مراسلات الهلالي» (**١/ ١٢١**)، واتخاذه للكاتب كانت عادة عنده في جميع البلدان، انظر «المراسلات» (**٢/ ١٢١**).

الهلالي عن معنى (خلون) في هذا السياق، فأجابه في ١/ ١١/ ١٣٨٧ بقوله:

«إذا كنا في اليوم الرابع من شعبان نقول: كتب هذا الكتاب لأربع خلون من شعبان؛ لأن المقصود بالأربع الليالي، لا اليوم المصطلح عليه ـ وهو أربع وعشرون ساعة ـ، وإذا كنا في اليوم السابع والعشرين نقول: كتب لليلتين بقيتا من شهر كذا وكذا، ولا نقول لثلاث؛ لأن الشهر تسع وعشرون ليلة، والدليل على ذلك ما في «الصحيحين»: أن النَّبِيَّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ آلى من نسائه؛ فبقي في المشربة تسعة وعشرين يومًا؛ فقيل له في ذلك، فقال: «**الشهر تسعة وعشرون يومًا**»[(١)]، وهذا هو المحقق في الشهر، واليوم الثلاثون مشكوك فيه»[(٢)].

وذكر الهلالي في أول كتابه هذا أحداث سنة **١٣٤١**هـ، فالمدة بين بعض أوائل الأحداث فيه إلى تدوينها نحو خمسين سنة، ولذا تردد الهلالي في بعض الأسماء، وصرح بنسيانه لبعضها، وأبهم أشياء صرح بها في مواطن أخرى، لما دوَّن الحادثة إبان قرب عهده بها.

وهذا هو سبب وهمه في بعض الأسماء والأحداث، وعلَّق بعضها دون تأريخ، ولم يعرِّف بكثير من الأسماء على وجه مقنع!

* مصادري في التعليق على الكتاب وتوثيق الأخبار

عشت مع العلامة الهلالي أكثر من عقد من الزمان، أتتبع أخباره، وألملم آثاره، وكان أكثرها صعوبة عندي (مقالاته) المنتشرة في الجرائد

---

(١) أخرجه البخاري (١٩١٠) ومسلم (١٠٨٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) «رسائل الهلالي» (٢/ ٩٤٥).

السيّارة، والصحف الطيارة، وقد كتب في عشرات منها، ونشر مقالاته في عدد كبير من البلدان، مثل: الهند، وأفغانستان، وباكستان، والمغرب، ومصر، والعراق، والجزائر، وسوريا، وفلسطين، والكويت، والسعودية، ونشر بعضها باللغة الإنجليزية والألمانية والإسبانية، وأدخلت ما وقفت عليه ـ وهو كثير ولله الحمد ـ على الحاسوب، وصنعت للمقالات هيكلًا على المواضيع.

ويسّر الله ﷻ لي ـ بمنه وفضله وإنعامه ـ جمع مراسلاته، وتحقيق «ديوانه» المسمَّى «منحة الكبير المتعالي»، و«تفسيره»[1] المسمى «سبيل الرشاد»، وشرحه على اختصاره لـ «صحيح البخاري» المسمى بـ «الزند الواري والبدر الساري في اختصار وشرح صحيح البخاري».

واعتنيت بالدراسات التي كتبت عنه، وبأخباره التي نشرت في المجلات والجرائد[2]، فكانت هذه عدّة متينة، وذخرًا قويًّا لخدمة كتابنا هذا.

* طريقة تأليف الهلالي لكتابه

سبق قريبًا أن الهلالي ـ على حدّ تعبيره ـ فرغ من إملائه مساء يوم السبت. . . بمنزله.

هكذا قال ولم يفصِّل: على من أملاه، ولا ذكر تأريخ طبعه، وكيفيته.

لا أظن أن الهلالي أملى الكتاب بتمامه من حفظه، وإنما أملى أحداثه، وعنده قصائده مدوّنة، ولعل بعض أحداثه كذلك، وأرشد مَنْ

(١) هو درة فريدة في شرح آيات العقيدة، وقسّمها على أنواع التوحيد: الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، والاتباع.

(٢) «مراسلات الهلالي» (١/ ١٦٠ ـ ١٦١).

أملاه عليه، كيف يصنع في ترتيبه، وتمّ نشره، دون مراجعة، فوقعت فيه بعض الأخطاء المطبعية.

ومكث الهلالي فترة في تأليفه وتخللها أعماله العلمية والدعوية، فها هو يكتب للسيد محمد الزمزمي:

«وكنت قد بدأت في تأليف كتاب... سميته «**الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة**» ووصلت فيه إلى (باب الدعوة إلى الله في تطوان)، فذكرت في هذا الباب ما هو معلوم عندكم من الخصومة التي وقعت على صفحات صحيفة «الأخبار»، وأثنيت عليه وبينتُ دلالته على فرية عبد الحي، واجتهدت أن لا أنزل معه إلى دركته في المهاترة، وإنما أقتصر على إبطال دعاويه، وكنت قد عزمتُ على أن أردّ عليه فيما اتهم به الحنفاء ردًّا عنيفًا. فلما اشترط عليّ رئيس الجامعة أن أقتصر على المسائل العلمية عزمتُ على جعل تقريعه خاصًّا بكتاب «الدعوة إلى الله»»[1].

ويغلب على ظني أنه أملاه على تلميذه الشيخ الأستاذ محمد المانع السليمي، الذي رافق شيخه العلامة الهلالي أربع سنوات، وكان إملاء الهلالي إبان تلك المرافقة.

قال الأستاذ محمد صالح حمزة عسيلان في كتابه «شخصيات متميِّزة في مجتمع المدينة المنورة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري» (**٢/ ٦٢٨ ـ ٦٢٩**) في ترجمة التلميذ الشيخ (محمد المانع السليمي):

«وسأعرج بالقارئ الكريم إلى هذه الوقفة، التي أتناول خلالها إسهامًا يعدُّ هامًّا وبارزًا، كما أنه يمثِّل البعد الفكري لهذا العَلَم، فعلى

(١) «مراسلات الهلالي» (١/ ١٦٠ ـ ١٦١).

الرغم من زخم المسؤوليات في عمله الصباحي بالجامعة، ومسؤولية إعالة الأسرة، إلّا أنه كان يفرد من وقت راحته في فترة ما بعد العصر حتى صلاة العشاء، يرافق علمًا بارزًا من رجالات العلم، إنه الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الذي كان له حلقة في المسجد النبوي الشريف في عهد الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، يدرِّس فيها عددًا من فروع العلوم الدينية من فقه وتفسير وخلافه، وها هو هذه القامة السامقة يمنح شخصيتنا الشهادة المرفقة التي عطر بها الفترة الزمنية التي عاشها معه والتي بلغت أربعة أعوام.

وقد أشارت هذه الشهادة بإيجاز إلى المهام التي كان يؤديها شخصيتنا لهذا العلم الذي عرفته ساحات العلم الشرعي.

أقول هذه المهام هي أنه اتخذه كاتبًا وأمينًا على جميع أموره، لأنه لمس فيه حسن الاستقامة ومكارم الأخلاق مما عد أمرًا بارزًا في ذلك الزمن وزماننا هذا.

وهذه صورة إملاء الهلالي لذلك بخط تلميذه السليمي[1]:

الحمد لله رب العالمين، الذي يهب ما شاء لمن شاء من عباده المؤمنين من الأرزاق الحسية والمعنوية، وأهمها الخُلُق الكريم والدين المتين. وصلِّ الله على عبدك محمد الداعي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله الذين ساروا على نهجه القويم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فأقول: إن الشيخ محمد المانع السليمي ـ الذي هو بمقام

---

(١) يلاحظ أن ما أملاه الهلالي من قوله بوجوب إعفاء اللحية، وتراجعه عن القول بالسنِّية، كما تراه آخر الكتاب مع (ملاحقه) بخط السليمي أيضًا في النموذج رقم (١٢)، يعرف ذلك من عرض هذا الخط على ذاك، وينظر نموذج رقم (١٣) من (الوثائق) المرفقة آخر الكتاب.

الابن البار أو أفضل منه ـ اتخذته كاتبًا وأمينًا على جميع أموري زهاء أربع سنين، فرأيت من استقامته وصدقه وحسن سمته ما يندر نظيره من أبناء هذا الزمان، ولذلك أكتب له هذا الكتاب ليكون تذكارًا له وليطَّلع غيره على ما آتاه الله من مكارم الأخلاق، وإني أوصيه بتقوى الله في السر والعلانية، وأن يدعو لي في أوقات الاستجابة، وأسأل الله تعالى أن يبارك له في الإيمان ويوفقه للطاعات، ويبارك له في الأبناء ويجعلهم قرة عين، وفي المال. والدعاء بهذه الأمور هي سنة النبي ﷺ، فقد دعا لخادمه أنس بن مالك فقال: «**اللهم أكثر ماله وولده وأطل عمره**»[١]. فكان أكثر الناس مالًا في البصرة وأكثر الناس ولدًا، وأطال عمره إلى أن عجز عن الصيام، وكان في السنتين الأخيرتين من عمره إذا أقبل رمضان جمع ثلاثين مسكينًا وأشبعهم خبزًا ولحمًا، وأكل رمضان كله، فأنا أيضًا أدعو لمحمد المانع بالإيمان والتقوى وبطول العمر وكثرة المال والولد، كما فعل النبي ﷺ. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أملاه: محمد بن عبد القادر الهلالي.

ليلة الثلاثاء لثلاث بقين من شوال سنة أربع وتسعين وثلاث مئة وألف من هجرة النبي الأكرم ﷺ.

قال أبو عبيدة: تأريخ هذا الإملاء ـ كما رأيت ـ في **٢٦/ ١٠/ ١٣٩٤هـ** وفيه أنه اتخذه أمينًا وكاتبًا من أربع سنوات خلت، أي في نحو **٢٦/ ١٠/ ١٣٩٠م**، وتأريخ إملاء الهلالي لكتاب «الدعوة إلى الله» في **١٢/ ٤/ ١٣٩١هـ**، فكان الشيخ محمد المانع السلمي وقتها كاتبًا له[٢]،

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٤).

(٢) بقي الشيخ محمد المانع كاتبًا للهلالي إلى نحو سنة ١٤٣٠هـ، ثم أصبح كاتبه ابن عبد السلام الصغير، انظر: «مقالات الهلالي» (٢/ ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٧).

والله أعلم، ثم يسر الله ﷻ لي بالمساءلة التي دامت سنوات أن أتعرَّف على هذا الشيخ، ومن حسن حظنا أنه يتذكر بعض ما جرى له. وأن ولده عبد الرحمٰن كان يصحبه في لقاءاته مع الهلالي، وأفادنا ـ حفظه الله تعالى ـ بالنافع المفيد عن الهلالي، ولم أجد بعضه إلا عنده، فجزاه الله خيرًا.

* عملي في الكتاب

لم أدّخر وسعًا في خدمة هذا الكتاب، ولم أتعنّ ـ ولله الحمد ـ في ذلك. فقرأتُه، وكانت تقفز كثير من مادة الكتاب والأحداث المذكورة فيه إلى ذهني، وأكشف عنها في كتب الهلالي التي خدمتها، أو «مقالاته» التي جمعتُها، وأرجع إليها، فأعرض ما في الكتاب عليها.

وكنتُ ألحظ من خلال ذلك أمورًا، أهمُّها:

١ ـ الإجمال في كتابه هذا، والتفصيل والإسهاب في الكتب الأخرى أو المقالات، فكنت أشير إلى ذلك في التعليق مرة، وأثبت الإسهاب إن كان له صلة في (الدعوة إلى الله).

٢ ـ الإبهام في الأسماء ـ سواء كانت في أسماء الأشخاص أو البلدان أو الصحف أو الكتب أو المدارس أو غير ذلك ـ فحرصتُ على إثبات ما يزيله في الحاشية.

٣ ـ التأريخ؛ أثبتُّ في الحواشي ما أهمل الهلالي تأريخه من أحداث ساقها في الكتاب، وصرَّح به في غيره.

٤ ـ حذف بعض الأبيات من الشعر في بعض القصائد، فقد تقصد الهلالي غالبًا الحذف لغرض اقتضاه ذلك الزمن لملابسات معيّنة، ثم صرح به في مقام آخر، فالذي وجدته أثبته في الحواشي. وتبيَّن لي من

خلال عملية العرض مخالفات بين ما كتبه وهو حديث عهد بالحادثة، وما في هذا الكتاب، فنبَّهتُ على الفروق.

ووجدت الأخطاء على النمط الذي نبه إليه العلامة بوخبزة فيما بيّناه سابقًا. ومن نافلة القول: التنوية في خدمتي للكتاب بالأمور الآتية:

الأول: ضبطت نصَّه، وشكلتُ المشكل.

الثاني: خرجتُ أحاديثه من رأس القلم، وإن طوّلت، فلغرض اقتضاه المقام.

الثالث: عزوت النقولات إلى أصحابها.

الرابع: ترجمت للأعلام المذكورين فيها، واكتفيت في المشاهير بالإحالة على مصادر ترجمتهم، وبيّنتُ علاقة تقي الدين الهلالي معهم، ومراسلاته لهم، ورأيه ـ إن وجد ـ فيهم.

الخامس: عزوت الأشعار الموجودة فيه إلى قائليها.

السادس: اعتنيتُ عناية خاصة بأشعار الهلالي، فضبطها، وعلقت عليها مبيّنًا اسم القصيدة، أو أسماءها، ومناسبة نظم الهلالي لها، مع بيان أماكن وجودها في كتبه ومقالاته، وبيان الفروق البارزة بينها.

السابع: ألحقت بالكتاب وثائقَ وصورًا متنوعة لها صلة وثيقة بمادة الكتاب.

الثامن: أثبت ترجمة الهلالي بخطِّه في أوله، مع مصادر ترجمته على وجهٍ حاولت فيه الاستيعاب قدر وسعي.

التاسع: ما زالت شخصية الهلالي تحتاج إلى دراسة من جوانب كثيرة، وإبراز جهوده في التربية والترجمة والتحقيق، وصورته في نَظَرِ

عارِفيه، ممَّا يُفيد جديدًا على الدراسات القائمة حوله، وسيأتي التعريف الجملي بها.

وأحسب أخيرًا، أن خدمتي للكتاب زادته أهمية، وكمَّلته وجمّلته ووضّحته وصحَّحتُه، وليس هي من الترف في تطويل الحواشي، وتثقيل الكتاب بها، ولا سيما أن الكتاب قبل هذه الطبعة[1] لم ينشر نشرة علمية خالية من الأخطاء المطبعية، فضلًا عن هذه الزيادات المهمة، هذا والله أعلم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتب

أبو عبيدة مشهور بن حسن

آل سلمان

عمَّان ـ الأردن

(١) رأيت لهذا الكتاب عدة طبعات، منها: الطبعة الأولى، نشرت من غير تأريخ، عن دار الطباعة الحديثة ـ الدار البيضاء، أفاده الهلالي في «مراسلاته» (١/ ١٧٧) وكان ذلك في حدود سنة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م فيما أفاده الهلالي في «مراسلاته» (٢/ ٦٣٣) أيضًا، وفي آخرها (٢٢٣ ـ ٢٢٥) جدول بتصويب الأخطاء المطبعية، ثم نضدته دار الفتح ـ الشارقة، ونشرته لأول مرة سنة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، وزادت من كيسها على الغلاف تحت العنوان (تجربة ذاتية)، ويقع في (٢٩٦) صفحة، ثم نشرته دار الهداية ـ المغرب.

ثم نشرته مكتبة الصحابة ـ الإمارات سنة ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م في (٢٩٥) صفحة، وفي أولها (ص٣ ـ ٦) ترجمة موجزة للمصنف.

نبذة من ترجمة المؤلف(١)
مع مصادر ترجمته

(١) من أغنى وأجمع مصادر ترجمة تقي الدين الهلالي: كتبه ومقالاته ومراسلاته وفتاويه، فهو كثير الاستطراد فيها، وكثير الحديث عن نوادره وأعلام عصره، وظهر ذلك في المقالات على وجه أظهر وأكثر، وقد جمعت منها ـ ولله الحمد ـ لغاية تدوين هذه السطور نحو تسع مئة مقالة من مجلات وصحف وجرائد عديدة، سيأتي تسمية بعضها، وفي بعضها مساس لصيق بحياته وترجمته، مثل: «آراء وأحاديث مع الدكتور تقي الدين الهلالي» نشرت في مجلة «دعوة الحق» المغربية، السنة الأولى، العدد الثالث صفر ١٣٧٧هـ ـ سبتمر ١٩٥٧م (ص٢٤ ـ ٢٦)، ومنها «شخصية علمية وأدبية للعالم الإسلامي الدكتور السيد تقي الدين الهلالي المراكشي»، نشرت بالأردية في مجلة «الاعتصام» غوجرا نواله الباكستانية على حلقتين، الأولى في ٢٨ سبتمبر ١٩٥١م والأخرى في ٥ أكتوبر سنة ١٩٥١م، وحاوره الأستاذ محمد إسحاق، وله محاورات ومحادثات ولقاءات منشورة مفيدة في ترجمته، ومن المصادر الغنية في ترجمته «رسائله» الشخصية، ونشرتها في أربعة مجلدات، وجمعت فيه (٥١٩) رسالة مُوجَّهة إلى (١٥٥) جهة، من رئيس وعالم ومصلح وسياسي وصحفي وطالب علم.

ومصادر ترجمة الهلالي كثيرة متناثرة، وما زالت منها بقية في ذكريات كبار تلاميذه وأبنائه وذويه ومن كان قريبًا منه، وحصلت على شيء من ذلك من خلال مراسلات ولقاءات أجريتها مع غير واحد منهم، وكتب لي العلامة محمد بن ناصر العبودي ترجمة مطولة له، وله معه ذكريات، وله قصيدتان لا توجدان إلا عنده، وسقتُ واحدة فيما تقدم. وظفرت للهلالي بترجمة بخطه، كان قد كتبها بطلب من الشيخ سليمان بن عبد الرحمٰن الصنيع، وهي =

= محفوظة في جامعة الملك سعود، أرسلها إليَّ الأخ عبد الإله الشايع حفظه الله في ١٤٢٦/٨/٢٤هـ ترى رسم ما فيها عقب هذه الترجمة، وأرفقتُ مصوَّرتها في النموذج رقم (١) آخر الكتاب.

وأُجْرِيَتْ معه ـ أي: الهلالي ـ مقابلات عديدة نشرت في غير صحيفة، تفيد كثيرًا في ترجمته، وهي ـ ولله الحمد ـ مجموعة في أول كتابي «مقالات الهلالي».

وذكر تلميذه محمد بن عودة في مقالة نشرها في جريدة «العلم» المغربية بتأريخ ١٤ محرم ١٤٠٨هـ ـ ٩/٩/١٩٨٧، السنة (٤١) العدد (١٣٥٥٣) (ص٨) ما نصه: «وفي بعض صحواته أثناء ذلك المرض، قلت له: أرجو منك يا دكتور أن تملي عليَّ بعد شفائك ـ إن شاء الله ـ من مرضك ترجمة لحياتك حتى أكتبها، فقال: لا، بل أُمليها عليك الآن؛ لأني لست أدري: هل هناك متسع من العمر لذلك؟ وقد كتبتُ نحو الستين ورقة، وذلك في ثلاثة أيام، وشفي بعدها، واشتغلنا بكتابة الرسائل والرد على ما وصل إليه منها في مختلف الأقطار والأمصار، ولم أعد لكتابة شيء بعد ذلك من المذكرات، وأذكر أننا وصلنا إلى تجوله عبر العالم في مدينة تونس، وعمره ١٣ سنة، وقد حفظ القرآن الكريم، وقد ضاعت مني الكراستان للأسف الشديد».

ومن الدراسات الجذرية عنه: دراسة مخلص السبتي المنشورة عن المجلة المغربيّة لعلم الاجتماع السياسي سنة ١٩٩٣م في (١٦٣) صفحة بعنوان «السلفية الوهابية بالمغرب، تقي الدين الهلالي رائدًا»، وسجّل عدد من الباحثين في الجامعات العالمية وغيرها (أطروحات) عن حياته وفكره وعلمه، منها ما نوقش في الجامعة الإسلامية (رسائل ماجستير) عن دراسات تخص جانبًا من حياته:

الأول: أخونا الأستاذ خالد الزهراني وعنوان دراسته: «محمد تقي الدين الهلالي وجهوده في الدعوة إلى الله»، وكان مصدره الرئيس فيما كتب: هذا الكتاب «الدعوة إلى الله».

والثاني: أخونا الأستاذ عبد الرحمٰن العميسان، وعنوان دراسته: «جهود محمد تقي الدين الهلالي في تقرير عقيدة السلف والرد على المخالفين».

وأخبرتني الأستاذة الدكتورة خولة ابنة الشيخ الهلالي أن بنتًا لأخت لها تعد رسالة ماجستير أيضًا، وهاتفتُ أمَّها في الجزائر، وأخبرتني أن ابنتها زينب عبد الكبير البكري تعد رسالة عن الشيخ الهلالي وترجمته لسورة يوسف مقارنة =

= مع ترجمة أخرى، ثم نُمي إليَّ عدولها ـ بعد ـ عن إتمامها، وظفرتُ لأبيها الأستاذ عبد الكبير البكري مقالة جيدة عن الهلالي بعنوان «نجم أفل» نشرت في جريدة «الميثاق» المغربية فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ، في العدد (٥٣٨) لسنة (٢٤) (ص٥). وهناك أطروحة دكتوراه عن حياة الهلالي وفكره، نوقشت في جامعة جورج تاون بأمريكا، باللغة الإنجليزية، وهي بعنوان: «تطور السلفية من خلال حياة وفكر محمد تقي الدين الهلالي» للوزري هنري الكندي، ثم نشرها، وهي باللغة الإنجليزية.

وأعد الطالب فارس كمبودي رسالة ماجستير بعنوان: «الدراسات اللغوية لمحمد تقي الدين الهلالي وأثرها في تحليل الخطاب الديني» عن جامعة منتوري ـ قسنطينة ـ الجزائر.

وألف الأستاذ علي بن أحمد الريسوني كتابًا بعنوان «تقي الدين الهلالي شفشاويًّا» أخبر به بعض إخواننا في لقاء علمي أجراه معه في ٧ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ ـ ٣/ ٤/ ٢٠٠٩ م، ولعبد الصمد العمراوي المغربي «الإسلام المنقى الصحيح، أطوار حياة تقي الدين الهلالي وآثارها في فتاويه ١٨٩٧ ـ ١٩٤٧م» أطروحته للعالمية في جامعة ليدن ـ هولاندا، قدمها في ٦ مايو ٢٠١٥م باللغة الإنجليزية.

وأما ترجمته في الكتب فهي كثيرة جدًّا، يصعب حصرها، من مثل: «تحفة الإخوان بتراجم بعض الأعيان» (ص٦٩ ـ ٧١) للعلامة ابن باز، رتبه واعتنى به: عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم، و«التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين» (ص١٢٣، ١٢٤) «معلمة المغرب» (١٠/ ٧٥١٩ ـ ٧٥٢٠) و(٧/ ٢٢٦٨)، «إمارة الزبير بين هجرتين» لعبد الرزاق عبد المحسن الصانع وعبد العزيز عمر العلمي، وفيه (٣/ ١٨٧ ـ ١٨٨)، وفي مواطن متفرقة منه ومضات تخصُّ الهلالي، انظرها في (٣/ ١٤٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٣٢٦)، «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٨٣ ـ ٢١٧)، «من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة» (ص٤٨٥ ـ ٤٩٦)، وكان قد نشر ما يخص الهلالي في مجلة «المجتمع» عدد (١٢٩٨)، «ذيل الأعلام» (١/ ١٧٠، ١٧١)، «إتمام الأعلام» (ص٣٤٦)، «الحركة العلمية والثقافية بتطوان من الحماية إلى الاستقلال» (٢/ ٦٦٢ ـ ٦٦٧)، «من أعلامنا تراجم لبعض أعلام المسلمين ممن توفي في عامي (١٣٩٥ ـ ١٤١٩) أو ما بينهما» لعبد العزيز بن صالح العسكري (٢/ ١٦٣ ـ وما بعد)، «مجمع =

= الفضائل والفواضل، نخبة الأجلة والأماكن، مولانا محمد عبد الرحمٰن مباركفوري» (ص٥٠٧ ـ ٥٠٨) (بالأوردو)، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، سنة ٢٠٠٩م، فيه ترجمة في (٤٢) صفحة، «أعلام وعلماء عايشتهم» (ص٨٠ ـ ٨٢) لإسماعيل بن سعد العتيق، «لمحات من الماضي» (ص٣٣٢ ـ ٣٣٤) لعبد الله الخياط، ومجلة «التوحيد» المصرية، العدد ١٠ سنة ١٤٢٨هـ بعنوان (فضيلة العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي رحمه الله، الدعوة إلى الله في أقطار شتى وبلاد مختلفة (١٣١١ ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٨٩٢ ـ ١٩٨٧م)، وفي صحيفة «الميثاق» المغربية العدد (١٣٨) السنة (٢٤) فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ مقالة (وفاة الدكتور تقي الدين الهلالي)، وجريدة «الجزيرة» السعودية، العدد (١٠١٢٣) بتأريخ ١٣ ربيع الأول سنة ١٤٢١هـ. وفي كتاب «المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد الأنصاري رحمه الله وسيرته وأقواله ورحلاته» (٢/ ٥٩٢، ٥٩٨، ٦٠٤، ٦٠٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦٢٨، ٦٣٣، ٦٥٥) إضاءات مهمة عن حياته، وهنالك ومضات وإفاضات وإضافات في ترجمته في كتب أخرى، مثل: «ذكريات الطنطاوي» (٤/ ٤٦)، «جولات في الفكر الإسلامي»، «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث» (ص٨٥، ٨٦، ٩٥، ٩٦) كلاهما لصديقه العلامة عبد الله كنون رحمه الله، «حياة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وآثاره» (ص٧٢)، «فتح الجليل في ترجمة وثبت شيخ الحنابلة عبد العزيز بن عبد العزيز العقيل» (ص٩٥، ١٧٤، ٣٦٤، ٣٦٦)، «معجم المعاجم والمشيخات» (١/ ٨٧، ٩٨ و٣/ ١٥٧)، «في مسيرة الحياة» (٩١، ٩٧، ١٠٠، ١١٦، ١١٨، ٣٧٦)، «مذكرات سائح في الشرق العربي» (٧٣، ٧٤، ١٦٥، ٢٣٣، ٢٤٤)، «رحلات العلامة أبي الحسن الندوي» (ص٤٠٣، ٤١٠، ٤١٦) و«أسبوعان في المغرب الأقصى» (٦٣، ٧٣، ٧٧، ٨٢)، «شخصيات وكتب أثَّرت في حياتي» (ص٤٦، ١٥٠) كلها لأبي الحسن الندوي، «جهود مخلصة في خدمة السنة المطهرة» (١٨٠) «معجم الشعراء» (٤/ ٣٥٣)، «القول الوجيز» (٨٠)، «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» (ص٦٩، ٧٠)، «الأستاذ أبو الحسن الندوي الوجه الآخر من كتاباته» (ص٦٧٣، ٦٧٤)، «السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة» (١١٩، ٣٤٥، ٣٩٣، ٣٩٥، ٥٤٨، ٥٤٩)، «عبد العزيز الثعالبي من آثاره وأخباره في المشرق =

= والمغرب» (٣٧، ٤٣)، «جماعة أنصار السنة المحمدية» (ص٢٩٤، ٣٢٠)، وكتاب «منارات في طريق الهداية د. تقي الدين الهلالي نموذجًا»، للدكتور عبد الله بن عمر الدميجي، نشر عن دار طيبة الخضراء في (٨٩) صفحة.

وللهلالي مدح وثناء وذكر لأهم الأحداث التي وقعت في حياته في عدد من «المجلات»، وأكثرها احتفاءً وعناية به: «الفتح» المصرية، و«دعوة الحق» المغربية، وله ذكر في «الصراط السوي» الجزائرية، و«الهدي النبوي» المصرية، و«البصائر» الجزائرية، و«الجامعة السلفية» و«الرائد» الهنديتان، و«التمدن الإسلامي» الدمشقية، ومجلَّتَيْه: «الضياء» الهندية، و«لسان الدين» التطوانية، وله أيضًا ذكر في «الأخوة الإسلامية» و«الثقافة الإسلامية» و«السجل» العراقيات البغداديات.

وترجم له في: مجلة «التربية الإسلامية» العراقية العدد الثاني، صفر ١٤٠٩هـ (ص٥٧، ٥٨)، ومجلة «المنهل» (٤٩٩) المجلد (٥٤) الربيعان ١٤١٣هـ ـ سبتمبر ـ أكتوبر ١٩٩٢م ضمن مقالة (أعلام عابرون) (ص٢١٤). و«الفرقان» المغربية العدد (١٠) سنة ١٩٨٧م، و«الاستجابة» السودانية العدد (٩) السنة (٣) رمضان ١٤٠٨هـ (ص٤٢ ـ ٤٣)، وجريدة «الجزيرة» السعودية عدد (١٠١٢٣)، و«البحوث الإسلامية» السعودية، العدد (٨) ذو القعدة ـ ذو الحجة ١٤٠٣هـ (ص٢٠٦) (مختصرة).

وله ترجمة في الكتب الآتية: «الثمار الشهية والتراجم الذكية لعلماء أنصار السنة المحمدية وإخوانهم» لفتحي أمين عثمان، (٢٣٧ ـ ٢٤١)، وكان قد نشرها في مجلة «التوحيد» المصرية، السنة (٣٦) العدد (٤٣٠) شوال ٢٠٠٧، (ص٦٤ ـ ٦٥)، «طلائع الأنوار في تراجم علماء السلف الأبرار» (٣/ ٢٧٥ ـ ٢٨٥) للدكتور أحمد بن عبد العزيز الحصين، «الأخبار الشافية الجلية عمن قام من العرب بالتدريس في أوروبا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية بعد عام ١٥١٩ ـ ١٩٥٠م» (١٩٩ ـ ٢٠٣) للأخ فهد محمد نايف الدبوس، «وثائق مكتبة مدرسة النجاة الأهلية بمدينة الزبير في مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي» (١٥٢ ـ ١٥٤، ٣١٠ ـ ٣١١)، «ذكريات العهود الثلاثة» (٢٠٠) لمحمد حسين زيدان، «هنا برلين حي العرب، هتلر والشيوعية» (٣/ ٢٧) و(٤/ ٤٠، ٤٨) ـ وأخطأ مؤلفه فسماه (عبد الحميد الهلالي)، ما لم يكن الهلالي =

= قد تعمد هذا لغرض يخصُّه ـ، «مجموعة مؤلفات الشيخ عطية محمد سالم» (١/ ٢٣٥ ـ «الرسائل المدنية»)، «التراويح أكثر من عام في المسجد النبوي» (٩٩)، «دور الهند في نشر التراث الإسلامي» (٢١٨ ـ ٢٢٠)، «ثبت الكويت» (٧٣٤)، «الثمر الينيع في إجازات الصنيع» (٢٨٢ ـ ٢٨٤)، «الزبير وصفحات مشرقة من تاريخها العلمي والثقافي» (٣١١، ٣٥٨، ٣٥٩، ٤٠٦، ٥٦٢، ٦٤٤)، «مذكرات محمد الأمين فال الخير الحسني الشنقيطي، مؤسس مدرسة النجاة في الزبير» (٣٠، ٥٧، ٧٠، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٠٨)، «مذكرات الحاج محمد أمين الحسيني» (ص١١٦، ٢٠٨). وفي مجلة «البيان» البريطانية، العدد (١٧٤) صفر سنة ١٤٢٣هـ (ص٣٨) وفي أول «ترجمة لتفسير معاني القرآن» الطبعة (١٢) سنة ١٩٩٥ م (ص١٦) ترجمة موجزة له باللغة الإنجليزية.
وأخبرني تلميذ الهلالي فضيلة الشيخ عبد الحميد الرحماني الهندي ـ رحمه الله تعالى ـ أنه نشر مقالة بالأردية في ترجمته في مجلة «التوعية الإسلامية» الهندية، أكتوبر، سنة ١٩٨٧م، ثم نشرت بالأردو في «مجموعة مقالات مولانا عبد الحميد رحماني، شخصيات» (ص١٤٣ ـ ١٥٣).

ولعبد العليم عبد العظيم البستوي مقالة نشرت في «التوعية» أيضًا أكتوبر ١٩٩٢م بعنوان «مع الأستاذ المحترم العلامة الهلالي رحلة مع ذكرياته»، ولمحمد رفيق عبد المنان مقالة نشرت في «صوت الأمة» مجلد (٤٧) عدد (٩) (ص٤٠ ـ ٤٨) بعنوان «إسهامات العلامة محمد تقي الدين الهلالي في تطوير الدراسات العربية والإسلامية»، ولفهد عامر العجمي مقالة بعنوان «منهج الدعوة عند محمد تقي الدين الهلالي في الدعوة إلى الله تعالى» نشرت في مجلة «التربية» جامعة الأزهر ـ مصر، المجلد الثالث، عدد (١٥٧) ربيع الأول ١٤٣٥ ـ يناير ٢٠١٤ (ص٩٢٧ ـ ٩٥٨). ثم وجدت ترجمة جيدة للهلالي بقلمه نشرها في مجلة «صوت الجامعة» السنة الثالثة، العدد الأول شعبان ١٣٩٢هـ ـ أكتوبر ١٩٧١م (ص١٣ ـ ١٨)، ونشر سعيد الأعظمي الندوي مقالين في مجلة «البعث الإسلامي» المجلد (٣٢) العدد (٥، ٦) ١٤٠٨هـ بعنوان (عالم فقدناه العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي المراكشي)، ووجدت أيضًا في مجلة «صوت الجامعة» الهندية، المجلد الأول، العدد الثاني، شعبان ١٤٠٨هـ، (ص٤٥ ـ ٥٤)، مقالة دون توقيع بعنوان (من أعلام السلفيين خاتمة =

* **نسبه:**

هو محمد تقي الدين[1] بن عبد القادر الهلالي ـ نسبة إلى هلال الجد الحادي عشر ـ ابن محمد ـ المعروف بـ: بابا ـ ابن عبد القادر بن الطيب بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن عبد النور بن عبد القادر بن

= شاهد قرن، كيف ودعت المغرب العالم المجاهد محمد تقي الدين الهلالي)، ونشرت في مجلة «المجتمع» الكويتية العدد (١٢٩٨) بتأريخ ٨/ محرم/ ١٤١٩هـ ـ ٥/ ٥/ ١٩٩٨م، (ص٤٦ ـ ٤٨) مقالة بعنوان «الشيخ العلامة محمد تقي الدين الهلالي» بقلم المستشار عبد الله العقيل، ونشر في مجلة «الفرقان»، المغربية، العدد العاشر سنة ١٩٨٧ (ص٤ ـ ٧) ترجمة بعنوان «العالم الجليل الدكتور الهلالي في ذمة الله»، واعتمدت المجلة على ترجمة محسن المثبتة هنا، ثم رأيتها منشورة في مجلة «الاستجابة» المنوّه بها سابقًا، ونشرت جريدة «العلم» المغربية، بتأريخ (١٤ محرم ١٤٠٨ ـ ٩/ ٩/ ١٩٨٧) (ص٨) السنة (٤١) العدد (١٣٥٥٣) مقالة بعنوان (في رفقة الدكتور تقي الدين الهلالي) لتلميذه محمد بن عودة، ونشرت مجلة «السبيل» المغربية، العدد الثالث، بتأريخ ٢٩ شعبان ١٤٢٦هـ يوافق ٤ أكتوبر ٢٠٠٥م (ص٢٣) مقالة موجزة في ترجمته، وهنالك أخبار عنه في صدور وعقول تلاميذه وعارفيه، وسمعت من غير واحد أشياء كثيرة ومهمة ومفيدة، وأجريت معهم لقاءات ومقابلات ومراسلات، وأثبتُّ كل ما تقدم في كتابي «الجامع لترجمة تقي الدين الهلالي».

وهذه الترجمة هي لإمام وخطيب جامع الملك عبد العزيز في الدار البيضاء، وهو الأستاذ عمر بن محمد محسن، وضعها في أول نشره لكتاب «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» (١/ ١٣ ـ ١٨) وهي التي وقعت في أول الطبعة الأولى من كتابنا هذا، فأبقيتها كما هي مع هوامشها، ورمزت لها بـ (منه) ووضعت بعد ما زدته (أبو عبيدة)، فاقتضى التنويه.

(١) قال الهلالي: «إن والدي رأى في المنام قائلًا يقول له: سيولد لك غلام، فسمّه (محمد التقي) فكان ذلك، ولكن أهل الهند سموني (تقي الدين) فاشتهر اسمي بـ (محمد تقي الدين)» من «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٩٣)، وفي «السلفية الوهابية» (٢٧): «ومرة سأله بعض شيوخه عن اسمه؟ فقال له: محمد التقي، فقال الشيخ: لا تقوى بدون دين، فأنت محمد تقي الدين». **(أبو عبيدة)**

هلال بن محمد بن هلال بن إدريس بن غالب بن محمد المكي بن إسماعيل بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن علي بن عبد القوي بن عبد الرحمٰن بن إدريس بن إسماعيل[(١)] بن سليمان بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي وفاطمة الزهراء بنت محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فهو كما ترى ينتهي نسبه ﵁ إلى الحسين بن علي، ذكر ذلك غير واحد من المؤرخين، وأقر هذا النسب السلطان الحسن الأول حين قدم سجلماسة سنة ١٣١١هـ[(٢)].

*** نشأته:**

ولد ـ أطال الله بقاءه ـ سنة ١٣١١هـ بالفيضة[(٣)] القديمة وتسمى «الفرخ» على بضعة أميال من الريصاني، والأصل قرية أولاد عبد القادر[(٤)] في «الغرفة» من أرض سجلماسة المعروفة بتافيلالت من المملكة المغربية.

*** دراسته:**

قرأ القرآن على جده ووالده فحفظه وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان والده ينوي أن يبعثه إلى مقرئ ذلك العصر، الشيخ أحمد بن صالح ليقرأ عليه ختمة التجويد، كما كان عازمًا على السفر به إلى القرويين بفاس

---

(١) الصحيح أن يقال: إدريس بن موسى بن إسماعيل. **(أبو عبيدة)**

(٢) وليس له لقب، وكنيته أبو شكيب على اسم صديقه الأمير شكيب أرسلان ﵀. **(أبو عبيدة)**

(٣) هي جنوب المغرب، ولا زالت تعرف بهذا الاسم إلى يومنا هذا. **(أبو عبيدة)**

(٤) لم يولد في القرية التي هو منها، لأن والده كان يعمل بـ (الفيضة) إمامًا وكان نائبًا للقاضي الذي فيها. **(أبو عبيدة)**

لطلب العلم هناك، فعاجلته المنية وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره فقامت بذلك أمه، فقرأ على الشيخ المذكور القرآن من أوله إلى آخره بالتجويد، ثم بقي فترة بدون تعليم. ولما بلغ سن الرشد سافر إلى زاوية آيت إسحاق بقبيلة آيت أخلف، وبقي هناك سنتين، ثم عاد إلى تافيلالت، ثم سافر إلى الجزائر وأقام بقبيلة أحميان، ولم يكن يخطر له التعلم ببال إلى أن رأى النبي ﷺ[(١)] في المنام، وقال له: اقرأ العلم. فصار عنده عزم شديد على طلب العلم، فتوجه إلى الرجل الصالح الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله الشنقيطي، فقص عليه رؤياه، فأعطاه نسخة من «مختصر الشيخ خليل» وقال له ابدأ في حفظ هذا الكتاب، وكلما اجتمعنا شرحت لك بعضه، فاستمر يحفظ، وبعد مدة ذهب إليه وأقام عنده يتعلم الفقه والنحو حتى فتح الله عليه في علم النحو وصار الشيخ ينيبه عنه في غيابه، وإلى أن مات الشيخ الشنقيطي سنة **١٣٣٨**هـ، ثم توجه إلى مدينة وجدة فبقي مدة عند العالم الأديب السيد أحمد السكيرج يعلم ابنه الأستاذ عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام، ثم توجه إلى فاس وحضر في القرويين دروس بعض الأساتذة، وعلى رأسهم العالم المحقق المصلح السيد الفاطمي الشرادي ـ رحمة الله عليه ـ، ومن أجلِّ من لقي من علماء فاس وأكثرهم تأثيرًا في أحواله واتجاهه في طلب علم الكتاب والسنة، العالم المحقق الشيخ محمد بن العربي العلوي ـ رحمة الله عليه ـ وجرت بينه وبينه مناظرة[(٢)]، فحصل على إجازة من جامع القرويين

(١) انظر: كتاب «الدعوة إلى الله» للمؤلف. (منه)

(٢) انظر: كتاب «الهدية الهادية» للمؤلف. (منه) **قال أبو عبيدة**: وذكر الهلالي في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص**٢٣٤**) أنه نشر في صحيفة «الحرية» ثلاث مقالات تحت هذه الترجمة (كيف خرجت من الطريقة التيجانية) قال: «وذكرت فيها قصة خروجي وتوبتي من هذه الطريقة، وأقمت البراهين على بطلانها».

عادلتها جامعة (بون) الألمانية بالشهادة الثانوية «الباكلورية».

وفي آخر سنة **١٣٤٠**هـ سافر إلى القاهرة وحضر دروس القسم العالي بالأزهر، وخلال ذلك اجتمع بعدد كبير من العلماء الأجلاء، وعلى رأسهم الإمام المصلح السلفي الطائر الصيت الأستاذ رشيد رضا صاحب «المنار»[(١)].

وكانت له رغبة في طلب الحديث، فعزم على السفر إلى الهند[(٢)] لعلمه أنه لا تزال بقية من علماء الحديث في الهند، فسافر لأداء فريضة الحج ومنها إلى الهند، فمكث هناك يدرس الحديث ويدرس الأدب العربي إلى أن أخذ العلم والإجازة عن شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري صاحب كتاب: «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي»، وله في هذا الكتاب قصيدة أثبتها المؤلف في آخر «المجلد الرابع»[(٣)].

وأجازه كذلك الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني نزيل «بهوبال». ثم رحل من الهند سنة **١٣٤٣**هـ إلى

(١) نشر الهلالي في «المنار» مجموعة مقالات منها «مناظرة في مسألة القبور والمشاهد» نشرت على (٧) حلقات و«مأساة أميرة شرقية» على حلقتين (ولم يتم)، ونقل السيد رشيد بعض مقالات نشرها الهلالي في «الفتح»، وكان رضا في نزاعه مع شكيب أرسلان يحكّمان الهلالي في المسائل اللغوية. **(أبو عبيدة)**

(٢) لما رأى «عون المعبود» علم أن بقية من المحدثين في الهند، فرحل إليهم، والتقى بالعلامة المباركفوري وأجازه واستفاد منه.

(٣) وله أيضًا قصيدة في أوله، ولكنه لم يسمه واكتفى بقوله: «بعض الأعلام»، وانظر عنها: مقالة أخينا البحاثة الأستاذ صلاح مقبول في «العلامة أبو العلى عبد الرحمٰن المحدث المباركفوري» المنشورة في مجلة «الجامعة السلفية» المجلد (٩) العدد (١) صفر **١٣٩٧**هـ (ص٦٠ ـ ٦٤). **(أبو عبيدة)**

العراق، وأثناء إقامته بمدينة البصرة التقى بالعالم السلفي الأديب، المحدث المحقق الشيخ محمد بن أمين الشنقيطي[1] فزوّجه ابنته وانتفع كثيرًا بمجالسته ومذاكرته، وبعد ثلاث سنوات توجه إلى المملكة العربية السعودية فأقام بها في ضيافة الملك عبد العزيز، ثم عُيِّنَ مراقبًا للمدرسين [في المسجد النبوي] مدة سنتين، ثم مدرسًا في المسجد الحرام والمعهد السعودي لمدة سنة، وبعدها سافر مرة أخرى إلى الهند، فعين رئيسًا لأساتذة الأدب العربي في كلية ندوة العلماء «بلكنو» مدة ثلاث سنوات تعلم خلالها اللغة الإنجليزية[2]، ثم رجع إلى البصرة، وبعد ثلاث سنوات سافر إلى «جنيف» ونزل عند الزعيم المجاهد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، وكانت عنده رغبة لإتمام الدراسة الجامعية، فكتب الأمير شكيب أرسلان رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أحد أصدقائه بألمانيا يقول: عندي شاب مغربي أديب ما دخل ألمانيا مثله في العلم، يريد أن يدرس في إحدى الجامعات، فعسى أن تجدوا له مكانًا لتدريس الأدب العربي براتب يستعين به على الدراسة، فجاء الجواب بالقبول وعيِّن محاضرًا في جامعة «بون»، وفي ظرف سنة تعلم اللغة الألمانية[3] وحصل على ديبلوم فيها، ثم صار طالبًا في الجامعة.

---

(١) ليس هو بصاحب «أضواء البيان»! كما قال بعض مترجمي الهلالي، وللهلالي ترجمة مطولة عنه نشرت في «الفتح» وعنها «المنار»، أودعتُها في كتابي «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره. **(أبو عبيدة)**

(٢) في قصة طريفة جدًّا ذكرها في كتابه «البراهين الإنجيلية» فانظرها هناك، تولى الله هداك. **(أبو عبيدة)**

(٣) كان الهلالي يتقن العربية، بل كان فحلًا وإمامًا لا يبارى فيها، قال عنه العلامة حماد الأنصاري: كان كالأصمعي. وكان الهلالي يجيد الإنكليزية والألمانية والإسبانية والعبرية والبربرية، وأخبرتني ابنته خولة أنه كان ملمًّا بالفرنسية، ووجدته يذكر في بعض مقالاته أنه يفهم الأفغانية والسريانية، وكان =

وفي أثناء إقامته بألمانيا ترجم مع الأستاذ «باول كالي» مدير معهد العلوم الشرقية في جامعة «بون» كتابين عربيين: أحدهما كتاب «البلدان» في الجغرافية العالمية للعلامة محمد بن الفقيه البغدادي المتوفى في آخر القرن الثالث الهجري، والثاني كتاب «طيف الخيال»[1] للعلامة محمد بن دنيال الكحال الموصلي نزيل مصر.

وأثناء إقامته في ألمانيا عُيِّنَ مشرفًا ومرجعًا لغويًّا بالقسم العربي من الإذاعة الألمانية، فوجدها فرصة سانحة لفضح جرائم المستعمرين لبلده المغرب من الفرنسيين والإنجليز، فألقى من على منبر تلك الإذاعة خطبًا

= عارفًا بالإمغازية وبلغة بريل، تعلمها لما أضر، وكان عنده بها «شرح العقيدة الطحاوية». **(أبو عبيدة)**

(١) أشار الأستاذ كركيس عواد في «الذخائر الشرقية» (١/ ٥٢٠) أنه طبع في بغداد سنة ١٩٤٨م بعنوان «ثلاث مسرحيات عربية مثلت في القرون الوسطى»، وزاد صاحب «فهرست المطبوعات العربية» (٢/ ٣٣٠) أنها تقع في (٤٨) صفحة، ونشرت عن مطبعة الاعتماد، ومن الأعمال التي ترجمها الهلالي: «مدنية العرب في الأندلس» لجوزيف ماك كيب، ترجمه عن الإنجليزية، وطبع لأول مرة في بغداد عن مطبعة العاني سنة ١٩٥٠م بعنوان «الهلال والصليب». ثم طبع بالعنوان المذكور في الدار البيضاء، مكتبة المعارف، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م في (١١١) صفحة، وفرغت من تحقيقه وتذييله بـ (ستة ملاحق) مهمة، منها واحد في أعمال الهلالي في الترجمة. وكتب جملة من المقالات بغير العربية، منها: «الطبقات عند العرب» كتبها بالألمانية، وذكرها في كتابه «الخلع» (ص٥٣)، ونشرها في بعض المجلات الألمانية، وله ترجمة «كيف يربي يهود الولايات المتحدة أولادهم» نشر في مجلة «الجامعة السلفية» المجلد (١٠) العدد (٢) صفر ١٣٩٨هـ (ص١٠، ١١)، ونشر في المغرب على هيئة كتيب، ومن أهم أعماله في الترجمة: ترجمة معاني القرآن الكريم، مع صديقه محمد محسن خان، سيأتي ذكرها ضمن المؤلفات برقم (٣٢) ولنا كلمة عنها تنظر في التعليق هناك، وللهلالي أيضًا ترجمة «مختصر صحيح البخاري» بالاشتراك مع خان أيضًا. **(أبو عبيدة)**

كانت على المستعمرين خطوبًا، وكان بسببها أن نفته فرنسا من المغرب نفيًا رسميًّا، مع أنه كان غائبًا عنه! كما عملت بريطانيا على نزع جنسيته العراقية التي كان تجنس بها سنة ١٩٣٤م.

وفي سنة ١٩٤٠ قدم رسالة دكتوراه، وهي ترجمة مقدمة كتاب «الجماهر في الجواهر» للبيروني مع التعليق عليها[(١)] وهكذا حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٤١م. ثم بعد الحرب العالمية الثانية عين أستاذًا بجامعة بغداد، وفي سنة ١٩٤٢م سافر إلى تطوان بمساعدة الأستاذ المجاهد عبد الخالق الطُّرَيْس[(٢)] رئيس حزب الإصلاح الوطني إذ

---

(١) ذكر الأستاذ الجراري في كتابه «التأليف ونهضته بالمغرب» (ص١٢٤) أنها طبعت في (لايبزك) في ألمانيا، **قلت**: نعم، رأيتها بالألماني في (٤١) صفحة، نشرت ضمن (مجموعة البحوث الشرقية) (جزء ٧) عن دار أوتو هاغاسوفيتسي، ليبزج، وذكر الهلالي فيما كتب إلى المجذوب في «علماء ومفكرون عرفتهم» (١٩٠، ١٩١): «رغب الناشرون في نشر رسالتي على نفقتهم، ولا يقع ذلك إلا للرسائل المفضلة». وللهلالي في كتابه «الطريق إلى الله» (ص٦٤ ـ ٦٦) كلمة جامعة مهمة عن أطروحته هذه.
ثم ظفرت بكلمة جيدة للألماني (كاله) نشرت في مقدمة كتاب ابن المعمار البغدادي الحنبلي (ص١١٢) فيها مدح لعمل الهلالي في رسالته، ومما قال: «وكان عملنا المشترك (يريد نص الفتوة والمروءة) من كتاب «الجماهر في الجواهر» للبيروني، ونشر في مجلة «دير إسلام» الألمانية، الجزء (٢٤)، سنة ١٩٣٧ (ص٥٤ ـ ٦٩) يهم الهلالي، لأنه حفّزه للبحث في مقدمة كتاب البيروني في «الجواهر»، فاشتغل بتحقيقها على النحو الذي ابتدأنا به، وبهذا العمل نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة على يد (ريجارد هرثمن) في برلين سنة ١٩٤١، واسم رسالته «ترجمة مقدمة كتاب «الجماهير في الجواهر» للبيروني مع تعليقات عليها»، وهو عمل علمي جليل من الطراز الأول». انتهى.
ونشر الهلالي في جريدة «الحرية» المغربية مقالة عن أستاذه (ريكارد) في السنة السادسة، العدد (٧٩٧) ٢٤ جمادى الثانية ١٣٦١هـ. **(أبو عبيدة)**

(٢) انظر ترجمته في: «الأعلام» (٣/ ٢٩١). **(أبو عبيدة)**

ذاك، فبقي إلى أن كاد له الإسبان ونزعوا منه جوازه بدعوى أنه مزور! وفي سنة ١٩٥٩م عين أستاذًا بجامعة محمد الخامس بالرباط ثم بفرعها بفاس إلى سنة ١٣٦٨هـ، حيث سافر مرة أخرى إلى ألمانيا ومنها إلى الأراضي القطبية[1].

وفي سنة ١٣٨٨هـ توجه إلى الحج، وفي منى اجتمع بالعالم الورع الذي يقل نظيره في هذا العصر ألا وهو الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فقال له: إن الجامعة الإسلامية في حاجة إليك، فقال: وأنا مستعدٌّ لخدمتها، فكتب الشيخ عبد العزيز وطلبه من وزارة التعليم المغربية، فالتحق أستاذًا بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وبقي بها إلى سنة ١٣٩٤هـ، حيث طلب منه إخوانه في المغرب أن يستقر في المغرب للدعوة إلى الله تعالى والمحافظة على العقيدة السلفية، فعرض الأمر على رئيس الجامعة الإسلامية آنذاك الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز فوافق عليه، ورجع إلى المغرب، وسكن مكناس، فصار يعطي الدروس بمساجدها وينتقل بين مساجد مدن وقرى المملكة المغربية، فثقل ذلك على المبتدعة وأغصهم بريقهم فوشوا به وطلبوا منعه وتوقيفه، ولو آمنوا بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢ ـ ٣٣] لكان خيرًا لهم، وللدكتور محمد تقي الدين مواقف جليلة في الدعوة إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك[2].

---

(١) وصل إلى (النرويج)، وله مقالة منشورة في ذلك بعنوان «الشمس في نصف الليل» وهي في كتابنا «مقالات الهلالي». **(أبو عبيدة)**

(٢) ذكرت ذلك مطولًا في تقديمي لكتاب «سبيل الرشاد»، وانظر منه (ص٢٦ وما =

فلتراجع أخي القارئ إن أردت الوقوف عليها إلى كتابه القيم «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة».

*** مؤلفاته:**

أما مؤلفاته فهي أكثر من أن تحصى، فنذكر منها على سبيل الاختصار:

١ ـ سبيل الرشاد، الذي بين يديك (الجزء الأول) منه[(١)].

٢ ـ الإلهام في تفسير سورة الأنعام[(٢)].

٣ ـ الحسام الماحق لكل مشرك ومنافق[(٣)].

٤ ـ ديوان شعر[(٤)].

٥ ـ الإسلام والمذاهب الاشتراكية[(٥)].

= بعد). والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. **(أبو عبيدة)**

(١) وقد أتمه وطبع في حياته، ويسر الله لي تحقيقه ونشره في أربعة مجلدات. **(أبو عبيدة)**

(٢) نشر على حلقات في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، وقد طبع حديثًا في بنارس، وهو مودع في «مقالاتنا» الجامعة الحافلة، والحمد لله. **(أبو عبيدة)**

(٣) طبع أكثر من مرة في المغرب ومصر والسعودية. **(أبو عبيدة)**

(٤) اسمه «منحة الكبير المتعالي في شعر وأخبار محمد تقي الدين الهلالي»، حصلته مرقومًا على الآلة الكاتبة، وفرغت من تنضيده مع جمع سائر أشعاره وتوثيقها من كتبه ومقالاته. وقد نشرته لأول مرة سنة ١٤٣١هـ في (٨٦٧) صفحة، وفيه (ص٦٨٥) إلى آخره (المستدرك) بقلمي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. **(أبو عبيدة)**

(٥) له بهذا العنوان مقالة نشرت في مجلة «الجامعة الإسلامية» العدد (١٠) شوال ١٣٩٠هـ (ص٣ ـ ١٨) وأيضًا في مجلة «دعوة الحق» المغربية، السنة الثانية عشر، العددان (٧ و٨) شعبان ـ رمضان ١٣٩٧هـ (ص١٥ ـ ٢٢)، وله في مجلة «الفتح» (٥٨١) شوال ١٣٥٦هـ مقال بعنوان «الشيوعية أعظم لعنات العصر»، وله في مجلة «الهدى النبوي» المجلد (١٥) العدد (٧) رجب =

٦ ـ دواء الشاكين وقامع المشككين[١].

٧ ـ من يرافقني من الرباط إلى برلين[٢].

٨ ـ رسالة الدكتوراه[٣].

٩ ـ مدنية العرب في الأندلس (ترجمة)[٤].

١٠ ـ كتاب الدعوة إلى الله[٥].

١١ ـ أحكام الخُلع في الإسلام[٦].

١٢ ـ حكم تارك الصلاة[٧].

١٣ ـ الصراط المستقيم ودليله[٨].

= ١٣٧٠هـ (١٥٤ ـ ١٥٧) مقال بعنوان: «داء الشيوعية ودواؤه». **(أبو عبيدة)**

(١) نشر على حلقات عديدة في مجلة «دعوة الحق» المغربية، ثم طبع على حدة. **(أبو عبيدة)**

(٢) نشر على حلقات في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، سنة **١٣٩٩**هـ، من العدد **(٢ ـ ٥، ٨)**. **(أبو عبيدة)**

(٣) سبق التعريف بها وأنها طبعت بالألمانية في لايبزك. **(أبو عبيدة)**

(٤) ترجمه الهلالي من الإنكليزية، وطبع مرتين: في العراق ثم في المغرب عن مكتبة المعارف ـ الدار البيضاء، وفي كل من الطبعتين، زيادة على الأخرى. **(أبو عبيدة)**

(٥) كتابنا هذا. **(أبو عبيدة)**

(٦) نشر عن المكتب الإسلامي ـ بيروت أكثر من مرة، وعن غيره. **(أبو عبيدة)**

(٧) طبع في مجموع فيه «الصراط المستقيم في صفة صلاة النبي الكريم»، و«ذيل الصراط المستقيم» بعنوان: مجموعة ثلاثة كتب للهلالي، يقع في **(٣٢)** صفحة، ونشر طبعة وقفية، وذكر في أوله (ص**٣**) أنه ألفه لما سأله جماعة من إخوانه الموحدين، وانتصر فيه لتكفير تارك الصلاة تكاسلًا، ثم يسر الله لي الوقوف على أصل «الدليل القويم». **(أبو عبيدة)**

(٨) ألفه في مدة إقامته بتطوان، واستمرت من ربيع **١٩٤٢** إلى صيف **١٩٤٧**، وقرظه أحمد الغماري في جريدة «الأخبار» المغربية، وطبع مع الكتاب السابق. **(أبو عبيدة)**

١٤ ـ الفجر الصادق[١].

١٥ ـ قبسة من أنوار الوحي[٢].

١٦ ـ الصبح السافر في حكم صلاة المسافر[٣].

١٧ ـ تفسير سورة الفتح[٤].

١٨ ـ فتح الرحمٰن في تفسير أم القرآن[٥].

١٩ ـ الزند الواري شرح واختصار صحيح البخاري[٦] (ج١ فقط).

(١) نشر بعنوان «بيان الفجر الصادق وامتيازه عن الفجر الكاذب»، طبع في المغرب في (١٧) صفحة، ثم اعتنى به وشرحه الأستاذ عمر بن مسعود الحدوشي في «الروض الفائق لشرح كتاب بيان الفجر الصادق» في (٣٥١) صفحة. **(أبو عبيدة)**

(٢) طبع عن مكتبة المعارف، الرباط، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م في (١٤٦) صفحة، وهو عبارة عن أربعة أقسام: واحد في علوم القرآن، والثاني في تفسير سورة الفتح، والثالث نبذة في علوم الحديث، والأخير: نبذة عن الأحاديث مع شرحها شرحًا يعالج مشكلات العصر الحديث. **(أبو عبيدة)**

(٣) نشر على أربع حلقات في مجلة «الهدي النبوي» المصرية، المجلد (٢٨، ٢٩) سنة ١٣٨٣ و١٣٨٤هـ، وطبع على حدة أكثر من مرة، في المغرب ومصر، وللشيخ حماد الأنصاري كلمة في نقده، أفاده ابنه صديقنا عبد الأول في «المجموع» الخاص بحياة أبيه (٢/ ٦١٧ ـ ٦١٨). **(أبو عبيدة)**

(٤) انظر: التعليق على رقم (١٥) السابق. **(أبو عبيدة)**

(٥) سماه هكذا في «ذيل الصراط المستقيم» (ص٧) وفي «سبيل الرشاد» (٦/ ١٤٩) ـ وأورد قطعة منه ـ وأورد كذلك في كتابه «الحسام الماحق» أكثر من (٤) صفحات من تفسير له بالفاتحة سماه «المنح السانحة في تفسير سورة الفاتحة» ويحتمل أن يكون العنوانان لكتاب واحد، ثم وجدت له مقالًا منشورًا في مجلة «الثقافة الإسلامية» البغدادية السنة الثانية، العدد الرابع، السبت ١٨ جمادة الثاني ١٣٧٦هـ ـ ١٩ كانون الثاني ١٩٥٧م (ص٣، ٤) بعنوان «تفسير سورة الفاتحة» ولا أظنه هذا الكتاب. **(أبو عبيدة)**

(٦) ذكره جل من ترجم للهلالي، لم أظفر له بذكر في كتب ومقالات الهلالي التي وقفت عليها، والعبارة المذكورة تنبئ أن الكتاب تام بخلاف عبارات =

٢٠ ـ من مآثر الرسول ﷺ[١].

٢١ ـ تقويم اللسانين[٢].

٢٢ ـ الفوائد السامية في تاريخ اللغات السامية[٣].

٢٣ ـ الفتاوى الهلالية[٤] (ج١ و٢).

٢٤ ـ الهدية الهادية[٥].

= المترجمين. ثم وقفت على فتاوى الهلالي المسماة بـ «العيون الزلالية» (ق ٢١٣) ووجدته يذكره فيه، وسماه «الزند الواري والبدر الساري في اختصار وشرح صحيح البخاري» ونقل عشرة أسطر منه، ووجدته يذكره أيضًا في رسالة وجهها للأستاذ السلفي المربي محمود مهدي الإستانبولي رحمه الله، وهي مؤرخة بـ ٢٦/ ١/ ١٣٨٨هـ، ومما قال فيها: «وقد بدأت في «شرح البخاري» شرحًا يستفيد منه الواعظ والطالب، وأنا بنفسي أستفيد منه؛ لأن الشروح الموجودة لا يمكن تدريسها في المساجد؛ لأنها محشوة بأشياء تعطّل درس الوعظ، وتشوّش على السامعين». ويسر الله ﷻ لي بمنه وفضله نشره عن دار إيلاف الدولية في مجلدين سنة ١٤٣٧هـ في (١٠٠٤) صفحات. **(أبو عبيدة)**

(١) نشر على حلقات في مجلة «الإرشاد» المغربية، السنة الأولى، الأعداد (١ -٨) سنة ١٣٨٧هـ والسنة الثانية، الأعداد (١ ـ ٦) سنة ١٣٨٨هـ، والسنة الثالثة، الأعداد (٣ ـ ٤) سنة ١٣٨٩هـ و١٣٩٠هـ والسنة الخامسة، العدد الأول، سنة ١٣٩٢هـ. **(أبو عبيدة)**

(٢) نشر على حلقات عديدة في مجلة «دعوة الحق» المغربية، ثم طبع في المغرب مرتين كلٍّ على حدة، وله في المجلة المذكورة تتمات نشرت فيها بعد، لم تلحق بالكتاب! وهي جميعًا في كتابنا «مقالات الهلالي». **(أبو عبيدة)**

(٣) طبع للهلالي كتيب بعنوان «اللغة العربية»، وذكره له بهذا الاسم جمع من مترجميه. **(أبو عبيدة)**

(٤) لم تنشر، وهي في مجلدين، بعضها بخط بعض الكتبة عنده، والآخر مرقوم على الآلة الكاتبة، واسمها «العيون الزلالية في الفتاوى الهلالية»، ونشر قسمًا قليلًا منها في بعض المجلات والصحف المغربية. **(أبو عبيدة)**

(٥) تتمة اسمه «إلى الطائفة التجانية»، طبع أكثر من مرة، أولها سنة ١٣٩٣هـ ـ =

٢٥ ـ مختصر هدي الخليل[١].

٢٦ ـ البراهين الإنجيلية[٢].

٢٧ ـ مسرحيات طيف الخيال[٣] (ترجمة).

٢٨ ـ دليل الحاج[٤].

= ١٩٧٣م، وذكر في مقدمته (ص٥ ـ ٦) أنه ألفه بطلب من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ، وذكر في كتابنا هذا أنه ـ أي: العلامة ابن باز ـ أمر بطبع عشرة آلاف نسخة منه، وانظر: «سبيل الرشاد» (٦/ ٢١٩)، ولأهميته ذكر في رسالة وجهها الهلالي لأخيه الأستاذ زهير الشاويش رَحِمَهُ اللهُ، مؤرخة في ٤/ ٨/ ١٣٩٢هـ ضرورة وصول الكتاب إلى الناس في كل مكان. ثم ظفرتُ برسالة للعلامة عبد الله كنون وجهها للهلالي فيها بيان أخطاء وقعت للهلالي في هذا الكتاب، وأقر بها الهلالي في جوابه له، ثم وجدت رصدًا للأخطاء التي فيه بخط الشيخ محمد بوخبزة، ونشر أخيرًا مع تعليقات مليحات بعنوان «منارات في طريق الهداية، د. تقي الدين الهلالي نموذجًا» في (٨٩) صفحة، عن دار طيبة الخضراء. **(أبو عبيدة)**

(١) تتمة اسمه «في العقائد وعبادة الجليل»، طبع أكثر من مرة، الأولى في تطوان، والثانية في بغداد، ثم في الدار البيضاء، ولتأليفه قصة، تجدها في هذا الكتاب. **(أبو عبيدة)**

(٢) تتمة اسمه «على أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية» نشر على حلقتين في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، المجلد (١٧)، العدد (٢، ٣) سنة ١٤٠٥هـ، وقبل ذلك في مجلة «الإحياء» المغربية المجلد (٢)، الجزء الأول، رجب ـ ذو الحجة ١٤٠١هـ (ص٩ ـ ٢٥)، وطبع قبل ذلك عن مطابع دار الثقافة بمكة في الزاهر، عام ١٣٩٣هـ في (٤٥) صفحة. وذكر في رسالة له إلى الشاويش مؤرخة بـ ٢٧/ ٣/ ١٣٩١هـ أن الشيخ ابن باز قرأه واستحسن أن يطبع منه على الآلة الكاتبة (١٥٠) نسخة، وذكر في ديباجته (ص٣، ٤) سبب تأليفه. **(أبو عبيدة)**

(٣) نشر فصولًا منه في بعض المجلات مترجمًا للألمانية، ثم طبعه بالعربية. **(أبو عبيدة)**

(٤) تتمة اسمه «في مناسك الحج» هكذا ذكره مترجموه، وطبع بعنوان «دليل الحاج الحنيف» عن دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، سنة ١٣٦٩هـ، ونشره قبل =

٢٩ ـ حاشية على كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب.

٣٠ ـ حاشية على كشف الشبهات[(١)].

٣١ ـ ترجمة القرآن باللغة الإنجليزية بمشاركة الدكتور محمد محسن[(٢)].

= ذلك في سنة ١٣٤٥هـ، وألفه بطلب من الماجد النبيل والسري الجليل مصطفى بك آل إبراهيم لما عزم على الحج، وأعاد طبعه لما سأله ذلك الأستاذ راشد آل صقير. **(أبو عبيدة)**

(١) نشره مع الذي قبله في المغرب، ونسبهما للإمام محمد بن سليمان الدّرعي، وشكَّك بعض المعاصرين في خبر طبع الكتاب السابق، بل في أصل وجوده! وهذا خطأ، فقد صرَّح به المصنف في كتابنا هذا، ونشر دعاية وإعلانًا له في مجلته «لسان الدين» السنة الثالثة، الجزء الرابع جمادى الأولى ١٣٦٨هـ (ص٢٧)، ووقفت على هذا فوجدت له نقولات من «تفسير ابن كثير»، والنِّيَّة متجهة لخدمته. **(أبو عبيدة)**

(٢) نشرت مرات، وذكر الهلالي في مقالة له نشرت في مجلة «التوحيد» المصرية، غرة المحرم، سنة ١٣٩٥هـ (ص٤٧)، أنها في ذلك الوقت ـ أعني سنة ١٣٩٥هـ ـ كانت تحت الطبع، وأفاد الأستاذ عبد الله بن عبد الرحمٰن الخطيب في بحثه «ترجمة المصطلحات الدينية والشرعية في القرآن الكريم» (ص٢٥) أنها نشرت عام ١٩٧٧م في شيكاغو، وذكر الأخوان زيدان وجاسم ابنا علي جاسم في بحثهما «ترجمة سورة الفاتحة دراسة مقارنة في أشهر ترجمات القرآن الكريم» (ص٧) أن أول مرة ظهرت ترجمة الهلالي وخان في السبعينات (١٩٧٤) باستانبول وقالا عنها (ص١١): «نعتقد على العموم بوضوح الترجمة وأداء المعنى» وقالا: «من أهم الترجمات»، ومدحها جمع من الباحثين، وصوبا ما فيها مع المقارنة لغيرها. وانظر كلام الدكتور وجيه محمد عبد الرحمٰن في رسالته «وقفة مع بعض الترجمات الإنكليزية لمعاني القرآن الكريم» (ص١٧): «ونستطيع الحكم عليها بأنها من أفضل الترجمات إن لم يكن أفضلها، ولا سيما من الناحية العقدية...»، وتكاد تتفق كلمة الباحثين على هذا، ونظرًا لسلامة هذه الترجمة من الأخطاء العلمية، ودقة إصابة الحق فيها لمعاني القرآن الكريم، تبناها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة، وانظر كلمة عن الجهود التي بذلت في هذه الترجمة ونشرها في =

٣٢ ـ الهاديات (قصائد أربع)[١].

إلى غير ذلك من الكتب القيمة النافعة[٢] وله أكثر من مائة مقال[٣]

= «تطور كتابة المصحف الشريف وطباعته وعناية المملكة العربية السعودية بطبعه ونشره وترجمة معانيه» (ص٩٠ ـ ٩٢). **(أبو عبيدة)**

(١) طبع في الهند، وعرَّف به في كتابنا هذا، والقصائد موجودة في «ديوانه» إحداها (الميمية) التي مطلعها:

من فاته المصطفى المختار من مضر

وأدرج فيه أيضًا تخميس قصيدة حميد القرطبي التي أنشدها القسطلاني في «مقدمة شرح البخاري» (١/ ٥ ـ ٦)، ومطلعها:

نور الحديث مبين فاذْنُ واقتبس واحْدُ الركاب له نحو الرضى الندس

وأودعها شيخه المباركفوري في «مقدمة تحفة الأحوذي» (ص١٠ ـ ١٢ ط الحجرية الهندية)، وهذه القصائد من أوائل شعر الهلالي، قاله المجذوب في «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٠٩). **(أبو عبيدة)**

(٢) وقفت له لغاية تدوين هذه السطور على ما يربو على الستين مؤلّفًا، زيادة على ستة مؤلفات عزم عليها، وعيّنها ووضع لها عناوين، ولم أظفر لها بأثر، ولم أفز عنها بخبر، ولا قوة إلا بالله، ومما انفرد ـ فيما رأيت ـ بذكره صاحبا كتاب «إمارة الزبير بين هجرتين بين سنتي **٩٧٩ ـ ١٣٤٢**هـ» **(٣/ ١٨٨)** قولهما ما نصه: «وله مؤلَّف ضخم يردّ به على الدعوة الخمينيّة الحديثة، وهو بحث تاريخي ربطه بتاريخ الدعوات المشبوهة التي ظهرت في الإسلام».

وظفرت له «مرقاة المبتدي في النحو» وهو مقرر السنة الرابعة الثانوية لمعاهد المنطقة الخليفية، (مختصر) و(مطول)، والفرق بينهما هو (الإعراب) فقط في النسخة الثانية، وكلاهما مقرر للسنة الدراسية نفسها، واعتمد فيها على مؤلفات ابن هشام، وشرح بعض المواطن، وخالفه في رأيه أحيانًا. ويمتاز بكونه يتحرى ضرب الأمثلة بالآيات القرآنية، فإن لم يكن فبالشعر المحتج به، وليست جميع شواهده موجودة عند ابن هشام، بالإضافة إلى أنه يشرح موطن الشاهد ويبين وجهه وأحيانًا إعرابه، و(المختصر) مفيد فهو بمثابة قواعد لمن انتهى من دراسة منهج النحو. **(أبو عبيدة)**

(٣) وقفت ـ ولله الحمد ـ على أضعاف أضعاف هذا العدد من مقالات للهلالي، =

• نشرتها مجلات عديدة في أمريكة[١] وأوربة[٢] والهند[٣] وبلاد الإسلام[٤].

= ومقدمات وتقريظات ومراسلات ومقابلات ورحلات ولقاءات ومحاورات وترجمات، وهي الآن قيد التنضيد، وانظر ـ ضرورة ـ عن أهميتها: «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٠٨). **(أبو عبيدة)**

(١) انفرد الأستاذ عمر محسن بهذه الكلمة التي أتعبتني، ولم أستطع للآن الوقوف على تفصيل أو خبر مفيد عنها، نعم ظفرت له بمجموعة مهمة غاية من (المقالات) باللغة الإنكليزية نشرت مع ترجمته المختصرة للقرآن الكريم، وهنالك إشارات إلى وجود ترجمة مطولة للقرآن، نشر في (المجلد الرابع) منها ترجمته لـ «البراهين الإنجيلية» بالإنجليزية، وجزمت لي الباحثة الأمريكية لوزي هنري التي أعدّت أطروحة دكتوراه في أمريكا عن الهلالي بعدم وقوفها على شيء للهلالي في المجلات الأميركية، والله أعلم. **(أبو عبيدة)**

(٢) لا أعلم أنه نشر مقالات إلا في ألمانيا ولا سيما في مجلة «دير إسلام»، هكذا سماها في كتابه «الخلع» (ص٥٣)، وطلبت من الباحثة الألمانية (أنابيل باتشير) تصوير هذه المقالة، وبحَثَتْ في فهارس المجلة المذكورة، ولم تظفر بشيء، وتابعت البحث، وأرسلت لي في ٢٠/ شعبان/ ١٤٢٦هـ يوافق ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٥م، وظفرت بالمقالة التي أحال عليها الهلالي في كتابه الآنف الذكر، وهي بعنوان (الطبقات عند العرب)، وهي منشورة في مجلة (دلي والت ديس إسلام) ـ بمعنى مجلة (العالم الإسلامي) ـ مجلد (٢٢) سنة ١٩٤٠م (ص١٠٢ ـ ١١٠)، وأرسلتها لي مشكورة، وفرغت من ترجمتها ولله الحمد. ولعل للهلالي مقالات في «بريد الشرق» التي صدرت في فاتحة عام ١٣٦٩هـ عن جامع برلين بألمانيا، انظر: مجلة «لسان الدين» السنة (٤) الجزء (١)، ربيع الأول سنة ١٣٦٩هـ (ص٦)، وأنا الآن في تطلبها، اللهم يسر. **(أبو عبيدة)**

(٣) أسس فيها مجلة «الضياء» وله فيها مقالات عديدة، ونشر كثيرًا في مجلة «الجامعة السلفية» و«البعث» و«الجامعة» و«صوت الأمة»، وكلها هنديات. **(أبو عبيدة)**

(٤) نشر في مجلة «إصلاح» الأفغانية، و«الاعتصام» الباكستانية، و«الوعي الإسلامي» الكويتية، و«المنار» و«الفتح» و«الهدي النبوي» و«التوحيد» =

فجزى الله شيخنا عن الإسلام والمسلمين خيرًا. . . والسلام.

عمر بن محمد محسن
إمام وخطيب جامعة الملك عبد العزيز آنفًا
الدار البيضاء

قال أبو عبيدة: هذا المزبور بقلم تلميذ العلامة الهلالي الأستاذ عمر بن محمد محسن، فيه ـ إن شاء الله ـ غنية وكفاية لمن رام أن يعرف منزلة صاحبنا في العلم والدعوة، فقد أزاح الأستاذ عمر ـ شكر الله سعيه، وأحسن إليه ـ الستار، وكشف اللثام، وحقق المقام لعَلَم من الأعلام، ورحَّالة حاز قصب السبق في توصيل دعوة الحق إلى الأنام، في عصر استحكمت فيه غربتا الزمان والمكان للإسلام، ولذا فَقَدَهُ الناسُ لما رحل عنهم ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى دار السلام، وأخيرًا هذه كلمة عن:

= و«الشباب» وجريدة «الإخوان المسلمين» المصريات، و«السجل» و«الثغر» و«صدى الشبان المسلمين» و«الهداية» و«الناس» و«الثقافة الإسلامية» و«الأخوة الإسلامية» ومجلة «كلية الآداب والعلوم» العراقيات، و«الإيمان» و«العلم» ومجلة «دار الحديث الحسنية» و«الميثاق» و«الحرية» و«دعوة الحق» و«لسان الدين» و«الإرشاد» و«السفير» و«المغرب الجديد» و«الوحدة المغربية» و«الريف» و«الإحياء» و«المجلة الإسلامية» المغربيات، و«التمدن الإسلامي» و«حضارة الإسلام» وجريدة «العَلَم» الدمشقيات، ومجلة «الجامعة الإسلامية» لمحمد أمين الحسيني كانت تصدر في فلسطين، و«الجامعة العربية»، و«الصراط السوي» و«البصائر» و«الشهاب» و«صحيفة السنة النبوية» الجزائريات، و«صوت الحجاز» و«الجامعة الإسلامية» و«البحوث الإسلامية» السعوديات، وجمعتُ جميع ما وقفت عليه من (المقالات) في هذه (المجلات) وبطون الكتب والتقريظات في تصنيف مفرد، وفرغت من تنضيده، وبقيت بقية يسيرة لم أحصل عليها لغاية تدوين هذه السطور. والمحاولات جارية، وأسعفني حديثًا بعض إخواني من الموصل وبغداد ببعض المفقود، ويسر الله ﷻ الوقوف على الباقي، وهو المستعان، لا رب سواه. **(أبو عبيدة)**

* وفاة الهلالي ورثاء العلماء له

بعد رحلة في رحاب العلم والدعوة والجهاد، وتنقُّل في كثير من البلاد، وحياة مليئة بالمتاعب والشدائد، توفي عالمنا الهلالي في منزله بالدار البيضاء مغرب يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر شوال سنة سبع وأربع مئة وألف من الهجرة الموافق ٢٢/يونيه/ سنة ١٩٨٧م، عن عمر يقارب السابعة والتسعين عامًا، وصلى عليه في اليوم الموالي عدد كبير، وجم غفير من الموافين والمخالفين بعد صلاة الظهر في مسجد عين الشق، ثم دفن رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمقبرة قرية الجماعة، وسط جموع كبيرة من المسلمين، في موكب مؤثر، في جو من الخشوع والابتهال والدعاء إلى الله أن يتغمده برحمته، ويدخله فسيح جناته مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا[(١)].

وأقيمت عليه صلاة الغائب في كثير من البلدان، مثل: السعودية، والكويت، والهند، والمغرب[(٢)].

وكتبت كثير من الصحف في التعريف به، ورثاه أصحابه وأحبابه، وهذه نماذج من كلامهم:

* نشرت جريدة «أخبار العالم الإسلامي» في عددها (١٠٥٠) (ص١١) تحت عنوان: «كيف ودعت المغرب العالم المجاهد محمد تقي الدين الهلالي» ما نصه:

«ويصل الخبر في تلك الليلة إلى مدن المغرب وقراه، فيتوافد

(١) مجلة «الفرقان» المغربية، العدد العاشر سنة ١٩٨٧م (ص٤)، وعنها مجلة «الاستجابة» السودانية العدد (٩) السنة (٣) رمضان ١٤٠٨هـ (ص٤٢ ـ ٤٣).
(٢) مجلة «الفرقان» المغربية، العدد العاشر، سنة ١٩٨٧م (ص٥).

على منزله بالدار البيضاء من عرفه وتتلمذ عليه وقرأ له وأحبه وقدره.

وبعيون دامعة، وقلوب خاشعة، وألسنة داعية بالرحمة والمغفرة، تقدم الجنازة صباح يوم الدفن جميع تلامذته، ممن علمهم العقيدة الإسلامية الصحيحة.

وتعود الجموع الغفيرة المشيِّعة بعد الانتهاء من الدفن بقلوب حزينة، يعزي بعضهم بعضًا، فقد كان المصاب عظيمًا، وكان الرزء فادحًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

* ونشرت جريدة «الثورة» وتصدرها جمعية البعث الإسلامي بتطوان في عددها (٢٢٤) ما صورته:

«**ما هو نصيب اهتمام إعلامنا برجالاتنا الأعلام؟**

... لقد انتقل أخيرًا إلى الرفيق الأعلى داعية السلفية ورائد الصحافة الإسلامية في المغرب، وأحد رواد الوطنية ـ والوطنية بمعناها الإسلامي الحق ـ العلامة المجتهد الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، فما تحرك الإعلام للحديث عنه، وعن دعوته الخيرة، وعن جهاده الإسلامي الذي دام ما يزيد على نصف قرن من الزمن، إن الهلالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حي في كل قلب مسلم، ولن يغير حجم جهاده الكبير إذاعة خبر عن موته أو كتابة كلمات هزيلة عن دعوته».

* ونشرت جريدة «الميثاق» المغربية السنة (٢٤) العدد (٥٣٨) بتأريخ فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ تحت عنوان (وفاة الدكتور تقي الدين الهلالي) ما نصه:

«فجع المغرب والأوساط العلمية والحركات الإسلامية في كل البلاد بوفاة الأستاذ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي؛ الذي وافاه الأجل المحتوم يوم الاثنين ٢٥ شوال ١٤٠٧ بالدار البيضاء، عن سن تزيد بضعة

أشهر على ستة وتسعين عامًا، قضاها جميعًا في نشر العلم والدعوة إلى الإسلام الصحيح، والعمل بالسنة في الداخل والخارج، لا سيما في السعودية والهند ومصر، ويمتاز الدكتور الهلالي بقوة الحجة وسرعة الإقناع لتضلعه في علم الكتاب، وتوسعه في علم الحديث، مع طلاوة حديثه وفصاحة لسانه، مما استفاده من كبار الشخصيات التي لقيها في رحلته الواسعة في الشرق والغرب، وله عدة كتب في الدعوة والثقافة والأدب تأليفًا وترجمة ونشرًا، ومن آخر ما ألفه كتاب «سبيل الرشاد» في عدة مجلدات أخرج منها اثنين، وأما لقاءاته الأدبية ومحاضراته العلمية فشيء يطول الحديث عنه والإلمام به.

رحمه الله رحمة واسعة، وبوَّأه مكان صدق عنده جزاء بما قدم لأمته من الأعمال والنصائح الغالية الخالدة، وإنا لله وإنا إليه راجعون».

* ونشرت مجلة «صوت الأمة» الهندية، المجلد الأول، العدد الثاني، شعبان ١٤٠٨هـ (ص٤٥ ـ ٥٤) تحت عنوان: (من أعلام السلفيين: خاتمة شاهد قرن: كيف ودّعت المغرب العالم المجاهد د. محمد تقي الدين الهلالي، أخذ من المذاهب المختلفة ما يوافق السنة المطهرة غير متعصب لمذهب معين) ما نصه:

«﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧].

توضأ الشيخ الوقور، المؤمن بربه حقًّا لصلاة عصر يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر شوال عام ألف وأربع مائة وسبعة من الهجرة، الموافق للثاني والعشرين من شهر يونيو سنة ألف وتسع مائة وسبعة وثمانين للميلاد. توضأ رغم كبر سنه وعجزه الذي ألزمه الفراش حيث عمر قرنًا من الزمن، فصلى العصر كعادته متكئًا بمساعدة زوجه

وربيبته اللتين اهتمتا بشأنه غاية الاهتمام طيلة عجزه عن القيام، وحدثته نفسه قبل أربعة أيام فقط وهو في عجزه هذا بالغزو والجهاد في سبيل الله، فقال لزوجه وربيبته: إن لم أستطع الوقوف فاحملاني واخرجا بي لمواصلة الجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله.

قال ذلك وأيام العمر، بل ساعاته تقترب من النهاية، ولم يكن يعلم بها إلا الباري ﷻ، وكأنه بذلك أراد أن يربط حلقات العمر الطويل الأخيرة بحلقاته الأولى، التي كانت كلها جهادًا ودعوة إلى الله، وقبيل غروب الشمس بنصف ساعة تقريبًا شعر بارتياح لم يعهده خلال فترة عجزه عن القيام، فطلب من أحد الإخوان الحاضرين بجانبه ـ وهو من أقرباء زوجه ـ أن يتلو ما تيسر من القرآن، وهو الذي ما انفك منذ أن صار طريح الفراش يستمع إلى تلاوة الشيخ محمود خليل الحصري بالغدو والآصال، لا يتوقف عن سماع القرآن إلا إذا كان في وضوء أو صلاة أو زيارة الإخوان له، ويوم طلب من هذا الأخ الحاضر بجانبه أن يتلو عليه ما تيسر، تلا عليه، وهو يستمع وينصت، وسبابته اليمين إلى السماء، سورة ﴿يسٓ﴾، ثم طلب منه بعد أن أتمها أن يعيد قراءتها فأعادها عليه، وما أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] حتى أسلم نفسه لله، ورجعت إلى ربها راضية مرضية.

هكذا كانت خاتمة هذا الشيخ الجليل؛ بل هكذا كانت خاتمة ووفاة والدي وشيخي الدكتور تقي الدين الهلالي، تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته.

ويصل الخبر في تلك الليلة إلى مدن المغرب وقراه، فيتوافد على منزله بالدار البيضاء من عرفه وتتلمذ عليه وقرأ له وأحبه وقدره.

وبعيون دامعة، وقلوب خاشعة، وألسنة داعية بالرحمة والمغفرة،

تقدم الجنازة صباح يوم الدفن جميع تلامذته ممن علمهم العقيدة الإسلامية الصحيحة.

وتعود الجموع الغفيرة المشيعة بعد الانتهاء من الدفن بقلوب حزينة، يعزي بعضهم بعضًا، فقد كان المصاب عظيمًا، وكان الرزء فادحًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[1].

* عالم مجتهد ومحدِّث حافظ

لقد كان هذا الشيخ الجليل، عالمًا مجتهدًا، عالمًا محدِّثًا محققًا حافظًا، وفقيهًا حكيمًا، غير متعصب إلى مذهب من المذاهب الفقهية، بل يأخذ منها جميعها ما وافق السنة، فمذهبه هي السنة؛ سواء رواها أبو حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد بن حنبل، لا يلتفت إلى ما سواها من الآراء المخالفة لها، يدافع عنها بكل جهده، بلسانه وقلبه، وكان ناقدًا بصيرًا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يخاف في الله لومة لائم، وكان بحق إمامًا سلفيًّا جامعًا بين العلوم النقلية والعقلية بأنواعها، وإمامًا علامة في اللغة والنحو والأدب والقراءات والتجويد، يتقن سبع لغات أو أزيد: العربية، والبربرية، والعبرية، والسريانية، والهندية، والإنجليزية، وخاصة الألمانية التي حصل بها على شهادة الدكتوراه في الفلسفة والأدب من جامعة «بون» الألمانية سنة ١٩٤٠م؛ حيث ترجم مقدمة كتاب «الجماهر في الجواهر» للبيروني، مع التعليق عليها وتفنيد آراء الفلاسفة المستشرقين.
وكثيرًا ما كان ينشدنا هذين البيتين:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه ... وكانت له عند الشدائد أعوانُ
فبادر إلى حفظ اللغات مسارعًا ... فكل لسان في الحقيقة إنسانُ

(١) تقدم هذا بالحرف قريبًا عن جريدة «أخبار العالم الإسلامي».

وكان شاعرًا عبقريًّا صرف جل شعره في الذود عن عقيدة التوحيد والسنة المطهرة، وهاجم بقوافيه البليغة أهل الشرك وأصحاب البدع، وأرسلها عليهم شهبًا محرقة تدمغ باطلهم، وتقصف إفكهم، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في مطلع قصيدة له:

سِلام بكسر السين في قصفة الرعد   إلى عابد الأوثان في السهل والنجد
تعممهم طرًّا وتختص مارقًا   تصدى بلا علم لهجو أولي المجد[1]

وكان مثالًا فذًّا في الصدق والصراحة، وفريدًا من نوعه في تطبيق ما يقوله ويدعو إليه.

* جهاده في سبيل الدعوة

كان هدفه طول حياته تصحيح عقيدة الناس، وإبعادهم عن عبادة غير الله، ودعوتهم إلى التوحيد الخالص: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الاتباع، وحذر من الشرك، والتعلق بالأوثان، وطلب المدد والعون والاستغاثة بالقبب المبنية على القبور، ودليله في ذلك الأحاديث المروية عن النبي ﷺ، ومنها ما رواه الإمام مالك في «الموطأ» عن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وروى مالك أيضًا عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج». رواه أهل السنن. قال أبو عمر ابن عبد البر النمري صاحب كتاب «التمهيد»: «هذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء والصالحين

(١) «منحة الكبير المتعالي» (ص٧٠٦ ـ ٧٠٧).

مساجد». أي: يحرم على المسلمين أن يبنوا على القبور، ويتخذوها مكانًا للصلاة، ففي «الصحيح» عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**».

فما أبعد الناس اليوم عن تعاليم دينهم وسنة نبيهم، فقد اتخذوا عند قبور الصالحين، أو قبور لا يعرف أصحابها، مواسم وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، فوقعوا ـ والعياذ بالله ـ فيما حذر منه النبي ﷺ ونهى عنه، وشدَّد في النهي بقوله ﷺ فيما رواه إمام دار الهجرة مالك بن أنس: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

فأجاب ربُّ العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدرانِ
حتى غدت أرجاؤه بدعائه في عزة وحماية وصيانِ

كان الشيخ الفاضل رحمه الله يدعو أيضًا إلى اتباع السنة وينفر من البدعة، وكثيرًا ما يذكر في دروسه الأثر المروي عن مالك في كتاب «الاعتصام» للشاطبي: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة؛ لأني قرأت قول الله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ قال مالك: فما لم يكن يومئذٍ دينًا لا يكون اليوم دينًا».
وكان رحمه الله تعالى يردد علينا ما كان يردده أيضًا الإمام مالك:

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع

هكذا كانت حياة شيخنا ومربينا، فلقد طاف بالبلاد ـ بلاد الله ـ من مشرقها إلى مغربها، داعيًا إلى الله صابرًا ومحتسبًا الأجر والثواب من الله عز وجل. يقول عن نفسه في قصيدة رائعة:

وطفت بلاد الله شرقًا ومغربًا   على قدمي طورًا وطورًا على مهر
وأنضيت بعرانا وحلقت في السما   على جائبات الجو كالنجم إذ يسري
وطورًا على فلك عظيم كأنه   ثبير يروع الحوت في لجة البحر
حليف اغتراب في ثواء ورحلة   وإن كنت في أهل كثير ذوي وفر
وما غربة الإنسان من شقة النوى   ولكنها في الدين والخلق والبر
إلى الله أشكو غربة الدين والهدى   وطغيان أهل الكفر والفسق والغدر(١)

*** زياراته ورحلاته العلمية**

نعم طاف بالبلاد داعيًا إلى الله بصدق وإخلاص، منافحًا ومجاهدًا، مدرسًا وأستاذًا مبرزًا، واعظًا ومرشدًا، مربيًا ورائدًا، إمامًا وخطيبًا، مؤلفًا وناشرًا ناقدًا ومترجمًا، مذيعًا ومصححًا.

عرفته مصر، وعرف فيها رجالاتها المصلحين، ومنهم إمام الدعوة في زمانه الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمة الله عليه ـ، والمفتي الكبير الشيخ محمد أمين الحسيني، والشيخ محمد الرمالي، والشيخ حسن عبد الرحمٰن، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح، والشيخ حامد الفقي، والشيخ الألمعي عبد العزيز الخولي.

وعرفته الهند أستاذًا يدرس الأدب العربي، ويأخذ فيها الإجازة في رواية الحديث عن شيخه العلامة عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري صاحب كتاب: «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي»، ويجيزه كذلك العلامة الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني، نزيل بهوبال، ونبغ على يديه هناك علماء أجلاء منهم الأستاذ الشيخ أبو الحسن علي الندوي، والأستاذ مسعود الندوي

(١) «منحة الكبير المتعالي» (ص٣٨٤ ـ ٣٨٥).

وغيرهما من العلماء والأدباء، فلا غرو أن يذاع صيته بين علماء الهند وأدبائها.

ثم يستوطن العراق، ويتعرف فيها على كثير من علمائها الأجلاء، وخاصة العالم السلفي الأديب والمحدث المحقق الشيخ محمد أمين الشنقيطي[1]، فزوَّجه ابنته وكان له منها شكيب وخولة، وانتفع كثيرًا بمجالسته ومذاكرته.

وتستضيفه المملكة العربية السعودية سنة **١٣٤٣**هـ في عهد قائدها الإمام الهمام ناصر عقيدة التوحيد وناشر لواء الحق والعدل الملك الراحل عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود تغمده الله بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جناته. فيكرم وفادته ويقربه من مجلسه، خاصة وقد حمل معه تزكية عظيمة من الإمام محمد رشيد رضا إلى الملك عبد العزيز ينوه فيها بعلمه الغزير. فينشد قصيدة وهو جالس إلى جنبه بعد أن أهداه كتابه القيم «القاضي العدل» ويقول:

يا أيها الملك الذي سعدت به ... أرجاء مكة والحطيم وزمزم
وكسى الإله به بلاد العرب ثو ... ب أمانه فغدت به تتنعم
وأشاع نور العلم والإيمان في ... أرجائها والجهل فيها مظلم
هذا هو القطب الكبير ديانة ... وشجاعة وعدالة إذ يحكم
قطب السياسة والمكارم والعلا ... حامي الحقيقة في الوغى لا يحجم
يلقى الوفود ووجهه متهلِّل ... رائيه مغتبط به متنعم[2]

عين مدرسًا في مسجد الحرام، والمعهد السعودي، ومراقبًا للمدرسين. وكانت له صحبة طويلة ومتينة مع خيرة علماء نجد والحجاز،

(١) ليس هو صاحب «التفسير».
(٢) «منحة الكبير المتعالي» (ص٥٣٤ ـ ٥٣٥).

ومنهم العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، مفتي المملكة آنذاك، وقد أخذ عنه هذا الأخير علم العروض، وأخذ عنه عمر بن حسن آل الشيخ إجازة في جميع مروياته، وأخذ عنه كذلك الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ رحمه الله تعالى، وتتلمذ على يديه مجموعة من خيرة العلماء والأدباء، ومنهم الأستاذ الأديب الشيخ محمد بن ناصر العبودي، والشيخ عبد الله الخياط إمام الحرم المكي سابقًا. وكان له كذلك صداقة متينة مع جد الدكتور عبد الله نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، وعرفه شيوخ أجلاء وكانوا يقدرونه أيما تقدير، منهم الشيخ محمد بن عبد الله السبيل إمام الحرم المكي ونائب رئيس إدارة الحرمين الشريفين، والشيخ محمد صالح التويجري، والشيخ سليمان المنيعي بالحرم المكي، والشيخ حماد الأنصاري أستاذ علم الحديث بالجامعة الإسلامية، والشيخ عمر فلاتة، والشيخ أبو بكر جابر الجزائري، والشيخ محمد بن عبد الوهاب البنا، والشيخ سويلم وكيل مطاوعة جلالة الملك عبد العزيز.

ويعود مرة أخرى إلى المملكة العربية السعودية بعد غيبة طويلة سنة ١٣٨٨هـ، فيلتقي بالعالم الورع الذي يقل نظيره في هذا العصر ألا وهو سماحة الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ أطال الله بقاءه وأدام في سماء المعالي ارتقاءه[1] ـ الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ورئيس الجامعة الإسلامية سابقًا، فيدعوه سماحته إلى التدريس بالجامعة الإسلامية قائلًا: إن الجامعة الإسلامية في حاجة إليك. فيلبي الطلب، وكان يكن لسماحته أعظم التقدير والمحبة، ويثني عليه دائمًا وأبدًا الثناء الجميل، ويشاء الله أن أكون في أول شهر رمضان من هذه السنة من يحمل سلامه الزكي وتحياته

(١) رحمه الله تعالى، فقد توفي في سنة ١٤٢٠هـ.

الطيبة شفاهيًّا إلى سماحة الشيخ عبد العزيز فيسألني عن حاله. وبعد أن أخبرته أنه طريح الفراش في المستشفى دعا له بهذا الدعاء الذي حفظته منه وبلغته إياه قبل وفاته: «اللهم أحسن له الخاتمة، اللهم أحسن له الخاتمة، اللهم أحسن له الخاتمة» قالها ثلاثًا. وكأن الله استجاب دعاء سماحته.

ونسأل الله جلت قدرته أن يشمله بعفوه ويتغمده بواسع رحمته، ويكرم ضيافته، ويجعله من الذين سبقت لهم منه الحسنى.

وعرفته أيضًا في تطوافه بلاد أوربا، وفي جنيف يلتقي بصديقه العزيز الزعيم المجاهد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، فيكون واسطة له في الدخول إلى ألمانيا ليكون أستاذًا للأدب العربي يدرسه باللغة الإنجليزية التي تعلمها سابقًا في الهند، ومرجعًا لغويًّا بإذاعة ألمانيا العربية، وطالبًا بجامعة «بون» ليحصل فيها بعد أربع سنين من الكد والجد والاجتهاد والعزيمة القوية ليحصل على شهادة الدكتوراه باللغة الألمانية، ووجدها فرصة سانحة أثناء تعيينه مشرفًا ومرجعًا لغويًّا بالقسم العربي من الإذاعة الألمانية لفضح جرائم المستعمرين لبلده المغرب الحبيب من الفرنسيين والإسبانيين، فألقى من على منبر تلك الإذاعة خطبًا كانت على المستعمرين خطوبًا، فنفته فرنسا بسببها نفيًا رسميًّا مع أنه كان غائبًا عن بلده!

ومن قبل عرفته أفغانستان، وعرف فيها شيوخًا كثيرين، ومنهم العالم الأمير المجاهد الشيخ عمر أوزبك.

ثم عرفته أرض المغرب ـ موطنه الأول ـ عرفته وهو يدافع عنها المستعمر الغاشم بلسانه وقلمه دفاعًا مستميتًا، فكاد له المستعمر كيدًا عظيمًا، فحفظه الله من كيدهم ومكائدهم، ورغم ذلك لم يثنه كيدهم عن

عزمه ومواصلة كفاحه وجهاده، فيعلن للمستعمر في تصريح لم يسبقه أحد إليه ولا نطق به قلبه، ولا يحفظه له إلا المجاهدون الحقيقيون والوطنيون الغيورون والمصلحون المخلصون أمثال: شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي، والأستاذ علال الفاسي، والأستاذ عبد الخالق الطُّرَيْس، والمجاهد عبد الكريم الخطابي، والأستاذ أحمد بلافريج، والعالم الأديب الأستاذ عبد الله كنون، والأستاذ محمد الطنجي، وغيرهم من زعماء الإصلاح، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلًا.

يصرح في لهجة شديدة، وقلب غير وَجِلٍ: «إن المغرب للمغاربة، لا حق في الاستيلاء عليه لفرنسا ولا لألمانيا ولا لإسبانيا». والمستعمر لا زال آنذاك يسيطر على المغرب وغيره من البلاد العربية والإفريقية، وكان لتصريحه يومئذٍ أشد الوقع وأنكأه على المستعمرين، وأثلج قلوب المغاربة الأوفياء المخلصين. ويرى من هناك من وراء البحار سنا الحرية يقترب من بلاده ليزيل عنها الظلام، فيبعث إلى صديقه عبد الخالق الطريس بهذه الأبيات من أرض الغربة:

سَنَا الحرية الغَرَّاء لاحَا ... فصَيَّر حَنْدَسَ الظَّلْمَا صَباحا
سِلَاحُ الْحَقِّ لا يخشى فُلُولا ... ويلقى من يَصُولَ به النجاحا
فيا حزبًا غَدَا للخير يسعى ... لِيُبْدِلَ خُسْرَ أُمَّتِهِ رَبَاحا
سَلامُ الله يهديه إليكم ... دوامًا ما غدا غادٍ وراح
أَخٌ لكُمُ بِنَارِ البَيْن يُصْلَى ... غريبًا مَا أَقَام ولا استراح
ولم يَنْسَ البلاد وساكنيها ... ويذكرها العشية والصباحا(١)

ويستقل المغرب، فيعود الدكتور محمد تقي الدين الهلالي إلى بلده بعد غيبة طويلة، تنقل فيها في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وغيره،

(١) «منحة الكبير المتعالي» (ص٢٤١، ٢٤٢).

داعيًا إلى الله ومدافعًا عن الإسلام، يعود وقلبه ممتلئ حبًّا وخيرًا لأبناء وطنه ولكل مسلم أينما كان، فيفرح فرحًا عظيمًا باستقلال المغرب وعودة ملكه إليه مظفرًا منصورًا، فيصور ذلك في قصيدة رائعة مطلعها:

ألا إن الاستعمار هاوٍ وبائر ... ومن مَطْلَع الأَقْمار لَاحَتْ بشائر
أبى الضَّيْمَ في أرض المغارب ضَيْغَم ... فأقبل من عَرِينِه[1] وهو زائر
وقال للاستعمار زُلْ عن بلادنا ... فإنني عليك اليوم قاضٍ وقَابِر
سَأُسْقِيك سمًّا لا بَقَاءَ لك بعده ... وشَعْبِي مِنْ خَلْفِي أُسُود حَوَاصِر[2]

ولم يفته آنذاك أن يحث على استكمال وحدة المغرب، بل لم يفته أن يستنهض الهمم لاستقلال المغرب العربي كله:

ألستم ترون الجيش عند عدوِّكم ... يُرابِطُ في أوطاننا وهو كَاشِرُ
وصَحْرَاؤُنا ما أن تزال أسيرة ... فيا نعم مأسور ويا بئس آسرُ
وجيشُ لُيوثِ في الجزائر رَابِض ... يدافع عن أوطاننا وهو صابرُ[3]

ويقول أيضًا في نفس القصيدة:

وإن كنت لا تدري حدود بلادنا ... فدونك فاحفظ ما أنا لك ذاكر
فمن سنكال في الجنوب حدودها ... إلى أرض مصر قد حَوَتْها القَمَاطر
نُناضِلُ عنها الدَّهرَ مَنْ جاءَ غازيا ... وتَحْصُده مِنَّا السيوفُ البَوَاتِر

ولم يفته أيضًا أن يبين السر في نجاح الأمة، وبأي شيء تنال العز والنصر فيقول:

ومَنْ ظَنَّ أن العِزَّ يُدْرَك والمُنَى ... بكُفرٍ وإلْحَادٍ فذلك هاذر

---

(١) في «الديوان»: «عِرِّيسِهِ».
(٢) «منحة الكبير المتعالي» (ص٣٧٠، ٣٧١).
(٣) «منحة الكبير المتعالي» (ص٣٧٣).

أوائلنا بالدين والسِّلْم أفلحوا وبالدين والإسلام تعلو الأواخر[1]

المجلة:

ومما يذكر في سبيل الرحلات العلمية التي قام بها الفقيد ـ رحمه الله تعالى ـ مشاركته في مؤتمر الدعوة والتعليم الذي عقدته الجامعة السلفية بنارس عام ١٤٠٠هـ، وبهذه المناسبة العلمية وجهت الدعوة إلى الفقيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فتكرم بالحضور وساهم بكلماته القيمة النافعة في المؤتمر. وقد تم نشر كلماته ومقترحاته بخصوص الدعوة في أحد أعداد مجلة «الجامعة السلفية» الذي صدر خاصًّا بهذا المؤتمر ربيع الآخر عام ١٤٠٠هـ». انتهى.

* ونشرت صحيفة «الميثاق» أيضًا في العدد (٥٣٨) السنة (٢٤) فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ ـ في السنة التي مات فيها ـ بقلم تلميذه وصهره الشيخ الأستاذ عبد الكبير البكري مقالة مهمة في ترجمته، وهي بعنوان: (نجم أفل)، جاء فيها ما نصه:

«عشية يوم الاثنين ٢٥ شوال ١٤٠٧، الموافق ٢٢ يونيو ١٩٨٧ انتقل إلى جوار ربه عالم من أَكابر علماء العصر، وهو العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الفلالي المغربي، الذي كرس حياته لخدمة العلم والدين والدعوة إلى الله. لقد كان هذا الرجل العصامي مطبوعًا على العظمة بلا تكلف ولا تصنع، يكتسب المعالي سائرًا سائحًا غير هياب؛ لأنه وُهِب من الحزم والعزم ما يقتحم به العقبات ويذلل به الصعاب.

ولد هذا الرجل الذي فقده الإسلام في تفلالت، وبالضبط في الريصاني قصر أولاد عبد القادر بن هلال في شهر المحرم عام ١٣١١

(١) «منحة الكبير المتعالي» (ص٣٧٣، ٣٧٤).

هجرية، الموافق **١٨٩٣** ميلادية. مات أبوه بعدما أحفظه القرآن وعلمه التجويد، فخرج من تفلالت وجعل ينتقل من قبيلة إلى قبيلة في البوادي يعلم الصبيان كتاب الله. ولما أراد الله أن يفتح له أبواب العلم هيأ له أسبابه، فبينما هو يعلم الصبيان عند قبيلة من قبائل الحدود المغربية الجزائرية إذ مر بهم عالم شنقيطي ومعه تلاميذه، ففتح لهم درسًا في النحو، ولم يسبق للهلالي أن سمع بهذا العلم ولا حضر دروسًا من دروسه، ولما أتم الشيخ الدرس توجه إلى أحد التلاميذ واسمه محمد المختار ليسأله عن هذا الكلام الذي لم يعرفه، فقال له: إن هذا شيء بعيد عنك، اذهب إلى صبيانك لتعلمهم، وضحك مستهزءًا به، فكان هذا التهكم والاستهزاء هو الزند الواري الذي أوقد في قلبه نار الغيرة والحماس والشجاعة والإقدام، وحرك كل ما كان كامنًا في نفسه من الصفات التي يرتقي بها العظماء إلى أعلى الدرجات. وهنا توجه إلى الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله وسأله، فقال له: هذا العلم يسمى علم النحو، فقال: وهل يمكنني أن أقرأه، وأين؟ فأجاب الشيخ: نعم، وعندي، فعاهده على أن لا يفارقه، وذهب معه إلى البلدة التي كان الشيخ مقيمًا بها وتسمى المشربة، قرية بالجزائر تبعد عن وجدة بنحو **١٦٠** كلم، وما بقي معه إلا مدة قليلة حتى انفجرت يَنَابِعُ نبوغه وذكائه الوقاد، فبزَّ أقرانه واستطاع بما أتاه الله من المواهب أن يغوص في بحور العلم من نحو وفقه ولغة وتفسير وأدب.

وفي يوم من الأيام فاجأ الناس بقصيدة رائعة مدح بها الشيخ سكيرج قاضي وجدة، فكشفت الغطاء عن شخصيته، وهنا قال الشيخ لأحد أصدقائه أن هذا الشاب سوف لا يكتفي بما عندي ولا بما في القرويين، وسيشرِّق ويشتد خبره. وتحققت فراسة الشيخ، ففي سنة **١٣١٢**هـ ـ **١٩٢٢**م أخذ الهلالي عصا التسيار، وعزم على التجول في

الأقطار، فركب البحر متوجهًا إلى مصر، ثم منها إلى الهند وباكستان ثم العراق، ولما أراد الخروج من الهند بعد ما قرأ فيها الحديث على الشيخ أبي خليل محمد بن حسين بن محسن اليمني، وبعد ما فتح مدرسة كون فيها أساتذة وكتابًا وأدباء، أقول: لما أراد الخروج وجاء إلى الحدود وخاطبه رجال الشرطة الذين هم إنكليز بلغتهم، ورأى أنه لم يستطع فهم كلامهم ولا الرد عليهم عدل عن الخروج ورجع عازمًا على ألّا يخرج حتى يخاطبهم بلغتهم، فتتلمذ على أحد الرهبان المسيحيين! فدرس اللغة الإنكليزية؛ اعتنى بحفظ مفرداتها ولم يبح لنفسه الخروج حتى ترجم كتاب «مدنية العرب في الأندلس» من الإنكليزية إلى العربية، وبهذه اللغة استعان على الدراسة في ألمانيا التي حصل فيها على الدكتوراه في الفلسفة والأدب.

وقبل الذهاب إلى ألمانيا أقام مدة بالحجاز كان فيها واعظًا مرشدًا رسميًّا، ثم بالعراق الذي كان فيه واعظًا ومدرسًا في كلية الملكة عالية، وقد جردته فرنسا من الجنسية المغربية ـ في زعمها ـ ولذلك لم يستطع الدخول إلى المغرب الذي كان تحت النفوذ الفرنسي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لإنقاذه من الحلفاء الذين حكموا عليه بالإعدام؛ هيأ له الوطني الغيور المرحوم الأستاذ عبد الخالق الطريس جواز سفر على أنه شمالي، وبه دخل إلى شمال المغرب عام ٤٦، وأصدر مجلة سماها «لسان الدين»، كانت حقيقة لسان الدين، وكان يكتب فيها جماعة من العلماء البارزين والوطنيين المخلصين، ومنهم العلامة الكبير شيخنا الأستاذ سيدي عبد الله كنون، ثم رجع إلى العراق وبقي مدرسًا به في كلية الملكة عالية إلى أن جاء الاستقلال، فدخل إلى المغرب المتحرر وتفرغ للتدريس والتأليف والكتابة ونشر الدعوة، ليتجرد إلى الدعوة والتبليغ والكتابة، إلى أن وافته المنية عن سن يناهز المائة، فلم تزلزله الزلازل،

ولم تزعزعه الفتن؛ وإنما كان يثبت ثبوت الجبال الراسخات الشامخات.

وجملة القول: إن هذا الرجل الذي جعل من أيام حياته حبرًا، ومن أعماله قلمًا، ومن الأرض صحيفة يخط فيها تاريخ حياته، ويترك بصماته كلما مر ببلدة من البلاد أو قطر من الأقطار أو قارة من القارات، لا يكفي لترجمته بعض الصفحات. ونكتفي بهذا القدر حتى يهبنا الله وقتًا لتحرير رسالة تصور حقيقة هذا الرجل الفذ الذي استحق بمواقفه وأعماله أن ينخرط في صف الخالدين، فسلام عليه في الأولين وسلام عليه في الآخرين وسلام عليه إلى يوم الدين، وغفر الله لنا وله ولجميع المسلمين».

* ورثاه جمع من تلاميذه، منهم شيخنا العلامة محمد بوخبزة، ومما جاء في مرثيته التي هي بعنوان «أنقذنا بفضل الله» ـ ومن خطه أنقل ـ:

هي الدنيا تسير إلى زوال ... وبهجتُها خيالٌ في خيالِ
نعيش بها سُويعاتٍ نيامًا ... فتوقظنا المنية بالنِّبالِ
ألا يا ناعيَ العِرفانِ أبصر ... أتدري من نعيت من الرجال؟
تقي الدين فخر بني هلال ... تُوفِّي فانتشى حزبُ الضلال
قضى شيخ الدعاة فكل حُرٍّ ... بآلامِ الفجيعة ذوِ اعتلال
فقد أمضى يجاهد في دروب ... بياض العُمْرِ ممتاز الخِلالِ
يحبِّر للهدى كتبًا ويُملي ... دروسَ العلمِ يدعو للنزال
فأنقذنا بفضل الله مما ... سرى فينا من الدَّاء العُضَالِ

ورثاه أيضًا تلميذه محمد بن عبود، فقال:

ماذا يفيد البكا في النائبات إذا ... تصدعت بيننا الأركان والعمدُ
لقد هوى الركن من بنياننا فلنا ... من هوله نكبة لم ينسها الأبدُ
«دكتورنا» الرجل الصنديد مفخرة ... عزيزة كلما يستذكر العددُ

لسانه الصارم المقوال عدته يراعه المنتج السيال والمددُ
إذا قرأت سبيلًا للرشاد فعن ذاك السبيل من الأغواء تبتعدُ
هذا الرثاء ولكن لا مبالغة ولا غلو بما في القول ينتقدُ
هي الحقيقة لا أعدو الحقيقة في قولي، فلا ملق فيها ولا فندُ
رحماك ربي لروح أنت قابضها أنت الرحيم لها الغفار يا أحدُ(١)

رحم الله الهلالي وغفر له، وألحقنا به في الصالحين، وبوّأه درجة الصدّيقين، آمين، آمين، آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وترجم له جمع من محبيه ومريديه وعارفيه.

(١) جريدة «الإصلاح»، جريدة نصف شهرية مغربية، العدد السابع.

ترجمة الهلالي بخطِّه(١)

كتبها في المملكة العربية السعودية، في فندق التحرير في المدينة النبوية

يقول تقي الدين محمد بن عبد القادر الهلالي الحسيني المغربي:

ولدتُ سنة ١٣١٢ تقديرًا من الهجرة في قرية تسمى: (الفيضة القديمة) من وادي يغل بسجلماسة، وقرأتُ القرآن برسمه وتجويده؛ فحفظته وعمري اثنتا عشرة سنة، وفي نحو العشرين أخذتُ في طلب العلم في القرى والبادية، ثم دخلتُ مدينة فاس، وقد حصَّلتُ علوم العربية والدينيَّة، وتخرَّجتُ من كلية القرويين ـ وكانت تسمى (جامعة) ـ سنة ١٣٤٠هـ، ثم رحلتُ إلى مصر، وأقمتُ فيها سنة، لقِيتُ السيِّد رشيد رضا وجماعة من أصحابنا السلفيين، واستفدتُ بمذاكرتهم ومجالستهم، وحججتُ لأول مرة سنة ١٣٤١هـ، ثم سافرتُ إلى الهند ولقيتُ أستاذي عبد الرحمٰن المبارك فوري، وقرأتُ عليه ما تيسَّر من كتب الحديث من الكتب الستة وغيرها، وكان يأبى إلا أن يُطعمني من طعامه، وكان

(١) أرسلها لي أول مرة الأخ الفاضل والباحث النابه عبد الإله الشايع، جزاه الله خيرًا، وكان ذلك في ١٤٢٦/٧/٢٤هـ، وهي من محفوظات مكتبة جامعة الملك سعود، واستُخرجت منها قبل الفهرسة، وهي محفوظة ضمن مجموعة الشيخ سليمان الصَّنيع، تحت رقم (٨١٠٩)، ثم رأيتُ مصوَّرتها منشورة في كتاب «الثمر الينيع في إجازات الصَّنيع» (ص٥٢٢ ـ ٥٢٥) تأليف أبي زكريا صالح بن سليمان الحِجِّي.

يقدِّمني في الصلاة لتجويد القرآن، وحين أردتُ فِراقه؛ وضع في يدي ورقة نقدية قيمتها عشرين، فردَدتُها عليه؛ فبكى بكاءً شديدًا، وأخذ يقول ـ ودموعه تسيل على لحيته ـ: (اِقبلْ مني! اِقبلْ مني!)، فندمتُ على ردِّها، وكان زاهدًا لا يعيش إلا بما يأخذه من علاج المرضى، وكان يجلس في عيادته من العصر إلى المغرب فقط، وسائر أوقاته يقضيها في التأليف والتعليم، رحمة الله عليه، فما رأيتُ في علماء المشرق مثله، ثم رجعتُ من الهند إلى العراق سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة وألف، وفي أواخر سنة **١٣٤٥**هـ حججتُ للمرة الثانية، ثم عُيِّنتُ مدرِّسًا ومراقبًا للمدرِّسين في المسجد النبوي، وبقيتُ سنتين، ثم انتقلتُ إلى مكة، وأقمتُ فيها سنة؛ كنتُ مدرِّسًا في المسجد الحرام وفي المعهد السعودي، ثم انتقلتُ إلى الهند؛ فدعاني السيد سليمان الندوي لأن أكون رئيسًا لأساتذة اللغة العربية في (النَّدوة)، وكان ذلك في أول سنة تسع وأربعين وثلاث مئة وألف، وفي سنة **١٣٥٢**هـ تركتُ الهند بسبب توالي المرض، وأقمتُ في الزُّبير، وكنتُ معلِّمًا في مدرسة ابتدائية هي (مدرسة النجاة)، وفي سنة **١٣٥٥**هـ سافرتُ إلى أوروبا، وهي توافق سنة **١٩٣٤**م، وسأُؤرِّخ منذ الآن ـ على كُرهٍ مني ـ بتاريخ النصارى، فتولَّيتُ تدريس الأدب العربي والعلوم الإسلامية في القسم الشرقي من الجامعة في (بُن)، وأخذتُ أتعلَّم اللغة الجرمانية، ودخلتُ الامتحان فيها؛ فنجحتُ في أقل من سنة، ثم دخلتُ طالبًا في الجامعة بإذن من وزير المعارف في برلين، وبموافقة جماعة من العلماء وشهادة بُعثَت إليَّ من المغرب، وفي سنة **١٩٣٩**م انتقلتُ إلى برلين طالبًا ومدرِّسًا ومرجعًا لُغويًّا للإذاعة العربية هناك، ولم أجد وقتًا للتدريس؛ لاشتغالي بالتعليم والإذاعة، وفي السادس عشر من مايو سنة **١٩٤٠** قدَّمتُ رسالة الدكتوراه باللغة الجرمانية؛ وهي ترجمة مقدِّمة كتاب «الجماهر في الجواهر»، مع

تعليقات ردَدتُ فيها على أكبر العلماء الجرمانيين؛ وهما: Pr. Sachou وA. Prockel Man (الأستاذ سخاو والأستاذ بروكيلمان) في زعمهما أن البيروني كان عِلمه وعقله أعظم من أن يتقيَّد بالإسلام، ومفتريات أخرى، وناقش الرسالة عشرة من العلماء الجرمانيين، فسلَّموا ذلك بالإجماع، ودخلتُ الامتحان الشفهي في الوقت نفسه، فنجحتُ فيه بدرجة عالية، وفي سنة **١٩٤٢**م انتقلتُ إلى تطوان شمال المغرب بطريق فرنسة وإسبانية، وأقمتُ هناك خمس سنين، وعلِمتُ أن الفرنسيين نفوني نفيًا رسميًّا، وأمروا بالقبض عليَّ إنْ تجاوزتُ الحدود بين المنطقتين التي كانت تسمى (إسبانية) والمنطقة التي كانت تسمى (فرنسية)، وفي سنة **١٩٤٧**م ـ بعد جهود كبيرة شارك فيها عبد الرحمٰن عزام والحبيب أبو رقيبة ومحمد علي الطاهر ـ رجعتُ إلى العراق وعُيِّنتُ مدرِّسًا في كلية الملكة عالية، ومحاضِرًا في كلية الآداب، ثم أعطيتُ لقب (أستاذ معاون)، ثم أعطيتُ لقب (أستاذ)، وفي سنة **١٩٥٣**م جاء طلب من وزارة المعارف الجرمانية إلى وزارة المعارف العراقية بإفادتي إلى جامعة (بُن) للتدريس فيها سنة؛ فتوَجَّهتُ إلى (بُن) ودرَّستُ في الجامعة سنة، وفي أواخر سنة **١٩٥٤**م رجعتُ إلى بغداد، وفي سنة **١٩٥٥**م نُقلتُ إلى دار المعلِّمين العالية؛ وهي مِن كُبريات كليات بغداد، عدد طلبتها (**٩٠٠**)، ولا أزال فيها إلى الآن، وأسأل الله أن يختم علي بالحسنى، وصلَّى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه أجمعين.

الدَّعْـوَةُ إِلـى اللّٰه فِي أقطارٍ مُختلِفة

لِلدّكتورِ الدّاعِيَةِ

مُحَمَّد تقي الدِّين الهلالِي

رَحِمَهُ الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي جعل الدعوة إليه فرضًا على كل من استطاع إليه سبيلًا، وأوعد باللعنة من كتم العلم واشترى به ثمنًا قليلًا. أشهد أنه الله الذي لا إلٰه إلا هو وأتَّخذه وكيلًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي فضَّله على خلقه تفضيلًا.

اللّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الذين كانوا يدعون إلى الله ويسبِّحونه بكرة وأصيلًا.

أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى الكبير المتعالي، محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي: سألني خلقٌ كثير من الإخوان في المشرق والمغرب، أخصُّ بالذِّكر منهم الأخ الداعي إلى الله على بصيرة الدكتور وجيهًا زين العابدين[1] أن أؤلِّف كتابًا يشتملُ على سيرتي وما لقيتُه في

(١) هو الذي يكنيه في مواضع من مقالاته وكتبه: د. أبا البراء، وكان وكيلًا للهلالي على أملاكه في بغداد، وهو طبيب، ولم يسمِّه في رسائله الست التي وقفت عليها، للوضع الخطير في العراق عند كتابة الهلالي له، وتواصلت مع بعض أبنائه ـ جزاهم الله خيرًا ـ فأخبرني أن لوالده «مذكرات» دوَّن فيها بعض ما يخص الهلالي.
انظر عنه كتابي «رسائل العلامة تقي الدين الهلالي» (٤/ ١٧٣٧ ـ الفهارس) وسيأتي له ذكر في كتابنا هذا، انظر (فهرس الأعلام).

حياتي في الحلِّ والتَّرحال، وما جرى عليَّ في رحلاتي الكثيرة من حوادث وأخبار، وخاصة في الدَّعوة إلى الله في أقطار مختلفة في المشرق والمغرب، وما صادفته في ذلك من نَجاح وضدّه، وما جَرَى بيني وبين علماء تلك الأقطار من مباحثات ومحاورات.

ولما رأيتُ ذكرَ ذلك كله بالتَّفصيل ـ بل ذكر ما بقي في ذاكرتي ولم يعفه النسيان ـ يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ، ونفقاتٍ كثيرةٍ، في طبعه ونشره[1]، اقتصرتُ على ما يتعلق بالدعوة إلى الله تعالى في أقطار مختلفة من سنة **١٣٤٠** إلى **١٣٩١** للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، على أمل أن أجد وقتًا وتوفيقًا من الله تعالى لتأليف كتاب في أخبار الشطر الأخير الذي لا يتعلق بالدعوة كالحوادث السياسية والشدائد والمحن التي وقعت لي في أسفاري. وستجد أيها القارئ في أثناء هذا الكتاب قصائد كثيرة[2] هجوت بها بعض المعارضين للدعوة إلى توحيد الله وأتباع نبيه الكريم، وما أردتُ بذلك إلا الانتصارَ للحقّ ولم أسمِّ أحدًا. وقد قال النبي ﷺ لحسان بن

(١) فصله في كثير من مقالاته، وأشرتُ إلى ذلك في تعليقي على ما ذكره في الكتاب، وجمعت (المقالات) بجهد ومشقة وطول تتبع، وكلما كسلتُ عن ذلك، ارتحت، ثم جددت الهمة في الجمع، ووصل ذلك عندي ـ ولله الحمد ـ إلى عدّة مجلدات، وشمل ذلك الجرائد السيارة، والمجلات العلمية، وظفرتُ فيها بعدة مقالات فيها ترجمة للهلالي، ومنها ما هو بقلمه، وأضفت لها ما وجد في بطون الكتب عنه، ثم يسر الله ﷻ إجراء عدة مقابلات مع أعيان تلاميذه وعارفيه. وسأضع ذلك ـ إن شاء الله ـ بين يدي «المقالات» وأسميه «الجامع لترجمة تقي الدين الهلالي».

(٢) جمعها في «ديوانه» المسمى بـ «منحة الكبير المتعالي في شعر وأخبار محمد تقي الدين الهلالي»، وقد نشرته ـ ولله الحمد والمنة ـ في مجلدة ضخمة، في (٨٦٧) صفحة، عن عشر أصول خطية.

ثابت: «**اهجهم وروح القدس معك**»(١).

ولما أنشد عبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ قوله:

خَلُّوا بني الكفَّارِ عنْ سَبِيلِهِ ... الْيَوْمَ نضْرِبْكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عن خَلِيلِهِ

قال له عمر رضي الله عنه: يا ابن رواحة! بين يدي رسول الله وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ: «**خلِّ عنه يا عمر! فلهن أسرع فيهم من نضح النبل**»(٢). أخرجه الترمذي **وصححه**.

وقيل: إن الذي أنشد ذلك الشعر هو كعب بن مالك، راجع «فتح الباري»(٣) في شرح أحاديث (عمرة القضاء).

فأرجو أن أكون سالكًا هذه السبيل في هجو أولئك القوم؛ والأعمال بالنيات، ولا أدَّعي العصمةَ، وأرجو الله أن يغفر لي كلَّ خطأ وخطل؛ فالجواد قد يكبو والسيف قد ينبو، والكمال لله سبحانه.

فَإِنْ تَجِدْ عَيْبًا فسُدَّ الْخَلَلا ... فَجَلَّ مَنْ لا عَيْبَ فيهِ وَعَلَا

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣، ٦١٥٣) ومسلم (٢٤٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧) وفي «الشمائل» (٢٤٥) والنسائي في «المجتبى» (٥/ ٢٠٢، ٢١١ ـ ٢١٢) وأبو يعلى (٣٣٩٤، ٣٤٤٠) وابن حبان (٥٧٥٨) وأبو نعيم (٦/ ٢٩٢) والبيهقي (١٠/ ٢٢٨) والبغوي (٣٤٠٤) من حديث أنس، وهو **صحيح**.

(٣) قال فيه (٧/ ٥٠٢) نقلًا عن «جامع الترمذي» (٢٨٤٧):
«قوله: وفي غير هذا الحديث أنَّ هذه القصة لكعب بن مالك وهو أصح؛ لأن عبد الله بن رواحة قتل بمؤتة، وكانت عمرة القضاء قبل ذلك».
ثم قال ابن حجر على إثره مباشرة:
«قلت: وهو ذهول شديد، وغلط مردود! وما أدري كيف وقع الترمذي في ذلك مع وفور معرفته...» وفصَّل في بيانه.

وأرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب كلَّ من قرأه أو أعان على نشره بقليل أو كثير من أنصار السنة المحمدية، وأما غيرهم من أعدائها فلا نبالي بهم، وهم بلا شك منهزمون وإلى الخسران في الدنيا والآخرة صائرون، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهو نعم المولى ونعم النصير ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

الدعوة إِلى الله في الإِسكندرية

أيها الداعي قدِّمْ مرادَ الله يقدِّمُ اللهُ مرادَك. ما من داع يدعو إلى أمر بجِدٍّ وإخلاصٍ إلا ويحصل على شيء ما، سواء أكان محقًّا أم مبطلًا، لكن المبطل عاقبته خسران عاجل أو آجل، والمحقُّ له العاقبة الحسنى(١) في العاجل والآجل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٧].

كل من قرأ تاريخ الدعوات الباطلة من دعوات الخوارج والشيعة والباطنية وما تفرَّع منها؛ يعلم يقينًا صحة ما أشرت إليه أعلاه، ولا بد أن يكون الداعي ـ مع إخلاصه ـ عنده شيء من العلم بما يدعو إليه وشيء من العلم بقواعد الدعوة.

قد فصلت القول في سبب خروجي من الطريقة التجانية(٢) ودخولي

---

(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، فكل من اتقى ولم يخن، وصبر ولم يتعجل، فلا بد له من تأييد رباني في حياته، وبعد موته، وكم من دعوة لم تظهر آثارها إلا بعد وفاة أصحابها كابن تيمية وغيره من الصالحين.
وأحسب أن للمصنف نصيبًا من ذلك، والله حسيبه.

(٢) الطريقة التيجانية طريقة صوفية، أسسها أحمد بن محمد بن المختار، وقد عاش ما بين (١١٥٠ ـ ١٢٣٠هـ)، وولد في قرية عين ماضي بالجزائر، وأنشأ طريقته التيجانية عام ١١٩٦هـ في قرية أبي سمعون بفاس، وأصبحت فاس هي المركز الأول لنشر هذه الطريقة في العالم، ومن بعض معتقداتها يزعمون أن مشايخهم يُكشف عن بصائرهم، وأن أحمد التيجاني قد التقى بالنبي ﷺ لقاءً =

= حسيًّا ماديًّا، وأنه قد كلّمه مشافهة، وأنه قد علّمه صلاة الفاتح لما أغلق، وأن النبي ﷺ أخبره أن المرة الواحدة منها تعدل قراءة القرآن ست مرات، ومن معتقداتهم أنهم يجيزون التوسل بالنبي ﷺ. انظر: «الموسوعة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٢٨١ ـ ٢٨٤).

وأرّخ الهلالي خروجه من التيجانية في «السراج المنير» (٣٨) و«سبيل الرشاد» (٤/ ١٢٧) سنة ١٣٣٨هـ، وكان ذلك في العِنَانيّة من مدينة فاس حيث كان مقيمًا عند الأستاذ محمد بن العربي، بينما أرخ المجذوب ذلك في كتابه «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٩٥) على لسان الهلالي نفسه سنة ١٣٤٠هـ.

قال: «في آخر سنة أربعين وثلاث مئة وألف سافرت إلى القاهرة، وأقمت بمصر بسنة اجتمعت فيها. . . . وذكر أسماء العلماء الذين لقيهم، وزاد على مَنْ سيُسمِّيهم «العدوى».

وأفصح في مقالته: (الإسلام يكافح الاستعمار في بلاد المغرب) (٨ ـ ٩) عن الغاية من سفره إلى مصر، فقال: أريد الجولان لأجل لقاء علماء الحديث والأخذ منهم، والوقوف على كتب الحديث المخطوطة».

وقال فيما كتب للمجذوب: «وحضرت دروس القسم العالي من الأزهر»، وقال لي أحد كبار أساتذة الأزهر ـ وهو الشيخ الزنكلوني ـ قال: لا تطلب علم الحديث في مصر، فنحن معشر كبار علماء الأزهر لا أحد منا يحفظ عشرة أحاديث، ولا نعرف صحيحًا من ضعيف، وإنما نقرأ سوادًا في بياض، مقلدين للمؤلفين». انظر «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٩٦).

وكانت لهذه السفرة أثر عظيم على الهلالي، جاء في مجلة «دعوة الحق» في مقالة (آراء وأحاديث مع تقي الدين الهلالي):

كان الطالب تقي الدين الهلالي في السادسة والعشرين من عمره عندما غادر المغرب إلى مصر في سنة ١٩٢٢، وكانت غايته من الرحلة أن يطلب العلم، وعلم الحديث على الخصوص، وقصد الأزهر، ولكنه لم يجد بغيته فيه، فانقطع عنه، وتوثقت صلته بالشيخ رشيد رضا وتلامذته، وفي المجالس الخاصة للشيخ رشيد رضا تفتق ذهن الطالب المغربي، وبان فضله ورغبته في العلم، وحرصه على تحصيله مهما كلفه ذلك من جهد أو تضحية أو مغامرة، =

في السلفية الحنفية ملة إبراهيم وخير أبنائه محمد رسول الله ﷺ، وهي الإسلام الطاهر، شرحت ذلك في كتاب «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»[1]، وقد أمر صاحب السماحة الأستاذ الرئيس الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ أمتع الله المسلمين بطول بقائه[2] ـ بطبع

= كما أن المناقشات الحادة التي كانت تجري في مجالس الشيخ رشيد رضا كانت سببًا في نضجه الفكري وتحوله عن التقليد إلى استعمال الفكر، وطلب الأدلة العقلية وعن التقديس المبالغ فيه للعلماء الأعلام والتسليم بكل ما يرد عنهم، إلى البحث الاستقلالي والاعتماد على الأدلة الأصولية والرجوع إلى الكتاب والسنة.

ومع ذلك فلا تزال في النفس بقية، ولا يزال الطالب الذي خرج من المغرب في طلب علم الحديث يبحث عنه فلا يجد ما يشفي غلته منه».

(١) طبع أكثر من مرة، أولها سنة **١٣٩٣**هـ ـ **١٩٧٣**م، وذكره في رسالة وجهها للبحاثة الأستاذ زهير الشاويش رحمه الله في ٤/ ٨/ ١٣٩٢هـ، وظفرتُ برسالة للعلامة عبد الله كنون وجهها للهلالي فيها بيان أخطاء وقعت للهلالي في هذا الكتاب، وأقر بها الهلالي في جوابه له.

انظر كتابنا «مراسلات تقي الدين الهلالي» (١/ ٢١٠).

وانظر كلام الهلالي عليهم في «سبيل الرشاد» (٦/ ٢١٩ ـ ٢٢٢)، وسيأتي (ص**٢٣٤**) أنه كتب ثلاث مقالات في «صحيفة الحرية» المغربية بعنوان (كيف خرجت من الطريقة التجانية)، ولخصت ذلك في تقديمي لكتابه «سبيل الرشاد» (١/ ٣١ ـ ٣٨)، وانظر «الهدية الهادية» (١٢ ـ ٢٢).

(٢) توفي فضيلة الشيخ ابن باز عن أعمال قضاها في العلم والتدريس والإفتاء، والدعوة إلى الله تعالى سنة **١٤٢٠**هـ، رحمه الله رحمة واسعة.

قال عنه المصنف في «سبيل الرشاد» (٦/ ٢١٩): «هو من بقية السلف الصالح في هذا الزمان علمًا وعملًا وورعًا».

ومما ظفرت به بخط الهلالي على طرة كتابه «الطريق إلى الله» إهداءً لابن باز، وعليه ما صورته: «هدية من المؤلف إلى الإمام الصالح الداعي إلى صراط الله على بصيرة سماحة الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز مع أطيب =

عشرة آلاف نسخة من هذا الكتاب، نسأل الله أن يجازيه خيرًا وينفع بهذا الكتاب نفعًا عظيمًا.

وبعدما خرجت من الطريقة التجانية ودخلت في الطريقة الحنيفية توجَّهت(١) إلى مصر ولقيت إمام الدعوة في ذلك الزمان السيد محمد رشيد رضا(٢) ـ رحمة الله عليه ـ ولقيت أكثر الدعاة إلى السلفية في مصر

= التحيات». انظر مصوَّرته في (النماذج) الملحقة آخر الكتاب (رقم ٦).

وله فيه وفي ذويه مدح في شعر مشهور متداول، وأنكر عليه الشيخ ابن باز في مقالة نشرها.

وأودعت في كتابي «رسائل العلامة السلفي تقي الدين الهلالي» عدة رسائل متبادلة بينهما، انظر (٤/ ١٦٩٩ ـ الفهارس). وذكرت فيه (٢/ ١٠٢٠ ـ ١٠٢٤) ملخص العلاقة الحسنة بينهما، وانظر ما سيأتي (ص٥٥٨) والتعليق عليه.

(١) بصحبة شيخنا العلامة وصي الله عباس ـ حفظه الله وأمتع به ـ، ولي معه لقاء مطوّل في بيته في مكة المكرمة، وفيه حديث ماتع نافع عن هذه الرحلة، وضعته ضمن الترجمة التي بين يدي «مقالاته»، وسميتها «الجامع لترجمة تقي الدين الهلالي».

(٢) كان الهلالي محبًّا له، مقدِّرًا لجُهده وجِهاده في نصرة التوحيد والسنة، والذَّبِّ عن الإسلام في وجه العلمانيين والحداثيين، وبقي الهلالي على علاقة حسنة معه إلى وفاته ـ رحمهما الله تعالى ـ، فها هو يقول في مقالة (دار الحديث وفضل علم الحديث) المنشورة، في مجلة «دعوة الحق» (العدد السابع) (السنة السابعة) سنة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤م (ص١ ـ ٧) وهو يتكلم عن صلته بالعلامة محمد رشيد رضا: «ولم تنقطع المكاتبة بيني وبينه حتى توفي رحمه الله تعالى».

وقال في مقالة (لماذا تأخر المسلمون) المنشورة في مجلة «الفتح» المصرية، المجلد السادس، عدد رقم (٢٥٨) بتأريخ ٢٣ صفر ١٣٥٠هـ (ص٤ ـ ٥) بعد كلام طويل:

«كتب إليَّ العلامة السيد رشيد رضا ـ حفظه الله ـ يسألني عن مقدار تأثر =

كالشيخ محمد الرّمالي بالقاهرة، والشيخ حسن عبد الرحمٰن في مزرعته بين دمنهور والإسكندرية، والشيخ عبد الظاهر أبي السمح، والشيخ محمد أبي زيد في دمنهور، والشيخ حامد الفقي بالقاهرة، والشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة بكفر عامر، والشيخ الألمعي عبد العزيز الخولي بالقاهرة.

ولما وصلت إلى الإسكندرية وإلى رملها بشاطئ بحرها لقيت أهل

= المسلمين في الهند بالنكبة البربرية؟ فأجبته بأن أهل الهند لم يعلموا بوقوع تلك النكبة فضلًا عن أن يتأثروا بها؛ فلم يطلع عليها إلا القليل منهم، ولذلك انبعثت الاحتجاجات من جميع أقطار المسلمين إلا من الهند؛ فلم يظهر منها إلا شيء ضئيل في مالابار، وسبب ذلك هو الجهل باللغة العربية لا غير، ولولاه لقام المسلمون في الهند باحتجاجات واسعة ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر؛ فالدعوة إلى أمر ما بغير لسان أردو أو الإنكليزية لا تصادف إلا الإخفاق، . . .» إلى آخر كلامه.

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام: جهد الدكتور عمرو رياض المدرس في جامعة ليدن بهولندا في (أطروحته) للدكتوراه بعنوان «جهود الشيخ محمد رشيد رضا في الرد على النصارى»، وهي مطبوعة بالإنجليزية وضمّنها بعض المراسلات بخط الهلالي، وكان قد راسلني الدكتور عمرو لأول مرة في ١٤/ ٧/ ٢٠٠٨م يسألني عن مشروعي في جمع رسائل ومقالات الهلالي، ثم اتصلت به في ٢/ ذو القعدة/ ١٤٢٩هـ يوافق ٣١/ ١٠/ ٢٠٠٨م وطلبت منه هذه الرسائل، وألمح إلى وجوب استئذان ورثة رشيد رضا، ثم راسلني في ١٦/ ذو القعدة ١٤٢٩هـ يوافق ١٣/ ١١/ ٢٠٠٨م معتذرًا عن طلبي، فكتب إليّ ما نصه: «أما بالنسبة لمراسلاته ـ أي الهلالي ـ مع الشيخ رضا فقد أفصحت لي عائلة الشيخ أنهم يريدون نشر هذه الرسائل ضمن «رسائل رشيد رضا» المشروع الذي أنا بصدده الآن، فمعذرة لهذا»، وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

ثم يسر الله ﷻ الحصول على (الأطروحة) مطبوعة باللغة الانجليزية، ووجدتُ فيه (ص٢٦٤ وما بعد) ست رسائل كتبها الهلالي لرشيد رضا ـ رحمهما الله ـ.

بيت (لا أقول أسرة ولا عائلة) من بلادنا سجلماسة بالمغرب الأقصى مستوطنين بالإسكندرية، ففرحوا بي فرحًا عظيمًا لأنهم يعرفون والدي[1]، وكان من علماء بلادنا ويجلُّونه، فأكرموني لأجل ذلك، ووجدتهم تجانيين (طوخ) يعني غارقين في الطريقة سكارى بنشوتها، وكلمة (طوخ) فارسية فيما أظن[2]، تستعمل في العراق بالمعنى المتقدِّم، فقلت في نفسي: يجب عليَّ أنْ أنقذهم من هذه الطريقة كما أنقذني الله منها، ولكن خُيِّل لي وأنا في أوائل الشباب: أنني إذا صرحت لهم بانتقاد الطريقة ينفرون ولا يقبلون الدعوة، فأردت أن أخادعهم فأظهرت لهم أني لا أزال تجانيًّا.

ولما أخذتُ أتلطَّف معهم في انتقاد بعض الأمور، كالاجتماع لذكر الوظيفة جماعة بلسان واحد، فجاء رجل مصري من تجانيي الإسكندرية وقال لهم: (يا إخواننا أنا الراكل ده بعيني شفته يخش ويخرك في مسكد الوهابية بالرمل، والوهابية ما بيخلوا حد يخش في مسكدهم إلا إذا كان منهم)؛ معناه: بعيني رأيت هذا الرجل ـ يعني كاتب المقال ـ يدخل ويخرج في مسجد الوهابية برمل الإسكندرية، ومن عادة الوهابيين أنهم لا يتركون أحدًا يدخل مسجدهم إلا إذا كان منهم، ويعني بالمسجد مسجد أبي هاشم المهندس رحمة الله عليه، وكان قد خصص جزءًا من أرضه وبنى فيه مسجدًا صغيرًا للشيخ عبد الظاهر أبي السمح وجماعة السلفيين بالرمل، وسبب إقامتي في هذا المسجد مدة شهرين ما يتلو.

---

(١) انظر «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٦٣)، مقدمة «سبيل الرشاد» (١/ ٦٣).

(٢) قال العلامة أحمد تيمور في «معجمه في الألفاظ العامية» (٤/ ٣٢٨): «الطخ عربي فصيح»، ولم أظفر بها في «الألفاظ الفارسية المعرَّبة» لادَّى شير.

امتحان الدعاة إلى الله

اعلم أنَّ الدُّعاة إلى الله يمتحنون على قدر إيمانهم وصبرهم وتجلّدهم، ومنهم الشيخ عبد الظاهر أبو السّمح[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه كان يدعو

(١) ترجمه الهلالي في مجلته التطوانية «لسان الدين» السنة الأولى، الجزء السادس، محرم ١٣٦٥هـ يوافق دسمبر ١٩٤٦ (ص١٥ ـ ١٩) تحت عنوان (لمحة من ترجمة الأستاذ أبي السمح إمام الحرم المكي)، ومما قال فيها:

«هو العلامة المحدث الفقيه، الأصولي المفسر الأديب، الناظم الناثر البليغ؛ عبد الظاهر أبو السمح بن محمد، المصري أصلًا، المكي دارًا وسكنى، إمام الحرم وخطيبه، ومن كبار المدرسين فيه، كان هذا الأستاذ من أول من تعرفت به من إخواننا السلفيين في مصر، حين قدمتها سنة ١٣٤١، وصحبته مدة، وهو ممن أفادتني صحبتهم زيادة تمسك ورسوخ في السلفية.

وله مزايا قلما توجد في غَيره؛ منها: الصلابة في الدين، وبذل الجهد كله في الدعوة إلى الله، والحلم والصبر على الأذى في الله، والسخاء وحسن معاشرة الإخوان.

وكان أستاذًا وطالبًا في دار الدعوة والإرشاد، التي أسسها السيد الإمام رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بمساعدة خديوي مصر السابق عباس حلمي، فلما جاءت الحرب العالمية الأولى وتغيرت أحوال هذا الملك، ضعف أمر تلك المدرسة، ولكن بعدما تخرج فيها جماعة من العلماء ـ صاحب الترجمة من أجلهم ـ، وكان يلقي فيها دروسًا في الخط والتجويد وغيرهما، وله في هذين الفنين اليد الطولى؛ فإذا قرأ القرآن قرأه بأنغام أبي موسى الأشعري، بل بأنغام داودية تكاد الطير تحنُّ إلى سماعه، وتقع أمامه.

وله خط كأنه عقود الجمان، في نحور الحور الحسان، بهي الطلعة، مليح الشكل، ظريف العبارة، لا يُملّ مجلسه، لين الجانب، خاشع لله، رقيق القلب، . . .» ثم ذكر دعوته بالإسكندرية نحو المزبور هنا.

وتنظر ترجمته في: مجلة «الهدي النبوي» عدد (٨) لسنة ١٣٧٠، وعدد (١٠) لسنة ١٣٧٠ ومجلة «التوحيد» عدد (٩) لسنة ١٤١٦هـ، «الثمار الشهية والتراجم الذكية لعلماء أنصار السنة المحمدية وإخوانهم» (٧٧ ـ ٨١)، «نثر الدُّرر في =

إلى الله برمل الإسكندرية، وقد أنكر دعوته جميعُ من ينتسب إلى العلم في رمل الإسكندرية وفي الإسكندرية نفسها، وكان مُعلمًا لبنات محمود باشا الديب ـ بالدال المهملة كما ينطق به في العامية المصرية ـ ويدعو إلى الله بإلقاء الدروس في المسجد المذكور وصلاة الجمعة والجماعة لوجه الله فمنع من ذلك؛ فدعاني لأن أنوب عنه وعما قليل يأتيك سبب المنع، أي بعد أن أتم قصتي مع المغاربة.

فلما سمع المغاربة من ذلك الرجل المصري التجاني ذلك الكلام غضبوا عليه غضبة مغربية، فقالوا له: إنكم معشر المصريين عوَّدتمونا سماع ما نكره في كل عزيز لدينا، فلا يطيب لكم عيش إلا إذا أسأتم إلينا، نحن نعرف هذا الشاب وأباه وأمه وأهل بيته، وهو لم يقدم من المغرب إلا منذ وقت قصير، ونحن في المغرب ليس عندنا وهَّابيون، فمن أين تعلم الوهابية، وصاحوا عليه صياحًا منكرًا.

وكان الرجل داهية فلم يغضب، بل قابل غضبَهم بحلمٍ وسعة صدرٍ، وقال لهم: (يا إخواننا يا مغاربة ما تزعلوش! المسألة بسيطة، عندنا الشيخ محمد بن مبارك السوسي، ولا تشكّون في علمه وفضله، وأنه أكبر عالم تكاني في مصر، نكتب له ونسأله عن الشاب ده، إذا قال هو تكاني صحيح أنا أكي وأبوس روسكم وركليكم كمان، وأطلب منكم المسامحة، وإذا قال غير ذلك تعرفوا أن الحق عليكم) معناه: أن الشيخ

= تذييل نظم الدرر في تراجم علماء مكة من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر» (ص٥١) «لمحات من الماضي» (٣١٥ ـ ٣١٧)، «أعلام المكيين» (١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤)، «سير وتراجم» (٢٢٧)، «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية» (١/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧)، «مستدرك معجم المؤلفين» (٣٨٢)، «الأعلام» (٤/ ١١).

محمد بن مبارك المغربي هو شيخنا في الطريقة التجانية وهو يعرف ضيفكم هذا، فهلمَّ نتحاكم إليه، فإن حكم بأن محمد تقي الدين الهلالي ضيفكم العزيز هو تجاني حقًّا اعتذرنا إليكم وقبَّلنا رءوسَكم وأرجلَكم.

وكان المغاربة قد هددوا المصريين بأنهم يفترقون معهم ويتخذون زاوية خاصة لأنفسهم وأكون أنا مقدَّمهم، ففرحتُ أنا بهذا السراب الذي خيل لي أنه شراب، ولكن الرجل المصري بدهائه أحبط عملي. ومن ذلك الحين علمتُ يقينًا أنني أخفقتُ في مسعاي؛ لأنَّ الشيخ السوسيَّ المذكور يعلم يقينًا أنني من المنتقدين للطريقة التجانية، وسبب ذلك: أن أخصَّ مريديه وهو محمد الدادسي كان يغسل رأسي في بيته بالقاهرة، فقال لي: هنيئًا لكم معشر أهل البيت فإن الجنة مضمونة لكم على أي حال كنتم، فقلت: ومن ضمنها لنا؟ قال: ألم تطلع على ما ذكره الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي في تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فقلت: وماذا قال؟ فقال: قال الشيخ الأكبر: «إن أبناء فاطمة خلقهم الله طاهرين طهارة عينية فلا تصدر منهم المعاصي ألبتة، وكل ما نراه في الظاهر من صدور المعاصي منهم يجب أنْ نكذِّب أعيننا ونصدق الله تعالى».

فقلتُ: وهل ابن عربي معصوم من الخطأ؟ فقال لي: إن سيدنا الشيخ التجاني نقل عنه ذلك وصدَّقه. فقلت: وهل الشيخ التجاني معصوم من الخطأ؟ فأصابه حزن عظيم ظهر في وجهه، واختصر غسل رأسي وسكت على مضض، فعلمت أنه لا بد أن يوصل ذلك إلى شيخه.

وغبتُ عن الإسكندرية أيامًا ثم رجعت (لأجس) النبض وليس لي إلا أمل ضئيل. فكظم المغاربة ما في أنفسهم، ولم يظهروا لي شيئًا، ودعينا إلى العشاء عند بعض التجانيين عند المغاربة الآخرين، فجرى ذكر

الملك حسين بن علي[1] ملك مكة، فانتقدت أنا تحالفه مع الإنكليز والفرنسيين وإدخال جيوشهم إلى قرب الحرم المكي، فانفجر أحد التجانيين غيظًا، وقال: «صدق من قال: مثل العالم الذي لا يعمل بعلمه كجلد كلب ملئ عسلًا» يعني أن الملك حسينًا ـ وهو من أهل البيت ـ لا يصدر عنه إلا الطاعات، فانتقادي له جهل وسفاهة؛ لأن فيه إنكار على شيخ الطريقة.

وسكت أصحابي ولم يدافعوا عني، فلما خرجنا جذبني أحد المغاربة من التجانيين المعتدلين، وقال لي: ألم يبلغك ما أجاب به الشيخ السوسي؟ فقلت: لا، أفدني يرحمك الله، فقال: إنه أجاب التجانيين فقال في جوابه: إن محمدًا تقي الدِّين الهلالي من آل البيت، وقد أوصانا سيدنا رضي الله عنه ـ يعني التجاني ـ بإكرام أهل البيت، فأكرموه ولا تأخذوا عنه شيئًا من أمور الدِّين. فعلمتُ أن القضية قد انتهت بالإخفاق كما كنت أتوقَّع، **وعقدتُ العزم على أن لا أداهن ولا أداجي في دين الله ما دمت حيًّا، بل أقول الحقَّ من أول وهلة، للربح أو للخسارة، وما لقيتُ إلا الربح إلى حدِّ الآن**، وسيأتيك الدَّليل فلا تعْجَلْ.

سبب منع أبي السَّمح من الصَّلاة والوعظ في مسجد أبي هاشم برمل الإِسكندرية

تقدَّم أن المنتسبين إلى العلم في مدينة الإسكندرية ورملها أنكروا على الشيخ أبي السمح[2] دعوته إلى السلفية، وسمّوها وهَّابية، وكادوا له

(١) المشهور بالشريف حسين، دفين القدس، وهو أبو جد الملك الراحل حسين ملك شرق الأردن، رحمهما الله تعالى. أفاده بوخبزة.

(٢) ظفرت بترجمة ذاتية له، ومما كتب فيها بعد كلام: «وبعد بضعة أشهر مضت =

كيدًا عظيمًا واتَّهموه بتُهَم هائلة في ذلك الزمان، منها أنه يقول: إن العصا خيرٌ من النبي ﷺ، لأن العصا تنفع في الدنيا والنبي ﷺ لا ينفع؛ فلا يشفي مريضًا من مرضه، ولا يغني فقيرًا من فقره، ولا ينقذ عانيًا من سجنه، ولا يغيث من استغاث به. وهذا عند عباد القبور طعن عظيم في مقام النبوة.

ومنها: أنه صلى صلاة الجمعة في أحد المساجد ووجد العلمين منتصبين عن يمين المنبر وشماله فألقاهما على الأرض وقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

ومنها: أنه يدعو إلى مذهب خامس، ولا يؤمن بالمذاهب الأربعة.
ومنها: أنه أحدث فتنة في رمل الإسكندرية ففرَّق بين الأخ وأخيه، والأب وابنه، والقريب وقريبه، وكتبوا بذلك إلى محافظ الإسكندرية كتابًا يطلبون منه أن يمنعه من هذه الدعوة التي يعدُّونها من أعظم الفساد.

وفي الوقت نفسه دبَّروا له مكيدة أخرى، فدعوه إلى المناظرة في أحد المساجد وأحضروا رجلًا من العوام وقالوا له: أحضر معك عصًا

= لي في هذا العمل الوقتي انتدبت لتعليم أبناء أحد الباشوات، المسمى محمود باشا الديب، في رمل الإسكندرية، فسافرت إليهم، وتوليت تعليمهم، وشرعت في قراءة درس للعوام في أحد مساجد الرمل، وما قرأت درسين فيها حتى قامت قيامة المتغالين والعوام عليَّ، وقد أمضيت حوالي ٩ سنين في الرمل، لو فصَّلت كل ما وقعَ لي من الحوادث والفتن لاحتجت إلى مجلد كبير، وقد ذكرت بعض ذلك في رسالتي المسماة: (الرسالة المكية في الرد على الرسالة الرملية)، و(حياة القلوب)، وهما مطبوعان في مصر، و(مذكرة الدفاع) التي طبعتها، وقدمتها لقضاة المحكمة الإسكندرية الأهلية، وقد نصرني الله تعالى في كل مقام على الأعداء، حتى طأطئوا رؤوسهم، وحكم لي عليهم».
نقلتُها من «الجواهر الحسان في تراجم الفضلاء والأعيان من أساتذة وخُلان» (١/ ٣٦٢) لزكريا بن عبد الله بن بيلا.

وإذا أشرنا إليك فاضربه، فلما حمي وطيس الجدل بينهم وبينه في مسألة الاستغاثة بالنبي ﷺ وألجَؤوه أن يقول: إن النبي ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا وإنما هو بشير ونذير، أشاروا إلى الرجل فضربه في المسجد.

وبعد قليل جاء أمر محافظ الإسكندرية بمنعه من الصلاة والوعظ وسد المسجد، فأرسل إلي يدعوني دعوة عاجلة فحضرت في الليلة التي في غدها يسدُّ المسجد ففتحتُه، وأخذتُ أصلِّي فيه وأعظُ الإخوانَ السلفيين، فجاءت الشرطة ليسدوا المسجد فوجدوني فقالوا: من أنتَ، أنت أبو السَّمح؟ قلت: أنا محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي المغربي، فتوقَّفوا ورجعوا إلى المحافظ وأخبروه، واختفى أبو السمح فصار لا يأتي المسجد أصلًا، فأمرهم المحافظ أن يتركوا المسجد ولا يسدُّوه[1].

(١) فصل الهلالي في مجلته «لسان الدين»، السنة الأولى، الجزء السادس، محرم ١٣٦٥هـ ـ دجمبر ١٩٤٦م (ص١٦ ـ ١٧) في هذه الحادثة، فقال عن أبي السَّمح: «كان يدعو إلى الله برمل الإسكندرية، وأصابه أذى كثير بسبب ذلك؛ فصبر صبر الجبال، ومن جملة ذلك: أن جماعة من الزعانف المتعاطين للعدالة والإمامة وغيرها من وظائف الدين المتأكِّلين بدينهم، غاظتهم دعوته، وقبول الناس لها، وانتشار السلفية الحنيفية بسبب ذلك؛ فكادوا له مكايد؛ منها: أنهم دعوه للمناظرة في أحد مساجد الرمل، وأوعزوا إلى بعض الأوباش أن يضربه عندما يشيرون إليه؛ فضربه في أثناء المناظرة، وخاف أولئك الزعانف عاقبة الأمر؛ فكتبوا عريضة إلى حاكم الإسكندرية ـ ويسمى هناك المحافظ ـ وزعموا فيها أن الأستاذ يهين الدين، وينكر كرامات الأولياء، وينتقص النبي ﷺ، إلى غير ذلك من المفتريات المألوفة عند أعداء التوحيد والسنة في كل زمان ومكان، فلما وصلت المحافظ راج عليه مكرُهم، فأمر بإغلاق المسجد الذي كان الأستاذ يصلي فيه ويعظ مع إخوانه السلفيين، فكتب إلي وأنا بالإسكندرية يدعوني إلى النيابة عنه فيه؛ فبادرت للمسير إلى هناك، وفتحتُ المسجد، وبقيت نائبًا عنه مدة ثلاثة أشهر؛ فلم ينفذ المحافظَ ما أراد =

فاشتدَّ غيظُ أعداء السلفية من المنتسبين إلى العلم وأعوانهم، فكتبوا في هذه المرة إلى الملك فؤاد[1]، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة وألف، وقالوا للملك مثل ما قالوا للمحافظ قبل، وزادوا على ذلك أنه ثبت صدق اتهامهم لأبي السمح عند محافظ الإسكندرية؛ فأمر بطرده وسدِّ المسجد، فأتى بمغربي له حماية فرنسية فناب عنه في المسجد فلم ينفذ ما أمر به المحافظ، فبعث الملك بشكواهم إلى محافظ الإسكندرية نفسه، فلما قرأها غضب عليهم غضبًا شديدًا لأمرين:

أحدهما: أنهم لم يكتفوا به فتخطوه وكتبوا إلى الملك.

والثاني: أنَّ طعنَهم في عمل هذا المغربي يفتح بابًا على الحكومة المصرية من النزاع مع دولة تتمتع بالامتيازات الأجنبية، والمطلعون على تاريخ مصر يعرفون معنى هذه الكلمة، فإن مقتضى الامتيازات الأجنبية يقضي على الحكومة المصرية ـ وكل حكومة تنكب بمثل هذه النكبة ـ أن ترد كل نزاع يقع بينها وبين أي شخص من رعايا الدولة صاحبة الامتياز إلى سفارة هذه الدولة، فتحكم السفارة بدون شك على المصري بأنه هو الظالم وتطلب من الحكومة المصرية أن تنزل به أشد العقاب، وعليه أن يتحمل ويصبر على ظلمين، الظلم الأول من الشخص التابع للسفارة

= من إغلاق المسجد حين رأى الأستاذ قد انقطع عن عمله فيه، واكتفى في عقابه بذلك».

(١) وعملوا على مقاضاته في محكمة العطارين بالإسكندرية، وكان ذلك سنة ١٩٢٣م، وقدَّم الشيخ أبو السمح مذكرة بدفاعه في ٢٦ يناير ١٩٢٤ وبرّأته المحكمة؛ وانظر عن تفصيل ذلك ما كتبه رشيد رضا في مجلة «المنار» (مجلد ٢٦)، الجزء السابع، بتأريخ ٢٩ جمادى الأخرى ١٣٤٤هـ ـ ١٤ يناير ١٩٥٥م، (ص٥٥٣ ـ ٥٥٥) بعنوان (القضايا الدينية في المحاكم ونتائج الحرية)؛ وانظر في هتافات الناس وفرحهم في تبرئة أبي السمح ما كتبه تلميذه محمد مصطفى الفقيه في مطلع «حياة القلوب» (ص١٤ ـ ١٥) لأبي السمح.

الأجنبية، والظلم الثاني من السفارة نفسها، ولذلك لا يحب أي مصري كيف ما كانت منزلته أن يدخل في نزاع مع أي سفارة، ومن أجل ذلك دعا المحافظ الموقعين على العريضة المرفوعة إلى الملك فأُدخلوا عليه واحدًا بعد واحد، وأخذ يسألهم، فقال للأول: هذا توقيعك؟ فقال: نعم. قال: وقِّع مرة أخرى، فوقَّع ثم أخرج إلى مكان لا يرى فيه أحدًا من أصحابه، وهكذا فعل بالثاني والثالث إلى آخرهم، ثم جمعهم وعبس وبسر عليهم وقال لهم: كتبتم إليَّ تزعمون أن الشيخ عبد الظاهر أبا السمح وهَّابي وأنه فعل كيت وكيت فصدَّقتُكم وأمرت بمنعه من الصَّلاة والوعظ، ولم يكفكم ذلك حتى تخطيتموني وارتقيتم مرتقًا صعبًا، فكتبتُم إلى المَلِك تعرضون مزاعمكم عليه وقلتم في عريضتكم: إنكم تخافون أن تحدث فتنة في رمل الإسكندرية تسفك فيها الدماء، فللّه دركم من حفظة ساهرين على الأمن! فهل المحافظة على الأمن من اختصاصكم؟ ومَن وكَّل إليكم ذلك؟ بعضكم إمام مسجد، وبعضكم مأذون في المحكمة، وبعضكم مدرِّس، أو واعظ أو خطيب، فكيف ارتقيتم حتى صرتم تحافظون على الأمن العام؟ وهذا شغلي أنا وشغل أعواني من الشرطة والحرس، أفأردتم أنْ تساعدوني؟ أنتم أصحاب الفتنة ودُعاتها الموقدون لنارها، ولم يبق عندي شك في أنكم مفسدون؛ قلتم: إن المصري وهابي، فهل المغربي أيضًا وهابي؟ فقالوا: إي والله يا سعادة المحافظ هذا وهابي (زيه تمام). فقال: اسمعوا ما أقوله لكم: أنتم تستحقون العقاب، ولكني أعفوا عنكم في هذه المرة، وكل فتنة تقع في المستقبل في الإسكندرية أو رملها من هذا القبيل فأنتم المسؤولون عنها، أغربوا عني لا نَعِمَ عوفكم[1] ولا أمن خوفكم! فانطلقوا يتعثرون في

(١) العوف: الحال. ويقال في الدعاء: نعم عوفُك: أي حالك. (منه)

أذيال الخيبة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠]، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، ولما سمع بذلك الشيخ أبو السمح صار يحضر صلاة الجمعة ويصلي معنا مأمومًا(١) وبعد انقضاء شهرين على هذه الحادثة أمن أبو السَّمح، وتجرَّأ فصلى بنا الجمعة إمامًا فاستأذنته أنا في إتمام السياحة في البلاد المصرية(٢) ورجعت إلى القاهرة، وقد نفد ما عندي من الدراهم، لأن التجانيين بعدما وصلت إلى القاهرة بعثوا إليَّ حوالة فقبضتها، وقلت في نفسي: إنني قصَّرتُ في عدم إعلان خروجي من الطريقة وأنا بين ظهرانيهم، ولم أدع إلا أربعة أنفس سرًّا، وقبلتُ مساعدتهم عند السفر، وها أنذا أقبل مساعدَتهم بعد السفر، فإن بقيت على هذه الحال فأي فرق بيني وبين شيخ الطريقة؟ فكتبت إليهم رسالة في أربع صفحات وجعلت منها أربعة نسخ بعثت كل نسخة منها إلى أحد رؤسائهم، فحرقوا الأُرَّم(٣) غيظًا عليَّ، ولم يجبني إلا أحدهم بيني وبينه مصاهرة، فقال لي في جوابه: لقد قرأت ما كتبت والقلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء، ولئن كتبت إليَّ بعد هذا ولو حرفًا من الطعن في الطريقة التجانية لن أجيبك أبدًا، وتتحمل أنتَ وحدك إثم قطع الرحم.

ولما نفد ما عندي من الدراهم جاءني الشيخ محمد الخرشي الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ سواء أكان حيًّا أو ميتًا ـ فأعطاني ريالين مصريين، وكان من المتخرجين في الجامع الأزهر، وله راتب من أوقاف الطلبة المغاربة قدره جنيهان (مشاهرة) وعشرة أرغفة مياومة، وهو من الستينيين.

---

(١) أفاد الهلالي في مقالته المنوّه بها سابقًا أن أبا السمح كان يحضر صلاة الجمعة متخفيًا، فأخذ بعد هذه الحادثة يحضر علانية.

(٢) قال في مقال المجلة: «فانصرفتُ متوجّهًا إلى الصعيد».

(٣) الأُرَّم: الأضراس. يُقال: فلان يحرق عليك الأرَّم، إذا تغيظ فحكَّ أضراسه بعضها ببعض. (منه)

وكان الطلبة المغاربة في ذلك الزمان ثلاثة أقسام: ستينيين، وعشرينيين، ومنتظرين، فالستينيون عددهم ستون رجلًا يأخذون راتبًا مثل ما تقدم، والعشرينيون عددهم عشرون رجلًا يأخذون راتبًا قدره نصف جنيه مشاهرة وخمسة أرغفة مياومة، والمنتظرون يعدون بالمئات لا يأخذون إلا رغيفين في كل يوم. وكانت الحرب قائمة على الدوام بين الستينيين والمنتظرين، والعشرينيون على الحياد. وذات يوم هجم ثلاثة من المنتظرين على شيخ رواق المغاربة ـ بعد السلام من صلاة الجمعة ـ في الأزهر فطعنوه بالخناجر حتى مات، فهرب الناس من المسجد لا يلوون على شيء، وركب بعضهم بعضًا حتى مات بعض الضعفاء من الزحام، وأظن أن الأخ القارئ يعرف طبعي في الاستطراد(١)، فأنا لا أحول عنه ولا أزول، كما قال المتنبي(٢):

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا(٣)

فقال لي الشيخ محمد الخرشي: لا تقعد هنا مقيمًا على معيشة ضنك كالوتد، ألم تسمع قول الشاعر(٤):

وَلَا يُقِيْمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ ... إِلَّا الأَذِلَّانِ غيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتَدُ

---

(١) يصنع الهلالي هذا في جميع كتبه ومقالاته، فها هو يقول في «تقويم اللسانين» (٢٤) ـ مثلًا ـ: كل من يقرأ مقالاتي يعلم أن الاستطراد محبَّبٌ إليَّ فيما أقرؤه وفيما أكتبه، لأنّ الاستطراد كالطعام المؤلَّف من ألوان متعددة»، وينظر له «أحكام الخلع في الإسلام».

(٢) في «ديوانه» (ص٣٧٠ ط. دار بيروت).

(٣) عجزه: وعادةُ سيفِ الدولة الطَّعنُ في العِدَى.

(٤) قاله «المُتلمِّس الضُّبعي» في «ديوانه» (ص٢٠٨) في قصيدة مطلعها:

إنَّ الهوانَ حِمارُ القومِ يَعرِفُهُ ... والحُرُّ يُنكِرُهُ والرَّسلَةُ الأُجُدُ

وفيه: «ولن يقيم...».

هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ   وَذَا يَـشْـجُ فَـلَا يَـرْثَـى لَـهُ أَحَـدُ

معنى البيتين: لا يرضى أحد أن يقيم على ذل إلا الأذلان: الحمار الأهلي والوتد الذي تضرب به الخيمة وتثبت، فالحمار الأهلي مربوط بحبل لا يستطيع الفرار مع أنه يضيق عليه في العلف، ويحمل من الأحمال ما لا يطيقه، وعلاوة على ذلك يضرب بالعصا وينخس بالمنخاس وهو حاد كالإبرة، والوتد يضرب على رأسه ليدخل في الأرض كلما أريد نصب الخيمة، ولا يستطيع أن ينجو بنفسه.

فقلت له: (مكره أخاك لا بطل). وماذا عسيت أن أفعل وأنا هنا غريب؟! فمالي إلا الصبر الجميل. فقال لي: كل طلبة العلم الغرباء في مصر بدون استثناء ـ وما أكثرهم ـ يخرجون إلى الفلاحين ويلقون دروس الوعظ في المساجد، فلا يكاد الفلاحون يرونهم حتى يغمروهم بالإكرام بالدراهم والثياب والزاد دون أن يحوجوهم إلى تذلل أو سؤال، فإنَّ الفلاح المصري يضرب به المثل في الكرم، وهذه عادتنا كلنا منذ حللنا هذه الديار، فشكرته على هديته ونصيحته، وعزمت على الخروج إلى الصّعيد وهو الذي بقي لي لم أره، فإن الوجه البحري وهو ناحية الشمال في مصر قد رأيته من القاهرة إلى آخر رمل الإسكندرية، وبقي لي الوجه القبلي وهو ناحية الجنوب، فتوكَّلتُ على الله وسافرت بالقطار إلى مدينة ملاوي، فكنت أسمع بالشيخ عبد الظاهر الريرموني أنه من دعاة السلفية فسألت عنه فوجدتُه، ونزلتُ عند مغربي يسمى الشيخ إبراهيم الدادسي، وهو طبيب عيون يقدح العيون على طريقة الطب الإسلامي القديم بميل من حديد بدون تخدير فيخرج البياض من العين ثم يعالج الجرح بالأدوية إلى أن تشفى العين التي كانت عمياء لا تبصر شيئًا ويعود إليها نورها بإذن خالقها، وهذه الطريقة لا تزال مستعملة إلى يومنا هذا في بعض القرى النائية عن المدن في بلاد المغرب وغيرها.

فوجدت الشيخ عبد الظاهر الرَّيْرَمُوني وفرح بي وأظهر السرور وأكثر الترحيب، واعتذر لي عن دعوته إياي إلى قريته الريرمون(١)، فقال: أيها الأخ العزيز إن ضيافتك واجبة علي، ولكن قريتي تبعد عن هذه المدينة بقدر نصف ساعة للراكب على الحمار الفاره، وأنا لا أشتغل في الغيط يعني ـ في المزرعة ـ وكل أهل القرية يخرجون إلى غيطانهم صباحًا ويرجعون مساءً، وأنا أجيء كل يوم إلى هذه المدينة فأمكث فيها من الصباح إلى المساء، فإن دعوتك إلى القرية فإما أن تبقى وحدك أو تتكلف المجيء كل يوم معي صباحًا وترجع مساءً، وفي ذلك من المشقة عليك ما لا يخفى، فشكرتُه على ذلك ورأيت عذره قائمًا.

وأقمت عند الشيخ إبراهيم الدادسي بمدينة مَلَّوى(٢) من مديرية

(١) هي من القرى القديمة. وردت في «قوانين ابن مماتى» وفي «تحفة الإرشاد» باسم (الريرمونين) من أعمال الآشمونين. و(الريرمون) هو اسمها الحالي، الذي وردت به في تاريخ ١٢٣٠هـ، قاله العلامة محمد رمزي في «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية». (٤/ ق ٢/ ٦٣).

(٢) قاعدة مركز ملّوى: هي من القرى القديمة، ذكرها أميلينو في جغرافيته باسم Manlaou، قال: ومعناها موضع الأشياء، وضبطها ابن بطوطة في «رحلته»: متلوى، وفي «قوانين ابن مماتي» وفي «تحفة الإرشاد» وفي «التحفة»: ملّوى، وقال في «تاج العروس» (٣٩/ ٤٩٦): «يسميها العامة مَلَّوَةَ»، وفي تاريخ سنة ١٢٣٠هـ: ملّوى العريش، ومن سنة ١٢٦٠هـ باسمها الحالي.

وقد كانت ملّوى إحدى قرى ولاية الأشمونين، فلما عين محمد باشا النشانجي واليًا على مصر، للمرة الأولى في سنة ١١٣٢هـ = ١٧٢٠م، وكان واليًا مفكرًا نشطًا، لاحظ أن مدينة الأشمونين قاعدة الولاية، واقعة بعيدة عن النيل ـ الذي هو الطريق العام للمواصلات، بين القاهرة وبلاد الصعيد، في ذاك الوقت ـ، لذلك أصدر الوالي المذكور أمرًا في سنة ١١٣٣هـ = ١٧٢١م، بنقل ديوان الولاية، من الأشمونين إلى ملّوى، لوقوعها على النيل، وبذلك أصبحت قاعدة لولاية الأشمونين، مع بقاء الولاية باسم الأشمونين. =

أسيوط، من بلاد الصعيد أربعة أيام، ثم عزمتُ على التوجه إلى قصبة المديرية وقاعدتها، وهي مدينة أسيوط، وكنت أجتمع بالشيخ عبد الظاهر الريرموني كل يوم ونتذاكر مسائل العلم. وفي صباح يوم الخميس استعددت للسفر بالقطار إلى أسيوط، فبينما أنا على ذلك إذا براكبين على حمارين قد أقبلا ونزلا وسلَّما على الشيخ إبراهيم الطبيب، وقالا له: أين الأستاذ المغربي الذي بلغنا أنه عندك؟ فقال لهما وأشار إلي: هذا هو يريد أن يسافر إلى أسيوط الآن. فقال أحدهما وهو الشيخ عبد العليم رحمة الله عليه: أيها الأستاذ إن إخوانك السلفيين في الريرمون يقرؤونك السلام ويلتمسون أن تتفضل عليهم بالزيارة ولو ليوم واحد، فإن أستاذنا الشيخ عبد الظاهر أخبرنا منذ أربعة أيام بقدومك فالتمسنا منه أن يدعوك إلى قريتنا، فقال: إنك مستعجل تريد السفر إلى أسيوط ولا تستطيع أن تزورنا، فقلنا له: ولا يومًا واحدًا؟ فقال: ولا يومًا واحدًا. وكررنا عليه الطلب في اليوم الثاني والثالث حتى يئسنا منه، فأرسلنا إخوانك لندعوك إليهم لما علموا أنك عزمت على السفر إلى أسيوط، وقالوا لنا: إن وجدتموه سافر فسافرا إلى أسيوط وأبلغاه دعوتنا، واعلم أيها الأستاذ المحترم أننا معشر السلفيين في قرية الريرمون لا يزيد عددنا على مائة بيت، وقد اشتدت العداوة بيننا وبين قومنا المبتدعين عباد الأضرحة وشيوخ التصوف حتى انتقلت العداوة من أمور الدين إلى أمور الدنيا، وشيخ البلد منهم والعمدة معهم ونحن محاربون لأجل عقيدتنا، فنرجو أن

= وفي سنة ١٢٤٧هـ = ١٨٣١م، صدر أمر من الوالي، بإبطال اسم الأشمونين، وتسميتها مأمورية أسيوط، وجعلت مدينة أسيوط، قاعدة لهذه المأمورية، وأصبحت ملّوى، قاعدة لقسم ملوى من سنة ١٨٣١، وسمي مركز ملّوى، من أوّل سنة ١٨٩٠، أفاده العلامة محمد رمزي في «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» (٤/ق ٢/ ٦٨).

يهدي الله بك إخواننا ويجمع شملنا على كلمة التوحيد واتباع سنة النبي ﷺ، فلا تخيِّب رجاءنا، فقلت لهما: أيها الأخوان العزيزان لستما في حاجة إلى كل هذا الإلحاح فإنني نذرت لله أن أدعو إلى توحيده وسنة نبيه ﷺ حيثما كنتُ، وهذا أهم غرض لي في الحياة.

الدَّعوة إِلى الله في الصعيد

فركبت أحدَ الحمارَيْن وتوجَّهتُ إلى الريرمون مع الشيخ عبد العليم، فلما وصلت نزلت في مندرة ـ أي مضيف ـ الشيخ إسماعيل الصيفي[1] رحمة الله عليه، واجتمع الإخوان السلفيون واحتفلوا بي كأنّي أحد الأمراء، ولم يكن عندي من الكتب إلا مجموعة الرسائل التي نشرها عيسى بن رميح رَحِمَهُ اللهُ وهي «رسائل في التوحيد»[2]، فبدأت الدعوة بعد

(١) نشر الهلالي في مجلته «لسان الدين» السنة الأولى، العدد الثامن والتاسع، بتأريخ ربيع الأول وربيع الثاني ١٣٦٦هـ فبراير ومارس ١٩٤٧م (ص٨٥ ـ ٨٧) مقالة بعنوان (مصاب أليم بوفاة أخ كريم) وأفاد فيها مثل المزبور هنا، وأرخ هذه الحادثة سنة ١٣٤١. وزاد أنه لم تنقطع المكاتبة بينه وبين الشيخ إسماعيل الصيفي ـ رحمهما الله ـ طوال تلك المدة ـ وهي سبعة وعشرون عامًا ـ إلا في السنوات الثلاث الأولى من سني الحرب وقال: «وفي الجواب الأخير الذي جاءني، وجدتُ فاتحته: من أحمد بن إسماعيل بن محمد، فتعجبتُ! ولكني ما كدت أتم قراءة الجواب حتى علمت أن الشيخ إسماعيل انتقل إلى دار الكرامة وأن الكاتب إليَّ هو شبله النجيب الكريم».

قال أبو عبيدة: جهدتُ في التوصل إلى أحمد، أو واحد من ذريته إبان جمعي لكتاب «رسائل الهلالي»، ويسر الله لي ذلك بعد نشر (أربعة مجلدات) منها، فتوصلت إلى محمد ولد أحمد (حفيد إسماعيل صديق الهلالي وتلميذه) في ١٨ جمادى الآخر سنة ١٤٣٨ ووعدني بإرسال رسائل الهلالي التي بحوزتهم، فاللهم يسِّر. وانظر كتابي «رسائل الهلالي» (١/ ٢٢، ٣٩٥).

(٢) هو مجموع مطبوع في مجلد واحد، وفيه عدة رسائل مهمة، هي «الأصول الثلاثة» و«شروط الصلاة» و«آداب المشي إلى الصلاة» و«أربع قواعد» و«القصيدة الحائية» و«كشف الشبهات» و«العبودية» و«الواسطة بين الخلق =

صلاة المغرب في المندرة المذكورة، واجتمع أهل القرية كلهم تقريبًا فلم تسعهم المندرة فجلسوا في الشارع. وكان في مقدمتهم شيخ البلاد الشيخ يوسف رحمة الله عليه، فأخذ يلقي عليَّ أسئلةً في التوسل بالأولياء وشد الرحال إلى زيارة قبور الصالحين والذبح والنذر وأوراد الطريقة والاستمداد من الشيوخ والاستغاثة بالنبي ﷺ وما إلى ذلك، وأنا أجيبه بحلمٍ وأناةٍ وصبرٍ وهَبَنِيهُ الله لم أعهده في نفسي قبل ذلك.

إِذَا اصْطَفَاكَ لأَمْرٍ هيَّأَتْكَ لَهُ   يَدُ الْعِنَايَةِ حَتَّى تَبْلُغَ الأَمَلَا(١)

وحضر هذا الدرس أستاذ الجماعة الشيخ عبد الظاهر الريرموني، فأخذ يبحث عن عثراتي في النحو والصرف واللغة، ويلقي عليَّ أسئلة بقصد الزراية وإظهار نقصي، فقابلت ـ بتوفيق من الله ـ كل ذلك بأدب وحلم كما يفعل التلميذ المتأدب مع أستاذه، وصرت إذا أجبته عن سؤال فلم يقبل جوابي أسلم له وأقول له: تفضل يا حضرة الأستاذ وأفدنا في هذه المسائل بما علَّمك الله، فصبر الجماعة لهذه المقاطعات على مضض ثم عيل صبرهم، فقال الشيخ إسماعيل صاحب البيت: يا شيخ عبد الظاهر هذه المسألة اللغوية التي تقطع بها على الأستاذ المغربي كلامه لا فائدة لنا فيها، دعها إلى أسيوط الوقت المناسب لها، ثم أنطلق في الوعظ شوطًا أو شوطين، وإذا بالشيخ عبد الظاهر يعود إلى أسئلته فأعود أنا إلى التسليم والأدب، فيزداد المستمعون غيظًا ويعيدون عليه قولهم، واستمر الأمر على ذلك ثلاث ليالٍ ولم ينته عما نهوه عنه، فخشنوا له القول

= والحق، و«رفع الملام عن الأئمة الأعلام» و«تنوع العبادات» و«الرد على النصيرية» و«زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور» و«معارج الوصول» و«المظالم المشتركة» و«الحسبة في الإسلام» و«كشف الكربة».

(١) ذكره الهلالي في «سبيل الرشاد» (٤/ ١٢٧) دون عزو.

وانتهروه، فقال لهم: هذا ضيفي أصنع به ما أشاء، ويحقُّ لي لو شئت أن أقول له: إن أيام الضيافة ثلاثة، وقد انقضت فتفضل فارحل، لقلت له ذلك، فقال له أحدهم ـ وأظنه الشيخ إسماعيل ـ: (إيه ده يا خوي أنت ما تقدرش تقوله كده ده ما هو ضيفك ده ضيفنا حنا إحنا دعوناه واحنا كسبناه بعدما ترجيناك أنت تدعوه ويئسنا منك) معناه: ما هذا يا أخي؟! إنه ليس ضيفك وإنما هو ضيفنا نحن ولا تستطيع أن تقول له: ارحل. فعند ذلك غضب الشيخ عبد الظاهر ولم يعد يحضر دروس الوعظ والدعوة.

السِّرُّ الخَفِيّ

كأني بك أيها القارئ قد تلجلج في صدرك سؤال تريد الإجابة عنه، وهو لماذا امتنع الشيخ عبد الظاهر عن دعوتك؟ ولماذا صار يعكِّر عليك درسك؟ وفي النهاية يريد أن يطردك؟

الجواب: إذا ظهر السبب زال العجب؛ اعلم يا أخي أن الشيخ عبد الظاهر كان قد خطَّ لنفسه خطّةً في الدعوة، وهي أنه كان يفرضُ على كلِّ واحد من السلفيين في الريرمون أن يبايعه بيعة تشبه في بعض نواحيها بيعة المريد المتصوف لشيخ الطريقة، وكانت شروط هذه البيعة شديدة إلى حد أنه لو وقع من أحد الإخوان شيء طفيف مما يخالف ما يريده الشيخ عبد الظاهر، يغضب عليه ويقول له: انتقضتْ بيعتُك فتُبْ إلى الله، وبايعني من جديد! فلا يسعه إلا أن يتوب ويبايع من جديد، وإلا طرده الشيخ وأخرجه من حظيرة الإخوان.

ومن أمثلة ذلك: أن بعضهم كان عنده ضيف صب القهوة وبدأ بالضيف قبل الشيخ، فغضب عليه وأمره بتجديد البيعة! ومن ذلك: أن

الشيخ عبد الظاهر كان قد بلغ من العمر خمسًا وثلاثين سنة ولم يتزوج، فعتب عليه بعض الجماعة وقالوا له: أنت أستاذنا وإمامنا فلا ينبغي لك أن تبقى عزبًا وأنت تعلم ما فرض الله على مستطيعي الباءة، فقال لهم: أنا فقير لا يرضى أحد أن يزوجني ابنته، فقال أحدهم: أنا أزوجك ابنتي، فسكت الشيخ، ومضى على ذلك سنتان، فجاء خاطب فخطب الفتاة فوعده أبوها خيرًا، فلما سمع بذلك الشيخ غضب عليه غضبًا شديدًا، وقال له: انتقضتْ بيعتُك فتُب إلى الله، واعدل عن تزويج الفتاة بذلك الخاطب فقد وعدتني بها منذ سنتين، فكيف تزوِّجها شخصًا آخر؟! فقال: أيها الأستاذ! حقًّا عرضت عليك ابنتي فلم تجبني ببنت شفة، ومضى على ذلك سنتان فلم يبق عندي شك أنه لا أرب لك فيها، فقال الشيخ: كان الواجب يقضي عليك حين جاءك الخاطب أن تأتيني، وتسألني عن رأيي في التزوج بها، فإما أن أتزوج وإما أن أرخص لك في تزويجها، فاختلف الإخوان السلفيون في هذه القضية، فبعضهم صوب رأي الشيخ وبعضهم صوب رأي أبي الفتاة، واشتدَّ نزاعُهم.

وكان كثير من الإخوان يشكون في البيعة، ويظنون أنها غير مشروعة وليست من السنة في شيء، لأنهم لم يروا أحدًا من الدعاة إلى السلفية فرضها عليهم قبل هذا الشيخ. فهاتان مسألتان معضلتان (تحتاجان إلى أبي حسن)[1] يكشف عنهما ظلام الإشكال ويبيِّنُ حكم الله فيهما، ولما رآني الشيخ عبد الظاهر في مدينة ملوي، خاف أن أتصل بإخواننا فيسألوني عن القضيتين فأجيب بخلاف رأيه، فلذلك فعل ما فعل ليحول

(١) المراد بـ (أبي الحسن) هنا الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والمثل يضرب في الأمور الصعبة، فإنها تحتاج لمثله في الذكاء والتوفيق.

بيني وبينهم، ولم يدر أنه لا حيلة تنفع في رد المقدور، فوقع ما خافه، ولذلك أخذ يعاكسني في دروس الوعظ وحاول أن يطردني.

عودة إلى دروس الوعظ

استمررت في إلقاء الدروس كل مساء في مندرة الشيخ إسماعيل الصيفي، ونسيت أن أقول إن الشيخ عبد الظاهر الريرموني رَحِمَهُ اللَّهُ بلغ في المعارضة والمعاكسة إلى أن خالفني في أمر لم يزل يقرره ويدعو إليه، وهو منع شد الرحال إلى زيارة قبور الصالحين، فقال له إخوانه: يا لله العجب.. أنت نفسك لم تزل تقرر المنع، فقال: تغير رأيي، وهل أنا معصوم! ومن طباع المصريين المحمودة ـ وما أكثرها ـ أن المرءوس إذا ظهر له الحق لا يفكر في مذهب الرئيس واعتقاده، بل يتلقى الحق بالقبول وإن خالف رئيسه، ولذلك كان الناس في أثناء الوعظ يتوبون إلى الله ويعلنون توبتهم من الشرك والبدعة ففي كل ليلة يتوب اثنان أو ثلاثة.

وفي الليلة السادسة أو السابعة قام شيخ البلد فأعلن توبته وقال: أيها الشيخ المغربي! إنك لم تأتنا بشيء جديد، فكل هذه المسائل التي دعوتنا إليها سبقك إليها الشيخ علي التونسي والشيخ عبد الظاهر الريرموني وفلان وفلان، ولكن الفرق بين دعوتك ودعوتهم أننا إذا جادلناك تصبر على جدالنا وتجيبنا بلُطفٍ ولينٍ حتى نقتنع وننتقل إلى مسألة أخرى ثم أخرى إلى أن يزول ما عندنا من الإشكال. وأما الدعاة الذين تصدوا للدعوة قبلك فقد كان لهم أسلوب آخر، متى جادلناهم وعرضنا عليهم شبهاتنا قالوا لنا: كفرتم! فنقول لهم: وأنتم أكفر. ونفترق على أقبح ما يكون، ثم التفت إلى الشيخ إسماعيل الصيفي صاحب البيت وقال له: يا شيخ إسماعيل جزاك الله خيرًا على دعوة هذا الأستاذ

المغربي الذي هدانا الله إلى الحق بسببه، ولك الفضل والحق أن تكون الدروس في مندرتك، وأن يكون هذا الأستاذ المغربي ضيفك، ولكني أطلب من فضلك أن تسمح لي بأن يكون هذا الأستاذ أسبوعًا عندك وأسبوعًا عندي. هذا في الدروس الخاصة التي تلقى في المنادر، وأنا أطلب من الأستاذ المغربي أن يلقي لنا درسًا في المسجد الجامع يوميًّا، وأن يصلي بنا الجمعة ما دام مقيمًا عندنا، فقال الشيخ إسماعيل: إنِّي أقبل هذا الاقتراح بكل سرور.

فانتقلت إلى مضيف شيخ البلد واستمررت على إلقاء الدروس، وأضفت إليها درسًا بعد العصر في المسجد الأعظم، واعتذرت إلى الشيخ يوسف عن قبول ما عرضه علي من صلاة الجمعة إمامًا وقلت له: إنني لا أحب الدعاء للملك فؤاد في كل خطبة ولا أريد أن أكون سببًا في شر يصيبكم فحسبي أن ألقي الدروس، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: أيهما صواب: الدعاء للملك في كل خطبة جمعة، أم تركه على ما جاءت به سنة النبي ﷺ؟ فقلت له: أنا أرى تركه هو الصواب، فقال: (إيه ده يا خوي) نحن نعبد الله أو نعبد فؤادًا؟ إذا رأيت الملك فؤادًا أمامك في الصف الأول فلا تبال به، أنا المسؤول؛ صلِّ كما أمرك الله واخطب كما أمرك الله.

وبعد توبة الشيخ يوسف تاب أهل البلد عن بكرة أبيهم إلا بيتين:

أحدهما: بيت شيخ الطريقة.

والثاني: بيت العمدة المرفوت، والمرفوت عندهم هو المعزول، وخدامهما.

وبعدما كان السلفيون ممنوعين من جميع المساجد لأنهم وهابيون أهل مذهب خامس تصافح أهل القرية كلهم وزال كل ما كان بينهم من العداوة في الدين والدنيا، وانتقلت العزلة التي كانت ملازمة لهم إلى شيخ

الطريقة والعمدة المرفوت وخدامهما، فأخذوا يصلون منعزلين في زاوية في وسطها قبر عليه تابوت كانوا يعبدونه، وبلغت العداوة بين الفريقين إلى أن صار يتَّهم بعضهم بعضًا بإحراق الزروع في البيادر، واتَّهم المبتدعون السلفيين بإحراق تابوت ذلك الضَّريح الذي كانوا يعبدونه. والحقيقة أن امرأة أوقدت شمعة تتقرب بها إلى صاحب الضَّريح وجعلتها على التابوت فلما انقضت الشمعة وصلت النار إلى التابوت فأحرقت بعضه.

وكأني بعابد القبر يقول: يا هذا! لقد أسرفتَ في القول، فهل يعبد مسلم يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبرًا؟

فأقول في الجواب: يمكنك أن تغالط بهذا الكلام غيري، أما أنا فلا تستطيع أن تغالطني لأنني أنا بنفسي كنت أعبد القبور، فهداني الله إلى توحيده وهدى بي خلقًا كثيرًا ولله الحمد، وأزيدك على ذلك ما يخرسك ويلقمك حجرًا أن الجهال في هذا الزمان من أهل البلاد الإسلامية ـ وما أكثرهم ـ يعبدون القبور والأنصاب بل والأشجار ويعبدون كل شيء حتى الحمير، ودونك البرهان القاطع:

أما عبادة الأضرحة؛ فأمر متواتر مشاهد بالعيان في أكثر البلدان المنتسب أهلها إلى الإسلام، كما هو في بلاد النصارى، وهؤلاء يزيدون التماثيل.

وأما عبادة الأشجار؛ فقد حدثت من عهد بعيد، فقد ذكر ابن أبي شامة في كتاب «البدع»[1] له: أن شجرة كانت تعبد في دمشق في زمانه. وأما في هذا الزمان فحدث عن البحر ولا حرج، فقد شاهدت شجرة عظيمة

(١) المسمى «الباعث على إنكار البدع والحوادث»، والكلام فيه (ص١٠١ ـ بتحقيقي)، ومؤلفه أبو شامة عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم الشافعي (٥٩٩ ـ ٦٦٥هـ).

وافرة الأغصان تعبد في مصر، وأخبرني الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة أنه هم بقطعها وأخذ فأسًا واشتغل طول الليل إلى أن كاد الفجر يطلع فلم يستطع أن يقطع إلا جزءًا يسيرًا من أغصانها، فجاء عبادها في الصباح بالنذور فوجدوا بعضها مقطوعًا فغضبوا غضب العابد لمعبوده، واتهموا الشيخ المذكور ورفعوا شكوى إلى العمدة فطالبهم بالبينة، فقالوا: لا يوجد أحد في هذه الناحية يشنع على المتبركين بها إلا هذا الرجل، فقال العمدة: إنني لا أستطيع أن أعاقبه بهذه الحجة التي لا تتجاوز الظنون. وأخبرني الحاج (محمد أجانا) ـ وهو رجل قضى عمره في البدع حتى بلغ السبعين ثم هداه الله إلى التوحيد بدعوتنا ـ أن له شجرتين يعبدهما الفلاحون، إحداهما اسمها أبو بكر والأخرى نسيت اسمها، وأن الفلاحين يضعون أدوات الحرث وغيرها مما يثقل عليهم حمله إلى جانب إحدى الشجرتين، فلا يتجرأ أحد أن يسرق شيئًا من ذلك مع أنهم سرقوا حصر المسجد، ولو ذهبنا نعدد وقائع عبادة الأشجار لطال بنا الكلام(١).

وأما عبادة الأحجار؛ فهي كثيرة، أورد بعض وقائعها: فمن ذلك حجر كبير ناشز في جبل بالصعيد في مديرية أسيوط، أخبرني أصحابنا أنه كان يسمَّى الشيخ دغَّارًا، وأن جماعة منهم ذهبوا ذات ليلة بمعاولهم، واشتغلوا طول الليل فتركوا الشيخ دغارًا أثرًا بعد عين. ومنها أن صخرة في مرسى مدينة طنجة داخل البحر تسمى سيدي ميمونا يعبدها أهل تلك الناحية، وسبب اطلاعي على عبادتها أني كنت راكبًا في سيارة حافلة من طنجة إلى تطوان سنة ثلاث وأربعين وتسع مئة وألف بتاريخ النصارى

---

(١) استطاع الهلالي من خلال رحلاته، وحرصه على محاربة الشرك، وإلمامه بكثير من اللغات، أن يعرف مظاهر الشرك في كثير من أرجاء المعمورة، وقد وصف ذلك شديدًا في مقالاته وكتبه، انظر في تفصيله مقدمتنا لكتابه «سبيل الرشاد» (١/ ٤٤ ـ ٥٣).

وأتباعهم، وكان إلى جانبي رجل معه امرأة فسلَّم عليَّ وقال لي: أنا ممن يحضر دروسك في «الجامع الكبير»، وقد هداني الله إلى التوحيد بسبب ذلك، ولكن زوجتي هذه لا تزال متمسِّكة بالشرك، فأرجو من فضلك أن تعظها لعل الله يهديها بوعظك كما هداني أنا، وذكر لي قضية اشتد نزاعهما فيها تتعلق بعبادة الصخرة البحرية المسماة بسيدي ميمون، وحاصلها: أنهما لا يعيش لهما الأولاد، إذا بلغ الصبي سنة يموت، فنذرت زوجتُه أن تذبح عن ولدها في كلِّ سنة شاةً لسيدي ميمون، وقد حانت نهاية السنة الأولى من عمر الصبي، قال: فامتنعت أنا من الوفاء بهذا النذر، وقلت: إن عمر الصبي بيد الله، وميمون صخرة لا تضر ولا تنفع، فلم تقبل. فوعظتها من طنجة إلى تطوان مدة ساعة، ولا أدري هل انتفعت بوعظي وتابت من الشرك أم بقيت على شركها؟ وأكتفي بهذا القدر من الشواهد على عبادة الأحجار.

ومن عبادة المياه: أن بئرًا بالقصر الكبير يعبدها السفهاء ويسمونها سيدي ميمونًا، ويزعمون أن ابن أمير الجن شمهروش كثيرًا ما يحضرها، خبرني بذلك غير واحد في البلد المذكور، وشاهدت حوادث أخرى من عبادة المياه، فلا أطيل بذكرها.

ـ وأما عبادة الحمير؛ فأذكر فيها قصتين:

إحداهما وقعت في طرابلس الغرب على ما حدَّثني به ثقة، وذلك أنه كان في تلك الديار شيخ متصوِّف اسمه عبد السلام الأسمر[(١)] كان

(١) هو أبو عمران عبد السلام بن سليم بن محمد بن سالم بن حميدة بن عمران الأسمر (٨٨٠ ـ ٩٨١هـ)، وللبرموني «روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب صاحب الطار سيدي عبد السلام الأسمر» استلّ منه د. مصطفى عمران رابعة «رسائل الأسمر إلى مريديه» طبع عن دار المدار الإسلامي، ليبيا، سنة ٢٠٠٣هـ، في (٤٣٢) صفحة.

يرقص مع أصحابه ويضربون بالدفوف حتى يخروا صرعى على الأرض، ويعتقدون أن الدُّفَّ الذي كان يضرب به الشيخ عبد السلام نزل من الجنة، وكان يضرب به علي بن أبي طالب للنبي، والشيخ عبد السلام والمريدون المنقطعون للعبادة معه لم يكونوا يكتسبون معيشتهم لأنهم كانوا بزعمهم متوكلين.

وكان للشيخ المذكور حمار(١) يطوف على بيوت البلد وحده كل صباح ومساء وعليه خرج، فكلما وقف بباب بيت يضع أهله شيئًا من الطعام في ذلك الخرج، فيرجع إلى الشيخ والمريدين بطعام كثير غدوة وعشية، فلما مات الشيخ وتفرق المريدون وبقي الحمار بلا عمل، فصار الناس يقدمون له العلف ويتبركون به إلى أن مات، فدفنوه وعكفوا على قبره يعبدونه!

---

(١) هذا الحمار كبغل سيدي هدي. (خ)
قلت: وكان مريدو الشيخ هدي يمرون على سكان القبيلة يرافقهم بغل شيخهم يحطون عليه ما يجمعونه من الصدقات (قمح وشعير وبصل وغيرها...)، وأحيانًا يطوف البغل لوحده على القبيلة ثم يعود مثقلًا بالصدقات إلى زاوية سيده.
وسيدي هدي هو المهدي المشهور بسيدي هدي بن محمد بن الزين بن العابد بن هاشم بن الشريف بن محمد ـ فتحًا ـ بن أبي علي بن محمد بن يوسف بن مولاي علي الشريف العلوي السجلماسي، ولد بأرفود سنة ١١٦٠هـ وتوفي بقبيلة بني عروس ودفن بها سنة ١٢١٩هـ، اجتمع عليه الحشاشون والمجاذيب والبهاليل وقطاع الطرق الفارين من قبضة السلطان ويحتمون به، كانت لهم طقوس خاصة بهم، من ضرب على الطبول والرقص وشرب الحشيش والركيلة (الشيشة) واختطاف النساء واغتصابهن، فهو وأتباعه كانوا يؤمنون بأن الله لم يخلق الإنسان ليتعب بل ليسعد بملذات الحياة، لذا انصرفت هداوة للاستمتاع (معاشرة النساء، تدخين الكيف، الولائم الباذجة...) والعزوف عن العمل، ومن طبائعهم عدم الاغتسال، تربية القطط والتسول الدائم... ولا يزال ضريح سيدي هدي موجودًا ويُزار إلى الآن. (ع)

والقصة الثانية في المغرب الأقصى: قرأت في سنة ستين وتسع مئة وألف بتاريخ النصارى في صحيفة «العلم» مقالًا لمعلمة اسمها خديجة النعيمي من الدار البيضاء، قالت خديجة: خرجت مع نسوة جاهلات نتجول خارج المدينة، فمررنا بكوم من حجارة فأخذت النسوةُ يقبِّلن تلك الحجارة ويتمسَّحن بها قائلات: (أنتاع الله لله يا للاحمارة) معناه: نسألك متاع الله، أي: ما أعطاك الله من الكرامة يا سيدتنا الأتان، قالت: فأنكرت صنيعهن وقلت لهن: ويحكنَّ تتخذن أولياء حتى من الحمير، فقلن لي: اسكتي إنك لا تعرفين قدر هذه الولية فكم قَضَتْ من حاجات، ونخاف عليك أن تضربكِ ضربةً يكون فيها حتفك فسلِّمي للفارغ لكي تنجي من العامر (قلت: وهذا مثل يضربه المغاربة لمن اعترض على عبادة شخص وقال: إنه لا ينفع ولا يضر، يقول له عباده: (سلم للخاوي تنجى من العامر) معناه: هب أنه فارغ من الولاية فخير لك أن لا تعترض عليه وأن لا تنكر ولايته لأنك إن استمررت في الإنكار يخشى عليك أن تصادف وليًّا حقيقيًّا فيصيبك بشرٍّ). ثم وجَّهت الكاتبةُ المذكورة دعوة إلى العلماء وقالت: يا علماء الدين! اتقوا الله وعلِّموا الناس توحيد الله وشعائر دينهم، فإنكم ضيعتم الأمانة التي حمَّلكم الله إياها حتى وصل الناس إلى عبادة الحمير دون الله. فكتبت ثلاث مقالات[1] تلبية لدعوتها ونشرت في صحيفة «العلم»، ولم يلبِّ دعوتها أحدٌ غيري مِنْ قُرَّاء صحيفة «العِلم» وهم يعدُّون بالآلاف، وأظنُّ أن هذا القدر يكفيك إن

(١) سمّاها الهلالي (صور من حياتنا الاجتماعية)، ونشرها في جريدة «العلم» المغربية، السنة (١٥) الأعداد (٤١١٣، ٤١١٩، ٤١٣١) بالتواريخ ـ على الترتيب ـ: ٢٦ ربيع الثاني ١٣٨٠ ـ ١٨ أكتوبر ١٩٦٠ (ص٤) و٤ جمادى الأولى ١٣٨٠ ـ ٢٥ أكتوبر ١٩٦٠ (ص٣ ـ ٤)، و١٨ جمادى الأولى ١٣٨٠ ـ ٨ نوفمبر ١٩٦٠ (ص٢ ـ ٣)، وهي في كتابي «مقالات الهلالي».

كنت منصفًا، ويقنعك[1] إن كنت متعسفًا.

عودة إلى الريرمون

أول جمعة صلَّيتُها إمامًا في الريرمون في المسجد الأعظم كانت يوم عيد عند أهل الريرمون، وتمكن السَّلفيون لأول مرة من الصلاة في المسجد الأعظم وتعانق الناس، وصاروا إخوانًا متحابين. وكان للسلفيين مسجد بنوه باللبن وسقفوا نصفه بخشب النخل، فصلى في ذلك اليوم الشيخ عبد الظاهر في ذلك المسجد إمامًا، وقال في خطبة الجمعة: يا إخواننا لا يخفى عليكم (أنَّ المركب اللي فيها ريسين تغرك) ـ يعني: أن السفينة إذا كان لها ربانان فمآلها الغرق لأن الربانين يختلفان فيؤدي اختلافهما إلى اختلاف النوتية ويفضي بهم ذلك إلى الغرق ـ، وأن هذا المغربي قد فرق جماعتنا ووالى أعداءنا وأحدث فتنة في البلد، فمن كان منكم ثابتًا على بيعتي محافظًا على عهدي فلا يكلِّمه ولا يجلس إليه ولا يستمع لحديثه، فلما فرغ من الصلاة ـ ولم يصلِّ معه إلا الشيوخ الضعفاء الذين شق عليهم المشي للجامع الأعظم ـ غضبوا عليه وزجروه زجرًا شديدًا وقالوا له: ما نظنُّ إلا أنَّك أصبتَ بالجنون وأن هذه الصلاة التي صلينا خلفك مشكوك في صحَّتها لأنك تكلَّمتَ باللغو الذي لا يناسب خطبة الجمعة، وهذا الرجل الذي تكلمت فيه بغير حقٍّ ما رأينا منه إلا خيرًا وهو يجلُّك غاية الإجلال، فقال لهم: هذا فراق بيني وبينكم.

وقبل ذلك بيوم دعاني أحد الإخوان للغداء ودعا الشيخ عبد الظاهر، فقال لي: يا شيخ محمد! سمعت بأن المنافق يوسف شيخ البلد جاءك

(١) الصواب: «ويقمعك». (خ)

وأظهر لك أنه تاب من شركه وبدعته؛ فقبلت توبته وأظنك لا تعلم أنه أكبر عدوٍّ للسلفيين ولي أنا بالخصوص وأنا شيخ هذه الطائفة وإمامها، فإن كان صادقًا فيما يزعم فهلا جاء إلي والتمس مني العفو وبايعني؛ بل أنت بنفسك يجب عليك أن تبايعني وأن لا تخرج عن رأيي!! فقلت له: يا شيخ عبد الظاهر والله أني لأحبُّ أن أرضي الله ثم أرضيك ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، فهب أن رجلًا في الرُّوضَة[1] ـ وهي بلدة قريبة من الريرمون ـ يدعو إلى مثل ما ندعو إليه من التوحيد واتباع السنة، وهذا الشيخ يوسف عدو لي ولك، فجاءه هذا الداعي ودعاه فتاب إلى الله على يده من الشرك والبدعة وبقي مع ذلك مصرًّا على عداوتنا، ألا ينبغي لنا أن نفرح بتوبته لأنه أنقذ من شر عظيم يوجب له الخلود في نار جهنم، أما عداوتنا نحن فإنها معصية لا تخرجه من الإسلام وقد تزول فنصطلح معه ونعود إلى الوفاق؟ فقال لي: هذا رأيك أنت، أما أنا فأقول: يجب على كل من أراد أن يتوب من الشرك والبدعة أن يرضيني ويبايعني! فقلت له: إني أوثر رضى الله على رضاك. فقال: هذا فراق بيني وبينك. وسمعت بأنه كان يتعاطى الأفيون وهو مخدر سام ـ الله أعلم بصحة هذا الخبر ـ.

وبقيت في الريرمون على تلك الحال نحو ثلاثة أشهر، ثم حان

---

(١) هي من القرى القديمة، وهي التي كانت تسمى (كيلو باتريس)، وكانت في ذاك الوقت ميناء لمدينة الأشمونين التي تقع على غربي الروضة، وعلى بُعد ست كيلو مترات منها. وكانت تسمى في عهد العرب (معصرة الريرمون)؛ لمجاورتها لناحية الريرمون، فقد ورد في «التحفة»: (معصرة الريرمون)، وتعرف بـ (الروضة الجمالية)، من أعمال الأشمونين، وعرفت بـ (الروضة الجمالية)، لأن أراضيها الزراعية كانت في عهد الدولة الفاطمية ملكًا لأمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي. أفاده العلامة محمد رمزي في «القاموس الجغرافي» (٤/ ق٢/ ٦٢ ـ ٦٣).

وقت الحج، وكنت في أثنائها أظهر الغِنَى، ولم أسمح لأحد أن يدفع عني أجرة البريد لرسالة أرسلها في البريد فضلًا عن غير ذلك حتى صار الناس يعتقدون أنني غني، ولم يتجرأ أحد أن يقدم لي شيئًا لا دراهم ولا ثيابًا إلا شيئًا من الخبز اليابس وشيئًا من السمن في إناء من خزف انكسر حين ركبت العربة قبل أن أصل إلى مستقري في القاهرة، وإلا كسوة كسانيها الشيخ يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن قدم لها مقدمات من الإلحاح الكثير.

المناظرة

لما استجاب لي شيخ البلد وتبعه الناس كلهم إلا من ذكرت ـ أعني العمدة المرفوت وشيخ الطريقة ـ أصاب هذين الرجلين من الغم والحزن شيء كثير، فبعثا إلى الجامع الأزهر ودعيا أحد كبار الأساتذة المعروفين بغزارة العلم وطلاقة اللسان لمناظرتي، فجاء الأستاذ الأزهري ونزل في قصر العمدة المرفوت، فجاء أصحابنا وأخبروني بقدومه وقالوا لي: ناظره فستنتصر عليه يقينًا، فإن الأزهريين ضعفاء في علم السنة والتوحيد ونحن العوام نغلبهم، فقلت لهم: إني أرى في هذه القضية رأيًا مخالفًا لرأيكم، وهو أنني لا أناظره، فأنا حارث وزارع، وقد دعوت أهل البلد فاستجابوا لي؛ فليتقدم وليدعهم هو إلى الرجوع إلى الشرك والبدعة، فإن رجع معه أحد فأبعده الله، ومن تبعه فهو له ومن تبعني فهو لي، والمناظرة تعتريها المشاغبة ثم المضاربة فلا تحق حقًّا ولا تبطل باطلًا.
فقالوا لي: كلامك هذا يسبب لنا الهزيمة ويصدق قول أعدائنا: إنك مغربي حاج ما درست في الأزهر ولا عندك الشهادة العالمية. فقلت لهم: صدقوا، أنا جاهل ما درست في الأزهر ولا عندي الشهادة العالمية، ولكن هذه المسائل التي أدعو إليها لو جاء شيخ الأزهر ومعه

علماء الأزهر كلهم لم يستطيعوا أن ينقضوا منها شيئًا، غير أنني لا أحب المناظرة، ودعوا الأعداء يقولون ما شاءوا، فلم يعجبهم كلامي.

وبقي الأستاذ الأزهري في بيت العمدة خمسة عشر يومًا حاول في أثنائها أن يهجم علي في الدرس الذي ألقيه كل يوم بعد العصر بالمسجد الجامع، فنهاه شيخ البلد وقال له: نحن نثق بهذا الرجل ولا نشك في صحة ما دعانا إليه، والله إن فتحت (بقك) ـ أي فمك ـ بكلمة واحدة لآمرنَّ خفيرين ـ أي حارسين ـ يأخذانك إلى محطة السكة الحديدية لأنك تريد أن تحدث تشويشًا وفتنة، فبقي شيخ الطريقة وصاحبه العمدة حائرين، وفي النهاية عمدا إلى حيلة مكَّنتهما مما أراداه.

وذلك أننا كنا في شهر رمضان، وفي ذات يوم دعاني العمدة الحقيقي ـ وهو رجل ملحد ـ إلى العشاء فأجبته، وألقيت كلمة أمامه فقال لي: أنا على الحياد لستُ معك ولا مع خصومك ـ يعني شيخ الطريقة والعمدة المرفوت ـ، ولكن عقيدتكم أنتم أقرب إلى العقل من عقيدتهم؛ لأن عبادة القبور وشيوخ الطريقة إهانة للكرامة الإنسانية.

ولما انصرفتُ من عنده كان طريقي يمرُّ على باب قصر العمدة المرفوت، فلما حاذيت بابه جاءني شيخ الطريقة وسلم علي وقال: إنَّ سعادة العمدة يدعوك إلى فنجان قهوة. فقلت: عندي الآن درس، فقال لي: لا يستحسن أن ترد دعوته ولا تزيد على خمس دقائق، فذهب بي حتى أدخلني إلى مقصورة وجدت فيها شيخًا ذا عمامة ولحية، فظهر لي أنه هو العالم الأزهري الذي دعي إلى مناظرتي، وكان ظني صادقًا فلم يكد المجلس يستقر بي حتى هجم علي الأستاذ الأزهري وقال لي: يا فلان! بلغني أنك تقول كذا وكذا وكذا وعدد مسائل من التوحيد واتباع السنة. فقلت له: أما كذا وكذا فقلته حقًّا، وذكرت له دليله، وأما كذا وكذا فلم أقله.

ووقعت المناظرة فعلًا، فحانت مني التفاتة فرأيت حديقة القصر كلها عمائم وقلانس لم يبق أحد من أهل البلد إلا حضر، وتركوا لذلك صلاة التراويح، فلم تزد المناظرة على نصف ساعة، وكان الأستاذ الأزهري ـ نسيت اسمه الآن ـ من خيرة علماء الأزهر، فجعل يقول في أثناء المناظرة: أشهدكم أني رجعت عن كل ما قلته في هذا الأستاذ المغربي؛ فإن الناس نقلوا لي عنه مسائل مكذوبة عليه، وأشهد أنه من العلماء المحققين، وإنْ كنتُ أخالفه في بعض المسائل. فعند ذلك علم العمدة المرفوت أنه أخفق في سعيه، فقال: أيها الأستاذ! أرجوكم أن تقطعوا هذه المناظرة، أنا ما دعوت الأستاذ المغربي إلى المناظرة وإنما دعوته لأتعرَّف به ويشرب عندي فنجانًا من القهوة. فانتهت المناظرة على ما يحبه أصحابُنا ويكرهه خصومُنا، ومن رأيي أني أبعد عن المناظرة وأتجنبها، فإذا اضطررت إليها استعنت بالله وخضت غمارها(1)، قال النبي ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا**»(2).

---

(١) هذا منهج حسن، صرح به الهلالي في أكثر من مرة في كتابه هذا وغيره، وهو منهج أهل الحديث، فقال ـ مثلًا ـ في كتابه «الطريق إلى الله» (ص٥): «وإن كان أئمتنا أهل الحديث ـ نضر الله وجوههم في الدنيا والآخرة ـ قد نهوا عن الخوض في علم الكلام والجدل دون أن تدعو إلى ذلك ضرورة مقاومة المفسدين أو تثبيت عقيدة المؤمنين؛ فعند ذلك تتعيَّن المقاومة، ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة».
وصرح بهذا في لقائه مع المجذوب، انظر «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٣٧) ومسلم (١٧٤٢) عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما.

الدعوة إِلى الله في تَنْدَا[1]

تندا: هي قرية تبعد عن الريرمون مسافة لا أحصيها، وفيها سلفيون واثنان من العلماء.

جاءتني دعوة من السلفيين من أهل هذه القرية فلبيتها، وتوجهت إليهم وأقمت عندهم ثمانية أيام ألقي الدروس في المساجد، فرجع عن البدعة والشرك خلق كثير، وقدر عددهم بنصف سكان القرية، وعندئذٍ قال لي بعض أصحابنا: اتق الله وامكث هنا في مديرية أسيوط على الأقل سنة كاملة، وأَقسمَ بالله أني لو أقمت سنة ليهدين الله بي أكثر سكان المديرية، وقال لي: إن هذه الفرصة التي سنحت لك من إقبال الناس على مجالس دعوتك قلَّ ما يسنح مثلها ولا يجوز لك أن تضيعها، فقلت له: يمنعني من ذلك أن الغرض الذي سافرت من أجله من المغرب هو طلب العلم ولقاء أصحاب الحديث أينما كانوا، وأنا لم أؤدِّ فريضة الحج حتى هذه الساعة، فقال لي: أما طلب العلم فهذه المجالس الحافلة بالدعوة إلى الله هي من صميم طلب العلم، وأنتَ شابٌّ يمكنك أن تستأنف رحلتك بعد ذلك. وجاءني اثنان من أغنياء أصحابنا فقال لي كلٌّ منهما: امكث هنا وأنا مستعد أن أزوِّجك ابنتي وأكتب لك عند المأذون فدانين غلتهما تكفيك للمعيشة، فاعتذرتُ إليهما عن القبول وقلت لهما: إن الشيخ

(١) هي من القرى القديمة، وردت في «أحسن التقاسيم» من مدن مصر التي في غرب النيل بالصعيد، وهي غير (طنطا) المعروفة. انظر «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» (٤/ ٦٥) للعلامة محمد رمزي.

عبد الظاهر الريرموني ـ عفا الله عنه ـ يظن أنني أقصد الإقامة هنا طلبًا للمعيشة لأقصيه وأحل محله، فقالا: معاذ الله أن يظن بك أحد مثل هذا الظن. وفي أثناء إقامتي بالريرمون قرأ عليَّ أخوان معلّمان في المدرسة ـ نسيت أسماءهما ـ ختمة من القرآن بقراءة ورش، وكانت نادرة في مصر في ذلك الزمان، فلم تلبث أن انتشرت بعد ذلك وأولع بها القراء، بقصد الإغراب على السامعين، واكتساب المعيشة، أي: التأكل بالقرآن.

وفي «صحيح البخاري»: (باب من تأكل بالقرآن أو فخر به)(١)، ذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب حديث علي في الخوارج(٢)، واستدل به على أنه لا يحل الأكل بالقرآن، فراجعه إن شئت.

قدِّم مرادَ الله، يقدِّم اللّهُ مرادك

تقدم أني تعففت أثناء إقامتي بالريرمون وأظهرت الغنى.

تَعَفَّفْ ولا تَبْتَئِسْ فَمَا يُقْضَ يَأْتِيكَا(٣)

وإنما فعلت ذلك لعلمي أن الذي يأخذ من الناس لا يستطيع أن يعطيهم شيئًا، وأن من كان له غرضان متضادان لا يمكن الحصول عليهما جميعًا. فلذلك وحدتُ همِّي ووجَّهت همتي بعد فتح الله لي قلوب الناس إلى الدعوة وحدها، كما قال الناصح:

اجْعَلِ الْهَمَّ واحدا وَارْضَ بِاللهِ صَاحِبا(٤)

---

(١) صوابه: (باب من رايا بقراءة القرآن، أو تأكل به، أو فخر به).

(٢) انظره في «صحيح البخاري» (٥٠٥٧).

(٣) البيت في «المحكم والمحيط» (٩/ ٤٨٣)، «تاج العروس» (١٠/ ٩٦)، «لسان العرب» (٤/ ٣٧) من غير نسبة.

(٤) بنحوه في «العزلة» (رقم ١٦٦ ـ بتحقيقي) لابن أبي الدنيا، ويزاد على المصادر =

وكنت أظن قبل التوجه إلى الصعيد أن ييسر الله لي دراهم أحج بها حجة الفريضة. وبعدما أقمت في مصر سنة وشهرًا نفد كل ما كان عندي، وكنت أنفق على نفسي وأخي الأستاذ محمد العربي الهلالي[(١)] الذي صحبته معي وكان صغيرًا، لكن لما حصلت على تلك الغنيمة فوضت الأمر إلى الله، وقلت:

عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ الله إِنَّه　　لَهُ كُلَّ يومٍ في خَلِيْقَتِهِ أَمْرٌ[(٢)]

وبعد وصولي إلى القاهرة ببضعة أيام جاءتني حوالة من الشيخ يوسف بثلاثة عشر دينارًا، فكانت كافية لأن أحج بها أنا وأخي، وهذا ما أردت بقولي: **(قدِّم مرادَ الله، يقدم الله مرادك)**.

هل بقي أهل الريرمون ثابتين على الدعوة؟

الجواب نعم، بعدما سافرت إلى الحجاز[(٣)] ثم إلى الهند ثم إلى العراق رجعت إلى مصر[(٤)] سنة خمسة وأربعين وثلاث مئة وألف فزرت

= التي في الحاشية: «الطيوريات» (٧/ ق ١١٩/ ب)، «الكامل» للمبرد (١/ ٤٠٣ ـ ط الدالي)، «بغية الطلب» (٤/ ١٨٢٢) لابن العديم، «تاريخ ابن عساكر» (٦/ ٣٤٨). «المقفى الكبير» (١/ ٦٨، ٨٧، ٨٩) «روض الرياحين» (٦٥).

(١) يسر الله ﷻ الوقوف على مجموعة من مقالاته، وألحقتها بآخر «مقالات أخيه تقي الدين الهلالي»، وأشكر ولده (منصورًا) على ما زوّدني به من وثائق ومقالات تخص عمه تقي الدين الهلالي.

(٢) هو لمحمد بن إسماعيل في «حاشية شرح شذور الذهب» (٣٥١). وبلا نسبة في «الصاحبي في فقه اللغة» (١٥٧)، «الفرج بعد الشدة» (١/ ٢٩٧)، «المقاصد النحوية» (٢/ ٢١٤)، «همع الهوامع» (١/ ١٣١).

(٣) للحج سنة ١٣٤١هـ، أفاده في مقاله (مصاب أليم بوفاة أخ كريم).

(٤) متوجهًا للحج للمرة الثانية، فمر بمصر، وزار الريرمون، أفاده في مقاله المومأ إليه.

الريرمون، ووجدت الإخوان ثابتين على الحق لم يضرهم من خالفهم[1]، وأخبرني الشيخ يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لما شاع في أنحاء الصعيد أن أهل الريرمون بدَّلوا الدين وأحدثوا دينًا جديدًا بعثت وزارة الأوقاف مفتشًا ليعرف حقيقة ما وقع. قال: فجاءنا وقال: يا شيخ يوسف بلغنا أنكم تركتم الترقية وقراءة سورة الكهف والأذان الثاني في يوم الجمعة وكذا وكذا، قال: فقلت له: أنتَ عالم ونحن جهال وسترى صلاتنا وعبادتنا، فكل ما رأيته مخالفًا للسنة المحمدية فأخبرنا به نرجع عنه، وكل ما رأيته ناقصًا من السنة فأخبرنا به نفعله، فقال لي: يا شيخ يوسف السنة على الرأس والعين، ولكن لا يخفى عليك أنه قد حدثت أمور بعد زمان النبوة استحسنها الناس ودأبوا عليها ومن الصعب إزالتها، وقد قال العلماء[2]:

(١) للهلالي كلمة جميلة في ذلك، قالها في «سبيل الرشاد» (٢/ ٢٥٩) أحببت إثباتها، وهذا نصُّها: «وهؤلاء الرؤساء المتبوعون عليهم من الواجبات ما ليس على غيرهم؛ فإن استقاموا استقام أتباعهم، وإن انحرفوا انحرف أتباعهم.
أول ما دعوت في صعيد مصر إلى توحيد الله ـ تعالى ـ واتباع سنة رسوله ﷺ ونبذ البدع والمحدثات؛ ألقيت ستة دروس، في آخر الدرس السادس منها استجاب لي شيخ البلد، وهو الشيخ يوسف عبد العال ـ رحمه الله رحمة واسعة، وبارك في ابنه الشيخ محمد، أعني: بلد الريرمون في مديرية أسيوط ـ، فتبعه أهل البلد كلهم، ولا يزالون كذلك إلى يومنا هذا، وقد مضى عليهم أربع وخمسون سنة، لم تستطع فتنة الاشتراكية أن تنال من عقيدتهم مثقال ذرة، فلما زرتهم قبل ثلاث سنين، وجدت شيخ البلد منهم كما كان الأمر قبل أربع وخمسين سنة، ووجدت وكيل الحزب منهم، وإذا رسخت عقيدة التوحيد في القلوب لا يستطيع أحدٌ أَن يزلزلها.

(٢) ناقش الشاطبي في «الاعتصام» (٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤٥) هذه (الدعوى) منطلقًا من «نهي الشرع عنها على وجه واحد، ونسبة إلى الضلالة واحدة في قوله: «**إياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»، وهذا عام في كل بدعة. =

= فيقع السؤال: هل لها حكم واحد أم لا؟ فنقول:
* ثبت في الأصول أن الأحكام الشرعية خمسة يخرج عنها الثلاثة، فيبقى حكم الكراهية وحكم التحريم، فاقتضى النظر انقسام البدع إلى القسمين، فمنها بدعة محرمة، ومنها بدعة مكروهة، وذلك أنها داخلة تحت جنس المنهيات، [والمنهيات] لا تعدو الكراهة أو التحريم، فالبدع كذلك. هذا وجه.
* **وجه ثان**: أن البدع إذا تُؤَمِّلَ معقولها؛ وُجِدَتْ رتبها متفاوتة:
ـ فمنها ما هو كفر صراح؛ كبدعة الجاهلية التي نبَّه عليها القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا...﴾ الآية [الأنعام: ١٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] وكذلك بدعة المنافقين حيث اتخذوا الدين ذريعة لحفظ النفس والمال، أو ما أشبه ذلك مما لا يُشَكُّ أنه كفر صُراح.
ـ ومنها ما هو من المعاصي التي ليست بكفر؛ أو يختلف: هل هي كفر أم لا؟ كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة ومن أشبههم من الفرق الضالة.
ـ ومنها ما هو معصية، ويُتَّفق على أنها ليست بكفر؛ كبدعة التبتُّل، والصيام قائمًا في الشمس، والخصاء بقصد قطع شهوة الجماع.
ـ ومنها ما هو مكروه؛ كما يقول مالك في إتباع رمضان بست من شوال، وقراءة القرآن بالإدارة، والاجتماع للدعاء عشية عرفة، وذكر السلاطين في خطبة الجمعة ـ على ما قاله ابن عبد السلام الشافعي ـ، وما أشبه ذلك.
فمعلوم أن هذه البدع ليست في رتبة واحدة، ولا على نسبة واحدة، فلا يصح على هذا أن يُقال: إنها على حكم واحد، هو الكراهة فقط، أو التحريم فقط.
* **ووجه ثالث**: أن المعاصي منها صغائر ومنها كبائر، ويُعرف ذلك بكونها واقعةً في الضروريات أو الحاجيات أو التكميليات، فإن كانت في الضروريات؛ فهي أعظم الكبائر، وإنْ وقعت في التحسينيات؛ فهي أدنى رتبةٍ بلا إشكال، وإن وقعت في الحاجيات؛ فمتوسّطة بين الرُّتبتين.
ثم إن كل رتبة من هذه الرتب لها مكمِّل، ولا يمكن في المكمِّل أن يكون في =

إن البدعة تعتريها الأحكام الخمسة فقد تكون واجبة أو مستحبة أو مباحة أو مكروهة أو محرمة، قال: فقلت: أنا كما تعلم لست من العلماء ولكنِّي سمعتُ غيرَ واحد من العلماء الثقات الذين لا أشك في علمهم ولا في صدقهم يقولون: إن النبي ﷺ قال: «**كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار**»[1] وفسروا لنا هذا الحديث كما يدل عليه ظاهره، ولم يقل أحد منهم: إن بعض البدع واجب وبعضها مستحب وبعضها مباح، فقال المفتش: ثم لا يخفى عليكم أن المساجد للأوقاف هي التي بنتها وهي التي تنفق عليها وهي تريد أن تسير على ما كانت عليه، قال الشيخ يوسف فقلت له: (إيه ده يا خوي بس كدا؟) أنا أستطيع أن أبني مسجدًا

= رتبة المكمَّل؛ فإن المكمِّل مع المكمَّل في نسبة الوسيلة مع المقصد، ولا تبلغُ الوسيلةُ رتبةَ المقصد؛ فقد ظهر تفاوت رتب المعاصي والمخالفات.

وأيضًا؛ فإن الضروريات إذا تؤمِّلت؛ وجدت على مراتب في التأكيد وعدمه: فليست مرتبةُ النفس كمرتبة الدين، ولذلك تُسْتَصْغرُ حرمةُ النفس في جنب حرمة الدين فيبيح الكفر الدم. والمحافظة على الدين مبيح لتعريض النفس للقتل والإتلاف في الأمر بجهاد الكفار والمارقين عن الدين.

ومرتبةُ العقل أو المال ليست كمرتبة النفس، ألا ترى أن قتل النفس يبيح القصاص بالقتل، بخلاف العقل والمال، وكذلك سائر ما بقي.

وإذا نظرت في مرتبة النفس؛ تباينت المراتب، فليس قطع العضو كالذبح، ولا الخدش كقطع العضو، وهذا كله محل بيانه الأصول». قال: «وإذا كان كذلك؛ فالبدع من جملة المعاصي، وقد ثبت التفاوت في المعاصي، فكذلك يتصوَّر مثله في البدع، فمنها ما يقع في رتبة الضروريات...» إلى آخر كلامه، وأخذ في التوضيح والبيان، وما بعد هذا البيان من بيان، وهو الذي دندن حوله الشيخ يوسف بن عبد العال.

(١) أخرج مسلم (٨٦٧) عن جابر أوله، وزيادة «**وكل ضلالة في النار**» عند النسائي (١٥٧٧) وفي «الكبرى» (١٧٩٨) و(٥٨٦١) وابن خزيمة (١٧٨٥) والفريابي في «القدر» (٤٤٨)، **وهي صحيحة**.

في سبعة أيام وأترك المسجد الجامع فارغًا لا يصلي فيه أحد إلا الإمام والمؤذِّن، قال: فقال المفتش: يا شيخ يوسف! أو نعمل شيئًا آخر. قال: فقلت: هات ما عندك، فقال: أنا مبعوث إليكم من قبل الأوقاف لأقدِّم تقريرًا فيما نسب إليكم من المخالفات، فأقترح عليك أن تأمر المؤذن والإمام يوم الجمعة بإعادة تلك الأمور التي كنتم تصنعونها من قبل لأستطيع أن أكتب تقريرًا أكذب فيه ما نسب إليكم، وبعد أن أفارقكم وأعود بالتقرير إلى من أرسلني اصنعوا ما شئتم، قال: فقلت: أنا موافق. فأمرت الإمام والمؤذن أن يفعلا تلك البدعة المخالفة للسنة يوم الجمعة ففعلاها وصلينا الجمعة كما أراد المفتِّش ثم عُدنا إلى ما كنا عليه.

وهنا ينبغي أن أقتبس أبياتًا من (القصيدة التائية) التي نظمتُها بالهند وذكرتُ فيها توبتي من الشِّرك والبدعة ورحلتي في طلب العلم، وأقتصر على ما يخصُّ الدعوة في الريرمون لأني قد أدرجت القصيدة كلها في كتاب «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»[1]. والأبيات التي تخص الريرمون هي:

أَتَيْتُ[2] إِلى مصرَ لأخْبُرَ خُبْرَهَا   وَأَنْظُرَ هَلْ فِيْهَا شِفَاءٌ لِعِلَّتي
وَكُنَّا سَمِعْنَا قَبْلُ[3] أَنْ في رُبُوعِهَا   رجَالًا لِنُصْرِ الدِّينِ أَصْحَابُ شِدَّةِ
وَصَلْتُ فَلَمْ أَلْفِ سِوَى أَهْلِ بِدْعَةٍ   وَشِرْكٍ وَإِلْحَادٍ وَشَكٍّ وَرِدَّةِ
سَمِعْتُ بِهَا الإِلْحَادَ يُعْلَنُ[4] جهْرَةً   بِجَامِعَةٍ لِلْشَّرِّ مَعَ كُلِّ فِتْنَةِ

(١) (ص٩٠ ـ ٩٣)، وستأتي الأبيات بزيادة في (ص٣٨٩)، وهي في «سبيل الرشاد» (١/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩).
(٢) في «الديوان»: «سَفُرْتُ».
(٣) في «الديوان»: «ومَنْ قبل قد أُخبرتُ».
(٤) في «الديوان»: «يُدْرَسُ».

رَأَيْتُ بِهَا الأَوْثَانَ تُعْبَدُ جَهْرَةً[(١)] قُبُورًا عِظَامًا نَاخِرَاتٍ أَجِنَّتِ
وَيَدْعُونَ دُونَ اللهِ مَنْ لَا يُجِيْبُهُمْ وَهُمْ عَنْ دُعَاءِ الْقَوْمِ فِي عُظْمِ غَفْلَةِ
لَهُمْ[(٢)] جَعَلُوا قِسْمًا بِمَالٍ وَلِدَةٍ[(٣)] فَلَا عَاشَ مَنْ قَدْ ظَنَّهُمْ أَهْلَ مِلَّةِ
حَشَا ثُلَّةٍ[(٤)] مُسْتَضْعَفِينَ رَأَيْتُهُم تَسُومُهُمُ الأَعْدَاءُ سُوءَ الأَذِيَّةِ
وَهُمْ صُبَّرٌ مُسْتَمْسِكُونَ بِدِيْنِهِمْ وَيَدْعُونَ مَا اسْطَاعُوا لِبَيْضَا نَقِيَّةِ
وَمَا صَدَّهُمْ إِيذاؤهُم عَنْ جِهَادِهِمْ لأَنَّهُمُ أَهْلُ النُّفُوسِ الأَبِيَّةِ
أَقَمْتُ بِهَا عَامًا إِلَى اللهِ دَاعِيًا فَأَرْشَدَ رَبُّ النَّاسِ قَوْمًا بِدَعْوَتِي
يُعَدُّونَ بالآلافِ في الرَّيْرَمُونِ[(٥)] كُلُّهُـ ـمُ أَهْلُ إِخْلاصٍ وَأَهْلُ فُتُوَّةِ[(٦)]

مِنْ مخارق شيوخ المتصوفة المبتدعين

حكى لي أصحابُنا في الريرمون أنني بعدما سافرت من بلدهم زارهم شيخ طريقة اعتاد من قبل أن يزورهم الفينة بعد الفينة، فاستقبلوه استقبال ضيف عادي ولم يُقبِّلوا يديه ورِجلَيه ولم يخضعوا له الخضوع المعتاد قبل توحيدهم لله، فأنكر ذلك وقال: ما خطبكم أراكم تبدَّلتم؟ قالوا: ماذا تريد

---

(١) في «الديوان»: «ظاهرًا».

(٢) في «الديوان»: «لها».

(٣) في «الديوان»: «والدة» وهي الصواب، ووقعت في «سبيل الرشاد» (١/ ٥٧٨ ـ بتحقيقي): «وإلة»، وهي كذلك في الطبعة المغربية منه (١/ ٣٣٩)، وهي خطأ! والصواب «والدة».

(٤) في «الهدية الهادية»: «حثالة».

(٥) في «الديوان»: «وَعِدَّتُهُم ألفان بالريرمون».

(٦) الأبيات في «ديوان الهلالي» المسمى «منحة الكبير المتعالي» (ص٢٠٩ ـ ٢١١ بتحقيقي)، وهي ضمن قصيدة طويلة سيذكرها المصنف في (ص٣٨٩).

منا؟ نحن مستعدُّون لضيافتك فاقترح ما تشاء، فقال لهم: ما هذه الوجوه هي الوجوه التي أعرفها ولا الاستقبال هو الاستقبال الذي عهدته فيكم، فقال له أحدهم: وماذا تريد منا؛ أتريد أن نعبدك من دون الله؟! لقد تاب الله علينا وهدانا إلى توحيده واتباع رسوله، فنحن لا نريد منك شيئًا، لا نسأل حاجتنا إلا من الله ولا نتَّبع في الدين إلا رسول الله ﷺ.

فقال له الشيخ وهو غضبان تغلي مراجله: يا عكروت (العكروت كلمة شتم في العامية المصرية بمعني اللئيم)(١) أنا قتلتُ نفسًا لأجلك وتقابلني بهذه الوقاحة؟ فقال الرجل: وكيف كان ذلك؟ فقال الشيخ: جاء رجل يسرق من مزرعة البطيخ التي زرعتها على شاطئ فرع النيل فوجَّهتُ له همتي وقتلتُه؛ فضحك الرجل وقال له: يا سيدنا الشيخ قد أخطأتَ في حسابك، إن المزرعة التي تعني جاءها فيضان النيل، فأتى عليها قبل أن تثمر، فغضب الشيخ ورحل ولم يقبل ضيافتهم، وعلم أنَّ رزقَه منهم قد انقطع، فذهب يبحث عن غيرهم كما يبحث الذئب عن الحملان، ومن عرف معنى لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله وعمل بمقتضاها حفظه الله من شياطين الجن والإنس.

---

(١) العكْرُوت: كلمة سبٍّ، وفي الإسكندرية يطلق العكروت والعكروتة على القوّاد والقوّادة، أما في القاهرة فالعكروت لمطلق الذم، والعكروتة للعاهرة والفاجرة. وهناك قرية العكروت، ربما كان العكروت مأخوذًا منها كأنْ كان أهلها مشتهرين بشيء يذمّ.
وفي الأرياف يقولون عكروتة لصنف من المعزى يكون قصير الآذان صغيرها خلقة.
ولما ورد على مصر الحرير الهندي الأصفر المسمى عند العامة بالسُّكْرُوتَة سماه بعضهم: ستّ عكروتة، ومنه: عكرت، داير يعكرت، لعله من عكرد، والعامة تطلقه على البحث والتنقيب.
أفاده العلامة أحمد تيمور باشا في «معجمه في الألفاظ العامية» (٤/ ٤٢٧).

وحدَّثوني عن هذا الشيخ نفسه أنه كان في ضيافتهم في مندرة فنظر فلم ير أحدًا، وأوحى إليه شيطانه أن يأتي بمخرقة ليرهبهم بها ويستدرَّ خدمتَهم وأموالَهم، فنزل من فوق المقعد الخشبي، واندسَّ تحته وقد سدل عليه ستار كما هي العادة في ذلك الزمان في المنادر، فدخل أحدهم فلم يجده، وهم يعلمون يقينًا أنه لم يخرج، فقال: يا جماعة قد فُقِد سيدنا الشيخ! فدخلوا كلهم ولم يشاهدوا شيئًا ثم خرجوا، فلما خلا له الجو خرج من مخبئه وقعد في مكانه، وانطلقوا هم يفتشون عنه في البلد كله، فلم يجدوا له أثرًا ثم رجع أحدهم فوجده في مكانه، فأحاطوا به يتمسَّحون به ويقبِّلون يديه وهم في هلع عظيم وقالوا: يا سيدنا الشيخ (كرى إيه؟) يعنون: ماذا جرى؟ عهدنا بك جالسًا على المقعد ثم دخلنا فلم نجدك وانطلقنا نبحث عنك ثم رجعنا فوجدناك، فقال: زرتُ إخوانكم المجاهدين في طرابلس الغرب (في هذا الزمان تسمى ليبيا) فوجدتهم في معركة عنيفة مع أعداء الإسلام الإيطاليين. فأكبُّوا عليه مرة أخرى يقبِّلون يديه ويتمسَّحون بثياب هذا البطل المجاهد!! وما هي من أفعال المبطلين بالشيء الغريب.

الدعوة إِلى الله في تطوان

في شهر آذار «مارس» من سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى، اتَّفقتُ مع سماحة المفتي السيد أمين الحسيني[1] على التوجُّه من برلين إلى شمال المغرب، وحمَّلني رسالة شفويَّةً إلى الأستاذ المجاهد رئيس حزب الإصلاح الوطني الزعيم عبد الخالق الطُّرَيْس[2]

(١) للهلالي وقائع عديدة معه، وذكره غير مرة في كتابه هذا (انظر فهرس الأعلام) وفي «ديوانه» (١٠٥، ١٠٦، ١٧١، ١٧٣، ٥٦٤، ٥٨٨، ٦٢٦، ٦٢٧).
قال فيه (ص١٠٥): «اشتغلت معه سنين في محاربة الاستعمار أولها في برلين، وسائرها في تطوان».
وقال فيه (١٧١ ـ ١٧٢): «إني لما زرتُ تطوان في مارس سنة ١٩٤٢ مع السيد محمد أمين الحسيني للاتفاق مع الوطنيين وزعيمهم الأستاذ عبد الخالق الطُّريْس على التعاون وتوحيد الخُطّة في محاربة الاستعمار، والسَّعي في تحسين أحوال المسلمين والعرب»، ومدحه فيه (ص٥٦٤)، وله قصيدة في نجاته من أعدائه الإنكليز (ص٦٢٧).

(٢) للهلالي ذكر منتشر عنه في كتابه هذا (انظر فهرس الأعلام) وفي «ديوانه» (١٠٦، ١٧١، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٩٥، ٢٠٤، ٤٠٣، ٥٣٧).
وللطُّريس ذكر في مقالته (وضوح حال الجهاد المغربي) المنشورة في مجلة «الفتح» المصرية، عدد (٣٩٣) بتأريخ ١٩ محرم ١٣٥٣هـ (ص٣).
ودرّس الهلالي النحو في (المعهد الحر) الذي أسسه حزب الاصلاح الوطني بزعامة عبد الخالق الطُّرَيْس، لإخراج شباب يربون تربية استقلالية، بعيدًا عن الدسائس الاستعمارية، وألقى الهلالي قصيدة في رثاء شكيب أرسلان في حفلٍ أقامه الطريس في بيته، انظر صورًا له في (النماذج) المرفقة آخر الكتاب (رقم ٨).

رحمة الله عليه تتعلق بإصلاح حال المسلمين في شمال المغرب. وكان في ذلك الزمان القسم الشمالي من المغرب يسمى المغرب الإسباني لأن المغرب كان مجزأ إلى ثلاثة أجزاء: المغرب الفرنسي، وهم القسم الأكبر من المغرب عدد سكانه زهاء أحد عشر مليونًا، والمغرب الإسباني وعدد سكانه زهاء مليون واحد، وطنجة ونواحيها وهي دولية، وكان الجرمانيون في أوج عزِّهم.

فلما وصلت إلى تطوان فزع الإسبانيون المستعمرون من قدومي وساء ظنهم، لأنهم وإن كانوا مع الألمانيين في السياسة ظاهرًا إلا أنهم لا يأمنون جانبهم، فظنوا أنني جئت مبعوثًا من الألمانيين لأتصل بزعماء المغاربة، وأسعى في إخراج الإسبانيين ليحل الجرمانيون محلهم ـ وهو ظن كاذب ـ، فمنعوني من الرجوع إلى البلاد الجرمانية، بتواطؤ مع القنصلية الإنكليزية في تطوان، فاضطررت إلى البقاء في تطوان ونواحيها زهاء ست سنين، وجرت علي حوادث، ذكرها هنا كلها يخرجني عن الموضوع[1]، وإنما أذكر منها ما يتعلق بالدعوة إلى الله تعالى، وكنت في ذلك الوقت عديم الجنسية لأن الإنكليز تواطؤوا مع السفارة العراقية في روما أن لا تجدِّد جواز سفري، فقدمت إلى تطوان بجواز ملفَّق بعثه إليَّ الأستاذ عبد الخالق الطُّريس، فسهل على الإسبانيين المستعمرين المستعبدين أن ينتزعوا مني ذلك الجواز، وأن يجعلوني تحت المراقبة[2]، ثم استطعت أن أقنعهم بكذب ظنهم بعدما

---

(١) تجدها في «ديوانه» (١٧٣ ـ ١٧٧).

(٢) فصل الهلالي في «ديوانه» (١٧٢ ـ ١٧٣) ما أجمله هنا، ولذا أردتُ إتحاف القراء به، ليكون على دراية تامة مما جرى، فكتب ما نصه:
«ولم يكن عندي جواز سفر حقيقي؛ لأن الإنكليز أمروا السفارة العراقية في روما أَنْ تلغيَ جواز سفري؛ فألغَتْه، وكان ذلك في سنة ١٩٤١، وكان الذي =

= ينوب عن العراق بعد قطع العلاقات مع ألمانيا السفارة الأفغانية، إلَّا أنها لا تستطيع أَنْ تجدد جواز السفر، بل كانت تَجْمَع أَجْوِزَة السفر وتبعثها إلى السفارة العراقية في روما؛ فتجدد ما شاءت وترفض ما شاءت.

ولمَّا بعثتُ جواز سفري بواسطة السفارة الأفغانية رُدَّ إليَّ غير مجدد، ومعه ورقة مكتوب فيها: هذا الجواز لا يعترف به!

وسلَّم لي ذلك السفير الأفغاني مكتوبًا باللغة الألمانية، وكنتُ في ذلك الوقت ملزمًا بالحضور إلى مكتب الشرطة القريب من مسكني كلَّ أسبوع، وذلك حكمُ جميع العراقيين، ومَن يخالف يعاقب بالسجن أربعة أيام.

فأخذتُ تلك الورقة التي أعطاني السفير الأفغاني مع الجواز، وذهبتُ بها إلى مكتب الشرطة؛ فلمَّا قرأها رئيس المكتب قال لي: هذه شهادة تدلُّ على أنَّ الجنسية العراقية قد انتزعت منك؛ فقد أعفيناك من الحضور إلى هذا المكتب، ولكن ينبغي لك أَنْ تقدم طلبًا للحصول على جواز الغرباء.

وأظن أن القارئ لا يعرف معنى (جواز الغرباء)، ولذلك أوضح معناه؛ فأقول: إن الحكومة الألمانية على عهد (هِتْلِر) كانت لا تقبل أَنْ يتجنس بالجنسية الألمانية إلَّا الشعوب الآرية الأصلية.

أما العرب والهنود والأفارقة وأمثالهم؛ فلا يستحقون التجنس بالجنسية الألمانية بناء على رأي (روزنبرك) الذي آمن به (هِتْلِر)، وهو تفضيل الشعوب الآرية على جميع أجناس بني آدم، فلذلك أحدثت الحكومة الألمانية جوازًا سمته: (جواز الغرباء)، يحمله كلُّ مَن يقيم في ألمانيا ممن ليسوا بآريين، ولا يستثنى من ذلك أحدٌ.

وإن كان من أعز أصدقاء حكومة (هِتْلِر) المتعاونيين معها؛ كالسيد أمين الحسيني، والسيد رشيد عالي الكيلاني؛ فإنهما كانا يسافران بجواز الغرباء، وهذه إحدى ضلالات فيلسوف الناتيين (روزنبرك) التي أضل بها قومه وما هَدَى!

ولمَّا رأيتُ نفسي بلا جواز؛ كرهتُ أن أحمل جواز الغرباء؛ فكتبتُ إلى الأستاذ عبد الخالق الطُّرَّيْس، وأنا لا أعرفه إلَّا بالسماع؛ فكان من شهامته أَنْ بعث إليَّ جوازًا على أَنِّي مِن سُكَّان تطوان؛ فأخذتُه إلى القنصلية الإسبانية في برلين لتعترف به حتى يمكن استعماله. . .».

اقترحوا عليَّ كتابة مقال أصرح فيه بأن الجرمانيين لا حق لهم في استعمار المغرب، فكتبتُ مقالًا[1] قلت فيه: إن المغرب للمغاربة لا حق للفرنسيين ولا للإسبانيين ولا للجرمانيين في الاستيلاء عليه، فرضوا بذلك، ولكنهم شرطوا علي أن لا أكتب مقالًا ولا ألقي دروسًا ولا خطبة[2] إلا بعد اطلاعهم واستئذانهم، وهدَّدوني بأن يسلموني للفرنسيين الذين نفوني قبل من القسم الذي تحت أيديهم، ولو ظفروا بي لانتقموا مني أشد انتقام، وبقيت هنالك عاطلًا عن العمل.

فبعد مدة جاءني جماعةٌ من محبي العلم والإصلاح والتمسوا مني أن ألقي دروس وعظ في المسجد الجامع ويسمى باللغة المغربية: الجامع الكبير، فقلت لهم: إن الإسبانيين شرطوا علي أن لا ألقي درسًا بدون إذنهم، ثم جاءني جماعة من طلبة المعهد الإسلامي فالتمسوا مني مثل ذلك فأجبتهم بالجواب نفسه، فقالوا لي كلهم: إنهم لم يمنعوك منعًا باتًّا وإنما علقوا ذلك على إذنهم، فاستأذنهم.

وكان الحاكم المدني قد عين أحد الضباط اسمه بردا[3] واسطة بيني وبينهم، فأخبرت بردا بطلب الجماعتين، فبلغ الأمر إلى سيده فقال له: لا مانع عندنا من ذلك، ولكن مدير المعارف[4] (وهو إسباني طبعًا)

---

(١) بعنوان (كيف وجدت المغرب). ونشر في صحيفة «الحرية» العدد (٧٧١) السنة السادسة، يوم السبت، ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٦١هـ ـ ٦ يونيه ١٩٤٢م (ص١)، وهو من ضمن كتابي «مقالات الهلالي» يسر الله نشره بخير وعافية.

(٢) وشرطوا عليه أيضًا حين أعطوه تعريفًا شخصيًّا: أن لا يزور البادية، ولا المدن الصغيرة. انظر «الديوان» (١٨٠ ـ بتحقيقي).

(٣) الصواب: «بلدا». (خ)
قلت: بِلْدَا هذا كان رئيس الاستعلامات (المخابرات) الإسبانية بالمنطقة الخليفية في عهد الحماية. (ع)

(٤) هو فِيكيرَاس. (خ)

=

متعصب جدًّا ومعتد بنفسه، فإذا رأى الدكتور الهلالي يلقي دروسًا بدون استئذانه يخاف أن يكيد له كيدًا، فيستحسن أن يطلعه على ذلك لينجو من شره، فشاورت الأستاذ عبد الخالق الطُّرَيْس رَحِمَهُ اللَّهُ وكان قد عينني أستاذًا في المعهد الحر؛ وهو مؤسسة وطنية خارجة عن نفوذ المستعمرين نوعًا ما، فقال لي: اكتف بإلقاء الدروس في المعهد ودَعْ عنك هؤلاء الأرذال، فصرفت النظر عن ذلك.

ثم عادت الجماعتان إلى الالتماس وقلت: عسى أن يكون في إجابة طلبهم خيرًا، فقلت لبردا: أخبر مدير المعارف بأني أريد زيارته فأخبره، فرحب بذلك واجتمعت به بحضور مدير المعارف[1] المغربي[2]،

= قلت: توماس غارثيا فيغيراس (Tomàs Garcia Figueras) ١٩ يونيو ١٨٩٢ ـ ١٢ فبراير ١٩٨١، مندوب التربية والثقافة في الحماية الإسبانية، كان عسكريًّا، وبدوره كاتب ومؤرخ وباحث شؤون أفريقيا الإسبانية في هذا المجال. ركزت حياته العسكرية في أفريقيا وخاصة في المحمية الإسبانية من المغرب، حيث أمضى ٣٠ عامًا من حياته في دور آخر له كمؤرخ وقارئ، وله كتبًا جمعت فيها موادًّا كثيرة تشكل مجموعة واسعة وممتازة في ما هو قيم ومفيد للأفارقة والعالم العربي في الدراسات الأندلسية والدراسات العامة. (ع)

(١) لعله داود. (خ)
قلت: هو الأستاذ محمد بن الحاج أحمد داود، مؤرخ مغربي، ولد بتطوان في ١١ ذي الحجة ١٣١٨هـ الموافق لفاتح أبريل ١٩٠١م، ودرس بها وبجامع القرويين بفاس، وعاد إلى تطوان وأسس المدرسة الأهلية عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، ثم أنشأ المطبعة المهدية التي طبعت جل الصحف بالمغرب. من أبرز مؤلفاته: «تاريخ تطوان» في ١٢ مجلدًا، و«النقود المغربية» و«عائلات تطوان» ومذكراته المسماة: «على رأس الأربعين»، توفي في ٤ رمضان ١٤٠٤هـ الموافق ٤ يونيه ١٩٨٤م. (ع)
ونشر د. عمر رياض «مراسلات الأمير شكيب أرسلان مع مؤرخ تطوان محمد داود» وفيها (ص٢٢٢) ذكر للهلالي.

(٢) عين مديرًا للمعارف بالمنطقة الخليفية سنة ١٩٤٢م إلى أن استقال سنة ١٩٤٨م. (ع)

وكان حضوره صوريًّا لا حول له ولا قوة، ومع ذلك حاول أن يستغل وجوده فأراد أن يشترط عليَّ شرطًا يتنافى مع الغرض المطلوب، فقال لي: إن الإسبانيين يشترطون عليك أن تكون دروس وعظك خالية من السياسة وخالية من الآراء الشاذة، يريد بذلك: إنكار الشِّرك والبدع، فقلت له: أنا لا أقبل هذا الشرط، وسأتكلم مع المدير الإسباني فإنْ أصرَّ عليه عدلت عن إلقاء الدروس، فتكلم المدير الإسباني، وقال لي: لقد فرحت بزيارتك لأني أحب العلماء وخصوصًا أمثالك الذين يجمعون بين الثقافتين الأوروبية والإسلامية وهم قليل؛ بل ما رأينا منهم أحدًا قبلك، ولكني أكره للعلماء أن يشتغلوا بالسياسة لأنها تفسد عليهم علمهم، وفي رأيي أن على العالم أن ينقطع لخدمة العلم ويترك السياسة، فقلت له: يمكنك أنت أن تفعل ذلك أن تنقطع إلى العلم وتترك السياسة، لأن لك دولة قائمة تغنيك عن ذلك، أما أنا فلا يمكنني ترك السياسة لأمرين:

أولهما: أن القرآن والحديث كلاهما مشحونان بالسياسة، فلا يمكن أن أفسر القرآن وأشرح السنة إلا بالخوض في السياسة.

وثانيهما: أن المغرب في هذا الزمان كالجسم المريض، ونحن أبناؤه يجب علينا السعي في استرداد ما فُقِد من الصِّحَّة والمحافظة على ما لم يفقده منها.

فقال: أنا أوافقك على أن المغرب مريض، ولكن ينبغي لنا أن نعطيه الدواء إذا أردنا شفاءه بقدر محدود، فقلت له مغالطًا: إذًا نحن متفقون على السعي في علاجه وشفائه، وفهمت منه الموافقة على إلقاء الدروس.

وبدأت بإلقاء ثلاثة دروس في المسجد الجامع كل أسبوع، فأقبل الناس علماؤهم وعامتهم على هذه الدروس إقبالًا عظيمًا، مع أن علماءهم

إلا واحدًا وهو الأستاذ محمد الطَّنجي[1] كانوا معادين ومحاربين للتوحيد

---

(١) هو الأستاذ المصلح، العلامة الفقيه، الأديب السلفي؛ سيدي محمد بنْ مَحمد ـ فتحًا ـ ابن أحمد الطنجي الأصل، التطواني المولد والمنشأ والدار، كانت ولادته بتطوان عام ١٣٢٠هـ، وتعلم الكتابة والقراءة على الفقيه السيد محمد بن عمرو ابن تاويت بمكتبه بحي الطرانكات بالعاصمة الشمالية وعليه حفظ كتاب الله العزيز.

بعد إشباع نهمه من الدراسة القرآنية شرع في تلقي الدراسة العلمية بالجامع الكبير بتطوان حوالي عام ١٣٣٤هـ، وقرأ على الفقيه العلامة محمد بن التهامي أفيلال الحسني دروسًا من «المختصر الخليلي» بالزرقاني والرهوني وبناني، والفقيه عبد الرحمٰن «أقشار الألفية» بالمكودي، والفقيه العلامة أحمد بن محمد الغماري «التحفة» بالشيخ التاودي السودي، والفقيه العلامة محمد الفركاخ «الألفية» لابن مالك، والفقيه العلامة المؤلف المؤرخ أحمد الرهوني «الألفية» لابن مالك الجياني الأندلسي، والفقيه العلامة أحمد الزواقي «الشمائل المحمدية» للشيخ الترمذي، وصنوه الفقيه العلامة محمد الزواقي.

ثم ارتحل إلى فاس عام ١٣٤٤هـ، وسكن بمدرسة الصهريج بجوار جامع الأندلس العتيق، ثم بمدرسة الصفارين، وصار يعب ويكرع من حياض المعارف بجامع القرويين، وقد قرأ هناك على جماعة ـ أيضًا ـ.

ثم قفل راجعًا إلى تطوان عام ١٣٤٨هـ، ثم سافر سفرة علمية إلى القاهرة عاصمة الكنانة عام ١٣٤٩هـ، وانخرط في عقد طلاب كلية أصول الدين التابعة للجامع الأزهر الشريف، وقرأ على الشيخ محمد الخضر حسين «صحيح البخاري» و«تفسير الجلالين»، والشيخ أحمد مكي «التفسير»، والشيخ المرصفي دروسًا من كتاب «الكامل في اللغة والأدب» للإمام المبرد، وذلك بمنزله.

واستمر يقطف ثمار المعارف بهاته الكلية نحو ثلاثة أعوام، نال في ختام السنة الأولى من الجامع الأزهر الشريف شهادة الأهلية الخاصة بالغرباء، وهي محررة بأول رجب عام ١٣٥٠هـ، ثم آب إلى مسقط رأسه عام ١٣٥١هـ بعد أن حصل من طرف شيوخه على إجازة علمية خطية مهمورة بتوقيعاتهم، واشتغل بدروس الوعظ والإرشاد بالجامع الكبير.

عُيِّنَ المُترجَم الوقور كاتبًا بمديرية الأوقاف بتطوان في ٢٢ رجب عام =

= **١٣٥٣**هـ، ثم قدم استعفاءه من هاته الوظيفة، ثم كاتبًا أول بوزارة العمل الاجتماعي بعاصمة المنطقة الخليفية التي كان على رأسها الزعيم السياسي المناضل المرحوم السيد عبد الخالق الطريس، ثم استعفى من هذا المنصب بعد انسحاب الزعيم من الوزارة، وكان خطيبًا بزاويةِ سيدي عبد الله الحاج بساحة الفدان بتطوان، وأَسَّسَ بمشاركة نخبة من الرفقاء ـ وعلى رأسهم الزعيم الوطني السيد عبد الخالق الطريس ـ المعهدَ الحر الثانوي بها، وذلك عام **١٣٥٤**هـ، وعمل أستاذًا برحابه الفيحاء إلى عام **١٣٦٧**هـ، وكان يزاول مهنة العدالة من الدرجة الأولى، وعُيِّن عضوًا عاملًا في مجلس الأحباس بالمنطقة الخليفية في **٥** محرم **١٣٥٨**هـ، وكان أستاذًا بالمعهد الديني بالجامع الكبير، ومديرًا له بالأقسام الابتدائية والثانوية، وبعد بزوغ شمس الحرية والانعتاق من أغلال الاستعباد والرِّقية عُيِّن رئيسًا لقسم الوعظ والإرشاد بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط، وعمل رئيسًا لمجلة «دعوة الحق» التي تصدرها الوزارة ابتداءً من العدد الثالث للسنة الثانية إلى نهاية السنة، ثم ألغت الوزارة اسم رئيس التحرير من المجلة، وبقي في وظيفه هذا إلى أن أُحيل على التقاعد، ورجع إلى الاستيطان بتطوان، وانتخب نائبًا للأمين العام لرابطة علماء المغرب.

وكان من الدعاة الأولين للقضية الوطنية المغربية، وممن عمل على مقارعة الاستعمار، وحكمت عليه الإدارة الإسبانية بغرامة مالية، ولتسديد مبلغها احتجزَتْ أثاثَ بيته ومكتبته حتى الفراش الذي ينام عليه، وباعت عليه ذلك، ومنعته من خطبة الجمعة والتدريس في المدارس والمساجد، ومن المحاضرات والكتابة في الصحف، وكان وكيلًا لحزب الإصلاح الوطني بالشمال الذي اندمج وتوحَّد مع حزب الاستقلال بالجنوب بعد إعلان الاستقلال، وشارك في أعمال المؤتمر الإسلامي ببغداد، والمؤتمر الإسلامي بنواكشوط عاصمة موريطانيا، وقررت الجمعية الخيرية الإسلامية التطوانية منحه لقب (محسن) لسعيه في نجاح مشروع مقره الجديد قرب باب السعيدة.

خطَّ قلمُهُ الكتبَ الآتية: «وعظ الجمعة» في جزء واحد طبع بتطوان، ثم أعيد نشره بها كذلك، «خطب الجمعة لعهد الاستقلال» وقد صدر بها أيضًا، «ما =

وأتباع السنة أشد المحاربة، وهددوا بأن يعينوا لجنتين إحداهما تناظرني في الأصول والأخرى تناظرني في الفروع، فلم أعبأ بهم وأخذت أحطِّم أصنامهم في دروسي. ولما بدأت دروسي في الجامع الكبير لم يكن أحد يضع اليمنى على اليسرى في الصلاة، ووضع اليمنى على اليسرى في الصلاة وقراءة بسم الله الرحمٰن الرحيم في أول الفاتحة أعظم شعار للمتبعين للسنة[1]، فبدأ العوام يعملون بهذه السنة وغيرها. وكان الناس يتعجبون من العاملين بها، ولكن باستمرار الدروس بضع سنين كثر المتبعون للسنة في هذا المسجد، حتى صار الناس إذا رأوا رجلًا سادلًا يديه في الصلاة لا يرفع عند الركوع ولا عند الرفع منه ولا يجهر بالتأمين يتعجبون منه.

= يتعلق بالأسرة في شريعة الإسلام» «نظام الزكاة في الإسلام» وهما مخطوطان، «ديوان شعري»، بحوث ومقالات نشرت في عدَّة صحف ومجلات، مجلة «الإرشاد الديني»، صحيفة «الحياة». ترجمته في «من أعلام المغرب الأقصى» (٢٠١ ـ ٢٠٤).

(١) يعرِّض بمذهب المالكية، وهو بينهم، ومذهبهم أن البسملة ليست من الفاتحة، انظر «المدونة» (١/ ٦٨)، «عقد الجواهر الثمينة» (١/ ١٣٣) «الذخيرة» (٢/ ١٧٧)، «الكافي» (٤٠)، «المعونة» (١/ ٢١٧)، «الاستذكار» (٢/ ١٧٥)، «الإشراف» (١/ ٢٥٥ ـ بتحقيقي)، «قوانين الأحكام الشرعية» (٧٥)، «جامع الأمهات» (٩٤)، «انتصار الفقير السالك» (٢٧٥).
وورد بعض الأحاديث فيها التصريح بأنّ البسملة آية من الفاتحة، انظرها في «سنن الدارقطني» (١/ ٣١٢) «تنقيح التحقيق» (٢/ ٨٠٤ ـ ٨٠٦)، «مختصر البسملة» (مطبوع مع «ست رسائل» للذهبي).
وقد أفاض الرازي في نصرة هذا القول، ورد عليه الألوسي، فراجع كلامهما في أوائل (تفسير الفاتحة) من «تفسيريهما»: «مفاتيح الغيب» و«روح المعاني»، فإنهما ـ رحمهما الله تعالى ـ كادا أن يستوعبا الأدلة النقلية والعقلية الواردة فيها.

الحوادث التي وقعت أثناء إِقامتي في شمال المغرب

الأولى: كان في طَنْجة الشيخ أحمد بن الصِّدِّيق[1] شيخ الطريقة الشَّاذلية المسماة هناك بالدرقاوية، سمعتُ أن أباه محمد بن الصِّدِّيق[2] ورد طنجة منذ زمان غير بعيد من قبيلة غمارة فقيرًا لا يملك شيئًا، ودعا الناس إلى الدخول في طريقته، فاستجاب له بعضهم ونمت دعوته إلى أن أسس زاوية.

والزاوية[3] في الحقيقة كالضرة للمسجد، فهي بناء قصد به إقامة الصلوات الخمس مع الأذان في كل وقت وقراءة القرآن وإلقاء دروس الوعظ، فهي إلى هذا الحد تشبه المسجد وتكاد تكون إياه، ولكن قد

---

(١) هو عالم متفنِّن، له انشغال قوي بالحديث، بل أصبحت له مدرسة ومعجبون ومتابعون لكتبه وآرائه، وأُلِّف حوله وفي آرائه عدة كتب، فلتلميذه عبد الله التليدي «الأنيس الرفيق بمآثر سيدي أحمد بن الصِّدِّيق»، ولحسن بن علي «فقه الحافظ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري».

وعليه ردود كثيرة ومهمة، ومن أهمها: «تحفة القاري في الرد على الغماري» لشيخنا حماد الأنصاري، و«إيضاح المحجة على صاحب طنجة» لمحمود التويجري، و«كشف المتواري من تلبيسات الغماري» لأخينا فضيلة الشيخ علي بن حسن عبد الحميد، وكلها مطبوعة.

(٢) ألف المختار محمد التمسماني كتابًا بعنوان «صدِّيقون ريحانة طنجة سيدي محمد بن الصِّدِّيق وأنجاله الأشقاء الخمسة الغماريون: أحمد، عبد الله، محمد الزمزمي، عبد الحي، وعبد العزيز رحمهم الله تعالى»، وفيه ترجمة جيدة له، وللأزرق الفاسي «حادي الرفيق بمناقب محمد بن الصديق»، وللعربي الطنجي «نسمات وادي العقيق بمناقب محمد الصديق».

(٣) من أحسن من كتب عنها محمد الزمزمي (صديق الهلالي) كتابه «الزاوية وما فيها من البدع والأعمال المنكرة» طبع في طنجة سنة ١٤١٩هـ، وله أيضًا «تنبيه المسلمين لبدع المتصوفة الجاهلين» و«النصيحة المرضية للطائفة الصوفية».

قصد بها بالدرجة الأولى اجتماع طائفة مخصوصة لها اسم يعينها كالدرقاوية والتجانية والقادرية والزروقية والناصرية والكتانية والكرزازية والوزانية وهلمَّ جرًّا[(١)]، يجتمعون فيها لما يسمُّونه بالذِّكْر، وهذا الذِّكْر يكون جماعة بلسان واحد كترانيم النصارى في كنائسهم، وبالنسبة للدرقاوية التي نحن بصدد الكلام فيها يكون معه غناء ورقص وآلات اللهو كالطبل والدف والمزمار وسائر الآلات، ويجتمع فيها رجال ونساء على ذلك وبذلك تخالف المسجد.

وبعدما استقر الشيخ محمد بن الصِّدِّيق في طنجة وانتشرت طريقته بعض الانتشار نشأ أولاده وشبوا، فأخذوا يقصدون مصر لطلب العلم، وكبيرهم في السن والعلم هو الشيخ أحمد المذكور آنفًا أقام بمصر سنين جادًّا مجتهدًا حتى حصل على نصيب وافر من علوم اللغة والعلوم الشرعية، وفتح له في التأليف، فألَّف كتبًا كثيرة ورجع إلى طنجة، وكان أبوه وأصحاب طريقته إلى حين رجوعه مقلِّدين كغيرهم لا يعملون بالحديث ولو كان مثل الشمس، فدعاهم أحمد إلى ترك التقليد والعمل بالحديث في الفروع التي لا تمس الطريقة وعقائدها بشيء من التغيير، فاستجاب له والده وأتباعه كلهم، وبذلك ضرب سورًا على أتباعه يحرسهم من فتنة الفقهاء المقلّدين، فلا يمكن أن يسألوهم عن شيء ولا أن يأخذوا منهم شيئًا من العلم، أما عبادة القبور والرقص واعتقاد وحدة الوجود وتقديس زنادقة الصوفية كابن عربي الحاتمي، وتعاطي الأوراد المبتدعة والاستمداد من الشيوخ والاستغاثة بهم؛ فقد ترك كل ذلك على حاله ولم يغيِّر منه شيئًا.

---

(١) انظر «الطرق الصوفية، نشأتها، وعقائدها، وآثارها» لعبد الله السهلي (مهم)، و«تاريخ الطرق الصوفية» ليونس الشيخ إبراهيم السامرائي، طبع في بغداد سنة ١٤٠٨هـ.

ولما استقررت أنا في تطوان وهي شرقي طنجة على مسافة أربعين ميلًا، وعرفت ذلك كلَّه، ظهر لي أن دعوةَ الشيخ المذكور توافق دعوتي في جانب وتخالفها في جوانب، فعزمتُ على أن أدعو إلى توحيد الله واتباع السنة دون أن أتعرض للشيخ أحمد بطعنٍ ولا بتزكيةٍ من الوجهة الشَّخصية، فأنا أدعو إلى توحيد الله وأعلم الناس معنى لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، أي: جميع مدلولات الكلمتين، وأبيِّن لهم أنَّ من عبد غير الله بشيء من أنواع العبادات المذكورة أعلاه بعد أن يعرف أن هذا شرك، ويصر على عمله فهو مشرك، ومن اعتقد وحدة الوجود فهو كافر، ومن استمد أو استغاث بغير الله فهو كافر، ومن ترك الكتاب والسنة وقلَّد الرجال قلادة سوء فهو ضال، وقد يفضي به إصراره على ذلك إلى الشرك كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] قال الإمام أحمد لصاحبه الفضل بن زياد رحمهما الله: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله (يعني النبي ﷺ) أن يقع في قلبه زيغ فيهلك[(١)].

وهذا تفسير للآية في غاية التحقيق من وجهة الدلالة ومن وجهة العلم والمعرفة الذوقية، لا يرتاب فيه إلا جاهل غمر.

وانتظرت من الشيخ أحمد بن الصِّدِّيق أن يسلك معي هذا المسلك نفسه، فلا يدعو إلى تلك الضلالات ويذم أهل التوحيد، بل يتمسك بعقيدة السلف الصالح، وذلك لازم لدعوته على سبيل العموم دون أن يسميني، ولكنه سلك طريقًا آخر، فغرَّه استيطانُه في طنجة وما

---

(١) ذكره المصنف في «سبيل الرشاد» (٣/ ٢٩٤)، قال: «هذا الكلام من أحمد رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب».
وأخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١/ ٢٦٠) رقم (٩٧).

له من أتباع، وعلم أني غريب في تلك الناحية يحاربني الاستعمار ـ ولا يخفى ما كان له في ذلك الزمان من سلطانه ـ ويحاربني جميع الناس تقريبًا: فبعضهم يحاربني لأنه طُرُقي؛ لأني أطعن في الطرائق كلها إلا طريقة النبي ﷺ والصحابة والتابعين وهي الحنيفية، وبعضهم يحاربني لأنه مقلد جامد يقلد خليل بن إسحاق مؤلف «المختصر» الفقهي وشروحه، لا يخجل أن يقول: نحن خليليون[1]؛ إن دخل خليل النار دخلناها معه، وإن دخل الجنة دخلناها معه!! هكذا يقول غلاة السفهاء الذين يسمون بالفقهاء.

حدثني الشيخ الورع الصالح محمد بن أبي طالب الحسني الهاشمي أن الفقهاء اجتمعوا في مدينة فاس في الضريح الإدريسي الذي يكاد يكون كعبة عندهم، وكان الشيخ الإمام المحدث الداعي إلى الله على بصيرة شيخ شيوخنا عبد الله السنوسي نزيل طنجة ـ رحمة الله عليه ـ يطعن في أولئك الجامدين ويضللهم، فجاءه أحدهم بعد انفضاض الاجتماع في الضريح المذكور فقال له: يا سيدي! لم لم تشرُفنا بحضورك. فقال: أنت تعلم لماذا، فإنكم اجتمعتم للصلاة عند القبر وأنتم أسارى التقليد الأعمى. فقال له المقلد: نحن خليليون، إن دخل خليل النار دخلناها معه وإن دخل الجنة دخلناها معه؛ فقال الشيخ على البديهة: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧][2].

فبدأ الشيخ أحمد يطعن في علمي عندما أخذتُ أدعو الناس إلى اتِّباع الكتاب والسنة يقول: هذا طفيلي جاء من أوروبا يتزيا بالزي

---

(١) انظر «رسائل الهلالي» (٢/ ٦٧٦).

(٢) ذكر الهلالي نحوه في (رسالته الثالثة) لأخيه أبي عبد المؤمن محمد بن عبد الصمد الخمليشي، انظر كتابنا «رسائل الهلالي» (١/ ٢٠١).

الأوروبي، وهو زي الكفار، فمن أين جاءه علم الكتاب والسنة، وأين درسه: أفي برلين أم في بون؟

ثم بدا للإسبانيين المستعمرين أن يؤسسوا صحيفة عربية[١] يومية جامعة، فطلب مني الحاكم الإسباني بواسطة بردا[٢] أن أنشر فيها مقالات في الدين والعلم والأدب دون أن أتعرض للسياسة. وكأنَّ هذا امتحانًا ثانيًا أرادوا أن يمتحنوني به، فقبلت، وكتبت مقالات على شريطتهم، منها مقال[٣] في حل حديث مشكل ذكره الإمام ابن القيم في كتابه «الطرق الحكمية» وذكر من خرجه مع أسانيدهم وقال: إنه على شرط مسلم، إلا أن بعضهم علله باضطراب متنه، ثم أجاب ابن القيم عن ذلك، وأثبت صحة الحديث، وسأسوق الحديث هنا ليطلع عليه القراء بلفظ النسائي.

قال ابن القيم[٤] (ص٦٢) ما نصه: قال النَّسائي: حدثنا محمد بن يحيى بن كثير الحرَّاني، حدثنا[٥] عمرو[٦] بن حماد بن طلحة، حدثنا أسباط بن نصر عن سِمَاك عن علقمة بن وائل عن أبيه: أنَّ امرأةً وقع عليها رجلٌ في سواد الصُّبح ـ وهي تعْمَدُ إلى المسجد ـ بمكْروهٍ على

(١) اسمها «الأخبار». (خ)

(٢) الصواب: (بلدا). (خ)

(٣) عنوانه «محاولة حلّ إشكال وقع في حديث نبوي»، وهي حلقات عشرة، أولها: بتأريخ ١٥ رمضان ١٣٦٢هـ يوافق ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٣ م، في العدد (١٤٢) من السنة الأولى، والأخيرة في العدد (١٩٦) من السنة نفسها. بتأريخ ٢٧ ذي القعدة ١٣٦٢ يوافق ١١/٢٣ سنة ١٩٤٣، وهي جميعًا ضمن كتابنا «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره بخير وعافية.

(٤) في «الطرق الحكمية» (١/ ١٤٢ ـ ١٤٣ ط عالم الفوائد).

(٥) في طبعات «الدعوة إلى الله»: «وحدثنا» والصواب حذف الواو.

(٦) في طبعات «الدعوة إلى الله»: «عمر» بضم العين، والصواب فتحها.

نفسها، فاسْتغاثتْ برجلٍ مرَّ عليها وفرَّ صاحبُها، ثم مرَّ عليها ذَوو عَدَد فاستغاثت بهم فأدركوا الرَّجَل الذي كانت استغاثْت به فأخذوه وسَبَقَهم الآخرُ، فجاءوا به يقودُونَه إليها فقال: أنا الذي أغثْتُكِ وقد ذهب الآخرُ، فأَتَوْا به رسول الله ﷺ فأخْبَرَتْهُ أنَّه وقع عليها، وأخبر القوم: أنَّهم أدركوه يشتدُّ، فقال: إنَّما كنتُ أغيثها على صاحبها، فأدْرَكنِي هؤلاء فأخذوني، فقالت: كذب! هو الذي وقع عليَّ، فقال رسول الله ﷺ: «**انطلقوا به فارجموه**» فقام رجل[1]، فقال: لا تَرْجُمُوه وارْجُمُوني فأنا الذي فعلتُ بها الفِعْل، واعترف. فاجتمعَ ثلاثةٌ عند رسول الله ﷺ: الذي وقع عليها والذي أغاثها والمرأة، فقال: «**أما أنتِ فَقَد غُفرَ لكِ**»، وقال للذي أغاثها قولًا حسنًا، فقال عمر رضي الله عنه: ارْجُم الذي اعترف بالزِّنا. فأبى رسول الله ﷺ وقال: «**لا إنّه قد تاب**»[2].

(١) بعدها في «الطرق الحكمية»: «من الناس».

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٧٢٧٠) وأبو داود (٤٣٧٩) والترمذي (١٤٥٤) وابن ماجه (٢٥٩٨) وابن أبي شيبة (٢٩٠١١) وأحمد (٤/ ٣١٨) و(٦/ ٣٩٩) وابن الجارود في «المنتقى» (٨٢٣) والبزار (٤٤٧٩) والطبراني في «الكبير» (٢٢/رقم ١٨، ١٩، ٢٢، ٦٤) والدارقطني (٣١٣٠) والبيهقي (٨/ ٢١٥، ٢٣٥، ٢٨٤) واضطرب فيه سماك. فقال في رواية الترمذي: «فدرأ عنها رسول الله ﷺ الحدَّ، وأقامه على الذي أصابها».
وفي لفظ له: «وقال للذي وقع عليها: ارجُموه».
قال ابن القيم في «الطرق الحكمية» (١/ ١٤٧):
«قلت: هذا الحديث إسناده على شرط مسلم. ولعله تركه لهذا الاضطراب الذي وقع في متنه، والحديث يدور على سماك، وقد اختلفت الرواية: هل رجم المعترف؟ فقال أسباط بن نصر عن سماك: «فأبى أن يرجمه»، ورواية أحمد وأبي داود ظاهرة في ذلك. ورواية الترمذي عن محمد بن يحيى صريحة في أنه رجمه، وهذا الاضطراب، إما من سماك ـ وهو الظاهر ـ، وإما من هو دونه، والأشبه أنه لم يرجمه».

وكان بحثي في هذا المقال منصبًّا على الإشكال الواقع في الحديث وهو: كيف أمر النبي ﷺ برجم الرجل الأول الذي أغاثها دون أنْ تثبتَ عليه بيِّنةُ الزِّنا وهي الاعتراف أو شهادة أربعة شهداء؟ فما كاد المقال يقع في أيدي الناس ويقرأ حتَّى اشتدَّ غضب الشَّيخ أحمد بن الصِّدِّيق، وكأنني هجمتُ على بيته ونهبتُ أثمن ما عنده، وقال: ما شأن هذا الرجل والحديث؟! هذا رجل متفرنج أقام زمانًا طويلًا في أوروبا متطفِّل على الكلام في حديث النبي ﷺ، فكتب مقالات هو وأعوانه[1] في الرد علي. وكان محرر صحيفة «الأخبار» شخصًا اسمه عرفة الغماري[2] بينه وبين الشيخ المذكور قرابة، فكان إذا جاءه مقال منه أو من أحد أعوانه الذين كانوا يحاربونني معه يبادر بنشره ويؤخر مقالي بعض التأخير، لكنه لا يستطيع أن يترك نشره لأن سادته المستعمرين لا يسمحون له بذلك، واستمرت المعركة مدة من الزمان فيما بيني وبينهم، وكانوا ـ كعادتهم ـ يمزجون الشتم بالعلم، فأدعُ الشَّتمَ لا أجيبهم عنه وأجيبهم عن المسائل العلمية فقط[3]؛ فاكتسبت بذلك وبالحجج القوية التي أدليت بها كثيرًا من الأنصار من قراء صحيفة «الأخبار».

---

(١) منهم الناصر الكتاني، ومنهم الشيخ الزمزمي شقيق الشيخ أحمد (خ).
قلت: مما يدل عليه في صحيفة «الأخبار» عدد (١٧٣) في ٢٩/ ٩/ ١٣٦٢ ـ ٢٦/ ١٠/ ١٩٤٣: «وتصدى لمناقشته ـ أي الهلالي ـ الحسَّاب الفضيلة العلامة السيد محمد الزمزمي والعلامة السيد الناصري، وأدليا بأن الحديث الآنف الذكر ساقط لا يثبت به إشكال مما يحتاج إلى الجواب».

(٢) الصواب: «عرفة التجكاني» (خ). قلت: كان من المتحاملين على الشيخ الهلالي، وهو ابن أخت الفقيه محمد بن عبد الصمد التجكاني الحسني، كان قاضيًا، وصحافيًّا، ورئيس جريدة «الأخبار» الناطقة باسم الاحتلال الإسباني. (ع)
وفي مقالة الغماري في الرد على الهلالي: «حضرة الشريف الجليل الأديب سيد عرفة».

(٣) كتب الهلالي في رسالة أرسلها إلى محمد الزمزمي: «وكنتُ قد عزمتُ على أن =

وكان مدار ردِّ الشيخ أحمد على مقالي غريبًا لا يتعلق بأصل الإشكال بل سلك سبيلًا أخرى، وهي قوله: إن الحديث ضعيف لا بالاضطراب في المتن كما قال بعض الحفاظ، ولا بالانقطاع في بعض أسانيده كما قال غيرهم، ولكن بدعوى أنَّ سِمَاك بن حَرْب الذي عليه مدار الحديث ضعيف، وإذا كان الحديث ضعيفًا لا يثبت، فلا حاجة إلى البحث في الإشكال الذي وقع فيه[1]. فأثبتُّ في محاجَّتي لهم أن أكثر النقاد وثَّقوا سِماكًا وهو من رجال مسلم[2]، ثم وجدت أن الشيخ أحمد بن الصديق نفسه يحتج بسماك هذا في أحد كتبه[3].

= أردّ عليه فيما اتهم به الحنفاء ردًّا عنيفًا. فلما اشترط علي رئيس الجامعة أن أقتصر على المسائل العلمية عزفتُ على جعل تقريعه خاصًّا بكتاب «الدعوة إلى الله»». انظر كتاب «مراسلات الهلالي» (١/ ١٦١).

ويريد بـ (رئيس الجامعة) العلامة الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى، وكانت هذه الردود إبان كونه رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.

(١) ذكر أحمد الغماري في مقالته المنشورة في جريدة «الأخبار» السنة الأولى، عدد (١٨٥) بتأريخ ١٥ ذي القعدة ١٣٨٣ ـ ٩/ ١١/ ١٩٤٣ عدة علل. وجعل أولها سماك. وقال عنه: «وهو وإن كان صدوقًا، إلا أنه يقبل التلقين، فإذا انفرد بأصل لم يكن حجة، كما قال النسائي وغيره».

وتحرير ذلك في تعليقي على «الطرق الحكمية» وقد فرغتُ منه منذ سنوات، ثم رأيته محققًّا، فأمسكت عن نشره إلى حين.

(٢) أخرج له في «صحيحه» في أكثر من ثلاثين موضعًا، منها بالأرقام (٢٢٤، ٤٣٦، ٤٥٨، ٤٩٩، ٦٠٦)، وانظر له «رجال صحيح مسلم» (١/ ٢٩٢) لابن منجويه، و«تهذيب الكمال» (٢/ ١١٥).

(٣) المثنوني والبتار (خ)، تتمة اسمه بالكامل: «في نحر العنيد المعثار الطاعن فيما صح من السنن والآثار»، وهو رد على رسالة الشيخ محمد الخضر الشنقيطي المسماة: «إبرام النقض لما قيل من أرجحية القبض» (قال شيخنا: والصواب أن يقول: (المُثْوي) وهو من أسماء رماح النبي ﷺ)، طبع الجزء الأول منه في ٣٤٨ صفحة، بالمطبعة الإسلامية بالأزهر، الطبعة الأولى ١٣٥٢هـ، مصر، =

= ثم طبعت مقدمته منفردة في حياة المؤلف بالمطبعة المحمودية التجارية بالأزهر بمصر سنة **١٣٥٢**هـ/ **١٩٣٣**م، في **٣٩** صفحة من الحجم الصغير أسماها: «رفع شأن المنصف السالك وقطع لسان المتعصب الهالك بإثبات سنية القبض في الصلاة على مذهب الإمام مالك».

قال أبو عبيدة: قال الشيخ أحمد الغماري في «المثنوني والبتار» (ص**٢١٨ ـ ٢١٩**) تحت (فصل العلة الثانية): «في زعم المتعصب ما قيل في سماك بن حرب مما نقله عن صالح وشعبة وسفيان والنسائي، وهي علة باطلة أيضًا من وجوه:

الوجه الأول: أن ما قاله هؤلاء في سماك لا يقتضي ضعف حديثه، فإنهم ما اتهموه ولا تركوه ولا رُمي بفحش خطأ فيما يرويه؛ بل غايته اقتضاء نزوله عن درجة الصحيح فيما ينفرد به إلى درجة الحسن، وقد قيل في هذا إنه ما فيه ضعف قريب محتمل، وهذا هو الذي صنعه الترمذي فاقتصر على تحسين حديثه، ولم يكتف بذلك لأن سماكًا لم ينفرد به؛ بل تابعه عليه عدد التواتر، فوجب أن يكون الحديث صحيحًا، كما قال ابن عبد البر، لأن ما خُشِي من ضعفه على رأي هؤلاء قد زال بالمتابعات والشواهد.

الوجه الثاني: أن جرحهم غير مقبول كما هو مقرر عند أهله، لأنه مقابل بمثله من المعدلين، وهو مقدم على جرح لم يفسر سببه، ولذلك لم يعتمده مسلم فاحتج به في «صحيحه»، كما أن البخاري لا يعتبر مثل هذا الجرح فيخرج في «صحيحه» لكثير ممن وجد فيه هذا الخلاف؛ بل ثلاثة أرباع رجاله من هذا القبيل كما يعلم من كتب الرجال.

الوجه الثالث: أن الذين ضعفوه لم يطلقوا ذلك بل قيدوه ببعض أحواله، كروايته عن عكرمة، كما قال جماعة، أو فيما انفرد بأصله، كما قال النسائي، وليس هذا الحديث من روايته عن عكرمة ولا مما انفرد بأصله كما علمت.

الوجه الرابع: أنهم نصوا على أن من سمع منه قديمًا مثل شعبة وسفيان فحديثهم عنه صحيح مستقيم، كما قال يعقوب وغيره، وهذا الحديث من رواية سفيان الثورى وأقرانه عنه كما سبق، فهو من صحيح حديثه، وقد قال الحافظ في مقدمة «اللسان»: إن مما ينبغي أن يتوقف فيه إذا ضعف الرجل في سماعه =

وبينما المعركة جارية قد حمي وطيسها إذا برجل اسمه عبد القادر الجزائري(١) كان من جماعتهم الطُّرقيين ثم صار من جماعتنا السلفيين،

= من بعض شيوخه خاصة فلا ينبغي أن يرد حديثه كله لكونه ضعيفًا في ذلك الشيخ اهـ فالحديث صحيح باتفاق من المخرجين والمعدلين فضلًا عن أن يكون حسنًا كما قال الترمذي، وبالله تعالى العون والتأييد» انتهى كلامه.

(١) طلبتُ من الأخ البحَّاثة بدر العمراني ـ حفظه الله ـ ترجمة للشيخ عبد القادر الجزائري هذا، فكتب إليَّ ـ جزاه الله خيرًا ـ من طنجة في **١٣** صفر **١٤٢٧**هـ ترجمة له، وهو من أقربائه، فقال: «وأما ترجمة عمِّ جدّتنا الشيخ عبد القادر بن أحمد المؤذن الجزائري، فها هي بين أيديكم» وطوّل فيها. وأثبتها على طولها؛ لأهميتها:

هو: العالم الأديب، والمثقف النجيب، عبد القادر بن أحمد بن عيسى الجزائري (نسبة إلى وطن أسلافه المهاجرين من الجزائر وبالخصوص من مدينة: جيجل إبان الاحتلال الفرنسي سنة **١٨٣٠**م) المؤذن (عرفوا بهذا اللقب لأن أباه السيد أحمد ظل مؤذنًا بالجامع الكبير بطنجة لمدة **٥٥** سنة، وشغلها من بعده ولداه الفقيهان: عبد السلام، وعبد الرحمٰن).

ولد سنة **١٣٢٠**هـ/ **١٩٠٠**م بطنجة، ونشأ في بيت ملتزم، لحمته الصون والعفاف، وسداه العلم والمعرفة. أدخله أبوه الكُتَّاب المجاور للجامع الكبير بسماط العدول سابقًا؛ حيث حفظ القرآن على شيخ القراء بطنجة: الفقيه بيوط.

وبعد ذلك نهل من حلقات علماء عصره، واستقى من حياضهم ومجالسهم، ولما استوفى مطلوبه ومراده، رحل إلى قلعة العلم: فاس؛ حيث أمضى بها أربع سنوات ملؤها الجد والاجتهاد في تحصيل العلوم والمعارف. وحينما امتلأ وطابه، وتهيأ ركابه، قفل إلى مدينته ومسقط رأسه. فامتهن التجارة لتأمين قوته وعيشه، ووقع الاختيار على ما يربطه بالثقافة والعلم عبر افتتاح مكتبة بقيسارية المدينة (وهي التي تعرف الآن بقيسارية جبالة)، ولم تكن مكتبة تجارية فقط بل كانت ناديا ثقافيًّا يضم بين جنباته نخبة من المثقفين وأرباب الفكر، وسياسيًّا كذلك لتداول وضعية المغرب الاستعمارية. وهو بالنسبة إليها يعد وسيطًا ثقافيًّا مهمًّا، ووطنيًّا غيورًا لا يتوانى في دعم المقاومة وعلى =

= الخصوص المقاومة الريفية، وقد صرح بذلك السيد عبد الكريم اللوه في «مذكراته» المنشورة بجريدة «أخبار الدنيا»، قال في الحلقة **٢٨** العدد **٢٩**: وتكفل بأمر الصحف من حيث وصولها وبعثها إلى قيادة الثورة السيد عبد القادر بن المؤذن. . .

وظل على هذا النهج إلى أن ظفرت السلطات الاستعمارية بمسوّغ للحدِّ من نشاطه، وتشتيت رباطه، تحت دعوى امتلاك كتاب محظور، كان الجزاء والتعزير إزاءها إقفال المكتبة ونفيه إلى جبل طارق لمدة **٣** أو **٤** أشهر.

وامتهن أيضًا وظائف أخرى، مثل:

العمل بالمكتبة البلدية: ويتضح ذلك من رسالة [مؤرخة بـ: **٢٦** صفر **١٣٦١هـ**] أرسلها إلى صديقه العلامة عبد الله كنون يخبره فيها بأن طوماس فيجراس زار المكتبة البلدية وطلب منه تكليم السيد عبد الله كنون من أجل شراء كتب عربية للمكتبة لما له من خبرة تامة بها.

التدريس: حيث درس بالجامع الكبير مادة الجغرافية، وكان يدرسها بأسلوب عصري عبر استعمال السبورة (وهو أول من استعمل السبورة خلال الدرس بالمدينة). والنحو بالجامع الجديد بطنجة، ثم بتطوان.

من مشايخه: الفقيه أبو شعيب الدكالي أجازه برواية الحديث المسلسل بالأولية. أمدني بهذه الإجازة وعرفني بها الأستاذ أبيُّ الزمزمي، والشيخ محمد بن الصديق الغماري. . .

ومن تلامذته في تلك الفترة: الشيخ عبد الله التليدي، والأستاذ عبد الصمد العشاب، والأستاذ الريسوني نقيب المحامين بطنجة، والأستاذ محمد زغينو.

ومما يمتاز به أثناء التدريس تطعيم الدرس بالنكت والمستملحات من أجل الترويح على القلوب والنفوس.

وقد كان كاتبًا، وأديبًا منشئًا، له أعمال خطها قلمه، وبثها فكره ولبه، مثل:

ـ مقال في التعقيب على الأستاذ محمد بن تاويت التطواني، نشر بمجلة «لسان الدين» [ج **١٠** س **٤** أكتوبر **١٩٥٠** ص**٢١** ـ **٢٢**]، نشر تحت عنوان (تحقيق في لفظ حديث).

ـ مراسلات علمية وأخوية بينه وبين صديقه العلامة عبد الله كنون. وهي محفوظة بمكتبته.

يكلِّمني بالتلفون من طنجة ويقول: قد جاءني السيد محمد الزمزمي بن الصِّدِّيق وأخبرني أن أخاه الشيخ أحمد بن الصِّدِّيق يريد الاجتماع بك لإزالة ما حصل من الخلاف وإصلاح ذات البين، ولما كانت إقامتك في

= ـ كناش ضمنه مجموعة من مقالاته وارتساماته وخواطره. لا يدرى مصيره.
ـ مقطوعات وقصائد شعرية. نسمع بصداها البعيد، ولم نر تمثالها السعيد.
كان رجلًا محبوبًا بين أفراد جيله وقبيله، لما يمتاز به من خصال وشمائل لطيفة؛ لكن إذا غضب تعتريه حدة شديدة تخرجه عن طوره، أما بالنسبة لعلماء عصره فكانوا يقدرون علمه وفضله، ويصفونه بصفات تليق بمقامه، من ذلك: العلامة عبد الله كنون وصفه في كتابه «مذكرات غير شخصية» بالفقيه.
والأستاذ المؤرخ عبد السلام بن سودة قال عنه في «سل النصال» [٦١٤]: كان رحمه الله طيب الأخلاق، جميل العشرة، من دعاة السلفية العاملين بها، ومرشدي الخلق إليها. اشتغل بالتجارة ردحًا من الزمان، ثم عمل في أحد المكاتب الحكومية، ثم تولى مهمة بمدينة طنجة وتطوان مدة... ولا زال له الذكر الجميل بهما.
وجاء في جريدة العلم [المؤرخة بـ: **١٠** شوال **٢٨/١٣٩٢** نونبر **١٩٧١**] تحت عنوان «وطني قضى»: الأستاذ عبد القادر من الرعيل الأول في الحركة الوطنية حيث نفي من طنجة من أجل أفكاره إلى جبل طارق.
ووصفه تلميذه الشيخ عبد الله التليدي في كتابه «ذكريات من حياتي» (**٤٢**) بالعلامة.

وكان صديقه العلامة تقي الدين الهلالي يزوره ويحتفي به كلما نزل بطنجة، وفي آخر أيامه سأل عنه فأخبر بلزومه البيت بسبب مرض الفالج الذي ألم به، فزاره ووصل رباط المحبة معه، وأثناء الزيارة اشتكت إليه الزوجة من الظلم النازل بهما جراء الحَجْر المنفذ عليه من طرف بعض إخوته، فما كان من الهلالي إلا أن سعى في إبطاله، ورفع الظلم عن صديقه.
وظل موفور النشاط، دائم الاغتباط، إلى أن أصيب بمرض الفالج، الذي ألزمه الفراش لمدة عشر سنوات أو أكثر، التحق على إثرها بجوار ربه في **٣** شوال **١٣٩١**هـ **١٩** نونبر **١٩٧١** رحمه الله وأسكنه فسيح جناته. انتهى كلام فضيلة الشيخ بدر العمراني، أدامه الله للعلم، ورفع مقداره، ونفع به.

طنجة لا تطول، فهو يرجو أن تُعرِّفه باليوم الذي تتوجه فيه إلى طنجة ليتم اجتماعكما، وقد اقترحت على السيد الزمزمي أن يكون اللقاء الأول في بيتي فقبل ذلك، ولا يخفى على من يعرف الأحوال هناك أن الشيخ الزمزمي لا يتنازل ليذهب إلى رجل ليس في مستواه، يضاف إلى ذلك أنه كان من مريديهم فخرج عن طريقتهم، وإن تنزل إلى أن يكلمه ويوسطه فلا يتنزل إلى أن يأتي إلى بيته، ولكنه فعل كل ذلك رغبة في إصلاح ما وقع بيننا، وهذا أمر يدل على عقل وفضل وإنصاف لأن هؤلاء الإخوة كان لهم مقام مرموق وأتباع وأعوان، أما أنا فقد كنت غريبًا ليس لي أنصار ولا أعوان، وعبد القادر الجزائري تقدم ذكر حاله. فقلت له: لا حاجة إلى تعيين اليوم لأني سأقدم طنجة وأقيم فيها ثلاثة أيام، وفي أثنائها يمكن الاجتماع بالسيد محمد الزمزمي. ولما قدمت اجتمعتُ فعلًا به في بيت الجزائري وتحدَّثنا ساعتين فقال لي: إنك قدمت هذه البلاد بزي إفرنجي وهيئة إفرنجية، ولم نعهد من أصحاب هذا الزي إلا الكفر والإلحاد، ولم نكن نعرفك من قبل، فظننا أنَّ تدخُّلَك في أمور الدين كتدخُّل كثير من أعدائه المفسدين، ثم تبين لنا بيقين علمك وفضلك وصدقك، فأراد أخي الشيخ أحمد أن ندعوك إلى الصلح والتعاون على ما اتفقنا عليه من دعوة الناس إلى اتباع حديث الرسول وترك التعصب للمذهب، وكلانا غريب في هذه البلاد في دعوتنا إلى اتباع الهدي النبوي ـ وكلامًا طويلًا في هذا المعنى ـ فقلت له: أنا منذ قدمت هذه البلاد وخبرت أحوالها عرفتكم، وعرفت دعوتكم، وعزمت على أن أتعاون معكم فيما اتفقنا عليه، وأما ما اختلفنا فيه، فكلٌّ منا يدعو إلى ما يعتقد، دون أن يتعرض بعضنا للطعن في بعض، فقال لي: إن الأخ الشيخ أحمد يدعوك إلى الغداء في بيتنا غدًا بعد الظهر، فقبلت.

ولما وصلت إلى الشيخ أحمد رحَّب بي واحتفل بي أعظم احتفال، ووجدته قد دعا للغذاء كثيرًا من أعيان البلد، ووضع لنا ثلاثة عشر لونًا من الطعام باعتبار أنواع الحلوى، ولم أر في عمري كلِّه غداء بلغ ذلك العدد من الألوان، ولما فرغ الناس من الأكل دعاني إلى خزانة الكتب التي يشتغل فيها بتآليفه الكثيرة، وليس فيها إلا خزائن الكتب وحصير مفروش في أرضها يقعد عليه ويشتغل بالتأليف على الطريقة المغربية القديمة. وكان في إمكانه أن يؤثِّث مكتبًا كمكاتب الوزراء ولكنه زهد في ذلك، مع أنه كان يعيش معيشة التَّرف في قصرٍ فخم، ولكنه أراد أن يترك خدمة العلم تسير في نهجها القديم، وبعد محادثةٍ ودِّية طويلة افترقنا على أن لا يتعرض بعضُنا إلى الطَّعن في صاحبه، ولكن كل منا يدعو إلى ما يعتقد أنه حقٌّ ويردُّ ما يعتقد أنه باطل.

واستمررنا على ذلك مدة إقامتي بتطوان ونواحيها، وقد استمرت من ربيع **١٩٤٢** إلى صيف **١٩٤٧**. وفي أثناء هذه المدة ألَّفتُ كتابًا سميتُه «الصراط المستقيم في صفة صلاة النبي الكريم»(١) فقرَّظه الشيخ أحمد في صحيفة «الأخبار»(٢)، وبقي الأمر فيما بيننا كذلك إلى أن سافرت قافلًا إلى العراق لم يحل ولم يتغير، ولما سمعت وأنا في تطوان أن الشيخ أحمد أفتى بزيادة (سيدنا) في الأذان وأن مؤذنه يقول: أشهد أن سيدنا

---

(١) طبع في مجموع فيه هذا الكتاب و«ذيل الصراط المستقيم» و«حكم تارك الصلاة».

وهو بعنوان «مجموعة ثلاثة كتب للهلالي» يقع في (**٣٢**) صفحة. ونشر طبعة وقفية. وذكر في أوله (ص**٣**) أنه ألَّفه لما سأله جماعة من إخوانه الموحِّدين. وانتصر فيه لتكفير تارك الصلاة تكاسلًا.

(٢) ورأيتُ بخط الهلالي تقريظًا لكتاب أحمد الغماري «إزالة الحظر». انظره في (النماذج) المرفقة آخر الكتاب (نموذج رقم ١١).

محمدًا رسول الله، أنكرت ذلك ولم أتعرض لشخصه بسوء، ولما وصلت إلى العراق كتب إليَّ أحد الأخوان أنه ألف جزءًا سماه «إحياء المقبور في استحباب البناء على القبور»[١]، فأنكرت ذلك ولم أتعرض لشخصه بسوء، وبذلك تعلم كما يعلم كثير من أهل طنجة وأهل تطوان، ومنهم الأستاذ العالم الداعي إلى الله على بصيرة، فخر آل الصديق ورائدهم في طريق الحق وفرطهم إلى الهدى[٢] صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الزمزمي[٣] بارك الله في حياته ونفع بعمله.

---

(١) انظر عنه كتابي «كتب حذر منها العلماء» (١/ ٣٣٠).

(٢) يظهر أنه سقط من هنا كلام. (خ)

(٣) هو عالم وباحث من أهالي المغرب، ولد ببور سعيد في مصر **١٣٣٠هـ - ١٩١١م**، ثم انتقل مع والده إلى طنجة فقرأ بها وحفظ القرآن، ثم رحل إلى القاهرة فأخذ عن مشايخ الأزهر، كالشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ محمود الإمام، والشيخ عبد السلام غنيم، وغيرهم.
ثم عاد إلى طنجة، ودرَّس بالجامع الكبير، وتولى وظائف دينية، وله كتب كثيرة، تقدم بعضها.
ترجمته في «إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين» (١٢١ - ١٢٣)، «صدِّيقون ريحانة طنجة» (١٠٥ - ١٣٣) «إتمام الأعلام» (٣٦٢)، «تتمة الأعلام» (٢/ ٧٩).
ولولد المترجَم له السيد أُبيّ تقديم لكتاب والده «العلم النبوي» أدرج فيه تعريفًا به، ثم أرسل لي بعض الأحبة من المغرب ترجمة مطولة كتبها له.
وكان الهلالي يثني عليه ويطريه، ويفضّله على سائر إخوانه في معتقده، وجهد في مراسلاته على نصيحته، وحصل له مناقشات علمية، وكذا مع شيخنا الألباني لما زار المغرب، فأعلن خروجه من الزاوية، وألف في فضائحها كتابًا قويًّا، فتبرأ من الانتساب إليها في أبيات شهيرة قالها، بل تبرأ من الانتساب للبيت الصِّدِّيقي الغماري، واكتفى هو وذووه باسم (الزمزمي).
وللباحثة تحرير منصور الخريمي دراسة بعنوان «محمد الزمزمي بن محمد الصديق الغماري وآراؤه العقدية، عرض ونقد» لم تنشر لغاية تدوين هذه السطور. =

فتبين بما ذكرناه أن ما سطره هذا الناعق كله افتراء من بنات غيره[١]. وهنا أذكر الألفاظ البذيئة التي وصمني بها كذبًا وزورًا ثم أنقضها بالتفصيل حتى يعلم من لا يعلم أنه مفتر يكذب على الحاضرين ويعرض نفسه لزيادة سخرية الساخرين، فقد ألف هذا المسكين[٢] كتيبًا سماه «التيمم في الكتاب والسنة»[٣] خبط فيه خبط عشواء وملأه بسبِّ العلماء الأئمة المتقدمين والمتأخرين، وهذا نص ما كتبه في صفحة (٥٧): «فقد جاء إلى طنجة رجل من هؤلاء الدَّعاة مدَّعيًا محاربة البدع، فأصبح ذات يوم حليقًا، فأرسل إليه شقيقي الحافظ أبو الفيض من يسأله كيف يتفق حلق اللحية مع أمر النبي ﷺ بإعفائها[٤] وزعمه العمل بالسنة والدعوة إليها؟ فأجاب السائل بقوله: معنى الحديث أعفوا لحاكم إن شئتم، فقال شقيقي للسائل: ولم لم تقل له: وأقيموا الصلاة إن شئتم. ولا تقربوا الزنى إن شئتم؟ فهذه هي السنة التي يدعو إليها هذا الضال

= وظفرت للهلالي بإحدى وعشرين رسالة وجهها له وترفق معه في الخطاب، وحبَّبَ إليه التوحيد، وحثه على نبذ الشرك والخرافة، انظرها في كتابي «رسائل الهلالي» (١/ ١٢٧ ـ ١٩٠).

(١) يقال: جاء ببنات غير: أي بأكاذيب. (منه)

(٢) اسمه عبد الحي. (خ)

قلت: هو الشيخ عبد الحي بن محمد بن الصديق الغماري الطنجي ولادة ومنشأً ودارًا. ولد عام ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٦، شقيق الشيخ أحمد بن الصديق الغماري، من مؤلفاته: أريج الآس في إبطال فتوى عالم فاس، حكم اللحم المستورد من أوروبا، إقامة الحجة على عدم إحاطة أحد من الأئمة الأربعة بالسنة، وغيرها... توفي عام ١٤١٥ ـ ١٩٩٥م، ودفن بالزاوية الصديقية. ترجمته في «صديقون» (ص١٣٤ ـ ١٥٣).

(٣) طبع في تطوان سنة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠.

(٤) يشير إلى قوله ﷺ: «**أعفوا اللحى**» أخرجه مسلم (٢٥٩) عن ابن عمر.

وأمثاله، وقد انتقل ذلك الضال إلى بعض مدن الجنوب عاملًا على بذر بذور الشقاق والتفرقة بين المسلمين. وإني أعتقد أنه مستأجر من جمعية التبشير الإنكليزية أو الأمريكية لإيقاع التفرقة بين المسلمين لأن التفرقة بينهم هي الوسيلة التي ينال بها الاستعمار أغراضه».

في هذا الكلام أنواع من البهتان(١):

الأول: قوله: (فأصبح ذات يوم حليقًا) يوهم أنّني جئتُ إلى طنجة بلحية ثم حلقتُها، وهذا كذب محضٌ يلعنه عليه خلق كثير لا يزالون أحياء يرزقون، والحقيقة أنني جئت إلى طنجة من برلين عاصمة ألمانيا بعدما أقمت في تلك البلاد زهاء ست سنين لتحصيل العلوم العصرية وشهادة الدكتوراه الجامعية، وقد حصلتها ولله الحمد في مدة لا تزيد على أربع سنين، وسبب توجهي إلى طنجة أن سماحة المفتي السيد أمين الحسيني ـ بارك الله في حياته ـ بعثني إلى الأستاذ الزعيم المجاهد عبد الخالق الطُّرَيس لغرض سياسي فيه خير للمسلمين المغاربة كما تقدم، وكنت مدة إقامتي في ألمانيا أحلق لحيتي متأولًا حديث الأمر بعفو اللحى على أن الأمر للندب. وقد خُيِّلِ إليّ في ذلك الزمان أن الأوامر الواردة في خصال الفطرة كإحفاء الشوارب وعفو اللحى ونتف الإبط وتقليم الأظفار ينبغي أن يسلك بها مسلك واحد، فإما أن تحمل على الوجوب كلها وإما أن تحمل على الندب كلها، وأن حمل الأمر الوارد في اللحية وحده على الوجوب وحمل سائرها على الندب تناقض.

---

(١) جاء في (الرسالة الثامنة) التي وجهها الهلالي للزمزمي: «كتبتُ في ردِّ افتراء عبد الحي صفحات كثيرة ضمن كتابي الذي أنا مشتغل بتأليفه، وسميته «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة» وضمنته قصائد قلتها قبلًا في هجو الطواغيت من أهل تطوان وغيرهم».

وكذلك قول النبي ﷺ في صبغ الشعر: «**خالفوا اليهود والنصارى فإنهم لا يصبغون**»[(١)]، واستأنست بأقوال بعض العلماء الذين سلكوا هذا المسلك، وقد ذكرهم أخوه عبد العزيز[(٢)] في تأليفه الذي رد فيه على أخيهما الأستاذ الزمزمي، وهو لا شك يعرفه، ثم ظهر لي أن الداعي إلى الله لا ينبغي له أن يعتمد على التأويل ولا يكون له عليه تعويل، بل يجب عليه أن يكون قدوة حسنة في أقواله وأفعاله وسيرته، فعفوتها ولله الحمد لا آخذ منها شيئًا[(٣)].

على أن حلق اللحية على ما ذهب إليه جمهور الأئمة من التحريم لا يتعدى أن يكون من الصغائر، ولا يصل إلى حد الكبائر، وقد بسط القول في ذلك شارح «العقيدة الطحاوية» انظر كلامه في (ص٣٥٦) فقد اختار في حدِّ المعصية الكبيرة أنها ما يترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب، وهذا أمثل الأقوال[(٤)].اهـ. والصغيرة ضدها وهي ما لم يترتب عليها حد ولا توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب، ثم قال: «وترجيح هذا القول من وجوه: أحدها: أنه هو المأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل (رضي الله عنهم) وغيرهم».

ولا أقول ذلك تصويبًا لحلق اللحية أو تهوينًا لشأنه، فإن الواجب على كل مسلم أن تكون له في رسول الله ﷺ أسوة حسنة وأن يبذل جهده

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٦٢) ومسلم (رقم ٢١٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) الصواب: (عبد الحي). (خ)
(٣) ظفرت بورقة فيها إملاء لتقي الدين الهلالي عن تراجعه بالقول بسنية اللحية، وأنه يرى وجوبها، وترى مصوَّرتها في النماذج الملحقة آخر الكتاب، رقم (١٢).
(٤) انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (٢٤١). ولصاحب هذه السطور في مقدمة تحقيقه لكتاب «الكبائر» للإمام الذهبي (٦٣) تحرير موعب في تأكيد صحة هذا الاختيار، والله الموفق.

في موافقة قدوته وإمامه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في الظاهر والباطن، ولكني أعجب لهذا الإنسان الذي يأتي بالطوام الكبرى التي لا تحلق الشعر بل هي الحالقة للدين والمروءة، ثم لا يجد ما يطعن به في أحد الدعاة إلى الله على بصيرة إلا بالتشنيع عليه في معصية من الصغائر قد تاب منها وتركها، وهذا من الإفلاس!

الثاني: زعمه أن شقيقه ـ وهو عوض أبيه، وليس له ولا عشر معشار علمه وعقله ـ زعم أنه أرسل إليَّ رسولًا، وهو كاذب مفتر فإنه لم يرسل إليَّ قط إلا أخاه السيد الزمزمي في طلب الصلح، كما تقدم.

الثالث: قوله: (إني قلت له: معنى الحديث أعفوها إن شئتم)، أقول فيه: سبحانك هذا بهتان عظيم! لو أرسل إليَّ رسولًا وأجبته بذلك فإن العادة تقضي عليه أن يحضر دروسي في «الجامع الكبير» بتطوان، وكان يحضرها فئام من الناس من الموافقين والمخالفين، فلو قلت ذلك لسمعه الحاضرون، وقد سئلت عن هذا الحكم في تلك الأيام مرارًا وتكرارًا فأجبت بما تقدم من التأويل، وكل من كان يحضر دروسي يعلم ذلك ولا يشك في كذب هذا المفتري، وسيزداد كذبه وضوحًا حتى يصير كشمس الضحى ليس دونهما غمام ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] وحينئذٍ يعلم أنه كان في ذلك كالباحث عن حتفه بظلفه، وكالجادع بكفه مارن[١] أنفه، فنعوذ بالله من الخذلان.

الرابع: قوله: (وقد انتقل ذلك الضال إلى بعض مدن الجنوب عاملًا على بذر بذور الشقاق والتفرقة بين المسلمين)، أقول: هذا مضرب المثال: رمتني بدائها وانسلت، أتدري أيها المأفون الذي يهرف بما

(١) المارن من الأنف: هو ما لان منه. (منه)

لا يعرف لماذا انتقلت إلى الجنوب؟ لأن الاستعمار الفرنسي[1] كان قد نفاني من وطني الجنوب ومن الجزائر وتونس أيضًا، ولم نر أحدًا من المنفيين نفاه الفرنسيون مثل هذا النفي المشدّد، وبذلك تعلم ما أدركك من الشقاء حين تجرأت على ذكر الاستعمار بوقاحة ليس لها نظير.

يَا لَيْتَ لِي مِنْ جِلْدِ وَجْهِكَ رُقْعَةً   فَأَقُدُّ مِنْهَا حَافِرًا لِلأَدْهَمِ[2]

مثلك يتجرأ على ذم الاستعمار؟ وهل نشأتَ أنتَ ومن معك إلا في حجر الاستعمار؟ وهل جلب عليك وعلى إخوتك الشقاء إلا تقلص ظل الاستعمار؟!

الخامس: أن هذا المفتري لما رأى دعوتي إلى توحيد الله والتمسك بسنة رسول الله ﷺ في مكناس ونواحيها قد أينعت وآتت أكلها، شوى الحسد قلبه، فسمى ذلك شقاقًا وتفرقة بين المسلمين، ولو كان له من الحياء والتفكير فيما يقول مثقال ذرة لاستحى أن يذكر التفرقة بين المسلمين، ويرمي بها بريئًا حنيفًا ويحتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا، وهل كتابك هذا من أوله إلى آخره الذي شتمت فيه الأولين والآخرين ـ لا شتم الأشراف بل شتم أرذال السوقة ـ إلا شقاق ونفاق وتفرقة بين

---

(١) قال الأستاذ عبد الله العقيل في كتابه «من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة» (ص٤٨٩)، في ترجمة (الهلالي) تحت عنوان «بداية معرفتي به»: «وكانت بداية معرفتي بأستاذنا محمد تقي الدين الهلالي من خلال ما كنت أسمعه عنه من العمِّ محمد السليمان العقيل الذي كان من أعز أصدقائه، ثم قرأتُ له في مجلة «الإخوان المسلمون» عام ١٩٤٦م قصيدة عصماء يندّد فيها بالاستعمار الفرنسي، ولا يحضرني منها الآن سوى مطلعها:

أعادي فرنسا ما حييتُ وإن أمت   فأوصي أحبائي يعادونها بعدي».

(٢) هو لابن المعتز، انظر «الصناعتين» (٣٩٩)، وعزاه المستعصمي في «الدر الفريد» (١٢/ ٢٩٤) لأبي العبر، وهو من غير نسبة في «التذكرة الحمدونية» (٢/ ٢٥٣).

المسلمين؟! وإلّا فمسألة التيمم واضحة، وقد قتلها الناس بحثًا من قبل أن تميز، والحق فيها واضح!

أنا أدعو الناس[1] إلى أمرين في كل مكان دعوت فيه إلى الله في الشرق والغرب وفي أوروبا:

أولهما: تحقيق معنى لا إلٰه إلا الله بجعل جميع أنواع العبادة، من دعاء، واستغاثة، واستعانة فيما يخرج عن الأسباب، ونذر، وحلف، وتوكل، واستعاذة، واستمداد، وعبودية، وخوف، ورجاء، وجعل شيء من الأحكام الخمسة، وصلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وسفر يراد به التقرب إلى الله، وما أشبه ذلك، لله وحده لا شريك له، لا يجعل شيء منه ولا مثقال ذرة لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا غير مرسل ولا لصدِّيق ولا لصالح ولا لأحد من الجن والإنس، فهذا مجمل الأمر الأول.

الأمر الثاني: تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يحول دون اتباعه حب شيء من المحبوبات الثمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] ويدخل في العشيرة المذهب والطريقة والحزب.

ومن يعد هذين الأصلين اللذين قامت عليهما الحنيفية السمحة ملة إبراهيم وخير أبنائه بل خير خلق الله على الإطلاق محمد رسول الله ﷺ؛ **من يعد ذلك شقاقًا وتفريقًا بين المسلمين إلا شيطان رجيم أفاك أثيم؟!**

---

(١) مجمل الدعوة. (خ)

السادس: قوله: (وإني أعتقد أنه مستأجر من جمعية التبشير الإنكليزية أو الأمريكية لإيقاع التفرقة بين المسلمين لأن التفرقة بينهم هي الوسيلة التي ينال بها الاستعمار أغراضه). أقول:

وَإِذَا اسْتَوَتْ لِلْنَمْلِ أَجْنِحَةٌ   حَتَّى يَطِيْرَ فَقَدْ دَنَا عَطَبُهُ[1]

بهذا الكلام أمكن هذا الغبي من نفسه وعرَّضها للهلاك، ألا تعلم أيها البليد أن الناس لهم أعين يبصرون بها وآذان يسمعون بها وقلوب يفقهون بها، فأقرب الناس إليك من حيث السكنى أهل طنجة يكذِّبوك، ولو استطاعوا لرجموك بالحجارة، فاسألهم ماذا صنع السفير الفرنسي حين رجع الحلفاء الغربيون إلى طنجة حين دب الضعف إلى قوة ألمانيا الهتلرية يخبرونك ويخرجون لك الجريدة الرسمية بالعربية والفرنسية وفيها ما معناه: أن محمدًا تقي الدين الهلالي من وكلاء ألمانيا، وقد طلب السفير الفرنسي من السفير الإنكليزي والسفير الأمريكي ـ يعني سفير الولايات المتحدة الأمريكية ـ أن يوافقوه على القبض عليه متى دخل حدود طنجة الدولية، فوافقه السفيران على ذلك، وحينئذٍ انهالت عليَّ المحادثات الهاتفية من طنجة تحذرني من دخولها، فهلَّا سألتَ الناس يا مغرور قبل أن تسطر ذلك الخزي المبين؟

ولما أردتُ السفرَ قافلًا إلى العراق[2] كتبتُ إلى السفارة المصرية من تطوان أطلب منها سمة الدخول إلى القطر المصري، فبعث إليَّ قنصلها استمارة طلب مني أن أملأ مواضع البياض فيها، وهي مكتوبة

---

(١) البيت لأبي العتاهية في «ديوانه» (٤٩).

(٢) كان ذلك في سنة ١٩٤٦، وكانت غايته رؤية أهله وعياله هناك، إذ كانت زوجه (ابنة العلامة محمد فال الشنقيطي) وولده (شكيب) وابنته (خولة) فيها. انظر «الإسلام يكافح الاستعمار في بلاد المغرب» للهلالي (ص٣٦٤ ضمن (المجموعة الأولى) من «رسائل مسجد الجامعة»)، ففيه تفصيل زائد عن المذكور هنا.

بالإنكليزية، ومن جملة ذلك: هل عندك سمة تمكنك من الخروج من مصر إلى لبنان؟ ولم أجد ما أملأ به هذا الموضع، فكتبت إلى أمير البيان المجاهد الأكبر حقًّا وصدقًا الأمير شكيب أرسلان[1] وكان

(١) وكان الهلالي يُكبِرُ شكيب أرسلان، ويراه أكثر رجلٍ خَدَمَ الإسلام، ونشرت مجلة «الضياء» خبر مجمع انعقد للمذاكرة في: أي الرجال في الإسلام يستحق أَنْ يوصف بأنه أعظم رجل في العالم الإسلامي اليوم؟ فحضر هذا الاجتماع عدد من كبار الأدباء والخطباء؛ منهم: صاحبنا الهلالي؛ فتكلم وأطال، وانتهى بذكر اثنين:

أحدهما: الأمير محمد بن عبد الكريم الريفي (وستأتي ترجمته) **والآخر**: شكيب أرسلان، انظر «السيد محمد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة» (ص٧٩٣ ـ ٧٩٤).

ثم وجدتُ أبا الحسن النَّدْوي ـ رحمه الله تعالى ـ أشار إلى ما سبق بقوله في كتابه «في مسيرة الحياة» (ص١١٧ ـ ١١٨) بعد كلام:

«ومن حوادث تلك الفترة الطريفة أن وقعت في جمعية الإسلام مناقشة أدبية، بل معركة أدبية عربية، كان موضوعها «من هو أكبر رجل في العالم الإسلامي؟»، وقد كان الخطباء من الشباب يشاركون هذا النقاش الحامي بكل حماسهم وجدِّهم وإصرارهم؛ كأنهم ما جلسوا إلا لاختبار أكبر شخصية من شخصيات العالم الإسلامي الآن، وسوف يختارونها فعلًا، ويضعون على رأسها تاج الخلافة العظمى، وقد شارك في هذا النقاش أحد الصحافيين السوريين الأستاذ محمود خير الدين الدمشقي، الذي كان قدم منذ أيام، وقد رجحت ميول الأستاذ مسعود الندوي، وحكم رئيس جلسة النقاش ـ وهو كاتب السطور ـ كفة الأمير شكيب أرسلان، واتفق أكثر الحضور على ذلك، وصوَّتوا في حقه، وكنا قد طالعنا تعليقاته القيّمة على كتاب «حاضر العالم الإسلامي» للمؤلف الأمريكي (Stoddard) قريبًا، وكنا نقرأ مقالاته الإسلامية الفائضة بالقوة والحماس في «الفتح»؛ فكانت شخصيته لأجل ذلك متغلغلة في أحشائنا، ومسيطرة على عقولنا.

وقد سُمع صدى هذه الندوة في مصر أيضًا؛ إذ نشر الأستاذ محمد طاهر محضر الجلسة في صحيفته «الشورى» المصرية بإشارة من العلامة السيد رشيد =

= رضا، واطَّلع عليه الأمير شكيب أرسلان؛ فكتب رسالة شخصية إلى الأستاذ مسعود يشكر فيها محبيه الذين لم يروه على حسن ظنهم وثنائهم، ولكن صرَّح ـ بكل جراءة وإخلاص ـ أن هذا اللباس لا يستقيم في الواقع إلّا على المجاهد الكبير المعروف الغازي عبد الكريم الريفي، الذي أنزل ـ بصلاحيته وعبقريته الحربية الموهوبة، واستعداده المنقطع النظير ـ ضربات قاصمة على إسبانيا وفرنسا، وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه «السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة» هذه الندوة، ويمكن أن يقدر بذلك مستوى عقليتنا في ذلك الوقت، وذوقنا ودراستنا ومنهج تفكيرنا» انتهى.

وللهلالي مقالة في مجلة «الفتح» أثنى فيها على شكيب، وهي بعنوان: (وقل جاء الحق وزهق الباطل)، ومما جاء فيها تحت عنوان: (الأمير شكيب والحملة الأخيرة):

«لا أعرف رجلًا منذ قرون كان رحمةً على أُمَّته، وكانت أُمَّته عذابًا عليه؛ مثل شكيب أرسلان، ولا أعرف عربيًّا ـ الآن ـ على وجه الأرض يحب أُمته الإسلامية والعربية، ويعمل لخيرها، ويقف كل ما أوتيه من قوة في الدفاع عنها، ويتحمل كل أذى في سبيل إصلاحها، ولا ينتقم ـ قط! ـ لنفسه من أي مؤذ منها، بل يلاقي لسعات عقاربها بالصبر الجميل؛ مثل شكيب أرسلان.

ونشرت مقالته في العام التاسع، العدد (٤٣٧)، الخميس ٩ ذي الحجة ١٣٥٣هـ، (ص١٦ ـ ١٨)، وهي ضمن كتابي «مقالات الهلالي» تحت عنوان: (في سبيل الإصلاح) (١٤).

وللهلالي الذي كنى نفسه (أبا شكيب) مع أرسلان مواقف مشرفة، كثيرة الدوران على قلمه ولسانه، ومباحثات أدبية ولغوية، وفيها من المتعة والتدقيق والفطنة والنباهة ما الله به عليم، وله معه مراسلات، وسافر إليه. وتباحثوا وتسامروا في كثير من قضايا المسلمين ـ وهي تحتاج لجمع ودراسة وتحليل.

وأختم بهذه المناسبة بذكر نقاط رئيسة حول علاقة الهلالي بشكيب أرسلان:

الأولى: ظفرت بخط شكيب أرسلان في رسالة مؤرخة بـ ٤/ شوال/ ١٣٥٤هـ وهو في جنيف أرسلها إلى مؤرخ تطوان محمد داود، يقول له فيها:

«ومن الغريب أن تقي الدين الهلالي المقيم بالبصرة هو من أعظم أنصاري، لكونه مغربيًّا، مع أني لا أعرفه إلا بالمكاتبة، وكم له عني من دفاع بقلمه البليغ» =

لا يزال منفيًّا في جنيف بسويسرا، فكتب إليَّ يقول: إنّ لي فضلًا على رئيس الجمهورية اللبنانية (بشارة الخوري)[1] فإنِّي أنقذتُ أباه من الموت

= وانظر «مراسلات شكيب أرسلان مع مؤرخ تطوان محمد داود» (ص**٢٢٢**).

الثانية: سافر الهلالي إلى جنيف بسويسرا لزيارة شكيب. ومكث شهرًا كاملًا في ضيافته، وكان ذلك في سنة **١٩٣٦**م.

وكان تدريس الهلالي في جامعة بون للغة العربية بمساعي صديقه شكيب أرسلان، قال الهلالي: «لكن أحد كبار الأساتذة الألمان، وهو الدكتور بريفر، يزور الأمير شكيب، ويعلن له أن في جامعة بون بألمانيا منصبًا شاغرًا لتدريس اللغة العربية، فيرشح الأمير شكيب لهذا المنصب صديقه تقي الدين»، انظر: «وآراء وأحاديث مع تقي الدين الهلالي» (ص**٢٥**).

ومن اللطيف أن الهلالي كان يدرس في جامعة بون «ديوان المتنبي» ويشرحه في محاضراته للطلبة، انظر «إمبراطور الشعراء» (ص**١٢٣**) لعايض القرني.

الثالثة: كان شكيب أرسلان قد رشح الهلالي للعمل في وزارة الدعاية، فكتب لوزيرها غوبلز: «إذا أردتم أحسن من يتقن العربية في أوروبا فعليكم بمحمد تقي الدين الهلالي»، انظر «الإثنينية» (**٤١/ ٢١**) في **٢٠/ ٣/ ١٤٠٦**هـ في حفل تكريم معالي الشيخ عبد الله بالخير.

الرابعة: جاء في مقدمة كتاب «لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدّم غيرهم؟» (ص**٢١**) ـ وهو من تأليف شكيب أرسلان ـ: «واقترح الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي في كلية ندوة العلماء بالهند تعميم نشر الكتاب مصححًا مضبوطًا مشكولًا، ليستوفي في مطالعته الخاصة والعامة، وأن يسهم الأغنياء في توزيع نسخه، وأن يدرِّسه المدرسون للطلبة، وأن يخطب به الخطباء مدة طويلة، وأن يترجم إلى اللغات الأخرى».

ولا أكتم القارئ سرًّا أن التفصيل في هذا الباب يحتاج إلى بسط، وأعتذر له عن التطويل، ولكني رأيته مهمًّا، ولا يستغنى عن هذه الإشارات المهمات.

ولا يفوتني أن أختم أن الإذاعة الألمانية اتهمت السلطات الفرنسية على لسان الهلالي أنها المسؤولة عن وفاة شكيب أرسلان، انظر «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» (**١٦٩**).

(١) هو بشارة بن خليل بن بشارة الخوري الماروني اللبناني، أول رئيس لجمهورية =

في زمان حكم الأتراك العثمانيين، ولم أقتصر على ذلك حتى طلبت له راتبًا من الدولة العثمانية، فاكتب إليه كتابًا وابعثه إلي وأنا أشفعه بكتاب آخر من عندي ليبعث إليك سمة الدخول إلى لبنان لتتمكن من الدخول إلى مصر، فكتبت إليه الكتاب وبعثه هو إلى رئيس الجمهورية اللبنانية، فجاءني[1] كتاب من وزارة الخارجية اللبنانية، موجَّه إلى القنصل الفرنسي في تطوان يلتمس منه أن ينوب عن وزارة الخارجية اللبنانية في إعطاء

= لبنان بعد استقلاله، وينعت بـ (أبي الاستقلال).
مولده ووفاته ببيروت، تعلَّم بها، ثم بباريس حيث حصل على شهادة الحقوق (سنة ١٩١٢) واحترف المحاماة، ولجأ إلى مصر في أوائل الحرب العامة (١٩١٥) خوفًا من الترك لمشاركته في التوقيع على عريضة بطلب استقلال لبنان قدمت إلى القنصلية الفرنسية ببيروت، ووقعت في يد العثمانيين.
وعاد بعد الحرب (١٩١٩) يعمل في المحاماة، وشارك في تأليف حزب سياسي سُمي (حزب التقدم)، وعين في عهد الانتداب وزيرًا للداخلية (١٩٢٧)، فرئيسًا للوزراء، واستقال (١٩٢٨)، وتكررت رئاسته ثانية وثالثة، وانتُخب نقيبًا للمحامين (١٩٣٠)، وشارك في تأليف «الكتلة الدستورية» سنة ١٩٣٣، وعمل في صفوف المعارضة.
وفي ٢١ أيلول ١٩٤٣ انتُخب رئيسًا للجمهورية، وفي ليل ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٣، اعتقله الفرنسيون بتهمة (التآمر ضد سلطان الانتداب)، واقتيد إلى قلعة راشيا مع رئيس وزرائه رياض الصلح، والوزراء، وقامت ثورة وتدخلات انتهت بالإفراج عنه وعن رفاقه، واعتراف فرنسا باستقلال لبنان (٢٢ تشرين الثاني)، واستمر في رئاسة الجمهورية إلى ١٩٥٢، وطالب المعارضون باستقالته فاستقال، واعتزل السياسة المحلية إلى أن توفي.
وكانت أيامه من أيام الرخاء والاستقرار في لبنان، وأصدر في عهد رئاسته «مجموعة خطبه» في ثلاثة أجزاء، وبعد الرئاسة أصدر جزأين من مذكراته باسم حقائق لبنانية، وهو غير الشاعر (بشارة الخوري) الملقب بالأخطل الصغير.
انظر «رؤساء لبنان» (٧٧ ـ ٩٤) لفؤاد مطر، «الأعلام» (٢/ ٥٢ ـ ٥٣).

(١) بعد شهر.

الدكتور محمد تقي الدين الهلالي سمة الدخول إلى لبنان، وكان هذا القنصل قد طلب من المستعمرين الإسبانيين إنزال العقوبة بي ثلاث مرات للمقالات التي نشرتها في صحيفة «الحرية»[1] في محاربة الفرنسيين، والدفاع عن الملك المجاهد الراحل محمد الخامس ـ قدس الله روحه ـ على رغم أنف أصحاب الطرائق المبتدعة الذين كانوا يعادونه خدمة للاستعمار وخيانة للمسلمين.

فأخذت كتاب وزارة الخارجية وتوجهت إلى السفارة الفرنسية في تطوان، ولم يكن لهم في ذلك الوقت سفير وإنما كان لهم قنصل، فلما رآني عبس وبسر ولم يأذن لي في الجلوس على الكرسي بل تركني واقفًا انتقامًا مني لجهادي الذي أقضَّ مضجعه ـ واسم هذا القنصل سوفوليس ـ ولما قرأ الكتاب قال لي بعنف وغضب: هؤلاء قد استقلوا ولم يبق بيننا وبينهم علاقة، فقلت له: اكتب لي هذا الجواب، فقال: أنا لا أستطيع أن أكتب حتى أكتب إلى المقيم العام في الرباط، فهو الذي يستطيع أن يجيب في هذه القضية، وسأكتب إليه فانتظر الجواب، فقلت: كم أنتظر؟ فقال: شهرين. فانتظرت شهرين ثم جئته، فلقيني بغير الوجه الأول ووضع لي كرسيًّا للجلوس عليه وقال: إن المقيم العام في الرباط قد وافق على إعطائك سمة الدخول، ولكن بشرط أن لا تمر لا على الجزائر ولا على تونس، أما فرنسا فيمكنك المرور عليها، ولكن بشرط أن نتحقق أن عندك ما يكفي للنفقة على نفسك في مرسيليه لمدة شهر، لأن البواخر التي تسافر منها إلى بيروت بعد الحرب قليلة. فقلت له: أعطني سمة الدخول إلى لبنان ودعني أفكر في طريق سفري، فإن قررت السفر بطريق

(١) وغرِّمت الصحيفة بسبب ذلك كما سيأتي، وكانت المقالات حول قضية باكستان، وهي في «مقالاتي»، والحمد لله وحده.

فرنسة رجعتُ إليك[1]، ثم أراد أن يكفر عن ذنوبه السابقة فقال: إن أعداء فرنسة ينفقون الأموال الكثيرة لبث الفتنة والعداوة بين الفرنسيين والمغاربة، وينبغي للفرنسيين والمغاربة أن يتعاونوا على المصلحة العامة ولا يندفعوا مع الأعداء الذين لا يريدون بهذا الوطن إلا شرًّا، فقلت له: أما قولك إن أعداء فرنسة ينفقون الأموال... إلى آخره، فأنا لست ممن يُشترى بالأموال، وإنما أنا من المدافعين عن أوطانهم، وقد اتفق العقلاء والنبلاء على أن هذا مقصد شريف، ثم قلت له: إن السفير الفرنسي في طنجة ذهب إلى السفير الإنكليزي وسفير الولايات المتحدة الأمريكية وقال لهما: إن محمدًا تقي الدين الهلالي وكيل لألمانيا، وطلب منهما الموافقة على نفيي من طنجة، وأنا لست وكيلًا لألمانية وإنما أنا وكيل للمغرب وهو وطني أدافع عنه، فقال لي: لست مسئولًا عما يقوله السفير الفرنسي في طنجة، وإنما أريد أن تعلم وتقول: إن مسيو سوفوليس القنصل الفرنسي بتطوان تلقاني باستقبال حسن. فأردت امتحانه وقلت له: إنني عازم على السفر إلى العراق وأنت تعلم أني منفي من وطني في الجنوب منذ زمان طويل، فإذا أردت أن أتوجه إلى الرباط لأودِّع أستاذي شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي[2] وغيره من الأصدقاء أتأذن لي

---

(١) مُنع الهلالي من السفر عن طريق جبل طارق، فسافر بطريق مدريد فالقاهرة بالجو، أفاده في «الإسلام يكافح الاستعمار في بلاد المغرب» (٣٦٦).

(٢) عَرَفَ الهلالي الدعوة السلفية عن طريقه، وتاب من التيجانية على يديه، رحمهما الله تعالى، وهو من وفيات سنة (١٣٨٤هـ)؛ ترجمته في «سل النصال للنضال» (١٩٥ ـ ١٩٦)، وأفرده محمد الوديع الأسفي في كتاب مطبوع بعنوان: «السلفي المناضل»، وسلكه أنور الجندي في مقالته (مجددو الإسلام في العصر الحديث)؛ نشرها في مجلة «منبر الإسلام» عدد (١٠)، السنة ٢٥، بتأريخ شوال ١٣٧٨هـ يوافق ٧ يناير ١٩٦٨م، ووجدتُ لتلميذه أحمد بناني مقالة بعنوان: «جوانب من شخصية شيخنا ابن العربي العلوي»؛ منشورة =

في ذلك؟ فقال: ذلك ليس إلي ولا هو بيدي وإنما هو بيد المقيم العام في الرباط، فإنْ أردتَ أنْ أكتب إليه كتبتُ إليه وتنتظر الجواب، فقلت: لا تكتب إليه الآن حتى أعزم على ذلك، فقال لي: اذهب إلى الكاتب يعطيك سمة الدخول إلى لبنان، فذهبتُ إليه فطلب مني ثمانين بسيطة، أي درهمًا إسبانيًّا، فسلَّمتُها له فأعطاني السمة.

هذا ما كان من أمر الفرنسيين معي ومعاملتهم لي في تطوان وطنجة. ونسيت أن أقول: إن صحيفة «الحرية» التي كانت لسان حزب الإصلاح الوطني عُطلت بسبب مقالاتي التي أغضبت القنصل الفرنسي ثلاث مرات، كل مرة شهرًا، وغُرمت ألف بسيطة في كل مرة.

أما عداوة الإنكليز لمؤلف هذا الكتاب، فهي كالشَّمس في رابعة النَّهار. ولولا أن مؤلِّف كتاب «التيمم» يعيش بين جدران الزاوية وفي سطحها للاطلاع على العورات أو في المقاهي والمنتزهات ـ على خلاف ما يدعيه من التصوُّف الكاذب ـ ولا يعرف من أخبار الدنيا الماضية والحاضرة شيئًا، لعرف عداوة الاستعمار ومحاربته لي التي بلغت في الوضوح عند أهل المغرب والمشرق أنها لا تخفى إلا على أعمى البصيرة، فمن أدلة عداوة الإنكليز ومحاربتهم لي أنهم سبوني مرارًا وتكرارًا في إذاعتهم العالمية من أول ابتداء الحرب إلى نهايتها، والسامعون في مشارق الأرض ومغاربها لذلك لا يزالون أحياء يرزقون.

وهل علمت يا مسكين أنني أول ما لقيت المجاهد الكبير السيد أمين الحسيني في برلين نوَّه بجهادي ومحاربتي للاستعمار بلساني وقلمي وخطبي المجلجلة في إذاعة برلين[1] العربية التي كان يهتزُّ لها طربًا كلُّ

= في مجلة «الإيمان» عدد (١٠)، سنة ١٩٦٤م.

(١) حصلت بعض ما ألقاه الهلالي في الإذاعة الألمانية، وسأُلحقه في =

مجاهدٍ مخلص في الشرق والغرب، وكان يشرق بها كل مدجل من عبيد الاستعمار خائن غدار. وبلغ صاحب السماحة الحاج أمين الحسيني ـ بارك الله في حياته ـ من تعظيمي إلى أن قال ذات يوم للزعيم رشيد عالي الكيلاني(١) ـ كبير آل الشيخ عبد القادر الكيلاني ورئيس وزراء العراق سابقًا الذي قاد ثورة مروعة على الاستعمار البريطاني في العراق ـ قال له ما نصه: أسأل الله أن لا يحرمنا من وجود أمثال الدكتور محمد تقي الدين الهلالي. وقال كلامًا أعظم من هذا تركته اقتصادًا، واستمر على التنويه بجهادي إلى يومنا هذا. وآخر مرة نوه بجهادي كانت في قصره بظاهر بيروت في الصيف الماضي حين دعاني إلى مأدبة جمعت خلقًا كثيرًا من أهل الفضل والعلم والأدب(٢).

= «المقالات»، وحصلت أيضًا معلومات لا بأس بها عن عمله وتقويمه باللغة الألمانية زوَّدتني بها الباحثة الألمانية الدكتورة أنابيل باتشير، فلها مني جزيل الشكر. وقال الهلالي في «ديوانه» (١٠٣ ـ ١٠٤/بتحقيقي) عن أثر خطبة في الإذاعة: «كان لها وللأحاديث المكررة التي كنت ألقيها في كل أسبوع استحسان كبير في نفوس زعماء المسلمين والعرب، كالأمير شكيب أرسلان ـ وقد صرح لي بذلك مرارًا ـ والأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، المجاهد الأول من أهل المغرب، . . .» إلى آخر كلامه.

(١) للهلالي معه ذكريات، والتقى به في جرمانيا، ومدحه في «ديوانه»، وله فيه ذكر منتشر ـ بعدة أبيات، انظر «الديوان» (١٠٥، ١٧٣، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٩٤).

(٢) أخبرني الأستاذ العلامة زهير الشاويش أنه اجتمع عنده في بيروت أكثر من مرة العلامة الهلالي بالشيخ محمد الأمين الحسيني، رحمهم الله تعالى جميعًا.
ووسَّع الهلالي في «ديوانه» (١٠٥ ـ ١٠٧) الخبر المذكور هنا، وأفاد أنه قال له بحضور الزعيم رشيد: (أنا لا أسأل الله أن يكثر من أمثاله، لأن هذا محال، ولكن أسأل الله أن لا يُخلينا من أمثاله) قال الهلالي: «فلم يعجبني كلامُه هذا، لما فيه من الإطراء والغلو) ونسبة العجز إلى الله تعالى».

وأورد لك هنا أيها المسكين شهادة أخرى وزنها عند المجاهدين ثقيل، ألا وهي شهادة المجاهد المغربي العظيم السيد محمد بن عبد الكريم[(١)] قائد ثورة الريف المشهورة التي بهرت العالم، لأنه حارب

(١) ولد سنة (١٨٨٣م)، ومات سنة (١٩٦٢م)، ويعتبر محمد بن عبد الكريم الخطّابي ـ المعروف باسم الأمير عبد الكريم ـ من رجال السياسة العرب الذين ملأوا الدنيا، وشغلوا الناس خلال العقد الثاني من القرن العشرين، وتركوا في تاريخ عصرهم آثارًا بالغة لا تمحى؛ فهو قائد قد زعزعت استراتيجيته أركان النظام الاستعماري الذي بلغ عهدئذ أوجه، وأرسى بفضل عبقريته قواعد دولة صغيرة حديثة وثوريّة، بحسب مقتضيات ذلك العصر، وهو مكافح باسل قاوم الاستعمار إلى آخر رمق من حياته، وتحدّى تكتلًا عسكريًّا فرنسيًّا إسبانيًّا عظيمًا، وساهم في حرب ضروس طيلة خمس سنوات (١٩٢٠ ـ ١٩٢٥).

وبلغت أصداء ملحمته لا العالم العربي الإسلامي فحسب، بل الدنيا قاطبة، واستوحى من استراتيجيته كثير من قادة الحروب التحريرية أمثال هوشي منه، وتيتو، وماوتسي تونغ، ورغم كلّ هذه المناقب؛ فقد ظلّ مدة طويلة مغمورًا، ولم تسلّط الأضواء على ملحمته إلا اعتبارًا من السبعينات، لما بدأ بعض الباحثين والدارسين يهتمّون بسيرته؛ فقد تألّفت لجنة دولية للمحافظة على تراثه، وانعقدت ندوة علميّة في باريس سنة **١٩٧٣** بمناسبة مرور **٥٠** سنة على قيام جمهورية الريف، وصدرت وقائعها سنة **١٩٧٦** عن دار النشر ماسبيرو، كما أعدّ بعض الطلبة المغاربة رسائل وأطروحات حول الأمير عبد الكريم، وخلال الندوة الدوليّة التي نظّمها المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية بتونس سنة **١٩٩٨**، قدم السيد زكي مبارك أستاذ التاريخ بجامعة محمد الخامس بالرباط بحثًا قيّمًا بعنوان «دور الأمير عبد الكريم الخطابي في حركة التحرير بالمغرب العربي».

هذا؛ بالإضافة إلى الكتب العديدة الصادرة في هذا الشأن، وآخرها كتاب السيدة زكية داود: «عبد الكريم: ملحمة من ذهب ودم»[(أ)]، المنشور باللغة الفرنسية بباريس في آخر سنة **١٩٩٩**، وفي هذا الكتاب الذي يقع في حوالي =

(أ) العنوان الفرنسي: «Abdel Karim: une e'pope'e d'or et de sang Se'guier».

دولتين أوربيتين هما فرنسة وإسبانية لمدة سنتين، لمَّا ذهبت لزيارته بالقاهرة في صيف سنة سبع وأربعين وتسع مئة وألف بتاريخ النصارى كان مريضًا في الطبقة الرابعة ملازمًا للفراش، وجاء خلق كثير إلى مقصورة الاستقبال من الصحفيين ورجال الدولة المبرَزين، فاستقبلهم أخوه وسميُّه المجاهد محمد بن عبد الكريم واعتذر لهم عن حضور الأمير بأنه مريض، لكن لما أخبر بوجودي مع الزائرين أمر في الحال بأنْ أحضر عنده فجلست على كرسيٍّ إلى جانب سريره، فتلقاني بغاية الشوق والمحبة والترحيب وقال لي: لم يكن شيء يسليني في منفاي وغربتي مثل خطبك البليغة الرائعة التي كنتَ تلقيها في إذاعة برلين العربية، فأثنيت على جهاده وفضله، فقال لي: أنت مجاهد أكثر مني. وما كنت لأغترَّ بهذه الكلمة التي صدرت من هذا الرجل العظيم لشدة إعجابه بتلك الخطب[1].

فكيف مع ذلك تتجرأ[2] أن تصمني بخدمة الاستعمار أو أخذ الأجرة من دعاة النصرانية الأوروبية أو الأمريكية؟! ومن يصدقك في هذا؟ ومتى رأيتَ أنت أو رأى أحد من البشر غيرك جماعة من دعاة

= ٤٠٠ صفحة، بالإضافة إلى الفهارس والخرائط وقائمة المصادر والمراجع، حلّلت المؤلّفة أهم جوانب شخصية هذا الرجل الفذ، واستعرضت مختلف مراحل حياته المضطربة والمليئة بجلائل الأعمال، متوخّية النزاهة العلمية والموضوعية التاريخية، معتمدة وثائق تاريخية هامة حول هذا الزعيم الذي يعدّ من أبطال حروب التحرير في العالم الثالث. من كتاب «تراجم وقضايا معاصرة» (ص١٢٩ ـ ١٣٠) لحمادي الساحلي ـ ط. دار الغرب.

(١) مثله في «الديوان» (١٠٤ ـ ١٠٥)، وانظر عنه «رسائل الهلالي» (١١٥١ ت، ١٥٤٨).

(٢) الخطاب موجَّه لمن افترى على الدكتور الهلالي. والكلام السابق كان استطرادًا أثناء الحديث عن (النوع السادس) من أنواع البهتان التي افتُرِيَتْ على المؤلف. (منه)

النصرانية تبذل الأموال لدعوة الناس إلى توحيد الله واتِّباع رسول الله ﷺ؟! فقد انقلبت هذه الجماعة من دعوتها إلى النصرانية إلى الدعوة إلى الدين الحنيف ملة إبراهيم! ومن كان يعطيني أجرة على الدعوة إلى الله في صعيد مصر حين كنتَ أنت لم تخرج إلى الدنيا سنة ١٣٤١هـ؟! ومن كان يعطيني أجرة على الدعوة إلى الله في تطوان؟! ومن كان يعطيني أجرة في الدعوة إلى الله في بغداد؟! أنا لم أعش بالدِّين قط مع أني ولله الحمد على دين الحق.

وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحُبِّ رِشْوَةً ... ضَعِيْفُ الْهَوَى يَبْغِي عَلَيْهِ ثَوَابا[1]

ولكنك أنت ومن يحلب في إنائك تعيشون وتأكلون بدين الشرك، وتصدون الناس عن سبيل الله وتبغونها عوجًا، وسنرى من يصدق الناس كلامه أأنت أم أنا، ولكن كما جاء في المثل؛ بل هو من كلام النبوة القديمة: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[2] ونظمه بعضهم فقال:

فَلَا وَاللهِ مَا فِي العيش[3] خَيْرٌ ... وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي ... وَلَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ[4]

وقد سمعت بعدما رجعت من العراق إلى المغرب بعد الاستقلال أن أخاك العلامة المحقق الشيخ أحمد بن الصِّديق ـ الذي تدعي الاقتداء به زورًا وبهتانًا وأنت سالك غير سبيله ـ حين رجع المجاهد الأكبر في المغرب العربي محمد الخامس ـ رحمة الله عليه ـ إلى عرش آبائه

(١) البيت للمتنبي في «ديوانه» (١/ ٣٤١ ـ مع شرح الواحدي).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٤٣، ٣٤٨٤، ٦١٢٠) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

(٣) في المطبوعات: «الدين» وصوبه (خ) كالمثبت. **قلت**: وهو كذلك في «ديوان أبي تمام».

(٤) «ديوان أبي تمام» (ص٧٥٦)، وفيه: «فافعل» بدل «فاصنع».

الأكرمين توجَّه إليه وطلب أن يدخل عليه للسلام والتهنئة، فرفض الملك أن يأذن له، ثم توجه إلى مصر، وسمعت أن الحكومة المصرية اتهمته وأخاه عبد الله بالتجسس، فحكمت عليه بسجن طويل وعلى عبد الله بالسجن[1] المؤبَّد كما يسمُّونه، وأسفت لذلك لما أعرف فيه من العلم والفضل ولما عاملني به من البر والكرم، وإني لأرجو أن يكون الله ﷻ قد ختم له بالحسنى فتاب من الطريقة ومن كل ما كان مخالفًا لعقيدة السلف الصالح، والله على كل شيء قدير.

أما أنت؛ فلا أعرفك ولا تعرفني، ولكن غلبت عليك شقوتك فتعرضت لشتمي بدون مناسبة، أما قولك في الوهابية فسأفرد له كتابًا علميًّا ليس فيه لغو ولا تهور ولا شتم ولا كذب وسأسميه: (الدفع بالتي هي أحسن)[2] وقد

(١) الصواب هو أن الشيخ عبد الله بن الصديق هو مِن اتُّهِم بالجاسوسية، وسجن (١١) سنة، وليس أخاه أحمد، وأُفرج عنه في عهد الرئيس أنور السادات بتدخل من العاهل المغربي الحسن الثاني رحمه الله. (ع)

قلت: وينظر عنه «صحيفة سوابق» (١٥١ ـ ١٥٤) لمجيزنا العلامة أبي أويس محمد بوخبزة ـ أمدّ الله في عمره في طاعته ـ وكتابنا «مراسلات الهلالي» (٤/ ١٧٤٣ ـ الفهارس).

(٢) أفاد الهلالي في مراسلة له مع محمد الزمزمي يقول له فيها عن أخيه عبد الحي: «أما ما قاله في الوهابية، فقد التمس مني سماحة رئيس الجامعة ـ يريد العلامة الشيخ ابن باز رحمه الله ـ أن أؤلِّف كتابًا في الرد عليه، وشرط عليَّ أن يكون الردُّ علميًّا خالصًا، ليس فيه ذمٌّ بعبد الحي. وسأسميه: «الدفع بالتي هي أحسن لسيئات عبد الحي بن الصدِّيق الغماري»».

وقال في رسالة أخرى له: «معلوم عندكم من الخصومة التي وقعت على صفحات صحيفة «الأخبار»، وأثنيت عليه، وبينت دلالته على فرية عبد الحي، واجتهدت أن لا أنزل معه إلى دركته في المهاترة، وإنما أقتصر على إبطال دعاويه.

وكنت قد عزمت على أن أرد عليه فيما اتهم به الحنفاء ردًّا عنيفًا، فلما اشترط =

جنيت على نفسك، وعلى أهلها براقش تجني، وأقول لك غير مفتخر:

وَإِنَّ لِسَانِي شَهْدٌ يُشْتَفَى بِهَا وَهُوَ عَلَى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَلْقَمُ(١)

وأنشدك أيضًا:

دَعَانِي لِشَبِّ(٢) الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَقُلْتُ لَهُ: لا لا.. هَلُمَّ إِلَى السَّلْم
فَلَمَّا أَبَى أَلْقَيْتُ فَضْلَ عِنَانِهِ إِلَيْهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِحَزْمٍ وَلَا عَزْمِ(٣)
فَكَانَ صَرِيْعَ الْخَيْلِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ فَبُعْدًا لَهُ مُخْتَارُ جَهْلٍ عَلَى عِلْمِ(٤)

= عليَّ رئيس الجامعة أن أقتصر على المسائل العلمية عزمت على جعل تقريعه خاصًّا بكتاب «الدعوة إلى الله».

أما الكتاب الآخر؛ فكنت عزمت ـ من قبل ـ أن أسميه: «نملة حان حينها»!
ثم عدلت عن ذلك إلى تسميته: «الدفع بالتي هي أحسن لسيئات عبد الحي بن الصديق الغماري» وعسى أن تكون هذه التسمية موفَّقة.

ويعز عليَّ أن أوبخه وإخوته ـ وهم أشقاؤك ـ، وسأبذل الجهد في أن أَسُلَّك منهم سلَّ الشعرة من العجين ـ إن شاء الله ـ، فإن وقع شيء فوق جهدي؛ فأرجو المعذرة، ونحن على عهد الله إلى لقاء الله».

انظر «رسائل الهلالي» (١/ ١٦٠، ١٦٢).

(١) للهلالي في «ديوانه» (٤٣٣) بمعناه:

ولساني شَهْدٌ لِمَنْ هُوَ سَلْمٌ ولذي البغي مثلُ سُمٍّ نَقِيعِ
وَهَجَائي على المرَارَةَ حَقٌّ واقعٌ كلَّه أَتَمَّ وُقوعِ
وجَوادي هو المجَلَّى إذا ما جاء خصْمي على حِمارٍ وَقيعِ

(٢) في المصادر: «أشُبُّ».

(٣) في «ديوان المعاني» (٢/ ٨٠٣) بعد البيت الأول:

وإيّاكَ والحربَ التي لا أُديمها صحيحٌ وما تنفكُّ تأتي على الرِّغم
فإن يظفر الحزبُ الذي أَنتَ منهم وينقلبوا ملء الأَكُفّ مِن الغُنم
فلا بُدَّ من قتلى لعلك فيهمُ وإلَّا فجرحٌ لا يجنُّ على العَظْمَ
فلما أبى خَلَّيتُ فضل ردائه عليه فلم يرجع بحزمٍ ولا عزمِ

(٤) الأبيات لعبد الله جذل الطعان، واسمه بلعاء، من شعراء بني أمية، انظر «الوحشيات» (١٩٥)، «مجاز القرآن» (١/ ٢٦٤)، «التذكرة السعدية» (٢١٩)، =

وقد تعرَّض لي لمّا كنتُ مقيمًا في الشمال زمان الاستعمار رجال لا تساوي أنت قلامة ظفر أحدهم، فانقلبوا خائبين، لأنِّي بالله أستعين وإياه أستنصر وأستهدي، وأدعو إلى سبيله على بصيرة، لا أريد بدعوتي إلا وجه الله ومنه أرجو القبول، فقل لي: بالله! **أيُّ فائدة في الدعوة إلى رد التقليد وحده مع نصر الشرك الأكبر وعقيدة الاتحاد وتقديس إمامها ابن العربي الزنديق الذي أجمع الأئمة على كفره؟!**

ولا يتسع المقام هنا لذكر أسماء الأئمة الذين حكموا بكفره في عصور مختلفة(١)، وقد ألف الإمام إبراهيم بن عمر البقاعي الحافظ كتابين(٢) في إقامة البرهان على كفر ابن الفارض وابن عربي، أحدهما

= «ديوان المعاني» (٢/ ٨٠٣)، «تاج العروس» مادة (جذل).

(١) جمع البحاثة دغش بن شبيب العجمي في كتابه البديع «ابن عربي، عقيدته وموقف علماء المسلمين منه، من القرن السادس إلى القرن الثالث عشر»، أسماء (٢٢٠) عالمًا ممن طعن في معتقد ابن عربي. ثم ذكر في (ص٧٠٩ ـ ٧٢٨) (٦٤) مؤلفًا في التحذير منه، ثم ذكر في (٧٢٩ ـ ٧٥٢) (٣٧) عالمًا ممن أمر بإحراق أو إتلاف كتب ابن عربي.

ومن الجدير بالذكر أن علامة زمانه، وشيخ الإسلام في أوانه سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني (ت٨٠٥هـ) له فتوى مهمة في تكفير ابن عربي، وأخرى في ابن الفارض، وثالثة في الحلاج، جمعتها في (المستدرك الأول) على جمع ولده علم الدين صالح لفتاوى أبيه، المسماة «التجرد والاهتمام»، وثبت لي بيقين أن فتواه في تكفير ابن عربي من ضمن «التجرد» وسقطت ـ للأسف ـ من جميع طباعته!

(٢) بل أكثر، مثل:

١ ـ «صواب الجواب للسائل المرتاب، المجادل المعارض في كفر ابن الفارض».

٢ ـ «الرد الكاشف لمراد أهل الاتحاد».

٣ ـ «الجواب الهاد إلى تحقيق المراد من تلبيس أهل الاتحاد».

٤ ـ «إثارة الفِكر بما هو الحق في كيفية الذكر». =

سماه «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» والثاني سماه «تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد»(١)، أقام البرهان فيه على كفر ابن الفارض وأمثاله من أصحاب وحدة الوجود، ونقل في هذين الكتابين نقولًا وافية شافية عن اثنين وثلاثين إمامًا من بلدان مختلفة في عصور مختلفة، نقتصر على ذكر أسماء اثني عشر إمامًا منهم لهم قدم صدق عند جميع المسلمين: الأول سلطان العلماء الإمام عز الدين بن عبد السلام(٢)، الثاني الإمام ابن دقيق العيد(٣)، الثالث الإمام الحافظ زين الدين العراقي(٤)، الرابع شيخ الإسلام أحمد بن تيمية(٥)،

= ٥ ـ «السيف المسنون اللمَّاع على المفتي المفتون بالابتداع».

٦ ـ «بيان محف السيف لسان الجواب المزيف».

ونشر الدكتور محمد مسلم إبراهيم أولها والثلاثة الأخيرة منها في (المجلد الثاني) من دراسته الجيدة المطبوعة بعنوان: (جهود برهان الدين البقاعي في محاربة إلحاد الاتحاديّة والبدع العملية).

(١) طبع هذا والذي قبله في كتاب واحد، بتحقيق الشيخ عبد الرحمٰن الوكيل.

(٢) كلامه في ذم ابن عربي في «السير» (٢٣/ ٤٨ ـ ٤٩، ٢٢٥)، «فتاوى ابن تيمية» (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١، ٢٤٤)، «تاريخ الإسلام» (١٤/ ٢٧٨)، «القول المنبي» للسخاوي (١٦٠)، وقال: «صحَّ عنه قطعًا».

(٣) كلامه في ذم ابن عربي في «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٤٤، ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، «تنبيه الغبي» (١٥٣)، «القلائد الجوهرية» (٢/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩).

(٤) له كراسة في تكفيره، نقلها السخاوي في «القول المنبي» (ص١٤٥)، وفرقها البقاعي في «تنبيه الغبي» (٥٢، ٦٤، ١٠٤، ١١٢ ـ ١١٤، ١٢٣، ١٥٩).

(٥) نعته بأبشع الألفاظ، مثل «الملحد الزنديق» و«إمام الضلالة»، كما تراه في «نقض المنطق» (١٤١)، «بيان تلبيس الجهمية» (٧/ ١٢١)، وله كثير من الفتاوى في تكفيره، انظر «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٣٥ ـ ١٣٦، ٢٠٠ ـ ٢٠١، ٢٤١ ـ ٢٤٢، ٣٦٤) و(٩/ ٢٨٤) و(١٨/ ٣٦٨)، «منهاج السنة النبوية» (١/ ٥٠٩) (٧/ ٢٩١)، «جامع المسائل» (٤/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥، ٤١٦)، «درء تعارض =

الخامس تلميذه الحافظ شمس الدين ابن القيم[(١)]، السادس الإمام أبو حيان الأندلسي[(٢)]، السابع الإمام تقي الدين السبكي[(٣)]، الثامن الإمام جمال الدين ابن هشام[(٤)] صاحب «المغني»، التاسع الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي[(٥)] مؤلِّف «تذكرة الحفاظ»، العاشر الإمام الحافظ تقي الدين الفاسي[(٦)] مؤلف «تاريخ مكة»، الحادي عشر إمام الصوفية في عصره أبو القاسم القشيري[(٧)]، الثاني عشر الإمام

= العقل والنقل» (١/ ١١، ٢٩٠، ٣١٨) و(٢/ ٢٥٢) و(٣/ ١٦٣) و(٥/ ٤) و(٦/ ٧٧، ١٥٢) و(٧/ ٢٦٠ ـ ٢٦١)، «الصفدية» (١/ ١٦٠، ٢٣١، ٢٤٥ ـ ٢٤٧، ٢٤٩) و(٢/ ٣٣٨)، وغيرها كثير.

(١) انظر كلامه في ذم ابن عربي: «إغاثة اللهفان» (١/ ٦٥٣)، «الصواعق المرسلة» (٣/ ١٠٨٥ ـ ١٠٨٦، ١١٥٥ ـ ١١٥٧) و«مختصرها» (٢/ ٤٤٣ ـ ٤٤٥) و(٤/ ١٣٠٣)، «مدارج السالكين» (١/ ٦٠ ـ ٦١ و٣/ ٥١٩) وله في «الكافية الشافية» الأبيات (٢٦١ ـ ٣١٢) عقد مجلس التحكيم، كلام مهم عنه.

(٢) انظر كلامه في ذم ابن عربي في «البحر المحيط» (٣/ ٤٤٩)، ونقل عنه ذلك: البقاعي في «تنبيه الغبي» (١٤٢ ـ ١٤٣) والسخاوي في «القول المنبي» (٢٧٦).

(٣) انظر كلامه في ذم ابن عربي في «العقد الثمين» (٢/ ١٨٧)، «مغني المحتاج» (٣/ ٦١)، «كشف الغطاء» (٢١٣)، «الرد على القائلين بوحدة الوجود» (١٣٥ ـ ١٣٦).

(٤) انظر كلامه في ذم ابن عربي في «تنبيه الغبي» (١٥٠)، «القول المنبي» (٣١٩).

(٥) انظر كلامه في «السير» (٢٣/ ٤٨)، «تاريخ الإسلام» (١٤/ ٥٢١ ـ ٥٢٢).

(٦) له رسالة سماها «تحذير النبيه والغبي من الافتتان بابن عربي»، اختصرها مما في «العقد الثمين» له ـ وهو «تاريخ مكة» ـ (٢/ ١٨٨ ـ ١٩٩)، وذكر منها تكفير العلماء له، وأورد منهم أكثر من عشرين عالمًا، وأفردها ـ قديمًا ـ أخونا فضيلة الشيخ علي بن حسن الحلبي.

(٧) اسمه عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري، متوفي سنة (٤٦٥)، ولم يدرك ابن عربي المولود سنة ٥٦٠ المتوفى سنة ٦٣٨هـ، والذي أورده البقاعي في «تحذير العباد» (ص٢١٤) هو تكفير القشيري لمن يقول بوحدة الوجود دون أن يسمي ابن عربي.

السَّهْرَوَرْدِي[1] مؤلِّف «عوارف المعارف»، فأيُّ امرئ عنده ذرة من الإيمان والنصيحة لنفسه وللمسلمين يخالف هؤلاء الأئمة ويقدس الشيخ الأشدّ كُفْرًا[2] ابن عربي الحاتمي وشيعته؟! لا جرم أنه لا يفعل ذلك إلا زنديق مثلهم. ولا يجوز التوقف في الحكم عليهم، قال الإمام البقاعي في كتابه «تحذير العباد»[3] المتقدّم الذكر ما نصه: «ولا يسع أحدًا أن يقول: أنا واقف أو ساكت لا أثبت ولا أنفي لأن ذلك يقتضي الكفر، لأن الكافر من أنكر ما علم من الدين بالضرورة ومن شك في كفر مثل هذا كفر، ولهذا قال ابن المقرئ في «مختصر الروضة»: من شك في اليهود والنصارى وطائفة ابن عربي فهو كافر».

الحدث الثاني في تطوان ونواحيها

وضعت حاشية[4] على كتاب «كشف الشبهات» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وطبعتها ونشرتها، ولكنني استعملت في ذكر اسمه ما يسمى في مصطلح الحديث بتدليس الشيوخ[5]، وهو جائز بل مستحسن إذا أريد به الإصلاح، وذلك أن الشيخ يكون له اسمان اشتهر

(١) هو عمر بن محمد بن عبد الله، المتوفى سنة ٦٣٢، وكلامه في (الباب الحادي والستين) من «عوارف المعارف» (٢/ ٣٠١ ط المعارف) في تكفير من يقول بالوحدة، ولم يسمِّ ابن عربي، وهذا الذي نقله البقاعي في «تحذير العباد» (٢١٤).

(٢) في الطبعة الأولى: «ويقدس الشيخ الأكفر» قال (خ): بالفاء كما ترى.

(٣) (ص٢٢٥ ـ ٢٢٦).

(٤) هذه الحواشي عن نقول من «تفسير ابن كثير» ولا زائد. (خ)

(٥) عرفه في كتابه «قبس من أنوار الوحي» (٦٧) بقوله: «هو أن يروي عن شيخ لا يريد التصريح باسمه؛ لغرض من الأغراض فيسميه باسم لا يعرف به، حتى يتوهم من يرى ذلك الإسناد أنه شخص آخر».

بأحدهما ولم يشتهر بالآخر، فيذكره الراوي عنه بالاسم الذي لم يشتهر به لمصلحة في ذلك، أما إذا فعل ذلك ليوهمَ الناسَ علوَّ سندهِ وترفُّعه عن الرواية عنه ليوهم الناس أنه لا يتنزل للرواية عن مثله لصِغَر سنِّه أو عدم شهرته وغير ذلك من حظوظ النفس الأمارة فهو مذموم، وقد سميت الشيخ محمد عبد الوهاب بن سليمان الدرعي فنسبته إلى جده ثم نسبته إلى الدرعية[(١)]، وذلك حق فهي بلدته ولكن لم يشتهر بذلك، وزاد الأمر غموضًا أن في المغرب كورة تسمي (درعة) والنسبة إليها درعي، فنجحتُ فيما قصدتُه من ترويج الكتاب، فقد طبعت ألف نسخة فبيعت في وقت قصير، ولم يتفطَّن أحدٌ لذلك حتى الشيخ أحمد بن الصِّديق مع سعة اطلاعه وعلوِّ همَّته في البحث وكثرة ما في خزائنه من الكتب بقي في حيرة لأنه بحث في تاريخ المنسوبين إلى (درعة) فلم يجد أحدًا منهم يسمى بذلك ولا أثر عنه هذا الكتاب، فبعث إليَّ يسألني عن هذا المؤلف من هو فأخبرته بالحقيقة، ولما اطَّلع العالم الأجلُّ مفتي المملكة العربية السعودية وشيخ شيوخها الشيخ محمد بن إبراهيم[(٢)] ـ رحمة الله عليه ـ

(١) كتب على غلافه «للعلامة محمد بن سليمان بن علي الدرعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعليه حواشٍ لأحد العلماء السلفيين»، ونشره عن المطبعة المهدية بتطوان سنة ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م، ونشر دعاية وإعلانًا له في مجلته «لسان الدين» السنة الثالثة، الجزء الرابع، جمادى الأولى ١٣٦٨هـ (ص٢٧).

(٢) ذكر معالي الشيخ إبراهيم بن محمد (ولد المترجم) أن من شيوخه وتلاميذه تقي الدين الهلالي، حيث التقى به الشيخ محمد بالحرم المكي، وأخذ كل منهما عن الآخر، أخذ الشيخ محمد علم العروض عن تقي الدين الهلالي، وأخذ الشيخ تقي الدين الهلالي عن الشيخ محمد في التوحيد، فكل منهما شيخ وتلميذ للآخر، يجلس أحدهما طالبًا والآخر شيخًا، ثم يجلس الشيخ طالبًا، والطالب شيخًا، فرحمهما الله تعالى.

أفاده الشيخان صالح بن عبد الرحمٰن الأطرم وعبد الله العمار في كتاب «حياة =

على هذا العمل استحسنه كل الاستحسان. **وإنما فعلت ذلك لأنَّ المتأخِّرين من رجال الدولة العثمانية حرَّضوا شرار العلماء في جميع البلاد الإسلامية على تشويه سمعة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكذبوا عليه، وأوهموا أتباعهم أنه جاء بدين جديد، وأنه يتنقص جانب النبيِّ الكريم ويكفِّر المسلمين، إلى غير ذلك من الأكاذيب**. وقد تبين لأكثر الناس بطلان تلك الدعوى وعلموا علم اليقين أن محمد بن عبد الوهاب من كبار المصلحين الذين فتح الله بدعوتهم عيونًا عميًا وآذانًا صمًّا، وأنه أحيا العمل بكتاب الله وسنة رسوله في جزيرة العرب بعدما كاد يندثر. وإلى الآن لا يزال بعض الغربان ينعقون بسبِّه كالغراب الذي تقدم ذكره، وذلك لا يضره؛ إن كانوا مسلمين فإنَّ سبَّهم له يجعل حسناتهم في صحيفته، وإنْ كانوا مشركين فإن الله يزيدهم عذابًا.

ولما طبع هذا الكتاب غضب عباد القبور وأصحاب الطرائق، وخطبَ كثير من أئمة المساجد خطبة الجمعة ونبَّهوا المستمعين إلى ما في هذا الكتاب من الضلال بزعمهم، لأن توحيد الله عندهم أعظم الضلال، ولكن لم يستمع لهم أحد، أما العلماء المحققون، كالأستاذ محمد الطنجي(١) والأستاذ المجاهد عبد السلام المرابط والأستاذ العبقري عبد الله كنون(٢)

= الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وآثاره» (ص٧٢).

(١) مضت ترجمته.

(٢) هو عبد الله بن عبد الصمد بن التهامي كنون ـ تلفظ بالكاف الفارسية المنعقدة ـ علامة، باحث، من الوزراء، ولد في فاس، وقرأ على والده، وانتقل معه إلى طنجة على نية الهجرة إلى المدينة المنورة أو الشام فمنعتهما الحرب العالمية الأولى؛ فاضطرت الأسرة للبقاء فيها، وتوطنتها؛ فقرأ عبد الله على علمائها. ومارس التدريس والكتابة في الصحف صغيرًا، وأنشأ علاقات ودية مع الأعلام في مختلف البلاد وراسلهم؛ فتوسعت معلوماته، وجمع مكتبة قل نظيرها عند كبار أهل العلم، وفي عام ١٩٣٩ منحته جامعة مدريد دكتوراه شرف في =

= الآداب، ودعته الحكومة الإسبانية لزيارة بلادها ضيفًا لصدور كتابه «النبوغ المغربي» بالترجمة الإسبانية، في حين مُنع الكتاب في منطقة الحماية الفرنسية بقرار عسكري.

هرب لاجئًا إلى تطوان خوفًا من الفرنسيين لاحتجاجه على إقصاء الملك محمد الخامس؛ فعينته حكومة الحماية الإسبانية مديرًا لمعهد مولاي الحسن للأبحاث؛ فوزيرًا للعدل، ولما عاد الملك كلفه بمنصب والي طنجة تقديرًا لمواقفه، وترأس تحرير صحيفة «الميثاق» لسان حال رابطة علماء المغرب حتى وفاته.

انتخب عضوًا في مجامع اللغة العربية بدمشق وبغداد والقاهرة، ومجمع البحوث الإسلامية بمصر، ورابطة العالم الإسلامي.

مؤلفاته كثيرة، منها ـ بالإضافة إلى ما ذكر ـ: «الجيش المجلب على المدهش المطرب» (خ)، «فضيحة المبشرين»، «مفاهيم إسلامية»، «ذكريات مشاهير رجال المغرب»، «أزهار برية»، «شرح مقصورة المكودي»، «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث»، «شرح الأرجوزة المعروفة بالمشمقمقية»، «أدب الفقهاء»، «على درب الإسلام»، «الإسلام أهدى»، «إسلام رائد»، «أمراؤنا الشعراء»، «ترتيب أحاديث الشهاب لابن الحسن القلعي»، «التعاشيب»، «تفسير سور المفصل من القرآن الكريم»، «التيسير في صناعة التفسير»، «جولات في الفكر الإسلامي»، «الرد القرآني على كتيب: هل يمكن الاعتقاد بالقرآن»، «رسائل سعدية»، «عجالة المبتدي وفضالة المنتهي» في النسب للهمداني (تحقيق)، «على درب الإسلام»، وغير ذلك.

وله شعر حمل فيه على المستعمر، ودعا لمحاربته، وأجاب داعي الله بمنزله في القصبة بمهاجره مدينة طنجة صباح الأحد **٥** ذي الحجة عام **١٤٠٩**هـ، ودُفِن بمقبرة المجاهدين بعد صلاة ظهر يوم الاثنين.

ولعدنان الخطيب: «عبد الله كنون سبعون عامًا من الجهاد المتواصل في خدمة الإسلام والعروبة»، ولعبد القادر الإدريسي «عبد الله كنون وموقعه في الفكر الإسلامي السياسي الحديث»، وله ترجمة جيدة في «إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين» (ص٤٠٢ ـ ٤٠٨) ـ وهو مطبوع بتقديمه ـ، وفي «الحركة العلمية والثقافية بتطوان من الحماية إلى الاستقلال» (٢/ ٦٥٥ ـ ٦٦١). =

فإنهم رحبوا بطبع هذا الكتاب وأثنوا عليه وعلى مؤلِّفه وناشره، ولا يضر السحاب نبح الكلاب.

مَا ضَرَّ بَدْرُ السَّمَا في الأُفْقِ تَنْبَحُهُ   سُوْدُ الْكِلَابِ وَقَدْ مَشَى عَلَى مَهَلٍ

ثم طبعتُ رسالة زيارة القبور مع حواشٍ قليلة لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية وسميته أحمد بن عبد الحليم الحراني، ولم أذكر لفظ ابن تيمية للعلة السابقة الذكر، فراج الكتاب وانتشر ونفع الله به المسلمين، ولما بعثت من كل من الكتابين نسخة إلى الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمة الله عليه ـ فرح بنشرهما واستحسن الطريقة التي سلكتها لبعد نظره ووفور عقله وحكمته.

وقد جربت في بلاد المغرب في الشمال والجنوب أن نشر كتب التوحيد واتباع السنة يتوقف على نجاح الدعوة إلى الله في المساجد، فإذا درَّس الداعي كتابًا من كتب التوحيد وبيَّن للمستمعين ما فيه من كنوز العلم والحكمة؛ يرغب المستمعون في اقتناء ذلك الكتاب، وبقراءته تتّسع معرفتهم للحق ويزدادون اطمئنانًا ويقوى إيمانهم وتندفع عنهم الشبهات[(١)].

فمن ذلك: أنني درست في الجامع الكبير[(٢)] كتاب «فتح المجيد

= وسيأتي ذكره لاحقًا، وللهلالي به صلة، وله في كتبه ذكر منتشر، وهو الذي تولى رئاسة تحرير مجلة «لسان الدين» التي أسسها الهلالي، وذلك بعد سفره للعراق.

(١) هذه لفتة تربوية وعلمية مهمة من الهلالي، فعلى طلبة الحق من أهل العلم ـ مدرسين وطلبة ـ أن يولي المسائل التي يقع فيها خلاف بينهم بالبحث والتدريس، وأن يسيروا على مهيع العلماء، في تحويل (المشاكل) إلى (مسائل)، وتحاكم بالأدلة، لا العكس فتصبح (المسائل) (مشاكلًا)، ولا يصنع هذا إلا المحرومون، فاحذر!

(٢) بمكناس. (خ)

شرح كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب» وختمته في ذلك المسجد مرتين، فانتشر هذا الكتاب انتشارًا عظيمًا حتى أنّي طلبتُ من جلالة الملك فيصل جزاه الله عنا وعن المسلمين أحسن الجزاء، بواسطة فضيلة الشيخ عبد الملك بن إبراهيم بارك الله في حياته، أن يمدَّني بنسخ من «فتح المجيد»[(١)]، فأمر بإرسال ثلاث مئة وثلاث وأربعين نسخة بالبريد الجوي، فبدا لي أن لا أوزّعها مجانًا لأمرين:

أحدهما: أنني لا آمن أن تقع بعض النسخ في أيدي أعداء التوحيد فيحرقوها، وقد رأيناهم يفعلون ذلك في المشرق والمغرب، فإذا فرضنا أن شخصًا أو أشخاصًا بلغ بهم التعصب إلى أن يشتروا الكتاب ويحرقوه فإن ذلك لا يضرنا، لأننا نجمع دراهمه ونطبعه مرة أخرى، ولا شك أنه لا يفعل ذلك منهم إلا قليل، لأن الناس مجبولون

---

(١) للهلالي حرص وعناية على نشر التوحيد وتعليمه، ومن مظاهر ذلك نشر كتبه، ومنها «فتح المجيد»، وظفرت بعدة رسائل تخص ذلك، منها:

١ ـ رسالة من العلامة ابن باز إلى البحاثة زهير الشاويش، بتأريخ (١/ ١١ ١٣٩١هـ)، وفيها: «أرجو احتساب الأجر في إرسال النسخ التي عندكم من «فتح المجيد» وعددها ثلاث مئة وخمسة وستون نسخة على العنوان التالي (المغرب/ الحاج أحمد المغراوي)... وذلك من أجل توزيعها على الطريقة التي اتفق عليها الدكتور تقي الدين الهلالي مع أحمد المذكور، تولاكم الله، والسلام».

٢ ـ رسالة من الحاج أحمد المغراوي إلى العلامة زهير الشاويش.

٣ ـ رسالة من فضيلة الشيخ محمد نصيف إلى الشيخ علي الصالحي، مؤرخة في ١٣ محرم سنة ١٣٨١. وفيهما ذكر للهلالي.

وأرسل لي هذه الرسائل الثلاث الشيخ زهير الشاويش ـ رحمة الله عليه ـ وهي مثبتة في كتابي «رسائل الهلالي» (١٢٥٠ ـ ١٢٥٢).

على حب المال والبخل به، ولا يبذلونه إلا فيما هو أحب منه إليهم.

الأمر الثاني: ما قاله المؤلف الإنكليزي الطائر الصيت (برنارد شو) أن الكتاب الذي لا يدفع ثمنه لا يُقرأ.

فبيعت تلك النسخ كلها إلا قليلًا منها منحته للمستحقِّين ولم آخذ منهم لعلمي بفقرهم وصدقهم. بيعت في مدة قصيرة، وصار الكتاب في حكم المفقود، وكنت أبيع النسخة بستة دراهم فقط، ولم يكن يروج إلا في البلدان التي تلقى فيها دروس التوحيد كمكناس وتطوان وأرفود، أما مكناس وأرفود فإنني ألقي فيهما دروسًا في التوحيد، وأما تطوان فقد تقدم أني دعوتُ إلى التوحيد فيها، وفي هذا الزمان يوجد فيها داعٍ وهو أخي الأستاذ محمد العربي الهلالي، وصار الناس في هذه النواحي يبحثون عن هذا الكتاب ليشتروه بضعف ثمنه فلم يجدوا منه شيئًا، ولما ذكرت ذلك لصاحب السماحة الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ أمتع الله المسلمين بطول بقائه ـ وأخبرته أنني جمعت من بيع تلك النسخ ألفًا وثمان مئة وخمسين ريالًا سعوديًّا قال لي: وأنا أتبرع بست مئة ريال تضاف إلى ذلك ونشترك في طبعه من جديد. والكتاب الآن تحت الطبع، وذكرت ذلك أيضًا للعالم الجليل بقية السلف الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ ـ أمتع الله المسلمين بطول بقائه ـ فوعدني بتحصيل ألف نسخة، وهو كريم لا شك أنه يفي بوعده.

وهذا الكتاب ـ مع وجود الداعي الناجح في دعوته ـ يساعد على نشر الدعوة مساعدة عظيمة لا ينقضي منها العجب. أما البلد الذي ليس فيه داع فإنه لا يروج فيه أصلًا، فقد بعثت خمس نسخ إلى مدينة مشهورة في المغرب فبيع منها في سنة ثلاث نسخ فقط!

الحدث الثالث
هَمٌّ جماعة من الناس بقتلي

وهذا الحدث فيه عبرة لمن اعتبر. فإني أُصبتُ بداء الربو في تطوان واشتد عليّ، ففرح المشركون عُبَّادُ القبور وأصحابُ الطرائق وقالوا: إنَّ الوليَّ الأكبر رئيس الأولياء في تطوان واسمه (السعيدي) ـ وله ضريح عليه قُبَّة يعبده كثير من الناس، وإذا قحطوا يذهبون إليه ويسألونه المطر ويوافقهم سفهاؤهم الذين يسمونهم فقهاء ـ [هو الذي أصابني بذلك المرض لأني أنكرت عليهم عبادته بالذبح والنذر والاستغاثة][(١)].

فبينما أنا مريض ملازم للفراش في بيت منفرد خارج تطوان وزجاج طاقته مكسور، فمن أراد أن يرميني برصاصة لا يحتاج إلا إلى حَجَر واحد يضعه إلى جانب الجدار فيطل علي ويرميني، بينما أنا كذلك جاءني أحد تلامذتي ـ وهو السيد محمد العبودي[(٢)] ـ فقال لي: إن فلانًا[(٣)] جاءني وقال لي: إنه هو وأمير قبيلة بني عروس وجماعة معهم وعدد الجميع خمسة وعشرون رجلًا قد اجتمعوا في بيت أحدهم وتعاهدوا على قتلك، وجمعوا الدية حتى إذا كان لك ورثة يدفعونها لهم، وقال لي: إن صاحبكم في حكم الأموات فعما قريب نقتله ونريح الناس من شره، لأن الوقاحة بلغت به إلى أن طعن في جدنا القطب عبد السلام بن

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل، وأثبتُّه من كلام الهلالي (ص٢٣٤).

(٢) في «الديوان» (٢٠٤) الذي جاءه هو عبد السلام المؤذِّن في وقت غروب الشمس، والحفظ يخون.

(٣) هو أحمد السعيدي، أفاده في «الديوان» (٢٠٣)، قال: «والذي تولَّى كبر هذه المؤامرة هو المدعو أحمد السعيدي صهر السيد خالد الريسوني. وهو الذي ذهب إلى تلميذي السيد عبد السلام المؤذن، وقال له: إنّ أستاذك قد قضي أمره. قال له: وكيف ذلك؟ قال: اتفقنا على قتله، فعُدَّه من الآن من الأموات».

مشيش[1]، قال لي ذلك وأنا مريض ملازم للفراش كما تقدم فقلت: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

ولما أصبحت تحمَّلتُ كُلفةَ المشي إلى الزعيم عبد الخالق الطُّرَيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأخبرته الخبر، فقال لي: إن هذا الرجل ومن معه هم أتباع وأقارب خالد الريسوني أمير العرائش وقد أطلق المستعمرون يده يفعل ما يشاء[2]، ففوّض أمرك إلى الله وتوكّل عليه، فقلتُ له: هذا هو الرأي الذي عزمت عليه وإنما قصدتُ إخبارك.

ومضت على ذلك سنتان وأنا أقاسي ألم الربو وأبيت الليالي الطوال جالسًا أسعل وألهث، وكلما اشتدَّت نوبة الربو تخور عزيمتي وأقرر في نفسي أنني متى أقلعت عني هذه النوبة أذهب إلى القنصل الفرنسي وأستسلم وأطلب العفو، لأني أعلم بواسطة الأطباء أن دوائي هو الهواء الناشف، والأراضي الشمالية التي بأيدي الإسبانيين كلها رطبة قريبة من البحر الذي كان يسمى بحر الروم، ويسمى الآن عند الأوروبيين ومن تبعهم بما معناه البحر الأبيض المتوسط، وهو الذي عليه مراسي شمال المغرب والجزائر وتونس وطرابلس ـ التي تسمى اليوم ليبيا ـ والإسكندرية وبيروت ومراسي أوروبا والبلاد التركية، فأعرض مكان في هذا القسم من

---

(١) انظر ترجمته في «المطرب بمشاهير أولياء المغرب» (ص٩٠ ـ ١٠٦). ومن فوائد الهلالي في (رسالته الثالثة) للسيد علي بن أحمد الريسوني قوله: «واعلم أن لفظة (مولاي) لم تكن موجودة في زمان الشيخ عبد السلام بن مشيش، وإنما أحدثها المنصور الذهبي من ملوك الدولة السعدية، وهي من البدع القبيحة التي يراد بها التكبر وحب العلو، وتقسيم المسلمين والتفريق بينهم».

(٢) عبارته في «الديوان» (٢٠٤): «لو ذهبتَ تشتكي لا تجد إلا الإسبانيين، والإسبانيون مفوّضون له، لا يعارضونه بوجه، ففوّض أمرك إلى الله».

المغرب لا يزيد عرضه على ثلاثين[1] ميلًا وهو مستطيل من الغرب إلى الشرق، ولكني حين تزول عني نوبة الربو تعود إلي شجاعتي وتجلدي. بقيتُ على ذلك ثلاث سنين ونصفًا إلى أن يسَّر الله لي الرجوع إلى العراق ولم أستسلم، وتقدمتْ محاورتي مع القنصل الفرنسي في تطوان، وقد فررت من الرطوبة إلى غرناطة من بلاد الأندلس وأقمت فيها أربعة أشهر[2]، ولكنها هي أيضًا ليست بعيدة من البحر.

ثم رجعت إلى تطوان، وقيل لي إن مدينة شفشاون على جبل عالٍ ثم إنها بعيدة من البحر نحو خمسة عشر ميلًا[3] فلو جرّبتَ الإقامة بها، فسافرت إليها يرافقني تلميذي الحاج أحمد هارون[4] بارك الله فيه، فلما أردنا أن نأخذ غرفة في الفندق الجميل المخصص للسائحين امتنع صاحبه ـ وهو نصراني إسباني ـ أن يعطينا غرفة لما رآني أسعل وألهث وأبصق

(١) في «الديوان» (١٨١): «لا يزيد عرضها على (٥٠) كيلو مترًا في أوسع النواحي، وكان دوائي أن أُقيم في الصحراء حيث الهواء الجاف، لكن لسان الحالي ينشد:

فيا دَارَها بالخِيف إنّ مزارها قريبٌ ولكنْ دونَ ذلك أهوال»

وليس لأبي العلاء المعري، وله قصة انظرها في «الأنساب» (٣/ ٧١ ـ ٧٢) و«الأذكياء» (٢٥٣).

(٢) يسر الله للهلالي في هذه المدة ترجمة كتاب جوزيف كيب «مدنية العرب في الأندلس»، وانظر عن سبب ذلك ومجريات ما حصل له في غرناطة كتابه «التقدم والرجعية» (ص١ ـ ٩).

(٣) في «الديوان» (١٨١): «تبعد من البحر ثلاثين كيلو مترًا، . . . وأقمتُ خمسة أشهر فيها».

(٤) كان أكثر الناس خدمةً للهلالي، وألصق الناس به، و(سكرتيره) في مجلته «لسان الدين». وأفادني ـ رحمه الله تعالى ـ كثيرًا في مشروعي عن الهلالي، وأرسل لي كثيرًا من المراسلات المتبادلة بينهما، وانظر لها كتابي «مراسلات الهلالي» (٤/ ١٧٤١ ـ ١٧٤٢/ الفهارس).

في كل حين، ورأى أن ذلك يتقزز منه النازلون في الفندق وكلهم من المترفين، فبقيت في مكتب الفندق جالسًا على كرسي أفكر أين أنزل، فجاءني رجل أبيض أشيب تدل هيئته على أنه من أعيان البلد، فقال لي: تعرفني؟ قلت: لا. فقال لي: أنا أحمد الريسوني[١]، وأنا من المحبّين لك، وأنا مستعدٌّ لإنزالك في بيتي على الرحب والسعة، وسأكون سعيدًا بإقامتك عندي ما شئتَ من الزَّمن، ولكن الحكومة سنَّت قانونًا يمنعنا من إنزال الضيوف عندنا في الليلة الأولى، ويوجد هنا فندق حقير يمكن أن تمضي فيه هذه الليلة وفي الغد تنزل في بيتي. فقلت له: جزاك الله خيرًا، فأمضيتُ تلك الليلة في ذلك الفندق الذي أخبرني به، ثم نزلت عنده وبقيت عنده بضعة أشهر وأكرمني غاية الإكرام.

وحين استقررتُ في بيته حكى لي حكاية المؤامرة على قتلي بالتفصيل، فقال لي: بلغنا أنك تطعن في كرامات الأولياء وولايتهم وتطعن بالخصوص في جدنا مولاي عبد السلام بن مشيش، فغضبنا لذلك وعزمنا على قتلك وجمعنا ديتك أنا وفلان وأمير بني عروس ومعنا اثنان وعشرون رجلًا، ولم يبق لنا إلا أن نشاور رئيسنا سيدي خالد الريسوني، فذهبنا إليه ثلاثتنا وتكلم أمير بني عروس وهو يبكي وقال: يا ابن العم لا خير في الحياة بعد أن نسمع القدح والطعون في شيخ الشيوخ وإمام العارفين جدنا عبد السلام بن مشيش، والذي يطعن فيه وينتهك حرمته رجل غريب حقير وهو فلان ـ وسمَّاني ـ وقد عزمنا على قتله وجمعنا ديته

---

(١) ليس الشيخ عبد السلام جد الريسونيين. (خ)
قلت: ووجدت بخط الشيخ بوخبزة في حواشي «الديوان» (٢٠٤): «ابن الأمين الريسوني ناظر الأحباس في شفشاون». وعبد السلام أصله من الأدارسة والريسونيون علميون. (ع)

وما بقي لنا إلا إذنك، فأيدتُ أنا وفلان كلامه، وإذا بالأمير خالد يتكلم ويقول: إن محمدًا تقي الدين الهلالي عالم من خيرة العلماء وأنتم لا تعرفونه وأنا أعرفه، وجدُّنا عبد السلام عالم، فاتركوا العلماء إذا تكلموا بعضهم في بعض، فليس للجُهَّال أن يتعرضوا لهم. ثم قال لنا: أيُّكم سمع طعنه في جدِّنا؟ فقلنا: هذا متواتر على ألسنة الناس، فقال: الناس يكذبون ويفسدون في الأرض ولا يصلحون. كل منكم ينصرف إلى شأنه واتركوا هذا الأمر فهذا ليس من شأنكم.

قال: فأما أمير بني عروس فقد رضي بقوله ولم يبق في قلبه شيء، وقال: يا بن عمي! أنت عالم ونحن جهال إذا أخطأنا تردنا إلى الصواب. قال: أما أنا وفلان ـ ولم أسمه[1] لأنه حي يرزق ولم يبلغني ندمه على ذلك ـ فإننا لم نقتنع بما قاله لنا سيدي خالد، ولكننا لا نستطيع أن نعمل شيئًا بدون رضاه، قال: فتفرقنا فانطلق فلان إلى أهله، وتوجهت أنا إلى تطوان لا ألوي على شيء حتى لقيت وزير الأوقاف محمد بن موسى، فقلت: أيها الوزير! أما تخاف الله كيف تعطي من أوقاف المسلمين خمس مئة بسيطة لهذا الضال المضلِّ الهلالي الذي ما ترك أحدًا إلا طعن فيه؟! طعن في مذهب الإمام مالك ورجاله، وطعن في الأولياء كلهم، وأنكر كراماتهم، وبلغت به الوقاحة إلى أن طعن في جدِّنا القطب عبد السلام بن مشيش! قال: فقال لي الوزير: أنتَ سمعتَ منه ما ذكرت؟ قلت: لا ولكنه خبر متواتر. قال لي: لا ينبغي لنا أن نحكم بقيل، وقال: إنه يلقي ثلاثة دروس في كل أسبوع، فماذا يضرك أن تحضر دروسه وتسمع كلامه. قال: فقلت: أفعل إن شاء الله.

قال: وأقمت أسبوعًا في تطوان حضرتُ دروسَك فيه، فما سمعت

(١) سماه في «الديوان» (٢٠٥): «أحمد السَّعيدي».

إلا خيرًا، وندمتُ على ما كان مني. وقد مضت عليَّ سنتان طالما هممتُ أن آتيك وأطلب منك العفو فلم أوفق، إلى أن سنحت لي هذه الفرصة السعيدة، فحياك الله وأهلًا وسهلًا بك.

ووجدت أن هواء شفشاون خصوصًا في الصيف أقل ضررًا من هواء تطوان، فبقيتُ فيها خمسة أشهر إلى أن حدثت الحادثة الآتي ذكرها إن شاء الله.

معركة مع شيخ متصوف من أهل تطوان

كان هذا الشيخ ـ ولا أسميه[1] ـ كأكثر متصوفة الوقت آلةً بيد

(١) هو الفقيه الحاج أحمد الرهوني. (خ). وعرَّف به في تعليقة له وجدتُها على «الديوان» (٦٣٨) بقوله: «كان قاضيًا، ثم وزيرًا للعدل، ثم رئيس المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي، ومات فقيرًا يدور على معارفه يتكففهم، وكان تجانيًّا خرافيًّا غاليًا».
قال أبو عبيدة: هذه ترجمته:
هو أحمد بن محمد الرهوني، كانت ولادته عام ثمانية وثمانين ومئتين وألف، نزيل مدينة تطوان، وشيخ الجماعة بها، العلامة المشارك المطالع المدرس الشهير، له عدَّة تآليف؛ أكبرها: «عمدة الراوين في أخبار تطاوين»، وله «رحلة إلى الحج»، وله «اختصار كتاب الاستقصا»، و«اختصار كتاب نفح الطيب»، وله «حادي الرفاق على لامية الزقاق»، و«شرح على مقدمة السنوسي الكبرى»، و«تحفة الإخوان بمختصر سيرة سيد الأكوان»، وله «شرح على المرشدة»، و«شرح على لامية ابن المجراد»، و«شرح على ألفية ابن مالك»؛ والكل مطبوع، إلى غير ذلك من التآليف، توفي في صباح يوم الثلاثاء خامس عشر ربيع الثاني سنة ١٣٧٣هـ، ودفن بعد صلاة العصر من يومه بالزاوية العيسوية بحومة العيون بتطوان، ترجمته في «إتحاف المطالع» (٢/ ٥٤٠).

المستعمرين يمدحهم ويثني عليهم، وقد ولوه وزارة العدل في وقت من الأوقات وجعلوه رئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى في وقت آخر، فضيَّفني أول ما قدمتُ تطوان وأملى عليّ الحديث المسلسل بالأولية[(١)] إلى سُفيان الثَّوري[(٢)] عن عمرو بن دِينار عن أبي قَابوس مولى عبد الله ابن عمرو عن عبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[(٣)] أخرجه جماعة منهم البخاري في

(١) هو حديث **صحيح**، وأرويه عن جماعة من مشايخي سماعًا وإجازة، وفصلتُ ذلك مع تخريجي للحديث في كتابي «معجم شيوخ شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني» (رقم ١٣٨).

(٢) بل هو ابن عيينة.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «المسند» (٢٧٠)، وابن وهب في «الجامع في الحديث» (١٤٦)، والحميدي في «المسند» (٥٩١) ـ وعنه البخاري في «التاريخ الكبير» (الكنى) (٩/ ٦٤) ـ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٣٣٨)، وأحمد في «المسند» (٢/ ١٦٠)؛ قالوا: حدثنا سفيان بن عيينة به.
وأخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)؛ من طريق سفيان به، **وإسناده ضعيف**.
أبو قابوس مجهول، لم يرو عنه سوى عمرو بن دينار، ذكره البخاري في «الضعفاء» وابن حبان في «الثقات» (٥/ ٥٨٨)، وقال الذهبي: «لا يُعرَف»، ومرةً: «وثق»، والتوثيق هذا يعني به توثيق ابن حبان، وهو مشهور بتوثيق المجاهيل، أو أن الذهبي اغتر بتصحيح الترمذي له على إثر روايته، والترمذي رحمه الله فيه تساهل، ولعل سبب تسامحه في التصحيح شهرة الحديث، والله أعلم.
انظر: «الكاشف» (٦٧٨٤)، و«المغني في الضعفاء» (٧٦٦٩)، و«التهذيب» (١٢/ ٢٢٣).
وقال الحافظ ابن حجر بعد روايته: «أبو قابوس لم يرو عنه سوى عمرو ابن دينار، ولا يعرف اسمه، وتابعه على بعض المتن حبان بن زيد عن =

= عبد الله بن عمرو. . .»، وساق إسناده إليه، وقال. . . فذكره بمعناه.
وهذه المتابعة أخرجها أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٥، ٢١٩) وغيره بلفظ: «**ارحموا تُرْحَموا، واغفروا يغفر الله لكم، ويل للأقماع القول، ويل للمصرِّين الذين يصرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون**».
وإسناده حسن.
قلت: وهي متابعة بالمعنى؛ فلا تقوي اللفظ المذكور، ومع هذا؛ فقد صحح طريق أبي قابوس جماعة كثر.
وله شاهد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ أخرجه الطيالسي (**٣٣٣**)، وأبو يعلى (**٥٠٦٣**) في «مسنديهما»؛ من طريق أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن ابن مسعود بلفظ: «**ارْحَمْ مَنْ في الأرضِ يَرْحَمُكَ مَنْ في السَّماءِ**». وإسناده **ضعيف منقطع.**
أبو إسحاق السبيعي مدلس واختلط، وقد عنعن. وأبو عبيدة عامر لم يسمع من أبيه.
وله شاهد آخر من حديث جرير بن عبد الله؛ أخرجه الطبراني في «الكبير» (**٢/ ٣٥٥/ ٢٤٩٧**) من طريق أبي إسحاق، عن أبي ظبيان عنه، ولفظه: «**من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه أهل السماء**».
وإسناده ضعيف؛ لعنعنة أبي إسحاق واختلاطه، ويؤيده أنه قد خالف فيه جمعًا ممن رواه بلفظ: «**من لا يرحم الناس لا يرحمه الله**».
أخرجه البخاري (**٦٠١٣، ٧٣٧٦**)، ومسلم (**٢٣١٩**).
قلت: وهو يغني عن الحديث المذكور.
وقال الحافظ ابن ناصر الدين في «مجالس ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾» (ص**٣٩٧**): «للحديث شاهد من حديث جماعة من الصحابة، منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي رضي الله عنهم».
وقال قبل ذلك في (ص**٣٧**): «وللحديث شاهد عن عدة من الصحابة، ذكرتهم في كتاب «نفحات الأخيار من مسلسلات الأخبار».
وقد جمع طرق هذا الحديث جماعات، من أشهرهم: الإمام الذهبي، والتقي السبكي، ومن قبلهما ابن الصلاح، ومنصور بن سُليم، وأبو القاسم السمرقندي في آخرين.

«الأدب المفرد»[1] وأبو داود، والترمذي وصححه.

وفعل ذلك طمعًا أن أرويه عنه، وأنا لا أروي شيئًا عن طَرَقِيٍّ، وهذا الشيخ المفتون تجَّاني، فنسأل الله العافية.

فلمَّا رآني جرَّدت السيفَ في الدعوة إلى التوحيد ومحاربة البدع ذمني في دروس وعظه[2]، فهجوته بثلاث قصائد ضاعت مني الأولى[3] ـ وهي التي أقضَّت مضْجَعَه ـ ومن عادتي إذا أردتُ أن أهجو أحدًا أن أبحث عن عيوبه التي يؤلمه نشرها وسماعها، فأنظمها في سلك القصيدة ولا أقتصر على الشتم المجرد، لأن ذلك لا يؤلم كثيرًا، ولا عبرة بقول من قال: أحسن الشعر أكذبه. بل أحسن الشعر أصدقه. وعدد أبيات هذه القصيدة ستة وعشرون[4]. وكان ساعدي الأيمن في نشر قصائد الهجو لمن يستحقه تلميذي البار الحاج أحمد هارون، فكان يطبع القصائد في آلة المعهد الحر، ويخرج منها نسخًا كثيرة يوزعها على الناس بإلقائها في دكاكينهم أو في جيوب ثيابهم المعلقة حين يتوضئون، وقد قامت هذه القصائد الهجائية اللاذعة لي مقام العشيرة والعصبة والمناظرين، وقرض

(١) غير موجود فيه، بل هو في «التاريخ الكبير»، كما سبق في التخريج.

(٢) في جامع العيون بتطوان، أفاده الهلالي في «ديوانه» (٤٠٨).

(٣) لعلها قصيدته (الرائية) من بحر الخفيف، وفيها يقول:

عبد الناسُ ربَّهم والرهوني ... لحيايا قد صار عبدًا حقيرًا

إلى أن يقول:

أبعلم حججتَ ويَحْكَ قُلْ لي ... أم بجهلٍ قد فُقْتَ فيه البعيرا. (خ)

وفي «الديوان» (٤٠٩): «الحميرا» بدل «البعيرا» و«ثمت» بدل «ويحك».

قال أبو عبيدة: القصيدة في «الديوان» (٤٠٨ ـ ٤١٠) للهلالي، وسماها (القزمية) في رسالة له لتلميذه أحمد هارون مؤرخة في ٢٦/محرم ١٣٦٥هـ ـ الموافق ٢ يناير ١٩٤٦م، انظرها في كتابي «مراسلات الهلالي» (١/ ٣٨٣).

(٤) عدد أبياتها في «الديوان»: (ثلاثة وعشرون) بيتًا.

الشعر أمر محمود إذا كان صاحبه لا يظلم الناس ولا يكذب في مدحهم وذمِّهم[١]. قال ابن الوردي في «لاميته»[٢]:

أَنْـظُـمُ الـشِّـعْـرَ وَلَازِمَ مَـذْهَـبِـي   اطِّرَاحُ الـرَّفْـدِ فـي الْـدُّنْـيَـا يُـجَـلْ
فَـهْـوَ عُـنْـوَانٌ عَـلَـى الْـفَـضْـلِ مَـا   أَحْـسَـن الْـشِّـعْـرَ إِذْ لَـمْ يُـبْـتَـذَلْ

وقال بعض العلماء ـ وأظنه محمدًا الأمير الصنعاني رحمة الله عليه ـ ما معناه: إن من أفضل ما يتحلَّى به العالم أن تكون عنده ملكة قرض الشعر ينتصر به على خصومه ويبيِّن به الحق.

والمخازي التي ذكرتها في القصيدة المذكورة أهمها قصة وقعت له مع شخص محتال ـ لا أسميه[٣] لأنه لا يزال في قيد الحياة ـ وكان ذلك الرجل شابًّا يحسن الاحتيال، فجاء إلى ذلك الشيخ المتصوف المفتون، وكان يعلم أنه يعتقد أن في كل زمان القطب الغوث الفرد الذي لا تتحرك ذرة في العالم إلا بإذنه، وهو المتصرِّف في السماوات والأرض وبه تقوم السماوات والأرض، وهو محل نظر الحقِّ من خلقه، وهو خليفته في خلقه، ولو غفل عن العالم طرفة عين لانْدَكَّ العالَمُ وصار عدمًا محضًا!! (انظر كتابي «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»[٤]) فجاء ذلك الرجل إلى الشيخ المذكور وادعى له أنه القطب، فافتتن به وأخذ يخدمه بنفسه، مع أن الخادم تجاوز السبعين والمخدوم في أوائل الشباب، وكانت عند الشيخ

---

(١) الشعر كلام، حسنه حسن، وقبيحه قبيح.

(٢) (ص٣٠).

(٣) هو محمد بن عبد السلام بولعيش الملقب (حيايا) (خ).
قلت: عُيِّنَ عدلًا وكاتبًا في المراقبة مع (بلدا)، كما امتهن السحر والشعوذة، كان الفقيه الرهوني يعتقد فيه الولاية والكرامات، كذلك الفقيه محمد الزواق أخو الفقيه أحمد الزواق. (خ)

(٤) انظره (ص٤٤).

ابنة استحسنها القطب الكاذب[1] فأمره أن يزوجه إياها فأحضر الشهود في الحين وزوَّجه بها وصار أهل المدينة يسخرون منه.

دنا وقت الحج.

السفر إلى مكة في لحظة

فقال الشيخ للقُطب: يا سيدي! سمعنا أن بعض الشيوخ يحج بطريق الخطوة بحيث يسافر إلى مكة بخطوة واحدة، فما رأيكم في ذلك؟ فقال: ذلك صحيح، وأنا من الذين يحجون على هذه الطريقة! فقال: يا سيدنا! وهل يمكنك أن تصحب معك أحدًا؟ فقال: كيف لا يمكن؟! كل شيء عند أولياء الله ممكن. قال: يا سيدي! فهل لك أن تحج بنا في هذه السنة؟ فقال: يكون ذلك. قال: أريد أن ترافقنا زوجتي أيضًا، فقال: لا بأس. وعند ذلك ازداد الشيخ تعظيمًا لهذا المحتال، وبالغ في عبادته هو وأهل بيته، ولما جاء يوم عرفة اغتسل الشيخ وزوجته ولبسا ثياب الإحرام، وبقيا ينتظران القطب يأخذ بأيديهما ويطير بهما إلى مكة، إلى أن كادت الشمس تغرب، فعيل صبر الشيخ وقال: يا سيدي! إن الفقهاء يقولون لا بدَّ من الوقوف بعرفة قبل غروب الشمس، وقد كادت الشمس تغرب. فقال: بسم الله، قوما. فصعد بهما إلى السطح.

ومن عادة أهل تطوان أن يجعلوا في كل سطح جلاء، وهذا الجلاء يكون على قدر ما تدخل الشمس والنور والهواء، ويكون مربعًا، في كل ركن من أركانه تبنى سارية قصيرة، ويوضع على السواري سقف، فيدخل النور والهواء إلى أسفل من أربع جهات ولا يدخل المطر، فذهب القطب

(١) ليس كذلك، فالذي زوج ابنته لـ (حيايا)، هو الفقيه محمد الزواقي لا الرهوني. (خ)

يتقدَّمهما حتى وقف على الجلاء، وقال: أأنتما أعميان؟! ألا تنظران هذه الكعبة؟! فهلم نطوف بها. فطافوا بذلك الجلاء سبعة أشواط، ولكن الشيخ لم ير كسوة الكعبة ولا الحجر ولا مقام إبراهيم ولا زمزم، ولا أحد يطوف بتلك الكعبة، ولكنه لم يستطع أن يتكلم تعظيمًا للقطب.

ولما سمع أهل تطوان بهذا الحج المبرور ازدادوا سخرية وصار الناس لا يتحدثون ويتفكهون إلا بهذه الحكاية، فجاء أصدقاء الشيخ وأخبروه بأنه صار مضغة في الأفواه وأن هذا الشاب قد جعله أضحوكة، ونصحوا له بطرده فطرده وأجبره على تطليق ابنته(١).

ولما شاعت القصيدة عند الناس بلغه خبرها، وكان في ذلك الوقت مشرفًا على التعليم الديني ورئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى، فبلغه أن نسخة من القصيدة في مكتب مدير المعارف، فأمر بإحضارها، فكذبوا عليه، وقالوا: ما عندنا شيء. فبعث خادمه إلى فضيلة الأستاذ محمد الطنجي رئيس قسم الوعظ والإرشاد في وزارة الأوقاف المغربية في الوقت الحاضر، وكان في ذلك الوقت تاجرًا، لأن الاستعمار حرمه من جميع المناصب العلمية، فقال له: يسلّم عليك الشيخ ويطلب منك نسخة من القصيدة التي هجاه بها الهلالي، وهذه ست عشرة بسيطة. مع أن القصيدة في صحيفة واحدة لا تساوي ربع بسيطة، فقال له الأستاذ المذكور: سلم عليه وقل له: ما عندي منها شيء.

والقصيدة الثانية(٢) فيها إقذاع ضربت عنها صفحًا، أما

---

(١) هذا غير صحيح، بل ذلك وقع مع الفقيه محمد الزواقي. (خ)

(٢) لعلها التي مطلعها:

يا قوم إن الرهوني حليف خِزْيٍ وهُونِ
[يا ويله من شُيَيْخٍ] يدبُّ كالحَيْزَبُونِ. (خ) =

الثالثة[1] فقد كانت ـ بإذن الله الذي وعد رسله وأتباعهم بالفتح والنصر المبين ـ كانت مقرونة بالقضاء على هذا الشيخ.

عزل الشيخ المتصوف الذي حج على سطح بيته من جميع المناصب العلمية والدينية

كنتُ قد سمَّيتُ القصائد الثلاث بأسماء مطابقة لحوادث ذلك الزمان، ففي ذلك الزمان كان الجرمانيون في أوج عزَّتهم، وكانوا قد اخترعوا القنبلة الموسومة برقم (١) ثم القنبلة الموسومة برقم (٢) ثم القنبلة الموسومة برقم (٣)، وكانت هذه القنبلة الأخيرة ترسل من البلاد الجرمانية إلى مبنى بعينه في لندن عاصمة بريطانيا، فتصله في بضع دقائق وتدمِّره في أسرع من طرفة عين، وقد سمعت رجلًا يتحدث في إذاعة لندن من الذين نجوا من الموت بعدما أرسلت قنبلة رقم (٣) على المبنى الذي كان يسكن فيه فدمرته في لحظة، قال الرجل: كنتُ نائمًا في غرفتي فما شعرت إلا وأنا في المستشفى، لأن رجال الإسعاف أخرجوني من تحت الأنقاض مغمًى عليّ وأسعفوني بالعلاج. سمعت ذلك من إذاعة لندن باللغة الإنكليزية.

وبإلهام من الله تعالى سميت القصائد الثلاث بالأسماء المذكورة، فكانت القنبلة ذات رقم (٣) كما أمَّلتُ مقرونة بالكارثة التي أصابت هذا الشيخ، قال تعالى: ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

= وما بين معقوفين من إضافتي، والقصيدة في (ستة وثلاثين) بيتًا وهي في «الديوان» (٦٣٨ ـ ٦٤٢) وسماها (قنبلة V.2 على رأس القزم الذي تعدى وظلم).

(١) سماها «معركة مع فقيه مقلِّد مشرك» أو «القينية الأولى» وهي (دالية) في «الديوان» (٢٧٤ ـ ٢٨٢)، وسيأتي (ص٢١٧) بعض أبياتٍ منها، وينظر تعليقنا هناك.

يَحْتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] والحنفاء أهل لا إله إلا الله يتقون الله بتوحيده وترك الشرك به واتباع نبيه الكريم، فيجعل الله لهم مخرجًا من كل شدة ويرزقهم من حيث لا يحتسبون وينصرهم على أعدائهم. فيا أيها المسلم الموفَّق حقِّق التوحيد والاتباع ترَ العجبَ العُجاب، قال تعالى في سورة غافر ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

كان هذا الشيخ أكبر مُفْتٍ في شمال المغرب، وتقدم أنه كان قد تولى وزارة العدل مدة من الزمان، وكان ـ كأكثر المفتين من المقلِّدة الأغمار ـ إذا جاء أحدهم سائل عن حكم قضائي يقول له مثلًا: تعطيني الآن نقدًا خمس مئة درهم أجرة البحث في كتب الفقه، فإن وجدت لك قولًا يمكنك من الغلبة على خصمك تعطيني خمسة آلاف درهم، وإن لم أجد شيئًا لم آخذ منك إلا ما تقدم، فإذا وجد له قولًا من أقوال مجتهدي المذهب ينصر قضيته أخذ منه المقدار المشروط وأعطاه الفتوى، وإن لم يجد شيئًا غنم خمس مئة درهم وصرفه. كذلك خصمه يذهب إلى مفتٍ آخر فيعامله بالمعاملة نفسها، فإذا اجتمعت الحجج والفتاوى عند القاضي في مدة سنين طويلة وكان نزيهًا لا يأخذ رشوة ـ وذلك نادر ـ يرجِّح إحدى الفتويين ويحكم لصاحبها بغير ما أنزل الله، فيحل الفروج ويسفك الدماء في زمان الاستقلال. أما في زمان الاستعمار؛ فإن أحكام القتل والجروح جُعلت لها محاكم عرفية، وعُزلت المحاكم الشرعية عنها، وكذلك ينقل الأموال من ملك زيد إلى ملك عمرو بآراء الرجال التي ما أنزل الله بها من سلطان فينطبق عليه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] و﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] وهذا أمر معروف في بلاد المغرب لا يزال العمل جاريًا به.

فتوى الشيخ المُتَصوِّف

أما هذا الشيخ العارف باللاهي ـ لا بالله ـ فقد أفتى فتويين متناقضتين غريبتين عجيبتين:

وقعت خصومة على مال بين تاجرين مغربيين أحدهما يهودي[1] والآخر مسلم[2]، فانطلق اليهودي إلى الشيخ المفتي، فعامله بالمعاملة التي تقدم ذكرها، وأخذ منه آلافًا من الدراهم، وأصدر له فتوى تُحتِّمُ على القاضي[3] أن يحكم له، فقال القاضي للتاجر المسلم: هات ما ينفعك من الحجج. فذهبت زوجته ـ وكانت إسبانية ـ إلى المفتي نفسه الشيخ المتصوِّف العارف، وسلمت له ستة آلاف درهم، فأصدر لها فتوى تحتم على القاضي أن يحكم لزوجها على خصمه اليهودي.

وكانت المحاكمات في زمان الاستعمار كلها تترجم باللغة الإسبانية ويطَّلع عليها الحُكَّام الإسبانيون قبل إصدار الحكم، فتُرْجِمَت الفتويان المتناقضتان ورُفعتا من حاكم إلى حاكم، حتى بلغتا إلى المقيم العام وهو الحاكم الأعلى فغضب غضبًا شديدًا، وكتب إلى خليفة السلطان مولاي الحسن بن المهدي يقول: نحن لم نرد أن نتدخل في شريعتكم فتركناكم أحرارًا تحكمون في محاكمكم

---

(١) يُسمَّى ابن بُونان. (خ)

(٢) محمد بولعيش صاحب أطيل درسة (خ). قلت: هو أخ لمحمد عبد السلام بولعيش الملقب حَيَايا. (ع)

(٣) القاضي اللبادي (خ). قلت: واسمه محمد اللبادي، ولد سنة ١٣١٤هـ، فقيه مشارك وقاضي تطوان، تولى عدة وظائف علمية مع الاشتغال بالتدريس والإفادة، وكان خطيبًا بالمسجد الأعظم ببلده، وتولى قضاء ومستشارًا بوزارة العدل، ثم رياسة الاستئناف بالمحكمة الإقليمية بطنجة، ثم عضوًا بالمجلس الأعلى بالرباط، وفيه أحيل على التقاعد.. (ع)

بشريعتكم، وأنتم تزعمون أن هذه الشريعة وضعها لكم محمد، وهو أخذها من القرآن الذي هو كلام الله حسب اعتقادكم، فانظر إلى هاتين الفتويين المتناقضتين الصادرتين من مفتٍ واحد يقول: إن الشريعة الإسلامية تجعل الحق لليهودي ولخصمه في قضية واحدة؛ فإما أن تكون شريعتكم في أصلها فاسدة باطلة، وإما أن تكونوا قد كذبتم على الله وعلى محمد. هذا معنى ما كتب به المقيم العام إلى خليفة السلطان في شمال المغرب.

فلما قرأ الخليفة كتاب المقيم العام أصابه من الغم والحزن ما كاد يقتله، فدعا الوزراء والمستشارين وغضب عليهم غضبًا شديدًا وقال: ألا ترون إلى هذا المجرم كيف فضحنا عند الأجانب وألصق بشريعتنا ـ كذبًا وزورًا وطمعًا ـ هذا الخزي، فماذا يستحق من العقاب؟ فقالوا كلهم: الرأي لسيدنا. فقال: اتقوا الله وقولوا ما أوجب الله عليكم. فأعادوا جوابهم، فقال: أنا أحكم عليه بالعزل من جميع المناصب الدينية والعلمية والدنيوية، ولو قدرتُ على أكثر من هذا لحكمتُ عليه به، فعُزِلَ من الإمامة والخطابة والوعظ والشهادة، ولم يبق له شيء إلا منصبًا واحدًا وهو رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، لأن هذه لم تكن بيد الخليفة بل كانت بيد المستعمرين الإسبانيين، ولكن الإسبانيين لما رأوا الخليفة قد عزله من جميع المناصب التي في يده عزلوه هم أيضًا من رئاسة المجلس الإسلامي، فبقي لا يجد ما ينفق.

وقد رأيت من المستحسن أنْ أذكر هنا نخبة من القصيدة الموسومة «فاو (٣)» وهذا لفظ ألماني، وترجمته: القنبلة الموسومة برقم (٣)، وفرق بين هذه القنبلة الحنيفية وبين القنبلة الهتلرية، فإن العدو الذي كان يحارَب بالقنبلة الهتلرية استرجع قوته وانتصر على هتلر، أما عدو الحنيفية

فكانت تلك القنبلةُ قاضيةً عليه ولم تُقم له بعدها قائمة، وهذه نخبة من القصيدة المشار إليها:

أَتَشْتُمُنِي يا ابنَ اللِّئَام[1] بِلَا سَبَبْ ... وَأَنْتَ ـ يَمِينُ[2] اللهِ ـ قِرْدٌ بِلَا ذَنَبْ
فَلَا أَنْتَ ذُوْ عِلْمٍ وَلَا أَنتَ ذُو حِجًى ... وَلَا أَنْتَ ذُو تَقْوَى، وَلَا أَنْتَ ذُو حَسَبْ
وَلَا أَنْتَ ذُو عِرْضٍ مَصُونٍ مُوَقَّرٍ ... وَلَا أَنْتَ ذُو حِلْمٍ وَلَا أَنْتَ ذُو نَسَبْ
شَوَى الْحَسَدُ الْمَمْقُوتُ قَلْبَك فِي لَظَى ... فَأَصْبَحَ يَبْدُو الْيَوْمَ مِنْ فَمِكَ اللَّهَبْ
رَأَيْتَ صَنِيعَ اللهِ بِي وَهِبَاتِهِ ... فَنَالَكَ مِنْهَا كالْجُنُونِ وَكَالْكَلَبْ
تُرِيدُ بِقَوْلِ الْهُجْرِ[3] تُطْفِئُ نُورَهُ ... وَمَنْ رَامَ يُطْفِي نُورَهُ مسَّهُ الْعَطَبْ
وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَا ... فَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْطِيعُ مَنْعًا لِمَا وَهَبْ
تُحَارِبُ رَبَّ النَّاسِ في أَوْلِيَائِهِ ... وَمَنْ حَارَبَ الْجَبَّارَ أَوْدَى بِهِ الحَرَبْ
وَقَدْ وَعَدَ الرَّحْمَنُ بِالنَّصْرِ حِزْبَهُ ... بِأَنَّ لَهُمْ دَوْمًا عَلَى الْمُعْتَدِي الْغَلَبْ
وَمَنْ يَقْفُ[4] سنَّاتِ الرَّسُولِ وَهَدْيَهِ ... وَيَنْصُرْهُ يُصْبِحْ ظَافِرًا عَالِي الرُّتَبْ
وَمَنْ يُخْلِص الْتَّوْحِيدَ للهِ وَحْدَهْ ... يَكُنْ مُمْسِكًا في دِينِه أَيُّمَا سَبَبْ
فَلَا نَزَغَاتُ الْشِّرْكِ تُوهِنُ عَزْمَهُ ... وَلا نَفَثَاتُ الْبُطْلِ تَثْنِيهِ إِنْ وَثَبْ
وَلَا هُجْرُ دَجَّالٍ مَهِينٍ يَضِيرُهُ ... مَتَى كَانَ نَبْحُ الْكَلْبِ يَسْتَوْقِفُ الشُّهُبْ؟!
وَذَاكَ وَلِيُّ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ ... يُدافِعُ عَنْهُ رَبُّهُ حَيْثُمَا انْقَلَبْ
فَفِي يُونُس فانْظُرْ كَرِيمَ صِفَاتِهِ ... وَدَعْ عَنْكَ قَوْلَ الْمُسْرِفِينَ ذَوِي الشَّغَبْ
فَإِيمَانُنَا بِاللهِ ثُم تُقَاتُهُ ... وِلايَتُنَا للهِ كُلٌّ بِهَا اقْتَرَبْ

(١) في نسخة: «الرهوني» (خ). وكتب في «الديوان»: «كنا نحفظها وقت نظمها يا ابن الرهوني».
(٢) كتب فوقها بوخبزة في نسخته من «الديوان»: «وأيم»، وكلاهما صواب وزنًا ومعنى.
(٣) أي: القول القبيح.
(٤) أي: يتَّبع.

سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْحَدِيثِ فَأَنَّهُمْ هُمُ الأَوْلِيَاءُ حَقًّا وَغَيْرُهُمُ كَذِبْ
هُمُ حَكَّموا قَوْلَ الرَّسُولِ وَقَدْ قَفَوا مَنَاهِجَهُ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ بِالأَدَبْ
وَكُلُّ نِزَاعٍ يُرْجِعُونَ لِقَوْلِهِ وَيَرْضَوْنَ حُكْمَ الْمُصْطَفَى حَيْثُمَا وَجَبْ
فَمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيجَةٍ وَلَا مَذْهَبِ زَيْدٍ وَعَمْرٍو لَهُ ذَهَبْ
يَدِينُونَ بِالتَّوْحِيدِ فِي كُلِّ مَسْلَكٍ نَبِيٌّ وَرَبٌّ ثُمَّ دِينٌ لَهُ انْتَسَبْ
فَلَا ربَّ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مُحَمَّدٌ إِمَامٌ وَأَهْلُ الْعِلْمِ فِي قَفْوِهِ سَبَبْ
لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ الَّتِي يَسْتَجِيبُهَا وَمَنْ يَدْعُ غَيْرَ اللهِ قَدْ خَابَ فِي الطَّلَبْ
وَمَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ مُنَافِقٌ عَلِيمُ لِسَانٍ لِلْفَضَائِلِ مَا انْتُدِبْ[1]
وَمَنْ يَتْرُكَنْ يَوْمًا حَدِيثًا مُصَحَّحًا فَمَا لَهُ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ سِوَى النَّصَبْ
دَعُوا كُلَّ قَوْلٍ غَيْرَ قَوْلِ مُحَمَّدٍ أَتُسْتَبْدَلُ الأَحْشَافُ[2] يا قَوْم بالرُّطَبْ؟!
وَمَنْ يَعْدِلَنْ قَوْلَ الرَّسُولِ بِغَيْرِهِ فَقَدْ عَدَلَ الْهِنْدِيَّ[3] وَالنِّدَّ بِالْحَطَبْ[4]

انتهى المراد نقله منها.

عقيدة الأشعرية المخالفة لعقيدة السلف الصالح

بعدما استقررت في تطوان أنشأت هناك مجلة شهرية سميتها «لسان الدين»[5]

---

(١) في «الديوان»: «ليس يعمل ما يجب».

(٢) رديء التمر.

(٣) يعني: العود. (خ)

(٤) الأبيات في «منحة الكبير المتعالي» (ص١٢٧ ـ ١٣٠)، وظفرتُ لها بأصول متعددة، وفيها فروق مع المذكور، بينتُه في الحواشي على «الديوان»، وأفاد فيه أنه قالها في القصر الكبير يوم ٢١/ ١٢/ ١٣٦٣ يوافق ١٩٦٣م. والقصيدة في «السلفية الوهابية بالمغرب» (١١٢ ـ ١١٣، ١٤٧).

(٥) ظهر (الجزء الأول) في شعبان ١٣٦٥هـ ـ يوليه ١٩٤٦م، وعليه رئيس التحرير الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الحسني، والمدير المسؤول أحمد بن =

ونشرتُ فيها مقالات[1]، بيَّنتُ فيها بطلان عقيدة الأشعرية التي يدين بها أهل المغرب منذ عهد محمد بن تومرت ودولة الموحدين التي هي ثمرة دعوته إلى يومنا هذا، وكان أهل المغرب قبل[2] ذلك على عقيدة السلف الصالح، حتى إنهم لما وصل إلى المغرب كتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي أجمعوا كلهم على إحراقه، واتفق علماء العدوتين الأندلسية والمغربية على ذلك، لما فيه من علم الكلام المذموم، فمن ذلك قوله: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»[3] يعني: لا يمكن أن يخلق الله سبحانه عالَمًا أفضل من هذا العالم. قال الغزالي: إذ لو كان ذلك ممكنًا وادخره لكان ظلمًا ينافي العدل. هذا معنى كلامه نقلته بمعناه ليفهمه عامة القراء، فهرب من نسبة الظلم المتوهم إلى الله تعالى إلى نسبة العجز إلى قدرته! تعالى الله عن ذلك.

وآخر الدول المغربية التي كانت متمسِّكة بعقيدة السلف الصالح[4]

= عبد السلام هارون، وآخر عدد (الجزء العاشر) من السنة الأولى، تاريخ جمادى الأولى ١٣٦٦ ـ إبريل ١٩٤٧م، ثم تولى رئاسة تحريرها عبد الله بن كنون، وتجد كلامًا مطولًا دقيقًا عنها في دراسة الأستاذ عبد القادر الإدريسي المطبوعة بعنوان «عبد الله كنون وموقعه في الفكر الإسلامي السياسي الحديث» (ص٢٦٥ ـ ٢٧٤).

(١) له في مجلة «لسان الدين» مطلع (الجزء السادس)، (السنة الأولى) بتأريخ محرم ١٣٦٥ ـ ديسمبر ١٩٦٤م (ص١ ـ ١٤): (العقيدة السلفية والعقيدة المبتدعة).

(٢) ليس الأمر كذلك، فإن المغرب قبل الموحدين كان فيه إلى جانب أهل السنة: الشيعة والخوارج وغيرهم، كما هو مشهور. (خ)

(٣) أُلفت كتب في هذه العبارة، بين مُصحِّح لها ومزيّف، ومرّ بي في بعض مكتبات تركيا مجموع خطي بشأنها، فيه عدة رسائل، لعدد من المؤلِّفين، منهم برهان الدين البقاعي.

(٤) للهلالي في مجلته «لسان الدين» التطوانية مقالة بعنوان (ملوك الدولة العلوية =

هي دولة المرابطين ويسمون أيضًا بالملثَّمين واللمتونيين نسبة إلى لمتونة وهي قبيلة من قبائل البربر. وفي ذلك قلت شعرًا من بحر المواليا[1]:

يَا قَوْمِ إِن اعْتِقَادِي الْدَّهْرَ لَمْتُونِي[2]   وَإِنْ زَرَيْتُم عَلَى عَقْلِي ولُمتوني
(وِنْ يو آر نَتْ سَتَسْفَايِدْ) فجِيئُونِي   (أم دِسْكُوتِيرِن) كن سوس لِبْرُوسْ أودر أُونِي[3]

وهذا البيت الثاني يشتمل على أربع لغات: العربية وهي فجيئوني، والإنكليزية وهي الكلمات التي قبلها، والجرمانية وهي التي بعد فجيئوني، ثم الإسبانية، ثم الجرمانية مرة أخرى[4]، ومعناه: إن كنتم لا تسلمون ذلك فجيئوني للمناظرة بكتبكم أو بدونها.

= والسَّلفية)؛ منشورة في (السنة الأولى)، (الجزء الثالث)، شوال ١٣٦٥هـ ـ سبتمبر ١٩٤٦م، (ص١٢ ـ ٢٢)؛ توسع فيها في تقرير المزبور هنا.
وانظر عن مهدي بن تومرت وبدعه: «القول الأوسط في أخبار بعض من حلَّ بالمغرب الأوسط» (ص٥٨)، و«المهدي بن تومرت» لعبد المجيد النجار، ومقالة عبد الله كنون في مجلة «البحث العلمي» العدد التاسع، سنة ١٩٦٦م، (ص١٧٥ ـ ١٨٥) بعنوان: (عقيدة المرشدة)، ولابن تيمية «مسألة في المرشدة»، وهي مطبوعة.
وينظر عن أثر ابن تومرت على انتشار الأشعرية في المغرب، وأن الأشعرية لم تكن شائعة فيه قبل ذلك في كتابي «محنة ابن العز الحنفي» (ص٤٩٧ وما بعدها).

(١) هو خارج من البحور (١٦) بل هو مستحدث، وأظنه ظهر في العراق. (خ)
(٢) (لمتوني) بفتح اللام، نسبة إلى الدولة اللمتونية، وهي دولة المرابطين المغربية العظيمة؛ لأن دولتهم كانت متمسكة بالعقيدة السلفية، فلما جاء الموحِّدون قضَوْا عليها، وقد حاول السلطان محمد بن عبد الله من ملوك الدولة العلوية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إحياء العقيدة السلفية؛ فلم يتم له ذلك؛ لشدَّة تعصُّبِ الفقهاء وجهلهم. أفاده الهلالي في «ديوانه» (٦٢٦).
(٣) ديوان الهلالي (٦٢٥ ـ بتحقيقي).
(٤) «شرح الكلمات التي في البيت الثاني:
الكلمات الخمس الأولى إنكليزية، وأصلها هكذا: When you are not satisfied. =

ونظم الشِّعر المؤلف من عدة لغات من المستملحات عند أهل الأدب، وقد نظم العالم الأديب المشهور الحسن اليوسي المغربي بيتًا من هذا القبيل، فقال عند وفاته:

(أتدرا تنومن) العلوم التي (ديكم) قد اندرست حقًّا وصارتْ إلى (يركي)

ومعنى هذا البيت: يا داري! أين العلوم التي فيك؟ قد اندرست حقًّا وصارت إلى الله.

وهذا البيت مؤلَّف من ثلاث لغات: البربرية والعربية والفلاتية من لغات السودان لأن (يركي) هو اسم الله تعالى بهذه اللغة.

يريد بذلك: أن العلوم التي كانت في داره قد اندرست بوفاته.

وبيَّنت في تلك المقالات أن الإمام أبا الحسن الأشعري رَحِمَهُ الله بريء من العقيدة المنسوبة إليه، لأنه رجع عنها[1] وألَّف كتاب «مقالات

= والكلمتان اللتان في أول الشطر الثاني ألمانيتان، وأصلهما هكذا: Um diskutieren.

والكلمات الثلاث التاليات إسبانية، وأصلها هكذا: Con sus librus.

والكلمتان الأخيرتان ألمانيتان، وأصلهما هكذا: Oder ohne.

معنى البيت كله: إنْ لم تكونوا مقتنعين فجيئوني للمباحثة بكتبكم أو بدونها» قاله الهلالي في «الديوان» (٦٢٥ ـ ٢٦٦).

(١) هذا هو الصواب الذي أيَّده المؤرخون المحققون، خلافًا لمن زعم أن الطور الأخير في حياة الأشعري لم يكن سلفيًّا، كالشيخ أحمد بن الصِّدِّيق، والصواب أن آخر مؤلفات الأشعري هو «الإبانة عن أصول الديانة» وفيه التصريح بالعقيدة السلفية. (خ)

قال أبو عبيدة: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رجوع الأشعري فقال في «مجموع الفتاوى» (١٦/٣٠٨): «ولما ذكر قول أهل السنة والحديث ذكره مجملًا، غير مفصل، وتصرف في بعضه، فذكره بما اعتقده هو أنه قولهم من غير أن يكون ذلك منقولًا عن أحد منهم. =

الإسلاميين واختلاف المصلين»، وبيَّن فيه أنه على عقيدة أصحاب الحديث والسلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وسمى منهم أحمد بن حنبل[1] رحمة الله عليه، وألف أيضًا كتاب «الإبانة عن أصول الديانة»، وألف الحافظ ابن عساكر كتاب «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري». والطائفة التي تسمي نفسها أشعرية تركت كتبه التي رجع إليها وتمسكت بالعقيدة الكلابية والمعتزلية التي كان عليها وتاب منها[2].

= وأقرب الأقوال إليه قول ابن كلاب.

فأما ابن كلاب فقوله مشوب بقول الجهمية، وهو مركب من قول أهل السنة وقول الجهمية، وكذلك مذهب الأشعري في الصفات، وأما في القدر والإيمان فقوله قول جهم.

وأما ما حكاه عن أهل السنة والحديث وقال: «وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب» فهو أقرب ما ذكره.

وبعضه ذكره عنهم على وجهه، وبعضه تصرف فيه وخلطه بما هو من أقوال جهم في الصفات والقدر، إذ كان هو نفسه يعتقد صحة تلك الأصول.

وهو يحب الانتصار لأهل السنة والحديث وموافقتهم، فأراد أن يجمع بين ما رآه من رأي أولئك وبين ما نقله عن هؤلاء. ولهذا يقول فيه طائفة: إنه خرج من التصريح إلى التمويه».

وينظر تفصيل ذلك في «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (١/ ٣٧٧ وما بعدها).

(١) هو في المطبوع (١/ ٣٤٥) دون ذكر الإمام أحمد، وإنما ذكره في «الإبانة» (ص٢٠ ط التوفيقية)، ونقله ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري» (ص١٥٨). وأخبر ابن تيمية في «مجموع فتاويه» (٣/ ٢٢٤) أنه رآه فيه، ونقله من خط الإمام النووي.

(٢) كلام الهلالي عن الأشاعرة كثير، وذكرهم في عدد من «مراسلاته»، انظر منها (٧٣٨، ١٠٧٣، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٦٩، ١٣٧٠)، وفي مواطن عديدة من كتابه «سبيل الرشاد» انظر (٦/ ١٠٩ ـ ١١٠/ الفهارس).

وللباحث عبد الرحمٰن العميسان «جهود محمد تقي الدين الهلالي في تقرير عقيدة السلف والرد على المخالفين».

فلما انتشرت تلك المقالات، وأضفت إليها كتاب «مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل»(١)، وهو كتاب مختصر ألَّفته لإخواني السلفيين بطلب منهم يشتمل على عقيدة أهل الحق وأحكام العبادات، مأخوذة من نصوص الأحاديث الصحيحة، فظن السفهاء الذين يزعمون أنهم فقهاء أنهم وجدوا فرصة تمكّنهم من القضاء على دعوتي، فذهبوا إلى الخليفة مولاي الحسن بن المهدي وقالوا له: إن الهلالي قد طعن في عقيدة أسلافك الطاهرين وضللهم. وهذا الأمير من أهل العقل الثاقب والهمة العالية، لذلك توقف في قبول دعواهم ودعا الأديب العبقري والمؤلف الموفق فخر المغرب في هذا الزمان الأستاذ عبد الله كنون(٢) عضو المجمع العلمي في القاهرة، وسأله عما نقله إليه أولئك السفهاء، فقال له: يا صاحب السمو لا تسمع لقولهم، فإن العقيدة التي يدعو إليها الهلالي هي عقيدة النبي ﷺ والسلف والخلف، ومنهم آباؤك الأكرمون، وقد بيَّن ذلك الإمام محمد بن عبد الله العلوي عالم الملوك وملك العلماء في كتبه(٣)، فبطل كيدهم.

---

(١) طبع أكثر من مرة، الأولى في تطوان، ثم في بغداد، ثم في الدار البيضاء، ثم شرحه في «مفتاح التفقه الأصيل في شرح مختصر هدي الخليل»، فرغ منه في سابع رمضان سنة ١٣٩٩هـ.

(٢) مضت ترجمته.

(٣) نشر الهلالي في مجلة «دعوة الحق» المغربية، في العدد الرابع والخامس، السنة السادسة عشرة، صفر ١٣٩٤هـ ـ مارس ١٩٧٤م، (ص٦٧ ـ ٧٣) مقالة بعنوان: (من مناقب عالم الملوك، وملك العلماء في زمانه؛ سيدي محمد بن عبد الله العلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تجديد الدعوة إلى عقيدة السلف).
ونشر ـ أيضًا ـ في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع الثاني ١٤٠١هـ ـ يناير ١٩٨١م، (ص٩ ـ ١٦) مقالة أخرى بعنوان: (ملك من الملوك الدولة العلوية المجيدة، وموقفه من الأشعرية)، =

التعيين في خزانة الكتب العامة

جاءني ذات يوم شخص مغربي فدعاني بقوله: إن الحاكم الإسباني فلانًا يدعوك للحضور في مكتبه، فانطلقت معه حتى وصلت إلى مكتب فخم يجلس فيه شاب إسباني، فقام وصافحني، وأشار عليّ بالجلوس وقال لي: أبشرك بأن المقيم العام قد أسند إليك منصبًا شريفًا وهو إدارة خزانة معهد الباحثين، وهذا المنصب عندنا في إسبانيا لا نولي فيه إلا كبار العلماء الذين يعرفون أصناف العلوم والكتب المؤلَّفة فيها، ويرشدون الباحثين والمؤلفين إلى الكتب التي تفيدهم في بحوثهم، وجعلنا لك راتبًا قدره ثلاث مئة بسيطة، فباشِرْ عملَك على بركة الله، فقلت له: كيف تسندون إليَّ هذا المنصب دون أن تستشيروني وتعرفوا رأيي في قبوله؟ فظهرت على وجهه أمارات الاستغراب، وقال لي: لم نستشرك لأنه لم يخطر ببالنا أنك تتردد في قبوله، ولو عيَّنَّا غيرك فيه من المغاربة لتلقاه بفرح عظيم واستبشر وبشَّر أصدقاءه وأقام مأدبة كوليمة العرس، وهذه عادتنا في إسناد المناصب، فقلت له: أنا لا أقبل هذا المنصب. فقال لي: كيف لا تقبله وقد عيَّنك فيه المقيم العام؟! فقلت له: إن المقيم العام لا يعرفني ولا بد أن يكون قد استشار ذوي رأيه قبل أن يسنده إليَّ، فأشاروا عليه دون أن يعرفوا رأيي، فعليهم يقع اللوم، ثم أعاد الإلحاح فأعدتُ الرَّفضَ وانصرفتُ من عنده.

= ونشر فيها ـ أيضًا ـ، المجلد الثالث عشر، العدد الخامس، رجب ١٤٠١هـ ـ مايو ١٩٨١ م، (ص٨ ـ ١٨) مقالة بعنوان: (من رجال الدولة العلوية المجيدة الملك الجليل مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله).

المذهب الأشعري مر في أطوار، وخصت بعدة دراسات، منها: «الفكر الأشعري بالمغرب خلال مرحلتي التأسيس والترسيم» و«المؤثرات المشرقية والخصومات المحلية».

وعند نهاية ذلك الشهر كنت في دكَّان السيد محمد العبودي ـ الذي تقدَّم ذكره ـ وإذا بموزع الرواتب يقبل عليَّ متقلدًا حقيبته الكبيرة ويفتحها ويخرج دفترًا ويطلب مني التوقيع على قبض الراتب، فقلتُ له: أنا لا أقبض هذا الراتب، لأنني رفضت المنصب، ولم أشتغل، فبأيِّ وجه آخذ راتبًا؟ فقال لي: من ذا الذي يأتيه راتب ويرده؟! فقلت له: أنا ذلك الرجل الذي لا يأخذ شيئًا من المال إلا بوجه شرعي لا يُخِلُّ بالمروءة. فانصرف.

وفي اليوم التالي جاءني خادم الموظف الإسباني يدعوني، فانطلقت معه حتى وصلت إليه، فقال لي: حتى الدراهم لا تقبلها! فقلت له: بأيِّ وجهٍ أقبلها؛ أنا لم أعمل عملًا فكيف آخذ أجرًا؟ فقال لي: نحن لم نطالبك بعمل، فقلت له: إذًا أنا لا آخذ أجرًا على عمل لم أقم به ولم أقبله، وانصرفت.

ثم بعد شهرين دعاني ذلك الموظف مرة ثالثة وقال لي: الآن نريد أن نتفق معك على إسناد المنصب المتقدم الذكر ونرجو أن تقبله وأن تشترط ما تريد، فقلت له: إن إسناد هذا المنصب على الوجه المتقدم فيه إهانة عظيمة من وجهين:

أحدهما: أنكم لم تستشيروني ولم تعرفوا رأيي.

والثاني: أنكم جعلتم لي راتب بواب، فأنتم تعطون فلانًا(١) ألفًا ومائتي بسيطة وهو شخص توجه إلى الأزهر فأقام فيه سنتين ورجع بلا شهادة، وأنا أحصل على شهادة دكتوراه من جامعة برلين تجعلون لي ثلاث مئة بسيطة!

فقال لي: أنا معترف بالخطأ، وأنا ما كنتُ أعرف رُتبتك العلمية

---

(١) لعله الطنجي أو السيد عبد القادر الرباحي (خ).
والطنجي هو الفقيه الحاج محمد بن تاويت.

والآن نتَّفق على ما تحب، فقبلت ذلك المنصب براتب مناسب.

خمس مئة بسيطة من وزارة الأوقاف

فإن قلت: إذا كنتَ عالي الهمة داعيًا إلى الله تريد وجهه، فلماذا كنت تأخذ من وزارة الأوقاف خمس مئة بسيطة على الوعظ والإرشاد؟ أقول: إنني ـ كما قلت من قبل ـ شرعتُ في إلقاء دروس الوعظ والإرشاد في الجامع الكبير بتطوان استجابةً لطلب أولئك القوم وقيامًا بالواجب الحتم، ولم أطلب على ذلك أجرًا إلا من الله وبقيت على ذلك سنة كاملة، وذات يوم قال لي الزعيم عبد الخالق الطُّريس رحمة الله عليه: إنني قد سعيت في أمرٍ يخصُّك دون أن أعرف رأيك فيه اجتهادًا مني وأرجو أن أكون مصيبًا، وذلك أنِّي رأيتُ أن دراهم الأوقاف تنفق في أمور لا تجدي نفعًا، فعزمتُ أن ألتمس لك شيئًا منها تستعين به، فكلّمتُ أحمد بن البشير الكاتب العام للخليفة أن يكلم الخليفة ليأمر وزير الأوقاف أن يجعل مكافأة شهرية على دروسك في الجامع الكبير، وقلت في نفسي: إنْ نجحتُ في هذا السعي أخبرتُك وإن لم أنجح تركتُ الأمر مكتومًا عنك. وقد نجحت الآن، فقد أمر الخليفة وزير الأوقاف محمد بن موسى أن يجعل لك خمس مئة بسيطة مشاهرة.

فإنْ قلت: فهلا ترفَّعت عنها ولم تقبل، فالجواب: أن النبي ﷺ قال: «**ما جاءك من هذا المال [شيء] وأنت غيرُ مُشْرِفٍ ولا سائل فخذه، فتموّله أو تصدَّق به، ومالا، فلا تُتْبِعْه نفسَك**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٣، ٧١٦٣، ٧١٦٤) ومسلم (١٠٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

غضب رئيس الوزراء أحمد الغنيمة

لما نشرتُ كتاب «كشف الشبهات» ورسالة «زيارة القبور»، وقررتُ ـ فيما لا يحصى من الدروس ـ أنَّ شدَّ الرحال إلى قبور الصالحين حرام شرعًا، وأن إقامة المواسم وتقريب القرابين عند قبورهم وسؤالهم قضاء الحاجات كنزول المطر وإعطاء الأولاد للعقيم من الرجال والنساء، وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله؛ شرك يخرج فاعله من الملة، خصوصًا إذا دعي إلى التوحيد وتبيَّن له الحق وأصر على ذلك، غضب عباد القبور ـ كما تقدم ـ وكان من أشدهم غضبًا رئيس الوزراء في ذلك الوقت أحمد الغنيمة.

وكان متصرِّفُ تطوان ـ والمغاربة يسمونه الباشا، وكان متولي هذا المنصب في ذلك الزمان أحمد عشعاش[1] ـ قد أظهر لي المحبة والتعظيم بعدما عقدت الهدنة مع المستعمرين، وكان يقول لي: لا تسمني باشا؛ حسبك أن تقول لي: أخي أحمد عشعاش، فلما رأى رئيس الوزراء قد غضب وضاق ذرعًا بدعوتي إلى التوحيد، قال له: لا يهمنك أمره؛ فإنني سأزوده برغيفين مأدومين بزيت وسكر، وأبعثه محروسًا مع شرطيين إلى الحدود يسلمانه للفرنسيين. فأرضاه بذلك الكلام، وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا إذا أمره سادته الإسبانيون، فلم أحفل بذلك، وتوكّلتُ على الله.

(١) الصواب محمد أشعاش (خ). هو محمد بن محمد ابن الحاج محمد بن محمد ابن الحاج عبد الرحمٰن بن عبد الخالق أشعاش، تولى منصب (الباشا) في ١ إبريل ١٩٣٧. ترجمته في «معلمة المغرب» (٢/ ٤٦٣/ ٤١).

معركة مع فقيهٍ مقلِّدٍ مشرك

كان من جملة من عاداني وحاربني شخص[1] من فقهاء تطوان، وكان مستشارًا للمستعمرين في كلِّ أمر يتعلَّقُ بالإسلام، وكان مشهورًا بالخيانة عند الناس، كلهم يسمونه بياعًا، والبياع هو الذي يبيع قومه من المستعمرين، ويتجسس على أبناء وطنه ويبلغ سادته المستعمرين أسرارَ شعبه تزلُّفًا لهم، وكلُّ ذَنْبٍ عند المغاربة يمكن أن يغفر إلا هذا، فإن مرتكبه قد أجمع الناس على مقته ولعنه وسقوطه إلى الحضيض الأسفل، ولا ينفعه مع ذلك نسب ولا حسب ولا علم.

ولما أنشأتُ مجلة «لسان الدين» وأعلنتُ فيها الحرب على المشركين والمبتدعين، شرِق بها هذا الرجل؛ فذهب إلى الحاكم الإسباني (بيلدا) وقال له: إن الهلالي أنشأ مجلة وأخذ ينشر مقالات يفسد بها عقائد المسلمين ويطعن في عقائدنا ومقدساتنا، وأنا أطلب منك ـ باسم علماء الدين ـ أن تلزمه بعرض المقالات قبل نشرها على لجنة من العلماء، فما أذنت له في نَشْرِه نَشَرَه، وما لم تأذن له في نشره يلغى، فدعاني (بيلدا) وأخبرني بذلك على سبيل العرض، ولم يأمرني بشيء، فذهبت إلى من هو أعلى منه من الإسبانيين، وقلت لهم: إن (بيلدا) قال كيت وكيت، ونحن مختلفون في العقيدة اختلافًا شديدًا، فلا يمكن أن يتحكَّم بعضُنا في بعض، وضربتُ لهم مثلًا فقلت لهم: إن أهل النصرانية مختلفون في العقيدة بعضهم كاثوليكيون مثلكم وبعضهم بروتستانتيون، فهل يجوز عندكم أن يتدخل أحد الفريقين في عقيدة الآخر؟! فقالوا:

(١) الفقيه الفرطاخ (خ). **قلت**: له ذكر في «رسائل الهلالي» (١/ ٤٥٩، ٥٠٣ت).

لا، اذهب وانشر مجلتك ونحن نتكلم مع (بيلدا) أن يترك هذا الأمر فإنه ليس من اختصاصه، فحبط عمل هذا المبتدِع.

ولما اشتدَّ عليَّ مرض الربو استأذنت الحكام الإسبانيين في السفر إلى قبيلة تغزوت ببلاد الريف، فأذنوا لي وأقمت هناك عند الشيخ محمد بن أحمد وهو من خيرة السلفيين، كان يحضر دروسي في الجامع الكبير كلما ورد تطوان، وطلب الشيخ محمد بن أحمد التغزوتي من الحاكم الإسباني أن يأذن لي في إلقاء دروس لتعليم الناس كيف يصومون رمضان، لأن شهر رمضان كان قريبًا، فأذن لي، وكنت ألقي في كل يوم درسين في بيان توحيد الله واتباع الرسول ﷺ ومحاربة الاستعمار، فتاب من الطرائق والبدع كثير من الناس، وتنورت أفكار أهل ذلك البلد وأفاقوا من سكرتهم، إلا القاضي وشرذمة قليلة، فإن القاضي أكرمني إكرامًا عظيمًا وفرح بي أول ما قدمت، ولما سمع دروسي انقبض منها وأعرض، أمَّا نائبه فكان على عكس ذلك فإنه لم يسلم علي أول ما قدمت ولم يتصل بي، وكان يقعد وراء سارية من سواري المسجد(١) ويستمع حتى عرف ما أدعو إليه وتبيَّن له الحق، فجاءني ودعاني إلى بيته وأكرمني، ولم يزل محافظًا على العهد إلى يومنا هذا.

وأهل تغزوت كسائر أهل الريف يتكلمون بالبربرية(٢) وهي أخت قديمة للغة العربية، كما أن البربر إخوان قدماء للعرب، لا يشك في ذلك

---

(١) لشقيق المصنف محمد العربي مقالة عنه مهمة، بعنوان (الجامع الأعظم بتطوان) ذكر تاريخه وتشييده وزخارفه ونقوشاته وتجديده ومخطوطاته، ونشرها في مجلة «دعوة الحق» المغربية، العدد الأول، السنة السادسة، بتأريخ جمادى الأولى ١٣٨٢هـ يوافق أكتوبر ١٩٦٢م (ص٢٤ ـ ٢٧).

(٢) بل بالريفية، وهي غير البربرية التي يتكلمها البربر في قبائلهم الأطلس. (خ)

من عنده أدنى علم باللغات السامية[1]. ولذلك لم ينجح الاستعمار في التفرقة بين العرب والبربر، وحدث يومًا أنِّي كنتُ جالسًا في دُكَّان عند أحد إخواننا الذين تابوا من البدع، وأخوه الأكبر كان حافظًا للقرآن وحافظًا لـ«مختصر خليل»، وكان تجانيًّا فتاب من التجانية وعمره سبعون سنة واغتبط بالعقيدة السلفية، فجاء سائل عربي وقال لصاحب الدكان: أعطني صدقة لوجه غياث البر والبحر سلطان الأولياء مولاي عبد القادر الجيلاني، فقلت له: أمَّا نحن عبيد الله ولسنا عبيدًا لعبد القادر الجيلاني، فاذهب إلى عَبيدِه، فنحن ليس لنا غياث إلا الله في البر والبحر ولا نتخذ من دون الله أولياء، فقال لي: أنت لا تساوي تراب نعل سيدي عبد القادر الجيلاني، فقلت له: أنا لا أساويه ولكني لا أعبده، فقال صاحب الدكان للسائل: اذهب من هنا وأرنا قفاك، فإن هذا الرجل عندنا أفضل من عبد القادر الجيلاني، فقلت: إنك أخطأت، فقال: أمهلني حتى أشرح لك مرادي ثم احكم عليَّ، فقلت: قل! فقال: أنت مقيم بين ظهرانينا تعلِّمنا مما علَّمك اللهُ ونسألك فتجيبنا وعبد القادر ليس كذلك، فقلت له أنا: إن كان هذا مرادك فهو حق.

ولما رجعتُ إلى تطوان علمت أن ذلك الفقيه البياع ذَكَرني بسوء في درس وعظه، فقال لمستمعيه وهو يحثُّهم على الصلاة بسدل اليدين وترك سنة وضع اليمنى على اليسرى: ماذا تقولون في سيدي محمد[2] السلاوي: أكان عالمًا بالحديث والفقه أم جاهلًا بهما؟ فقالوا: كان من

(١) للهلالي ثلاث حلقات منشورة في مجلة «الجامعة» الهندية لأبي الكلام آزاد في إثبات عروبة البربر، وصدرت عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للتعريب والترجمة والتأليف والنشر سنة **١٩٩٢**م في دمشق دراسة مهمة بعنوان «عروبة البربر، الحقيقة المغمورة» لمحمد علي مادون في (**٢٣٩**) صفحة.

(٢) الصواب: «أحمد». (خ)

كبار العلماء. فقال: وماذا تقولون في سيدي أحمد الرهوني وسيدي فلان وفلان؟ فقالوا: علماء فقهاء قال: فهل كان أحد منهم يضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة؟ قالوا: لا. قال: فكيف تخالفونهم لقول شخص مجهول لا نعرف من أين خرج؟! فأنشأتُ فيه قصيدة داليَّة(١)، أنقل نخبة منها هنا:

تَجَاهَلْتَ يَا ابْنَ الْقَيْنِ فَضْلِي وَسُؤْدُدِي ... وَمِنْ شِقْوَةٍ أَقْبَلْتَ بالظُّلْمِ تَبْتَدِي
زَعَمْتَ بِأَنْ لَمْ تَدْرِ أَصْلِي وَمَنْشَئِي ... وَلَا عَجَبٌ إِذْ أَنْتَ بِالْجَهْلِ مُرْتَدي
سِجِلْمَاسَةُ الْغَرَّاءُ يَا قَيْنُ مَوْطِنِي ... وَجَدِّي هِلَالُ بنُ الْحُسَيْنِ بْنِ أَحْمَد
وَجَدِّي هِلَالٌ صَالِحٌ وَابْنُ صَالِحٍ ... وَجَدِّي حُسَيْنٌ سَيِّدٌ نَجلُ سَيِّدِ
وَرَيْحَانَةُ الْمُخْتَارِ جَدِّي يَشُمُّهُ ... وَجَدُّكَ حَدَّادٌ بِوَجْهٍ مُسَوَّدِ
وعُبدانُنا أنتُمْ برغمِ أنوفكم ... سَمَونا عليكم بالنَّبيِّ محمد(٢)
ضَرَبْنَا عَلَى الإِسْلَامِ أَسْلَافَكَ الأُلَى ... قَرَيْنَاهُمُ بِالْمَشْرَفِيِّ الْمُهَنَّدِ
فَأَمَّا عَقَقْتَ الْيَوْمَ سَادَاتَكَ الأُلَى ... حَبَوْكَ بِإِسْلَامٍ وَفَضْلٍ مُمَدَّدِ
فَيَا رُبَّ عَبْدٍ مِثْلُكَ الْيَوْمَ آبِقٌ ... وَيَا رُبَّ قَيْنٍ مُمْعِنٍ فِي الْتَّمَرُّدِ
غَدًا بَعْدَ سِنْدَانٍ وَكِيرٍ وَحُفْرَةٍ ... وَفَحمٍ وَمِطرَاقٍ عَلَى الْفِقْهِ يَعْتَدِي
دَعِ الْعِلْمَ إِنَّ الْعِلْمَ لَسْتَ بِأَهْلِهِ ... وَخُذْ مِنْ جَدِيدٍ فِي الْحَدِيدِ لِتَهْتَدِي
فَفِي الْحِرْفَةِ الأُولَى لَقَدْ كُنْتَ كَاذِبًا ... لَدَى بَيْعِ مُفْتَاحٍ وَقِفْلٍ وَمِحْصَدِ
وَفِي الْحِرْفَةِ الأُخْرى عَلَى اللهِ تَفْتَرِي ... وَتَلْحِدُ فِي دِينِ الْنَّبِيِّ الْمُمَجَّدِ
وَمَيْنُكَ فِي دُنْيَاكَ أَهْوَنُ مَأْثَمًا ... مِنَ الْمَيْنِ فِي أَمْرٍ بِهِ الْنَّاسُ تَقْتَدِي
وَعَيْشُكَ مِنْ صُنْعِ الْحَدَائِدِ طَيِّبٌ ... وَإِنْ تَأْكُلَنْ بِالْدِّينِ تَأْكُلْ مِنَ الرَّدي
فَدُونَكَ يَا ابْنَ الْقَيْنِ نُصْحًا مُسَدَّدًا ... وَمِثْلُكَ لَا يَرْضَى بِنُصْحٍ مُسَدَّدِ

---

(١) هي في «الديوان» (٢٧٦ ـ ٢٨٢)، ونظمها في تطوان ١٦ شوال ١٣٦٥هـ.
(٢) سقط هذا البيت من بعض طبعات «الدعوة إلى الله».

كَذَبْتَ عَلَى شَيْخٍ كَرِيمٍ تَحَلُّمًا ... بِرُؤْيَا مَنَامٍ فِي حَدِيثٍ مُنَضَّدِ
عَلَى ابْنِ مَشَيْشٍ قَدْ كَذَبْتَ بِلَا حَيَا ... فَأَخْزَاكَ رَبُّ النَّاسِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ
وَتَزْعُمُ أَنْ الشَّيْخَ جَاءَكَ قَائِلًا ... إِلَى الْقَصْرِ فَاذْهَبْ دُونَ أَيِّ تَرَدُّدِ
وَقُلْ لِفُلَانٍ يَشْتَرِي بَيْتَكَ الَّذِي ... بِمَرْتِيلَ إِنْ رُمْتَ النَّجَاحَ بِمَقْصِدِ
فَكَذَّبَكَ الشَّخْصُ[1] الَّذِي قَدْ قَصَدْتَهُ ... وَبُؤْتَ بِخِزْيِ اللهِ شَرِّ مُفَنَّدِ
تَرُومُ بِزَعْمٍ نَصْرَ مَذْهَبِ مَالِكٍ ... وَمَذْهَبُهُ قَفْوُ النَّبِيِّ الْمُؤَيَّدِ
وَمَعْصِيَةُ الْمُخْتَارِ لَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ ... لَهُ أَبَدًا فَاقصُرْ عَنِ اللَّغْوِ والدَّدِ
وَفَرَّقْتَ بَيْنَ الْبَعْلِ وَالزَّوْجِ[2] ظَالِمًا ... بِعُنْفٍ وَإِكْرَاهٍ فَهَلْ أَنْتَ مُهْتَدِ
وَأَنْكَحْتَهَا فِي عِصْمَةِ الْبَعْلِ دُونَ أَنْ ... يَصِحَّ طَلَاقٌ، فِعْلُ أَرْعَنَ مُفْسِدِ
أَهَذَا الَّذِي تَدْعُو بِمَذْهَبِ مَالِكٍ ... كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ يَا قَيْنِ فَاقْصُدِ
فَهَذَا الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ نَالَ مَالِكًا ... نَكَالٌ وَلَمْ يُذْعِنْ لأَمْرِ الْمُهَدِّدِ
فَفِعْلُكَ ذَا نَقْضٌ لِمَذْهَبِ مَالِكٍ ... وَفِسْقٌ بِدِينِ الْهَاشِمِيِّ مُحَمَّدِ
تَكَلَّمُ فِي قَبْضٍ وَسَدْلٍ مُضَلِّلًا ... وَأَهْمَلْتَ أَصْلَ الدِّينِ إِهْمَالَ مُلْحِدِ
حُرِمْتَ وُصُولًا لِلْحَقِيقَةِ عِنْدَمَا ... أَضَعْتَ أُصُولًا مَنْ يُضِعْهَا يُلَدَّدِ
فَكِلْمَةُ تَوْحِيدٍ بِهَا ابْدَأْ مُحَقِّقًا ... فَإِنْ تَدْرِ مَعْنَاهَا إِلَى الْحَقِّ تَهْتَدِ
فَوَحِّدْ إِلَهَ الْحَقِّ لَا تَدْعُ غَيْرَهُ ... لِنَفْعِكَ أَوْ دَفْعِ الْمَصَائِبِ تَرْشُدِ
فَمَنْ يَدْعُ غَيْرَ اللهِ يَوْمًا لِحَاجَةٍ ... يُدَنَّسْ بِإِشْرَاكٍ وَيُرْدَى مَعَ الرَّدِي
وَذَلِكَ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ فَادْرِهِ ... فَمَنْ يَجْهَلَنْهُ فِي الْجَحِيمِ يُخَلَّدِ
سَوَاءٌ أَصَلَّى قَابِضًا فِي صَلَاتِهِ ... أَمِ اخْتَارَ سَدْلًا نَقْلُهُ لَمْ يُؤَيَّدِ
وَمَنْ رَدَّ قَوْلَ الْمُصْطَفَى بَعْدَ صِحَّةٍ ... فَذَلِكَ كَفَّارٌ أَثِيمٌ وَمُعْتَدِ
سَيُحْرَمُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَ شَفَاعَةً ... وَإِنْ يَأْتِ لِلْحَوْضِ الْمُبَارَكِ يُطْرَدِ

---

(١) عبد السلام الحسيسن (خ). من التجار المشهورين عاش (١١٥) سنة. (ع)

(٢) إشارة إلى قضية ابنته مع مفارقها... الفقيه الفحصي. (خ)

وَيَسْوَدُّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجهُهُ ... وَيَثْوَى ثِواءً فِي الْجَحِيمِ وَيَخْلُدِ
وَيَبْرَأُ مِنْهُ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَالِكٌ ... وَكُلُّ تَقِيٍّ لِلإِلَهِ مُوَحِّدِ
وذلك في أَصْلِ الشَّهَادَةِ وَاضِحٌ ... لِكُلِّ صَحِيحِ الفَهْمِ لَمْ يَتَبلَّدِ
فَدُونَكَ يَا شَيْخَ القُيُونِ فَوَائِدًا ... مِنَ العِلْمِ إِنْ تَرْجِعْ لَهَا اليَوْمَ تَسْعَدِ
فَدَعْ عَنْكَ تَقْلِيدًا وَشِرْكًا وَبِدْعَةً ... فَذَلِكَ مَا يُرْدِيكَ فِي اليَوْمِ وَالغَدِ
صَدَدْتَ الوَرَى عَنْ قَفْوِ سُنَّةِ أحْمَدٍ ... وَلَنْ يُفْلِحُوا إِلَّا بِسُنَّةِ أَحْمَدِ
فَبُؤْتَ بِسُخْطِ اللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ ... وَسُخْطِ شُيُوخٍ كَابْنِ جَعْفَرَ(١) زُهَّدِ
وَكَانَ اللَّوَاجِرِيُّ(٢) يَقْلِيكَ كَالعَمَى ... مَتَى جِئْتَهُ يَا قَيْنُ تُصْفَعْ وَتُطْرَدِ
وَأسْخَطَ كُلَّ الصَّالِحِينَ مِنَ الوَرَى ... مِنَ الجُرْمِ وَالبَغْيِ الَّذِي لَمْ يُحَدّدِ
وَإِنَّكَ وَايْمُ اللهِ أَحْمَقُ مَنْ مَشَى ... على الأرضِ طُرًّا في تُهُومِ وَأَنْجُدِ
فَخُذْهَا غُذِيتَ التِّبنَ مِنِّي قَصِيدَةً ... تَزِدْكَ جُنُونًا مِثْلَهَا لَمْ يُقْصَدِ
فَتَخْرُجُ فِي الأسواق نَاتِفَ لِحْيةٍ(٣) ... وَلَاطِمَ خَدٍّ عَارِيًا غَيْرَ مُرتَدِ

---

(١) المراد: شيخه محمد بن جعفر الكتاني. (خ)

(٢) يعني الفقيه الورع محمد اللواجري. (خ)
ولد سنة ١٣٠١هـ، وقرأ القرآن والتجويد وعلم القراءات، ثم قرأ على أخيه وعلى الفقهاء الرهوني وابن الأبار والزواقي والعمراني والغماري والتهامي أفيلال وغيرهم، ثم قام بهمة التدريس لعلوم النحو والفقه والبلاغة والمنطق.. وقد عرف بسلوكه الطريقة التجانية في التصوف. من مؤلفاته: رسالة في النحو، مجموعة من الفتاوى في النوازل والأحكام الشرعية ـ تقييد في الدعوة إلى الله وترك الخرافات ـ تأليف في السكك إذا تغيرت ما يقضى منها ـ رسالة في فضل القرآن ـ طرر على شرح المكودي اللألفية ـ طرر وتعاليق على شرح منظومة ابن عاشر في علوم الدين، توفي في ٢٦ ربيع الأول ١٣٦٣هـ موافق ٢١ مارس ١٩٤٤م. (ع)

(٣) يشير إلى ما فعله قبل من خروجه حافيًا يصيح في الشوارع ناهيًا الناس عن حضور دروس الشيخ المكي الناصري. (خ)

وَلَمْ يَكُ قَصْدِي ذِكْرَ عَيْبِكَ كُلِّهِ   فَذَلِكَ لا يُحْصِيهِ أَلْفُ مُجَلَّدِ(١)

تمت

وانتشرت هذه القصيدة عند أهل تطوان وأعجبوا بها أيما إعجاب، لأنهم كانوا حاقدين على ذلك الرجل، وكانت هذه القصيدة مقرونة بسوط عذاب من الله تعالى صُبَّ على ذلك المشرك، فحدثت له حوادث من الخزي أذكر هنا بعضها:

الأولى: أن شخصًا من شيوخ الصوفية كان محترمًا عند أتباعه من أهل تطوان وهو الشيخ الفاسي(٢)، جاءه ذلك البياع ومد يده لمصافحته، فقبض الشيخ يده أمام جماعة من الناس وقال له: أنا لا أنجس يدي بمصافحتك. فكانت ضربة قاتلة له.

الثانية: ماتت امرأة فخرج الناس بجنازتها إلى باب المقابر حيث يُصلَّى على الجنائز، لأن المغاربة لا يصلون على الجنازة في المسجد، ويزعمون أن ذلك مكروه ويعللونه بنجاسة الميت(٣)، وذلك جهل ومخالفة

---

(١) الأبيات في «منحة الكبير المتعالي» (ص٢٧٦ ـ ٢٨٢) وقال على إثرها: «انتهت بمدينة مجريط. وقد نظمتُها بتطوان إلا الأبيات الستة الأخيرة»، وبعضها في «سبيل الرشاد» (٤/ ٨٢ ـ بتحقيقي) و«الزند الواري» (٢/ ٨٥٠ ـ ٨٥٢ ـ بتحقيقي) و«رسائل الهلالي» (١/ ٣٧٧) بفروق يسيرة أجراه المصنف عليها لاحقًا أثبتُّها في تعليقي على «الديوان».

(٢) المراد: أحمد الفاسي الساكن بحومة العيون. (خ)

قلت: من أحفاد الشيخ الصوفي الشهير أبو المحاسن يوسف الفهري، له زاوية بحي العيون بتطوان، كان يلقب بصاحب السُّبح (لكثرة السُّبح التي كان يضعها على عنقه)، عُيِّنَ عدلًا وعرف بالعلم والصلاح، وكان يلقي دروسًا في المساجد. (ع)

(٣) انظر «المدونة» (١/ ٢٥٤)، «الإشراف» (٢/ ٩٣ ـ بتحقيقي)، «الذخيرة» (٢/ ٤٦٤)، «مواهب الجليل» (٢/ ٢٣٩)، «الشرح الصغير» (١/ ٥٦٩)، «قوانين =

للسنة الصحيحة، فإن النبي ﷺ صلى على ابن بيضاء في المسجد[1].

ولما وُضِعت الجنازة نظر الحاضرون، فرأوا هذا الفقيه ـ بزعمه هو ـ أولى أن يؤمَّ الناسَ في الصَّلاة على الجنازة؛ لسنِّه وما اشتهر به من الفقه عند العامة، فقال له بعضهم: تقدم يا فقيه صلِّ بنا، وكانت فيه حماقةٌ، فقال رافعًا صوته: أنا لا أصلِّي بكم، أنتم تقولون أنا بياع وخائن، فقدِّموا غيري. وكان يؤمِّل أنهم يتملَّقون له ويمدحونه ويقولون: حاشا لله أن نظنَّ بك هذا، ولكن خاب أملُه؛ فإنَّ الناس اختلفوا وكثر القيل والقال حتى بلغ النزاع إلى أولياء المرأة، فقائل يقول: هو أولى بالصلاة، وقائل يقول: ليس الأمر كذلك لأنه بياع، فاتفق المتنازعون على أن يردوا نزاعهم إلى أولياء المرأة ففعلوا، فقال أولياء المرأة: لا نرضاه إمامًا للصلاة على الجنازة، فقدَّموا غيره. ولو أنه حين دعي للصلاة تقدم وصلى لم يقع شيء من ذلك، ولكن الأمر كما قال الشاعر:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ   إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا[2]

فهذه المخزية الثانية.

الثالثة: اتفق أن هذا الفقيه كان في مسجد صغير، فحانت صلاة العصر، وكان إمام المسجد قد قرأ عليه شيئًا من الفقه، فاستحى أن يتقدّم أمامه فقال له: تقدَّم يا أستاذ! صلِّ بنا، فقال الحاضرون كلُّهم: لا نقبله لأنه بياع، والصلاة خلفه باطلة!!

= الأحكام الشرعية» (١١١)، «حاشية الدسوقي» (١/ ٤٢٣).

(١) أخرجه مسلم (٩٧٣) وغيره من حديث عائشة قالت: «والله ما صلى رسول الله ﷺ على سهيل بن بيضاء إلا في المسجد».

(٢) البيت بلا نسبة في «نهاية الأرب» (٣/ ٣٢٥)، «أدب الدنيا والدين» (٢٣)، «المستطرف» (١/ ٤٠).

الرابعة: أنه دعا رئيس البلدية الإسباني (بيلدا) إلى مأدبة أقامها في مارتيل، وهي قرية معدة للاصطياف على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بينها وبين تطوان ستة أميال، أكثر أهل تطوان يملكون بيوتًا فيها يهبطون إليها في وقت الصيف فقط، فتكون عامرةً، وفي شواطئها مسابح للرجال والنساء، وفي سائر الفصول تكون فارغة تقريبًا.

ترف أهل تطوان

كلمة تطوان محرفة عن (تِطَّاوِن) بكسر التاء وتشديد الطاء وكسر الواو، وهي كلمة بربرية معناها العيون، ولا يزال جزء من تطوان إلى الآن يسمى بالعيون. ولم يكن لها شأن يذكر قبل هجرة أهل الأندلس إليها في أواخر القرن التاسع الهجري، حين استولى النصارى على ما بقي من الأندلس وأجبروا المسلمين على التنصر أو الهجرة. ولما جاء الأندلسيون إلى تطوان ـ وكان عندهم من الحضارة والمدنية ما لم يكن عند المغاربة ـ أسسوا مدينة تطوان على النحو الأندلسي، واستنبطوا المياه وجلبوها من الجبال المجاورة إلى المدينة، وغرسوا فيها الجنات الجميلة، وأسسوا مدينة (مارتيل) للاصطياف، وكان لكل أهل بيت أربعة مساكن، كما أخبرني بذلك السيد محمد المؤذِّن الإدريسي ـ رحمة الله عليه ـ وهو من أعيان تطوان، فكان لكل أهل بيت: بيت في تطوان وبيت في البستان وبيت في مارتيل وبيت في ناحية أخرى قد تركت، فكانوا يقضون فصل الشتاء في تطوان، وفصل الربيع في البستان، وفصل الصيف في مارتيل على شاطئ البحر، وفصل الخريف في الناحية الأخرى التي تركت، ولا يزالون مستمرين على هذه العادة حتى الآن، إلا أنهم لا يقضون شهر رمضان والعيدين إلا في تطوان ولو كانوا

ساكنين قبل ذلك في إحدى النواحي المذكورة، ينتقلون إلى تطوان فيمضون فيها تلك الأيام ثم يعودون إلى مسكنهم خارج تطوان.

قلنا: إن ذلك الفقيه أقام مأدبة في وضح النهار في بيته في مارتيل على أعين الناس، ولما جاء الضيف الإسباني تلقاه أمام بيته ولم يكتف بمصافحته بل عانقه، فلما رأى ذلك أهل تطوان ـ وهم أهل غيرة وشجاعة ـ حتى[1] اشتد غمهم وحنقهم على الفقيه البيَّاع، ففكروا في عقاب ينزلونه به دون أن يتعرَّضوا لانتقام (بيلدا)، فاتفق رأيهم على أن يجمعوا مقدارًا كبيرًا من العذرة الطرية، ويلصقوه على باب بيته في جنح الليل، ففعلوا ذلك، فلما أصبح الناس اجتمع الذباب على باب بيته وجاء الناس يتفرجون، وقد كثر عددهم، وعادة أهل تطوان أنهم لا يقومون من النوم إلا في الضحى، فأخبر بعض الجيران الفقيه وأهله بما جرى، فقاموا فزعين وأخذوا ينظفون بابهم والناس تنظر إليهم وبعضهم يضحك وبعضهم يتشفى ويقول: هذا جزاء البياع الذي يوالي أعداء وطنه وينصرهم على قومه.

الخامسة (وحقها أن تكون الأولى): أن هذا الفقيه كان تلميذًا للشيخ محمد بن جعفر الكتاني الفاسي المغربي الذي قضى شطرًا كبيرًا من عمره في دمشق، وكان محترمًا عند المغاربة وأهل الشام، ولما استولى الإسبانيون على تطوان وقسم من شمال المغرب استشار الفقيه التلميذ أستاذه الكتاني في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، فاستحسن الشيخ ذلك وحثه عليه، فهاجر الفقيه إلى المدينة النبوية وأقام بها مدة، فلما خلع الفرنسيون السلطان عبد الحفيظ بن الحسن الأول سافر هذا السلطان إلى مصر ثم إلى الحجاز، فذهب إليه الفقيه المبتدع

(١) سقطت من بعض طبعات الكتاب.

وشكى له حاله وأنه يريد أن يرجع إلى المغرب ويعود في هجرته، فأعانه على ذلك ورجع إلى تطوان، ولم يقتصر على هذا الذنب حتى صار بياعًا، فسخط عليه الشيخ الكتاني وهجره واستمر على ذلك حتى مات، وقد أشرت إلى ذلك في القصيدة حين قلت:

فَبُؤْتَ بِسُخْطِ الله ثم رَسُولِهِ وسُخْطِ شُيوخٍ كابنِ جَعْفَرَ زُهَّدِ

السادسة: كان في تطوان فقيه مشهور بالصلاح والعفة والزهد والاستقامة يقدِّسه أهلُ تطوان وهو الشيخ محمد اللواجري، وكان معتكفًا في بيته لا يشهد جماعةً ولا جُمعةً، وعلَّل ذلك بأنه يرى المناكر ولا يستطيع أن يغيرها، وكنت أزوره الفينة بعد الفينة فكان يفرح بزيارتي ويأنس لها، ولم أر منه معارضة في التوحيد، والذي يظهر لي أنه كان بريئًا من الشرك، وكان هذا الفقيه من تلامذته[1]، ولما أراد الهجرة من تطوان استشاره فاستحسن ذلك، فلما رجع من هجرته غضب عليه اللواجري غضبًا شديدًا وحذر الناس منه، ولا سيما حين صار بياعًا، وكان هذا الفقيه يجتهد بكل وسيلة أن يجد سبيلًا لإرضاء الشيخ اللواجري، فكان يضرب في حديد بارد، لأن اللواجري أصر على السخط عليه وبغضه لله، فلما حضرت الوفاة الشيخ اللواجري اغتنم هذا الفقيه الفرصة وظن أن شيخه وهو في غمرات الموت لا يعرفه إذا سلَّم عليه وودَّعه، وبذلك يخرج من سخطه ولو فيما يظهر للناس، فقصده، وحدثني أحد أعيان تطوان وأشرافها ـ وهو الحاج محمد الشرتي ـ أنه كان جالسًا عند الشيخ اللواجري رَحِمَهُ اللهُ، وقد حضَرَتْه الوفاة، فجاء هذا الفقيه وقبَّل رأسه وقال: سامحني أيها الشيخ الصالح. فما كان من الشيخ المحتضر إلا أن استوى جالسًا كأن لم يكن به مرض ورفع يده ولطم

(١) بل من أصدقائه. (خ)

الفقيه لطمة شديدة، ثم اضطجع فمات في الحال، وإلى ذلك أشرت في القصيدة بقولي:

وكان اللَّواجِرِيُّ يَقْليكَ كالعَمَى   مَتَى جِئْتَهُ يا قَيْنُ تُصْفَعُ وتُطْرَدِ

فإن قيل: لماذا سمَّيتَه قينًا وهو فقيه؟ فالجواب: أن القين في اللغة العربية هو الحدَّاد، وكان أبوه حدادًا، وكان هو يشتغل معه في صباه، ولمَّا تعلَّم الفقه، أعني فروع المذهب المالكي ـ وليس ذلك بفقه ولكنه اصطلاح وعُرف، كتسمية اللديغ بالسليم ـ ترك تلك الحرفة، وكان دكّان أبيه الذي كان يشتغل معه فيه بهذه الصنعة لا يزال تحت تصرفه يكريه. فإن قيل: وهب أنه كان حدادًا فأيُّ نقص في ذلك، وقد كان نبيُّ الله داود يصنع الدُّروع من الحديد، قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠] فمعرفة هذه الصنعة نعمة فكيف يُعَيَّرُ بها؟

فالجواب: أنها في حق داود عليه السلام نعمةٌ وفضيلةٌ، وفي حقِّ غيره أمر مباح لا يحمد فاعله ولا يذمّ، فلو كان هذا الفقيه مستقيمًا في دينه ولم يبدأني بالظلم ما عيَّرته بذلك، لأنَّ هذه الصنعة لا يضيره التعيير بها لو لم يكن موصوفًا بتلك الطوام، وإذ كان مشركًا مبتدعًا بياعًا، فإني لم أر حرجًا في تذكيره بحرفته السابقة وحرفته اللاحقة، قال الشاعر:

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذِمَّةٍ   ذَمُّوهُ بِالْحَقِّ وبِالْبَاطِلِ[1]

ولما انتشرت القصيدة وصارت حديثَ الناس نظم نظمًا ركيكًا هجاني به، ولم يجد ما يعيبني به إلا زعمه أن أبي كان حقيرًا يكنس

(١) البيت في «عيون الأخبار» (٢/ ٣١) و«محاضرات الأدباء» (١/ ٣٧٣) للراغب، دون نسبة، وهو لإبراهيم بن هرمة في «التذكرة الحمدونية» (٥/ ٤١).

الشوارع، وأن أمي كانت خادمةً في البيوت، وأني مصاب بداء السل لا أزال أبصق وأسعل والمخاط يسيل من أنفي، وأن الشباب الذين صحبوني اصفرَّت وجوههم، فلم يعبأ أحد بقصيدته، لركاكتها ولأنها شتم وكذب وتناقض، فإنه قال في الجامع الكبير على رءوس الأشهاد في حقي: إنني شخص مجهول لا يعرف من أين خرجت! وهذا كذب مفهوم، فإن كان يجهلني ففي تطوان من يعرفني، ويعرف أبي وأمي، وأن أبي كان عالمًا وجيهًا وأمي كانت شريفة عزيزة، وقد تقدم أن الهجو بالكذب لا يضر، فلما رأيت قصيدته وهي في مئة وخمسين بيتًا وكلها هذيان وشتم ـ كما تقدم ـ هجوته بقصيدة أخرى نظمتُ أربعة أبيات منها في تطوان وسائرها بالأندلس، وينبغي أن أثبتها هنا كلها أو بعضها:

يَا أَهْلَ تَطْوَانَ إِنَّ السَّاعَةَ اقْتَرَبَتْ ... شُدُّواْ حَيَازِيمَكُمْ يا أَهْلَ تَطْوانِ
شَيْخُ الْحَدِيدِ غَدَا شَيْخَ الْحَدِيثِ لَدَى ... دَارٍ يُرَادُ بِهَا تَثْقِيفُ فِتْيَانِ
وَهَلْ سَمِعْتُمْ بِقَيْنٍ صَارَ ذَا أَثَرٍ ... يَرْوِي الْحَدِيثَ بِإِحْكَامٍ وَإِتْقَانِ
عَنْ فَحْمَةَ بْنِ دُخَانٍ عَنْ أَبِي شَرَرٍ ... كِيرٍ عَنِ الشَّيْخِ مِطْرَاقِ بْنِ سَنْدَانِ
يَقُولُ: لَا تَثِقُوا فَإِنَّ صَاحِبَنَا ... حَدِيثُهُ مَخْضُ[1] تَدْلِيسٍ وَبُهْتَانِ
وَقِيلَ: لَا صَانِعٌ إِلَّا وَيَكْذِبُ فِي ... قَوْلٍ وَأَكْذَبُهُ حَدِيثُ أَقْيَانِ
وَمَنْ عَلَى ابْنِ مَشَيشٍ افْتَرَى كَذِبًا ... لَمْ يَحْتَرِمْ جَدَّهُ سَلِيلَ عَدْنَانِ
وَصَحَّ مَنْ جَالَسَ الْحَدَّادَ سَوَّدَهُ ... أَوْ أَحْرَقَ الثَّوْبَ مِنْهُ لَفْحُ نِيرَانِ
فَيَا تَلَامِيذَهُ أَنَا النَّصِيحُ لَكُمْ ... فَإِنَّهُ فَاجِرٌ عَدِيمُ إِيمَانِ
وَيَا تَلَامِيذَهُ كُونُوا عَلَى حَذَرٍ ... مِنْ خُبْثِهِ فَهْوَ شَرُّ الإِنْسِ والْجَانِ

(١) في «الديوان»: «محض».

فَقَبِّلُوا[1] يَدَهُ وَاحْنُوا رُؤُوسَكُمُ ... كَيْ لَا يُصِيبَكُمُ يَوْمًا بِعُدْوانِ[2]
فَإِنَّ تَقْبِيلَ كَفِّ الْقَيْنِ صَارَ لَهُ ... كالقوتِ لِلطاوِ أو كالمَا لِظمآنِ
لا تعجَبوا مِن يدٍ مِنْ كيرهَا انْتَقلتْ ... لِلْكُتْبِ يُعْجِبُهَا تَقْبِيلُ فِتْيَانِ
فَالْكُتْبُ شَاكِيَةٌ بِالْدَّمْعِ بَاكِيَةٌ ... تَقُولُ يا ذِلَّتِي في شَرِّ أَزْمَانِ
مَا زِلْتُ فِي ضِعَةٍ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى ... قَيْنٍ يُبَهْدِلُنِي مِنْ بَيْنِ أَقْرَانِي
مَا كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَبْقَى إِلَى زَمَنٍ ... فِيهِ يُدَنِّسُنِي قَيْنٌ بِأَدْرانِ[3]
تَاللهِ لَوْ كَانَ لِلْتَّدْرِيسِ مُحْتَسِبًا[4] ... لَظَلَّ مُنْكَمِشًا فِي قَعْرِ دُكَّانِ
يلوي[5] الْحَدِيدَ وَيَطْوِيهِ وَيَنْشُرُهُ ... أَوْلَى بِهِ ذَاكَ مِنْ عِلْمٍ وَعِرْفَانِ
دَقَقْ دَقَقْ دَقَقٌ دَقَقْ دَقَقْ دَقَقٌ ... دَقَقْ دَقَقْ فَانْفُخُوا بِالْكِيرِ صِبْيَانِ
لِكِنَّ ذَا زَمَنٍ بِهِ الْبُغَاثُ غَدَا ... مُسْتَنْسِرًا صَائِلًا في زِيِّ عِقبَانِ
وَالْذِّئْبُ أَصْبَحَ مَسْكَ الْضَّأْنِ مُرْتَدِيًا ... لِيَبْتَغِي الْصَّيْدَ مِنْ أَغْرَارِ خِرْفَانِ
وَأَصْبَحَ الْدِّينِ لِلْدُّنْيَا تَعَلُّمُهُ ... وَقَدْ تَمَوَّلَ مِنْهُ كُلُّ خَوَّانِ
لَوْ كَانَ يُجْدِي الْبُكَا يَوْمًا بَكَيْتُ عَلَى ... عِلْمِ الْحَدِيثِ وَتَفْسِيرٍ وَقُرآنِ
لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى الأَسْمَاءِ خَالِيَةً ... مِنْ كُلِّ مَعْنًى سِوَى تَحْرِيفِ كُهَّانِ
وَكَمْ أَهَبْتُ بِقَوْمِي صَارِخًا أَبَدًا ... أُوبُوا لِهَدْيِ نَبِيِّ اللهِ إِخْوَانِي
دَعُوا دَجَاجِلَةً يَبْغُونَهَا عِوَجًا ... فَلَنْ يَقُودَكُمُ[6] إِلَّا لِخُسْرَانِ
أَسْلَافُنَا ارْتَفَعُوا، أَسْلَافُنَا سَعِدُوا ... لِقَفْوِهِمْ أَحْمَدَ الْهَادِي بِإِحْسَانِ

(١) في «الديوان»: «وقبلوا».
(٢) في «الديوان»: «أَوْ لَا يصيبكُمُ بكلِّ عُدْوان».
(٣) بعده في بعض أصول القصيدة:
وما تُرجون من قينٍ تفاقه إذْ ... خَلا لهُ الجوُّ من فُرسان ميدانِ
(٤) في بعض طبعات الكتاب: «محتسب».
(٥) في بعض طبعات الكتاب: «يروي».
(٦) في «الديوان»: «يقودوكم».

قَدِ اقْتَفَوا سُنَّةَ الْمُخْتَارِ خَالِصَةً ... مِنْ غَيْرِ شَوْبٍ بِزَيْدٍ أَوْ بِنُقْصَانِ
وَمُنْذُ بَدَّلَ قَوْمٌ هَدْيَهُ سَقَطُوا ... إِلَى الْحَضِيضِ وَنَالُوا كُلَّ حِرْمَانِ
أَوْطَانُهُم بِهِمُ وَاللهِ قَدْ شَقِيَت ... وَالأَرْضُ تَسْعَدُ أَوْ تَشْقَى بِسُكَّانِ
وَاللهِ لَنْ تَسْعَدُوا إِلَّا بِمَا سَعِدُوا ... فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ وِسْوَاسُ شَيْطَانِ
وَمَنْ يَرُدُّ حَدِيثَ الْمُصْطَفَى سَفَهًا ... يَا رَبِّ فَالْعَنْهُ مِنْ جِنٍّ وَإِنْسَانِ
يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا ... مَا غَنَّتِ الْوُرْقُ فِي دَوْحٍ بِأَلْحَانِ
وَالآلِ وَالصَّحْبِ ثُمَّ التَّابِعِينَ لَهُ ... وَاجْعَلْ مَحَبَّتَهُ رُوحِي وَرَيْحَانِي
فَرِّجْ بِهَا كُرَبِي وَاجْمَعْ بِهَا شَعَثِي ... وَأَصْلِحِ الْحَالَ فِي سِرِّي وَإِعْلَانِي
وَانْصُرْ بِهَا حِزْبَنَا طُولَ الْحَيَاةِ وَفِي ... يَوْمِ الْجزَا جُدْ لَنَا طُرًّا بِغُفْرَانِ[1]

السابعة: أن هذا الفقيه ـ المتحمِّس للمذهب المالكي بزعمه ـ كانت له ابنة زوجها بشابٍّ[2] كبير[3] في وزارة العدل التي كان يتولاها أفيلال، وكانت بينه وبين الفقيه عداوة لأن كليهما فقيه، أحدهما محظوظ والآخر محروم، فكان الفقيه يسأل صهره عما يجري في الوزارة ليتوسل به إلى الطعن في الوزير، فلا يكاد يسعفه بشيء مما يريد، ولما ألح عليه قال له: أيها الفقيه! لا تسألني عن شيء من أسرار الوزارة فإني أقسمت يمينًا على الإخلاص في عملي، وإفشاء الأسرار يعد خيانة وعواقبه وخيمة، فغضب عليه وقال له: هذا قدري عندك يا ناكر الإحسان! زوَّجْتُك ابنتي وفضَّلتك على غيرك ثم أنت

---

(١) الأبيات في «منحة الكبير المتعالي» (ص٦٠٣ ـ ٦٠٧)، وقبلها: «قلت بمدينة غرناطة في ١٢/محرم/١٣٦٥ في أحد دجاجلة أهل هذا الزمان، الذين شقيت بهم الأديان والأوطان..» وساقها، وأشار إليها في رسالة وجهها إلى أحمد هارون في ٢٦/محرم/١٣٦٥ يوافق ٢/يناير/١٩٤٦م.

(٢) هو الفحصي. (خ)

(٣) الصواب: «كاتبًا». (ع)

تتألب عليَّ مع عدوي، فسترى كيف يكون عقابي لك، فأمر ابنته أن تنشز، فنشزت ثم أجبره على تطليقها فطلقها كارهًا[(١)]، وهو يستغيث بالناس فلم يغثه أحد، ولما تزوَّجَ شرط على أولياء الزوجة الجديدة أنه متى يسر الله له أن يرجع زوجته ابنة الفقيه فإنه سيطلق ابنتهم!! وإلى ذلك أشرت بقولي في القصيدة الدالية:

وَفَرَّقْتَ بَيْنَ الْبَعْلِ وَالْزَّوْجِ ظَالِمًا ... بِعُنْفٍ وَإِكْرَاهٍ فَهَلْ أَنْتَ مُهْتَدِ[(٢)]

الأبيات، إلى أن قلت:

أَهَذَا الَّذِي تَدْعُو بِمَذْهَبِ مَالِكٍ ... كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ يَاقَيْنُ فَاقْصُدِ

ومن أشهر ما وقع لمالك رَحِمَهُ اللهُ في حياته أنه كان يفتي بأنَّ طلاق المكرَه غيرُ لازم[(٣)] وعلى ذلك ضُرب بالسياط، فالعجب ممن يريد أن ينصر المذهب المكذوب على مالك ثم يخالف مذهبه الصحيح المتواتر ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

الثامنة: أنه كان يريد ـ ولو بجدع الأنف ـ أن يكون مدرِّسًا في المعهد الديني الأعلى وسعى للوصول إلى ذلك سعيًا حثيثًا، واستعان بسادته المستعمرين، فلم يصل إلى مرامه إلا بعد اللتيا والتي، ولما صار مدرِّسًا في المعهد صار يفرض على الطلبة كلما رأوه من بعيد

---

(١) بل اختلعت منه المرأة بعد أن أقسم الفقيه أيمانًا مغلظة أن لا ترجع ابنته إليه أبدًا. (خ)

(٢) «منحة الكبير المعالي» (ص٢٧٨).

(٣) انظر «المدونة» (٢/ ١٢٩)، «التفريع» (٢/ ٧٥)، «الإشراف» (٣/ ٤٧ بتحقيقي)، «جامع الأمهات» (٢٩٥)، «مواهب الجليل» (٤/ ٢٦)، «بداية المجتهد» (٢/ ٨١)، «قوانين الأحكام» (٩٧)، «الخرشي» (٤/ ٣٣)، «حاشية الدسوقي» (٢/ ٣٦٥).

أن يهرعوا إليه ويقبِّلوا يده، ويهدِّدهم بأن من لم يفعل ذلك يسقطه في الامتحان، وإلى ذلك أشرت بقولي في النونية:

فَيَا تَلَامِيْذَهُ أَنَا الْنَّصِيحُ لَكُمْ فَإِنَّهُ فَاجِرٌ عَدِيمُ إِيمَانِ
فَقَبِّلُوا يَدَهُ وَاحْنُوا رُءُوْسَكُمْ كَيْ لَا يُصِيبَكُمُ يَوْمًا بِعُدْوانِ

راجع هذه الأبيات في النونية(١).

التاسعة: أنه كان له بيت في مارتيل وكان يريد بيعه فلم يجد من يشتريه منه، فسافر من تطوان إلى القصر الكبير وقصد المثري المشهور الحاج عبد السلام حسيسن، وقال له: إن سيدي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه جاءني في المنام فشكوتُ له تعسُّرَ بيعِ داري التي في مارتيل، فقال لي: اذهب إلى خادمنا الحاج عبد السلام حسيسن وبلغه سلامي، وأخبره أني آمره أن يشتري منك تلك الدار، وسيشتريها منك. قال الحاج عبد السلام: فلما جاءني وقصَّ عليَّ الرؤيا قلت له: إن أمر سيدي عبد السلام على رأسي وعيني، ولكني أنا بنفسي عندي بيت في مارتيل لا أحتاج إليه، لأني أسكن في طنجة وفي القصر الكبير، وأنا محتاجٌ إلى بيعه فكيف أزيد عليه بيتًا آخر؟! فرجع خائبًا، وإلى ذلك أشرت بقولي في الدالية:

عَلَى ابْنِ مَشَيشٍ قَدْ كَذَبْتَ بِلَا حَيَا فَأَخْزَاكَ رَبُّ الْنَّاسِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

العاشرة: زيارة الفقيه البياع لأستاذي شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي(٢)، سافر هذا الفقيه من تطوان إلى الرباط وزار شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي رحمه الله، فلما أخبره أنه من تطوان سأله

(١) تقدمت بطولها، وبين البيتين المذكورين هنا بيت ثالث، فراجعه.
(٢) ستأتي ترجمته قريبًا.

عني فقال له: تعرف الدكتور محمد تقي الدين الهلالي؟ فقال له: نعم أعرفه وقد هجاني بقصيدتين، ولما تقلَّص ظل الاستعمار الذي كان حائلًا بيني وبين رؤية أستاذي[1] المذكور واجتمعتُ به أخبرني بذلك وقال لي: لما أخبرني أنك هجوته علمت أنه خبيث.

---

(١) وابن العربي العلوي هذا الذي يسميه الهلالي شيخ الإسلام صاحب سوابق خطيرة في ميدان الفتوى. (خ)
قلت: حدثني شيخنا بقوله: مما سمعته عنه قوله في الأميرة عائشة ابنة الملك محمد الخامس: لقد أتت بما لم تأتِ به الحميراء يقصد أمنا عائشة ﵂. وكذلك فتواه لبعض التجار السوس وهم من أقارب الشيخ محمد مختار السوسي بعد أن منعتهم سلطات الاحتلال الفرنسية تمكينهم من رخص استيراد السلع حتى يبيعوا الخمور، فأفتى لهم الشيخ العلوي ببيعها! إلى جانب أنه كان يدخن بكثرة حتى اصفرت شواربه بسببه، وكان يلعب الورق ويسمي رموزها بأسماء الأولياء المشهورين وقتها استهزاء بهم.... (ع)
قال أبو عبيدة: هذه ترجمة مطولة له، والهلالي يفتخر بتلمذته عليه، ويذكر أنه ما عرف السلفية إلا منه، وأنه تاب على يديه.
هو محمد بن العربي العلوي، المدغري الحسني، وزير العدلية سابقًا، الشيخ الإمام، الحجة الهمام، العلامة السلفي، المطلع المشارك، النقاد المدرس، النفاعة الوطني، المخلص المكافح بكل ماله وقوته بأفكاره، وآرائه الصائبة عن الإسلام وعن وطنه بإخلاص وحسن نيته.
كان في أول أمره يؤمن بالطرق وأهلها، ويدافع عنها، بل كان تجانيَّ الطريقة، ولما رجع الشيخ أبو شعيب الدكالي من المشرق بعد ما طلب العلم هناك حاملًا الأفكار السلفية الداعية إلى الرجوع إلى الإسلام على حقيقته؛ اتَّصل به اتصالًا مكينًا، وأخذ عنه؛ فأنار فكره وقوَّى عزيمته، وأخرجه من ربقة التقليد الأعمى؛ فكان صاحب الترجمة أول من أظهره الله للوجود من العلماء السلفيين، وأول مَن صدع بالحق بعد الشيخ أبي شعيب، فدخل إلى القرويين، وصار ينير مشكلها ويضيء جوانبها بقبس من النور، فما لبث أن التفَّ حوله نخبة من الشباب ـ لا يُستهان بهم ـ، وانتشر مذهبه في الأوساط العلمية الراقية، وصار الناس ما بين مؤيد ومخالف، وسرعان ما انتصر الحق على =

= الباطل؛ إن الباطل كان زهوقًا؛ فكانت جل دروسه حاملة سيف الانتصار ضد أهل الطرق الموجودة بالمغرب، وأهل الزوايا، والمشعوذين الملبِّسين الحق بالباطل، وحمل ضد زيارة القبور والتملق إليها، وطلب النفع منها، والالتجاء إليها.

كلُّ هذا كان لا يخلو من نقد وشتم ولعن من أصحاب الطرق؛ فكم نصبوا له من أفخاخ، وكم بارزوه بمكايد، حتى إن بعض العلماء أفتوا بكفره وخروجه من ربقة الإسلام، كل هذا لم يؤثر في عزمه؛ لأنه يعرف نفسه أنه على الحق.

ومن المآثر التي تحفظ له ولا تنكر: قطع شجرة السدرة الكبرى التي كانت قبالة باب ضريح الشيخ أبي غالب الكائن بحومة صريرة داخل باب الفتوح؛ فإن هذه الشجرة كادت أَنْ تُعبد من دون الله؛ فقد كبرَتْ واتسعَتْ، وطال عليها الأمد، وكانت النساء والصبيان ـ وحتى بعض الرجال ـ يقصدونها ويلتمسون بركاتها، وتُعلَّقُ فيها بعض الخرق المعقودة، ولا يمكن حلها إلَّا بعد قضاء الحاجة المتطلبة، وكان ربما أعماهم الشيطان؛ فيصادفون بعض الإجابة، فإذا رأيت منظرها اندهشت من كثرة ما يعلق بها من الخرق والتمائم وأوراق الكتابة والحروز وغير ذلك من الأمور التي يستغرب منها كشعر النساء.

وكان من العادة الجارية أن كل من زارها وعلق بها مطلبه لا بُدَّ له من أن يدخل الضريح ويجعل فيه شيئًا من المال؛ لأجل أن تقضي حاجته، ومَن لا يفعل ذلك لا تقضى له حاجة؛ فكان ولاة الضريح ـ وهم الشرفاء الطالبيون ـ يعظمونها مع الناس لأجل المادة التي تحصل لهم.

وكان يوم قطعها يومًا مشهودًا بين مستحسن ومخالف، وقال رئيس الفئة المتطرفة وزعيمهم الأكبر: إن ابن العربي ـ صاحب الترجمة ـ سيُصاب بشلل من أجل قطع الشجرة التي يتبرك بها الناس، وبعد مدَّة سلَّط الله عليه ذلك، وبقي ابن العربي سالمًا، والحمد لله لأنه يُدافع عن الحق.

ومن أفعاله المذكورة صرخته الكبرى في وجه الطوائف الضالة؛ مثل الطائفة المنسوبة للشيخ مَحمد ـ فتحًا ـ ابن عيسى، والطائفة المنسوبة للشيخ علي ابن حمدوش، وغيرهما من الطوائف الذين كانوا يفعلون أفعالًا لا يقبلها الشرع؛ مثل الشطح في الأسواق والأزقة على نغمات المزامير والطبول، وأكل =

= اللحم النيئ، وضرب الرؤوس بشواقر، وجعل النار في أفواههم، إلى غير ذلك من الموبقات؛ فقد سعى بكل جهوده لقطع دابر ذلك من المغرب، ولم يهمل السعي وراءه حتى صدر الأمر بمنعه من جلالة الملك محمد الخامس عام أربعة وخمسين وثلاث مئة وألف، وأراح الله من ذلك البلاد والعباد، ومناقبه في هذا الباب لا تُعدُّ، وإن شئت قلت ـ بلا مداهنة ولا محاباة ـ: إنه هو الرجل الأول الذي غرس البذرة الأولى للسلفية في الشعب.

أخذ العلم عن الشيخ مَحمد ـ فتحًا ـ بن الشيخ قاسم القادري، وعن الشيخ أحمد بن الخياط الزكاوي الحسني، وعن الشيخ مَحمد ـ فتحًا ـ بن محمد كنون، وعن الشيخ عبد السلام الهواري، وعن الشيخ خليل الخالدي، وعن الشيخ أبي شعيب الدكالي، وهو الذي وجهه التوجيه السلفي كما سبق، وغيرهم من الأشياخ.

تولى قضاء فاس الجديد حوالي عام ثلاثة وثلاثين وثلاث مئة وألف، وبقي به مدَّةً، ثم رياسة مجلس الاستئناف بالرباط، ثم وزارة العدلية، ولما وقعت حوادث أربع وأربعين وتسع مئة وألف الموافقة لصفر عام ثلاثة وستين وثلاث مئة وألف عُزل من منصبه، ونُفي إلى تافيلالت، وبقي في منفاه إلى شعبان عام أربعة وستين وثلاث مئة وألف، فرجع ينشر أفكاره بين الأوساط المغربية.

وأخيرًا؛ انتقل إلى الرباط، واستوطن مدينة فاس؛ فكان في رمضان يُلقي دروسًا بالقرويين، تُشدُّ إليها الرحال، وفي أواخر ربيع الثاني عام ثلاثة وسبعين وثلاث مئة وألف ـ بعد خلع السلطان محمد الخامس ـ نُفي محمد بن العربي العلوي إلى تيزنيت، أيضًا أتوا إليه في الساعة الثانية صباحًا وعذَّبوه على كبر سنه وعلمه!

وفي عشري ربيع الثاني عام أربعة وسبعين وصل إلى فاس بعد أن بقي في المنفى سنتين، وكان قد امتنع من التوقيع على عزل محمد الخامس. توفي مساء يوم الثالث والعشرين من محرم عام أربعة وثمانين وثلاث مئة وألف، ونقل إلى تافيلالت حيث دفن ببلاد مدغرة مع أبيه وأجداده.

له ترجمة في «سل النضال» (١٩٥ ـ ١٩٧)، «إتحاف المطالع» (٢/ ٥٨٣)، «موسوعة مواقف السلف الصالح» (١٠/ ٤٣٧)، مجلة «البصائر» العدد (٣٠) السنة الأولى ٥ أبريل ١٩٤٨م. وانظر أيضًا: «آثار الإمام محمد البشير =

الأمير الملالي والاستسقاء

يُسمِّي المغاربة أمير كل بلد قائدًا، والقائد (الملالي) حاكم القصر الكبير كان من أقوى الأمراء الذين لهم وزن ثقيل عند المستعمرين الإسبانيين وعند رعيته، ولكنه لم يكن يقارب منزلة أمير العرائش السيد خالد الريسوني رَحِمَهُ اللَّهُ كما تقدمت الإشارة إلى ذلك. لما سمع الأمير الملالي بقدومي تطوان ودروسي فيها أراد أن يدعوني إلى إمارته ليكرمني، وتكلَّم مع الزعيم عبد الخالق الطُّريْس في ذلك، وسألت عنه فعلمت أنه تجاني متعصب، فنشرت في صحيفة «الحرية» ثلاث مقالات تحت هذه الترجمة (كيف خرجتُ من الطريقة التجانية)، وذكرت فيها قصة خروجي وتوبتي من هذه الطريقة، وأقمت البراهين على بطلانها، فغضب غضبًا شديدًا، ورجع عما كان عازمًا عليه، ولما أصبتُ بداء الربو وقد تقدم أن المشركين في تطوان زعموا أن الشيخ السعيدي هو الذي أصابني بذلك المرض لأني أنكرت عليهم عبادته بالذبح والنذر والاستغاثة.

فقلتُ على كرسي الوعظ في الجامع الكبير: إن هؤلاء الذين يزعمون أن الشيخ السعيدي هو الذي أصابني بمرض الربو ليس لهم عقل ولا دين، أما العقل فدليل نفيه عنهم أن خلقًا كثيرًا من سكان تطوان رجالًا ونساء مصابون بهذا الداء، وهم يعبدون الشيخ السعيدي، فمن ذا الذي أصابهم بهذا المرض؟! وأما دليل نفي الدين فإن الشيخ السعيدي إما أن يكون مؤمنًا بكتاب الله وبرسول الله ﷺ، وحينئذٍ لا بد أن يكون مغتبطًا ومسرورًا بدعوتي إلى توحيد الله واتباع رسوله ﷺ، ساخطًا على كل من يعبده بالذبح والنذر والاستغاثة متبرئًا إلى الله من عملهم، وإما أن

= الإبراهيمي» (٢/ ٩٣)، «سبيل الرشاد» (٣/ ١٧٥ و٤/ ١٢٧) وتعليقي على «ديوان الهلالي» (١٩٦ ـ ٢٠٢).

يكون مشركًا يرضى بعبادتهم له؛ إذًا فأبعده الله إن كان ذلك، والذي نظنه به هو الخير ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

ولما اشتد عليَّ مرض الربو قيل لي: لو توجهت إلى القصر الكبير فإن بينه وبين البحر عشرين ميلًا، وهواؤه ناشف بعض الشيء يمكن أن يخفف عنك بعض ما تعانيه، فذهبت إلى القصر ونزلت في فندق، وأنا في حالة يرثى لها، فجاءني رجل يظهر عليه أثر النعمة والغنى ومعه شاب فسلم عليَّ ببشاشة، فقلت له: من أنت؟ فقال لي: أنا الحاج عبد السلام حسيسن وهذا ابني محمد، فرحبت بزيارته، فقال لي: أما تعرفني؟ قلت: لا. فقال لي: إنني حضرت مجالسك في طنجة وكنت عازمًا في ذلك اليوم أن أدخل في الطريقة التجانية، فسمعتُك تشرح ما فيها من الضلالات، فعدلتُ عن الدُّخول فيها وحمدتُ الله الذي أنقذني من الوقوع في حبائلها، فلك عليَّ فضل لا يُنسى، وأنا أدعوك أن تنزل في بيتي، فقلت له: إني اخترت هذه المقصورة لأنها محكمة النوافذ لا يهب عليَّ فيها الهواء البارد، فقال لي: عندي غرفة أحسن منها ومعها حمامها وبيت الخلاء، وأنا أقوم بخدمتك على أحسن وجه، فأقمت عنده خمسة عشر يومًا، ثم سافرت إلى طنجة وجئت بأهلي وأقمنا في ضيافته خمسة عشر يومًا، فأردنا أن نسكن في بيت وحدنا، فأسكننا في بيت له خارج المدينة وبقيت هناك أربعة أشهر.

صلاة الاستسقاء

وفي تلك السنة قلَّ المطر وعم الجدب، وعادة المغاربة[1] في مثل

(١) ومن اللطائف في هذا الباب أن شخصًا غريبًا سأل الفقيه السيد العربي الخطيب، وقد رأى الجمهور من الناس سائرين يذكرون، ويطلبون الغيث: إلى أين هؤلاء سائرون؟ فأجابه أنهم يفتشون على الله في أضرحة الأولياء. (خ)

هذه الحال أن يفزعوا إلى أضرحة الأولياء ويذبحوا لهم الذبائح، ويستغيثوا بهم ليأتيهم المطر ويزول عنهم الجدب، فأمر القائد الملالي مناديًا ينادي قائلًا بأعلى صوته: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، لا تسمعون إلا خيرًا إن شاء الله، إن الأمير يأمركم أن تتبرعوا بالدراهم لشراء الثيران والكباش وتتهيئوا في اليوم الفلاني للاستسقاء عند أضرحة الأولياء، فلما جاء اليوم المعين خرج الأمير والقاضي وجميع أهل البلد حفاة حاسري الرءوس وطافوا على أضرحة الأولياء قائلين بصوت واحد: (جئناكم قاصدين، لا تردونا خائبين، يا أولياء الله الصالحين)! وتوجَّهوا أولًا إلى قطب البلد علي أبي غالب(١) والثور الأسود أمامهم وهو أكبر الثيران وأسمنها، فوصلوا إلى ضريحه خاشعين وذبحوا ذلك الثور، وذابحه يقول: (الذبيحة على الله وعليك يا سيدي علي أبا غالب)، ثم طافوا على أضرحة الأولياء الكبار فذبحوا على ضريح كل واحد منهم ثورًا، وأما الأولياء الصغار فذبحوا على ضريح كل واحد منهم كبشًا ورجعوا، فنشأ غمام في السماء، فسألت الله تعالى أن لا يسقيهم ولا قطرة واحدة، فاستجاب الله دعائي، وانقشع ذلك الغمام وجاء بعده غمام مرارًا ثم انقشع ولم يسقوا قطرة واحدة.

وعدد جماعتنا الموحِّدين، ومنهم السيد أحمد الجباري ـ رحمة الله عليه ـ والحاج عبد السلام حسيسن، فبعضهم اختفى في يوم الاستسقاء خوفًا من الأمير، وبعضهم أعلن معارضته كالحاج عبد السلام حسيسن، وعددهم لا يزيد على أربعين إلا أن أحدهم معلم صبيان وعنده خمسون صبيًّا يعلِّمهم القرآن. جاء بعض أصحابنا إلي وقالوا لي: إن الأمير

(١) هو علي بو غالب القصري، وهو من وفيات سنة ٥٦٨هـ، ترجمته في «المطرب بمشاهير أولياء المغرب» (٤٦ ـ ٤٧).

والقاضي ومن تبعهما ارتكبوا أمرًا شنيعًا مخزيًا، فنريد أن نغسل هذا العار بصلاة الاستسقاء في مصلى العيد خارج المدينة، ونريد أن تكون إمامنا في صلاة الاستسقاء، فإن المغاربة يعتقدون أنه متى صليت صلاة الاستسقاء يموت إمامها ويموت السلطان، ولم يشأ أحد من الفقهاء الموحِّدين أن يصلِّي إمامًا، لأن أزواجهم وأولادهم إذا سمعوا أن أحدهم يريد أن يصلي صلاة الاستسقاء إمامًا يفزعون ويبكون خوفًا عليه ويمنعونه، فقلت لهم: إن المرض عليَّ شديد، ولكني أرجو من الله أن يقويني حتى أصلي بكم صلاة الاستسقاء، وأنا لا أخاف الموت، فاتفق الجماعة على يوم معين، فجاءوني بسيارة وتوجهنا إلى مصلى العيد، ورأيت الزرع بدأ ييبس، فرقيت المنبر وخطبت خطبة غلبني فيها البكاء، وصلَّيتُ بهم ركعتين، وفي اليوم التالي أذن الله للسماء أن تمطر، فأمطرت مطرًا غزيرًا غدقًا أحيا الله به الأرض بعد موتها، واستبشر الناس وفرح أصحابنا بنصر الله لنا على القوم المشركين.

الاجتماع بالأمير الملالي

بعد ذلك المطر كان الأمير الملالي يتحدَّث مع جلسائه، فقال أحدهم: أيها الأمير! على هذا الغيث ينبغي أن نعمل مأدبة كبيرة شكرًا لله تعالى، فقال: إي والله. فقال أحدهم: أنا أصنع لكم مأدبة. ثم قال آخر: ينبغي أنْ يُدْعَى إلى هذه المأدبة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي لأنه هو الذي صلى صلاة الاستسقاء التي على أثرها جاء المطر، فقال الأمير: لا بأس ندعوه. ثم قال لأحد جلسائه ـ من سوء حظي أنني نسيت اسمه[1] ـ

(١) سماه في رسالته المنوّه بها قريبًا، وهو السيد العربي الشاويش.

وسأصفه بما لا يلتبس به مع غيره، فهو رجل من أعيان القصر الكبير، وقد كان قبل الاستعمار سفيرًا للجزائر في المغرب حسب ما سمعت، وهو من جماعتنا الموحدين، فقال له الأمير: أنت من أصحابه، فاذهب إليه وادعه. فجاءني رحمة الله عليه، وقال لي: إن القائد الملالي يدعوك لحضور المأدبة التي ستقام شكرًا لله على المطر. وكنتُ في أشد ما يكون من الضعف وكان مرض الربو عليَّ شديدًا، فسألت الله أن لا يشمت بي أعدائي، وأن يمنحني خفَّةً وقوةً لكي أستطيع أن أتحدَّث وأشرح حقيقة دعوتي أمام هذا الرجل وجلسائه، وهم أعيان البلد.

فاستجاب الله دعوتي، وخفَّ المرض قليلًا، فركبت السيارة وتوجَّهت إلى المكان المعدِّ، فسلَّمتُ عليه وأجلسني إلى جانبه، وكان فقيه القصر الكبير ابن عبد القادر الطود[1] حاضرًا، فبقيتُ ساكتًا أنتظر أن تسنح لي فرصة للكلام، فجرى ذكر اللحوم وما يستحسن أكله منها واختلاف أذواق الناس في ذلك، فقال الأمير: يا عجبًا لأهل سجلماسة! يأكلون الجراد ـ وهو ضرب من الخنافس ـ ويشمئزون كل الاشمئزاز من أكل الحلزون (ويسمى باللغة المغربية ببوش) ثم قال: ولي أصدقاء من شرفاء سجلماسة إذا زاروني وأردت أن أغضبهم على سبيل المداعبة أقول لهم: غداؤنا اليوم ببوش. فيتقزَّزون ويغضبون، فقلت: أيها الأمير! كيف تعيب أكل الجراد على أهل بلادنا وقد أكله النبي ﷺ[2]، وتمدح أكل الحلزون وهو دود مائع، ولم يأكله النبي ﷺ، فالنبي معنا وبه ننتصر عليكم. فقال الملالي: إذا كان النبي ﷺ معكم وجب علينا أن نكون نحن أيضًا معكم.

---

(١) سماه في الرسالة المنوه بها (عبد القادر الطود).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٩٥) ومسلم (١٩٥٢) عن ابن أبي أوفى قال: غزونا مع النبي ﷺ سبع غزوات أو ستًّا، كنا نأكل معه الجراد.

واستمرَّ الحديث في ذكر ما يؤكل من الحيوان حتى ذكر أكل سباع الوحش كالذئب والكلب والنمر والأسد[1]، فاندفع الفقيه الطود يسرد ما قاله خليل في «مختصره» ـ و«مختصر خليل» عند المغاربة هو كل شيء، هو القرآن والحديث والعلم، متى جرى ذكر مسألة فقهية فالسعيد منهم هو الذي يورد عليها نص «مختصر خليل»، وحين يسمع نصه فهو القول الفصل عندهم ـ فقال الطود: قال صاحب «المختصر»: «وكُره هِرٌّ وذئبٌ ونَمِرٌ وأسد»[2]، وانطلق بسرعة السهم يسرد «مختصر خليل»، فسنحت حينئذٍ فرصة أخرى للكلام، فقلتُ له: اتقوا الله ولا تكذبوا على مالك! فإنكم أبحتم أكل لحوم السباع مع الكراهة التنزيهية[3] ونسبتم ذلك إلى مالك، ومالك بريء من ذلك، فقد روى في «موطئه» بسنده إلى أبي ثعلبة الخُشَني أن رسول الله ﷺ نهى عن

(١) اعتنى بذلك الدميري في كتابه «حياة الحيوان الكبرى»، ووزَّع الكلامَ في الحل والحرمة على كل حيوان أو طير بحرفه، وفي طبعة طهران صور الحيوانات والطيور، ليعرف ما يقابلها في عصرنا.
ولنوح بن محمد بن محمد الطوسي الشافعي (ت٨٦٤) منظومة فيما يحل ويحرم من الحيوان، في (اثنين وخمسين) بيتًا، فصَّل فيها شديدًا في الأحكام، ومنها نسخة في الخالدية (١٥/ ١٣) وأخرى في أوقاف حلب (٦/٢٨٤٠) (٣٧٨٩)، ووجدت عبد القادر بن محمد النعيمي أودعها في كتابه الجيد «الدرر المفيدة والغرر الفريدة» (ق ٣٩/أ ـ ٤٠/ب)، وله «شرح» عليها.

(٢) في «مختصر خليل» (ص٦٦ ط باريس): «والمكروه سبع وضبع وثعلب وذئب وهِرٌّ».

(٣) هذا هو المذكور عند المالكية، انظر «المدونة» (١/ ٤٢٦)، «التفريع» (١/ ٤٦)، «المعونة» (٢/ ٧٠١)، «الإشراف» (٤/ ٣٧٨)، «عقد الجواهر الثمينة» (١/ ٦٠٢)، «الذخيرة» (٤/ ٩٩)، «التلقين» (٢٧٦)، «المنتقى» (٣/ ١٣٠)، «بداية المجتهد» (٢/ ٤٦٨)، «أسهل المدارك» (٢/ ٥٨)، «سراج السالك» (٢/ ١٨).

أكل كلِّ ذي ناب من السِّباع[1]، ثم روى بسنده المتصل إلى أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أكل كل ذي ناب من السباع حرام**»[2].

قال محمد بن الحسن في «موطئه»[3] عقب هذا الحديث: «بهذا نأخذ، يكره أكل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، وهو قول أبي حنيفة والعامة من فقهائنا وإبراهيم النخعي» انتهى، أبَعد ما يصرِّح مالك[4] في روايته عن النبي ﷺ أنه قال: «**أكل كل ذي ناب من السباع حرام**» تنسبون إليه القول بالإباحة مع الكراهة التنزيهية، وتزعمون أنه هو مشهور مذهبه؟! وقد جلبتم بذلك سُبَّة على مذهبكم حتى نسب إليكم خصومكم[5] أنكم تبيحون أكل لحوم الكلاب، وهم في ذلك صادقون لأن «شراح المختصر»[6] ذكروا أن الكلب من جملة السباع، ثم خرجت من الكلام في هذه المسألة إلى الكلام في وجوب اتباع النبي ﷺ وترك

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣٠) ومسلم (١٩٣٢)، وهو في «الموطأ» (٦٤٣ ـ رواية محمد بن الحسن).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٦٤٤ ـ رواية محمد بن الحسن) ومن طريقه مسلم (١٩٣٣).

(٣) بعد رقم (٦٤٤).

(٤) بل صرح أيضًا بقوله في «الموطأ» (١٤٣٤ ـ رواية يحيى) بعد حديث أبي هريرة المتقدم: «وهو الأمر عندنا».

(٥) ومنهم الزمخشري. الذي قال في هجاء المالكية:

وإن مالكيًّا قلتُ قالوا   بأنني أُبيح لهم أكل كلاب

وهم هم... إلخ. (خ)

قلت: انظر البيت مع أبيات أخرى منسوبة للزمخشري في «الفكر السامي» (٢/ ٢٥) لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي.

(٦) انظر منها ـ على سبيل المثال ـ: «التاج والإكليل مع مواهب الجليل» (٤/ ٣٥٦ ط العلمية).

تحكيم الرجال وآرائهم المخالفة لما جاء عن النبي ﷺ، وذكرتُ حديث عدي بن حاتم حين جاء إلى النبي ﷺ وفي عنقه صليب، فقال له النبي ﷺ: «**ألق عنك هذا الوثن**» وكان النبي ﷺ يقرأ سورة براءة حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. فقال عدي: يا رسول الله! إنا لم نكن نعبدهم. فقال النبي ﷺ: «**أليس يحلون لكم ما حرم الله ويحرمون عليكم ما أحل الله فتتبعونهم؟**» قال: بلى. قال النبي ﷺ: «**فتلك عبادتهم**»[(١)] أو كما قال. ثم خرجت من ذلك إلى الدعوة إلى

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وابن جرير (١٠/ ٨١)، والطبراني (١٧/ ٩٢/رقم ٢١٨، ٢١٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٤ رقم ١٠٠٥٧)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١١٦)، و«المدخل» (رقم ٢٦١)، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٣٠) ـ، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ١٣٢ ـ ١٣٣)، والمزي في «تهذيب الكمال» (ق ١٠٩٠) من حديث عدي بن حاتم.

قال الترمذي عقبه: «وهذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروفٍ في الحديث»، وقال المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٣٦٥) في تخريجه: «أخرجه الترمذي وحَسَّنه»، ولم يحسنه الترمذي! وانظر: «تحفة الأشراف» (٧/ ٢٨٤)، و«العارضة» (١١/ ٢٤٦).

قلت: غطيف ـ ويقال: غضيف ـ: ضعيف، ضعفه الدارقطني. انظر: «الضعفاء والمتروكين» (رقم ٤٣٠)، و«اللسان» (٤/ ٢٤٠).

وللحديث شاهد عن حذيفة موقوفًا، وله حكم الرفع، كما هو مقرر في علم المصطلح، وله شاهد آخر جيد من حديث أبي العالية عند ابن جرير في «التفسير» (١٠/ ٨١).

فالحديث حسن بطرقه المتعددة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: =

توحيد الله تعالى وترك البدع في الدين، وتحدَّثتُ زهاء ساعة والأمير يسمع، وكان يحبُّ الخوضَ في النوادر والضحكات، ومع ذلك صبر إلى أن أنهيتُ كلامي وكان رجلًا عاقلًا من أهل المروءة، ومن الأمثال: (عدوٌّ عاقل خير من صديق جاهل)، ولما انتهيت من كلامي قال لي الفقيه ابن عبد القادر الطود: أيها الأستاذ! إنني أُكِنُّ لك الحبَّ والإجلال، فكيف هجمت عليّ بمثل هذا الهجوم الشديد؟! لعلك لا تعلم أنك لما رقيتَ المنبر لخطبة الاستسقاء بحذائك أنكر ذلك كثير من الناس فدافعتُ عنك، وقلت لهم إن فقهاءنا قالوا: لو انتقض وضوء الخطيب وهو في خطبة الجمعة، ثم دعا بماء فتوضأ واستأنف خطبته جاز ذلك، فأيهما أعظم: انتقاض الوضوء أو الخطبة بالنَّعلين؟! فقلت له: أنا ما قصدت الإساءة إليك، ولكنِّي كنت أنتظر فرصة للكلام فهيَّأتها لي بسردك كلام خليل في أكل لحوم السباع، وجزاك الله خيرًا على دفاعك عني. أما الذين انتقدوا عليَّ خطبة وأنا منتعل فهم أجهل من حميرهم؛ لأن الصلاةَ في النعل سنة النبي ﷺ فكيف بالخطبة؟!

الاستسقاء بذبح الخيل

وفي تلك الأيام المجدبة بلغنا استسقاء آخر عجيب وغريب، وذلك أن أهل سريف وهي قرية[1] في شمال المغرب أشار عليهم أحد

= «الإيمان» (٦٤)، وعزاه ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٣٤٨) للإمام أحمد من حديث عدي، ولم أظفر به في «مسنده» (٤/ ٢٥٦ ـ ٣٧٧) مسند عدي، ولا في «أطراف المسند» (٤/ ٣٢٦ ـ ٣٣٢)، ثم وجدتُ الشيخ أحمد شاكر يقول في تعليقه على «الإحكام»: «وهذا الحديث لم يروه أحمد في «مسنده» على سعته».

(١) الصواب: قبيلة أهل سريف، وهي قريبة من القصر. (خ) ومثله تعليقة له على «الديوان» نقلتها من خطه.

الدَّجاجلة[١] بما زعم أنه قرأه في كتيب من كتب الخرافات والأساطير يسمَّى «خزينة الأسرار»[٢]، وذلك أنه إذا وقع الجدب وانقطع المطر وأراد الناس الغيث يعمدون إلى مُهُر من الخيل فيكتبون على جبهته قوله

---

(١) هو القاضي محمد الشرادي. (خ) وفي تعليقه على «الديوان»: «أحمد الشرادي من القبلة المذكورة».

الفقيه العلامة محمد الفاطمي بن محمد الشرادي، ولد بمدينة فاس عام ١٢٨٥هـ، وبها أخذ العلم عن جماعة من العلماء. من تآليفه: «النسيم الصيفي والروح اليوسفي»، و«حاشية على الشيخ التاودي على التحفة»، و«شرح على ألفية بن مالك»، و«تأليف في الذكاة»، و«تسهيل النجعة بمراتب الشفعة»، و«وردة الدهان في أحكام الرهان»، وغيرها، وهو من المقدمين لتلقين أوراد الطريقة التجانية، وقد انسلخ عن الطريقة المذكورة في آخر عمره. توفي يوم الأربعاء ١٩ صفر الخير عام ١٣٤٤هـ ـ ٨ سبتمبر ١٩٢٥م ودفن مع شيخه سيدي أحمد بن الخياط في زاوية سيدي يحيى بالرميلة بفاس. (ع)

(٢) تأليف حقي النازلي، مطبوع بمصر قديمًا، وفيه طامات وأوابد، ويدعو إلى ترويج عقيدة الاتحاد، نسأل الله العافية، وفيه (٦٨ ـ ٦٩):

وأما القراءة على الأحجار للاستسقاء فهو أمر مستحسن مروي عن التابعين حسن البصري وابن سيرين رحمهما الله تعالى، يقرأ على سبعين ألف حصاة على كل واحدة مرة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الآية [الشورى: ٢٨] ويقرأ هذا الدعاء في رأس كل مائة: اللهم لا تهلك بلادك بذنوب عبادك، ولكن برحمتك الشاملة اسقنا ماء غدقًا تحيا به الأرض وتروى به العباد، إنك على كل شيء قدير. ثم ترمي الحصيات في ماء جار أو راكد وهي مشهورة. (ومن الخواص العجيبة والأسرار الغريبة للاستسقاء) أن من كتب قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٢] على جبهة الحصا اليابس الطاهر المغسول، ثم يلقى هذا الرأس في الماء الجاري أو الراكد، فينزل الله تعالى الرحمة، فإذا نزل المطر على قدر الحاجة فليخرج ذلك الرأس من الماء، فهذا مجرب مرارًا. فليكن الكاتب صالحًا عابدًا، . . .»

ولم أظفر بذبح المهر، كما زعم الزاعم!

تعالى من سورة الشورى [٢٨]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ثم يذبحون المُهرَ ويعلقون رأسه في فرع شجرة عالية(١) فإنهم يمطرون، فعل ذلك أهلُ سريف فخيَّبهم الله(٢)، وفي ذلك قلتُ(٣) القصيدة التالية:

بَكَى قَوْمٌ عَلَى جَاهٍ وَمَالِ ... وَأَعْوَلَ آخَرُونَ مِنَ الْهُزَالِ
وَبَعْضُهُمُ بَكَى فِي إِثْرِ خِلٍّ ... بُعَيْدَ الأُنْسِ آذَنَ بِارْتِحَالِ
وَبَعْضُهُمُ يَنُوحُ عَلَى شَبَابٍ ... تَوَلَّى ثُمَّ بُدِّلَ بِاعْتِلَالِ
وَدِينُ اللهِ أَصْبَحَ فِي ضَيَاعٍ ... وَلَا بَاكٍ عَلَيْهِ وَلَا مُبَالِ
بِدَهْرٍ صَارَ فِيهِ الْعُرْفُ نُكْرًا ... وَنُورُ الْحَقِّ غُطِّي بِالضَّلَالِ
وَسُنَّةُ خَيْرِ خَلْقِ اللهِ أَضْحَتْ ... تُنَادِي أَيْنَ أَنْتُم يَا رِجَالِي
طَغَى وَبَغى عَلَيْهَا ذُو ابْتِدَاعٍ ... خَبِيثٌ سَالِكٌ سُبُلَ الْخَبَالِ
مَتَى مَا شَاهَدَ الْغُرَبَاءَ هَبُّوا ... لِنُصْرَتِهَا تَوَعَّدَ بِالْقِتَالِ
وَغَرَّتْهُ جُمُوعٌ وَافِرَاتٌ ... حَوَالَيهِ تُوَالِي مَنْ يُوَالِي
وَسَاعَدَهُ عُمُومُ الْجَهْلِ حَتَّى ... لَقَدْ شَمِلَ الأَسَافِلَ وَالأَعَالِي(٤)

---

(١) أو يرمونه في النهر. (خ)

(٢) أشار الهلالي إلى هذه الحادثة في «رسائله إلى محمود مهدي الاستانبولي» (رسالة رقم ٢٦٨)، و«الديوان» (٤٨٨)، و«السراج المنير» (ص٣٤ ـ ٣٨)، ومجلة «الهدي النبوي» المصرية، المجلد (٣١)، العدد الثاني، بتأريخ صفر سنة ١٣٨٦هـ (ص٣٢ ـ ٣٥).

(٣) في القصر الكبير في ٩/رجب/سنة ١٣٦٤هـ.

(٤) بعده في «الديوان» (٤٨٩) زيادة عدة أبيات، هي:

أَلا يَا حَمْزَةُ الْمَغْرُورُ مَهْلًا ... لَقَدْ عَرَّضْتَ نَفْسَكَ لِلْوَبَالِ
أَتَدْعُو لِلنِّزَالِ لُيُوثَ غَابٍ ... وَلَمْ تَكُ قَطُّ مِنْ أَهْلِ النِّضَالِ
وَتَبْتَدِعُ الْمَوَالِدَ قَصدَ أَكْلٍ ... لِسُحْتٍ سَالِكًا سُبُلَ الْخَبَالِ =

وَحِـزْبُ اللهِ يَـغْـلِـبُ كُـلَّ حِـزْبٍ ... وَيَـنْـصُـرُهُ الْـمُـهَـيْـمِـنُ ذُو الْـجَـلَالِ
فَـيُـصْـلِـتُ مِـنْ كِـتَـابِ اللهِ بِـيـضًـا ... مُـهَـنَّـدَةً تُـضِـيءُ دُجَـى الـلَّـيَـالِـي
وَمِـن سُـنَـنِ الـرَّسُـولِ لَـهُ سِـهَـامٌ ... وَمِـنْ حُـجَـجِ الأُصُولِ لَـهُ عَـوَالِـي
وَأَهْـلُ الـرَّأْيِ[1] كُـلُّـهُـمُ بُـغَـاثٌ ... يَتَامَى فِي الْحَدِيثِ[2] ذَوُو اخْتِبَالِ
وَمَنْ يُعْرِضْ عَنِ الْسُّنَنِ الْعَوَالِي ... يَـذُقْ مُـرَّ الْـهَـزِيـمَـةِ فِـي الْـنِّـزَالِ
وَيُـكْـسَـى الْـخِـزْيَ فِـي دُنْـيَـاهُ دَوْمًـا ... وَفِـي أُخْـرَاهُ يُـقْـرَى بِـالـنَّـكَـالِ[3]

= وَتَـغْـضَـبُ أَنْ يَـجِـيءَ الْـيَـوْمَ نُـورٌ ... مِـنَ الـسُّـنَـنِ الـمُـطَـهَّـرَةِ الْـعَـوَالِـي
فَـيَـسْـحَـتَ مَـا خَـرَقْـتَ مِـنَ ابْـتِـدَاعٍ ... وَيَـسْـقِـيـكَ الأَلِـيـمَ مِـنَ الـنَّـكَـالِ
وَمَـنْ طَـلَـبَ الْـقِـتَـالَ بِـلَا سِـلَاحٍ ... سَـيُـهْـزَمُ ثُـمَّ يَـرْدَى فِـي الْـقِـتَـالِ

(١) في «السراج المنير» للهلالي: «الشركِ».

(٢) في «السراج المنير» للهلالي: «في العلوم».

(٣) عجزه في «السراج المنير» هكذا: «وبالنيران في أُخراه صالي»، وبعد هذا البيت في «الديوان» (٤٩٠ ـ ٤٩١):

وَمَـا لَـكَ فِـي الْـمَـوَالِـدِ مِـنْ دَلِـيـلٍ ... مِـنَ الـقُـرْآنِ وَالـسُّـنَـنِ الـتَّـوَالِـي
وَمَـا لَـكَ فِـي الـصَّـحَـابَـةِ مِـنْ إِمَـامٍ ... وَلَا فِـي الـتَّـابِـعِـيـنَ ذَوِي الْـكَـمَـالِ
وَبَـعْـدَهُـمُ الْـفُـحُـولُ ذَووا اجْـتِـهَـادٍ ... حَـمَـاهُـمْ رَبُّـهُـمْ مِـنْ ذِي الْـخِـلَالِ
بِـدِيـنِ الـشِّـرْكِ تَـأْكُـلُ كُـلَّ يَـوم ... لِـذَلِـكَ قَـدْ سَـمِـنْـتَ مِـنَ الْـهُـزَالِ
وَمَـنْ يَـأْكُـلْ بِـدِيـنِ الْـحَـقِّ يُـسْـلَـكْ ... عَـذَابًـا فِـي الْـحَـيَـاةِ وَفِـي الْـمَـآلِ
فَـكَـيْـفَ الآكِـلُـونَ بِـدِيـنِ شِـرْكٍ ... وَبِـالْـبِـدَعِ الْـمُـقَـطَّـعَـةِ الْـحِـبَـالِ
أَلَا لَا أَشْـبَـعَ الـرَّحْـمَـنُ بَـطْـنًـا ... لِأَفَّـاكٍ يَـعِـيـشُ بِـالاحـتِـيَـالِ
تَـمُـوتُ الْـحُـرَّةُ الـشَّـمَّـاءُ جُـوعًـا ... وَتَـحْـفَـظُ ثَـدْيَـهَـا فِـي كُـلِّ حَـالِ
وَلَا تَـرْضَـى بِـبَـيْـعِ الـدَّرِّ نُـبْـلًا ... فَـكَـيْـفَ بِـعِـرْضِـهَـا يُـشْـرَى بِـحَـالِ
وَبَـيْـعُ الْـعِـرْضِ عِـنْـدَ الْـحُـرِّ شَـيْـنٌ ... وَبَـيْـعُ الـدِّيـنِ أَقْـرَبُ لِـلْـوَبَـالِ
أَلَا يَـا حَـمْـزَةُ أَسْـلِـمْ وَطَـهِّـرْ ... فُـؤَادَكَ كَـي تَـعِـيـشَ مِـنَ الْـحَـلَالِ
وَتُـبْ مِـنْ كُـلِّ شِـرْكٍ وَابْـتِـدَاعٍ ... تَـنَـلْ خَـيـرًا وتَـرْقَـى لِـلْـمَـعَـالِـي
فَـيُـغْـنِـيـكَ الْـكَـرِيـمُ بِـفَـيْـضِ جُـودٍ ... وَتَـأْتِـيـكَ الْـمَـوَاهِـبُ بِـالـتَّـوَالِـي
فَـكَـمْ مِـنْ بَـائِـس لَـمَّـا تَـحَـلَّـى ... بِـدِيـنِ الْـحَـقِّ أُكْـرِمَ بِـالـنَّـوَالِ =

وَمِنْ سُنَنِ الرَّسُولِ وَتَابِعِيهِ[(١)] سُؤَالُ الْغَيْثِ مِنْ مَوْلَى النَّوَالِي
مِنَ الرَّحْمَنِ لَا يَدْعُونَ شَيْئًا سِوَاهُ مُخْلِصِينَ فِي الابْتِهَالِ
إِلَى أَنْ جَاءَ بَعْدَهُمُ خُلُوفٌ دَعَوا أَهْلَ الْمَقَابِرِ بِاهْتِبَالِ
وَقَدْ ذَبَحُوا لَهُمْ بَقَرًا وَشَاءً وَقَدْ نَحَرُوا السِّمَانَ مِنَ الْجِمَالِ
وَمَنْ يَذْبَحْ لِغَيْرِ اللهِ يُلْعَنْ، مَقَالُ الْمُصْطَفَى خَيْرُ الْمَقَالِ[(٢)]
وَأَعْجَبُ بِدْعَةٍ فِيمَا سَمِعْنَا وَأَعْرَقُ فِي الْجَهَالَةِ وَالْخَبَالِ
أُمُورٌ عَنْ سَرِيفٍ قَدْ أَتَتْنَا تَوَاتَرَ نَقْلُهَا بَيْنَ الرِّجَالِ
فَقَدْ عَمَدُوا إِلَى مُهْرٍ كَرِيمٍ مِنَ الْخَيْلِ الْمُطَهَّمَةِ الْغَوَالِي
فَحزُّوا رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ ظُلْمًا وَلَمْ يُذْنِبْ إِلَى أَحَدٍ بِحَالِ
وَقَدْ كَتَبُوا بِجَبْهَتِهِ سُطُورًا مِنَ الْقُرآنِ... يَا لَكَ مِنْ ضَلالِ
وَتِلْكَ إِهَانَةٌ لِلْذِّكْرِ جَلَّتْ صِفَاتُ اللهِ عَنْ هَذِي الْخِلالِ
وَلَوْ تَبِعُوا الْكِتَابَ وَعَظَّمُوهُ مَعَ السُّنَنِ الْمُطَهَّرةِ الْعَوَالِي
لَأَسْقَاهُمْ إِلَهُ النَّاسِ غيثًا[(٣)] بِلَا ذَبْحٍ لِخَيْلٍ أَوْ بِغَالِ
وَمَنْ يُعْرِضْ عَنِ الْقُرآنِ يُسْلَكْ عَذَابًا[(٤)]، قَوْلُ رَبِّكَ ذِي التَّعَالِي

= حَبَاهُ اللهُ بَعْدَ النَّحْسِ سَعْدًا وَأَلْبَسَهُ جَدِيدًا بَعْدَ بَالِ
نَصحتُكَ إِن قَبلْتَ الْيَوْمَ نُصْحِي وَإِنْ تُعْرِضْ فَإِنِّي لَا أُبَالِي
وَأَخْتِمُ بِالصَّلَاةِ عَلى نَبِيٍّ عَظِيمٍ فِي الْمَقَالِ وَفِي الْفِعَالِ
صَلَاةً تَشْمَلُ الأَصْحَابُ طُرًّا وَقَبْلَ الصَّحْبِ تَشْمَلُ خَيْرَ آلِ
دَوَامًا مَا بَدَا فِي اللَّيْلِ نَجْمٌ يُضِيءُ وَمَا تَلَا الْقُرْآنَ تَالِي

(١) في «الديوان»: «ومقتفيه».
(٢) إشارة إلى قوله ﷺ: «**لعن الله من ذبح لغير الله**» أخرجه البخاري (١٢٩٧) ومسلم (١٠٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) في «الديوان»: «ريًّا».
(٤) الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

وَالاسْتِسْقَاءُ[1] بِذَبْحِ الْخَيْلِ بِدْعٌ   غَرِيبٌ لَمْ نَرى[2] لَهُ مِنْ مِثَالِ
أَأَهْلَ سَرِيفٍ اتَّئِدُوا وَتُوبُوا   إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ هَذَا الْمُحَالِ
فَرَبُّ النَّاسِ صِدْقًا وَحِّدُوه   وَقَفُّوا لِلْنَّبِيِّ بَحْرِ الْكَمَالِ[3]

الاستسقاء بالحصى

ووقع في تلك السنة استسقاء آخر لا يقل غرابةً عما تقدمه، وذلك أنَّ دجَّالًا من الدجاجلة أشار على أهل بلدة أن يجمعوا سبعين ألف حصاة، ويوزِّعون الحصى على سبعين شخصًا من القراء فينال كل واحد ألف حصاة، فيدني كلٌّ حصاة من ذلك الحصى من فمه ويقرأ عليها مرة الآية التي تقدم ذكرها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [الشورى: ٢٩] ثم يضعون ذلك الحصى في أكياس ويشدون كل كيس بحبل طويل ثم يدلونها في نهر إلى أن يصل كل كيس إلى قرار النهر ويربطون رأس كل حبل بشجرة، قال لهم ذلك الدجال: حين تستقر الأكياس في أسفل النهر يبتدئ الغيث ينزل ويستمر أبدًا ما دامت الأكياس في مكانها ولو بقيت سنين، حتى إذا

(١) في «الديوان»: «والاستسقا».
(٢) كذا في «الديوان» ومجلة «الهدي النبوي» وهو الصواب للضرورة الشعرية، وحقه: «نر».
(٣) القصيدة في «الديوان» (٤٨٦ ـ ٤٩٢) و«السراج المنير» (٣٤ ـ ٣٨) وسماها (الحمزية)، قال بعد كلام: «ويناسب هنا إدراج (القصيدة الحمزية) التي نظمتها في شيخ الموالد الدجال المشرك، المدعو (حمزة)، إمام مسجد في الدار البيضاء، ونصها: . . .» وساقها، ونشرت في مجلة «الهدي النبوي» المصرية، المجلد (٣١)، العدد الثاني، بتأريخ صفر سنة ١٣٨٦هـ (ص٣٢ ـ ٣٥) بعنوان: (لا تذبحوا لغير الله).
وأشار إليها في عدد من رسائله، انظر «مراسلاته» (١/ ٢٩٢) و(٢/ ٧٣٢).

رأى الناس أن الأرض قد أصابها من المطر ما فيه كفايتها ينزعون تلك الأكياس، لأنهم لو تركوها لاستمر المطر بدون انقطاع حتى يعم الطوفان ويهلك الناس بالغرق، ففعلوا ذلك فلم ينالوا قطرة(١).

ألا ترى أيها الموحِّد الموفَّق لاتِّباع كتابِ الله وسنَّةِ رسوله المتجنِّب للبدع كلِّها أنَّ الله سبحانه إذا خيَّب سعيهم وحرمهم المطر وحبسه، حتى توجه إليه حزبه المفلحون وهم فئة قليلة لا يبلغ عددهم مئة، وعملوا بسنة نبيهم ووجهوا وجوههم إلى الله وحده، فسقاهم ذلك المطر الغزير، أراد أن يجعلها كرامة ظاهرة لأهل الحق نصر بها أولياءه، وكبت بها أعداءه، وبيَّن لهم أن الذين يعبدون من دون الله لا يملكون لهم رزقًا، وأن الرزق بيد الله لا حيلة لمحتال في جلبه، وإنما ينال بتقوى الله التي رأسها وسنامها توحيده واتباع سنة رسوله؟!

هجو فقيه مبتدع مرَّ علينا ولم يسلّم

وكان هذا الفقيه ـ ولا أسميه(٢) إبقاء عليه ـ من أنصار البدعة

---

(١) هذا هو الاستسقاء المذكور في «خزينة الأسرار» (ص٦٨ ـ ٦٩)، وتقدم كلامه في الحواشي قريبًا، وذكر الهلالي هذه الطريقة في رسالة مؤرخة في ٣/ ١/ ١٣٨٧هـ، وأرسلها من مكناس إلى تلميذه علي بن أحمد الريسوني الحسني، وقال على إثرهما:

«فقلت: آمنا بالله، وكفرنا بأحجارهم، فلم تنزل عليهم قطرة واحدة»! انظر «رسائل الهلالي» (١/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

(٢) هو الفقيه محمد بن محمد المرير التطواني وقد توفي مؤخرًا عام ١٣٩٩هـ ودفن بزاوية أحنصال، وقد رأيت بخطه على هامش «رحلة العياشي» أبياتًا يستأذن فيها عليًّا أبا غالب ويتعلق به ويطلب منه التأييد والحماية عندما عينه الإسبانيون قاضيًا بالقصر الكبير. (خ)

والشرك، فمرَّ عليَّ ومعي جماعة من الموحِّدين فلم يسلِّم، فأُصَلِّت عليه سيف الهجو جهادًا في سبيل الله ليذوق وبال أمره، وهجو المشركين من أعظم القربات، وكان هذا الفقيه السفيه قد بلغ به الجهل إلى أن كان في سفر من تطوان إلى القصر الكبير، فصلى بمن كان معه[1] المغرب ركعتين ظانًّا أنها تقصر كالرباعية، فهجوته بهذه القصيدة[2]، وذكرت تلك الحادثة العجيبة:

أَبَا مُرَّةٍ مَاذَا الْتَّعَاظُمُ وَالْكِبْرُ ... وَأَنْتَ حَقِيرٌ مَائِقٌ[3] أَرْعَنٌ غُمْرُ
أَبِالْعِلْمِ إِنَّ الْعِلْمَ عَنْكَ بِمَعْزِلٍ ... كَمَا لَا يَكُونُ الْدَّهْرَ فِي الْمَغْرِبِ الْقَصْرُ
وَلَمْ نَرَ فِي أَرْضِ الْمَغَارِبِ قَاصِرًا ... كَقَاصِرِ فَرْضٍ لِلْنَّهَارِ هُوَ الْوَتْرُ
مَتَى رُمْتَ أَنْ تَضْحَى فَقِيهًا مُحَقِّقًا ... فَقَدْ رُمْتَ أَمْرًا دُونَهُ الأَنْجُمُ الْزُّهْرُ
وَلَا فَضْلُ إِنَّ الْفَضْلَ لَسْتَ بِأَهْلِهِ ... وَلَا حَسَبٌ يُلْفَى لَدَيْكَ وَلَا قَدْرُ
وَحَظُّكَ فِي الْتَّدْرِيسِ حَظٌّ مُوَفَّرٌ[4] ... فَبَاقِلُ[5] إِنْ يُنْسَبْ إِلَيْكَ هُو الْحَبْرُ
وَلَو كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْسَّلَامِ عَرَفْتَهُ ... وَأَدَّيْتَ حَقًّا وَاجِبًا تَرْكُهُ وِزْرُ
وَلَوْ ذُقْتَ لِلإِيمَانِ أَدْنَى حَلَاوةٍ ... لأَخْرَجَ مِنْكَ الْغِشَّ وَانْشَرَحَ الْصَّدْرُ
وَمَا يَسْتَقِيمُ الْظِّلُّ وَالْعُودُ أَعْوَجٌ ... وَلَا يُثْمِرَنَّ الْشَّهْدَةَ الْحَنْظَلُ الْمُرُّ
جَهِلْتَ لَحَاكَ اللهُ مَا فِي ابْنِ عَاشِرٍ ... أَمِنْ بَعْدِ هَذَا الْخِزْيِ يَنْفُخُكَ[6] الْكِبْرُ

---

(١) وممن كان معه الحاج عبد السلام جنينو وكان عونه حدثني بذلك. (خ)

(٢) في ١٠/ شعبان/ سنة ١٣٦٤ بتطوان، كما في «الديوان» (٣٥٧).

(٣) المائق: الأحمق.

(٤) في «الديوان»: «مُوَفَّرٌ».

(٥) بَاقِلٌ: رجلٌ اشترى ظبيًا بأحد عشر درهمًا، فسئل عن شرائه ففتح كفَّيْه! وأخرج لسانه! ـ يشير إلى ثمنه ـ فانفلت، فضُرِبَ به المثل في العي. «القاموس المحيط» (ص٩٦٧).

(٦) الصواب: «ينضحك». (خ)

قَضَاؤُكَ يَا شَيْخَ الْتُّيُوسِ جِنَايَةٌ عَلَى الْدِّينِ إِنَّ الْدِّينَ قَدْ مَسَّهُ الْضُّرُّ
إِذَا كَانَ رَبُّ الْجَهلِ مَيْتًا فَإِنَّمَا ثِيَابُكَ أَكْفَانٌ وَمَكْتَبُكَ الْقَبْرُ(١)

انتقامُ المستعمرين منِّي

تقدَّم أني سافرت إلي شفشاون للبُعد من شاطئ البحر طلبًا لخفة مرض الربو، وبها لقيتُ الحسيب النسيب الكريم السيد أحمد الريسوني، وضيَّفني، واعترف لي بأنه كان مع تلك الجماعة عازمًا على قتلي حتى نهاهم عن ذلك الأمير العبقري السيد خالد الريسوني رحمة الله عليه، بقيتُ في شفشاون خمسة أشهر أكثرها في بيت السيد أحمد الريسوني(٢)،

(١) الأبيات في «منحة الكبير المتعالي» (ص٣٥٧ ـ ٣٥٩).

(٢) تعلَّقَ عليٌّ، ولد السيد أحمد الريسوني بالهلالي (ضيف أبيه)، واستفاد منه كثيرًا بالمباحثة: مشافهةً ومكاتبة. وقال عنه في كتابه «سبيل الرشاد» (٢/ ٧٤): «تلميذي الشاب النجيب المحقق علي بن أحمد الريسوني، وقال عنه في «مراسلاته» له: «مقام الولد العزيز» و«الأخ العزيز»، وأكثر الهلالي في خطاباته له من ذكر أبيه أحمد، الذي نوّه به هنا، انظر (فهارس) «مراسلات الهلالي» (٤/ ١٦٦٤، ١٧٠٦).

والسيد علي الآن شيخ الطريقة الريسونية ونقيبهم، ومؤرخ شفشاون، وخطيب المسجد الجامع، ورئيس جمعية مدينة شفشاون، له «فقه الدعوة الإسلامية في الغرب ووجوب تجديدها، الدعوة الإسلامية في الأندلس أنموذجًا»، نشرت له في جريدة «العدالة والتنمية» في العدد (٤٢)، بتأريخ ٢٨ شوال ١٤٢٨هـ يوافق ٩ نوفمبر ٢٠٠٧م؛ حوارًا بعنوان: (حق المغرب في سبتة ومليلية والجزر المحتلة حق ثابت تعضده حقائق التاريخ والجغرافيا)، ومما قال فيه: «الأموال والملايين تهدر في المهرجانات الفارغة، ولم تقو إلى حدود الساعة على بناء وإنشاء مركز لتوثيق تراث وتاريخ المدينتين السليبتين والجزر المحتلة»، وقال: «ماكسيمو كافال ـ المؤرخ والصحفي والدبلوماسي الإسباني ـ ألَّف كتابًا بعنوان «سبتة ومليلة آخر المستعمرتين»، أكَّد فيه بالحجج الدامغة أن سبتة ومليلية =

= مدينتان مغربيتان».
وأدلى الريسوني بحديث مطول للقناتين الإسبانيتين الأولى في ملفها الأسبوعي يوم السبت ١٠/ ١١/ ٢٠٠٧م، وأعادته القناة الإسبانية (٢٤ ساعة) مرتين يوم الأحد ١١/ ١١/ ٢٠٠٧م، وشارك في البرنامج التلفزي المذكور من الجانب الإسباني كلٌّ من: سفير إسبانيا بالمغرب، حاكم سبتة، حاكم مليلية، وآخرون، ونشر ذلك في جريدة «العدالة والتنمية»، العدد (٤٤)، يوم الأربعاء، بتأريخ ٣ ذو القعدة ١٤٢٨هـ ـ ١٤ نوفمبر ٢٠٠٧م، وهذا مما استفاده الريسوني من شيخه الهلالي.
وقد التقى بعض إخواننا المغاربة في ٧ ربيع الثاني سنة ١٤٣٠هـ يوافق ٣/ ٤/ ٢٠٠٩م بهذا المؤرخ الشهير، وكتب إليَّ ما استفاده منه بخصوص العلامة الهلالي، ويمكن إجماله بالآتي:
١ ـ أول ما تعرف به عند استقبال والده له في شفشاون في الفندق، وكان غير مرغوب به من طرف الإسبان؛ فجلس الهلالي في منزلهم أكثر من ستة أشهر.
٢ ـ استقبله أبي لأنه كان من آل البيت، شريفًا، والشرفاء لا يخذلون بعضهم.
٣ ـ خطب السيد أحمد الريسوني له إحدى بنات عمه، وتزوجها الهلالي، وقد توفيت هي وابنتها عن قريب.
٤ ـ يصف السيد علي الريسوني الهلالي بأنه كان وهابيًّا جَلدًا، وأنه بَلْبَلَ عقائد الناس.
٥ ـ كان الهلالي لا يشق له غبار في اللغة، وكان لا يجارى ولا يساوى في هذا الميدان.
٦ ـ كان الهلالي آية في استغلال الوقت؛ قال الريسوني: «لم أَرَ منذ أربعين سنة مثله في ذلك، كان يستيقظ قبل الفجر، ثم بعد الصلاة إما يدرس وإما يؤلف، وبعد الشروق يستقبل البريد، ويجيب على الفتاوى، ويرسل البريد، وهكذا في اشتغال دائم دون هوادة».
٧ ـ مراسلات الهلالي كانت في مسائل عامة وخاصة، وأغلبها بينه وبين السيد أحمد، وبعضها بينه وبين ولده علي، وطال العهد بها، ولم يتذكرها السيد علي، وهي في صناديق غير محددة، ووعد السيد علي بإخراجها وتسليمها لمرسولي له؛ فجزاه الله خيرًا، وشكر الله له على ما أفاد. =

ثم تزوجت بفتاة من قرائب أحد إخواننا(١)، وكنتُ ألقي دروسًا منتظمة في الجامع الكبير دون أن أطلب إذنًا من المستعمرين كما اتفقت عليه معهم في أول الأمر، وكانوا قد شرطوا علي أن لا أسافر إلى المدن الصغيرة والقرى إلا بإذنهم، فسافرتُ إلى شفشاون بإذنهم ولكني شرعت في إلقاء الدروس بغير إذن، يضاف إلى ذلك ما يأتي:

الاتصال بالوطنيين المقاومين للاستعمار

كان من أشد الناس إقبالًا على دروسي ومرافقتي رجال حزب الإصلاح الوطني أذكر منهم الحسيبين النسيبين السيد عبد الله قريش(٢) والسيد العياشي العلمي.

تأليف «مختصر هدي الخليل»(٣)

....

= ثم نما إليَّ بعد تدوين هذه السطور أن للمذكور السيد (علي) بحثًا غير منشور بعنوان «تقي الدين الهلالي شفشاويًّا».

(١) هي إحدى بنات عم السيد أحمد الريسوني، انظر الحاشية السابقة.

(٢) كذا في طبعات الكتاب، وصوابه: «قرسيش»، ذكره في «رسائله» (١/ ٣١١)، وما وقع فيه (١/ ٤٠٥): «قريش» تحريف، فليصوب.

(٣) نشر في مجلة «لسان الدين» السنة الثانية، الجزء الثاني شوال ١٣٦٦هـ - أغسطس ١٩٤٧م (ص١٢) تقريظ كتاب «مختصر هدي الخليل»، جاء فيه:
«تحفة من الشاعر الناثر الأديب العبقري سيدي عبد الله كنون الحسني، ألا وهي قصيدة من مشطور الرجز، على طريقة العرب العرباء، قرظ بها الكتاب الذي تفضل الله علي به؛ إذ وفقني لتأليفه، وهو «مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل»، وهذا الكتاب انتظم أمورًا أربعة كلها مهمة جدًّا لطالب الحق من الضعفاء أمثالنا: =

قال لي أولئك الإخوان: إن الله قد هدانا بدعوتك إلى توحيده واتباع رسوله ﷺ، ونحن ضعفاء في العلم لا نستطيع أن نغوص في بحور كتب السنة على دلائل المسائل ومعرفة ما يوافق السنة لنتجنب مخالفتها، ولا نأمن أن تفارقنا بالموت أو بحادث آخر، فنرجو من فضلك أن تؤلف لنا كتابًا يحتوي على مسائل العقائد والعبادات مجردًا عن الأدلة مطابقًا للسنة المحمدية، فأجبتُهم إلى ذلك وصرنا نجتمع في بيتي كل ليلة إلى منتصف الليل، أحدهم يكتب وأنا أملي والباقون يطالعون، كل واحد في يده كتاب من كتب الحديث، حتى أتممنا في مدة

= **الأول**: عقيدة السلف التي أجمعوا عليها.

الثاني: أحكام العبادات مطابقة للأحاديث الثابتة، خالصة بعيدة مِنَ الرأي الوخيم، ومنزهة عن التعصب لمذهب بعينه، مبتدئًا من الطهارة إلى أحكام الأضحية والعقيقة، بغاية التفصيل والسهولة في العبارة.

الثالث: نبذة من توحيد العبادة، وتوحيد الإلهية بالأدلة والبراهين.

الرابع: نبذة من كلام الأئمة في إبطال التقليد، والتعصب لمذهب معين.

ولقد شعرت بخجل عظيم، وارتعت أيما ارتياع لما جاء في البيتين الأخيرين؛ فأسأله ـ تعالى ـ أن لا يؤاخذني بما قيل فيّ مما قصرت عنه، وأن يغفر لي ما لم يعلم إخواني من ذنوبي، ويحقق بفضله ظن هذا السيد الجليل، وهذا من كمال فضله وعلو مقامه زاده الله رفعة وعلاءً.

قال الأستاذ المذكور:

مختصر ناهيك من دليل ... لمبتغي عبادة الجليل
على هدي وسنة الرسول ... في غاية البيان والتحصيل
أحسن ما يأتيك من خليل ... لأنه شريعة الخليل
ليس به شيء من التضليل ... ولا قياس فاسد التعليل
ولا تَحَكُّمٌ على الأصول ... بمحضِ قالَ باطل وقيل
أكرم بمختصره النبيل ... دكتورنا المجدد الأصيل
وحجة الله على ذا الجيل.

قصيرة كتاب «مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل»[1] وتبرعنا جميعًا بالدراهم اللازمة لطبعه حتى تبرعت النساء المحتجبات في بيوتهن بدون أن تذكر أسماؤهن، وهكذا تكون الدعوة الكاملة الصافية الخالية من الأغراض الدنيوية، فتخالط بسببها بشاشة الإيمان قلوب المستجيبين لها، وكان الحاكم الإسباني يبعث عيونه يتجسسون علينا فيرجعون إليه ويخبرونه بأننا نجتمع كل ليلة إلى ما بعد منتصف الليل، فيعد ذلك من الائتمار بالحكم الإسباني والسعي في القضاء عليه ويبلغ إلى إخوانه المستعمرين في تطوان.

التعاون مع الإمام الشهيد حسن البنا رحمة الله عليه

وبينما المستعمرون الإسبانيون مغتاظون عليَّ لأني نقضتُ العهد الذي بيني وبينهم لأمرين[2]:

أحدهما: الاتصال بالوطنيين[3] والتعاون معهم.

---

(١) طبع الكتاب أكثر من طبعة، وسبقت الإشارة إلى ذلك، وأفاد الهلالي في مراسلة له بتاريخ ٢٤ رجب ١٣٧٨هـ وهو في بغداد أن الطبعة التطوانية أصح من طبعة بغداد، انظر «مراسلات الهلالي» (١/ ٤٢٤).
وذكره في أكثر من موطن فيه، انظر منه (١/ ٣٦٥، ٤٢٧، ٤٦٣، ٦٣٥، ٧٥٥، ١١٢٧).

(٢) ذكر تحته ثلاثة أمور.

(٣) للهلالي مراسلات وجهود وتعاون مع عدد من الزعماء والمصلحين في كثير من البلدان، وتتبُّع ذلك يحتاج إلى دراسة مهمة جادة، ومن الجدير بالذكر أنه أخذت تبرز مع مرور الزمن مخالفات ظاهرة من قبل بعض أعلام الحركة الوطنية، كالرشيد إدريس، والحبيب بورقيبة التونسيين، ومن الجدير بالذكر هنا أن رسالة العلامة ابن باز في تكفير الأخير على التعيين كانت بطلب من التقي الهلالي. =

والثاني: إلقاء الدروس بدون إذنهم.

وهناك نقض **ثالث**: وهو نشر المقالات في صحيفة «الحرية» لسان حزب الإصلاح الوطني، إذا بهم يكتشفون أمرًا عظيمًا له بال هو أشد خطرًا من كلٍّ ما تقدم، وذلك أن الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ورضي عنه ـ كتب إليَّ يقول: إن صحيفتنا «الإخوان المسلمون»(1) بلغت من

= ولم يبق كثير من الوطنيين ممن تعاون معهم على الجادّة، وبدأت مخالفات عقدية تظهر في نشاطهم، وبدأ التباين الكبير بينهم وبين السلفية؛ بل بدأ يتضح جليًّا البُعد عن المناداة بالإسلام إلى قوميات وأفكار أرضية؛ يجمعها العلمانية واللادينية! مما جعل الهلالي يكتب (ثلاث حلقات) نشرها في جريدة «السجل» البغدادية اليومية بعنوان: (العرب والديمقراطية العصرية) في الأعداد (٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣) من سنتها (الثانية عشرة) في ربيع الثاني سنة ١٣٦٧هـ يوافق شباط ١٩٤٨م، وله في «الفتح» المصرية، المجلد الحادي عشر، عدد (٥٤٥) بتأريخ ٤ صفر سنة ١٣٥٦هـ، (ص٦ ـ ٨) مقالة مهمة بعنوان: (حكم الإسلام، الحكم الشعبي، الحكم الديمقراطي، الحكم الشيوعي، الحكم الاستبدادي؛ أيها أصلح).

ولم يقف عند هذا؛ بل نقد الوطنيين بعد الاستعمار لبُعدهم عن ثوابتهم إبان محاربته؛ فنشر في جريدة «العلم» المغربية، السنة الخامسة عشرة، العدد (٤١٧٥) يوم الأربعاء بتأريخ ٨ رجب ١٣٨٠هـ يوافق ٢٨ ديسمبر ١٩٦٠م، (ص٤) مقالة مهمة جدًّا بعنوان: (اختلال ميزان الوطنية بعد الاستقلال)، ونشر قبل ذلك في السنة نفسها، في العدد (٤١٣٨) مقالة (من رواسب الاستعمار)، ومن مقالات الهلالي المهمة بهذا الصدد مقالة (الوطنية والسلفية) نشرها في جريدة «الحرية» المغربية، السنة السادسة، العدد (٨٦٠)، بتأريخ ٢٥ رمضان ١٣٦١هـ يوافق ٨ أكتوبر ١٩٤٢م، (ص١)، وهي مختصرة، ومهمة، وهذه جميعًا في كتابي «مقالات الهلالي».

(1) انتهى المقام بالهلالي إلى محاربة الحزبيات والتجمعات القائمة على عقد ولاء سلطان الولاء والبراء عليها، والحب والبغض فيها. وبيَّنتُ هذا بجلاء في تقديمي لكتابه «سبيل الرشاد» (١/ ٥٣)، فانظره فإنه (مهم) جدًّا.

الرواج والانتشار ـ ولله الحمد ـ إلى أن صارت في مقدمة الصحف اليومية التي تصدر في القاهرة، ولنا مكاتبون في جميع أنحاء العالم إلا في المغرب فليس لنا مكاتب يبعث لنا بأخبار إخواننا المسلمين في هذا القطر المهم، فأرجو من فضلك أن ترشدنا إلى مكاتب تختاره لنا وتخبرنا بما يطلب من المكافأة[1]، وإنْ سمحت لك صحتك بأن تكون أنت بنفسك ذلك المكاتب فهو أحبُّ إلينا. فأجبته:

لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَا هَا أَنَذَا مُنْطَلِقٌ إِلَيْكَا[2]

أنا الذي أتشرَّف بأن أكون مكاتبًا لصحيفة «الإخوان المسلمين»، ولا أريد على ذلك أجرًا إلا من الله تعالى:

وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحُبِّ رِشْوَةً ضَعِيْفُ الْهَوَى يَبْغِي عَلَيْهِ ثَوَابا[3]

فشرعت في كتابة المقالات وكتبت إلى الصحيفة المذكورة عدة مقالات باسم مستعار[4]، وظننت أن هذا العمل يبقى سرًّا مكتومًا،

---

(١) في «الديوان» (١٨١):

«كتب إليَّ الشيخ حسن البنا ـ رحمة الله عليه ـ أنْ أكتب إليه بأخبار المنطقة مقالات، ينشرها في «صحيفة الإخوان المسلمين» اليومية؛ فتبرعت بذلك، ورفضت ما عرضه عليَّ من المكافأة المالية، وصرت كلما كتبت مقالًا أذهب إلى مكتب البريد البريطاني، وأرسله مُسجّلًا بالبريد الجوي، وكان المستعمرون يبذلون الأموال للمواطنين المغاربة في البريد البريطاني ليطلعوهم على كلِّ رسالة يشكُّون فيها؛ فتمكنوا من الاطلاع على بعض تلك المقالات التي تكشف جرائمهم الاستعمارية؛ فأعطوا مراقب شفشاون الأمر أنْ يُدبِّر مكيدةً للقبض عليَّ، ونفيي من شفشاون».

(٢) البيت للمتنبي، انظر: «ديوانه» (٢/ ٣٤٠ مع شرح ابن الأفليلي).

(٣) البيت للمتنبي في «ديوانه» (٢/ ٦٨٧ مع شرح الواحدي).

(٤) هو أبو مرثد البصري، وصرح الهلالي بذلك في «تقويم اللسانين» (ص١٤٩) =

وكان ذلك غفلة مني ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، فقد كانت الامتيازات التي اشترطها البريطانيون على المستعمرين الإسبانيين والفرنسيين في المغرب تقضي على الفريقين بأمور منها: أنهم لا يتعرضون لمن له حماية إنكليزية من المغاربة، ومنها: أن يكون للبريطانيين في كل مدينة من كبريات مدن المغرب بريد لا يدخل تحت مراقبة المستعمرين.

وغاب عنِّي أن القنصل الإنكليزي من أشدِّ أعدائي، وقد ائتمر مع الإسبانيين عليَّ فمنعوني من الرجوع إلى البلاد الجرمانية، وقد احتج على مقالاتي في صحيفة «الحرية» عند الإسبانيين وعاقبوا «الصحيفة» مرات بالغرامة والوقف المؤقت كما فعل القنصل الفرنسي، وسيأتي مزيد بيان لهذه العداوة ـ إن شاء الله ـ عند ذكر زيارتي للسفارة الإنكليزية قبل سفري إلى الشرق.

أضف إلى ذلك أنَّ الموظَّفين في البريد البريطاني في تطوان كلهم مغاربة وهم رعايا للإسبانيين بحكم الاستعمار، وقد أكَّد عليهم الإسبانيون بالرهبة والرغبة ألا يروا رسالة فيها مساس بالإسبانيين إلا أطلعوهم عليها، فكانوا يطلعونهم على تلك المقالات قبل إرسالها وأنا غافل عن ذلك، فأجمع المستعمرون على أن ينزلوا بي عقابًا صارمًا، فأوعزوا إلى جنودهم من عبيد الاستعمار ـ ومنهم وزير العدل[1] في ذلك

= وفي مقالة (الإسلام يكافح الاستعمار)، وانظر كتابي «رسائل الهلالي» (٤/ ١٦٧٩ ـ فهرس الأعلام).

(١) قال عنه في «الديوان» (١٨٢): «المنافق الكبير المدعو أفيلال الذي كان وازًّا للعدلية! ولا أقول وزيرًا».

قلت: هو محمد بن التهامي أفيلال. كان وزيرًا للعدلية في الحكومة الخليفية سنة ١٣٥٣هـ، وللهلالي قصيدة في هجوه، تأتي.

الزمان وأمير شفشاون[(١)] ونائب قاضيها الحسن العمرتي[(٢)] ـ أن يدبِّروا لي مكيدة يوقعوني بها في شَرَكِ العقاب دون أنْ ينكشف أن الدافع لها هم الإسبانيون، ففكَّروا ودبَّروا وقدَّروا، فظنُّوا أنهم وجدوا ضالتهم المنشودة في أمر إسلاميّ إصلاحيّ.

وذلك أنهم علموا أنِّي حين أقمتُ بشفشاون وعظتُ قرَّاءَ القرآنِ[(٣)] جماعةً بلسان واحد أن يتركوا ذلك العمل[(٤)] لأنه مخالف للسنة، وذكرت لهم حديث أبي داود عن أبي سعيد الخدري قال: اعتكف ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف السِّتْرَ وقال: «**ألا إنّ كلكم يناجي ربَّه، فلا يُؤْذِينَّ بعضُكم بعضًا، ولا يرفعُ بعضُكم على بعض في القراءة**»[(٥)].

(١) اليزيد بن صالح. (خ)
الباشا اليزيد بن صالح الرزيني الغماري الحسني، كان باشا مدينة شفشاون، ثم رقي بعد ذلك إلى أن أصبح باشا لمدينة تطوان، توفي سنة ١٩٥٧م. (ع)

(٢) قال عنه في «الديوان» (٥٢٨): «هو الحسن العمرتي نائب قاضي شفشاون. من حمير الاستعمار وكلابه، جاء الاستقلال فأخزاه الله، فلزم بيته، ولا أدري: أمات هو أم عائش، وكيفما كان الأمر، فهو ميت. وهجاه بقصيدة نظمها سنة ١٩٤٦م، وانظر «السلفية الوهابية بالمغرب» (١١٢).

(٣) زاد في «الديوان»: «يوم الجمعة في الجامع الأعظم»، وأفاد في «الحسام الماحق» (٩٠) أن الاجتماع لسماع القرآن في أصله مشروع. وبيَّن طريقة ذلك، فقال:
«لكن الاجتماع لقراءة القرآن الموافقة لسنة النبي ﷺ وعمل السلف الصالح أن يقرأ أحد القوم والباقون يسمعون، ومن عرض له شكٌّ في معنى آية استوقف القارئ، وتكلم من يحسن الكلام في تفسيرها حتى ينجلي تفسيرها ويتضح للحاضرين، ثم يستأنف القارئ القراءة، هكذا كان الأمر في زمان النبي ﷺ».

(٤) زاد في «الديوان»: «وعظتهم بالتي أحسن».

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢/٤٩٨) ومن طريقه أحمد في «المسند» =

وروى مالك في «الموطأ» عن فروة بن بياضة[1] أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلُّون وقد علت أصواتهم بالقراءة، فقال: «**إنَّ المصلي يناجي ربه فلْيَنظُر بما يناجيه به، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**»[2] قال ابن عبد البر: حديث البياضي وأبي سعيد **ثابتان صحيحان**[3]. فاسْتَمَعُوا لنُصْحِي وتركوا القراءة على تلك الصورة، ثم تبعهم أهلُ المساجد الأخرى[4].

فوجد أميرُ شفشاون ونائبُ قاضيها باتّفاقٍ مع الوزير الوازر أنهم يدخلون عليَّ من هذا الباب، فأعدّ الوزيرُ وأعوانُه فتوى في صحيفة طولها نحو ذراعين ـ أراني إياها الوزير فيما بعد ـ وزعموا أنَّ الراجح في مذهب مالك أنَّ القراءة برفع الصَّوت جماعة في المسجد ـ وإن كان الناس في كل

= (٣/ ٩٤) وعبد بن حميد في «المنتخب» (٨٨٣) وأبو داود (١٣٣٢) والنسائي في «الكبرى» (٨٠٣٨). **وإسناده صحيح**.

(١) قال الإمام مالك: «البياضي: فروة بن عمرو الأنصاري، وهو من بني بياضة»، نقله عنه الجوهري في «مسند الموطأ» (٨١٣) بعد إسناده هذا الحديث من طريقه، واختاره ابن عبد البر وابن العربي.
انظر: «التمهيد» (٢٣/ ٣١٦)، «المسالك» (٢/ ٣٦٠).
وقيل اسمه: (عبد الله بن جابر) فيما حكي عن أبي عبيد ـ وهو القاسم بن سلام ـ عن إسحاق بن عيسى ـ وهو الطباع ـ عن مالك. ذكره أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ٣٠٩٢). وكأن المزي مال إليه إذ لم يذكر في «تحفة الأشراف» (١٠/ ٥٥٣) غيره. وهو اختيار الحافظ في «الإصابة» (١٢/ ١٣٩ ط هجر).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢١٣) وفي حديثه اختلاف كثير.
انظر: «خلق أفعال العباد» (٥٩٥ وما بعده)، «السنن الكبرى» (٣٣٤٦ وما بعده) للنسائي. ويغني عنه حديث أبي سعيد المتقدم.

(٣) التمهيد (٢٣/ ٣١٩)، وينظر «الاستذكار» (٤/ ١٦٢).

(٤) زاد في «الديوان»: «ومضى على ذلك أربعة أشهر».

لحظة يدخلون ويصلون تحية المسجد ـ جائزة بل مستحبة، وكلٌّ من درس مذهب المالكية في هذه المسألة يعرف أنهم كاذبون، وقد نص خليل على ذلك بقوله: «وجهر بها في مسجد كجماعة، وأقيم القارئ في المسجد يوم الخميس أو غيره»(١) وبسط القول في ذلك شُرَّاحهُ(٢) خصوصًا المواق(٣). فضربوا بذلك عرض الحائط واتبعوا بُنَيَّات الطَّريق.

ولما أعدُّوا الفتوى وأطلعوا على ذلك سادتهم المستعمرين رضوا عنهم وقالوا لهم: لله دركم من عبيد ناصحين مخلصين، فإن هذه المكيدة لم تخطر لنا على بال، وبها يبقى أمرنا سرًّا مكتومًا! فاتفقوا مع أمير شفشاون أن يأمر القُرَّاء بالعود إلى تلك المخالفة؛ لأنهاهم أنا فيتخذ ذلك وسيلة للقبض عليَّ وإيداعي السجن بدعوى التشويش في أمور الدين، فجاءني النذير من أصحابنا وأخبرني بأن الأمير ونائب القاضي وأعوانهما سينصبون هذا الفخَّ الشيطانيَّ في الجامع الكبير يوم الجمعة، وسيأتي الأمير بالشرطة معه ليقبضوني.

وكُنت في ذلك الوقت أقاسي من شدة الرَّبو والضَّعفِ الشَّيء

---

(١) «مختصر خليل» (ص٢٧ ط باريس) قال: «وجهر بها بمسجد وقراءة بتلحين كجماعة وجلوس لها لا لتعلم، وأقيم القارئ في المسجد يوم خميس أو غيره»

(٢) انظر منها: «مواهب الجليل» (٢/ ٦٢)، «شرح مختصر خليل» (١/ ٣٥١) للخرشي، «منح الجليل» (١/ ٣٣٣).

(٣) في «التاج والإكليل» (٢/ ٣٦٢).

ومن الجدير بالذكر أن للهلالي مقالة بعنوان (حكم القراءة برفع الصوت يوم الجمعة والناس ينتظرون خروج الإمام في مذهب المالكية) حشد فيها أقوال المالكية التي أشار إليها هنا، وهي منشورة في مجلته «لسان الدين» السنة الأولى، الجزء الثامن والتاسع، ربيع الأول وربيع الثاني ١٣٦٦هـ ـ فبراير ومارس ١٩٤٧م (ص٧٠ ـ ٨٤)، وكتبها على إثر هذه الحادثة.

الكثير، فقال لي وازع النفس الأمارة بالسوء: اترك صلاة هذه الجمعة وأنت مريض، عذرك معك، ولا تجعل لهم سبيلًا عليك، فما بك قدرة على السجن والتعذيب!! فقال لي وازع الله في قلبي: أنتَ خضتَ هذه المعركة منذ زمان طويل، ولم تُبالِ بما يصيبك في سبيل الله، فكيف تجبن اليوم؟! فغلبت النفس اللوامة على النفس الأمارة، وذهبت وأنا أظن أنني لا أتم صلاة ركعتين تحية المسجد حتى يصعد الخطيب على المنبر ولا يبقى مجال لتغيير المنكر، ولكن ما كُتِبَ على المرء لا بد من وقوعه، فتوجَّهتُ[1] إلى الجامع الكبير ووجدت جماعة القراء قد عادت إلى القراءة جماعة رافعين أصواتهم بأقوى ما يستطيعون، فصلَّيتُ ركعتين ثم ذهبت إليهم ووقفت على حلقتهم ورفعت صوتي، وقلت: قال رسول الله ﷺ: «**كلكم يناجي ربه، فلا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن ولا يُؤْذِ بعضكم بعضًا**»[2] فما كدتُ أنتهي من هذا الحديث حتى سمعتُ صوتًا وهو صوت الأمير يقول: اشت[3] اسكت! فقلت: اسكت أنت يا جاهل يا ظالم! أما تستحي من الله أن تقابل حديث رسول الله ﷺ بمثل هذا من سوء الأدب؟! فما شعرتُ إلا وخمسة من الشرطة يدفعونني إلي باب المسجد، فمرُّوا بي على نائب القاضي الحسن العمرتي، فقام واقفًا وقال بأعلى صوته: اضربوا الكلبَ الكافر. هذا أمر من الخليفة[4]. ففضح سرًّا دون أن يشعر، ولم يمهلوني أنْ أبحث عن حذائي، فقلت لهم: أنا لا أمشي حافيًا. فذهب بعضهم وجاؤوني بأحذية متعددة[5] حتى

(١) أرّخ ذلك في «الديوان» (١٨٢) بـ **٢٣** صفر سنة **١٣٦٦**هـ.

(٢) سبق تخريجه قريبًا، **وهو صحيح**.

(٣) الصواب: (است)، وهي كلمة تقال للتنبيه وطلب الإنصات. (خ)

(٤) زاد في «الديوان»: «يعني خليفة السلطان الأمير حسن بن مهدي».

(٥) في «الديوان»: «فجاؤوني بخمسة أحذية، فرفضتها، لأن حذائي لم يكن واحدًا =

وجدت من بينها حذائي فاحتذيته، فصار أحدهم يدفعني في كتفي ويقول: (زِيد زِيد) ومعنى ذلك باللغة المغربية: امش امش، فقلت: يا هذا هوِّن عليك فإنك لا تستطيع أن ترعبني، ولست بنادم على ما صنعت ولا خائف مما تبيتونه لي، والله غالب على أمره، ولكنكم قوم تجهلون. قلت معنى ذلك باللغة المغربية، حتى أوصلوني إلى غرفة التوقيف التابعة لمكتب الأمير، وأدخلوني وأغلقوا عليَّ الباب، وكان معي مصلاي فبسطتُه وصلَّيتُ الظهر أربع ركعات، وكانت رائحة كريهة تنبعث من أركان تلك الغرفة وإن كنت لم أر نجاسة فيها.

وبعد نصف ساعة، أي بعدما رجع الأمير من الصلاة وعلم أن أعوانه حبسوني في غرفة الموقوفين، وهو يعلم خبثها، تحركت فيه عاطفة الرفق، فأمر أحد الكتاب أن ينضم إلى موظف آخر، ويترك غرفته ـ حسب ما سمعت ـ، وأمرهم أن ينقلوني إلى غرفته، فسمعت صلصلة المفتاح في القفل، ففتح الباب ودخل شرطي، وقال لي: قم واتبعني. فانطلق بي إلى غرفة نظيفة فيها مقعد خشبي، فجلست عليه وأغلق علي الباب بالمفتاح، فبعد قليل فتح الباب ودخل عليَّ أحد الموظفين وهو من أقارب الأمير وهو المسمى ابن اليماني، وجاءني بطعام فأكلت منه قليلًا، وقال لي: إن الأمير نادم على عمله، ولكنك أهنته أشد الإهانة على رءوس الأشهاد، فصار مضطرًّا إلى أن يعاملك بمثل هذه المعاملة، فقلت له: ﴿...ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ [هود: ١٢١].

ثم علمتْ زوجتي بما وقع، فبعثت لي فراشًا وطعامًا مع أخيها، فلم أستطع أن آكل شيئًا، فقلت له: رده واتني بالمصحف، لأني أحبُّ أن أقرأ فيه لأكون أقوى على التدبر مني لو قرأت من حفظي، فجاءني به.

= منها، ثم جاؤوني بحذائي، فاحتذيته، . . .».

وفي تلك الأيام كان المجاهد العظيم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان قد توفي إلى رحمة الله، فأردت أن أنظم قصيدة في رثائه وطلبتُ أداةَ كتابةٍ فلم يأذن بذلك الأمير، فأخذت أنظم القصيدة بدون كتابة بيتًا فبيتًا[1]، حتى أكملتها ستة وعشرين بيتًا لأنشدها في يوم تأبينه إن أطلق سراحي أو أبعثها لتنشد في ذلك اليوم إن بقيت في السجن، فقضى الله سبحانه أن أخرج من السجن وأحضر يوم التأبين وأنشدها فيه، ولم أر مناسبة لذكرها هنا لأنها لا تتعلق بالدعوة، وقد نقلها المجاهد الكبير محمد علي الطاهر في كتابه «ذكرى الأمير شكيب أرسلان»[2] فليرجع إليه من شاء الاطلاع عليها[3].

(١) في «الديوان» (٥٣٧): «فجعلتُ أنظم وأحفظ ما نظمتُه بيتًا بعد بيت، ولما خرجتُ من السجن أخذتُ ما نظمته».

(٢) تتمة اسمه: «المراثي، وحفلات التأبين وأقوال الجرائد»، طبع في القاهرة، سنة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م، والقصيدة فيه (ص٣٢١ ـ ٣٢٢).

(٣) نشرت في مجلة «لسان الدين». (خ)

قال أبو عبيدة: نعم، هي في هذه المجلة، السنة الأولى، الجزء الثامن والتاسع، ربيع الأول وربيع الثاني ١٣٦٦هـ ـ فبراير ومارس ١٩٤٧ (ص٢٦ ـ ٢٩) بعنوان (قصيدة رئيس تحرير هذه المجلة)، وكتب بعد القصيدة ما نصه: «نشرت هذه القصيدة وغيرها من المقالات في جريدة «الريف» في جزء خاص بتأبين الأمير شكيب أرسلان، صدر بتطوان في يوم الأربعاء ٦ ربيع الأول عام ١٣٦٦هـ، وها نحن نعيد نشرها هنا، ليطلع عليها من لا تصل إليه الصحيفة المذكورة من القراء».

قلت: اطلعت على جريدة «الريف» السنة (١١) العدد (٥١٨) بالتأريخ المذكور، يوافق ٢٩ يناير سنة ١٩٤٧م، وقصيدة الهلالي فيها (ص٤) بجعل (البيت الأول) منها عنوانًا لها، وفيها «القصيدة الرائعة التي ألقاها يوم الذكرى الأستاذ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي»، وظفرت بأصل خطي للقصيدة من مكتبة أحمد بن عبد السلام هارون، وفي أولها: «نظم للنابغة الدكتور الهلالي...». =

وعند منتصف ليلة السبت ـ وهي الليلة الأولى التي قضيتُها في السجن أو التوقف كما يسمونه ـ سمعت صلصلة المفتاح في القفل، ففتح الباب وجاءني ذلك الشُّرَطيُّ الذي كان يدفعني أمس ويقول: امش امش. فأخذ يقبِّل يدي ورجلي ويقول: سامحني يا سيدي[1] ولا تؤاخذني بما فعلتُ، فإنَّ هذا الأمير الظالم أمرني بذلك، وإن شئت أن تخرج إلى صحن الدار لاستنشاق الهواء النَّقيِّ فأنا في خدمتك، وإن أردت طعامًا أو شرابًا أو فراشًا فامرني به، فدعوت له بخير وعفوتُ عنه وقلت: لا أحتاج إلى شيء.

الاجتماع بالحاكم الإِسباني

وفي ضحى يوم السبت فتح الباب وأمرتُ بالخروج، فلقيتُ شرطيًّا عند باب المبنى ينتظرني، فقال لي: أنا رسول المراقب المدني إليك لتأتي إلى مكتبه، ولأجل أن لا يراك الناس في هذه الحال سأخرج بك خارج المدينة ونسير في طريق البساتين إلى أن نصل إلى مكتب المراقب، فقلت له: أنت مخطئ في ظنك، أتظن أني أستحي أن يراني الناس ويعلموا أنِّي مسجونٌ على يد المستعمرين؟ إني أرى ذلك شرفًا وأحبُّ إعلانه[2]. فقال لي: على كل حال الأفضل أن لا نمر بالسوق، فقلت

= وهي في «الديوان» (٥٣٦ ـ ٥٤٠ ـ بتحقيقي).

(١) بعده في «الديوان» (١٨٤): «فإني فقير، ولي خمسة أولاد، وما عندي وسيلة للعيش إلا هذه الحرفة».

(٢) زاد في «الديوان» (١٨٥): «وقد علمتُ أنّ كثيرًا من الناس يوم الجمعة أرادوا أن يزوروني في المعتقل، فمُنعوا من ذلك، وقد أوصاه المراقب أن لا يمر بي على السوق خوفًا من تجمُّع الناس واحتجاجهم. فأراد أن يخفي أمره ويغالطني، فلم تخفَ عليَّ مغالطته».

له: إن أمرك المراقب بذلك فلا بأس. فانطلقتُ معه إلى المراقب، فأجلسني أولًا في مكتب فقيه المراقبة، فسلم عليَّ الفقيه سلام إجلال وتكريم، وقال لي: جزاك الله خيرًا، لقد شرفتَ أهلَ العلم بصبرك وجهادك وشجاعتك، إن الناس كانوا يقولون: إن العلماء جُبناء! فأقمت أنتَ البرهان على كذبهم، وأهل هذه المدينة أصبحوا يجلُّونك ويحبونك حتى الذين كانوا يعادونك من قبل، وفي هذا اليوم ظهر لك مقال في صحيفة «الحرية» فتخطَّف الناس أجزاءها وقرأوا مقالك بشوق(١).

فجاء الشرطي ودعاني إلى مكتب الحاكم الإسباني، وكان من فضل الله عليَّ أنني ما هِبْتُ أحدًا منهم ولا ناظرتُ أحدًا منهم إلا ظهرتُ عليه، فدخلت المكتب وجلستُ على كرسي مُوَاجِهٍ له(٢)، فافتتح الحديث بقوله: إننا متأسفون على ما وقع بينك وبين الأمير ونائب القاضي، ولما كانت هذه المسألة دينية لم يكن لنا أن نتدخل فيها، ونحن نكرم أهل العلم ورجال الدين ونرى أنه ينبغي لهم أن يكونوا حلماء، ويصفحوا عن المسيئين إليهم، ولذلك أقترح عليك أن تجتمع مع الأمير وتتصالح معه ليتمكن من إطلاق سراحك. (وكلامًا من هذا القبيل)، فقلت له بواسطة الترجمان ـ مع أني كنت أفهم ما يقول لأني كنت في برلين قد دفعت أجرة مئة ساعة لتعلم اللغة الإسبانية فحضرت منها ستين ساعة، أضف

---

(١) في «الديوان» (١٨٦): «وأشاع الناس في (شفشاون) أن الباشا طلب مني الخروج من المعتقل، وإطلاق سراحي، فأبيتُ! وهذا غير صحيح، ولكن الناس إذا عظموا إنسانًا ومدحوه يبالغون».

(٢) في «الديوان» (١٨٦) زيادة: «ودعا بالترجمان، . . . وأنا في ذلك الوقت أفهم أكثر ما يقول».

قلت: كان الهلالي يعرف تسع لغات، والإسبانية واحدة منها، والذي يظهر أنه في هذا الوقت لم يكن يجيد الإسبانية كما ينبغي، وسيأتي كلامه.

إلى ذلك أني أقمت في غرناطة أربعة أشهر كما تقدم ـ قلت له: هذا الاقتراح الذي اقترحت عليَّ يتَّفق عندكم مع تعظيم الدين والعلم وحرمات المساجد! أرأيت لو أن قسيسًا كان يعظ الناس في الكنيسة فقام رجل من الحاضرين وأساء الأدب مع الدين ومعه وأسكته، فقال له القسيس الواعظ: أنت أحقُّ بالسُّكوت يا جاهل يا ظالم! وكنت أنت حاكم تلك المدينة، ثم رفع الأمر إليك، فبأيِّ حكمٍ تحكم؟ أتحكم بحبس القسيس وإلزامه بطلب العفو من ذلك الظالم الذي أمر بحبسه وأساء الأدب مع الدين وانتهك حرمة الكنيسة، أم تأمر بحبس ذلك الجاني وإطلاق سراح القسيس والاعتذار له وإرضائه؟![1] فقال لي حائدًا

(١) في «الديوان» (١٨٦ ـ ١٨٧):
«فقال لي: إن قانون الدولة الإسبانية يحترم الكنيسة ورجالها، ولا يستطيع حاكم أن يتدخل في شؤونهم.
فقلتُ له: فكيف تدافع عن الباشا، وقد ارتكب أنواعًا من الظلم الذي لا يبيحه القانون؟!
الأول: إنه جاهل بالدين، وتدخل في شؤونه!
الثاني: إنه قبض عليَّ ونحن في انتظار الصلاة في أقدس مكان في البلد، وهو بيت الله، ولم يمهلني حتَّى أُتمَّ الصلاة وأخرج!
الثالث: إنني لم أتكلم برأيي، وإنما ذكرتُ حديث نبينا محمد ﷺ، فقابله بقوله: (اشت!)، وهذه إهانة لحديث النبي ﷺ، وبيت الله!
الرابع: إنه قبض عليَّ بوجهٍ عدواني خارج عن القانون مقصود متعمد!
فقال لي: ما معنى هذا الكلام؟
فقلتُ له: إنه أحضر خمسة من الشرطة وليس من العادة أن يحضرهم، وصاح عليَّ من مكان بعيد، وهو يعلم ضعف بصري وأنني لم أرَه، ولم أعلم مَن هو المتكلم؛ فلو جرى على القانون لبعث إليَّ واحدًا من أولئك الشرط، وقال لي: يقول لك الباشا: اسكت عن الوعظ، وحينئذٍ؛ أمتثلُ أمره أو أخالفه.
فقولي: اسكت يا ظالم! موجهٌ لصاحب الصوت الذي لا أعرف مَن هو، ولم يُعرِّفْني بنفسه، على أنه لو عرَّفني بنفسه ما كنتُ أمتثلُ أمره. =

عن الجواب: مقصودي أن العلماء من شأنهم أن يكونوا حلماء. فقلت: أرني حقِّي ثم اطلب مني الحلم، أما قولك: إنها مسألة دينية، فليس بصحيح، فإني أقمت هنا أكثر من خمسة أشهر والأمير ونائب القاضي يعاديانني ولم يتجرآ على الإساءة إلي حتى حرَّضتموهم على ذلك، وهما عبدان خاضعان لكم لا يتجرآن أن يحبسا نملة إلا بأمركم، وأنا لستُ من الغفلة بالمكان الذي يروج عليَّ فيه اعتذارُك هذا فهو مردودٌ عليك، فقال لي: أنا متأسِّفٌ وما أردت لك إلا الخير وأنتَ حرٌّ في تصرفك.

وكان مما قاله لي ونسيت ذكره في موضعه: إن الأمير كان مكرهًا على حبسك لأنك شتمتَه أمام رعيته، فلو لم يحبسك لم يبق له حرمة عندهم، فلا يستطيع أن يحكم على أحد بعد ذلك. فقلت له: أهكذا تكون العدالة عندكم في إسبانيا؟! يتجرأ أمير قرية على إسكات واعظ في الكنيسة والأمر[1] بحبسه، ولا يعد ذلك ظلمًا ولا إهانة للدين والعلم ثم يعتذر للظالم بهذا العذر البارد، فهب أنه لم تبق له حرمة عند رعيته ولا يستطيع أن يحكم عليهم فهناك حكم آخر هو أحسن وأعدل، وهو أن يعزل ذلك الحاكم ويعاقب على عمله ويستبدل بغيره.

فانصرفتُ من عنده والترجمان يرافقني وهو متأسِّف عليَّ، فقال لي: ماذا صنعتَ بنفسك يا أخي؟ أنتَ مريضٌ، ولا قوَّة لك على البقاء في السِّجن ولا تظن أن هذا الذي أنت فيه هو السجن، إنما هذا هو

= فقال لي: إنه مضطر لحبسك؛ لأنك شتمته أمام رعيته، ولو لم يحبسك لتجرأ عليه الناس، ولم يبقَ له صلاحية الحكم.
فقلتُ له: هل القانون الإسباني يُبيح الحاكم أن يحبس شخصًا بدون ثبوت جريمة، بل لمجرد الإرهاب وإلقاء الرعب في قلوب الرعية؟!
فحاد عن الجواب؛ وقال لي: إن رجال الدين يجب أن يكونوا حلماء!».

(١) الصواب: «يأمر». (خ)

توقيف وتمهيد وسيحكم عليك بالسجن، والمكث فيه صعب، ولا تغتر بما يظهره لك الناس من المحبة، فإنه يمكن أن تبقى في السجن حتى تموت، فقلت له كما قلت للإسباني قبله: أتريد منِّي أن أذهب إلى الأمير وأتذلَّل له وأكذب على نفسي وأقول: إنِّي كنتُ مخطئًا في جوابي لك فأسألك العفو؟ فقال: هذا الذي يحتِّمه الحالُ التي أنتَ فيها. فقلت: لن أفعل ذلك أبدًا إن شاء الله، وليكن ما عسى أن يكون. فقال لي: أرجو أن توافقني على لقاء الأمير فقط. فقلت: أنا موافق عليه. فقال: انتظرني هنا. فرجع إلى الحاكم فقال: إنه قبل أن يجتمع بالأمير، فأذن لي أن أرافقه. وكان هذا الرجل ناصحًا لي، ولم يكن يدري أن الأمر ليس بيد الأمير ولا بيد حاكم شفشاون، وإنما جاء من الدائرة العليا في تطوان، وهو أمرٌ بُيِّت بليلٍ، فلم يأذن له الحاكم بل قال له: الشرطي الذي جاء به يردُّه، فقال الترجمان للشرطي: اذهب به إلى الأمير.

فذهبت إلى الأمير في مكتبه وقلت: السلام عليكم. فقال: وعليكم السلام اجلس، وأشار إلى كرسي فجلست وبقينا ساكتين، ثم قال: أيها الأستاذ! أنتَ قلتَ في المسجد أمام الناس: إني جاهل وأنتَ صادق، ولكن لو قلت ذلك وصفحت عنك لسقطت في أعين الناس ولم يبقَ لي عندهم احترام، فقلت له: ماذا تريد بهذا الكلام؛ لعلك تريد إظهار الندم وفتح باب الصلح؟ فقال: نعم. فقلت له: لي شرط واحد إن أنت قبلته سامحتك في الدنيا والآخرة، وإن لم تقبله فردَّني إلى السجن. وقبل ذلك قلت له: لماذا كنت قبل أن أجيء إلى بلدك كلما رأيتني في تطوان أسرعتَ إلى السلام عليَّ ببشاشة وتودُّد، ولما جئتُ إلى بلدك لم تسلِّم عليَّ ولا مرة واحدة، ولا ضيَّفتني؟ فقال لي: لم أستطع ذلك. معناه أنه يخاف من الإسبانيين، ثم قلت له ـ وهذا هو الشرط ـ: أن تقف في المسجد الجامع قبيل أن يرقى الخطيب على المنبر، وتقول: أيها الناس

اشهدوا عليَّ أنِّي كنت ظالمًا حين أسكتُّ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي يوم الجمعة الماضي، وإني أشهدكم أني تبتُ إلى الله، وأنني ألتزم نصرة سنة النبي قولًا وعملًا حتى ألقى الله. فقال لي: دعني أفكِّر في هذا الأمر. فقلت: إذًا أرجع إلى السجن حتى تفكر. وكان الشرطي عند الباب فذهبت معه إلى السجن[1].

أما أهل شفشاون فإنهم استنكروا هذا العمل كل الاستنكار، ولم يخافوا سطوة الأمير ولا سطوة الإسبانيين، واجتمع خلق كثير منهم فتوجَّهوا إلى مكتب الأمير ليبدوا له استنكارهم ويطلبوا منه إخراجي، فأمر الشُّرَطة أن يصرفوهم، فصرفوهم، ومن شدة إعجابهم بموقفي وثباتي أشاعوا أن الأمير عرض عليَّ أن يطلق سراحي فامتنعت، ولعلهم فسروا اشتراطي ذلك الشرط عليه بالامتناع.

ووجدت بخط يدي ما نصه: أن سكان شفشاون قد قاموا وقعدوا لهذه الحادثة وأقاموا القيامة، وبلغ بهم الأمر إلى أنهم هجروا الجامع الأعظم في الجمعة التالية فلم يصلِّ فيه أحد إلا الغرباء الذين يأتون إلى السوق، وذهب جماعة من المواطنين إلى طنجة واحتجوا على هذه الحادثة عند السفير الإسباني، وأذاعت إذاعة لندن (الخبر)، وقاطعوا الأمير بقدر جهدهم، فقد كانت لهم عادة في أوائل ربيع الأول أن ينادي المنادي في الناس بأمر من الأمير أن يجمعوا النقود لشراء ثور يذبحونه في اليوم الثاني عشر من هذا الشهر على القبة المدعوة سيدي علي بن راشد، ويبيتون ليلة الثاني عشر مع أمير المدينة ينشدون القصائد في المدح النبوي في تلك القبة إلى أواخر الليل.

(١) للهلالي في «الديوان» (١٨٢ ـ ١٨٩) تفصيل جيّد لهذه الحادثة.

وبعد هذه الحادثة دخل ربيع الأول ونادى المنادي ـ وكان شابًّا ـ فذهب الناس إلى أبيه، وقالوا له: كيف تترك ابنك يعين هذا الظالم الذي قبض على الدكتور يوم الجمعة بالمسجد الأعظم؟! فلام الرجل ابنه فقال: إني فعلت ذلك خوفًا منه فقط، وأنا أقول للناس بصوت منخفض: لا تفعلوا لا تفعلوا. ولم يتبرع أحد بفلس واحد لشراء الثور، فاضطر الأمير أن يشتريه من ماله الحرام، وما ذبح لغير الله فهو جدير أن يُشترى بمال حرام، ولم يشاركه أحد من أعيان البلد فيما يسمى عندهم بإحياء الليلة، وهو في الحقيقة إماتة لها.

وهذا في زمن الاستعمار عمل عظيم، ولا يستغرب مثله من سكان الشمال، فإن لهم مواقف مشرفة في محاربة الاستعمار، ولا يتجرأ عليها سكان الجنوب، ولولا خوف الإطالة لذكرت أمثلة من ذلك.

وفي عصر ذلك اليوم وهو السبت **٢٤** صفر **١٣٦٦**هـ الموافق **١٧** يناير **١٩٤٧**م، جاءني السيد عبد السلام بن محمد المؤذِّن، والسيد محمد العبودي[(١)] وهما من خاصة تلامذتي من الشبان، فدخلا عليَّ في معتقلي، وقال لي السيد عبد السلام: إننا جئنا ظهرًا وكنا[(٢)] عند الأمير[(٣)] وبلَّغتُه أنَّ والدي السيد محمد المؤذِّن ساخط كلَّ السخط على معاملته لك! وقال: وقلتُ له أنا: أين الصَّداقةُ والأخوَّةُ التي بيننا؟ كيف تقبض على أستاذنا وتخرجه من المسجد، وتحبسه بصورة مخزية لك وتبقى بيننا وبينك مودة؟! فقال لي: يا سيدي عبد السلام! هذا سِرٌّ لا أستطيع أنْ أخفيه عنك، ولا أستطيع أن أبوح به لغيرك، إنَّ المراقب

---

(١) توفي. (خ)
(٢) بدلها في «الديوان» (١٨٤): «وتغدّينا».
(٣) في «الديوان»: «عند الباشا يزيد بن صالح».

الإسبانيَّ هو الذي أمرني بالقبض عليه، وقد جاءه الأمر من تطوان بذلك، وأرجو أن تكتم عليَّ هذا الأمر ولا تخبره به، فإنَّ في ذلك خطرًا على منصبي، وغدًا يوم الأحد ما فيه شغل، وفي يوم الاثنين يكون عندكم في تطوان(١). فإن قلت: لماذا يخاف الأمير من السيد عبد السلام ووالده كل هذا الخوف؟

فالجواب: أنه كان له عيال كثير(٢) وكان مفلسًا على الدوام، فإذا

---

(١) أفادنا تلميذ الهلالي الأستاذ مصطفى بن محمد الشعشوع في مجلس في بيته بتطوان ضحى يوم الاثنين ٦ صفر **١٤٣٠**هـ يوافق **٢١** فبراير **٢٠٠٩**م أنه ممن ذهب إلى الباشا من أجل كلامه بإطلاق سراح الهلالي. قال: فأخبرته أن الهلالي رجل عالمي محترم لدى كثير من أعيان المسلمين في العالم. فرد عليه: إن أردت أن أعتقلك معه فلا مانع، فألححت عليه، فوافق أن يتصل به كتابة ويرد عليه كتابة، دون المشافهة واللقاء، قال: «فكتب شيخنا الهلالي لي يأمر أن أطلب من سعادة الخليفة المعظَّم التدخل لدى الباشا، وأن أشرح له الواقعة، فتدخل الخليفة المعظَّم ـ وكان نائبًا للملك على الشمال ـ فأمر الباشا بإطلاق سراحه، لكن بشرط المقام بابن قريش (وهي قرية بين تطوان والشاون). وكان هذا القرار إسبانيًّا بإيعاز من أهل البدع، وكانوا في سعادة وحبور وفرح وسرور، لما لحِق الهلالي من تضييق.

ولكن توافد عليه طلبة العلم يزورونه بابن قريش للاستفادة منه والتتلمذ عليه، وكانوا ينقلون له أخبار الدعوة، وكان يرسل معهم القصائد يهجو فيها أهل البدع.

قال: فأصبحت ابن قريش ملتقى التلاميذ والأنصار، وراق للهلالي المقام فيها، لما تتميز به من الجو الصحي لمعاناته من مرض الربو، فشفاه الله هناك مدة نزوله فيها».

قال أبو عبيدة: هذا الخبر متمم لما ساقه الهلالي، فرأيتُ إتحاف القراء به، لا سيما من أراد أن يعرف مجريات ما حصل معه بعد خروجه من السجن.

(٢) زاد في «الديوان» (**١٨٤ ـ ١٨٥**): «كان متزوجًا بأربع نسوة، ثم تزوج بخامسة، فتوجَّه إليه ابن عمه الشيخ بدر الدين من تطوان، وقال له: لقد =

أراد المستعمرون توزيع سلفة من الحبوب على الأهالي يطلبون منه ثمنها نقدًا فلا ينقذه إلا السيد محمد المؤذّن، فهو يقرضه المال الذي يدفعه للمستعمرين، ثم يأكل هو أكثر تلك الحبوب ويوزع شيئًا قليلًا على أصدقائه وهذا أمر مألوف بين حكام الشعوب المستعمرة(١).

الانتقال إلى تطوان

مر يوم واحد وهو يوم تعطيل عند النصارى، يمنع حُكَّامهم رعاياهم ورعايا البلدان الواقعة تحت حكمهم من العمل من بعد ظهر يوم السبت إلى صباح يوم الاثنين، حتى المستشفيات يعطّل فيها الشغل ولا يفعل إلا ما هو ضروري لإنقاذ الحياة، وكذلك المدارس والمحاكم ودور التجارة والمصانع إلا أن سكك الحديد والطائرات والمطاعم لا تعطل. ومن خالف هذا القانون واشتغل يعاقب عقابًا صارمًا، وليس العجب من النصارى إذا عطّلوا يوم عيدهم المكذوب على المسيح فذلك دينهم، ولكن العجب كل العجب من سُكَّان المستعمرات التي كان يحكمها

= أخزيتَنا وأخزيتَ سائر العشيرة! فكيف تتزوج بامرأة خامسة ولم يفعل هذا مسلم قبلك؟! فطلَّق الرابعة التي هي حلال، وأبقى الخامسة التي هي حرام؛ فكان كمن غسل الدم بالدم!

وكلُّ تلك النسوة كُنَّ يَلِدْن؛ فكان له أربعون ولدًا ذكورًا، وكان يكسوهم كسوة متشابهة؛ فكانوا يظهرون كأنهم فرقة من الجيش».

وعلق الشيخ بوخبزة على قوله: «ابن عمه»: «اسمه بدر الدين الميموني، لم يكن ابن عم اليزيد».

(١) «الديوان» (١٨٤ ـ ١٨٥)، وعلق بوخبزة هنا بقوله: «وبعد انتقال اليزيد بن صالح إلى باشوية تطوان بعد عزل محمد إشعاش؛ لمواقفه الوطنية، كان يعول أولاده من إتاوة يفرضها على البغايا».

النَّصارى كباكستان والمغرب والجزائر ثم استقلت منذ زمان طويل، ومع ذلك ما تزال محافظة على سنة النصارى في تعطيل يوم الأحد وتعطيل أيام عيد الميلاد، وكذلك لم يزل هؤلاء وغيرهم محافظين على سنة النصارى في استعمال تاريخ النصارى وهجر تاريخ الإسلام، حتَّى إن علماء الدين أنفسهم يكتبون إلى إخوانهم المسلمين يؤرّخون لهم الكتب بتاريخ النصارى، وللكلام على هذا موضع آخر(١) وإنما هي نفثةُ مصدور.

وإنما قلت: إنَّ جعل يوم الأحد عيدًا للنصارى مكذوب على المسيح في جملة ما كذبوا عليه كأكل لحم الخنزير، وقولهم: إن الله

(١) للهلالي في مجلة «الفتح» المصرية حلقتان بعنوان: «التاريخ الرومي والتاريخ العربي» نشرتا في (المجلد الثامن) في العددين (٣٨٤، و٣٨٦) بتأريخ ٨ ذي القعدة ١٣٥٢ (ص٦ ـ ٧، ١٩) و٢٢ ذي القعدة ١٣٥٢هـ (ص١٢ ـ ١٥).

وأثبت فيهما الهلالي أن التاريخ المستعمل ليس بميلاد عيسى عليه السلام، ولذا سماه (الرومي)، قال: «لأن نسبته إلى ميلاد عيسى ابن مريم مسألة فيها نظر للمؤرِّخين». وفصّل في ذلك، وأفاد وأجاد.

ومما قال في آخر (الحلقة الأولى): «لا لوم على أمم أوربا إذا استعملت الشهور الرومية والتاريخ الرومي (الميلادي)، إنما اللوم والعار على الدول العربية التي تستعمل الشهور الرومية، والتاريخ الرومي، وتهجر شهورها وتاريخها، ومع ذلك تدَّعي أنها جادَّة في بناء صرح عزّتها القومية واستقلالها الباهر»! ومما قال في آخر (الحلقة الثانية): «لذلك نرجو من الحكومة وأفراد الأمة أن يتلافوا هذه الهفوة، ويعزموا على استعمال الشهور العربية، والتاريخ العربي، عزمات عربية أمضى من السيوف البواتر، ولا يكونوا كالذين يقولون ما لا يفعلون».

ومما وجدته في مراسلة له للسيد علي الحريشي توجيه الهلالي له بنبذ التأريخ بتأريخ النصارى، قال له: «وهذا لا ينبغي لمؤمن بالله أن يفعله. فاسْتغْفر الله، وخلِّ النصارى للنصارى وعبيدهم». وانظر «العيون الزلالية» (ق ٤٦٦ ـ ٤٦٧) للهلالي، وكتابي «رسائل الهلالي» (١/ ٤٧٢).

ثلاثة أقانيم الأب، والابن، وروح القدس، لأن المسيح كان يعطِّل يوم السبت كسائر بني إسرائيل، والأناجيل الأربعة طافحة بذلك، فلما تنصَّر الملك قسطنطين كره موافقة اليهود فنقل العيد من يوم السبت إلى يوم الأحد[(١)].

أقول: مضى يوم الأحد علي في السجن لأنه لا عمل فيه، وقبل فجر يوم الاثنين سمعت صوت المفتاح في القفل ثم فتح الباب، وقال لي الحارس: خذ ما تحتاج إليه من أمتعتك، لأنك ستبارح هذا المكان. فأخذت اللبدة التي أصلِّي عليها ولم آخذ شيئًا غيرها، وخرجتُ من مبنى مكتب الأمير فوجدت حارسًا آخر على الباب ينتظرني، فسلَّم عليَّ بلُطف وأدب غير معهود من حراس مكتب الأمير، وقال لي: اتبعني. فانطلقت معه إلى مكان قريب من شركة بالين سيانا للسيارات، فقال: انتظرني هاهنا. فتيمَّمتُ وصلَّيتُ الصُبح، لأن فرضي في تلك الأيام كان تيممًا للمرض الذي كنت مصابًا به، ثم رجع إليَّ الحارس وأخذني إلى السيارة وركب إلى جانبي، فتوجهت بنا السيارة إلى تطوان.

ولما نزلنا رافقني الحارس إلى مكتب (كاساس) وهو المراقب الإسباني الذي كان يتصرف في جميع شؤون الحكم في تلك الأيام، وكان شديدًا على المغاربة، وكنت أقول فيه باللغة الإسبانية (كاساس كيفا أدسروير سوس كاساس)[(٢)] وهذا سجع لأن الكلمة الأولى

---

(١) ومثله: ميلاد عيسى عليه السلام، انظره مبسوطًا في «بيان خطأ التأريخ الميلادي، وإثبات أن عيسى عليه السلام ولد صيفًا لا شتاء والرد على القائلين بولادته شتاء من المسلمين، ومفسِّريهم ومؤرِّخيهم من النصارى» للأستاذ عادل بن عبد العزيز، نشر دار ابن الجوزي ـ الدمام.

(٢) هذا رسمها في «الديوان» (١٨٩): (casas qui va a disruir sus casa).

والأخيرة لفظهما واحد ومعناهما مختلف، فالأولى: عَلَمٌ على ذلك الحاكم الإسباني، والأخيرة معناها: بيوت أو ديار. ومعنى الجملة: كاساس هو الذي سيخرب بيوتهم؛ أي بيوت قومه الإسبانيين، وكذلك وقع؛ فإنه بقي يحكم بأمره وأمر رؤسائه حتى فاجأه الاستقلال وخرج من تطوان خاسئًا ذليلًا. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ولما جلست أمام كاساس قال لي: نحن متأسِّفون لهذا الحادث، وقد اشترط عليك الحكَّام الذين كانوا قبلي أن لا تسكن في المدن الصغيرة، لأنَّ حُكّامها يتصرَّفون حسبما يظهر لهم، ولما كان هذا الحادث من شئون الدين الإسلامي، فنحن لا نحبُّ أن نتدخَّل فيه وإنما ننفذ ما يحكم به القاضي والأمير. فقلت له: إنني لم أبلغ من الغفلة والجهل إلى الحدِّ الذي تظنه، فهذا الحادث بحذافيره منكم وإليكم، وتستركم بدين الإسلام وبالمسجد وبالقاضي والأمير لا يجديكم نفعًا، وبرهان ذلك: أن هذه المسألة ـ وهي وعظ قراء القرآن أن لا يرفعوا أصواتهم ولا يقرؤوا جماعة ـ وقع منذ أكثر من خمسة أشهر، واستمع القراء وقبلوا النصح وتركوا القراءة طول هذه المدة، والأمير والقاضي يسمعان ويريان ولم يحرِّكا ساكنًا ولا نَبَسَا ببنت شفة، حتى أوعزتم إليهما بنصب هذا الشَّرَكِ، ولم تقتصروا عليهما؛ بل أوعزتم إلى وزير العدل أن يحضِّر فتوى بذلك.

فقال لي: أنا آسف على تصورك هذا الذي هو ما تخيلته، ولا نصيب له من الصِّحَّة. فقلت له: أنتَ حاكمٌ تستطيع أن تجعل الصحيح باطلًا والباطل صحيحًا بالقول، ولا يستطيع أحد أن يعارضك، ولكن الحقائق في نفسها ثابتة لا تتبدل. فقال لي: نحن لا نمنعك أن تسكن في

شفشاون ولكننا لا نستطيع أن نضمن لك أن لا يتكرر مثل هذا الحادث، لأننا لا نستطيع أن نقيد أيدي الحكام المغاربة والإسبانيين عن التصرف طبق ما يرونه صالحًا للبلد الذي يديرون شؤونه، ثم قال لي: أنتَ حرٌّ طليقٌ يمكنك أن تنصرف.

فكانت مدة إقامتي في السجن إلى أن أطلق سراحي ثلاثة أيام، ثم رجعتُ إلى الاستقرار في تطوان[1] وبعثتُ أحد تلامذتي إلى شفشاون، وأرسلت معه رسالة إلى إخوة الزوجة أن يأتوا بها وبالأمتعة إلى تطوان.

لماذا خذلني خليفة السلطان مولاي الحسن بن المهدي؟

كان من أسباب انتباه الإسبانيين إليّ وإساءتهم لمعاملتي أن هذا الخليفة بعث إليَّ سيارته في الأسبوع الأول الذي قدمت فيه تطوان، وكنت في نادي الطالب المغربي، مع أن المسافة بين النادي والقصر الخليفي لا تحتاج إلى سيارة، ولكنه أراد إكرامي فركبت السيارة ووصلت إليه فرحَّب بي، وقال لي: لي أُمنيَّة لم تزل تختلج في صدري؛ وهي إنشاء معهد للقرآن والحديث، ولكني لم أجد لهذا المعهد رجلًا كفؤًا أطمئن إليه في تدبير شؤونه، حتى قدمت أنتَ وعلمتُ ما لك من الفضل والعلم والدين، فأرجو أن تقيم عندنا في تجلة وإكرام ولا ترجع إلى ألمانيا لأن بلادك في حاجة إليك، فدعوتُ له وشكرته على حسن ظنِّه، واعتذرتُ بأنني جئتُ لزيارة تطوان بقصد الرجوع إلى برلين، لأن لي

(١) بقي فيها إلى سنة ١٩٤٧م، انظر «آراء وأحاديث مع تقي الدين الهلالي» (٢٦).

علائق لا بد من إنهائها، فعاد إلى الإلحاح، فقلتُ: أفكِّر في هذا الأمر. أما جواسيس الاستعمار فقد أسرعوا إلى الإسبانيين وبلغوهم هذا الاجتماع، فحسبوا له حسابًا وفكَّروا وقدَّروا.

وكان ذلك سببًا لأن دعاني مدير الشرطة العام إلى مكتبه، واستنطقني لمدة ثلاث ساعات كلها سين جيم ـ كما يقولون ـ وعلى أثر ذلك انتزع مني جواز السفر، وقال لي: سأنقل ما فيه وأرده لك. فكان ذلك آخر العهد به، ثم تلا ذلك ما تقدم ذكره من اتهام الإسبانيين لي بأنني مبعوث من الحكومة الألمانية للسعي في إخراج الإسبانيين من المغرب.

ولما رأى الخليفة الإسبانيين عاملوني بتلك المعاملة صرف النظر عما دعاني إليه، وتولى الإسبانيون أنفسهم تأسيس المعهد الإسلامي الأعلى(١).

(١) **قال أبو عبيدة**: ظفرتُ في ملف الأستاذ أحمد هارون ـ أخص المغاربة من تلاميذ الهلالي ـ الذي بعثه لي ـ جزاه الله خيرًا ـ في جمادى الآخرة سنة **١٤٣٠**هـ بسبعة أوراق باللغة العربية حول تنظيم معهد مولاي الحسن، وكان ذلك في تطوان بتأريخ **١٣** يونيو سنة **١٩٤٤**م، ورشح واضعه ـ وهو إسباني، لذا فالعبارات ركيكة! والعجمة ظاهرة فيه! ولكن فيه معلومات مهمة جدًّا عن المكتبات الخطية في إسبانيا، وهو تمهيد لاعتماد (ظهير بإعادة تنظيم المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي)، وقد نشر في (الجريدة الرسمية) آنذاك ـ أن يكون تقي الدين الهلالي مع ثلاثة آخرين ممن يشتغل في التآليف للمعهد.
وهذه كلمة موجزة عن هذا المعهد: أُنشئ في سنة **١٩٣٧**م، وأول مدير له الشيخ المكي الناصري، وخلفه سنة **١٩٤٣** على رئاسته الأستاذ عبد الله كنون، وكان الشيخ المكي قد جلب بعثة تعليمية مصرية مكونة من **٦** أساتذة، قامت في سنة **١٩٣٩** ـ أثناء الموسم الدراسي ـ بتكوين أساتذة للتعليم الثانوي.
وفي ميدان الأبحاث قام المعهد المذكور بنشر العديد من الأعمال التراثية والدراسات التي كانت ترصد لها جوائز ثمينة، وكان التسابق على تلك الجوائز مفتوحًا أمام الباحثين من مختلف الأقطار، ولكن بالعربية، وقد فاز بالجائزة =

وهذا الخليفة وإن كان مقيّدًا بسلاسل الاستعمار، فإنه كان متَّصفًا بالشهامة والغيرة على الإسلام كما ستعرفه فيما بعد، إلا أن الوشاة من أعداء التوحيد والسنة بلغوه أني صرت من أتباع أمير العرائش السيد خالد الريسوني، وكانت بينهما عداوة شديدة، وإن كان الخليفة في الظاهر هو نائب السلطان وهو الرئيس على جميع الأمراء، إلا أن الاستعمار كان يسير على خططه المعوجَّة ومصالحه المنشودة، وهو يعلم أنَّ السيد خالد إدريسي النسب، وكان أبوه قد ثار على الدولة العلوية والخليفة علوي، وللاستعمار مصلحة كبيرة في إثارة الحزازات والمنافسة بين الأدارسة والعلويين جريًا على قاعدة (فَرِّقْ تسُد)، فلما بلغ الخليفة هذا الخبر قَبِلَهُ على علَّاته ولم يمحِّصْهُ، فلذلك خذلني عندما حبسني الإسبانيون.

ولما سمع خبر هذا الحادث الأمير خالد الريسوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتب إليَّ

= فعلًا الأستاذ محمد التطواني من سلا، والأستاذ ع. ع. ابن عبد الله من الرباط، وأستاذ مصري من جامعة مانشستر، وفي **١٩٥٣** فاز بالجائزة الأستاذ محمد داود عن معلمته «تاريخ تطوان»، وقام المعهد بطبع سلسلة «مشاهير رجال المغرب» للعلامة كنون، كما نشر المعهد كُتبًا لكل من المؤرخين ع. س. بنسودة، وم. المنوني من الجنوب، وع. س. الطود من أهل المنطقة.
وفي **١٩٤١** أُنشئ عيد الكتاب، وكان مناسبة مشهودة لإقامة المعارض الحافلة، وكان معهد الجنرال فرانكوا للأبحاث الإسبانية العربية **(١٩٣٨)** خاصًّا بالأبحاث التي يتضمنها اسمه، وفي **(١٩٤٨)** اختصت هذه المؤسسة بالبحث في تاريخ المغرب القديم.
ولا ننسى جائزة المغرب للآداب بالعربية والإسبانية التي أنشئت سنة **١٩٥٣**، وفاز بها البقالي بصحبة أُستاذه إبراهيم الإلغي، وفي السنة التالية فازت بها أمينة اللوه، أول دكتوراه في علوم التربية من جامعة مدريد، وأول مديرة مدرسة ابتدائية ثم مديرة لمدرسة المعلمات، وفي سنة **١٩٥٥** فاز بالجائزة كل من محمد الطنجاوي في الشعر، والبقالي في النثر.
وانظر كتابي «مراسلات الهلالي» **(٣/ ١٥٦٤ ـ ١٥٨٢)**.

بخطِّ يدهِ كتابًا يقول فيه: إنه قد بلغني ما جرى عليك مما صَنَعَتْهُ أيدي المغاربة والإسبانيين، فأسفتُ لذلك كثيرًا، فهلمَّ إليَّ فإنّي مستعدٌّ لحمايتك وإكرامك ما دمت مقيمًا في المغرب لا تصل إليك يد مغربي ولا إسباني، وإن أردتَ السفر إلى الشرق أوصلتُك إلى أي مكان تريد.
ولم يكن لي أحد أستشيره إلا عالم المغرب وأديبه العبقري في هذا العصر الأستاذ عبد الله كنون(١) لثقتي بحصافة رأيه وإخلاصه النصيحة فاستشرته، فقال لي: لا تفعل؛ إن لك عند أبناء قومك المغاربة من علوٍّ المكانة والقدر أكثر مما للأمير خالد الريسوني، فاقنَعْ بحماية الله.
فأخذتُ برأيه وكتبت إلى الأمير خالد وشكرته(٢) واعتذرتُ عن قبول ما دعاني إليه، وعلم ـ بعد ذلك ـ الخليفة أن الوشاة خدعوه، وأنني لم أكن من أتباع أمير العرائش ولا غيره، وإنما كنتُ ولا أزال إن شاء الله من المتبعين للنبي ﷺ.

طلب أمير شفشاون للصلح مرة أخرى

جاء أمير شفشاون(٣) إلى السيد محمد المؤذِّن(٤) رَحِمَهُ اللهُ واعتذر له بأن الإسبانيين أمروه بأن يقبض عليّ وأنه لم يزد على تنفيذ ما أمروه به، وأن ناسًا من المشركين والمبتدعين ـ ومنهم الحسن العمرتي ـ طلبوا منه

(١) سبقت ترجمته.
(٢) في «الديوان» (٢٠٣): «وكتبتُ إلى السيد خالد الريسوني رسالة شكرته بها على شهامته ومروءته».
وانظر كتابي «رسائل الهلالي» (١/ ١٣، ٨٤، ٢٧٣) و(٣/ ١٥١٠).
(٣) هو اليزيد بن صالح، انظر «الديوان» (١٩٤).
(٤) قال عنه الهلالي في «الديوان» (١٩٤): «وهو من المجاهدين الذين قضوا في سجن الاستعمار زمانًا طويلًا، وعاجلته المنيةُ قبل أن يجني ثمرات الحرية».

أن يضربني ثلاث مئة سوط لأني أنكرت كرامات الأولياء، وطعنتُ في عقيدة الأشاعرة وأفسدتُ المذهب المالكي، فأبى أن يسمع قولهم احترامًا لعلمي وفضلي الذي يعتقده، وهو يطلب من السيد محمد المؤذن أن يصلح بيننا، فقلت للسيد محمد المؤذن: أنا لا أمتنع أبدًا من الصلح، ولكن بالشرط الذي شرطته عليه في مكتبه بشفشاون، فبلغه ذلك، فلم يستطع[1] ولكنه بقي مع ذلك مصرًّا على طلب العفو مني يتحيَّن الفرص لذلك.

وفي يوم من الأيام ذهبت لزيارة الخليفة مولاي الحسن بن المهدي بارك الله في حياته، فسجلت اسمي وأمرت بالانتظار في مقصورة تسمى البنيقة، وكان هناك أناس غيري ينتظرون لقاء الخليفة، فما شعرت إلا وقد هجم عليَّ شخص وقبَّل رأسي، وقال لي: أيها الأستاذ أطلب منك المسامحة، فإذا به أمير شفشاون اليزيد بن صالح، فلم أجبه بشيء، ولا شك أن هذا الرجل لم يكن خاليًا من الخير بالمرة، وكان صادقًا في قوله: إن الإسبانيين أمروه بالقبض عليَّ وقد طلب العفو منِّي ثلاثَ مرات إلا أنَّ شرطي كان شاقًّا عليه.

وبعد عشر سنين من ذلك فقط جاء الاستقلال وذهب الاستعمار، وذلَّ من كان معتزًّا به ووصل إلى الحضيض الأسفل، بل قبل ثماني سنين فقط وفي سنة ١٣٥٧ سافرت إلى المغرب ووجدت أمير شفشاون أحد إخواننا وهو السيد العياشي العلمي فأكرمني غاية الإكرام، ووجدت الحسن العمرتي قد جلله الخزي ولزم بيته فلا يخرج منه، فألقيتُ درسًا في المسجد الأعظم الذي قبض عليَّ فيه، افتتحته بقول الله تعالى من

---

(١) زاد في «الديوان» (١٩٥): «فلم يستطع اليزيد بن صالح أن يلتزم ذلك الشرط، لأنه ـ في اعتقاده ـ يفقده منصبه، وَفَقْدُ الحياة أهونُ عليه من فَقْد منصبه».

سورة القصص [٥، ٦]: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾.

ثم قلت: أين المراقب الإسباني؟ أين اليزيد بن صالح وأعوانه؟ أين الحسن العمرتي؟! أخنى عليهم الذي أخنى على لبد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]، قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۞ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۞ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥٣]، وامتلأ المسجد الجامع كما يمتلئ يوم الجمعة، وأنجز الله سبحانه وتعالى ما كنت أوعدتُ به الأمير السابق في القصيدة التي ستأتي في هذا الكتاب، قال تعالى في سورة غافر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. اللهم اجعلنا من الذين آمنوا واتبعوا رسلك فنصرتهم على أعدائهم.

عاقبة أمير شفشاون اليزيد بن صالح

نقل الإسبانيون هذا الأمير لإخلاصه في خدمتهم إلى إمارة مدينة تطوان، وهي عاصمة الشمال، مكافأةً له على إخلاصه لهم، فلما جاء الاستقلال زار الملك المظفر محمد الخامس مدينة تطوان، فجاء اليزيد وأخذ يطوف على المستقبلين، ويقول: أين اللبن أين التمر؟ ومن عادة المغاربة أن يستقبلوا كل ضيف عزيز باللبن والتمر. فجاء جماعة من الوطنيين المجاهدين وقالوا له: أيها الخائن! بلغت بك الوقاحة إلى أن

تأتي إلى هنا! بأي وجه تستقبل الملك؛ أبالوجه الذي خدمت به الاستعمار؟! وحملوه في الهواء وألقوه بعيدًا، فأصابته رضوض وجروح ودخل بيته ولم يخرج منه إلى أن مات[1].

وينبغي أن أثبت هنا القصيدة التي أنشأتُها في هَجوه، لا حقدًا عليه، لأن طلبه المتكرر بالعفو يليِّن القلب القاسي، هذا مع أنه كان أميرًا، وأنا رجل غريب لا ناصر لي إلا الله، ولكن لما فيها من العبر، فقد أنطقني الله فيها بأمورٍ وقعتْ كلُّها في المستقبل القريب كأني كنت أنظر إليها:

يَزِيْدُ لَئِيمُ الْطَّبْعِ خِبٌّ مُنَافِقٌ ... عَلَى صُورَةِ الإِنْسَانِ وَهْوَ مَرِيدُ
مِنَ الْنُّكْرِ يَدْنُو حَيْثُ سَارَتْ رِكَابُهُ ... وَأَمَّا مِنَ الْمَعْرُوفِ فَهْوَ بَعِيدُ
وَمَا كَانَ يَوْمًا زَائِدًا فِي فَضِيلَةٍ ... وَلَكِنْ يَزِيدُ فِي الْفُجُورِ يَزِيدُ
ضَعِيفٌ مَتَى يُدْعَى إِلَى فِعْلِ صَالِحٍ ... وَلَكِنَّهُ فِي الْسَّيِّئَاتِ شَدِيدُ
فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا دَعَوهُ ابْنَ صَالِحٍ ... فَمَا رَأْيُهُ فِي الْصَّالِحَاتِ سَدِيدُ
يُحَارِبُ دِينَ الْحَقِّ مِنْ أَجْلِ شِقْوَةٍ ... وَيُبْدِئُ فِي إِجْرَامِهِ وَيُعِيدُ
كَلَامُ رَسُولِ اللهِ أَعْدَى عَدُوِّهِ ... مَتَى يَسْمَعَنْهُ فَهُوَ عَنْهُ يَحِيدُ
وَإِنْ قُلْتَ: قَالَ اللهُ زَادَ نُفُورُهُ ... وَأَدْبَرَ[2] ـ يَدْعُو ـ وَيْلَهُ وَيَمِيدُ
وَلَا غَرْوَ فَالْجِعْلَانُ يَجْلُبُ حَتْفَهَا ... شَذَا الْمِسْكِ مهما[3] نَالَهَا فَتَبِيدُ
يَضِلُّ بِذِكْرِ اللهِ مَنْ حَانَ حِيْنُهُ ... وَيَهْدِي بِهِ لِلْصَالِحَاتِ رَشِيدُ
وَمَنْ رَامَ يُطْفِي بِالْجَهَالَةِ نُورَهُ ... فَذَلِكَ غُمْرٌ لِلْمُحَالِ يُرِيدُ
وَأَهْلُ حَدِيْثِ الْمُصْطَفَى مَنْ يُعَادِهِمْ ... يَنَلْهُ عَذَابٌ وَاصِبٌ وَوَعِيدُ

---

(١) لم نسمع بهذه الحادثة، وبقي اليزيد بن صالح يدخل ويخرج ويجتمع بالناس إلى أن مات. (خ)

(٢) في «الديوان»: «وَأَقْبَلَ».

(٣) في «الديوان»: «فمهما»، وفي طبعات الكتاب: «مما»، والصواب ـ وزنًا ـ ما أثبتناه.

فَـهُـمْ أَولْـيَـاءُ اللهِ وَاللهُ مُـؤْذِنٌ ... مُعَادِيهِمُ بِالْحَرْبِ وَهْوَ شَهِيْدُ
وَكَمْ جَاهِلٍ أَمْسَى يُحَاوِلُ حَرْبَهُم ... فَبَاءَ بِخِزْيٍ مَا عَلَيْهِ مَزِيدُ
فَقُلْ لِشَقِيٍّ بِالْوَعِيدِ مُكَذِّبٌ ... أَتَاكَ وَبَالٌ لَيْسَ عَنْهُ مَحِيدُ
وَكَمْ صَالِحٍ وَلَّى وَخَلَّفَ خَلْفَهُ ... غَوِيًّا، صَرُوحَ الْمُوبِقَاتِ يَشِيدُ
أَتَغْتَرُّ بِالإِمْهَالِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... - لَكَ الْوَيْلُ - إِهْمَالٌ فَأَنْتَ بَلِيدُ
سَيَأْتِيْكَ يَوْمٌ عَنْ قَرِيبٍ حِسَابُهُ ... عَسِيرٌ وأَخْذُ الْمُجْرِمِينَ شَدِيدُ
فَأَبْشِرْ بِخِزْيٍ مَا حَيِيتَ وَإِنْ تَمُتْ ... تُلاقِ الَّذِي لَاقَى أَخُوكَ يَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ ذَا فَضْلٍ لَهَانَتْ مُصِيبَةٌ ... وَلَكِنْ جَهُولٌ فَاجِرٌ وَعَنِيدُ
وَلَوْلا الشَّقَا مَا غَرَّهُ ظِلُّ مَنْصِبٍ ... وَلَا عَدَدٌ مِنْ خَادِمِيهِ عَدِيدُ
فَلَا مَنْصِبٌ إِلَّا سَرَابٌ بِقِيعَةٍ ... وَإِنْ كَانَ مُلْكًا قَدْ حَمَتْهُ جُنُودُ
تَفَرْعَنْتَ يَا مَغْرُورُ فِي حُكْمِ قَرْيَةٍ ... غَدَوْتَ بِهَا لِلْصَّالِحِينَ تَكِيدُ
لِصَيْدِ ضِعَافٍ قَدْ نَصَبْتَ حَبَائِلًا ... وَكَمْ صَائِدٍ قَدْ عَادَ وَهْوَ مَصِيدُ
وَمُنْذُ رآكَ الْنَّاسُ فِيهَا تَشَاءَمُوا ... بِشَرٍّ وَنَحْسٍ لَا يَزَالُ يَزِيدُ
وَلَوْ كُنْتَ بَرًّا لَمْ تَطُلْ لَكَ مُدَّةٌ ... وَلَكِنَّ عَهْدَ الْمُجْرِمِينَ مَدِيدُ(١)

بين اليزيد والملالي

بعد حادثة السجن اجتمع اليزيد بن صالح أمير شفشاون بالملالي أمير القصر الكبير؛ زار الأول الأخير في قصره، فقال أحدُ جلساء الأمير الملالي يخاطب اليزيد: جزاك الله خيرًا على ما فعلت بعدونا الهلالي، إن عملك معه يعدُّ جهادًا في سبيل الله، فإنه أنكر على سيدي أحمد التجاني وأهل طريقته ويحكم عليهم بالضلال. فسكت اليزيد، وقال له الملالي:

---

(١) الأبيات في «الديوان» (ص٢٧١ ـ ٢٧٣).

لا تظن أن هذا ـ وإن كان من جلسائي ـ يعبِّر عن رأيي، فإني أعتقد أنك قد فعلت أمرًا قبيحًا شنيعًا لا يرضى به أحد له دين أو مروءة، ولا ينبغي للأمير أن يضعف أمام الإسبانيين إلى أن يصير آلة في يدهم يطيعهم في كل ما يأمرون، فلا بارك الله في الإمارة التي توصل إلى مثل ذلك، لا تظن أني أقول هذا محبة له، فإني أعاديه كما يعادي كل تجاني قرأ مقاله في صحيفة «الحرية» الذي ترجم له بقوله (كيف خرجت من الطريقة)، وقد أقام في القصر الكبير أربعة أشهر فلم أستطع أن أتعرض له بسوء وهو في قبضتي وتحت يدي، لأن الذي يقول: قال الله قال رسول الله؛ يغلبني، كيف سمحت لك نفسك أن تقبض على رجل يقول: قال رسول الله ﷺ في بيت من بيوت الله؟! إنني لم أفعل ذلك ولو أفضى بي الأمر إلى أن أتنازل عن الإمارة.

شكر أهل شفشاون في قصيدة من بحر الطويل

جَزَى اللهُ شَفْشَاوَنْ بِخَيْرٍ وَنِعْمَةٍ ... وَنَجَّاهُمُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَنِقْمَةِ
وَصَانَهُمُ مِنْ كَيْدِ كُلِّ مُنَافِقٍ ... لَئِيمٍ خَؤُونٍ هَاتِكٍ كُلَّ حُرْمَةِ
مَطَاعِينُ فِي الْهَيْجَا مَيَامِينُ فِي النَّدَى ... أَكَارِمُ شُجْعَانٌ مَصَابِيحُ ظُلْمَةِ
هُمُ نَصَرُوا الدِّينَ الْحَنِيفَ وَعَظَّمُوا ... حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ
وَقَالُوا لِدَاعِي الْحَقِّ لَبَّيْكَ إِذْ دَعَا ... وَقَالُوا لِدَاعِي الشَّرِّ أَبْشِرْ بِخَيْبَةِ
وَلَمْ يَرْهَبُوا فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ... وَلَا بَطْشَ خَصْمٍ مُوعِدٍ بِالأَذِيَّةِ
إِذَا سَمِعُوا قَوْلَ الرَّسُولِ تَفَتَّحَتْ ... قُلُوبُهُمُ لِلْحَقِّ فِي كُلِّ لَحْظَةِ
أُنَاسٌ تَوَلَّى اللهُ شَرْحَ صُدُورِهِمْ ... وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ رِجْسٍ وَبِدْعَةِ
وَمَنْ شَرَحَ الرَّحْمَنُ لِلْحَقِّ صَدْرَهُ ... فَلَنْ يَظْفَرَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ بِنَزْغَةِ
وَمَنْ يَنْصُرِ الْقُرآنَ وَالسُّنَّةَ الَّتِي ... أَتَتْ عَنْ رَسُولِ اللهِ يَحْظَى بِنُصْرَةِ
وَلَا بُدَّ أَنْ يَلْقَى شَدَائِدَ جَمَّةً ... كَمَا لَقِيَ الْمُخْتَارُ فِي بَطْنِ مَكَّةِ

وَأَصْحَابُهُ الْغُرُّ الْكِرَامُ وَمَنْ قَفَا ... سَبِيلَهُمُ الْمُثْلَى بِعَزْمٍ وَقُوَّةِ
وَعُقْبَاهُمُ فَتْحٌ وَنَصْرٌ مُؤَزَّرٌ ... وَمَنْ شَكَّ فِي هَذَا اقْتَفَى أَهْلَ رِدَّةِ
وَقَدْ مَسَّتِ الْبَأْسَاءُ خَيْرَ صِحَابِهِ ... وَقَالُوا مَتَّى يَا رَبُّ نَحْظَى بِنَجْدَةِ
أَجَابَهُمُ اللهُ الْكَرِيمُ أَلَا اصْبِرُوا ... تَنَالُوا قَرِيبًا جُلَّ(١) نَصْرٍ وَعِزَّةِ
وَذِي سُنَّتِي فِي الأَصْفِيَاءِ جَمِيعِهِمِ ... وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْطِيعُ تَبْدِيلَ سُنَّتِي(٢)
وَيَا أَهْلَ شَفْشَاوَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ... سَتَبْلُغُكُمْ طُولَ الْحَيَاةِ تَحِيَّتِي
وَأَذْكُرُكُمْ بِالْخَيْرِ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ ... وَإِنْ كُنْتُ فِي بَغْدَادَ أَوْ أَرْضِ بَصْرَةِ
وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُخَالِفُ نَهْجَهُمْ ... فَكُلُّ أُنَاسٍ مُبْتَلُونَ بِسِفْلَةِ
وَلَوْ كَانَ فِي الْدُّنْيَا أُنَاسٌ جَمِيْعُهُمْ ... خِيَارٌ لَمَا كَانُوا سِوَى أَهْلِ طَيْبَةِ
وَلَاسِيَّمَا وَالْمُصْطَفَى فِي دِيَارِهِمْ ... سِرَاجٌ مَحَتْ أَنْوَارُهُ كُلَّ دُجْنَةِ
لَعَمْرِي لَنِعْمَ الْقَوْمُ جَرَّ عَلَيْهِمُ ... بِمَا لَا يُؤَاتِيهِم تُيُوسُ مَضِلَّةِ
أَرَاذِلُ عَبَّادُونَ لِلْمَالِ وَالْهَوَى ... وَمَا وَرَدُوا إِلَّا مَوَارِدَ حَمْأَةِ
وَقَدْ عَجَّلَ اللهُ الْعَزِيزُ عِقَابَهُم ... فَصَبَّ عَلَيْهِمْ قَوْمُهُمْ كُلَّ لَعْنَةِ
بِهِمْ تَضْرَبُ الأَمْثَالُ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ ... فَصَارُوا كَبُعْرَانٍ أُصِبْنَ بِحَكَّةِ
وَهُمْ يَدَّعُونَ الْعِلْمَ وَالْعِلْمُ مِنْهُمُ ... مَنَاطَ الْثُّرَيَّا مِنْ كَسِيرٍ بِحُفْرَةِ
وَهُمْ يَسْتُرُونَ الْجَهْلَ، وَالْجَهْلُ فِيهُمُ ... مُبِينٌ وَهَلْ تُخْفَى ذُكَاءُ(٣) بِخِرْقَةِ
فَيَا مَعْشَرَ الإِسْلَامِ طُرًّا تَمَسَّكُوا ... بِهَدْيِ رَسُولِ اللهِ أَفْضَلِ عُدَّةِ
فَذَاكُمُ سِلَاحٌ لَا يُفَلُّ غِرَارُهُ(٤) ... بِهِ تُهْزَمُ الأَعْدَاءُ فِي كُلِّ وَقْعَةِ
وَلَنْ تَسْعَدُوا وَاللهِ إِلَّا بِقَفْوِهِ ... بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ وَعَزْمٍ وَقُوَّةِ

(١) في «الديوان»: «كُلَّ».
(٢) في «الديوان»: «سُنَّةِ».
(٣) ذُكاءُ: الشمس، وابنُ ذَكاءَ: الصبح، «المعجم الوسيط».
(٤) الغرار: حدّ السيف. (منه)

فَلَوْ قَامَ كُلُّ الْنَّاسِ مِثْلَ قِيَامِهِمْ ... لَصِرْنَا كَأَسْلَافٍ لَنَا خَيْرَ أُمَّةِ
وَنِلْنَا الَّذِي نَبْغِي مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلَا ... وَأَلْبَسَنَا الْرَّحْمَنُ أَثْوَابَ عِزَّةِ
وَرَدَّ لَنَا ذُو الْفَضْلِ غَابِرَ فَخْرِنَا ... وَطَهَّرَنَا مِنْ كُلِّ رِجْسٍ وَوَصْمَةِ
أَلَا فَابْذُلُوا الأَرْواحَ وَالْمَالَ دُونَهُ ... وَأَحْيُوه تَحْيُوا فِي هَنَاءٍ وَغِبْطَةِ
وَوَالُوا عَلَيْهِ مَنْ يُعَظِّمُ أَمْرَهُ ... وَإِنْ كَانَ مِنْكُم ذَا بِعَادٍ وَشُقَّةِ
وَعَادُوا مُعَادِيهِ جَمِيعًا وَإِنْ أَتَوْا ... وَأَدْلَوا بِقُرْبَى أَوْ بِعُظْمِ مَوَدَّةِ
فَإِنْ شِئْتُمُ ذَا فَـ (المجادَلَةَ) اقْرَؤُوا ... وَفِي (تَوْبَةٍ) تَحْظَوا بِأَعْظَمِ حُجَّةِ
وَمَا نَحْنُ إِلَّا خَادِمُونَ لِسَيِّدٍ ... حَبَاهُ إِلَهُ الْنَّاسِ أَفْضَلَ رُتْبَةِ
وَمَا قِيمَةُ الأَرْوَاحِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ ... فَدَاءً وَتَفْدِي بَعْدَهُ خَيْرَ سُنَّةِ
وَمَا قِيمَةُ الأَمْوَالِ إِنْ لَمْ نَنَلْ بِهَا ... رِضَى رَاحِمٍ لِلْخَلْقِ فِي يَوْمِ كُرْبَةِ
فَكُنْ عَابِدًا لِلـهِ لَا تَدْعُ غَيْرَهُ ... بِوَقْتِ رَخَاءٍ أَوْ بِأَوْقَاتِ شِدَّةِ
وَسِرْ فِي رِكَابِ الْمُصْطَفَى بِتَوَاضُعٍ ... وَصِدْقٍ تَفُزْ مِنْهُ بِقُرْبٍ وَخِدْمَةِ
فَخَادِمُهُ بِالْصِّدْقِ لَا شَكَّ مُفْلِحٌ ... وَتَارِكُهُ لَا شَكَّ هَاوٍ بِهُوَّةِ
عَلَيْهِ صَلَاةُ اللهِ ثُمَّ سَلامُهُ ... وَأَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِ آلٍ وَعِتْرَةِ
صَلَاةً تَدُومُ الْدَّهْرَ مَا قَالَ قَائِلٌ ... حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ ذُخْرِي وَحُجَّتِي[1]

كيف كانت عاقبة وزير العدل؟

لما أحس بالاستقلال[2] ضاقت عليه الأرض بما رحبت، كما قال

(١) الأبيات في «الديوان» (ص١٩١ ـ ١٩٤)، وبعضها في «السلفية الوهابية بالمغرب» (١٠٩).

(٢) لم يأتِ الاستقلال عليه وهو وزير، إذ الحقيقة أنه عزل ونصب مكانه الأستاذ عبد الله كنون، وعليه جاء الاستقلال، أما إفيلال فقد كان مريضًا بحصر البول ملازمًا للبيت. (خ)

المتنبي[1]:

وَضَاقَتِ الأَرْضُ حَتَّى كَانَ هَارِبَهُم ... إِذَا رَأَى غَـيْـرَ شَـيْءٍ ظَـنَّـهُ رَجُـلًا

فدخل بيته واختبأ فيه إلى أن مات، وقد قلت[2] في هجوه قصيدة ولكني لم أنشرها إلا بعد أن تولَّى الاستعمار، وهي هذه:

دَعَـوْكَ وَزِيـرَ الْـعَـدْلِ بَـلْ أَنْـتَ وَازِرُ ... وَيَـبْـرَأُ مِـنْـكَ الْـعَـدْلُ إِذْ أَنْـتَ فَـاجِـرُ
نَعَمْ أَنْتَ ذُو عَدْلٍ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى ... إِلَى الْزُّورِ وَالْبُهْتَانِ إِذْ أَنْتَ خَاسِرُ
وَأَنْـتَ لِـلاسْـتِـعْـمَـارِ خَـيْـرُ مَـطِـيَّـةٍ ... بَـخِـدْمَـتِـهِ فِـي كُـلِّ حِـيـنٍ تُـجَـاهِـرُ
وَمَـا لَـكَ مِـنْ دِيـنٍ مَـتِـيـنٍ وَلَا حَـيَـا ... وَلَا شَـرَفٍ يَـثْـنِـيـكَ عَـمَّـا تُـبَـاشِـرُ
تَـرَأَّسْـتَ فِـي فَـتْـوَى الْـقِـرَاءَةِ عُـصْـبَـةً ... دَعَـاكُـمْ إِلَى الْـبُـهْـتَـانِ وَالْـزُّورِ مَـاكِـرُ
عَلَى اللهِ وَالْمُخْتَارِ وَالْشَّيْخِ مَالِكٍ ... كَـذَبْـتُـمْ وَعُـقْـبَـى الْـكَـاذِبِـيـنَ فَـوَاقِـرُ
فَـضَـحْـتُـكُـمُ فِـي الْـرَّدِ شَـرَّ فَـضِـيـحَـةٍ ... فَـسَـوآتُـكُـمْ بَـانَـتْ وَلَـمْ يَـبْـقَ سَـاتِـرُ
أَلَا يَـا وَزِيـرَ الْـعَـدْلِ أَصْـبَـحْـتَ عَـادِلًا ... بَـرَبِّـكَ فِـي الْـفَـتْـوَى الَّـتِـي أَنْـتَ سَـاطِـرُ
رَدَدْتَ حَدِيثَ الْمُصْطَفَى أَكْرَمِ الْوَرَى ... وَخَـالَـفْـتَـهُ عَـمْـدًا كَـأَنَّـكَ كَـافِـرُ
فَقَدْ قَالَ لَا يَجْهَرْ عَلَى غَيْرِهِ امْرُؤٌ ... إِذَا مَـا تَـلَا الْـقُـرآنَ فَـالْـكُـلُّ ذَاكِـرُ
رَوَاهُ أَبُـو دَاودَ فِـي الْـسُّـنَـنِ[3] الَّـتِـي ... عَنِ الْمُصْطَفَى قِدْمًا رَوَتْهَا الأَكَابِرُ

---

(١) في «ديوانه» (ص١٨).

(٢) في «الديوان» (٣٥٩): «وقلت في ١٦/ صفر/ ١٣٧٥هـ في بني هلال في هجو أحد طواغيت تطوان في الزمان الماضي؛ إذ لم أوفَّق إلى هجوه حينئذٍ، وهو أفيلال».

قلت: اسمه محمد بن التهامي، وتقدَّم.

(٣) برقم (١٣٣٢) من حديث أبي سعيد قال: اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة؛ فكشف السِّتر، وقال: «**ألا إن كلكم مناج ربه فلا يؤذين بعضكم بعضًا، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة**» أو قال: «**في الصلاة**». وإسناده صحيح.

وَمِثْلُهُ فِي الْمَعْنَى رَوَى الْحَبْرُ مَالِكٌ[1]   بِإِسْنَادِهِ سِمْطًا زَهَتْهُ الْجَوَاهِرُ
وَخَالَفْتَ مَا قَدْ قَالَهُ قَبْلُ مَالِكٌ   وَأَصْحَابُهُ فِي كُتْبِهِمْ ذَاكَ ظَاهِرُ
وَأَقْبَحُ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ أَنَّهُ   دَعَاكَ إِلَى ذَاكَ الْعَدُوُّ الْمُشَاجِرُ
فَبَدَّلْتَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ أَجْلِ مَنْصِبٍ   تَخَافُ عَلَيْهِ إِنَّ جَدَّكَ عَاثِرُ
ظَنَنْتَ لِلاسْتِعْمَارِ خُلْدًا مُؤَبَّدًا   فَلَا فَجْرَ يَبْدُو بَعْدَمَا جَنَّ كَافِرُ
فَمَا هِيَ إِلَّا جَوْلَةٌ ثُمَّتَ انْجَلَى   وَأَشْرَقَ وَضَّاحٌ مِنَ الْفَجْرِ بَاهِرُ
فَأُسْقِيتَ كَأْسَ الْعَزْلِ وَهْيَ مَرِيرَةٌ   وَكَمْ بِكُؤُوسِ الْعَزْلِ شُقَّتْ مَرَائِرُ
وَأَصْبَحْتَ مِنْ خِزْيٍ بِبَيْتِكَ قَابِعًا   كَأَنَّكَ فِي قَبْرٍ وَمَا ثَمَّ قَابِرُ[2]

تبديل الدراهم في البنك

لما عزمت على السفر إلى العراق كنت قد ادخرت عشرة آلاف بسيطة أتزود بها في سفري قافلًا إلى أهلي في العراق، فعرضت لي مشكلة وهي تبديل الدراهم الإسبانية بالجنيه المصري، فقد كان سعر الجنيه الرسمي حسب النقد الأجنبي الذي بيد الحكومة أربعين بسيطة لكل جنيه، أما في السوق السوداء فالجنيه الواحد يساوي مائة وعشرين بسيطة.

في مكتب كاساس مرة ثانية

كتبتُ عريضة وأخذتها إلى كاساس ضمنتها طلب تبديل عشرة آلاف

---

(١) انظره في «الموطأ» (رقم ١٧٨).
(٢) الأبيات في «الديوان» (٣٥٩ ـ ٣٦١)، وفيه بعدهما بيتان، هما:

فَتُبْ وَيْكَ مِنْ فَتْواكَ لله واعْتَرِفْ   بِذَنْبِكَ فالرَّحمنُ عَافٍ وغافِرُ
فَخُذْها كَصَحْبِ النّارِ في العَدِّ لم تَزِدْ   سوى واحدٍ في خَتْمِها وهو آخِرُ

بسيطة في البنك بالسعر الرسمي، ولم أطلب منه إحسانًا ولا معروفًا لأن هذا حق لكل مستوطن من المغاربة، فلما قرأ العريضة عبس وبسر وقال لي: نحن لسنا مغفلين نعاقد[1] الناس على السفر إلى الشرق ليكتبوا مقالات في صحف مصر، كلها طعن وتشنيع علينا. فقلت له: أنا ما ذهبت إلى الشرق بعد ولا كتبت مقالات طعنًا فيكم، ولكنه كان يعرف ما يقول ـ وكان صادقًا ـ فإنه كان يشير إلى المقالات التي نشرتها في صحيفة «الإخوان المسلمين»، ثم قال لي: إن لم تفعل ذلك أنت فعله غيرك، ولستَ بخيرٍ منه.

فانصرفتُ من عنده وذكرتُ ذلك للأخوين الصديقين المخلصين السيد محمد المؤذن رَحِمَهُ ٱللَّهُ والحاج عبد السلام حسيسن أطال الله حياته، فقال لي الحاج عبد السلام: لماذا لا تذهب إلى الخليفة وتلتمس منه أن يأمر الإسبانيين أن يبدِّلوا لك هذه البساسيط بالسعر الرسمي؟ فقال له السيد محمد المؤذن: إن الخليفة لن يصنع شيئًا، فدَعْه يبدِّلها في السوق السوداء ويفوِّض أمره إلى الله، فقال الحاج عبد السلام حسيسن: أما أنا فأنصح له أن يتوجه إلى قصر الخليفة ويلتمس منه ذلك، فإن استجاب فبها ونعمت، وإن لم يستجب فلا ضير عليه في زيارته.

فتوجَّهتُ إلى قصر الخليفة واستأذنتُ عليه، فأذن لي قبل جميعِ الحاضرين الذين جاؤوا لزيارته وسجَّلوا أسماءهم، فاستأذنتُه في السفر، والتمستُ منه أن يكتب إلى الإسبانيين ويأمرهم بتبديل ما عندي من الدراهم بالسعر الرسمي، وقلت له: هذا الطلب مقيَّدٌ بشرط وهو أن لا يتعرض مقامكم الرفيع لتنقص عند الإسبانيين. فقال لي بانفعال:

(١) نساعد. (خ)

لعنة الله على الإسبانيين، أنا لا أبالي بتنقص مقامي عندهم، وإنما أريد أن يكون مقامي عاليًا عند الله وعند المؤمنين، ثم ضغط على زر الجرس فجاء حارس فقال: أين أبا سيدي؟ يعني أخاه الكبير السيد محمد، فقال له: يا مولاي! إنه ركب منذ ساعة سيارته وخرج، فقال: ادع لي الكاتب العام أحمد بن البشير. فدعاه فقال له: اكتب إلى المقيم العام: إن الدكتور محمد تقي الدين الهلالي غاب عن أهله في العراق مدة طويلة، وهو يريد الرجوع إلى أهله وعندهُ عشرة آلاف بسيطة، فأبدلها بالجنيه المصري حسب السعر الرسمي، وكان قد قال لي أول ما سلَّمتُ عليه واستأذنته في السفر: لن آذن لك حتى تعدني أنك ترجع إلينا، فإنني لا أحب أن تكون بلادي خالية من رجل مثلك. فشكرته على هذه المجاملة، وانتظرت قليلًا في مكان آخر حتى جاءني الكتاب فأخذته إلى المقيم العام الإسباني، فاستأذنت ودخلت على نائبه، فقال لي: ليس عندنا نقد أجنبي في هذه الساعة، فإن كنت تقدر أن تنتظر نبدله لك. وقلت له: أنا لا أنتظر! إما أنْ تبدِّله لي الآن أو أبدله في السوق السوداء. فقال لي: ارجع إليَّ بعد ثلاثة أيام. فرجعت إليه فكتب لي كتابًا إلى كاساس الحاكم الإسباني الذي تقدم ذكره.

في مكتب كاساس مرة ثالثة

فلما أخذت الكتاب من نائب المقيم العام وتوجَّهت إلى كاساس، قلت في نفسي: هل يصر على جوابه الأول ويعصي أمر رؤسائه أو يخضع لهم ويتناقض؟ فلما وصلت إليه قدَّمتُ له الكتابَ، فقرأه وكتب لي كتابًا إلى البنك يأمره بتبديل الدراهم ولم ينبس ببنت شفة.

في السفارة الإنكليزية

لما حصَلتُ على سمة الدُّخول إلى لبنان بعثتها إلى السفارة المصرية في مدريد عاصمة إسبانية، فبعثت إليَّ إذنًا[1] بالدخول إلى مصر وإقامة خمسة عشر يومًا، ويسمَّى هذا إذن مرور، ثم فكرت في السفر بطريق البحر لأن أجور السفر أقل، فذهبت إلى السفارة الإنكليزية وطلبت لقاء السفير، فأُعطيت ورقة طُلِبِ مني أن أكتب فيها اسمي والغرض الذي جئت من أجله، فلم يأذن لي السفير الإنكليزي، ولكني دعيت إلى مكتب نائبه ـ وكان يهوديًّا يونانيًّا ـ فقال لي ـ وكان الكلام بالإنكليزية ـ: أنت كنت في إذاعة برلين وقد أذعت أحاديث كثيرة في محاربة بريطانيا، وكنت تأخذ من الجرمانيين أجرًا على ذلك، فقلت: أما قولك: إني أذعت أحاديث كثيرة في محاربة الاستعمار البريطاني على منبر إذاعة برلين العربية فهو حقٌّ[2]، ولست نادمًا عليه ولا معتذرًا منه، لأنِّي كنت أدافع عن وطني كما كان البريطانيون يدافعون عن وطنهم، فإن بريطانيا كانت حليفة لعدوتنا فرنسا، وحليف العدو عدو، فإن كان دفاع البريطانيين عن وطنهم مما يلامون عليه وجب عليكم أن تلوموا أنفسكم قبل أن تلوموني، وإن كان الدفاع عن الأوطان من الواجبات المحمودة فكيف تلومونني عليه؟! وأما قولك إني كنت آخذ أجرًا على تلك الأحاديث؛ فهو وهم باطل، بل كنت أدفع أجورًا على تلك الأحاديث وأرتكب أخطارًا في إذاعتها.

فقال لي: كيف تدفع أجورًا عليها، ومن كان يأخذ هذه الأجور؟

(١) جهدت في جمع أوراق الهلالي من أرشيف هذه الإذاعة، وبذلتُ جهدًا في ذلك، فلم أنجح، ولكني حصلت معلومات جيدة عن عمله وتقويمه نشر بالألمانية، وانظر «ديوانه» (١٧ ـ ١٨ تقديمي له، ١٠٣ ـ ١٠٤، ١٠٥، ٤٣٣ ـ ٤٣٤، ٥٦١ ـ ٥٦٢ ٥٨٨، ٥٩٤ ـ ٥٩٥).

(٢) انظر مصوَّرته في (النماذج) الملحقة آخر الكتاب (رقم ١٠).

فقلت: كان مدير الإذاعة قد اشترط عليَّ أن لا أذيع حديثًا إلا بعد أن أترجمه باللغة الألمانية، وأعد أربع نسخ من الترجمة تقدَّم إلى أربعة مكاتب، فإذا وافق رؤساء تلك المكاتب على إذاعة ذلك الحديث أعطيت إذنًا بإذاعته، وهذه الترجمة وكتابتها على الآلة تحتاج إلى كاتبة جرمانية، وهذه الكاتبة لا بد لها من أجر. وأما ارتكاب الأخطار؛ فإني كنت أركب قطار النفق ـ أعني: القطار الذي يجري تحت الأرض مسافة نصف ساعة أحيانًا في الليل والثلج ينزل، وأتعرض للقنابل التي كنتم تلقونها على برلين حينًا بعد حين ـ.

فقال لي: وما غرضُك؟ فقلت: أريد أن تعطيني سمةَ المرور على جبل طارق لأركب منه في البحر إلى الإسكندرية. فقال لي: إن حكومة جبل طارق هي التي لها الحق أن تسمح لك بالمرور، فاكتب إلى الشركة التي تريد السفر في بواخرها واتنا بالجواب، فكتبت إلى شركة إنكليزية، فجاءني الجواب فذهبت به إليه وأطلعته عليه، فقال لي: عيِّن لنا موعد سفر الباخرة من جبل طارق. فكتبت إلى الشركة، فجاءني الجواب بأنها لا تستطيع أن تعين لي يومًا بعينه على سبيل التحديد، ولكن إذا وصلت إلى جبل طارق يمكن أن تسافر في مدة لا تزيد على الأسبوع، فامتنع نائب السفير من إعطائي سمة الدخول إلى جبل طارق إلا إذا عينت له اليوم الذي أسافر فيه، وقد ظهر أنه أراد المنع ولكنه أبى أن يصرح به وأراد أن يعذِّبني بالمماطلة والتردد عليه، فعدلت عن السفر بطريق البحر وكان ذلك خيرًا، فإني سافرت بالقطار إلى مدريد، وبالطائرة من مدريد إلى القاهرة بعد أن أخرت سفري شهرين.

ولما كنت أتحدث مع نائب السفير كان جالسًا إلى جانبه رجل مغربي لا يدل زيه وهيئته على أنه يعرف الإنكليزية، فلم أُلْقِ له بالاً،

وبعد أيام أقام الخليفة وليمة عقد نكاح أخته فدعاني لحضورها فرأيت الشخص المغربي الذي كان جالسًا إلى جانب نائب السفير الإنكليزي فسألت عنه فقيل لي: هذا السيد أحمد[1] الرزيني، وكنت أعرف أخاه السيد عبد القادر[2] الرزيني وبيتهما من أشرف بيوتات تطوان، وأهل هذا البيت من أصحاب الحمايات الإنكليزية التي وقعت في زمان ضعف الدولة المغربية، فإن التجار كانوا يخافون على أنفسهم من ظلم الحكام المغاربة فيحتمون بحمايات أجنبية، فتكلم السيد أحمد الرزيني أمام الحاضرين وقال لي: جزاك الله خيرًا على ذلك التوبيخ الذي وبخت به ذلك المجرم اليهودي، ما أحد شفى قلبي منه إلا أنت. ثم أطنب في مدحي عند الحاضرين وقال لهم: هذا الأستاذ بقي نصف ساعة يوبخ ذلك الخبيث بلغة إنكليزية فصيحة، فأنتم تعرفونني أنا لا أخالط الفقهاء ولم أحترم فقيهًا مثل ما احترمت هذا الفقيه، فهكذا يكون الفقهاء وإلا فلا، وقال لي: إذا عزمت على السفر ولم يبق على سفرك إلا ثلاثة أيام أرجو أن تلقاني، فظننت أنه يريد أن يبعث معي شيئًا لابن أخيه الذي يدرس في مصر.

فلما حان وقت سفري لقيته بالمسجد الأعظم ومعي كاتبي السيد محمد بن فريحة فقلت له: أخبر السيد أحمد الرزيني أنني بعد يومين مسافر إن شاء الله، فأخبره، فجلس وأدخل يديه كلتيهما تحت جلابيته وسمعت خشخشة، واستمر على ذلك نحو خمس دقائق، ثم أخرج يده وفيها ألف بسيطة فناولني إياها، وقال لي: هذه هدية للعلم الشريف

(١) الصواب: الحاج محمد، وهو من أغنياء تطوان، وكان محميًّا من الإنجليز. (خ)

(٢) الصواب: عبد السلام بن عبد القادر، مات عازبًا، ويقال له: سلام، أما عبد القادر فهو ابن أخيه محمد، وهو من أُمّ إنجليزية. (خ)

أرجو أن تقبلها، فلما أخبرت الناس بذلك لم ينقضِ عجبهم منه وقالوا كلهم: إن هذا الرجل ما رأيناه يتبرع بشيء لأي مقصد من مقاصد البر ولو سأله السائلون وألحوا عليه، هكذا قالوا والعهدة عليهم، ولا شك أنه تأثر كثيرًا بالجدال الحاد الذي وقع بيني وبين نائب السفير الإنكليزي.

حادثة أصيلا

كان من عادتي أن أسافر إلى (أصيلا) يوم الأربعاء بعد الظهر وأمكث فيها إلى الصباح يوم السبت للقاء إخواني الموحدين وتذكرتهم وتجديد العهد بهم، وكانت مجالسنا في بيوت الإخوان، ولم أُلْقِ درسًا في أي مسجد من مساجد تلك المدينة خوفًا من الدخول في مشاكل مع المستعمرين يُسْتعصى حلُّها، لأني أعلم يقينًا أن صدور حكام تطوان مملوءة حقدًا عليّ وأنهم يتربصون بي الدوائر، فإذا أصابني شر من حاكم صغير كالمراقب المدني في (أصيلا) يتخذونه سببًا للتنكيل بي، ولما دنا وقت سفري إلى مصر توجَّهتُ يوم الأربعاء على عادتي إلى مدينة (أصيلا)، وفي يوم الخميس قال أحد إخواننا: لماذا لا تلقي درسًا في المسجد الأعظم ليعم النفع؟ فاختلف الإخوان بين مستحسن لذلك ومتخوِّف منه، ثم توكَّلتُ على الله ورجَّحتُ إلقاءَ الدرس، فلما شرعت في إلقائه امتلأ المسجد الأعظم حتى لم يبق فيه مجلس لأحد، ولم ينقطع سبيل القاصدين إلى المسجد الأعظم فامتلأ صحن المسجد فبلَّغ الجواسيس حاكم تلك المدينة الخبر.

وفي صباح يوم الجمعة عزمت على السفر قافلًا إلى تطوان في الصباح مبكرًا، فبينما أنا واقف أنتظر السيارة إذا بشرطي يهمس إلي قائلًا: إن الحاكم الإسباني بعثني لآخذ منك جواز السفر ليطلع عليه،

وكان معي أربعة من الإخوان جاءوا لتوديعي فأنفوا لذلك، وقالوا له: هذا رجل مغربي والمغاربة لا يحملون جواز السفر في وطنهم وطردوه، فحضرت السيارة وسافرت.

وبعد ذلك علم إخواننا بواسطة شرطي مؤمن أن الحاكم الإسباني عزم أن يقبض عليَّ حين أجيء في يوم الأربعاء التالي، فانطلق إلى الإخوان وأخبرهم، فبعثوا إليّ كتابًا يحذرونني من المجيء إلى (أصيلا) ويخبرونني بما عزم عليه الحاكم الإسباني، ولم يصل ذلك الكتاب إلا في صباح يوم الأربعاء، وكنت أبعث الكاتب كل يوم إلى صندوق البريد فيجيئني بما يجده فيه إلا في صباح يوم الأربعاء، فإنني لم أبعثه، وسافرت إلى (أصيلا) وأنا جاهل ما يراد بي، لكن الإخوان من شدة حزمهم خافوا أن لا يصلني الكتاب وأتوجه إلى (أصيلا) كعادتي، فبعثوا سيارة تنتظر في إحدى محطات الطريق على مسافة خمسة وعشرين ميلًا، فلما وصل الأوتوبوس إلى تلك المحطة رأوني فأشاروا إليَّ بالنزول وأخذوا أمتعتي ووضعوها في السيارة الصغيرة، وكنا في شهر رمضان، فسارت بنا السيارة في طريق غير الطريق المعهود حتى وصلنا إلى بيت أحد الإخوان في مدينة (أصيلا).

أما الحاكم الإسباني فقد بعث إلى محطة الأوتوبوس بأصيلا ستة من الشرطة ومعهم عريف، وأمرهم أن يقبضوا عليَّ ويأتوا بي إليه، وكان الشرطي المؤمن أحد الستة، فلما جاء الأوتوبوس أحاطوا به وراقبوا المسافرين فلم يجدوني معهم، فرجعوا إلى الحاكم الإسباني وأخبروه أنني لم أجئ.

أما الشرطي المؤمن فإنه جاءني في البيت الذي كنت أفطر فيه وأخبر الجماعة، فضحكوا كثيرًا وحمدوا الله على سلامتي، ولما فرغنا

من العشاء وصلَّينا العشاء أحضروا السيارة فركبتها إلى محطة القطار ومنها سافرت إلى القصر الكبير، فنجوت من تلك المكيدة بفضل الله ثم بحزم الإخوان وشجاعتهم.

السفر إِلى مجريط ثم إِلى القاهرة

(مجريط) هو اللفظ الذي كان يطلقه المسلمون على مدينة (مدريد) حين كانوا يحكمون تلك البلاد مئات السنين. سافرت بالقطار إلى مدينة (مجريط) ونزلت عند صديقي عبد الرحمٰن ياسين[1]، واشتدَّ عليَّ مرض الربو فنقلني إلى المستشفى وزارني فيه إخواني من المغاربة، وزارني أيضًا داعية القاديانية فناظرته وأنا على فراش المرض، وبعثت جواز سفري إلى السفارة المصرية لتنظر فيه هل يحتاج إلى تجديد إذن، فقال الموظف المختص: إنه صالح للسفر إلى مصر وإقامتي خمسة عشر يومًا.

ثم سافرتُ بالطائرة إلى القاهرة ونزلت في مطار ألماظة قبيل وقت العشاء، فعرض المسافرون أجوزتهم على الكاتب المختص فختم عليها وردها إليهم، فلما رأى جوازي قال لي: اجلس. فجلست حتى فرغ من أجوزة المسافرين فالتفت إليّ، وقال: إن مدة السمة التي أعطيتها وهي خمسة عشر يومًا قد انقضت، فيجب أن ترد إلى مجريط، فقلت له: إنني بعثت جواز السفر أمس فقط إلى السفارة المصرية في مجريط، فقال قائلها: إنه صالح والمدة ينبغي أن تعتبر من يوم وصولي لا من يوم تاريخ السمة لأني بعثته من تطوان إلى مجريط، ثم بعث إليّ، وهذا وحده يستغرق عشرة أيام، فقال لي: لا تطل الحديث فإنما أحكم برأيي

(١) هو الذي حجز له هناك غرفة، وكان عنوانه هناك عنوان هذا الصَّديق، انظر «رسائل الهلالي» (١/ ٣٥٧، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٨).

لا برأيك. فقلت له: أريد أن أصلي المغرب والعشاء. فأمر شرطيًّا أن يرافقني ويدلني على مكان الوضوء والصلاة.

وتوضأت وصليت المغرب والعشاء ودعوت الله في سجودي أن ينقذني من هذه المحنة الجديدة، لأنني إذا رددت إلى مجريط لا أجد ما أسافر به من الدراهم، ولما فرغت من صلاتي رجعت إلى الكاتب فقال لي: عندك دراهم؟ قلت: عندي حوالة بـ **١٤٧** جنيهًا. قال: أرنيها. فأريته إياها، فأخذ يفتح الهاتف على رؤسائه ليستشيرهم في أمري، فلم يجد أحدًا منهم لأن ذلك اليوم كان التاسع والعشرين من رمضان، وقد انصرف كبار الموظفين إلى إجازة العيد، ثم فتح التليفون على موظف كبير حسب ما فهمت من محادثته معه، فقال له: يا سيدي! أرجو المعذرة إذا أزعجتكم لأني لم أجد أحدًا من الموظفين في مكتبه؛ عندي راكب مغربي معه جواز سفر، وفيه تأشيرة مرور منتهية، ويدعي أنه عرضها على الكاتب المختص أمس في السفارة المصرية بمدريد فقيل له: إنها كافية وأنا أعتقد أنه من الصالحين، فقال له: افتح الهاتف على العروسي فإن لم تجده فأعطه أنت فيزة مرور.

فلما سمعته يقول: إنه يعتقد أنني من الصالحين استبشرت، وأمَّلتُ خيرًا وحَسُنَ ظنِّي به، وزاد حسن ظني حين رأيت شرطيًّا جاءه بالسحور، فعلمت أنه يصوم رمضان، والصائمون حتى في ذلك الزمان قليلون.

فتح الهاتف على العروسي فلم يجده، فأخذ يكتب لي سمة الدخول، وقال لي: أريد منك عشرة قروش، فقلت: ما عندي نقود مصرية، فدعا شخصًا موظفًا يبيع الطوابع، فقال: أعطني عشرة قروش طوابع مجانًا، فأبى، فقال له: هل تريد أن نرد رجلًا من هنا إلى مدريد لأجل عشرة قروش؟ فقام هو وغاب قليلًا وجاء بالطوابع، فلا أدري!

أدفع ثمنها من عنده أم وجدها بطريق آخر، ثم ناولني الجواز وقال لي: أطلب لك سيارة تدفع أجرتها لأن سيارة المطار ذهبت من زمان، فقلت: جزاك الله خيرًا، فركبت السيارة، فلما وصلت إلى الفندق قلت لصاحب السيارة: ما عندي نقود مصرية سألتمس من صاحب الفندق أن يقرضني ما أعطيك إياه، فقال لي: تنازلتُ عن الأجرة. فانفرجت الأزمةُ ببركة المحافظة على الصلاة في وقتها.

الإقامة بالقاهرة

أقمت بالقاهرة اثني عشر يومًا لقيت في أثنائها كثيرًا من الأصدقاء، منهم أخونا الداعية السلفي الشيخ حامد الفقي(١) رحمة الله عليه، فأكرمني كعادته، ولقيتُ المجاهد العظيم الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي(٢)، وقد تقدم ذكر ذلك. ومِنْ أجلِّ مَنْ لقيته في تلك الأيام

(١) هو محمد حامد الفقي، ولد بقرية نكلا العنب في سنة ١٣١٠هـ ـ ١٨٩٢م بمركز شيراخيت مديرية البحيرة، ونشأ في كنف والدين كريمين. وحفظ القرآن صغيرًا، ودرس بالأزهر في عام ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م، ودرس النحو والفقه الحنفي وعلم المنطق والبلاغة، ثم درس الحديث النبوي والعقيدة الصحيحة، وأنشأ مجلة «الهدي النبوي» وصدر (العدد الأول) منها في عام ١٩٣٧م، ثم أنشأ جماعة أنصار السنة المحمدية في سنة ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٦م.
وللهلالي معه عدة لقاءات، ودرَّسا معًا في المعهد السعودي، وتوفي المترجم له في فجر الجمعة ٧ رجب ١٣٧٨هـ يوافق ١٦ يناير ١٩٥٩.
له ترجمة في مجلة «التوحيد» العدد (٣) سنة ١٤١٦هـ، وفي «الثمار الشهية والتراجم الذكية لعلماء أنصار السنة المحمدية وإخوانهم» (١١ ـ ١٩)، «طلائع الأنوار في تراجم علماء السلف الأبرار» (٣/ ٣٠٧ ـ ٣١٩)، «المجموع» (١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٧) للشيخ حماد الأنصاري، «ديوان الهلالي» (٤٨١).

(٢) مضت ترجمته.

المجاهد العظيم سماحة الأستاذ السيد الحاج أمين الحسيني، وكان آخر عهدي به في ربيع سنة ١٩٤٢ حين بعثني إلى المغرب لغرض سياسي فيه مصلحة للمسلمين(١) على أن أرجع إليه فمنعت من الرجوع كما تقدم، وكانت المراسلة(٢) مستمرة بيني وبينه إلى أن انهزمت ألمانيا وفرَّ إلى

---

(١) كان لقاء الهلالي مع سماحة الشيخ أمين الحسيني في ألمانيا أكثر من مرة، فالتقى به في سنة ١٩٤٢م، بعد ترك سماحته لروما بالقطار قاصدًا برلين فوصل برلين في التاسع من تشرين الثاني سنة ١٩٤١م. وخلال هذه الإقامة زاره الهلالي لأمر تحرير الأمير مجد عبد الكريم الخطابي. بطل المغرب السجين لدى الفرنسيين بعد الثورة التي قادها بشجاعة ضد الإسبان والفرنسيين بين ١٩٢٣ ـ ١٩٢٨م. وتقدم سماحته بطلبات عدة للإفراج عنه وعن الزعماء الوطنيين التونسيين الذي كانوا في السجون الفرنسية أيضًا، إلى أن أُفرج عنهم، انظر «صفحات من حياة الحاج أمين الحسيني» (ص١٤٣).
ولم أقف على الغرض السياسي المومئ إليه هنا، إلا أني وجدت الهلالي يقول في كتابه «السلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن العلوي» (ص٥٤): «في شهر مارس من سنة ١٩٤٢ أرسلني الأستاذ المجاهد صاحب الفضيلة الشيخ محمد أمين الحسيني من برلين إلى تطوان... أرسلني للاجتماع بالزعيم عبد الخالق الطُّريس لأمر فيه مصلحة للمسلمين.
وفصل الهلالي فيما سبق (ص١٣٣) (في الدعوة إلى الله في تطوان) هذه المصلحة، فانظر كلامه هناك.

(٢) ظفرتُ بأربع رسائل من سماحة مفتي فلسطين السيد محمد الأمين الحسيني إلى أخيه الهلالي وهي في كتابنا «رسائل الهلالي» (٣/ ١٢٨٢ ـ ١٢٩٢)، وهي ممهورة بتوقيعه، وأفرده الهلالي في مجلة «لسان الدين» التطوانية، الجزء الأول، بتأريخ شعبان ١٣٦٥هـ ـ يوليه ١٩٤٦ (ص٣٣ ـ ٣٤) بمقالة (الكرامات الحقيقية). وكذا في مجلة «الفتح المصرية»، المجلد السابع عشر، العدد (٨٣٨) بتأريخ رمضان ١٣٦٥هـ (ص١٥). وتنظر لعلاقة الهلالي معه: «رسائل الهلالي» (٤/ ١٧١٦ ـ الفهارس)، «الديوان» (١٠٥، ١٠٦، ١٧١، ١٧٣، ٥٦٤، ٥٨٨، ٦٢٦، ٦٢٧).
وما ينبغي أن يذكر أن الهلالي رتب لقاءً مع هتلر، وجمع بينه وبين محمد =

سويسرا ثم إلى مصر، وأنجاه الله من كيد أعدائه، كما أنجاه من قبل حين فر من بغداد إلى طهران ومن طهران إلى اليابان(١)، وكان الإنكليز ومطاياهم في العراق قد جعلوا لكل من يأتيهم به حيًّا أو ميتًا عشرة آلاف دينار، فنجا بأعجوبة بمساعدة السفارة اليابانية حتى وصل إلى برلين.

= أمين الحسيني، لمحاربة الاستعمار الفرنسي والبريطاني، واتفقا على إنشاء محطة بث عربي من برلين، وكان الهلالي يلقي فيها كثيرًا من الخطب، باسم (أبي مرثد البصري).

وينظر لترجمة محمد أمين الحسني:

«مذكرات الحاج محمد أمين الحسيني» لعبد الكريم الهر، و«فلسطين وسماحة المفتي الأكبر محمد أمين الحسيني» لعيسى خليل محسن ـ رحمه الله تعالى ـ، و«حقائق عن قضية فلسطين» لمكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين سنة ١٩٥٦ و«الموسوعة الفلسطينية» القسم العام (٤/١٣٨ ـ ١٤٢).

والحاج محمد أمين بن طاهر الحسيني، ولد سنة ١٨٩٧م.

نهل من علم محمد رشيد رضا في «دار الدعوة والإرشاد» إبان دراسته في كلية الآداب في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة بعد)، كانت للهلالي معه علاقة وطيدة إبان تزعمه الحركة الوطنية في فلسطين، وكتب مقالًا عن كرامته في اختفائه عن أعدائه الإنجليز، وذكر في «ديوانه» (٦٢٧) أبياتًا قالها الهلالي في الاستبشار بنجاته وذلك في تطوان ١٩٤٥، وهي:

أَقَرَّ اللهُ عَيْنَ الْمُسْلِمِينَا ... وَأَنْجَى مِنْ أَعَادِيهِ أَمِينَا
أَمِينُ الْأُمَّةِ الْأَوْفَى الْمُفَدَّى ... وَسَيْفٌ قَاطِعٌ لِلْمُعْتَدِينَا
أَبِيُّ الضَّيْمِ شَهْمٌ لَيْسَ يَرْضَى ... بَقَاءَ الْحَقِّ مُضْطَهَدًا مُهِينَا
لَقَدْ كَادَتْ لَهُ الأَعْدَاءُ كَيْدًا ... فَرَدَّ اللهُ كَيْدَ الْكَائِدِينَا

وكتب إليَّ بعض تلاميذ العلامة الهلالي، يقول: «ولما جاء الشيخ أمين الحسيني إلى المدينة النبوية، رأيت الهلالي أكرم الحسيني غاية الإكرام، ودعاه على المائدة مع الشيخ ابن باز وغيره من الشيوخ الأفاضل».

(١) لم يرد لليابان ذكر في مقالة الهلالي عنه، المسماة (الكرامات الحقيقية) وسبق قريبًا ذكرها.

ومع أنِّي كنت في تطوان أحصل على القدر الذي أعيش به من المال من الأسباب التي ذكرتُها من قبل، فإنه كان يبعث لي النقود الكثيرة مرة بعد مرة[1]، فلما زرتُه فرح بي فرحًا عظيمًا وأقام مأدبة دعا إليها خمسين من رجال العلم والسياسة، ولما أردت أن أودِّعه دفع إليّ غلافًا وقال: اقرأه في منزلك. فلما وصلت إلى الفندق وجدت فيه مائة جنيه[2]. وكان قد عرض عليّ ونحن في برلين أن يجعل لي كاتبًا على نفقته، فشكرته وقلت له: إن عندي كاتبًا وأنا في سعة من المال، فقد كان مجموع الرواتب التي كنت آخذها في برلين بكدي وعملي ألفًا وأربع مئة مارك (١٤٠٠) وذلك يعادل ألفًا وسبع مئة وخمسين ريالًا في ذلك الزمان، أي: قبل ثلاثين سنة.

والحاج أمين الحسيني رجل عظيم، مهما بالغ أعداؤه في القدح وخلق العيوب له فلن يستطيعوا أن ينقصوا شيئًا من عظمته، وحسبك دليلًا على ذلك أن هتلر كان يُجِلُّه، وقد التجأ إلى ألمانيا رجل عربي عظيم ومجاهد كبير وعالم متضلع ألا وهو رشيد عالي الكيلاني[3] وأجلَّه

(١) تجد مصداق ذلك في رسائله للهلالي المنوّه بها قريبًا، وفي «الديوان» (١٠٦).

(٢) انظر «الديوان» (١٠٦).

(٣) كان ذلك سنة ١٩٤١ قدم إلى برلين هاربًا من العراق إلى بلاد الترك، ثم منها إلى ألمانيا، ونظم الهلالي قصيدة طويلة تشتمل على أحداث ذلك الزمان. انظرها في «الديوان» (٥٨٧ ـ ٥٩٤)، وينظر أيضًا: «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢١٣ ـ ٢١٥)، «من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة» (٤٩٣)، مقالة في (ذمة الله) المنشورة في مجلة «الإصلاح» المغربية بتأريخ ٧ غشت ١٩٨٧م، جريدة «الحرية» بتأريخ ٢٤ صفر ١٣٦١هـ، وهذه ترجمة موجزة لرشيد عالي الكيلاني:
ولد سنة ١٨٩٢م، ونشأ في بغداد، اشتهر بثورته على الإنكليز عام ١٩٤١، وسميت ثورته بـ (ثورة مايس ١٩٤١)، واستقر المؤرخون في كتبهم على هذا الاصطلاح، كان طموحًا إلى الزعامة على رأي أكثر النقاد السياسيين، =

الألمانيون وأكرموا مثواه، ولكن منزلة الحاج أمين عندهم لم يبلغها أحد.

الصِّدقُ منجاةٌ والكَذِب مهلكة

وقعتْ لي في أسفاري الكثيرة حوادث، ووقعتُ في أزمات لولا خوف الإطالة وكراهية الخروج عن الموضوع لذكرتُ بعضَها، وفيها

= وراغبًا بإنشاء دولة عربية موحدة، ولم تكن له جذور في الحركة والنشاط القومي، إلَّا أن الأحداث السياسية في أواخر الثلاثينات أرغمته على أن يكون (زعيمًا عربيًّا)، وله مساهمة في ثورة العشرين، عُيِّن وزيرًا للعدل سنة ١٩٢٤، واشترك مع ياسين الهاشمي في تأسيس (حزب الإخاء الوطني) سنة ١٩٢٨، وكان نائبًا في البرلمان، ثم عُيِّن رئيسًا للوزارة العراقية لمرَّات متتالية بدءًا من عام ١٩٣٠.

وفي عام ١٩٤١ تعاون مع أربعة ضباط يمثلون الحركة القومية في الجيش في إقامة (حكومة الدفاع الوطني) برئاسته، وقد أيدها العراقيون جميعًا ولا سيما قادة الفكر الوطني والقومي، إلَّا أن العملاء ومعهم الإنكليز أحبطوا خطط هذه الحكومة الفتية؛ فسقطت، وهرب الكيلاني إلى ألمانيا عن طريق إيران، وفي ألمانيا قابل الزعيم النازي هتلر، ورفض (منحته المالية)، وقبل قرضًا منه لمساعدة الثوار الهاربين من العراق، كما صحح مفاهيم هتلر عن العروبة، ولما انتهت الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ تسلل إلى فرنسا متخفِّيًا، ثم إلى بيروت، فدمشق، فالرياض، وفي عام ١٩٥٣ رحل إلى القاهرة فبغداد بعد ثورة ١٩٥٨، ثم سجنه عبد الكريم قاسم لمدة ثلاث سنوات، بعدها رحل إلى القاهرة فلبنان حتى وفاته ببيروت سنة ١٩٦٥م، ودفن في بغداد.

له مؤلفات مطبوعة؛ منها: «مسالك قانون العقوبات» طبع سنة ١٩٢٣، وكتاب «نظريات أصول المرافعات الجزائية»، وكتاب «النظريات العامة في الحقوق الجزائية»، وقد ألَّف أكثر كتبه حينما كان مدرسًا في كلية الحقوق في العشرينات، أو عندما مارس المحاماة لمدة سنتين؛ ترجمته في «موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين» (٧٥)، «رجال العراق الملكي» (ص١٠٥ ـ ١٢٢)، «الموسوعة العربية العالمية» (١١/ ٢٢٩).

العَجَب العُجاب، لكني أقتصر على هذه الحادثة، وليست من أغربها:

لم يسمح لي القانون المصري أن أخرج من مصر أكثر من عشرين جنيهًا، فتركت ما عندي من الدراهم عند الدكتور الحبيب تامر[1] والسيد حسين التريكي وهما مجاهدان تونسيان وقع بيني وبينهما قصة في التعاون على محاربة الاستعمار ليس هذا محل ذكرها، على أن يبعثا لي تلك الدَّراهم حين تسنح لهما الفرصة، لكني عندما توجهت إلى مطار ألماظة أخذت معي خمسين جنيهًا فناولني المفتِّش صحيفة، وقال لي: أكتب هنا القدر الذي عندك من النقود فكتبت خمسين جنيهًا، فقال لي: إن القانون لا يسمح لك إلا بعشرين. فقلت له: قبل اثني عشر يومًا دخلت مصر ومعي ١٤٧ جنيهًا ولم أنفق في هذه المدة إلا قليلًا لأني كنت ضيفًا عند أصدقائي، وهم كثير، فهل يعقل أني أنفقت في هذه المدة القصيرة ١٢٧ جنيهًا ولم يبق لي إلا عشرون؟ فنظر إلى جواز السفر فوجد مدة الإقامة اثني عشر يومًا كما ذكرت له، فقال لي: تستطيع أن تثبت أنك دخلت مصر بالقدر المذكور من المال؟ قلت: نعم، هذه شهادة البنك في تطوان، فلما قرأها سمح لي بإخراج خمسين جنيهًا.

فقلت له: إنني ألتزم الصدق وذلك يوقعني في مشاكل، فقال لي: إن الصدق لا يوقع في المشاكل، وإذا وقعت لصاحبه مشاكل فعقباها خير، وإنما الذي أتعبنا هو الكذب ـ ووقع لي مثل ذلك في دمشق ـ فانحلت المشكلة بأن كتب المفتش نفسه على الصحيفة أن عندي عشرين جنيهًا؛ أبيت أن أكذب فكذب هو.

(١) أصدر في تونس سنة ١٩٤٢ صحيفة «إفريقيا الشمالية»، بالمشاركة مع الرشيد إدريس، وانظر «رسائل الهلالي» (٣/ ١٤٠٩).
وفي الطبعات السابقة للكتاب: «ثامر» بالمثلثة!

الدعوة إِلى الله في العراق(1)

....

(1) طالت مدة الهلالي في العراق، فدخلها سنة ١٩٤٧م، وبقي فيها إلى سنة ١٩٥٩هـ، وكانت له فيها مشاركات علمية ودعوية كثيرة ومهمة، وما زالت الضبابية والغموض تحيط بهذه الفترة من حياة الهلالي، ولعل بُعد عهد الهلالي بها أنساه بعض التفصيلات في كتابه هذا، وقد تطلَّبت هذه الحقبة من الزمان في حياة الهلالي، فوجدتها مليئة بالأحداث، وفيرة بالخير، وامتدت فيها علاقاته مع عدد من الشخصيات العلمية والدعوية، والمقام يضيق عن التفصيل، وتكفيني هذه (المعالم) المهمة:
أولًا: لتلميذ الندوي في كتابه «شهور في ديار العرب» ـ وهي رحلة للهلالي خاصة ـ (يوميات الهلالي) من تأريخ ٦/رجب/١٣٦٨هـ يوافق ٥/مايو/١٩٤٩م وإلى تأريخ ٥ صفر/١٣٦٩هـ يوافق ٢٦/نوفمبر/١٩٤٩م، وهي حافلة بالأحداث واللقاءات والآراء.
ثانيًا: درس الهلالي في بغداد في كلية الملكة عالية الخاصة بالإناث (التي سميت بعد ثورة عبد الكريم قاسم: كلية التحرير)، ثم في كلية الآداب بدار المعلمين العليا، ثم في كلية التربية إلى سنة ١٩٥٩م، ثم في كلية الإمام الأعظم أبي حنيفة، ثم في كلية الشريعة ببغداد. وكان يدرس فيها الأدب العربي والقرآن والحديث وعلومه، انظر «صيانة العرض» (ص٣٧)، «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢١٥).
ثالثًا: نشر الهلالي كثيرًا من المقالات في المجلات العراقية، مثل: «الأخوة الإسلامية»، و«الثقافة الإسلامية»، وجريدة «السجل» البغدادية، ومجلة «الشبان المسلمين»، وصحيفة «الصراط المستقيم»، ومجلة «كلية الآداب والعلوم»، ومجلة «لسان الهداية»، وجريدة «ملحق السجل الأسبوعي»، ومجلة «الهداية».
رابعًا: ترى مقالاته هذه موزعة على مواضيعها في كتابي «مقالات الهلالي».
خامسًا: اعتنت الصحف والمجلات بأخبار الهلالي وأسفاره وحصرت ذلك في دراسة مستقلة. =

وصلتُ إلى العراق عائدًا من سفري الطويل في صيف سنة **١٩٤٧** من تاريخ النصارى، ولما امتنع صالح جبر[1] من الإذن لي بأخذ نسخة من شهادة التجنس بالجنسية العراقية، وبقيتُ بلا عمل، اخترت أن أسكن بالموصل؛ لأنَّ لي إخوانًا صادقين في تلك المدينة، فسكنتُ فيها سبعة أشهر وبدأت الدعوة إلى الله، فحصل إقبال عظيم من الناس وفرح بذلك الإخوان السلفيون.

وكانت السَّلفية موجودة قبل ذلك في الموصل[2]، وكان إمامها

= **سادسًا**: كانت كلماته تذاع من الإذاعة المسموعة في بغداد.

سابعًا: لما أصيب وأضر، عين رئيسًا لجمعية المكفوفين ببغداد.

ثامنًا: كان له طلبة يترددون على دروسه في المساجد ولا سيما مسجد الدهان، وكان يشرح فيه «رياض الصالحين» و«مشكاة المصابيح»، وكان يقرأ عليه طالب اسمه منيب، ثم شرح «زاد المعاد» و«سبل السلام».

تاسعًا: ترقى الهلالي بعد أربع سنين من التدريس إلى درجة أستاذ مساعد، قال: «ثم جاءتني دعوة لأكون أستاذًا منتدبًا لتدريس العلوم الإسلامية في جامعة بون لمدة سنة، وكان ذلك عام **١٩٥٤**م»، أفاده المجذوب في «علماء ومفكرون عرفتهم» (**١/ ٢١٧**).

عاشرًا: نشر الهلالي في هذه الفترة: «ذم الموسوسين» لابن قدامة، بتعليقات له، وترجمة «مدنية العرب في الأندلس» من تأليف جوزيف ماك كيب، ونشر «دليل الحاج الحنيف».

حادي عشر، وأخيرًا: كان وصول الهلالي للعراق بصعوبة بالغة، وطال سعيه، واشتد تطلبه في اتخاذ الوسائل الموصلة إليهم. قال في «الإسلام يكافح الاستعمار» (**٣٦٤**): «في سنة **١٩٤٦** كنت أسعى في الرجوع إلى العراق، لأرى أهلي وعيالي، فتعسَّر عليَّ الأمر».

وبسط هذا التعسّر فيما ذكره المجذوب في «علماء ومفكرون عرفتهم» (**١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠**).

(١) كان رئيسًا لوزراء العراق، وسيأتي بيانه قريبًا.

(٢) قال الهلالي عن الشيخ المحقق سليمان الجليلي رحمه الله: «العلامة السلفي، أول =

= داعٍ إلى التمسك بالكتاب والسنة في الأزمنة الأخيرة في الموصل» كذا في تقديمه لكتاب «ديوان الخطب» (ص٢٤) للشيخ عبد الله النعمة.
وترجم لـ«الجليلي» هذا الأستاذ أحمد محمد المختار في كتابه الجيد «تاريخ علماء الموصل» (ص٦ ـ ٩) ونشر مرتين في جزأين آخرهما سنة ١٩٨٤م عن مكتبة بسام، ويكاد أن يكون خاصًّا بالعلماء السلفيين فيها.
وللأسف لم يكن للهلالي الذي هو شعلة نشاط في الموصل ترجمة مفردة فيه، ولكنه لم يستطع تجاوزه فذكره في ترجمة إسماعيل مصطفى الكتبي، وقال عنه (ص٧٩): «لازم الشيخ صديق الملاح والدكتور تقي الدين الهلالي، وكانا إمامين من أئمة السلف، فأخذ عنهما مذهب السلف، ودرس عليهما علم الحديث، وعلم مصطلح الحديث، لا سيما أحاديث العقائد والأحكام».
وذكر في ترجمة قاسم بن رشيد بن يوسف بن محمد الجليلي (١٣٠٥ ـ ١٣٦٩هـ): «كان الشيخ محط أنظار العلماء الذين زاروا الموصل من أمثال الدكتور الشيخ تقي الدين الهلالي عندما اجتمع به، قال: ما كنتُ أظن أن في الموصل عالمًا لغويًّا كالشيخ الحاج قاسم الجليلي».
قال أبو عبيدة: الهلالي ممن أقام في الموصل سبعة أشهر ـ كما أخبر عن نفسه هنا ـ ولذا غفل عن ترجمته ممن حرصوا على بيان الحركة العلمية فيها، وممن ترجم لعلمائها ولا سيما للسلفيين، ولم يذكره الأستاذ جاسم عبد شلال النعيمي في مقالته «نشأة السلطة في الموصل في العصر الحديث».
بقي: بيان نشاط الهلالي في الموصل، وهي من صلب «الدعوة إلى الله»، ولعل بُعد عهده أنساه بعض التفصيلات، وكتب من بريطانيا بطلب مني البروفسور أحمد ولد العلامة عبد الله الحسو الموصلي ـ وهو من أقران الهلالي وأصدقائه ـ عن النشاط العلمي الذي شارك فيه الهلالي، فقال: نظمت حلقات لإلقاء دروس شارك فيها الهلالي والوالد ـ وربما غيرهما ـ وكانت تعقد بعد صلاة العشاء في سطح جامع هناك في الجهة المقابلة لمنارة الجامع ـ لا أعني القريبة من المنارة بل المقابلة لها ـ وقد استمرت لأسابيع، وبقيت علاقة الوالد مع الهلالي، وقد زار الوالد الهلالي عند انتقاله لبغداد، وكنت أرافقه، ونزلنا ضيوفًا عنده في بيته، وبقي الوالد هناك مدة من الزمن، تضمنت لقاءات وحوارات مع الهلالي والشيخ عبد الكريم الشيخلي، والشيخ شاكر البدري وغيرهم.

الشيخ عبد الله النِّعمة[1] ـ رحمة الله عليه ـ وكذلك الشيخ صديق الملاح رحمه الله، وكان الشيخ عبد الله إمامًا وخطيبًا في مسجد وكان يلقي دروس القرآن في بيته مدة طويلة من الزمان يختمه ثم يبدأه من جديد، ويحضره كثير من الناس إلى أن توفي رحمه الله، أما الشيخ صديق الملاح[2]

(١) هو عبد الله النعمة البكري الصديقي الموصلي (١٢٩٠ ـ ١٣٦٩هـ)، ترجم له الهلالي ترجمة مسهبة في مقدمة «ديوان الخطب» له (ص٢٤ ـ ٢٧) ونشره محمد محمود الصواف، ومما قال عنه الهلالي (ص٢٤):
«الأستاذ السلفي المحقق» و«قضى عمره كله رحمه الله في الدعوة إلى الله على طريقة السلف الصالح لا يتقيّد بمذهب، ولا ينتسب إلى طريقة، وعلى يده انتشرت العقيدة السلفية في الموصل، وكان رحمه الله مهيبًا محبوبًا معظمًا عند جميع أهل الموصل، الموافقين منهم والمخالفين»، وقال: «حضرتُ دروسه في تفسير الكتاب العزيز في بيته، وكان يحضر هذا الدرس الأسبوعي خلق كثير من طلبة العلم وأعيان مدينة الموصل، بغاية الشوق والتلهُّف، وكانوا يودّون أن يكون هذا الدرس يوميًّا؛ لما يجدونه فيه من كنوز العلم والمعرفة بأسلوبٍ مشوّق لا يملُّ سامعُه».
وقال (ص٢٥): «ومن مناقب الشيخ عبد الله النعمة رحمه الله أنه أول من نشر كتب الإصلاح في الموصل، ككتب شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، وتلميذه الإمام الحافظ شمس الدين ابن القيم، وكتب الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب».
وقال (ص٢٦): «ومن مناقب هذا الشيخ التي لا تعدّ ولا تحصى أنه أنشأ أسلوبًا جديدًا في خطب الجمعة، فقد كان الخطباء قبله وفي زمانه يخطبون من الدواوين، . . .».

(٢) صديق بن محمد الملاح، ولد في مشارق الشام سنة ١٨٨٦م، بدأ طلبه للعلم وهو صغير على شيخه عبد الوهاب الجوادي، وكان صوفيًّا، ولم يجد طلبه عنده بعد اطلاعه على كتب ابن تيمية، وتعرف على الشيخ سليمان الجليلي، وتأثر به، وجاهر بدعوته السلفية. واشتدت غربته بعد وفاة شيخه الجليلي، فنزح إلى حلب ثم عاد إلى الموصل، واضطر للإقامة في قرية الكوكجلي، ولم يتمكن من البقاء فيها، فذهب إلى الرياض سنة ١٣٤١هـ ١٩٢١م، ولم يستقر =

فكانت مدرسته هي المقهى في الموصل، والمقاهي في الموصل تختلف عنها في سائر البلدان، ففي كل مقهى من مقاهي المسلمين مسجد وله مؤذِّن وإمام لصلاة المغرب والعشاء، إذا حضر وقت المغرب أذَّن المؤذن وأمَّ الناس المسجد كلهم لا يبقى إلا يهودي أو نصراني، وأهل هذا البلد لهم فضائل ومزايا من أخصِّها الشجاعة والكرم، وكان فيها أعداء للسنة ولكن لم يستطيعوا أن يمسونا بسوء.

وبعد الوثبة التي تقدم ذكرها[1] انتقلت إلى بغداد وبدأت الدعوة

= هناك، فعاد إلى الموصل معلمًا في المدرسة الخضرية بها، ثم نقل إلى مدرسة الكوكجلي ومكث فيها مع زوجته وأطفاله أربع سنوات، ثم انتقل إلى البصرة والناصرية، واستقال من وظيفته سنة ١٩٣٢م، وتفرغ لنشر معتقده، وكان يرتاد النوادي والمقاهي لذلك. وتدخَّل متصرف الموصل فمنعه، وتوفي سنة ١٩٤٦م رحمه الله رحمة واسعة. ترجمته في «تاريخ علماء الموصل» (١٠ ـ ١٣).

(١) لم يتقدم ذكرها، وهذا تعريف موجز بـ (الوثبة):

سافر صالح جبر إلى لندن بناءً على فكرة الأمير عبد الله، ومعه نوري السعيد ـ وكان رئيس الوفد من الناحية العملية رغم أنه لم يكن عضوًا في الوزارة ـ، وتوفيق السويد، للاطلاع على وجهة النظر البريطانية من خلال وزير الخارجية آنذاك (أرنست بيفن)، وبعد عشرة أيام من سفر الوفد (١٥ كانون الثاني ١٩٤٨) ـ وليس ١٩٤٧ كما قال الهلالي ـ وُقِّعت في ميناء بورتسموث البريطاني معاهدة جديدة بين العراق وبريطانية، وقد أخذت المعاهدة اسم المكان الذي وُقِّعت فيه، وأصبحت تعرف باسم (معاهدة بورتسموث).

وقد رأى الشعب والأحزاب السياسية المعارضة أنَّ المعاهدة الجديدة لا تختلف عن المعادة السابقة، وربما أسوء منها كما اعتقد بعضهم، لذا جوبهت المعاهدة بتظاهرات واسعة عُرِفَتْ بـ (الوثبة)، الأمر الذي دفع وزارة صالح جبر إلى استخدام شتى صنوف العنف والإرهاب ضد أبناء الشعب، حتى إنها وضعت رشاشتين على منارتي الجامعين القائمين على طرفي جسر المأمون (جسر الشهداء).

بدأ إطلاق النار على المتظاهرين الذين كانوا يعبرون الجسر؛ فاضطر قسم =

فيها، وكانت السلفية قد ماتت في بغداد، مع أنها بلد الإمام أحمد بن حنبل والإمام أبي حنيفة رحمهما الله، وكذلك الإمام محمد بن جرير الطبري، وقد كانت من قواعد الدعوة السلفية إلى زمان السيد محمد[1] شكري الألوسي رحمة الله عليه، أما أنا فلم أجد من السلفيين إلا الشيخ عبد الكريم الصاعقة[2] وكان إمام مسجد صغير، وقد حاربه المتعصِّبون

= منهم إلى رمي نفسه في نهر دجلة، وكان هذا أسوأ ما فعلته وزارة عراقية في العهد الملكي، وما يزال الناس يتحدثون حتى هذا اليوم عن واقعة الجسر (دكة الجسر)، الذي أصبح يعرف بعد ١٩٥٨ باسم (جسر الشهداء).

وقد ترددت الوزارة في استخدام الجيش ضد المتظاهرين؛ لأنها تدرك أن الجيش العراقي لا يمكنه أن يسهم في قمع حركة وطنية، كما أن الوزارة والبريطانيين خشوا أن يثور الجيش عليهم كما حدث عام ١٩٤١؛ لأن التظاهرات كانت عنيفة إلى حدٍّ أن صالح جبر حين عاد من لندن ـ بعد توقيع المعاهدة ـ دخل العاصمة تحت حماية بعض المصفَّحات العسكرية، ولما لم يتمكن من السيطرة على الموقف، قدَّم استقالته ولجأ مُتخفّيًا إلى عشيرة زوجته آل الجريان في الحلة، ثم سافر إلى الأردن، وبعدها إلى لندن. انظر «رجال العراق الملكي» (ص١٤٧ ـ ١٤٨).

(١) كذا في طبعات الكتاب، والصواب: (محمود).

(٢) هو الشيخ العالم العلامة، بقية السلف، ومحدث بغداد، والمسند الممجد، صاعقة أوانه في حفظه واتباعه وإتقانه، الثقة الشيخ السيد: عبد الكريم بن السيد عباس بن ياس آل الوزير الحسني نسبًا، اليماني أصلًا، البغدادي الأزجي الشيخلي مولدًا، السلفي الأثري الرباني معتقدًا ومنهجًا ومسلكًا، ولد سنة ١٢٨٥هـ. للشيخ سليمان بن سحمان رسالة أرسلها له تراها في «الدرر السنية» (٨/ ٢٦٦)، ومنها يظهر معتقد الصاعقة، توفي رحمه الله سنة ١٣٧٩هـ يوافق ٧/ ١٢/ ١٩٥٩م، على أثر ورم في رأسه، أدى فيما بعد إلى وفاته. له كتب كثيرة، منها: «أصول الحديث»، و«رسالة في مختلف الحديث»، و«رسالة في أصول الفقه»، و«معارضة الحنفية لأقوال خير البرية»، و«نظرات في التفسير»، كشف فيه عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات، والتفاسير الباطنية والصوفية. حدثني تلميذه الشيخ صبحي السامرائي أنه كان =

من المقلِّدين، فلم يكن يصلي في مسجده إلا بضعة أشخاص، ولكنه كانت له خزانة عظيمة من كتب السنة[1]، كان متمسِّكًا بالعقيدة السلفية راسخ القدم لا يتزحزح عنها.

وكان ابتداء دعوتي في مسجد بمحلة الشيوخ بالأعظمية وهو مسجد له وقف خاص، كان المتولي عليه الحاج محسوبًا رحمه الله، وقد جرت العادة بإلقاء الوعظ في كل مسجد كل يوم من أيام رمضان، على الأخص، فلما أقبل رمضان ذهب الحاج محسوب يبحث عن عالم من العلماء ليستأجره للوعظ في مسجده مدة شهر رمضان فاتفق مع أحدهم ـ ولا أسميه إبقاء عليه ـ، ثم وجد ذلك الشيخ أجرًا أعلى مما اتفق عليه مع الحاج محسوب فأخبره بفسخ الإجارة، وذهب إلى عالم آخر ـ لا أسميه أيضًا إبقاء عليه ـ فاتفق معه أن يعطيه عشرة دنانير، فلما أقبل رمضان ولم يبق إلا يوم واحد من شعبان جاءه ذلك العالم وأخبره بفسخ الإجارة لأنه وجد من يعطيه أكثر من ذلك، فأصاب الحاج محسوبًا من الحزن والغم والغيظ على جميع المعمَّمين، وهكذا يسمَّى علماء الدين عندهم، لأنهم يلتزمون لبس العمامة والجبة، وذلك زي العلماء عندهم، فكل من لبس عمامة وجبة يحسبه الناس عالمًا، وإن كان أجهل من حمار

= يستظهر «الكتب الستة»، وكان الهلالي يخطب في جامع الدهان قرب محلة الأعظمية برصافة بغداد، وكان الصاعقة يحضر عنده الجمع والعيدين، وهو من أعز أقرانه وإخوانه، وصار هذا المسجد فيما بعد منطلقًا لشرارة السنة، ونصرة دين الحق.

(١) أوقف الشيخ الصاعقة مكتبته الخاصة (٤٠٠٠) (أربعة آلاف دينار عراقي) لشراء كتب الوحيين، وإضافتها إلى مكتبة جامع الدهان، وعيَّن لجنة للإشراف عليها، هي: الشيخ نوري والشيخ حمدي والشيخ عدنان عبد المجيد. أفادنيه تلميذه وضاح محمود ثابت وكانت فيها بعض المخطوطات القيمة، ثم نهبت في الفوضى التي عمَّت العراق فيما بعد.

أهله! فما شعرت إلا والحاج محسوب يطرق الباب، فرحَّبت به وجلسنا نتحدث، فاشتكى إليَّ مما أصابه من المعممين وذمهم ذمًّا شديدًا، وقال لي: يا ليت الواحد منهم حين استولى عليه الطمع وأراد الزيادة جاءني فاستشارني قبل أن ينقض العقد ويتفق مع غيري، كان ينبغي أن يقول لي: قد وجدت من يعطيني أجرًا أكثر مما اتفقت عليه معك، فإما أن أزيده وإما أن أفسخ العقد معه. قال: واليوم جاءني أحد الأصدقاء وقال لي: عليك بالدكتور محمد تقي الدين الهلالي يعظ في مسجدك ثلاث مرات في الأسبوع، فإنه يعظ لله ولا يطلب أجرًا، قال: فجئتك، وأنا مستعدٌّ أن أقدم لك ما تطلب، فقلت له: يا حاج محسوب! أنا لا آخذ شيئًا على الوعظ، لأنه فرض فرضه الله عليَّ؛ لأنه من الجهاد، والجهاد واجب بالنفس والمال.

فوعظتُ في مسجده كلَّ يوم، وأقبل الناس شبابًا وشيوخًا، فاغتبط الحاج محسوب واطمأنت نفسه، وبعد رمضان استمررت على دروسي في ذلك المسجد، وكان يحضرها الشباب من تلامذة المدارس والشيوخ من أهل تلك المحلة، فغاظ ذلك أعداء السنة، وزعموا أنني أردتُ أن أهدم مذهب أبي حنيفة.

فقلت مرارًا في دروسي: إنكم تكذبون على أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ وأنا أتبعه حقًّا وصدقًا، فإن أبا حنيفة كان على عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، كان يصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ، ويثبت العلو لله تعالى، ويكفِّرُ من يتأول الاستواء بالاستيلاء كما في «الفقه الأكبر»(١) وفي «الطحاوية»(٢) وشرحها(٣)،

(١) انظر منه (ص١٣٥ ط الفرقان).

(٢) انظرها (ص٥٣ ط المعارف).

(٣) انظره (ص٢٦٨ ط شاكر).

وأنتم تعتقدون عقائد المتأخرين من الأشعرية[1] نفاة الصفات، وأبو حنيفة يكفِّر النفاة، ثم تتعصبون في إلزام الناس بفروع الحنفية، وهذا خلاف ما كان عليه أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد صح أنه قال: «لا يجوز لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه»[2]، أي: حتى يعرف دليلَه، وأنتم تقولون على الله بلا علم، بل بالتقليد الأعمى، ولعمر الله! ليس هذا مذهب أبي حنيفة.

ومما يدل على مخالفتكم لمذهبه أن صاحبيه محمدًا وأبا يوسف خالفاه في ثلث المذهب وقال بعضهم[3]: في ثلثي المذهب، ولو كان

(١) جل الحنفية المتأخرين ماتريديّة وليسوا بأشاعرة.

(٢) نحوه في «الانتقاء» (ص٢٦٧) لابن عبد البر، وينظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٧٩ ـ بتحقيقي).

(٣) قال المصنف في مقالته (كيف نقتدي بأبي حنيفة وإخوانه المجتهدين) المنشورة في مجلة «الثقافة الإسلامية» العراقية، بتأريخ ٨ ربيع الأول ١٣٧٢ (ص٧ ـ ٨): «قال بعض العلماء: إن صاحبي أبي حنيفة ـ يعني أبا يوسف ومحمدًا ـ قد خالفا أبا حنيفة في ثلث المذهب. وسمعت من بعض العلماء المحققين من الحنفية أن المسائل التي خالف فيها الصاحبان الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تزيد على الثلث. وبذلك نعلم يقينًا أن الاقتداء بأبي حنيفة لا يستلزم موافقته في كل مسألة فرعية، بل يستلزم خلافه عند ظهور البرهان الذي يرجح، فلا يجوز أبدًا أن يتهم أحد بالانحراف عن الاقتداء بأبي حنيفة ومحبته العظيمة بمجرد أن يخالفه في بعض المسائل الفرعية، مع أنه موافق لأصوله وعقيدته، وأما من خالفه في العقيدة أو الأصول ومنها قوله: «لا يحل لأحد... إلخ» فليس مقتديًا به في الحقيقة، ولو وافقه في جميع المسائل الفرعية، لأن أبا حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يحكم بالزيغ والضلال إلا على من يخالفه في العقائد وأصول الدين، وأما الفروع فمعاذ الله أن يضلل أحدًا يخالفه فيها.

ومن المعلوم أن أبا حنيفة كان سلفي العقيدة، يعتقد ما جاء في كتاب الله وفي حديث رسول الله ﷺ من صفات الله، وما أخذه عن شيوخه من كبار التابعين وهم أخذوه عن الصحابة. ولم يكن أبو حنيفة أشعريًّا ولا ماتريديًّا ولا غير =

أبو حنيفة يعلم أصحابه أن يكونوا مقلدين لما خالفه أقرب الناس إليه وأفضل تلامذته الذين نشروا مذهبه.

وهذه القُبَّة التي بنيتم على قبره: هل أباح لكم أن تبنوها؟ وهذا المسجد الذي بنيتم إلى جانبها: هل أباح لكم أبو حنيفة أن تبنوا المساجد على القبور وتصلُّوا فيها؟! وهذه البدع التي ترتكبونها: هل رويتموها عن أبي حنيفة؟!

فضاق المتعصِّبون ذَرْعًا بدروسي، فأوعزوا إلى أربعة من تلامذتهم من المعممين الشباب أن يحضروا درسي ويجادلوني، فإذا عارضهم تلامذتي يقتتلون معهم حتى يجيء رجال الأمن إلى المسجد، ويقبضوا على المقتتلين فيتوصَّلوا بذلك إلى وقف دروسي بادعاء أنها تثير الفتنة، ولكن خاب سعيهم لأن تلامذتي تفطَّنوا لذلك فالتزموا الصمت والهدوء، فلما رآهم الشيوخ خرجوا عن حدود السؤال بأدب إلى إساءة الأدب غضبوا عليهم وأسكتوهم وأرادوا أن يضربوهم، وفي مقدمتهم الحاج محسوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فخافوا وذلوا وطلبوا مني العفو، فبطلت هذه المكيدة.

وكنت أسكن بقرب المسجد المنسوب إلى أبي حنيفة، ويسمى عندهم (جامع الإمام الأعظم)، وهذا اللفظ أطلقه الأتراك في زمان حكمهم على أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا شك في إمامته ولا في عظمته، ولكن هذا اللفظ مبتدع يشبه ملك الملوك و(شاهن شاه) وقاضي القضاة. وقد

= ذلك، وقد روى عنه البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» مناظرة وقعت بينه وبين امرأة جهم بن صفوان رئيس الجهمية، وهذه المناظرة تدل بجلاء على ما قلناه، ونحن نشهد الله أننا متبعون لأبي حنيفة في عقائده وأصوله، لا نحيد عنها بتوفيق الله ومشيئته، ونحن نتبرأ من كل من ينسب إلينا خلاف هذا. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

جاء في الحديث الصحيح: «**أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك**»[(١)]، وكره الأئمة كل ما كان قريبًا من هذا المعنى، فكنت لا أصلي في ذلك المسجد لا جماعة ولا جمعة، أما الجماعة فكنت أصليها في مسجد الحاج محسوب، وأما الجمعة فكنت أركب السيارة من الأعظمية إلى بغداد وأصلي في أحد المساجد الخالية من القبور، فاشتد انتقادهم لهذه الخطة، ولا سيما حين كانوا يرون تلامذتي من الشباب يقتدون بي ولا يصلون في المسجد المبني على القبر، بقيت على ذلك مدة سنتين.

جامع الدهَّان

كان جماعة من أهل الخير قد اشتركوا في بناء مسجد يبعد عن جامع أبي حنيفة بنحو ميل واحد إلى ناحية بغداد[(٢)] وعجزوا عن إتمامه، فجاء الحاج عبد الحميد الدهان ـ وهو من أهل الثراء والإحسان ومن وجهاء التجار في بغداد ـ فأكمل بناء ذلك المسجد وفتحه للصلاة.

وفي يوم من الأيام جاءني الحاج عبد الحميد وسلَّم عليَّ، وقال لي: إنِّي بنيتُ هذا المسجد بين بغداد والأعظمية، وأهل الأعظمية يصلُّون في مسجد الإمام الأعظم، وأهل البيوت القريبة من مسجدي أكثرهم شيعة، وأنا خائف أن لا يجتمع لي العدد الذي تصح به صلاة الجمعة، وقد استنصحت الحاج طه الفياض[(٣)] صاحب صحيفة

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٠٥) ومسلم (رقم ٢١٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يقع في جانب الرّصافة في العاصمة بغداد، قرب ساحة عنتر، في محلة نجيب باشا في الأعظمية، مقابل ثانوية الحريري للبنات، بني عام ١٣٧٢هـ يوافق سنة ١٩٥٣م.

(٣) محمد طه الفياض، ولد سنة ١٣١٧هـ ـ ١٨٩٩م، متأدب، له عمل في =

«السجل»، فقال لي: إن أردتَ أن يمتلئ مسجدك بالمصلين فعليك بالدكتور محمد تقي الدين الهلالي فالتمس منه أن يكون إمامًا وخطيبًا لصلاة الجمعة، فأرجو أن تقبل مني هذا العرض. فقلت له: أنا لا ألبس زي العلماء كما ترى. فقال لي: أنا أقبلك على أي حال كنت. فقلت له: خيرًا.

وشرعت أصلي الجمعة في جامع الدهان، فما مرت ثلاث جمعات إلا وقد ضاق المسجد عن المصلِّين، وصار الناس يقصدونه من جميع أرجاء بغداد، وحتى أهل الأعظمية كان كثير منهم يمرون على مسجد أبي حنيفة ويتركونه ويؤمون جامع الدهان، ومن الذين كانوا يواظبون على الصلاة فيه: السفير المغربي في ذلك الوقت الحاج الفاطمي بن سليمان[1]، وبلغ الإقبال على جامع الدهان إلى أنَّ من لم يتقدم قبل الزوال بساعة أو أكثر لا يجد مكانًا.

= الصحافة، أنشأ جريدة «السبيل» و«الفجر الجديد»، وتحوّلت إلى «صدى الشبان المسلمين»، بينه وبين الهلالي علاقات قوية، ومناصرة جيدة؛ انظر «شهور في ديار العرب...» (١٥٢، ١٩٢ ـ ١٩٣، ١٩٩، ٢٠١، ٢١٥، ٢٢٥، ٢٢٦)، ولفياض اشتغال في السياسة، من أهل عانة في العراق، من كتبه المطبوعة: «الإعصار الشديد في تفنيد سياسة نوري السعيد» و«صولة الحق على جولة الباطل» و«عدوان الإنكليز على واحة البريمي» و«كيف تحارب الشيوعية» و«اللغة العربية رابطة الشعوب الإسلامية»، تُوفي سنة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م، رحمه الله تعالى؛ ترجمته في «معجم المؤلفين العراقيين» (٣/ ١٩٨)، و«الأعلام» (٦/ ١٧٦)، وانظر عن علاقة الهلالي معه: «ديوان الهلالي» (١٥٦، ٥٣١، ٥٥٩) «رسائل الهلالي» (٣/ ١١٩٣، ١١٩٤، ١٢٤١، ١٤٧٥).

(١) له ذكر في كتاب «محمد نصيف حياته وآثاره» (٤٧٤) و«رسائل الهلالي» (٣/ ١٠٧٨، ١٠٨٠)، وصرح أنه صديقه.

تطهير الجامع من البدع

كان في هذا الجامع كغيره من المساجد بدع:

الأولى: قراءة القرآن بالتناوب في مكان مرتفع مخصَّصٍ للقارئين، وكانوا يشوِّشون على المصلِّين بقراءتهم.

الثانية: صلاة ركعتين بعد الأذان الأول، يقوم المؤذِّن فينادي بأعلى صوته متغنِّيًا فيقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ثم يقول: صلاة سنة الجمعة يرحمكم الله. فيقوم الناس كلهم ويصلون ركعتين، ومن لم يصلهما يعد تاركًا للسنة! وكان المؤذن يرفع صوته بالتسميع خلف الإمام مع وجود مكبرة الصوت وعدم الحاجة إلى التسميع، كما يفعل اليوم بالمسجد النبوي، نسأل الله أن يطهره من المحدثات حتى يعاد إلى الحال التي كان عليها في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين.

الثالثة: الأذان الأول، وهو مُحْدَثٌ لم يكن على عهد النبي ﷺ ولا على عهد الخليفتين بعده وهم أولى بالاتباع، ولما كان زمان عثمان وكثر الناس في المدينة أمر عثمان مناديًا ينبِّه أهلَ السُّوق بقُرْب صلاة الجمعة ليستعدُّوا لذلك ويؤموا المسجد، ولم يكن ذلك أذانًا حقيقيًّا(١) ولا كان في

(١) قال الإمام الشافعي في «الأم» (١/ ٢٢٤):
«وأحب أن يؤذّن مؤذّن واحد، إذا كان على المنبر، لا جماعة مؤذنين»، ثم ذكر عن السائب بن يزيد: أن الأذان كان أوّله للجمعة حين يجلس الإمام على المنبر، على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كانت خلافة عثمان، وكثر الناس، أمر عثمان بأذان ثان، فأذّن به، فثبت الأمر على ذلك.
وعلّق عليه بقوله:
«وقد كان عطاء ينكر أن يكون عثمان أحدثه، ويقول: أحدثه معاوية، وأيّهما كان، فالأمر الذي على عهد رسول الله ﷺ أحبّ إليّ». =

= **قلت**: ولا وجه لإنكار عطاء، فقد تواردت الروايات أن عثمان هو الذي زاده، فهو المعتمد؛ كما في «فتح الباري» (٢/ ٣٩٥)، وأثر السائب عند البخاري في «الصحيح» (٢/ ٢٩٣) رقم (٩١٢) وغيره، بل قال ابن عبد البر في «التمهيد» (١٠/ ٢٤٧): «وأما الأذان يوم الجمعة، فلا أعلم خلافًا أن عثمان أول من فعل ذلك وأمر به».

ومن الجدير بالذّكر أن الأذان الذي أحدثه عثمان ﷺ كان على الزَّوْراء، وهي دار في السوق، ووقع التصريح بالسبب في بعض روايات حديث السائب، ففي بعضها: «فلما كان خلافة عثمان، وكثر الناس، وتباعدت المنازل، . . .».

أخرجها عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه، وذكرها العيني في «عمدة القاري».

وفي بعضها: «ليعلم الناس أن الجمعة قد حضرت» أخرجه الطبراني.

ونقل القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٠ ـ ط دار الكتب المصرية) عن الماوردي في هذا الأذان: «فعله عثمان، ليتأهب الناس لحضور الخطبة، عند اتساع المدينة، وكثرة أهلها».

وهذا السبب لا يكاد يتحقق في عصرنا هذا إلا نادرًا، وذلك في مثل بلدة كبيرة تغص بالناس على رحبها، كما كان الحال في المدينة المنورة، ليس فيها إلا مسجد واحد يجمع الناس فيه، وقد بعدت منازلهم عنه لكثرتهم، فلا يبلغهم صوت المؤذّن الذي يؤذّن على باب المسجد. وأما بلدة فيها جوامع كثيرة، لا يكاد المرء يمشي فيها خطوات حتى يسمع الأذان للجمعة من على المنارات، وقد وضع عليها الآلات المكبّرة للأصوات، فحصل بذلك المقصود الذي من أجله زاد عثمان الأذان، ألا وهو إعلام الناس.

وإذا كان الأمر كذلك، فالأخذ حينئذٍ بأذان عثمان من قبيل تحصيل الحاصل، وهذا لا يجوز، لا سيما في مثل هذا الموضع الذي فيه التزيّد على شريعة رسول الله ﷺ دون سبب مسوِّغ، وكأنه لذلك كان علي بن أبي طالب ﷺ وهو بالكوفة، يقتصر على السّنة، ولا يأخذ بزيادة عثمان، كما قال القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٠).

المسجد، فلما كان زمان عبد الملك بن مروان جعله أذانًا لازمًا وجعله في جوف المسجد (انظر كتاب «المدخل»[1] لابن الحاج و«فتح الباري»[2])، وكيف ما كان الأمر فسنة النبي ﷺ وصاحبيه اللذين قال فيهما: «**اقتدوا باللذين من بعدي**»[3] أولى بالاتباع.

الرابعة: كان المؤذِّن بعد السلام يرفع صوته بأذكار مخصوصة.

استعنت بالله وحده أنا وتلامذتي وأخذنا نزيل تلك البدعَ، واحدةً بعد واحدة، حتى قضينا عليها ولله الحمد، وكان الحاج عبد الحميد لا يتأخر عن مساعدتنا في ذلك. فبدأنا بإزالة القراءة، ثم إزالة ما كان يترنم به المؤذن بعد انتهاء الصلاة، وبقي لنا الأذان الأول والركعتان اللتان تفعلان بعده، فألفت كتابًا سميته «الأنوار المتبعة في سنة الجمعة»[4] وأقمت فيه البرهان على أن صلاة الجمعة ليست لها سنة قبلية، وإنما لها سنة بعدية، ونقلت كلامًا لأبي شامة في كتاب «البدع» له وكلام غيره، فلما عرف الناس ذلك بقراءة ذلك الكتاب وبخطب الجمعة

---

(١) (٢/ ٢٤٥).

(٢) (٢/ ٣٩٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧)، والحميدي (رقم ٤٤٩)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١١)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣٨٢، ٣٨٥، ٤٠٢) وفي «فضائل الصحابة» (رقم ٤٧٨)، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٨٣، ٨٤)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٣٣٦)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٨٠)، والخلال في «السنة» (رقم ٣٣٦)، والبزار (٢٨٢٧، ٢٨٢٨، ٢٨٢٩)، والقطيعي في «جزء الألف دينار» (رقم ١٦٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١١٤٨، ١١٤٩)، والحاكم (٣/ ٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٠٩)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ٢٢٣، ٢٢٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧٧) و«التاريخ» (١٢/ ٢٠) عن حذيفة مرفوعًا، **وإسناده صحيح**.

(٤) الكتاب مطبوع.

المتوالية؛ وكانت كلها من صميم السنة خطبًا تعليمية إرشادية، اتفقتُ مع تلامذتي ومع الحاج عبد الحميد الدهان على إزالة الأذان الأول وبإزالته تزول الركعتان، فأنذرت الحاضرين في المسجد في خطبة الجمعة الأخيرة وقلت لهم: لقد علمتم فيما مضى من خطب يوم الجمعة أن النبي ﷺ لم يكن له إلا مؤذن واحد يؤذن أذانًا واحدًا عند جلوسه على المنبر، حتى إذا فرغ المؤذن من أذانه قام رسول الله ﷺ خطيبًا ولم يقم أحد لصلاة ركعتين، إلا من تأخر حتى شرع الخطيب في الخطبة فهذا يصلي ركعتين خفيفتين تحية المسجد، كما بينته لكم مرارًا وتكرارًا بالأحاديث الصحيحة، وقد عزمنا على ترك الأذان الأول، وبطبيعة الحال تترك الركعتان المترتبتان عليه، فمن شرح الله صدره لقبول الحق فأهلًا وسهلًا به وهنيئًا له، ومن أبى فالمساجد كثيرة، فلما كانت الجمعة التالية دخلت المسجد وذهبت رأسًا، فصعدت المنبر وجلست عليه، فقام أحد تلامذتي وأذن ثم قمت أنا وخطبت، فجعلناهم أمام الأمر الواقع، وانقطع بذلك ما بقي من المخالفات، ولله الحمد.

والحاج عبد الحميد الدهان كان موافقًا لي على إزالة تلك البدع حرصًا منه على عمارة المسجد وازدهاره، ولم يكن يدرك أهمية التمسك بالسنة وترك المحدثات، لأنه تاجر لا يعرف الأدلة الشرعية، ويجيئه المخالفون للسنة فيزينون له البدع، فيبقى متحيِّرًا، ويحل المشكلة بإرضائنا في المسجد وإرضاء خصومنا خارج المسجد بأن يقيم لهم مآدب ويعطيهم الحرية في ارتكاب بدعهم من عمل الموالد وغيرها، ولذلك لم يثبت على العهد، فبعدما برحت أنا بغداد طمع فيه المبتدعون فأقنعوه برد تلك البدع بعدما طُهِّرَ منها المسجد لمدة نحو عشر سنين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

هجوم مدير الأوقاف علينا

لما رأى الفقهاء المتعصِّبون وأصحاب الطرائق المبتدعون نجاح هذا المسجد وازدهاره وقيام دولة التوحيد واتباع السنة شرِقوا بذلك ودبَّروا مكيدة عظيمة، فذهبوا إلى مدير الأوقاف، (والأوقاف في العراق لا يكون لها وزير لأنها كلها من وقف أهل السنة، ولو كانت لها وزارة مستقلة لأمكن أن يكون الوزير شيعيًّا وذلك يخالف شرط الواقف، فكانت مديرية الأوقاف تابعة لمجلس الوزراء)، فذهب المبتدعون إلى مدير الأوقاف، ومعهم مفتي بغداد في ذلك الوقت وقالوا له: لماذا لا تستعمل حقَّك في تعيين الإمام والخطيب في جامع الدهان، وكيف تترك الهلالي ينشر المذهب الوهابي علانية في ذلك المسجد؟! فاستصدر مدير الأوقاف أمرًا ملكيًّا بتعيين شخص إمامًا وخطيبًا في جامع الدهان، فنال مراده.

فلما صدر الأمر الملكي كتب صحيفة إليَّ يقول فيها بعد السلام: إنه صدرت إرادة ملكية لفلانٍ الفلانيِّ أن يكون إمامًا وخطيبًا بجامع الدهان، وقد أخبَرَنَا الإمام أنك لا تمكِّنه من أداء واجبه، فنرجو أن تتخلى عن الإمامة في ذلك المسجد ليتمكَّن الإمام من أداء واجبه. وبعث الصحيفة مكشوفة بلا غلاف إلى الكلية، فسلَّمها إليَّ البواب، ولم تزل تنتقل من يد إلى أخرى والناس يقرؤونها حتى وصلت إلى يدي، فلما فرغتُ من دروسي ورجعتُ إلى بيتي كلَّمني الحاج عبد الحميد الدهان بالهاتف، وقال لي: إن مدير الأوقاف دعاني إلى مكتبه، فلما حضرت عنده تكلَّم بكلامٍ قبيحٍ لا أريد أن أذكره لك. فقلت له: وأنا أيضًا كتب إلي يأمرني بالتخلِّي عن عملي في المسجد، فقال لي: استمر على عملك واترك هذا الأمر لي. فقلت له: وعلى هذا أنا عازمٌ أيضًا.

وقوف فضيلة الأستاذ منير القاضي إِلى جانب الحق

ذهب الحاج عبد الحميد الدَّهان إلى مدير مجلس الوزراء، وأخبره بما قال وفعل مدير الأوقاف، فأخذ التليفون وتكلم مع مدير الأوقاف ووبَّخه توبيخًا شديدًا، فاعتذر له بأن الدكتور الهلالي يبث المذهب الوهابي وله معارضون من أهل السنة، ونخشى أن تحدث فتنة في المسجد، فقال له فضيلة الأستاذ منير القاضي(١): أأنتَ مدير أوقاف أو مدير الأمن العام؟! وزبره زبرًا شديدًا، فحبط عمله وبطلت هذه المكيدة.

والأستاذ منير القاضي يعرفني حق المعرفة؛ فإننا كنا نجتمع في الاحتفالات التي تقيمها وزارة المعارف، فما كان أحد يقوم لصلاة المغرب إلا أنا وهو فكان يقدِّمني فأصلِّي به إمامًا. وفي رمضان لم يكن أحد من الحاضرين يصوم إلا أنا وهو فكنا نفطر جميعًا، وفيما عدا ذلك لم تكن بيني وبينه علاقة.

مكيدة أخرى

ذهب أعداؤنا إلى القصر الملكي وبلغوا خبرًا كاذبًا على سبيل الوشاية، قالوا: إن الهلالي منذ زمان عيِّن إمامًا وخطيبًا في جامع الدهان بدون إرادة ملكية، وطرد الإمام الشرعي، وأعانه على ذلك صاحب المسجد، وهو يبث المذهبَ الوهابيَّ ولا يدعو للملك في خطبة الجمعة، لأنه عدوٌّ للبيتِ الهاشميِّ! فجاءني أحدُ إخواننا وأخبرني بذلك، فقلت له: إن الله الذي خيبهم في الأولى سيخيبهم في الثانية، فبعث الوصيُّ من

(١) هو منير بن خضر بن يوسف القاضي البغدادي (١٨٩٢ ـ ١٩٦٩م)، وهو ممن التقاه الهلالي بجرمانيا، له ترجمة في «الأعلام» (٧/ ٣٠٩).

حضر صلاة الجمعة فوجد الخبر غير صحيح وخاب سعيهم، وكنتُ دائمًا أختم الخطبة الثانية بالألفاظ التالية على عادة المقتصدين غير المتزلِّفين من الخطباء في بغداد فأقول: (اللهم وفق وسدِّد ملك العراق فيصلًا الثاني[1] وولي عهده عبد الإله[2] وسائر ملوك المسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين).

فإن قلت: هذه بدعة كنت ترتكبها مع زعمك أنك تحارب البدع؛ أقول: إنني اجتهدت فرأيت أنني لو لم أفعل ذلك لم أستطع أن أكون إمامًا في صلاة الجمعة ولا مدرسًا وواعظًا في ذلك المسجد، وأن ما يحصل من الخير بنشر التوحيد واتباع السنة يربو على تلك البدعة أضعافًا مضاعفة، على أن الدعاء لشخص معين في خطبة الجمعة لا بأس به، ولكن المداومة عليه فيها ما فيها[3].

(١) هو فيصل بن الحسين الهاشمي (١٨٨٣ ـ ١٩٣٣م)، له ترجمة في «رجال العراق الملكي» (١٣ ـ ١٨) و«الأعلام» (٥/ ١٦٥)، وانظر عنه «ديوان الهلالي» (٥١٣).

(٢) هو عبد الإله بن علي بن الشريف حسين (١٩١٣ ـ ١٩٥٨م)، له ترجمة في «رجال العراق الملكي» (٢٧ ـ ٣٦).

(٣) الهلالي حريص كل الحرص على إصابة السنة في شؤونه كلها، بما في ذلك خطبة الجمعة، وكان يحضر لها على وجه جيد، ويخبر بعض تلاميذه ـ كالشيخين: عبد الرحمٰن بن الحبيب شطو وعثمان محمد أحمد ـ أن الهلالي بعد أن أضر (فقد بصره)، كان شطو يكتب له الخطبة بأمر منه، ثم يقرؤها على الشيخ، ويكتبها الشيخ بطريقة بريل، ثم يراجعها قبل أن يصعد المنبر، ويلقيها على المستمعين غيبًا.

وكان «الترغيب والترهيب» للمنذري و«رياض الصالحين» للنووي هما المرجعان الذي يكثر الهلالي مراجعتهما عند تحضيره للخطبة، وكان الهلالي في صلاته ـ وهي في العادة طويلة ـ يوم الجمعة يقرأ سورتي الجمعة والمنافقون، أو الأعلى والغاشية اتباعًا للسنة، ووضح هذا في مقالة له بعنوان (ما يُقرأ في =

= صلاة الجمعة)، وهي منشورة في مجلة «الفتح» العدد (٥٦٢) (ص٥).
وأما بالنسبة إلى الدعاء للسلطان أو أولياء الأمور على المنبر؛ فهو على قسمين:
القسم الأول: أن يدعو له مطلقًا دون تقييد بخطبة أو نحوها، وهذا القسم من اعتقاد أهل السنة والجماعة، فهم يرون أن طاعة ولاة الأمر بالمعروف فريضة ما لم يأمروا بمعصية، والدعاء لهم بالصلاح والتوفيق للخير والسداد، قال الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونرى طاعتهم من طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ فريضة ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة...). (شرح الطحاوية ص٣٦٤)، وقال أبو محمد الحسن بن علي البربهاري: (وإذا رأيت الرجل يدعو على السلطان فاعلم أنه صاحب هوى، وإذا رأيت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله). (شرح السنة للبربهاري ص١١٦)، وكلام أهل السنة والجماعة في الدعاء للخليفة والسلطان معلوم وموجود في كتبهم.
القسم الثاني: أن يدعو له حال الخطبة، وفي هذا اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ على ثلاثة آراء:
الرأي الأول: وهم الذين منعوا الدعاء للسلطان أثناء الخطبة دون غيرها، وقالوا: إن هذا محدث لا أصل له، وممن قال بذلك: عطاء كما روى الشافعي بسنده عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: ما الذي أرى الناس يدعون به في الخطبة يومئذ؟ أبلغك عن النبي ﷺ أو عن من بعد النبي ﷺ؟ قال: لا؛ إنما أُحدث، إنما كانت الخطبة تذكيرًا. (الأم للشافعي ج١ ص١٨٠)، وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن دعا لأحد بعينه أو على أحد كرهته ولم تكن عليه إعادة). (الأم للشافعي ج١ ص١٨١)، وقال البغوي: (ولا يستحب الدعاء للوالي على التخصيص في الخطبة، سئل عطاء عن ذلك فقال: إنه محدث إنما كانت الخطبة تذكيرًا). (الشرح الكبير ج٥ ص٢٤٣)، وقال الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية: (وها هنا مسألة بحث، وهي الدعاء للسلطان وتسميته في الخطبة، والمعول عليه منذ سنين أنه وإن كان مباحًا أصله لكن له شرط، فتركه أولى). (فتاوى ورسائل للشيخ محمد بن إبراهيم ج٣ ص٢١).
الرأي الثاني: منعوا من وصف السلطان أثناء الخطبة والدعاء له، ولم يمنعوا مجرد الدعاء المقتصد الخالي من المجازفة في الوصف والثناء، قال النووي =

أخذ الأجرة على صلاة الجمعة

في الجمعة الثانية التي صلَّيتُها إمامًا وخطيبًا في جامع الدَّهان دعاني الحاج عبد الحميد الدهان إلى الطعام بعد صلاة الجمعة، وقال لي: أنا

= في «المجموع»: (ويكره المجازفة في أوصاف السلاطين في الدعاء لهم وكذبهم في كثير من ذلك، كقولهم: السلطان العالم العادل ونحوه). (المجموع ج٤ ص٣٥٩)، وذهب الشيخ عبد الله أبو بطين إلى المنع من المجازفة في وصف السلطان فقال: (إنما يُدعا له لا يُمدح لا سيما بما ليس فيه). (الدرر السنية ج٥ ص٤١)، وقال الشيخ محمد رشيد رضا: (وكذلك الدعاء لولي أمر المسلمين، فهو ليس من أركان الخطبة ولا من سننها، ويراعى فيه أن لا يكون متضمنًا لمنكر، كإقرار الظلم أو الفسق ومدح أهلهما، ولا لألفاظ من الإطراء في المدح والتعظيم الذي لا يليق أن يوجه إلا لله تعالى). (مجلة المنار ج٣١ ص٥٥).

الرأي الثالث: قالوا الإذن في الدعاء للسلطان أثناء الخطبة، غير أنهم اختلفوا في عباراتهم حول هذه المسألة، فمنهم من عبر بالاستحسان، ومنهم من قال أنه يسن، ومنهم من قال إنه جائز، ومنهم من قال إنه واجب. وجاء في الفتوى عن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ما نصه: (الأفضل إذا دعا الخطيب أن يعم بدعوته حكام المسلمين ورعيتهم، وإذا خص إمام بلاده بالدعاء بالهداية والتوفيق فذلك حسن، لما في ذلك من المصلحة العامة للمسلمين إذا أجاب الله الدعاء). (فتاوى اللجنة الدائمة ج٨ ص٢٣٢). وسُئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء برئاسة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما نصه: «هل يصح للخطيب أن يمدح سلطان بلده أثناء الخطبة»؟ فأجابت اللجنة بما نصه: (الأصل في خطبة الجمعة تعليم أمور دينهم ووعظهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتوجيههم إلى ما فيه مصلحتهم في الدنيا والآخرة، ولكن إذا دعت الحاجة إلى ذكر ما فيه من محاسن الإسلام درءًا لفتنة الخروج عليه وترغيبًا للناس في موالاته ولزوم الجماعة، وتشجيعًا له على فعل الخير، فلا حرج في ذلك بل هو حسن، لعظم المصلحة في ذلك... وبالله التوفيق)، (فتاوى اللجنة الدائمة ج٨ ص٢٣٤).

انظر «محمد تقي الدين الهلالي وجهوده في الدعوة إلى الله» (٣٤٢ ـ ٣٤٣).

مسرور جدًّا بما وقع من الإقبال على الصلاة في مسجدي بسبب خُطبتك ونريد أن نتفق الآن على الراتب، فقلت له: إن أردت أن يطَّرد نجاح المسجد فلا تفكِّر في الراتب[1]، فأنا لا آخذ أجرًا على الصلاة أبدًا. فألحَّ، فثبتُّ على الامتناع عن قبول أي شيء فقال: نجعله هدية، فقلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

فبعث إليّ بعد ذلك جماعةً يشفعون عندي في قبول الراتب فرفضتُ، ولم آخذ شيئًا طول تلك المدة، إلا أنني اقترضتُ منه دنانير مرَّتين فرددتُها له.

ملاحقة الاستعمار الإِنكليزي لمؤلِّف هذا الكتاب

كان السفير الإنكليزي في تطوان قد تعاون مع الإسبانيين في منعي من الرجوع إلى برلين، وكان قد احتجَّ على الإسبانيين بسبب المقالات التي كنتُ أنشرها في صحيفة «الحرية» لسان حزب الإصلاح الوطني، وتقدَّم ذكر ما جرى بيني وبين نائبه في تطوان، وكنتُ أظنُّ أن محاربته لي لا تعدو حدود تطوان، وإذا به يلاحقني إلى بغداد؛ فقد كتب إلى السفارة الإنكليزية في بغداد وأخبرها بحالي وحذَّرها مني، فأوعزت إلى مطاياها من العراقيين أن يحاربوني.

ومما دلَّ على ذلك أن السفارة التونسية في بغداد أقامت احتفالًا فدعتني إليه، فالتقيت هناك بصديقي الدكتور عبد الكريم كنونه، وهو رفيق

(١) للهلالي في هذا رأيٌ صائب، وتكرر منه في هذا الكتاب في عدة مواقف، وبيَّن أن طمع الداعية بما في أيدي الناس (يفسد الدعوة أو ينقضها)، انظر «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٩٧).
والطريقة التي سلكها في هذا فيها اتباع لجميع الأنبياء والمرسلين.

لي في الدراسة في جامعة بون بألمانيا[١] فأقبل عليه السفير الإنكليزي في بغداد، فقال له: أعرفك بالدكتور محمد تقي الدين الهلالي، وأخذ يثني علي، فلم يهش ولم يبش ولم يرحِّب، بل قال له بالإنكليزية ما معناه: أنا أعرفه جدًّا مع أني ما رأيتُه قبل ذلك اليوم[٢]!

ولما ذهبت إلى التحقيقات الجنائية ـ وهو اسم دائرة الشرطة السرية ـ وطلبتُ إعطائي جواز سفر مُنِعت من ذلك بدون بيان السبب، واستمررت على ذلك ثلاث سنين، في كل صيف أتردد على تلك الدائرة مرارًا وتكرارًا ثم أرجع بُخفَّي حُنَين، حتى رقَّ قلب الموظف المختصِّ

(١) كتب الهلالي للمجذوب: «حصلت على شهادة من جامعة القرويين، عادلتها جامعة بون مع تزكية أساتذتها بالشهادة الثانوية، وبها استطعتُ أن أكون طالبًا في جامعة بون».
ولم يدرس الهلالي في القرويين دراسة نظامية، وإنما كان يحضر مجالس الشيوخ فيها، وخاصة شيخه ابن العربي العلوي، والشهادة يشبه أن تكون تزكية أو ما يساويها، لأن ابن العربي العلوي كان أحد أساطين القرويين، فلعله سعى له فيما يشبه الشهادة الرسمية، أفاده بوخبزة.

(٢) قال الهلالي في «الديوان» (١٠٨) لما ذكر زعزعة النفوذ الإنجليزي في العراق: «وقعت مظاهرات في بغداد قُتل فيها أربعون رجلًا، واستفحلت الثورة؛ فهرب رئيس الوزراء صالح جبر وزميله نوري السعيد، وشُكِّلَتْ وزارة شعبية وطنية برئاسة السيد محمد الصدر؛ فزالت العقبة التي وضعها الإنكليز وأذنابه في طريق عملي بالكلية العراقية، ولكن كان الموظفون الكبار كمدير التحقيقات الجنائية ومدير الشرطة العام ومَن إليهما من المتأثِّرين بالسياسة الاستعمارية؛ بقيتُ محرومًا من جواز السفر مدَّة ثلاث سنين، التزمتُ فيها الحياد، ولم أكتب فيه شيئًا في انتقاد الاستعمار البريطاني، فكان ذلك سبب انفراج الأزمة، وقد أشار عليَّ ذلك نقيب المحامين المذكور بعد ما عرف من محادثته مع رئيس مكتب العلاقات الإنكليزية أن الجهاز الإنكليزي لا يزال حاقدًا عليَّ».

ورحمني، وقال لي: أيها الأستاذ إن منع إعطائك جواز السفر ليس بأيدينا، بل هو في يد مَنْ فوقنا، فلا تتعب نفسك بكثرة التردد[١].

---

(١) فصَّل الهلالي في حادثة منعه من جواز السفر في محاولته الأولى، فقال في كتابه «تقويم اللسانين» (ص٢٢ ـ ٢٣):

«وأغرب من ذلك أني لما أردت التجنس بالجنسية العراقية سنة **١٩٣٤** قدمت طلبًا إلى الدوائر المختصة في البصرة، فبقيت الأوراق تنتقل من دائرة إلى دائرة مدة شهرين، ثم بُعثت إلى بغداد العاصمة، فسافرت لأتعقبها إلى بغداد، وبقيت شهرين أستنجد وأتشفع حتى وصلت الأوراق إلى يد مدير وزارة الداخلية، فأخذ جواز سفري يتأمله وأنا واقف أمامه، وإلى جانبي الأستاذ كمال الدين الطائي من كبار علماء بغداد تفضل بمرافقتي ليعينني ويشفع لي، فقال المدير بفظاظة: ما هي جنسيتك؟ فقلت: مغربي، فاستشاط غضبًا وقال: (جنسية هتشي ماكو) يعني: لا توجد جنسية هكذا، قل: فرنسي، فقلت بل هي موجودة، فانظر ما هو مكتوب على الجواز باللغة الفرنسية (أمبير شريفيان) أي: الدولة الشريفية.

فلم يقتنع بذلك، فقلت له: هل كنت أنت إنكليزيًّا قبل سنتين؟ أي: قبل المعاهدة الأخيرة بين العراق وإنكلترا؟ فقال لي: (إحنا كنا عثمانيين، ومن بعد صرنا عراقيين) فقلت له أنا: (ونحن دولة مغربية منذ ما يزيد على ألف سنة، منذ أسس الإمام إدريس بن عبد الله الدولة المغربية واستقلَّت عن الدولة العباسية)، فجذبني الأستاذ كمال الدين من ثيابي وقال لي: دع هذه القضية، فسأتعقبها أنا، لأنه رأى أن القضية قد دخلت في طور خطير بالجدال مع مدير الداخلية.

فكتب ذلك المدير على أوراقي: الطلب مرفوض، وبذلك أحبط لي عمل أربعة أشهر، ولكن الله ﷻ رحم ضعفي وغربتي، فسقطت تلك الوزارة، وكانت إحدى وزارات جميل المدفعي، ولم تلبث في الحكم إلا اثني عشر يومًا، ولا توجد فيما أعلم وزارة عراقية تماثلها في قصر العمر.

وجاءت بعدها وزارة علي جودة الأيوبي فأعدت الطلب وحصلت على الجنسية في ثلاثة أيام بمساعدة النبيل الشهم عارف قفطان العاني، وكان صديقًا حميمًا لعلي جودة الأيوبي. =

واتفق أنني أطلعتُ أحد الإخوان على هذه القضية، فقال لي: حلُّ هذه المشكلة يسير بالنسبة إليك ولكنك لا تعرف طريقَ حلها، فقلت: أفدني يرحمك الله. فقال: إن مدير الشرطة العام هو ابن عم صديقك الحاج محسوب، والحاج محسوب هو كبير هذه العشيرة، ومدير الشرطة العام لا يعصي له أمرًا، فعليكَ به.

فذهبتُ إلى الحاج محسوب، وأخبرته، فقال لي: غدًا صباحًا نلتقي عند باب جامع الإمام الأعظم. فالتقينا وركبنا سيارة، فلما وصلنا إلى باب مديرية الشرطة العامة إذا بالمدير خارج، فكلَّمه الحاج محسوب وقال له: إليك جئنا، فقال: يا حاجي! أمهلني ساعة فإن عندي أمرًا مهمًّا لا يمكن تأخيره، وبعد ساعة أكون في المكتب، وبعد مضي الساعة دخل عليه الحاج محسوب فلبث عنده نحو نصف ساعة وخرج بكتاب معنون إلى مدير التحقيقات الجنائية ومختوم على غلافه ومكتوب عليه: (سري).

فأخبرني الحاج محسوب أنه عاتبه في منعي من جواز السفر ثلاث

= وفي سنة ١٣٤١هـ حججت الحجة الأولى، ووقع خصام بيني وبين صاحب حانوت بمكة، فعيَّرني وزعم أني فرنسي، فقلت له: أنت إنكليزي، فنحن في البلية سواء، وكان في زمان الشريف حسين بن علي». اهـ.

ومن الجدير بالذكر أن تجنس الهلالي بالجنسية العراقية إنما كان من أجل رفع متابعة الفرنسيين له.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإسلام يكافح الاستعمار في بلاد المغرب» (٣٦١): «كنتُ في كل مكان أذكر جرائم الحكم الفرنسي والاستيلاء الفرنسي على المغرب، ولكنني لم أبدأ بنشر ذلك في الصحف إلا في سنة ١٣٤٩ من الهجرة (١٩٣١ ميلادي)، واستمررت على ذلك إلى سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٤ ميلادي)، فأحسستُ بأن الفرنسيين ممتعضون مني، وصاروا يُسيئون معاملتي عند تجديد جواز السفر، فتجنَّسْتُ بالجنسية العراقية، ولقيتُ صعوبة كبيرة في هذا التجنس».

سنين، فقال له: إن صاحبَك هذا اشتراكي. (وفي ذلك الزمان كانت بدعة الاشتراكية لا وجود لها في البلاد العربية ولا يفكِّر فيها أحد، وإنما تكلم بشيء لا يعرفه). قال الحاج محسوب: فقلت له: أقسم لك بكل عزيز عليَّ أن هذا كَذِبٌ وافتراء، فإن هذا الرجل يعظ في مسجدي منذ ثلاث سنين وما عنده إلا قال الله وقال رسوله، وإنْ شئتَ أتيتُك بأربعين من سُكَّان الأعظمية يشهدون بما ذكرت، قال: فكتب لي هذا الكتاب إلى مدير التحقيقات الجنائية يأمره أن يعطيك جواز السفر في الحال، وأراد أن يبعثه مع شرطي، قال: فقلت له: والله ما يأخذه أحد غيري، فقال: يا حاج! هذا سري، قلت له: ليكن سريًّا أو علانيًّا لا يأخذه غيري، فسلَّمني الكتاب، وقال: اذهب به إلى مدير التحقيقات.

فذهبتُ إليه واستأذنتُ عليه شرطيًّا كان واقفًا ببابه، فقال له: قل له: إنَّ قضيته لم تنته بعد. فقلت للشُّرَطي: قل له: جئتُ بكتابٍ من مدير الشرطة العام ولا أسلِّمه إلا يدًا بيد. فأذن لي، فسلَّمتُه الكتاب، فلما رآه مختومًا بختم سيده ورأى عليه كلمة سري قام وقرأه قائمًا وأبدى لي بشاشةً وترحيبًا لم أره من قبل ذلك، ودعا بشرطي وقال له: رافق الدكتور إلى المكاتب المختصَّة ومُرهم أن يهيئوا أوراقه في الحين. فانحلَّت هذه المشكلة[1]!!

الانقلاب

في أوائل سنة (١٩٥٨) قام عبد السلام عارف[2] وعبد الكريم

(١) ثم صدر الجواز في بغداد بتأريخ ١٢/ ٦/ ١٩٥٢م برقم (١٢٦٧)، ومنه مصورة في الملاحق المرفقة آخر الكتاب (نموذج رقم ٧).

(٢) عبد السلام (أو محمد عبد السلام) ابن محمد عارف: ثاني رئيس للجمهورية =

قاسم[1] بالانقلاب المشهور والذي قُتل فيه الملك فيصل

= العراقية، ولد سنة ١٣٣٩هـ ـ ١٩٢١م في بغداد من بيت تجاري، ودخل الجيش سنة ١٩٣٨، وعمل ضابطًا في وحدات المدرعات (١٩٣٩)، وحضر معركة جنين يوم نكبة فلسطين (١٩٤٨)، وتخرج بكلية الأركان (١٩٥١)، وألحق بالقطعات البريطانية في ألمانيا الغربية (٥٦)، ثم كان معاونًا للقائد العام للقوات المسلحة في العراق (٥٨) بعد مشاركة في ثورة ١٤ تموز من السنة نفسها.

واختلف مع عبد الكريم قاسم (أول رئيس للجمهورية) فحوكم، وحكم عليه بالإعدام (٥٩)، وسجن سنتين وثلاثة أشهر، وأُطلق، وبرز في ثورة ١٤ رمضان ١٣٨٢ (٨ فبراير ١٩٦٣)؛ فانتخبه مجلس الثورة رئيسًا للجمهورية العراقية بعد القضاء على عبد الكريم قاسم، في اليوم نفسه، وحكم العراق ثلاثة أعوام وشهرين، على غير استقرار بسبب استمرار الثورة الكردية والخلاف بينه وبين حزب البعث.

واتفق مع جمال عبد الناصر على الوحدة بين مصر والعراق (٢٦ أيار و١٦ أيلول ١٩٦٤)، ولم يصنعا شيئًا!

وكان إسلاميّ النزعة، حسن السيرة، يوصف بالورع، لا يشرب الخمر، ولا يتعمد الظلم، وبينما هو في الدار البيضاء (بالمغرب) يحضر مؤتمر القمة العربي (أيلول ١٩٦٥)، وثب رئيس وزرائه في بغداد (عارف عبد الرزاق) على الحكم، وتصدى له اللواء عبد الرحمٰن عارف (شقيق صاحب الترجمة)؛ فقمع فتنته، وبينما عبد السلام آيب من زيارة لإقليم البصرة على طائرة هليكوبتر ركبها من «القرنة» احترقت به الطائرة، واختلفت الأقاويل فيها: احترقت أم أُحرقت؟ له «مذكرات» نشرت بعد وفاته، ومات سنة ١٣٨٥هـ يوافق ١٩٦٦م، رحمه الله تعالى.

ولعبد السلام نزعة سلفية، وكان قد تتلمذ على الهلالي، كما سيأتي.

(١) ثائر عراقي، قضى على البيت الهاشمي والنظام الملكي في العراق، وحكم البلاد أربع سنوات و٧ أشهر و٢٥ يومًا (١٤ يوليه ١٩٥٨ ـ ٩ فبراير ١٩٦٣)، وبالتأريخ الهجري ٤ سنوات و٨ أشهر و٢٠ يومًا (٢٦ ذي الحجة ١٣٧٧هـ ـ ١٤ رمضان ١٣٨٢هـ)، مولده ومصرعه بغداد، كان من القادة العسكريين (ومن أركان الحرب)، تعلم بالعراق، وأمضى ستة أشهر في إحدى المدارس =

الثاني[1] والوصي عبد الإله[2] وسائرُ أهل بيتهما إلا امرأة واحدة وقُتل فيه نوري السعيد[3].

وظن أهل العراق كلهم أن هذا الانقلاب سيأتيهم بخيرٍ عميمٍ

= العسكرية البريطانية، وكان من الضباط في حرب فلسطين. وثار مع بعض قواد الجيش العراقي (١٤ يوليه ١٩٥٨م)؛ فقتل آخر ملوك الهاشميين في بغداد (فيصل بن غازي)، وبعض أقاربه ووزرائه، وأقام النظام الجمهوري، وجعل نفسه رئيسًا لمجلس الوزراء، وقائدًا عامًّا للقوات المسلحة، ونصب محكمة عسكرية باسم (محكمة الشعب)، كانت مهزلة العصر، وجُمع ما دار فيها من مزاولات في كتاب «محكمة الشعب» مطبوع في (١٧) مجلدًا، اتهمت الكثيرين ممن دعتهم: (المتآمرين على سلامة الوطن)، وفيهم كثير من خيار القوم، وقضت عليهم بأحكام منها الإعدام، ولكن عبد الكريم أبى أن يعدم أحدًا منهم، وكان ممن شملهم هذا الحكم (عبد السلام عارف)، وأطلق بعد أن سجن قرابة أربع سنوات، وتعددت المؤامرات على عبد الكريم لقتله؛ ففتك بكثير من القائمين بها، وكان عزبًا، فجعل إقامته في مقر وزارة الدفاع، وأكثر من الاحتياط لنفسه، وحصر زعماء الدولة في شخصه، فكان لا ينام أكثر من ثلاث ساعات في اليوم، فانهارت أعصابه، وتعرضت المصالح للفوضى.
وكان حادّ الذكاء مع اضطراب وهوج في تصرفه وعقله، شعلة نشاط، ولكن على غير اتزان، خيّرًا في دخيلة نفسه، كريمًا في مساعدة الأعمال الوطنية، كثورة الجزائر، وقضية فلسطين، إلا أنه خبط في إدارة بلاده خبط عشواء؛ فقام بعض شباب الجيش وقوة الطيران فأمطروا وزارة الدفاع ـ وهي في وسط بغداد ـ بالقنابل لقتله، فخرج على رأس قوة عسكرية تقارب ألف جندي مع ضباطها، وقاتلهم رجال المصفحات في شوارع المدينة، وقبض عليه حيًّا بعد أن سقط حوله أكثر من ألف قتيل من رجاله ومن مهاجميه، وأعدم رميًا بالرصاص يوم ٨ شباط ١٩٦٣م متهمًا بالعمالة والجاسوسية. انظر «مذكرات عبد الكريم قاسم»، «الأعلام» للزركلي (٤/ ٥٤ ـ ٥٥).

(١) مضت ترجمته. (٢) مضت ترجمته.

(٣) انظر عنه: «ديوان الهلالي» (١٠٧ ـ ١٠٨) وتعليقي عليه، «رجال العراق الملكي» (١٤٧ ـ ١٤٨).

ويقضي على النفوذ الاستعماري، وحينئذٍ تفتح لهم أبواب البركات من السماء والأرض، إلا أنه بمضي الأيام ظهر لهم خطأ ظنهم، لأن العهد الملكي كان عهد استقرار ورخاء وكان خيرُه أكثرَ من شرِّه بالنسبة إلى الخاصَّة والعامة.

والرئيس عبد السلام عارف هو من أخص إخواننا السلفيين، وهو وفرقته قاموا بالانقلاب ولم يشاركهم عبد الكريم قاسم إلا بموافقته، وقد أخطأ رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك الانقلاب، وكان أول مَنْ صلي بناره؛ فقد حكم عليه بالقتل وسُجن سنين وعُذِّب، ثم أسعده الحظ حتى تمكن من قتل عدوه في أواخر الأمر وشريكه في أوله، واستولى على الحكم، فكتب إليَّ بخط يده[1] وأنا في المغرب يقول: نحن تلامذتك ونحن سائرون على الخطة التي اقتبسناها من دروسك وأبواب العراق مفتحة في وجهك، فأقِبلْ إلينا. فشكرته على ذلك ولم أقبل دعوته، وما أدري كيف شعر بذلك أخونا السلفي الأستاذ محمود مهدي الإسطنبولي[2] فكتب إليَّ

---

(١) حاولت الوقوف على المراسلات المتبَادلة بين الهلالي والرئيس عبد السلام عارف، والتقيت بولد أخيه عبد الرحمن، وأخبرني بأن والده (أخو عبد السلام) مريض، وأن ذاكرته ليست بذاك. ثم نُمي إليَّ خبر وفاته في الأردن، رحم الله الجميع.

وانظر كتابي «مراسلات الهلالي» (١/ ٣٩، ٧٤، ٧٥، ٧٦) و(٣/ ١١٢١).

(٢) كاتب وباحث من العاملين في التربية، ولد في دمشق، زرته في بيته بجدة، ورأيته مهتمًّا بالعلوم الشرعية، وعلم الحديث، وعمل في المجالات التربوية؛ فكان مديرًا لبعض مدارس الصغار، له «حواء بين الفلاسفة»، «حول تأسيس الأخلاق»، «الاشتراكية الإسلامية»، «نقد تقارير ساطع الحصري عن التربية في سورية»، «عبقرية الإسلام في التربية»، «عظمة الإسلام»، «أنا مؤمن بالله، لماذا؟»، «مذكرات تلميذ»، «التربية الجنسية على المكشوف»، «المنهج الإسلامي الجديد في التربية»، «دمشق المريضة»، «نقائص الأطفال وطريقة =

يقول: علمتُ أن عبد السلام عارف من تلامذتك، وهذه فرصة لا تضاع، فهلم نسعى في عمل شيء ينفع الإسلام والمسلمين. فاعتذرت له ولم ينشرح صدري لذلك، لأني لم أتوقع نجاحًا.

ولما استولى عبد الكريم قاسم وأبعد عبد السلام عارف أولًا ثم سجنه ثانيًا، أطلق العنان للشيوعيين يقتلون من شاءوا ويسجنون من شاءوا ويسحلون من شاءوا، (والسحل هو وضع حبل في عنق الرجل وجره به على وجهه إلى أن يموت)، وعاث الشيوعيون في بلاد العراق فسادًا، فعمَّ الخوف والفزع ولم يبق أحدٌ مطمئنًّا على نفسه.

ووقعت حوادث فظيعة معلومة لا نطيل بذكرها، ولكن على سبيل المثال أذكر حادثًا أو حادثين: أخبرني أخونا السلفي الصالح الدكتور وجيه زين العابدين[1] أنه كان نائمًا في فراشه وبعد منتصف الليل بساعة ونصف سمع طرقًا شديدًا على الباب، قال: ففتحت الباب وإذا ثلاثة من الشيوعيين دخلوا عليَّ بدون استئذان، وفتَّشوا البيت، ثم قبضوا عليّ وتركوا والدي وزوجتي وأولادي يبكون، وحملوني في سيارة إلى غرفة

= إصلاحها»، «دولة الإسلام»، «مدارس رياض الأطفال»، «جريمة مدارسنا»، «كيف نربي أطفالنا»، «السبيل إلى أسرة أفضل»، «مذكرات عن الحج»، «تحفة العروس».

توفي سنة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م؛ ترجمته في «معجم المؤلفين السوريين» (٢٩)، «إتمام الأعلام» (٤٣٣).

وظفرت في أواخر رمضان سنة ١٤٢٥هـ ببعض رسائل بخطه للهلالي، ثم عثرت في كتاب الهلالي «العيون الزلالية» (ق ١٠٣ ـ ١٠٥، ٢٣٨، ١٦٧ ـ ١٦٨) على رسائل وجهها الهلالي له في سنتي ١٣٨٦، ١٣٨٨، وتواصلت مع نجل الشيخ محمود (براء الحاج حسين)، وانظر كتابي «مراسلات الهلالي» (١٧٢٨/٤ ـ الفهارس).

(١) مضت ترجمته.

من غرف التوقيف كما يسمُّونه، فأدخلوني فيها وأغلقوا الباب، وفي أثناء الطريق قالوا لي: صَدَق مَنْ قال: إنك تبغض الزعيم عبد الكريم قاسم، فقد فتَّشنا بيتك كله وما وجدنا فيه صورةً للزعيم! قال: فقلت لهم: هل بعثكم من فوقكم لتحاكموني أو لتقبضوا عليَّ وتقدِّموني إلى غيركم ليحكم عليّ؟ قال: فوجدت في تلك الغرفة ثمانين رجلًا كل واحد منهم ملتف بكساء يقيه البرد وهم قعود ولا مجال للاضطجاع، قال: فقعدتُ معهم، فلما أصبح الصباح وجاء وقت الضُّحى جاءني شرطي فدعاني إلى مكتب المعاون، قال: فسلَّمت عليه، فلم يرد عليّ بل قال لي: أنت بعثي؟ قال: فقلت: أنا مسلم. فقال لي: لماذا تكونون شجعانًا حتى إذا وقعتم في يد العدالة تجبنون؟ قال: فقلت له: أنا لا أجبن ولا أبالي بك ولا برئيسك عبد الكريم قاسم! أتعرف من هو رئيس حزب البعث؟ قال: لا. قلت: هو مشيل عفلق، فكيف أكون مسلمًا ويكون رئيسي مشيل عفلق وهو نصراني؟! فلو كنت تعرف ما هو الإسلام لم تتهمني بالبعثية بعدما قلت لك: أنا مسلم، قال: وكان ذلك المعاون من خيار المعاونين، فناولني مقالًا مكتوبًا بخط يدي وعنوانه: مضار الخمر، وقال لي: أنتَ كتبت هذا المقال؟ قال: فقلت: نعم. فقال لي: اقرأه. فقلت له: أنا كتبته بيدي وأعرفه فاقرأه أنت لتعرفه، قال: فقرأه فلم ينكر منه شيئًا، قال: فقال لي: أنتَ مظلوم، صدر الأمر بالقبض على صاحب «الصحيفة» التي كتبتَ لها هذا المقال فوجدوا بين أوراقه هذا المقال موقَّعًا باسمك فقبضوا عليك. قال: وكتب أمامي كتابًا إلى من فوقه وقال فيه: إنني أجريت تحقيقًا دقيقًا مع الدكتور فلان فوجدته بريئًا وهو يحبُّ الزعيمَ، فأرجو الأمر بإطلاق سراحه، قال: فبقيت أربعة أيام ثم أطلق سراحي.

ولا نطيل بذكر الحوادث المؤلمة فإن ذكرها أيضًا يؤلم، وفي ذات

يوم بعد ما صليت الجمعة إمامًا في جامع الدَّهان جاءني أحد المصلين فأسر إليّ أن ابنه سمع معلمًا شيوعيًّا في ثانوية الأعظمية يقول: يزعمون أن حكومتنا ليست ديموقراطية وما عندها حرية، وهذا باطل؛ فأي حرية أعظم من أن تترك محمدًا تقي الدين الهلالي يسبُّها في كلِّ جمعة على المنبر ولم تتعرض له بسوء؟! فقلتُ له: وهل سمعتني أسبُّ الحكومة في خُطبة من الخطب؟ فقال لي: إنما أردتُ أن أبلغك الخبر؛ لتكون على حذر.

وكان خطباء الجمعة في ذلك الزمان أصنافًا: منهم من يمدح حكومة عبد الكريم قاسم في خطبه، ويطريها غاية الإطراء، كما كانوا يفعلون مع الحكومة الملكية، ومنهم من يقتصد في ذلك، ومنهم من يقتصر على الدُّعاء لها، وأنا لم أكن أذكرها أصلًا لا بخير ولا بشر، لكن كان بعضُ المتهوِّسين من تلامذتي يحاولون أن يلقوا كلمات بعد خطبة الجمعة في انتقاد الحكومة، فكنتُ أمنعهم خوفًا من العواقب الوخيمة على المسجد وأهله، وكان عشرات من الشيوعيين يقفون أمام المسجد وقت الخطبة ويكتبون ما تضمَّنَتْه خطبةُ الجمعة ويبلغونه الرؤساء، وكان رجالُ المباحث في كلِّ جمعة يدعون بعض المصلِّين ويسألونهم عن الخطبة وعن صاحبها.

وفي ذات جمعة دعوتُ الناس إلى أن يجمعوا تبرعات للمجاهدين في الجزائر، وقلتُ لهم: كلُّ متبرِّع يعد ما يتبرع به، وسيأتي في الجمعة التالية ممثل الجزائر السيد محمد الروابحية ويتسلَّم التبرعات. فاهتم بذلك رجال المباحث ولكنهم اقتصروا على استنطاق المصلين، ولم يتعرضوا لنا بسوء.

وتعطَّلت دروس الوعظ في المسجد لأن تلامذتي صاروا يخافون

الشيوعيين أن يفْتُكوا بهم، وذهبتُ أنا إلى الأستاذ الحاج حمدي الأعظمي[1] وهو أكبر عالم حنفي في ذلك الزمان ببغداد، وكان إمامًا وخطيبًا في مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني المبني على قبره، فقلت له: ما تقول في خطبتك بالنسبة إلى رجال الحكومة؟ فقال: أدعو لهم بالتوفيق والتسديد وأن يعينهم الله على ما فيه الخير لهذا الوطن، فمنذ ذلك أخذت أدعو أنا أيضًا لهم بمثل ذلك في الخطبة الثانية خوفًا من شرِّهم.

وعزمتُ على السَّعي في الخروج من العراق ولكن ذلك لم يكن أمرًا هينًا، فكتبتُ إلى رئيس مستشفى العيون الأستاذ (مولر) أن يأمرني بالسفر إلى ألمانيا ليفحص عيني ففعل، وقدَّمتُ طلبًا لرئاسة الصحة وأطلعتُها على كتاب الطبيب الألماني، فعيَّنتْ ثلاثةً من الأطباء للتَّحقيق في القضية فناقشوني الحساب ولم يأذنوا لي إلا بعد اللتيا والتي. وكان العراقيون ممنوعين من السفر إلا لغرض فيه خدمة للحكومة أو لعلاج مرض يعجز عنه أطباء العراق، ثم لا يمكن السَّماح بالسَّفر إلا لمن كانت صحيفتُه بيضاء بالنسبة إلى رجال الثورة، فقدَّمتُ الطَّلبَ للحصول على الإذن بالسَّفر ومعه موافقة رئاسة الصِّحَّة، وبقيتُ أنتظر الجوابَ خمسين يومًا حتى درسوا كلَّ ما تحتويه محفظة أوراقي التي كتب فيها كل ما يُنسب إليّ، وفي نهاية المطاف أعطيتُ جواز السفر ولم أصدق أنني تخلَّصت من أظافرهم إلا بعد وصولي إلى مطار بيروت.

وكان جواز سفري محصورًا في (بن)، فلما وصلتُها دخلت المستشفى وأنفقت فيه ثلث ما عندي لأُرِي السفارة العراقية أنني صادق

(١) هو حمدي بن الملا عبد الله بن محمد العُبيدي الأعظمي (١٨٨٢ ـ ١٩٧١)، ترجمته في «معجم المؤلفين العراقيين» (١/ ٣٧٢)، مجلة «المجمع العلمي العراقي» (مجلد ٢١) (ص١٤٨).

في دعواي، كان ذلك خطأ لأنني لما توجَّهت إلى السفارة العراقية في (بن) وجدت القائم بالأعمال شابًّا طيبًا أبوه مِنْ أعزِّ أصدقائي، وقال لي: أنا مستعدٌّ أن أضيف إلى جوازك إذنًا بالسفر إلى أي بلد تريده ولو إلى مصر، وكان السفر إلى مصر في ذلك الزمان من أعظم الجرائم، وفي أول الثورة كانت صورة جمال عبد الناصر أحسن حلية لكل مكان، تراها في الأمكنة الخاصة والعامة أينما سرت في بغداد، ثم مزّقت كلَّ ممزق، وصار كلُّ مَنْ توجد عنده يستحقُّ العقاب الشديد، وبعد ذلك سافرت إلى المغرب.

الدعوة إلى الله في الدورة

أول حجة حججتها كانت سنة ١٣٤١ على عهد الملك حسين بن علي، ورافقني إلى الحج بعض إخواننا السلفيين من أهل الريرمون، وكان السفر من مكة إلى المدينة فيه مخاطرة عظيمة بالنفس والمال، فكانت قبائل البدو تتحكم في الحجيج وتنهبُ وتسلب وتقتل.

وقد أخبرنا بعضُ الحُجَّاج أنَّ كلَّ قبيلةٍ تمرُّ بها قافلةُ الحجَّاج يفرض رجالُها على الحُجَّاج أن يمكثوا في بلدهم أيامًا عديدة إلى أن يبيع أهل القبيلة كل ما يريدون بيعه، وقد يشتري الحجاج منهم أشياء لا حاجة لهم بها، وإنما يفعلون ذلك اتقاءً لشرِّهم وطلبًا لإطلاق سراحهم، وكلُّ من ابتعد من الحجاج عن القافلة ولو لقضاء الحاجة يكون عرضة للقتل والسلب، فلا يصل إلى المدينة ولا يرجع منها إلا طويل العمر. هذا مع أن الملك حُسينًا كان يأخذ من كلِّ قبيلة شابًّا يكون رهنًا عنده إلى انقضاء موسم الحج، حتى لا تتعدَّى تلك القبيلة على الحُجَّاج، ولم يجدِ ذلك نفعًا.

ومما يدلك على أنَّ الشِّرك كان مسيطرًا على البدو والحضر في ذلك الزمان: أن الشيخ أحمد الشمس الشنقيطي[1] نزيل المدينة النبوية، وهو أحد تلامذة الشيخ ماء العينين[2]، وكلاهما شيخ طريقة يسمونها

---

(١) توفي سنة ١٣٤٢هـ، انظر «من أعلام العصر» (٣١)، «أعلام الشناقطة في الحجاز والمشرق» (٢٣١ ـ ٢٣٤)، «معجم الشيوخ» (١٢٥ ـ ١٢٧) لعبد الحفيظ الفاسي.

(٢) ترجمته بتطويل في مقدمة تحقيقي لكتابه «المرافق على الموافق» (١/ ص ر ـ س) =

(قادرية) نسبة إلى عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ، وأهل هذه الطريقة عندهم غلوٌّ عظيم في شيوخهم؛ قد اتخذوهم أربابًا من دون الله يستغيثون بهم في الشدائد ويزعمون أنهم يغيثونهم، وإذا جالستَ أحدًا منهم تراه كالمجنون ممسكًا سُبحةً بيده يعدُّ حبَّاتها ويسرد لا إلٰه إلا الله بنغمة الغناء واللحن، ثم ينشد أبياتًا، ثم يعود إلى سرد لا إلٰه إلا الله، وفي أثناء ذلك يصرخ صرخات عظيمة: يا شيخنا! فهؤلاء ما لهم عقل ولا دين!

قال ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»[1]: «قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: لو أن رجلًا صحب الصوفية من الصبح إلى الظهر لم يبق له عقل».

قال **محمد تقي الدين**: وأنا أصدقه، وأزيد عليه: ولا دين. ونحن إنما نذمُّ الصوفية المبتدعين والمشركين والملاحدة كابن عربي الحاتمي وابن الفارض، وإذا كان الصوفية في زمان الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ موصوفين بأن من صاحبهم يفقد عقله، فما بالك بصوفية الأزمنة المتأخرة؟! وإذا أردت أن تعرف طريقة ماء العينين وتلامذته فعليك بكتابه المسمى «نَعْمت[2] البدايات» فإنك ترى فيه عجب العجاب من الضلال والغلو، ومن جملة ما قاله بعض الغلاة في قصيدة له يطري فيها شيخه ماء العينين:

وَمَنْ فَاتَهُ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارُ مِنْ مُضَرٍ ... وَفَاتَهُ الْشَّيْخُ مالعَيْنَيْنِ مَحْرُومُ[3]

= وله ترجمة في «الوسيط في أخبار شنقيط» (٣٦٠)، «المعسول» (٤/ ٨٣ ـ ١٠١)، وفي مجلة «صحراء المغرب» عدد (٢٤) بتأريخ محرم ١٣٧٨هـ بحث مستفيض في نسبه وطريقته وأبنائه وسيرته.

(١) (ص٣٢٧).

(٢) الصواب: «نعت». (خ)

(٣) قال الهلالي في «الديوان» (٥١٩) على إثر البيت: «فالتابعون ومن بعدهم من الصالحين إلى يوم القيامة ـ كلهم ـ محرومون ـ على زعمه ـ وهذا لا يستغرب ممن اتخذ من دون الله وليًّا ـ عافانا الله بمنه ـ».

وقد رددتُ عليه بقصيدة أنقلها هنا :

مَنْ فَاتَهُ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارُ مِنْ مُضَرٍ ... وَقَدْ قَفَا نَهْجَهُ مَا ذَاكَ مَحْرُومُ
إِنْ رَدَّ كُلَّ نِزَاعٍ لِلإِلَهِ إِلَى ... كِتَابِهِ فَلَهُ يَحِقُّ تَحْكِيمُ
وَلِلْرَّسُولِ إِلَى حَدِيثِهِ فَبِذَا ... أَمْرُ الإِلَهِ أَتَانَا وَهْوَ مَحْتُومُ
لَا لِلْشُّيُوخِ وَلَا لِلْرَّأْيِ مِنْ شِيَعٍ ... لَدَيْهِمُ حَبْلُ ذِكْرِ اللهِ مَصْرُومُ
وَكَمْ حَدِيثٍ بِهِ عُرْضَ الْجِدَارِ رَمَوْا ... إِسْنَادُهُ مِثْلُ شَمْسِ الصَّحْوِ مَعْلُومُ
إِذْ خَالَفَ الْرَّأْيَ وَهْوَ الأَصْلُ عِنْدَهُمُ ... كَأَنَّ صَاحِبَ ذَاكَ الرَّأْيِ مَعْصُومُ
مَا لِلْرَّسُولِ لَدَيْهِمْ غَيْرُ الاسْمِ فَقَطْ ... وَصَاحِبُ الْرَّأْيِ مَتْبُوعٌ وَمَأْمُومُ
وآيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ مُحْكَمَةٌ ... تَفْسِيرُهَا عَنْ نَبِيِّ اللهِ مَفْهُومُ
تَعَمَّدُوا سَلْبَ مَعْنَاهَا الْمُرَادِ بِها ... وَحَمَّلُوهَا مَفَاهِيمًا[1] بِهَا لِيموا
مَضَى الْصَّحَابَةُ لَمْ تَخْطُرْ بِبَالِهِمُ ... وَالْتَّابِعُونَ وَعقْدُ الْدِّينِ مَنْظُومُ
كَذَا الأَئِمَّةُ مِثْلُ الْشَّافِعِيِّ وَمَا ... لِكٍ وَأَحْمَدَ لَمْ يُلْمَزْ لَهُمْ خِيمُ[2]
وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَتَوْا بِدَعًا ... قَدِ اقْتَفَوا إِثْرَ يُونَانٍ مَشَائِيمُ
وَحكَّمُوا عَقْلَهُمْ فِي اللهِ جَلَّ وَهُمْ ... جُهَّالُ أَنْفُسِهِمْ وَذَاكَ مَذْمُومُ
فَوَصَفُوهُ بِمَا أَوْحَتْ وَسَاوِسُهُمْ ... وَعِنْدَهُمْ وَصْفُهُ بِالذِّكْرِ تَجْسِيمُ
إِنْ قَصَّرَ اللهُ وَالْمُخْتَارُ فِي صِفَةٍ ... وَصَحْبُهُ كَيْفَ يُرْجَى بَعْدُ تَفْهِيمُ
أَوْ أَنْزَلَ اللهُ آيَاتٍ مُكَفِّرَةً ... فَالْكُفْرُ يُحْمَدُ وَالإِسْلَامُ مَذْمُومُ
تَاللهِ إِنَّ أُولَاءِ الْقَوْمَ فِي عَمَهٍ ... بَنَوْا عَلَى غَيْرِ أُسٍّ فَهْوَ مَهْدُومُ
قَدْ أَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ اللهِ وَانْتَبَذُوا ... بَيْدَاءَ سَالِكُهَا لَا شَكَّ مَقْصُومُ
مَنْ رَامَ تَكْذِيبَ قَوْلِ اللهِ أَوْ سُنَنٍ ... يَقُولُ ذَا لَازِمٌ وَذَاكَ مَلْزُومُ

(١) في «الديوان»: «أَوَابِدًا».
(٢) الخيم: السجيَّة والطبع والأصل. (منه)

وَالْحَقُّ أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يُسْتَدَلَّ لَهُ ... لَكِنَّ طَرْفَ أَخِي الْتَّقْلِيدِ مَخْرُومُ
اللهُ أَعْطَاهُ طَرْفًا يَسْتَدِلُّ بِهِ ... فَسَدَّهُ وَاقْتَفَى مَنْ هُوَ مَشْئُومُ
وَقَالَ إِنَّا وَجَدْنَا الأَقْدَمِينَ كَذَا ... وَالأَقْدَمُونَ لَهُمْ يَحِقُّ تَقْدِيمُ
وَالْحَقُّ أَقْدَمُ وَالْمُخْتَارُ سَابِقُهُمْ ... لِقَوْلِهِ حُقَّ تَبْجِيلٌ وَتَعْظِيمُ
وَلَيْسَ رَبُّ الْوَرَى بِسَائِلٍ أَحَدًا ... عَنْ غَيْرِهِ فَعَلَيْهِ دَامَ تَسْلِيْمُ
يَا وَيْلَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِمُتَّبِعٍ ... شَرَابُهُ يَوْمَ يَظْمَا الْنَّاسُ يَحْمُومُ
وَكَيْفَ يَتْبَعُ ذُو الْتَّقْلِيدِ سُنَّتَهُ ... وَأَنْفُهُ بِحِبَالِ الْجَهْلِ مَخْزُومُ
إِذَا عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللهِ فَاتَّبِعُوا ... مَنْ شِئْتُمُ جَمْعُكُمْ لَا شَكَّ مَهْزُومُ
إِنْ قُلْتَ قَالَ رسُولُ اللهِ يَنْتَفِشُوا ... وَيُنْغِضُونَ رُءُوسَهُمْ وَهُمْ بُومُ
وَيَنْبِزُونَكَ بَالأَلْقَابِ مِنْ سَفَهٍ ... فَعِندَهُمْ قَوْلُ خَيْرِ الرُّسْلِ مَشْئُومُ
كُونُوا حِجَارَةً اوْ حَدِيدًا أَوْ خَشَبًا ... وَأَنْفُكُمْ أَبَدًا بِالْتُّرْبِ مَرْغُوْمُ
مَنْ كَانَ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ يُغْضِبُهُ ... فَذَاكَ فِي النَّاسِ مَدْحُورٌ وَمَذْؤُومُ
وَإِنْ تَسَتَّرَ بِالتَّحْرِيفِ يَخْدَعُنَا ... فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى الْعَلَّامِ مَكْتُومُ
أَمْرُ الْنَّبِيِّ وَأَمْرٌ مِنْ إِمَامِهِمُ ... ذَا حَاكِمٌ عِنْدَهُمُ وَذَاكَ مَحْكُومُ
لَوْ وُفِّقُوا حَكَّمُوا قَوْلَ النَّبِيِّ عَلَى ... قَوْلِ الإِمَامِ وَذَا فِي الذِّكْرِ مَرْقُومُ
فَأَيْنَ الايِمَانُ(١) مِنْهُمْ أَيْنَ آيَتُهُ ... أَيْنَ الْمَحَبَّةُ أَيْنَ أَيْنَ تَعْظِيمُ
وَهُمْ يَقُولُونَ نَحْنُ الْوَامِقُونَ(٢) لَهُ ... وَخَالَفُوا أَمْرَهُ فَالْحُبُّ مَزْعُومُ
إِنْ كُنْتَ وَامِقَهُ فَلْتَقْفُ سُنَّتَهُ ... وَالْحُبُّ مِنْكَ إِذَا خَالَفْتَ مَعْدُومُ
وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ نَقْصٍ فَمَصْدَرُهُ ... مَشَايِخٌ دِينُهُمْ وَالْعِرْضُ مَثْلُومُ
هُمْ زَيَّنُوا لِلْعَوَامِ كُلَّ فَاحِشَةٍ ... وَمِنهُمُ نَتْنُ أَكْلِ السُّحْتِ مَشْمُومُ

---

(١) تقرأ بهمزة وصل للوزن.
(٢) أي المحبُّون.

رَامُوا الْتَّأَكُّلَ بِالْفَتْوَى فَصَارَ لَدَيْـ ـهِمْ بَالدَّرَاهِمْ تَحْلِيلٌ وَتَحْرِيمُ
لَا كَسْبَ عِنْدَهُمُ إِلَّا الْعَمَائِمَ كَالْـ يَقْطِينِ وَالْكُمُّ مِثْلُ الْخُرْجِ مَرْسُومُ
يُرْخُونَ لِلْنَاسِ أَيْدِيهِمْ تُقَبِّلُهَا وَمَنْ أَبَى فَهْوَ مَلْحِيٌّ[١] وَمَشْتُومُ
إِنْ كَانَ حَالُ هُدَاةِ النَّاسِ يَا أَسَفًا كَمَا رَأَيْتَ اسْتَوَى جَهْلٌ وَتَعْلِيمُ
أَمَا ذَوُو الطُّرُقِ مَنْ لِلصُّوفِ قَدْ نُسِبُوا فَلَا تَسَلْ عَنْهُمُ فَهُمْ مَشَائِيمُ
لَمْ تُرْضِهِمْ شِرْعَةُ الْمُخْتَارِ فَانْتَحَلُوا شَرَائِعًا كُلُّهَا إِفْكٌ وَتَأْثِيمُ
واستبعدوا[٢] النَّاسَ اسْتِتْبَاعِهِمْ[٣] سَفَهًا فَالْحُرُّ مُسْتَخْدَمٌ وَالْعَبْدُ مَخْدُومُ
قَالُوا عِنِ اللهِ أَخْذُنَا الشَّرَائِعَ بَلْ مِنَ الشَّيَاطِينِ شَرْعُ الْقَوْمِ مَفْهُومُ
هَلْ فِي شَرِيْعَةِ خَيْرِ الْخَلْقِ عَرْبَدَةٌ مِثْلَ السُّكَارَى وَرَقْصٌ ثُمَّ هَيْنُومُ[٤]
هَلْ فِي شَرِيعَةِ خَيْرِ الْخَلْقِ تَصْدِيَةٌ مَعَ الْمُكَا وَتجَنُّنٌ وَتَهْوِيمُ[٥]
هَلْ لِلْخَلَائِقِ أَرْبَابٌ تَقَسَّمُهَا[٦] كُلٌّ لَهُ جُزْءٌ فِي النَّاسِ مَقْسُومُ
أَمْ لِلْخَلائِقِ رَبٌّ وَاحِدٌ صَمَدٌ وَغَيْرُهُ مَا لَهُ فِي الْخَلْقِ بُرْعُومُ
هَلْ فِي الشَّرِيْعَةِ أَقْوَالٌ تُكَذِّبُهَا يَقُولُ أَصْحَابُهَا ذَا السِّرُّ مَكْتُومُ
هَلْ فِي الشَّرِيْعَةِ أَوْثَانٌ مُقَدَّسَةٌ وَحَوْلَهَا دَمُ ذَبْحِ الْقَوْمِ مَسْجُومُ
لَا يَخْشَعُونَ لِرَبِّنَا خُشُوعَهُمُ لَهَا لأَوْجُهِهِمْ وَيْلٌ وَتَسْخِيمُ
لَوْ آمَنُوا بِإِلَهِ النَّاسِ مَا قَصَدُوا مِنْ دُونِهِ مَنْ بِكُلِّ الْفَقْرِ مَوْسُومُ

---

(١) مَلْحيّ: أي مُقبَّح ومشتوم. (منه)
(٢) الصواب: «واستعبدوا». (خ)
(٣) في «الديوان»: «باستتباعهم».
(٤) الهينوم: الكلام الذي لا يفهم. (منه)
(٥) هو الرجل إذا هزَّ رأسه من النعاس، فلعله يقصد بالتهويم ما يحدث في حلقات الذكر الجماعي من رفع رءوس الذاكرين وخفضها، وإمالتها يمنة ويسرة. (منه)
(٦) هو فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه تخفيفًا.

مَـا قَـدَرُوا اللهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ أَبَـدًا إِذْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الْمَقْبُورِ تَحْوِيمُ
إِذْ كَانَ حَيًّا بِكُلِّ الْفَقْرِ مُتَّصِفٌ فَكَيْفَ وَهْوَ بِتُرْبِ اللَّحْدِ مَغْمُومُ
قَدْ أَخْبَرَ الْمُصْطَفَى بِكُلِّ مَا فَعَلُوا صَلَاةُ رَبِّي عَلَيْهِ ثُمَّ تَسْلِيمُ
وَاللهَ أَسْأَلُ أَنَّ الْحفْظَ يَصْحَبُنِي وَالْعُمْرَ بِالْعَمَلِ الْمَرْضِيِّ مَخْتُومُ(١)

تمت

كان الشيخ أحمد الشمس يخرج من المدينة ومعه قافلة كبيرة فيتوجه بهم إلى مكة ولا يمسهم أحد بسوء، وكلما مر على قبيلة جاءه أهلها وقبَّلوا يدَه وتبرَّكوا به وقدَّموا الهدايا، فكان ملكًا بلا جنود بسبب غلبة الجهل والشرك والبدعة والخرافات على أهل هذه البلاد في ذلك الزمان، فإن قبائل البدو كانت ترهب سطوة شيخ صوفي يزعم أنه يقتل من يشاء ويصيب بالأمراض والكوارث مَنْ لم يخضع إلى مخرقته أكثر مما يرهبون ملك البلاد وأمراءه!

فقلت لمن كان معي من الإخوان: إننا قد أدّينا فريضة الحج نرجو الله القبول، والصلاة في مسجد النبي ﷺ فضيلة مستحبة، ولو كانت فريضة ما ساغ لنا أن نخاطر بأرواحنا لأجلها، فإن المُحْصر يحلّ من حجّه، فأي واحد منكم يتوجه إلى المدينة ويركب هذه الأخطار فتوحيده غير صحيح، وكل واحد منكم يترك صلاة الجماعة في المسجد أحيانًا بلا عذر وهي فريضة، فكيف يُعقل أن يخاطر بروحه لفعل مستحب؟! إن أحيانا الله إلى أن تأمن هذه البلاد فإننا سنعود بإذن الله

---

(١) الأبيات في «منحة الكبير المتعالي» (ص٥١٩ ـ ٥٢٣)، وقبلها: «وقلت حين كنتُ في الهند سنة ١٣٤٢هـ، أنشأتُ اثني عشر بيتًا منها على ظهر القطار بين بمباي ودهلي، وسائرها بدهلي بمسجد المرحوم حاجي علي جان الحديثي وسببها أني تذكرت بيتًا لبعض غلاة متصوفة الزمان...».

ونصلي في مسجد النبي ﷺ وإلا فقد أدينا فريضتنا. فاستمعوا كلهم لقولي وأطاعوني، وقد أحيانا الله سبحانه بفضله ورحمته إلى أن صلينا في مسجد النبي ﷺ ما لا يُحصى من الصلوات، وهذه ببركة تحقيق التوحيد، نسأل الله حسن الختام.

كيف كان حالُ السلفيين؟

كان السلفيون في الحجاز في ذلك الزمان أضيع من الأيتام، أما أهل نجد منهم فإنهم كانوا ممنوعين من الحج، وفي تلك الأيام جاء جماعة من حجاج أندونسيا وكانوا سلفيين فأعلنوا الدعوة إلى التوحيد واتّباع السنة، فبلغ خبرهم بعض من كانوا يُسمون بالعلماء، فرفعوا أمرهم إلى الملك حسين وأخبروه أنهم يدعون إلى مذهب الوهابية، فأمر الملك باستتابتهم، فاجتمع عليهم العلماء واستتابوهم، فتابوا.

مناظرة(١) مؤلِّف هذا الكتاب لحبيب الله بن مايابا الشَّنقيطي

كان الشيخ حبيب الله بن مايابا الجكني من العلماء المقرَّبين عند

---

(١) كان ذلك سنة ١٣٤١ في مدرسة الشنقيطي، واستمرت المناظرة من الظهر إلى العصر، أفاده المصنف، وسيصرح به لاحقًا، والشنقيطي هذا هو محمد حبيب الله بن عبد الله بن مايابا الجكني، توفي سنة ١٣٦٣هـ. ترجمته في «أعلام الشناقطة في الحجاز والمشرق» (٣٢٢ ـ ٣٢٦)، «فهرس الفهارس» (١/ ٤٩)، «الجواهر الحسان» (١/ ٢١٩)، «الدليل المشير» (٧٢)، «أعلام المكيين» (٤/ ٥٧٤)، ولبعض تلاميذه ترجمة له في آخر كتابه «زاد المسلم» (٥/ ٥٤٩)، وذكر فيه (٢/ ٢٤٨) أنه سكن مكة المكرمة نحو ثمان سنين.

الملك حسين، وكانت له مدرسة[(١)] تشرف على المسجد الحرام، وكان المسجد الحرام في ذلك الزمان محاطًا بالمدارس، وهذه المدارس كان يستغلُّها المقرَّبون من العلماء والجهَّال إذا جاءوا إلى المسجد الحرام يجلسون فيها ويتوضؤون وينامون ويصلون فيها أيضًا، لأن كل واحدة منها كانت له طاقة واسعة مواجهة للكعبة، فقصدتُ زيارةَ الشيخ المذكور في مدرسته، وأخذت أتحدَّث معه حديثًا يشبه المناظرة في التوحيد والاتّباع، وكان عنده رجل أشيب، فلما سمع كلامي ظهرت عليه أمارات الحزن وقال لي: هذا الذي تقوله تعلَّمته في الشرق أم في الغرب؟ فقلت له: بل في المغرب. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ وصل هذا البلاء إلى المغرب! يعني بالبلاء توحيد الله تعالى واتّباع سنة رسول الله ﷺ، وأخبرني الشيخ حبيب الله أن ذلك الشيخ كان شنقيطيًّا كنتيًّا نسبة إلى كنتة وهي قبيلة معروفة في شنقيط.

فقال الشيخ حبيب الله: وأنتَ وهابيٌّ، وأنتم معشر الوهابية عندي ثلاثة أصناف: وهابية نجد، ووهابية مصر والشام وأنت منهم، ووهابية الهند، فأما وهابية نجد فإنهم كفّار!! بيننا وبينهم ما بين اليهود والنصارى والمسلمين، هم اليهود والنصارى ونحن المسلمون! وأما وهابية مصر والشام فهم ضُلَّال، وأما وهابية الهند فهم مخطئون.

فقلت له: اشرح لي ما ذكرتَه، وبيِّن لي سبب هذه التفرقة. فقال لي: أما وهابية نجد؛ فهم عندي كفار لأنهم يقولون: إن ربّهم في السماء، وأما وهابية مصر والشام فهم ضلال لأنهم يدّعون الاجتهاد، وادّعاء الاجتهاد ضلال ولا يبلغ إلى حدّ الكفر، وأنا بنفسي لا أقول بالتقليد المحض بل

---

(١) كان يدرِّس بالمدرسة الصولتية، وكانت من أوائل المدارس الأهلية في مكة، وكان الملك عبد العزيز يقول: (أعتبر هذه المدرسة الأزهر عندنا).

أقول بمنزلة بين منزلتين. ثم سرد عليّ أبياتًا من أرجوزة له لا أحفظ منها إلا شطرًا واحدًا وهو قوله: (إنما أقول بالتبصر)(١).

فقلت له: هذا التفصيل فيه نظر، لأنَّ جميع السَّلفيين في نجد وفي مصر والشام والمغرب وفي الهند يقولون ويعتقدون أنَّ الله في السماء مستو على عرشه، بدون تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل، وأدلة هذا لا تخفى عليك، وأما ما سمَّيته بالاجتهاد فنحن نسميه الاتّباع؛ والأصناف الثلاثة أيضًا متَّفقون عليه إلا أن أهل نجد ينتسبون إلى

---

(١) ذكر حبيب الله الشنقيطي في «إضاءة الحالك من ألفاظ دليل السالك إلى موطأ الإمام مالك» (ص١٢٩ ـ ١٣٠/ط دار الفضيلة) في (الفصل الأول) من (الخاتمة) وهو (في جواز الاستدلال بنص القرآن والحديث للمقلد وغيره)، وقال فيه:

خَاتِمَةٌ فِي نُصْرَةِ الدَّلِيلِ ... وَالِاحْتِجَاجِ بِأَصَحِّ الْقِيلِ
وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى بِالاسْتِدْلَالِ ... لِسَائِرِ الْفُرُوعِ وَالْأَقْوَالِ
وَحَدُّه الَّذِي بِهِ قَدِ انْضَبَطْ ... وَهُوَ الَّذِي مُرَادُنَا بِهِ ارْتَبَطْ
إِقَامَةُ الدَّلِيلِ مِنْ قَوْلِ النَّبِي ... أَوِ الْكِتَابِ لِفُرُوعِ الْمَذْهَبِ

وقال في شرح قوله (إقامة الدليل من قول النبي):

«وهذا الاستدلال يسمى بالاستبصار، كما قاله بعض العلماء، ومن له اعتناء بحفظ الدليل وطلبه يُسَمى متبصرًا؛ إذ التبصر كما في «تأسيس القواعد» للشيخ زرُّوق: هو أخذ القول بدليله الخاص به من غير استبداد بالنظر ولا إهمال للقائل، وهذه رتبة مشايخ المذاهب وأجاويد طلبة العلم، مع أنّ الاقتصار على ذكر المشهور أقرب اهـ. وقد أشرت في منظومتي في أدلة مذهب إمامنا مالك لكون أخذ القول بدليله يسمى تبصرًا بقولي:

وأخذ قول بدليل ينصرُ ... قائله عرفًا هو التبصُّرُ
من غير إهمال لذي القول ولا ... بالنظر استبدّ من ذا استعملا

وقال فيه (ص١٣٦): «وهذا النوع من الاحتجاج هو المسمى بـ (الاستبصار) وجوازه للمقلد كاد أن يكون مما لا نزاع فيه بين علماء السلف والخلف».

المذهب الحنبلي في الفروع، ونحن لا ننتسب إليه إلا في الأصول، ثم قلت له: ولماذا خففت الحكم على أهل الهند فلم تجعلهم كفارًا ولا ضلالًا، بل جعلتهم مخطئين فقط؟ فقال لي: لأنهم يزورون قبر النبي ﷺ، فليس عندهم مما يُنتقد إلا مسألة الاجتهاد. فقلت له: فعلام ضلّلتنا نحن بالاجتهاد وغفرته لهم؟ فقال: قلت لك إنهم يزورون قبر النبي ﷺ. فقلت له: ماذا تعني بزيارة القبر؛ أتقصد السلام على النبي ﷺ في مسجده، أم أمام حجرته، أم تقصد شد الرحال؟ فقال: أقصد ذلك كله. فقلت له: إن السلفيين في الهند لا يقولون بجواز شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة. فظهر تناقضه، ولم أكن أعلم سبب ذلك التناقض حينئذٍ غير أني عرفته فيما بعد، وذلك أن الشيخ عبد الوهاب الدهلوي[(١)] التاجر العالم كان بمكة، وكان تلميذًا له يدرس عليه بعض فروع العلم وكان يحسن إليه، فلذلك خفف الحكم على السلفيين من أهل الهند، وكان يتَّبع هواه، والهوى يعمي ويصم، فقد كان يحرّم حلق اللحية ويغلظ فيه القول ويفسّق مرتكبه، فلما انتقل إلى مصر هاربًا ممن يسميهم بالوهابية ـ كما سيأتي ـ غيّر رأيه فأفتى بأن حلق اللحية مكروه كراهة تنزيه، فقيل له: قد أفتيت زمانًا طويلًا بالتحريم والتفسيق فما عدا مما بدا؟ فقال: إن أكثر العلماء في مصر يحلقون لحاهم، فكيف يسوغ لي أن أفسّقهم[(٢)]؟!

---

(١) هو عبد الوهاب بن عبد الجبار بن علي جان الدهلوي (١٣١٥ ـ ١٣٨١هـ)، ترجمته في «أعلام المكيين» (١/ ٤٤١)، «الجواهر الحسان» (٢/ ٥٢٤).

(٢) بيَّن الشيخ محمد حبيب الله رأيه في «فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم» (١/ ١٧٨ ـ ١٧٩) عند شرحه لقوله ﷺ: «**خالفوا المشركين، ووفِّروا اللحى وأحفوا الشارب**»، ونسوقه بطوله، قال رحمه الله تعالى:

«أحفوا الشوارب»: أي بالغوا في قصها. وقد وقع خلاف في المراد بالإحفاء، فقيل: الاستقصاء والاستئصال، كما هو معناه في كتب اللغة، =

= وقيل: القص حتى يبدو طرف الشفة، وهذا هو الصواب. و«وفروا اللحى». أي: اتركوها، وفي رواية: «وأعفوا اللحى». ورواية المتن هنا، تفسيرها والمراد بتوفيرها: تركها إلى أن تطول طولًا معتادًا شرعًا بتوفيتها، وقد حده بعضهم بالقبضة وبعضهم بالقبضتين، والأنسب كونها لا تزاد على القبضة لأنه تطويلها جدًّا من المغالاة، وأقبح منه حلقها إذ لا يجوز للرجال إلا لعذر كالتداوي، ويجب على المرأة إذا نبتت لها لحية، وحكم الشارب والعنفقة حكم اللحية، وفي «الميسر على خليل» أن من تعمد حلقها يؤدب وترد به شهادته، وقد نظمت ذلك في زمن قراءتي لمختصر خليل بقولي:

يمنع للرجل حلق لحيته ... على الذي اعتمد مع عنفقته
إلا لعذر كتداوٍ ووجب ... ذاك على المرأة فيما ينتخب
والحكم في الشارب حكم ما ذكر ... ذكر ذا المعنى جميعًا فادكر
وفي الميسر الشهادة نره ... به وتأديب ذوى العمد ورد

قال مقيده وفقه الله تعالى: ومقابل المنع قول بالكراهية التنزيهية لبعض المالكية وللمتأخرين من الشافعية، وقد نسبه ابن حجر في «فتح الباري» للقاضي عياض رحمه الله تعالى، ولما عمت البلوى بحلقها في البلاد المشرقية حتى إن كثيرًا من أهل الديانة قلد فيه غيره خوفًا من ضحك العامة منه لاعتيادهم حلقها في عرفهم؛ بحثت غاية البحث عن أصل أخرج عليه جواز حلقها حتى يكون لبعض الأفاضل مندوحة عن ارتكاب المحرم باتفاق، فأجريته على القاعدة الأصولية، وهي أن صيغة (افعل) في قول الأكثرين للوجوب، وقيل للندب، وقيل للقدر المشترك بين الندب والوجوب وقيل بالتفصيل، فإن كانت من الله تعالى في القرآن فهي للوجوب، وإن كانت من النبي عليه الصلاة والسلام كما في الحديث هنا على الروايتين وهما رواية: «أوفروا»، ورواية: «أعفوا» فهي للندب، وقد أشار إلى هذه الأقوال في صيغة (افعل) صاحب «مراقي السعود» في علم الأصول بقوله:

(وافعل) لدى الأكثر للوجوب ... وقيل للندب أو المطلوب
وقيل للوجوب أمر الرب ... وأمر من أرسله للندب

وهذا القول الأخير هو الذي ينبغي حمل العامة عليه لمَّا عمت البلوى بهذه البدعة الشنيعة، وهي في حق العلماء أقبح وأقبح وغيرهم أولى بالعذر. =

ولما استُتيب الأندونسيون وكان هذا الرجل من الذين استتابوهم، اختفيت أنا ثمانية أيام في مكة عند بعض المغاربة، وكنت أبعثه كل يوم إلى المسجد الحرام ليتحسّس: هل هناك أحد يبحث؟ فلم يجد لذلك أثرًا فخرجت من مختبئي. وهذه حسنة أعدها له إذ لم يسعَ في استتابتي، وسوف يرتكب سيئة تمحو هذه الحسنة.

مداهنته لمن يسمِّيهم بالوهابية

لما استولى الملك عبد العزيز[1] على الحجاز بعد هذا التاريخ بقليل أخذ يداهن الملك عبد العزيز وأهل نجد، الذين كان بالأمس يكفِّرهم. وفي يوم من الأيام جاء الملك عبد العزيز ـ رحمة الله عليه ـ إلى المسجد الحرام، فوجد الشيخ حبيب الله والسيد أحمد السنوسي[2] يملآن الأثر المسمَّى بموضع قدم إبراهيم بماء زمزم ويكرعان فيه بأفواههما كالبهائم، فوبَّخهما، وقال لهما: إذا كنتما تفعلان هذا وأنتما بزعمكما من العلماء، فماذا تركتما للجهال؟!

وحدث أنه كان ذات ليلة في مجلس الملك عبد العزيز آل سعود وكان الملك يتكلم في التوحيد، فعارضه، فغضب عليه الملك عبد العزيز غضبًا شديدًا، فظنَّ أنَّ حتفه قد دنا، فتقدم إلى الملك وألقى نفسه بين يديه وأظهر التوبة والرجوع عما قاله، وإنما فعل ذلك خوفًا أن يبطش به،

= نسأل الله تعالى التوفيق لاتباع السنة والمحجة البيضاء».
وانظره (٢/ ٢٠).

(١) ستأتي ترجمته مفصّلة.

(٢) هو أحمد بن الشريف السنوسي، توفي سنة ١٩٥١م، انظر له «الأعلام» (١/ ١٣٥)، «الجواهر الحسان» (١/ ٣١٨، ٣٤٧، ٤٠٨) و(٢/ ٥٢٤، ٧٠٤).

ولم يكن الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ سريعًا إلى البطش بل كان إذا غضب يقتصر على الكلام ولا يتجاوزه.

وعلى إثر ذلك أخذ زوجته إلى المدينة وتركها في بيت أخيه الشيخ محمد الخضر[(١)] وهرب إلى مصر، وكانت العلاقات بين مصر والمملكة السعودية في ذلك الزمان سيئة جدًّا بسبب المحمل الذي كانت تبعثه الحكومة المصرية إلى مكة في كل سنة، وهو شيء كالهودج[(٢)] يطاف به في القاهرة ثلاثة أيام يتمسّح الناس به ويتبرَّكون به، ثم يُبعث مع الوفد المصري إلى مكة، فيتمسَّح به الجُهَّالُ أيضًا في جدة وفي الطريق إلى مكة، فأمر الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمنع من التمسح به والإتيان به إلى مكة، وأمر أن يُترك في جدة، وبعد الحج يرجع به الوفد إلى مصر، فرأى الوفد المصري أن ذلك إهانة له، وكانت كسوة الكعبة المشرفة يؤتى

(١) عالم مشهور (١٢٩٠ ـ ١٣٥٣هـ)، سافر سنة ١٣٤٠هـ مع الملك عبد الله الأول (مؤسس الأردن)، فكان يقدّمه لإمامته في الصلاة، وعيّنه وزيرًا له في أول وزارة، وقاضيًا للقضاة غرة سنة ١٩٢١ ثم مستشارًا في الأمور الشرعية. له عدة كتب، أهمها: «كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري».

(٢) يقال: إن أول من اتخذه ملكة مصر (شجر الدُّر) عندما حجت عام ٦٤٨هـ، فقد كان هودجًا لها، حيث حجت، وقد زينته بخمائل الحرير والتطريز البديع، ومن فوقه الأحجار الكريمة، وكانت تحمل معها هداية للكعبة والحجرة الشريفة، والمحمل المصري كان مختصًّا بحمل كسوة الكعبة، والحجرة الشريفة، وما يلزم الحرمين، والصدقات التي توزع على فقرائها؛ وأُبطل قدوم هذا المحمل لبلاد الحرمين عام (١٣٤٤هـ)؛ لكثرة ما كان يحدثه من البدع، وانظر تفصيل ذلك في: «مكة في ثوبها الذهبي» للشريف محمد بن مساعد الحسني (بدعة المحمل: ص٤٧ ـ ٥٢)،

وينظر عن (المحمل) من ناحية فقهية «التجرد والاهتمام» (مسألة ٩٠١) للبلقيني، وتعليقي عليه، **فهو** (مهم)، و«الجواهر والدرر» (٢/ ٦١٦ ـ ٦١٧) للسخاوي.

بها من مصر يحملها الوفد المصري كل سنة إلى مكة، فلما ساءت العلاقة بين المملكتين استغنى الملك عبد العزيز عن كسوة الكعبة التي كان يُؤتى بها من مصر، وطلب الصنَّاع من الهند، وأسس دارًا بمكة لصنع الكسوة، فاغتنم حبيب الله هذا الخلاف والتجأ إلى حُكَّام مصر وشكى لهم ما أصابه من السعوديين، والحقيقة أنه لم يصبه شيء، فرحبوا به وجعلوه مدرِّسًا في الأزهر[1].

وفي سنة ١٣٤٥هـ توجَّهتُ من العراق[2] إلى الحج بصحبة الشيخ

(١) كان يعِزُّ على الشيخ حبيب الله الشنقيطي مغادرة مكة، ظهر هذا في أشعار ذكرها في استدعائه للإجازة من الشيخ عبد الحي الكتاني، فأجازه، وألف كتابه «فهرس الفهارس والأثبات» بسبب ذلك، وقال في أوله (١/ ٤٩):
الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد؛ فإن العلّامة النحرير، الماجد المدرس الدراكة الشهير، صاحب التآليف النافعة، والأبحاث الرائقة الذائعة، الشيخ محمد حبيب الله ابن العلّامة الشيخ سيدي عبد الله بن مايابا الجكني نسبًا، الشنقيطي بلدًا، المكي هجرة، كتب إليَّ حفظه الله من بلد أم القرى مكة المعظمة:

هو النّفسُ الصُّعاد من كبدٍ حرَى ... إلى أن أرى أم القرى مرةً أخرى
وما عذر مطروحٍ بمكةَ رحلهُ ... على غير بوسٍ لا يجوع ولا يعرى
يسافرُ عنها يبتغي بدلًا بها ... وربِّك لا عذْرًا وربك لا عذرا

بتاريخ منتصف الحرام من سنة ١٣٤٢ كتابًا وصلني أواخر رمضان من سنته يرغب إلي فيه أن أجيزه بمرويَّاتي: وأبيح له التحديث عني بمسنداتي ومجموعاتي، مقترحًا عليَّ أن تكون الإجازة مشتملةً على ما اتصلت به من الفهارس والأثبات، اختصارًا وتسهيلًا على الرواة، فصادف مني هذا الاقتراح قبولًا، رغبة مني في إملاء ما تحصَّل لدي منه. . .» إلى آخر كلامه، ولما حل الشنقيطي مصر «احتفى به علماء الأزهر، وعُيّن أستاذًا للحديث بكلية أصول الدين، واعتنى بالتدريس والإفتاء في مسجد الحسين، وفي منزله، مع اشتغاله بالتأليف، واهتمامه بأمور المسلمين لا سيما القضية الفلسطينية» كذا في «أعلام الشناقطة» (٣٢٤ ـ ٣٢٥).

(٢) عن طريق سورية، كما في «الإسلام يكافح الاستعمار» (٣٩١) للهلالي.

مصطفى آل إبراهيم، ومررنا بالقاهرة وكان الشيخ حبيب الله مستقرًّا بها، فعلمت أن شخصًا قال له: هل تعرف الهلالي؟ فقال: نعم أعرفه، فقال له: أهو من أهل العلم؟ فقال له: لا يصلح أن يكون جليسًا لأهل العلم فكيف يكون من أهل العلم؟! فكتبتُ كتابًا إليه فقلت له فيه: بلغني أنك قلت كيت وكيت، وقد ناظرتك في مدرستك سنة ١٣٤١هـ من الظهر إلى العصر؛ كنت تناضل عن عقيدة أسلافك الأرذلين كالجهم بن صفوان والجعد بن درهم، وكنت أناضل عن عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، فما وجدتَ فيّ بحمد الله ضعفًا ولا تواني، وأنشدته في ذلك الكتاب أبياتًا، أذكر منها قول الشاعر:

لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنَّنِي بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيْر طَائِلِ
وَأَنِّي شَقِيٌّ بِاللِّئَامِ وَلَا تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ الْشَّمَائِلِ(١)

وقول المتنبي أيضًا:

ويُظْهِرُ الْجَهْلَ بِي وَأَعْرِفُهُ والدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَه(٢)

وأبياتًا أخرى نسيتُها، وكتبتُ عليه عنوانه وهممت أن ألقيه في صندوق البريد ليصل إليه ويشويه، ولكن أخانا السلفي الشيخ إبراهيم الوادنوني تلطّف وتحيّل، وقال لي: ناولني هذا الكتاب وأنا أبلغه إليه. فناولته إيّاه، وكان مقصوده أن يمنع وصوله إليه حتى لا يسوءه؛ لأنه كانت بينه وبينه صداقة مع اختلافهما في العقيدة، فإن إبراهيم سلفي العقيدة وحبيبًا قد علمتَ معتقده فيما مضى.

وبعد ذلك سافرت إلى الحجاز للحج وكتب السيد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ

(١) البيتان لطرماح بن حكيم (ت١٢٥هـ)، انظر: «الشعر والشعراء» (٢/ ٥٨٩)، «الحماسة» (١/ ٢٢٧ ـ «شرح المرزوقي»).
(٢) «ديوان المتنبي» (٣/ ٣٨٧ ـ «شرح البرقوقي»).

• إلى الملك عبد العزيز[١] ـ رحمة الله عليه ـ يرغِّبه في إبقائي في المملكة

(١) عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، من آل مقرن، من ربيعة بن مانع بن ربيعة المريدي. والمردة من آل يزيد ينسبون ببني حنيفة بن نجيم بن بكر بن وائل، مالك المملكة العربية السعودية الأول، ومنشئها، وأحد رجالات الدهر.
ولد في الرياض (بنجد) سنة ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م ودولة آبائه في ضعف وانحلال، وصحب أباه في رحلته إلى البادية، يطارده عدوه ابن رشيد (محمد بن عبد الله)، واستقر مع أبيه في (الكويت) سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩١م) وشب فيها، وشنّ الغارات على آل رشيد وأنصارهم، وفاجأ عامل ابن رشيد في الرياض بوثبة، ليس هنا مجال وصفها؛ فاستولى عليها، وجدّد فيها إمارة آل سعود (سنة ١٣١٩هـ ـ ١٩٠٢م)، وضم إلى الرياض ما هو قريب منها: الخرج، والمحمل، والشعيب، والوشم، والحوطة، والأفلاج، ووادي الدواسر. واستولى على بلاد القصيم (سنة ١٣٢٤هـ) بعد معارك مع جبار آل رشيد (عبد العزيز بن متعب)، وجيوش من الترك (العثمانيين)، واستولى على الأحساء والقطيف (سنة ١٣٣١هـ)، وأخرج منهما آخر مَن بقي من عمال العثمانيين وعساكرهم في تلك الأصقاع. وكانت لآل عائض إمارة في (أبها) من بلاد عسير، في الجنوب، تمردت عليه؛ فأزالها، ثم ضم عسيرًا كلها إلى ملكه، وأزال إمارة آل رشيد في الشمال، وكانت بينه وبين الملك حسين بن علي الهاشمي وابنه علي بن الحسين أحداث انتهت بالقضاء على دولة الهاشميين في الحجاز (سنة ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م).
وأصبحت مكة عاصمة آل سعود، ونودي به (مَلِكًا) على الحجاز ونجد، وكان من قبل الأمير والسلطان والإمام.
وثار عليه بعض كبار قواده فيصل الدويش وآخرون سنة (١٣٤٧ ـ ١٣٤٨هـ)؛ فبطش بهم، ومحا آثارهم، وبرزت فتنة (ابن رفادة) في الشمال (سنة ١٣٥١هـ)؛ فوجه إليه قوة سحقته ومن معه في معركة واحدة، وأعلن في هذه السنة (١٣٥١هـ ـ ١٢٣٢م) توحيد الأقطار الخاضعة له، وتسميتها (المملكة العربية السعودية)، ولم يشغله خوض المعارك وتجهيز الجيوش وقمع الفتن، عن تنظيم بلاده، وسن ما يلائمها من النظم، وإنشاء العلاقات السياسية والاقتصادية مع الدول العربية والأجنبية. =

= وفاض (البترول) في بلاده، وكانت فقيرة؛ فانتعشت، واتجهت إلى العمران، وحلّ الأمن محل الخوف في الصحاري والحواضر، وحوّل من بدء قيامه كثيرًا من أهل الخيام إلى سكان قرى أنشأوها، سميت (الهِجَر) جمع هجرة، ووصل مملكته المترامية الأطراف، بشبكات لا سلكية، وأتى بكثير من الطائرات سهلت على الناس التنقل، وأنشأ موانئ وعبَّد طرقًا، وأعفى الحجاج من (رسوم) كانت ترهقهم، واستكثر من الأطباء والزراعيين والمدرسين، وأرسل (بعثات) من أبناء الحجاز ونجد إلى الممالك القريبة والبعيدة؛ لتلقي العلم في جامعاتها، ولم تقم حركة وطنية في بلد عربي إلا شد أزرها. وكان موفقًا ملهمًا، محبوبًا، عمَّر ما بينه وبين ربه، وما بينه وبين شعبه، شجاعًا بطلًا، انتهى به عهد الفروسية في شبه الجزيرة، كريمًا لا يُجارى، خطيبًا، حديثًا، لا يبرم أمرًا قبل إعمال الروية فيه، يستشير، ويناقش، ويكره التملُّق والرياء.

توفي بالطائف، ودفن في الرياض، وخَلَفه ابنه الملك سعود الأول، وليّ عهده في حياته. وقد كتب عنه وعن بلاده في أيامه كثيرون بالعربية وغيرها، وهذا بعض المطبوع منها: «تاريخ نجد الحديث»، و«ملوك العرب» كلاهما لأمين الريحاني، و«قلب جزيرة العرب» و«البلاد العربية السعودية» كلاهما لفؤاد حمزة، و«جزيرة العرب في القرن العشرين» لحافظ وهبة، و«أحسن القصص» لخالد الفرج، و«صقر الجزيرة» لأحمد العطار، و«آل سعود في التاريخ» لفريد أبي عز الدين، و«الملك ابن سعود» لمحمد صبيح، و«الرجل» لنجيب نصار، و«الملك عبد العزيز» لعبد الله حسين، و«لمحة من سيرة الملك عبد العزيز» لمحيي الدين رضا، و«سيد الجزيرة العربية» لعمر أبي النصر، و«الإمام العادل» لعبد الحميد الخطيب، و«ابن سعود؛ سيد نجد وملك الحجاز» مترجم عن الإنكليزية، والأصل «Arabia of Prince» لكنث وليمز (Williams Kenneth)، و«ابن سعود» لمصطفى الحفناوي، و«Saudiana L'Arabia» (العربية السعودية) باللغة الإيطالية للمستشرق ألفونسو نلينو، و«Arabia» (البلاد العربية) بالإنجليزية للمستشرق جون فلبي، و«Arabia Saudi» (البلاد السعودية) بالإنجليزية لتويتشل، «Twithel. K.S» و«I'Arabie Roide S'eoudlbn» (ابن سعود ملك البلاد العربية) بالفرنسية لأنطوان زيشكا (Ziscka Antoin)، و«عربين أديت» (أمير العربية) باللغة التملية المتداولة في جنوب الهند =

ويقول له: إن محمدًا تقي الدين الهلالي من أفضل من أمّ بلادكم من أهل العلم[1]. وبعد انقضاء الحج تهيأ الشيخ مصطفى آل إبراهيم ليرجع إلى العراق فالتمست من إخواني الشيخ عبد الظاهر أبي السمح والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة وغيرهما أن يشفعوا لي عنده ليسمح ببقائي، وأكدت له أنني ما فارقته إلا بقصد البقاء في هذه البلاد المقدسة للتعاون مع إخواني على نشر العقيدة الصحيحة.

وكان الشيخ عبد الظاهر أبو السمح[2] قد كتب إليَّ مرارًا يرغبني في التوجّه إلى الحرمين والبقاء فيهما بعدما أصلح الله أحوالهما على يد الملك عبد العزيز آل سعود، وكنتُ في العراق أعيش أحسن معيشة؛ فقد كان الشيخ مصطفى آل إبراهيم قد أنشأ لي مدرسة وجعل لي راتبًا طيبًا وتزوجت هناك[3]، فجاهدت نفسي إلى أن أرغمتها على البقاء في مكة وترك ذلك كله، مع أنّي حتَّى ذلك الحين لم أوعد بشيء وكان معي أخي محمد العربي الهلالي، ولما فارقني الشيخ مصطفى آل إبراهيم سلم لي مقدارًا كبيرًا من الدراهم وقال لي: وزِّعه على العلماء وطلبة العلم السلفيين، فقلت في نفسي: أنا وأخي من طلبة العلم السلفيين، أفلا

= لعبد الرحيم، و«شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز» أربعة أجزاء، و«الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز» كلاهما للزركلي. وانظر له «الأعلام» (٤/ ١٩ ـ ٢٠).

(١) في «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٩٧): أفضل من جاءكم من علماء الآفاق، فأرجو أن تستفيدوا من علمه، أو كلامًا هذا معناه.

(٢) سبقت ترجمته وبيان علاقة الهلالي معه، وينظر للمكاتبات بينهما كتابي «رسائل الهلالي» (٤/ ١٦٩٩ ـ الفهارس).

(٣) كانت زوجته ابنة العلامة محمد فال الشنقيطي، وليس هو صاحب «أضواء البيان»، وللهلالي ترجمة مطولة له نشرت في مجلة «الفتح» وعنها «المنار»، أودعتها في كتابي «مقالات الهلالي».

يجوز لي أن آخذ لي ولأخي نصيبًا من هذا المال؟ ثم قلت لنفسي: إن المتبرِّع بهذا المال يعرفك ويعرف أخاك ويعلم أنكما محتاجان، فلو أراد أن يجعل لكما نصيبًا منه لصرّح بذلك، فالاحتياط والأخذ بالعزيمة يقضي بتوزيع المال كله وأن لا تأخذ لنفسك ولا لأخيك منه شيئًا، فوزَّعته كلَّه ولم آخذ شيئًا.

وكنتُ مع الشيخ مصطفى آل إبراهيم في ضيافة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلما سافر أقمت في الطبقة العليا[1] من البيت الذي كان يسكنه الشيخ عبد الظَّاهر أبو السَّمْح، وتلك الطبقة مهجورة شديدة الحر، فجاهدتُ نفسي على الصَّبر على تلك الحال، وكان مأمورُ الضيافة يسكن في الطبقة الأرضية فكنتُ أمر عليه فأسلِّم فلا يرد عليّ السلام إلا في بعض الأحيان.

وفي يوم جمعة أردتُ أن أغتسل للجمعة فذهبت إلى المستقى ـ ويسمونه البازان[2] ـ وطلبت من سقَّاء أن يأتيني بصفيحتين من الماء بعدما كنست الحوض وأخرجت ترابه، فلما جاء إلى البيت[3] وعلم أنني أسكن في الطبقة الخامسة[4] امتنع حتى زدته في الأجرة[5]، وصارت نفسي توسوس وتقول: كيف تترك راتبًا طيبًا وبيتًا حسنًا وتترك أهلك

(١) أفاد في «الديوان» (٧٥٢): «في غُريفة فيه».

(٢) زاد في «الديوان» (٧٥١): «وهو المورد المكشوف من عين زبيدة، يستقي فيه السقَّاؤون، فيملأ كل منهم صفيحتين، تربط كلٌّ منهما إلى رأس عمود، فيضعه السقاء على كتفه، فتكون إحدى الصفيحتين أمامه معلّقة في رأس العمود، والأخرى خلفه كذلك».

(٣) بعدها في «الديوان»: «الذي كنت أسكنه بقرب المسعى».

(٤) بعدها في «الديوان»: «التي ليس بعدها إلا السماء».

(٥) بعدها في «الديوان»: «فجاء السَّقَّاء بستّ صفائح، ووضعها في الحوض المبني في الجدار، فأخذتُ شيئًا من ذلك الماء واغتسلتُ به».

وتصبر على هذه الحال؟ فأدفع هذا الوسواس بمثل قوله تعالى[1]: ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فلما اغتسلتُ وتهيّأتُ للذهاب إلى المسجد الحرام إذا بخادم مأمور الضيافة يطرق الباب ويقول: إن مأمور الضيافة يسلم عليك ويرجو أن تمرّ على مكتبه. فنزلتُ إليه، فتلقاني بغاية البشاشة والحفاوة وقال لي: جاءني أمر هاتفي من القصر الملكي[2] بأن أنزلك في الضيافة[3] وأعتذر إليك في التأخير إلى ما بعد العصر، كما أرجو أن تتناول طعام الغداء بعد صلاة الجمعة معي، وبعد صلاة العصر يكون كلُّ شيء جاهز.

فجاءني بعد صلاة العصر وذهبنا إلى دار الضيافة، وهي دار السَّقاف في محلة أجياد، فوجدت مسكنًا طيبًا مؤثثًا أحسن الأثاث ونزلتُ في الضِّيافة، وانفرجت الأزمة.

وبقيتُ أربعة أشهر في الضيافة، ثم قال لي الشيخ عبد الله بن حسن[4] ـ رحمة الله عليه ـ ما رأيك في أن تكون إمامًا وخطيبًا في

(١) في «الديوان» (٧٥١ ـ ٧٥٢): «فكنت أردُّه بقوله سبحانه في سورة النحل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۞ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١ ـ ٤٢].

(٢) في «الديوان» (٧٥٢): «إن رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن حسن كلَّمني بالتلفون، وأمرني أن أُنزلك في ضيافة الملك».

(٣) في «الديوان»: «وقد اخترتُ لك مسكنًا جميلًا بمحلة أجياد، وأمرت رجالي بفرشه وإعداده».

(٤) هو عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ، توفي سنة ١٣٧٨هـ، ترجمته في «مشاهير علماء نجد» (١٢١). وكان آنذاك رئيس القضاة والمدرسين في المملكة العربية السعودية، وللهلالي معه ذكريات حسنة، وبينهما مودة، انظر «رسائل الهلالي» (٢/٧٤٦، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٨) و«الديوان» (٢١٣، ٢١٦، ٦٤٥، ٦٥١، ٦٥٣، ٦٥٤، ٧٥٢).

المسجد النبوي؟ فقلت له: أقبل بشرط أن لا أنقص عن عشر تسبيحات في السجود والركوع، فقال لي: هذا كثير على الناس لا يتحمَّلونه. فقلت: وأنا لا أقبل إلا بهذا الشرط، فقال لي: إذًا نعطيك عملًا آخر وهو مراقبة المدرسين في المسجد النبوي. فقلت: قبلتُ، هذا مع أن الشيخ عبد الله بن حسن ـ رحمة الله عليه ـ حين سافرنا إلى المدينة كان يقدِّمني دائمًا إمامًا في الصلاة، فهو رحمة الله عليه كان يستحسن ما اخترتُه من إتمام الركوع والسجود والاعتدال إلا أنه رأى أن عامة المصلين يشقُّ عليهم ذلك، فالله يجزل ثوابه ويرحمه رحمة واسعة.

سافرت إلى المدينة بصحبة الشيخ عبد الله بن حسن وكان معنا الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة[1] وقد عُيِّن ....

(١) كان ذلك في جُمادى الأولى سنة ١٣٤٦، أفاد ذلك محمد عبد الرزاق حمزة في ترجمته الذاتية التي كتبها لزكريا بن عبد الله بيلا (ت١٤١٣هـ) وأودعها الأخير في كتابه «الجواهر الحسان في تراجم الفضلاء والأعيان من أساتذة وخلان» (١/٣٥٨ ـ ٣٥٩)، وفيها: «وفي سنة ١٣٤٤هـ حضرت للحج، وتشرفت بلقاء جلالة الملك عبد العزيز آل سعود برفقة شيخنا السيد محمد رشيد رضا، والشيخ عبد الظاهر أبي السمح، والأديب المرحوم محمود علي منصور الإسكندري، والشيخ أبي زيد الدمنهوري وغيرهم، ونزلنا بضيافته، ووصلنا ببره ومعروفه، وقد عرض علينا الشيخ عبد العزيز العتيقي مستشار الأمير فيصل نائب جلالة الملك على الحجاز أن نبقى لنخدم هذه الحكومة الإسلامية التي نحن على مبادئها الدينية، فيكون لنا عندها مقام محترم، ونخدم ما نعتقد من الإسلام تحت ظلها، وحمايتها، أجبنا مسرورين، على أن نرجع إلى بلادنا فنحمل أهلنا وولدنا معنا، فرضوا، وكان هذا شبه وعد بذلك، رجعنا إلى مصر، وتابعنا للهجرة، واستعددنا لها، وعاوننا على ذلك الحكومة السعودية على يد معتمدها في مصر فوزان السابق، فحضرت أنا والصهر أبو السمح، ووصلنا الحجاز في ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥هـ، وتقابلنا في جدة بجلالة الملك ابن السعود في دار الشيخ محمد أفندي نصيف، فرتب جلالته =

= الشيخ أبا السمح إمامًا وخطيبًا للمسجد الحرام، وتعينت مدرسًا بالمسجد الحرام، والمعهد السعودي، وفي ذلك الوقت تعرفنا إلى الشيخ عبيد الله السندي، أحد علماء الهند المتقنين، فقرأنا عليه برفقة غيرنا (مقدمة) «صحيح مسلم»، وشيئًا من أول «صحيحه»، و«علل الترمذي»، وشيئًا من أول «جامعه»، و«نخبة الفكر» للحافظ ابن حجر، وأول «الموطأ» وشيئًا من «حجة الله البالغة».

وفي جمادى الأولى سنة ١٣٤٦هـ صدر أمر جلالة الملك بانتقالي إلى المدينة المنورة خطيبًا للمسجد النبوي، وإمامًا لصلاة الصبح، ومدرسًا، ووكيلًا لهيئة مراقبة الدروس فيه، وبقيت على ذلك إلى ذي الحجة سنة ١٣٤٧هـ، إذ صدر أمر جلالة الملك بتحولي إلى مكة لأسباب اختلاف وقعت بيني وبين أهل المدينة يطول شرحها، وكان أمير المدينة في ذلك الحين عبد العزيز بن إبراهيم.

تحولت إلى مكة المكرمة في أول سنة ١٣٤٨هـ فعينت مدرسًا بالمسجد الحرام والمعهد السعودي، فاشتغلت في تدريس كتب الحديث فيه، وإني أدين الله بمذهب السلف الصالح في العقائد، وأصول الإيمان على المشرب الذي حققه شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن نحا نحوه من تلاميذه ومن بعدهم».

وأخيرًا كان يقوم بالإمامة والخطابة في الحرم المكي كمساعد لأبي السمح.

وحدث أن كتبت جريدة «المصري» بخصوص المسجد النبوي، وأن بعض أعمدته كادت أن تسقط، ثم أخذت الصحف في الإشادة بالإصلاح، ومنها المهول للأمر، ومنها المبالغ وهكذا، وقد قام الملك عبد العزيز رحمه الله بجميع ما يلزم من التكاليف لتصليح الأعمدة، وكل ما يلزم إصلاحه على نفقته الخاصة.

توفي رحمه الله بمكة في ٢٥ من ذي الحجة، عام ١٣٩١هـ ودفن بالمعلاة.

وتنظر علاقة الهلالي معه وهي حسنة، وهناك مواقف عديدة، انظرها في «ديوانه» (٢١٣، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٦٥٠) و«الرسائل» (٤/ ١٧٢٤ ـ الفهارس).

ترجمته في «نثر الدرر» (٦٥)، «الأعلام» (٦/ ٢٠٣)، «أعلام المكيين» (١/ ٣٩٧).

وفصل الهلالي في مقاله «الطرائق في الحجاز» في الركب الذي كان بصحبة الشيخ عبد الله بن حسن، قال بعد كلام: «ثم توجه الشيخ عبد الله بن حسن بارك الله في أعماله بأمر الملك أيده الله إلى المدينة ومعه معاونه الأستاذ الشيخ =

إمامًا وخطيبًا في المسجد النبوي بعد أن اعتذرت أنا عن قبول ذلك، فأقمنا بالمدينة أيامًا.

إِزالة بستان فاطمة

كانتْ في صحنِ المسجد النَّبوي بئرٌ ونخلةٌ وشجيراتٌ وكان الجهال يسمون ذلك (بستان فاطمة)[1] ويتبرَّكون بالنخلة وتمرها وبالشجيرات والبئر، ويعتقدون أن بئر زمزم تجري تحت الأرض حتى تتصل بتلك البئر يوم عاشوراء من كل سنة، فيقبل الناس في يوم عاشوراء على تلك البئر

= محمد بن التركي وكاتب هذه السطور والأستاذ الشيخ محمد عبد الرزاق المصري خطيب المسجد النبوي ومراقب الأمور الدينية فيه إلى طيبة الطيبة لينظر الشيخ ومعاونه في شؤونها الدينية، فتفقد الدوائر كلها؛ الأوقاف والمعارف والعسكرية والشرطة والعدلية والإدارة العامة ودائرة الأمير، ونظمها الشيخ على أحسن ما يمكن وعزل بعض الموظفين، ووضع لـ «جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» نظامًا شرعيًّا يسيرون عليه، ثم ألقى نظرة إلى مشايخ الطرائق فوجد أمرهم بالمدينة خَفِيًّا خفيفًا، وسترها لم يبحث عنهم أكثر من ذلك آخذًا بقاعدة البدعة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها وإذا ظهرت ضرت الناس كلهم».

(١) أشار إلى هذا جمع ممن ألف في تاريخ المدينة النبوية، وأن شجرات النخيل كانت لا تتجاوز خمس عشرة نخلة، ولها ساقية مجصصة، وأُوقف عليها أوقاف كثيرة، قال عبد القدوس الأنصاري في «آثار المدينة المنورة» (ص٩٤) وهو يتكلم عن أجزاء المسجد النبوي:

«الصّحْنُ للمسجد النبويّ صحن واسع، مفروش بالرمل الأحمر المجلوب له من عَرْصَة العقيق، وقد زيدَ صَحْنٌ آخر في عمارة المسجد السعودية، وبناحيةِ الصحنِ الجنوبيةِ الشرقية كانت بئرٌ ذات فتحة مُرَخّمة، بجانبها حديقةٌ صغيرة، وقد أزيلتا في مطلع عهد الحكومة السعودية، وما يقع بجنوب الصحن القديم الأول من جُدُرِ المسجد أحمر اللون كأغلب أعمدته».

وينظر «وفاء الوفاء» (٦٨٢)، «الجواهر الثمينة» (١٠٣).

ويأخذون منها ماءً كثيرًا للتبرك به! فاستشارنا الشيخ عبد الله بن حسن ـ رحمة الله عليه ـ في طمِّ البئر وإزالة البستان، فلم نتردَّد في الموافقة على ذلك، لأن المسجد كله وقفٌ للصلاة ولا يجوز أن يُشغل بغيرها، ولأن الجهال يفتتنون بماء البئر والنخلة والشجيرات، فكتب رَحِمَهُ اللهُ إلى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمٰن رَحِمَهُ اللهُ يخبره بما رأيناه ويستأذنه في تنفيذه، فجاء الإذن، فأمر الشيخ بطمِّ البئر وقلع تلك الأشجار وتسوية الأرض، فكانت من حسناته رحمة الله عليه، ولما قُلعت النخلة والأشجار وقُطعت قطعًا[1] وحُملت إلى خارج المدينة انتظر المفتونون بها مجيء الليل بظلامه فأخذوها كلها ولم يبقوا شيئًا، ولا بد أن يكونوا قد اقتتلوا عليها؛ لينال كلٌّ واحد منهم قطعةً صغيرةً من الأشجار وأوراقها.

وهنا نذكر شجرة (ذات أنواط) التي كانت للمشركين في الجاهلية ينوطون بها أسلحتهم ويتبركون بها، قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «التوحيد»[2]: (باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما) ومضى إلى أن قال: وعن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فقلنا:

---

(١) الذي نفذ ذلك الهلالي نفسه، قال بوخبزة في كتابه «صحيفة سوابق وجريدة بوائق» (ص١٦ ـ ١٧) بعد كلام: «ونشير هنا إلى مأثرة إيمانية لشيخنا الدكتور الهلالي رَحِمَهُ اللهُ لا يعرفها كثير من الناس، وهي اجتثاثه لما يسمى (بستان فاطمة) بصحن المسجد النبوي، الذي كان يشتمل على نخلة وأشجار، حيث لاحظ شيخنا أن النساء يتمسحن بها، ويأخذن من أغصانها للتبرك. فعمد ليلًا مع تلاميذه ـ وكان وقتها إمامًا بالحرم النبوي ـ، واستأصلوا تلك الأشجار، وأخرجوا جذوعها إلى البقيع...».

(٢) (ص٣٤).

يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر! إنها السُّنن، قلتم والذي نفسي بيده! كما قالت بنو إسرائيل لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] **لتركبنّ سنن من كان قبلكم**»[١] رواه الترمذي وصححه، قال شارحه الشيخ سليمان بن عبد الله[٢] ـ رحمة الله عليه ـ في شرح هذا الحديث (ص١٥٠) ما نصه: «فإذا كان اتخاذُ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوفُ عندها اتخاذَ إلٰه مع الله، مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظنُّ بما حدث من عُبَّاد القبور من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والعكوف بقبورهم وتقبيلها وتقبيل أعتابها وجدرانها والتمسح بها والعكوف عندها وجعل السدنة والحجاب بها؟! وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركًا؟!

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي[٣] من أئمة المالكية: «فانظروا ـ رحمكم الله ـ أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظِّمونها[٤]،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي (٢١٨٠)، والشافعي (٢٣ ـ بدائع المنن)، وعبد الرزاق (٢٠٧٦٣)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٠١)، والحميدي (٨٤٨)، والطيالسي (١٣٤٦)، وابن أبي عاصم (٧٦)، ومحمد بن نصر المروزي (٣٧ ـ ٤٠) كلاهما في «السنة»، وأبو يعلى (١٤٤١)، وابن إسحاق ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٤/ ٨٤ ـ ٨٥) ـ، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ١٧٢)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٣٢٩٢، ٣٢٩٣، ٣٣٩٤)، والبيهقي في «دلائل التوحيد» (٥/ ١٢٤ ـ ١٢٥)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤) **وإسناده صحيح**.

(٢) هو سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في «شرحه لكتاب التوحيد» المسمى «تيسير العزيز الحميد» (ص١٧٤، ١٨٠ ـ ١٨١).

(٣) في كتابه «الحوادث والبدع» (ص٣٨ ـ ٣٩).

(٤) في مطبوع «الحوادث»: «ويعظمون من شأنها».

ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون[١] بها المساميرَ والخِرَقَ، فهي ذات أنواط فاقطعوها». وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمٰن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في كتاب «البدع والحوادث»[٢]: «ومن هذا القسم أيضًا ما قد عمَّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كلِّ بلد يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن شُهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقرِّبون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر. وفي مدينة دمشق ـ صانها الله من ذلك ـ مواضعُ متعددة؛ كعونية[٣] الحمى خارج باب توما، والعمودُ المخلَّق داخل باب الصَّغير، والشجرة الملعونة اليابسةَ خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق، سهَّل اللهُ قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث». اهـ.

فماذا يقول أعداء التوحيد الذين يبغضون الموحِّدين ويسمُّونهم بالوهابية، فهل كان أبو بكر الطرطوشي وعبد الرحمٰن أبو شامة أيضًا وهابيين؟!

وبعدما استقررتُ في المدينة بعث حبيبُ الله الشنقيطي من مصر إلى

(١) كذا هنا وفي «سبيل الرشاد» (١/ ٤١٠)، وصوابها: «وينوطون» كما في «الحوادث».

(٢) اسمه «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص١٠١ ـ ١٠٤/ بتحقيقي).

(٣) وفي مطبوع «الباعث»: «تعونية»، وفي طبعة «سبيل الرشاد» الأولى: «كمدنية»، والصواب المثبت، وهي كذلك في مخطوطة «الباعث» (ق ١٥٧/ أ) ضمن مجموع في تشستربتي منسوخ سنة ٧٩٧هـ.

المدينة رجلين ليأتياه بزوجته، أحدهما الشيخ إبراهيم المراكشي والثاني شنقيطي لا أعرف اسمه، والشيخ إبراهيم المراكشي مغربي استوطن القاهرة منذ زمان طويل، وهو رجل كريم ضيّفني مرارًا في بيته، فلما رأيتُه دعوتُه للغداء، فلما رجع إلى القاهرة كان من أعجب المصادفات أن العلاقة بين الشيخ إبراهيم الودنوني وبين حبيب الله الشنقيطي قد ساءت ووقعت بينهما وحشة، فألقى الكتاب الذي أخذه مني في البريد، فوصل الكتاب مع وصول الرجلين الذين بعثهما إلى المدينة، فظنّ حبيب الله أن إبراهيم المراكشي هو الذي جاء بالكتاب وألقاه في البريد فأخذ يلومه، ويقول: يا شيخ إبراهيم! هذا قدري عندك، تأتيني بكتاب يتضمن تكفيري من ذلك الجهول! فحلف إبراهيم المراكشي أيمانًا مغلَّظةً أنه لم يأخذ مني كتابًا ولا سمع مني كلامًا في حقه، فلم يصدِّقْه، وحصل الغرض المطلوب وهو جزاؤه على إساءته بإساءة مثلها.

العشاء في قصر الملك حُسَين

لما حججتُ الحجة الأولى سنة ١٣٤١هـ وجدت شيخًا من بلدنا بوابًا في قصر الملك حسين، ففرح بي كثيرًا ودعاني للعشاء، وكان من جملة حديثه لي أن قال: يا بني! إن هذه البلاد الشرقية فيها عجائب وغرائب، فكن على حذر من أهلها فإنها ليست كبلادنا أهلها كلهم سنيون على مذهب إمامنا مالك، ففي هذه البلاد طائفة يقال لهم الوهابية يبغضون النبي ﷺ ولا يذكرون اسمه أبدًا، فيقولون: لا إله إلا الله مالك يوم الدين، بدل أن يقولوا: محمد رسول الله! فأظهرت له التعجب.

وفي سنة ١٣٤٥هـ لما كنت في الضِّيافة الملكية بحثت عنه حتى وجدته وضيَّفته وعرف حينئذٍ أنني من الطائفة التي حذَّرني منها، فسكت

ولم يقل شيئًا، وفي يوم من الأيام كان معي فقصدنا المسجد الحرام فوجدنا الشيخ عبد الظاهر أبا السمح رَحِمَهُ ٱللَّهُ جالسًا على الحصى، فجلست معه وجلس رفيقي، فقال عند جلوسه: يا رسول الله! فقال له أبو السمح: قل: يا اللهُ! فقال: ما أقول إلا يا رسول الله يا رسول الله يا رسول الله، فاضرب عنقي إنْ قدرتَ، ثم قال لي: هذا فراق بيني وبينك، فإنَّ صُحبَتك تجرّني إلى لقاء هؤلاء القوم، وهرب ولم أره بعد ذلك.

فانظر إلى الجهال الذين يُسمّون بالعلماء كيف يُضلّلون العوام الجهال ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

ملك الحجاز غيرُ المتوَّج

هكذا كان يُسمّي السيدُ رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ عميدَ السلفيين في الحجاز الشيخ محمد نصيف[(١)] ....

(١) هو محمد بن حسين بن عمر بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد نصيف؛ عالم (جدة)، وصدرها في عصره، ولد بها سنة ١٣٠٢هـ يوافق ١٨٨٥م، وتوفي مستشفيًا بالطائف، ودفن بجدة، مات والده وهو صغير؛ فرباه جده عمر، وأولع بالكتب؛ فجمع مكتبة عظيمة، ونشر كتبًا سلفية، وأعان على نشر كثير منها، وكتب في الردود، وكان مرجعًا للباحثين، قال أمين الريحاني في «ملوك العرب»: هو دائرة معارف ناطقة، يجيب على السؤالات التي توجه إليه، ويهدي إلى مصادر العلوم الأدبية والتاريخية والفقهية. ومن خط الشيخ ابن مانع، قال: «لم نعلم في الحجاز رجلًا يساويه في الكرم وحسن الخلق، وفي ٢٥ شعبان سنة ١٣٧٦ كنتُ في بيته بجدة، وسألته عن أصل نسبه؛ فأجاب: الأصل من صعيد مصر، وجماعتنا في الصعيد يدعون أنهم من قبائل حرب، ولكن جدي عمر كان يرى أنهم ليسوا من العرب».

وكان بيته ملتقى الفضلاء القادمين من مختلف البلاد، كتب السيد محمد رشيد =

بارك الله في حياته[١]، وقد كان في تلك الأيام المظلمة سراجًا يضيء لمن ألهمه الله رشده طريق التوحيد واتّباع السنة، وكان بيته لا يخلو من الضيوف الواردين من جميع أنحاء الدنيا من أمراء البيت الهاشمي وبعد ذلك أمراء البيت السعودي إلى فقراء الحجاج من أهل الهند. هكذا وجدته سنة **١٣٤١**هـ ولا يزال كذلك إلى يومنا هذا، ومناقبه لا يفي بها إلا مؤلَّف خاص، وهو أشهر من أن يُعرف، ومع أنه كان متَّهمًا بالوهابية كان موضعَ احترامٍ وإجلالٍ من جميع الناس، من الملك حسين وأبنائه إلى الطبقة السفلى من العامة؛ لأنه من أشرف بيوتات الحجاز، ولما آتاه الله من علوّ القدر والوجاهة والمهابة، وللسخاء العظيم الذي هو من أخصِّ صفاته، وفي الحديث: «**السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة**»[٢]، وما أحسن قول الشاعر:

= رضا في «المنار» فصلًا عنوانه: (محمد نصيف؛ نعم المضيف)، وكان حلو الحديث، قويّ الذاكرة، لا يكاد يصدر كتاب مما يروقه إلا اشترى منه نسخًا وأهداها إلى المكتبات العامة وبعض معارفه، وخلف مكتبة حافلة بالمخطوطات والمطبوعات، توفي صبيحة يوم الخميس الموافق السادس من جمادى الآخرة سنة ١٣٩١هـ، وكان الهلالي يجلّه، وله معه مراسلات، تنظر في كتابي «مراسلات الهلالي» (٣/ ١٠٦٥ ـ ١٠٨٦) مع تعليقي عليه (**مهم**)، وقد حصلت بعضها من حفيده السيد عبد الرحمٰن بن عمر، وترجمة نصيف في مجلة «العرب» (٦/ ٦٣، ٢٢٢، ٢٢٦)، و«المنهل» (٣٢/ ٧٥٣)، و«عكاظ» (٩ جمادى الآخرة ١٣٩١)، وللشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد وصديقه عبده العلوي كتاب ضخم جيد بعنوان «محمد نصيف حياته وآثاره» مطبوع عن المكتب الإسلامي، وانظر «الأعلام» (٦/ ١٠٧ ـ ١٠٨) للزِّركلي.

(١) توفي رحمه الله. (خ)

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٦١) عن أبي هريرة مرفوعًا، **وهو ضعيف جدًّا**.

تَغَطَّ بِالْسَّخَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ فَكَمْ عَيْبٌ يُغَطِّيهِ السَّخَاءُ[(١)]

وقال آخر:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ[(٢)]

ومع شدّة عداوة الملك حسين لمن يسميهم بالوهابيين كان يحجم عن الإساءة إلى هذا الرجل الكريم إلى أواخر أيامِ ملكه، فقبض عليه ونفاه من الحجاز إلى قبرص، فسجن هنالك وعزم على قتله، فانهالت عليه البرقيات من جميع أنحاء العالم تحذِّره من هذه الجريمة، ومن جُملة مَن حذَّره ابنه فيصل الأول وسائر أبنائه، وبعد سجن دام أربعين يومًا أطلق الله سراحه ليعود إلى خدمة العلم والدين وأعمال البرّ وبناء المكرمات.

وقد طفت كثيرًا من أنحاء العالم من المغرب الأقصى غربًا إلى كلكتا شرقًا، ووصلت من جهة الشمال إلى الأراضي القطبية التي لا تغيب فيها الشمس مدة ثلاثة أشهر، فما رأيت أحدًا من العلماء والوجهاء منحه الله من خدمة العلم والعلماء وكرم الضيافة والبرّ والإحسان مثل ما لهذا الرجل، فهو بدون منازع **عميد السلفيين في الحجاز**، بل وفي سائر أنحاء الدنيا، فكم طبع من كتب السنة والتوحيد، ووزع منها الأعداد الوافرة في جميع أنحاء العالم، وكم له من أياد بيض على أهل العلم والفضل الذين يَرِدُون منهلَه العَذْب من جميع أقطار العالم في هذه المدة الطويلة، فنسأل الله أن يبارك في حياته ويزيده من فضله.

---

(١) من شعر الإمام الشافعي في «ديوانه» (١٧) وفيه:

تَسَتَّر بالسَّخاء فكلُّ عيبٍ يُغطيه كما قيل السَّخاءُ

(٢) قائله أبو الفتح البستي (ت٤٠٠هـ)، والبيت في «ديوانه» (٧٣)، وهو من ضمن قصيدة بعنوان (عنوان الحِكَم).

عبد الرؤوف الصَّبَّان(١)

من أفضل من لقيتهم من السلفيين الذين يوحِّدون الله ويتَّبعون رسوله ﷺ: السيد عبد الرؤوف الصبان رحمه الله، وكان مديرًا لشركة دبغ الجلود في مكة، فقد أكرمني وأنزلني في بيته، وكنت مريضًا فأخذني إلى الطبيب، ولم يزل يرعاني ببرّه وإحسانه إلى أن انتقلت وأنا مريض إلى جُدَّة، فنزلت عند عميد السلفيين أطال الله بقاءه، وكان يخدمني بنفسه ويجبرني على شرب الحليب إلى أن شُفيت، ثم سعى لي في الحصول على الركوب في الباخرة مجانًا إلى بومباي في الهند، وفي تلك الأيام التي كنت عند الشيخ عبد الرؤوف الصَّبان عرض عليه الأمير علي بن الحسين أن يتخذه كاتبًا له فاستشارني فنهيتُه؛ فلم يقبل نصيحتي وصار كاتبًا عند الأمير المذكور، وبعد مدة قصيرة وقعت الحرب بين الملك عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود وبين الملك علي بن الحسين بعد

(١) ولد سنة ١٣١٦هـ بمكة، وتخرج من دار العلوم بمصر، وهو يعتبر من أوائل المتعلمين الذين تلقوا دراسة منتظمة خارج البلاد في ذلك العهد، وكان من أصدقاء الشيخ محمد نصيف، ثم كان صديقًا للملك علي بن الحسين، ثم هاجر من الحجاز إلى مصر والعراق، وكان يعمل هناك سكرتيرًا للملك علي، وحين أصدر الملك عبد العزيز آل سعود نداءً في عام ١٣٥٤هـ إلى المهاجرين للعودة إلى بلادهم، والعمل لإنهاضها، كان عبد الرؤوف من أوائل من استجاب، وعين عضوًا في مجلس الشورى، وكان من أبرز الأعضاء العاملين في المجلس، ثم عين أمينًا عامًّا للأوقاف بمكة المكرمة، ثم عين أمينًا لمكة، ثم توثقت صلته بالأمير فيصل. وكان أول من أدخل الميكروفنات للمسجد الحرام، وقام بتسقيف المسعى، ومات بعد مرض قصير في لبنان رحمه الله تعالى في ١٣٨٤هـ. وانظر عنه «الجواهر الحسان»، (١/ ٢٣٢، ٢٤٥، ٣٤٠) و(٢١٥/ ٥٥٤، ٧٢٠) و«أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر» (١/ ٣٢٣).

فرار أبيه إلى قبرص، فانهزم الملك علي بن الحسين وخرج من مكة ورافقه كاتبه الشيخ عبد الرؤوف الصبان وبقي منفيًّا معه سنين طويلة، في أثنائها لقيته في بغداد فوجدته نادمًا على عدم قبول نصيحتي له.

السفر إِلى الهند[1]

بعدما شفيتُ من مرضي عرضتُ على أبي مثواي السيد محمد نَصِيف رغبتي في السفر إلى الهند للقاء علماء أهل الحديث، فسعى لي بواسطة القائم مقام في جدة السيد زينل[2] في الحصول على تذكرة سفر في الباخرة مجانًا من جدة إلى بومباي، وسافرت منها إلى دلهي.

وكان الشيخ عبد الوهاب الدهلوي قد كتب لي كتاب توصية إلى عمه الحاج عبد الغفار[3] في دلهي؛ فضيفني وأكرمني ولقيت النواب صدر الدين المدبر لشئون مدرسة (علي جان) ومسجده، وكان عالمًا بالعربية وعلوم الدين، فصيح اللسان بالتحدث بلغة الضاد، وكان المتحدثون بفصاحة باللغة العربية في ذلك الزمان في بلاد الهند في غاية

(١) سبق ذلك أحداث مما جعل الملك عبد العزيز آل سعود يخرجه من المعهد السعودي في مكة، وكان سبب ذلك وشاية أمير المدينة به، وسيأتي تنويه الهلالي لذلك، ومع هذا فقد أفاد الأستاذ محمد بن سعد الشويعر في مقاله (حول تقي الدين الهلالي): «أرسلني الملك عبد العزيز مع غيري برسائل لوكلائه في البصرة والبحرين، لتسهيل أمورنا إلى الهند سفرًا ودراسة لدى علماء أهل الحديث كما هي عادته».

(٢) هو القائم مقام حاكم جدة، كذا قال في «الديوان» (٦٥١).

(٣) هو الشيخ عبد الغفار بن الحاج عبد الرحمٰن بن الحاج علي جان الدهلوي التاجر الشهير بالهند، رأيت له إجازة بخطه فيها أنه قرأ «الصحيحين» وأطراف من «سنن أبي داود» على المحدث الشهير نذير حسين، و«مشكاة المصابيح» على ولد أستاذه هذا حسين، وفيها بقية مشايخه، انظر «الثمر الينيع» (٣٩٣).

القلَّة، فرحب بي واستحسن مقصدي، وقال لي: إنَّ تجوُّلَك في بلاد الهند للقاء العلماء والاطلاع على الكتب يحتاج إلى أمرين: **أحدهما**: الدراهم، **والثاني**: اللغة.

وبدون هذين تتعب كثيرًا ولا تحصل على طائل، فأنا أقترح عليك أن تمكث عندنا هنا سنة تتعلم فيها شيئًا من اللغة الهندية وتحصل على شيء من المال، وفي أثنائها يستفيد من علمك تلامذة مدرستنا، فإن الطلبة عندنا يدرسون كتب التفسير والحديث والأدب العربي نظمًا ونثرًا بالترجمة الهندية بلغة أردو من البداية إلى النهاية، ويتخرجون في المدرسة (ولا تقل من المدرسة) ولم يقرع آذانهم كلام باللغة العربية، فيعيشون بكمًا صمًّا يعتمدون على ترجمة الكتب لا على الكتب نفسها.

فقبلتُ هذا الاقتراح وأقمتُ في مدرسة (علي جان)(١) فأمر النواب(٢) صدر الدين المتقدمين في العلم من الطلبة أن يحضروا دروسي، فحضر عندي خمسة عشر طالبًا لا يزال أحدهم بقيد الحياة معروف مكانه، وهو الشيخ عبد الودود بن عبد التواب الملتاني(٣) وقد حجَّ في السنة الماضية عام **١٣٩٠**هـ ولقيتُه هنا بالمدينة.

---

(١) إحدى مدارس أهل الحديث في دهلي، وهي للمتقدمين من الطلبة، أفاده الهلالي في المجلة.

(٢) النواب: لقب شَرَف حكومي، كالباشا في مصر، أفاده المصنف في المقالة المنوه بها قريبًا.

(٣) والد عبد الودود هذا هو العلامة المحدّث عبد التواب الملتاني (ت١٩٦٦م)، وهو محقق بارع، وله كثير من المنشورات والتحقيقات، فهو الذي نشر ثلاثة أجزاء من «مصنف ابن أبي شيبة» لأول مرة، كما حقق «مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر» لمحمد بن نصر المروزي، واختصار المقريزي، و«مسند عمر بن عبد العزيز» للباغندي، و«تحفة المودود بأحكام المولود» لابن =

حادثة عجيبة[1]

قلت لأولئك الطلبة: ماذا تريدون أن أدرِّسكم من كتب الأدب؟ فقالوا: نريد أن تدرسنا «ديوان المتنبي»؛ فبدأتُ أدرِّسهم ووجدتُ صعوبةً في إفهامهم؛ لأنهم كما قال النواب صدر الدين: لم يقرع آذانهم كلام عربي قط، وبعد أربعة أيام وصلنا إلى بيت من قصيدة للمتنبي يمدح بها سيف الدولة، وكانت النسخة التي كنا نقرأ فيها مطبوعة في دهلي وفيها أخطاء، فوجدنا فيها البيت هكذا:

أَنَـالَـهُ الْـشَّـرَفَ الأَعْـلَـى تَـقَـدُّمُـهُ فَمَـا الَّـذِي يـتَـوَقَّـى مَـا أَتَـى نَـالَ[2]

ففكرت في معنى الشَّطر الثاني من هذا البيت فلم أكد أفهمه، فلما حضر الطلبة قلت لهم: هذا الشطر لم أفهمه وأظن أنه محرَّف[3]، فأنكروا

= القيم، و«حاشية السندي على صحيح مسلم» وغيرها من كتب السنة التي تقارب عشرين كتابًا، وكلها طبعت طبعات حجرية، وقد قام بتصحيحها والتعليق عليها، ونقل فوائد نادرة من كتب الحديث والتاريخ والرجال، انظر «دور الهند في نشر التراث العربي» (٧٤ ـ ٧٥).

(١) ذكر الهلالي هذه الحادثة في مقالته (الأمانة والخيانة في التعليم) المنشورة في مجلته «لسان الدين» السنة الأولى، الجزء العاشر، جمادى الأولى ١٣٦٦هـ ـ إبريل ١٩٤٧م (ص١ ـ ١٤) وأرخ فيه هذه الحادثة في سنة ١٣٤٢هـ.

(٢) سيأتي توثيقه والكلام عليه.

(٣) قال في مقالته المنوَّه بها بعد بيت الشعر المحرف ما نصه:
«هكذا وجدته في النسخة المطبوعة بدهلي، فأعملتُ فكري في الشطر الثاني من البيت فعمي علي، ولم يفتح علي فيه بشيء، فبقيت متحيرًا في أمري: ماذا أصنع؟ هل أُلَفِّقُ لهم كلامًا لا معنى له، وأقول لهم هذا معناه، كما يفعله خونة المدرسين؟ وهم لا يفهمون إلا قليلًا، فيتهمون ضعفهم وعجزهم، وأتخلص أنا من هذه الورطة؟ ولكني أرتكب الخيانة في العلم، وذلك ما لا أرضاه أبدًا. أو أقول لهم (لا أدري) فيزدادوا نفورًا، ويصدق فيَّ قول =

ذلك وقالوا: (توبة، أستغفر الله)[1] وهاتان الكلمتان تستعملان في لغتهم عند الغضب والإنكار الشديد، وقالوا لي: إن هذه النسخة التي في يدك درّسنا بها مولانا عبد الرحمٰن النكرامي مرارًا فلم يجد فيها خطأ، فيا لله للعجب! أنت عربي وأديب وتعجز عن فهم كلام المتنبي مع أن أقلَّ الأدباء علمًا عندنا يدرِّس «ديوان المتنبي» بدون مطالعة، والآن ظهر لنا صدق ما قال أستاذ الأدب مولانا[2] عبد الرحمٰن النكرامي. فقلت لهم: وماذا قال؟ قالوا: قال لنا: اذهبوا إلى النواب صدر الدين، وقولوا له: إننا لا نفهم كلام هذا المدرس العربي ولا حاجة لنا بتدريسه. فقلنا له: نحن نستحي من النواب أن نقول له ذلك. فقال لنا: اعلموا أن العرب في هذا الزمان كلهم جهال لم يبق عندهم من العلم شيء، وإنما كان عندهم العلم في زمان النبي ﷺ وفي زمان السلف الصالح، أما اليوم فلا علم عندهم، أما ترونهم كلَّ سنة يأتون من مكة والمدينة ويتكفَّفون الناس، فهل رأيتم منهم أحدًا من أهل العلم؟ يضاف إلى ذلك أن هذا العربي ـ يعنيني ـ شاب مجهول في الهند لا يعرفه أحد وشهادته لا تنفعكم، وأنا لا أعطيكم شهادة إذا تركتموني ودرستم عنده. فقلت لهم: إن شئتم أن تحضروا درسي فاحضروا، وإن رأيتم أنَّ درسي لا فائدة فيه فانصرفوا إلى مولانا عبد الرحمٰن. فانصرف أحد عشر منهم وبقي أربعة لا لأنهم يعتقدون صحة ما قلت لهم من أن شطر البيت يمكن أن يكون محرَّفًا؛ بل فضّلوا سماع

= مولانا عبد الرحمٰن: إنني وجميع العرب في هذا الزمان جاهلون؟ فغلبني الله على النفس واتبعت خطة الصدق، وقلت لهم: لا أدري معنى هذا الشطر».

(١) هاتان الكلمتان عربيتان، وعادة أهل اللسان الهندستاني أن يقولوهما عند الغضب والاستنكار لأمر يحدث. أفاده الهلالي.

(٢) (مولوي) و(مولانا) تكون قبل اسم العالم، و(صاحب) بعده، وذلك من واجبات تعظيمه عند الهنود، أفاده الهلالي.

الكلامَ العربي ولو من مدرِّس قليل العلم، وكان أحدهم عبد الودود المذكور.

فذهبتُ إلى النواب صدر الدين ﷺ وذكرت له ما وقع، فقال لي: أنا أعرف علمك وأعرف علم الشيخ عبد الرحمٰن النكرامي، وقد أردت لهم الخير؛ فإن أبوا فذرهم في ضلالهم، وأرجو أن تبقى في مكانك ولو لم يحضر عندك أحد منهم.

بقيت أربعة أيام أفكر في معنى ذلك الشطر فلم أفهمه، وقال لي أحد الأربعة الباقين: إن الشيخ عبد الرحمٰن قال للطلبة: إن هذا الشطر واضح يفهمه كل أحد حتى الحمار، وقد رأيتم صدق ما قلتُه لكم. وفي اليوم الخامس ذهبت إلى الشيخ عبد الرحمٰن النكرامي ﷺ وأمامه حلقة كبيرة من الطلبة، فسلَّمتُ عليه فرد عليَّ السلام، فقلت: يا شيخ عبد الرحمٰن! لم أفهم هذا الشطر وقد أخبرني الطلبة أنك تفهمه فأفهمني إياه، فقال لي كلامًا لا معنى له[1] فقلت له: أعربه من فضلك فبالإعراب يتبيَّن المعنى. فقال: (ما) موصولة، و(الذي) توكيد لها، و(يتوقَّى) فعل مضارع فاعله ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على الأعداء في البيت قبله، و(ما) مفعول به، و(أتى) فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على الأعداء في البيت قبله[2]، و(نال) خطأ والصواب (نالوا)، فقلت له: إذا كانت (ما) موصولة يكون تقدير الكلام (الذي الذي)

(١) في «المقالة»: «فقال: هو وازح ـ تفخيم الزاي ـ» يعني: واضح، فقلت: ما معناه؟ فقال: (فما الذي يتوقى ما أتى نالوا)، فما الذي يتوقى الأعداء ما أتاه الممدوح من الإقدام نالوا. فقلت له: زدني بيانًا، يرحمك الله، وأرجو أن تعربه لي...».

(٢) وهو في «ديوانه» (٣/ ٢٨٤ ـ شرح العكبري):

يَرُوعُهُمْ مِنْهُ دَهْرٌ صرْفه أبدًا مُجَاهِرٌ وصُرُوفُ الدَّهْر تَغْتَالُ

فقال: وأي شيء في ذلك؟ فقلت له: وفاعل يتوقى إذا كان يعود على الأعداء لم يصح ذلك، لأن قياس النحو يقتضي أن يكون واوًا فيقال: يتوقون، وليس عندنا ضمير مستتر تقديره (هم) إلا في نحو قولنا: (الرجال قائمون)، ففي (قائمون) ضمير مستتر تقديره (هم)، أما الفعل فلا يقدر فيه من ضمائر الغيبة إلا (هو) و(هي)[1].

(١) فصَّل الهلالي في المقالة المنوَّه بها ما جرى بينه وبين الشيخ عبد الرحمٰن النكرامي، ووضح نقده له بكلام أوضح وأوعب، وعبارته بعد كلام:

فقلت يا مولانا: في كلامك هذا أمور: الأول: أن الضمير العائد يكون مطابقًا للموصول، و(الذي) مفرد، والضمير الذي قدرته، وهو (هم) ضمير جمع. فقال: يجوز ذلك. أما قرأت قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] فأنت ترى أن ضمير الجمع عاد على (الذي). فقلت له: إنما عاد عليه بعد أن أعطي عائدًا مطابقًا، وهو فاعل (استوقد)، ولو كان العائد على (الذي) ضمير جمع لقيل: (استوقدوا) بالواو. وأما عود ضمير الجمع على (الذي)، بعد ما يأخذ ضميره مطابقًا فهو جائز، ووارد في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] فأنت ترى أن العائد على (الذي) في آية البقرة وآية الزمر مفرد مطابق، ثم جاء ضمير الجمع بعد ذلك. نعم؛ قد ورد نادرًا في لغة العرب عود ضمير الجمع على (الذي) استعمالًا له بمعنى (الذين) في قول الشاعر:

وإن الذي حانت بَقلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد

ولا يجوز أن يكون بيت المتنبي من ذلك؛ لأنه جاء هكذا: (فما الذي يتوقى) فالضمير في (يتوقى) مفرد، ولو كان جمعًا لقال: «يتوقون»، وقولك: ضمير مستتر تقديره (هم)، يعود على الأعداء في البيت قبله؛ لا يصح، **أولًا**: لأن ضمير الجمع لا يستتر، بل يبرز، فيكون واوًا. **وثانيًا**: إذا كان الضمير المستتر في (يتوقى) عائدًا على الأعداء في البيت قبله، فأين العائد على (الذي)؟ فقال مولانا صاحب: أنت لا تقدر أن تعترز ـ بتفخيم الزاي ـ يريد «تعترض»... إلخ.

قال لي: تريد أن تعترز (يعني: تعترض) على المتنبي؟ إنك لا تستطيع ذلك، فقد عكف أبو عليّ الفارسي على «ديوان المتنبي» يبحث عن خطأ فلم يجده، فقلت له: أنا لا أريد أن أعترض، ولكن أريد أن أفهم، ومع ذلك فالمتنبي غيرُ معصوم من الخطأ، فقد عيب عليه أبيات منها[1] قوله:

جَفَخَتْ وهمْ لا يَجْفَخُونَ بها بهم شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الأَغَرِّ دَلائِلُ[2]

فيه التعقيد[3]، ومن ذلك قوله:

---

(١) في المقالة: «وانتقد عليه علماء البلاغة الركاكة...» وذكر المثال الأول والثاني.

(٢) «ديوان المتنبي» (٣/ ٢٥٨ ـ «شرح العكبري»).

(٣) قال الدكتور شوقي أبو ضيف في كتابه «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» (٣٣٥ ـ ٣٣٦):

«كان المتنبي يصنع الشعر ـ كما يقول العكبري ـ للفضلاء والعلماء لا لكافور وأمثاله من الممدوحين، ولذلك كنا نراه يحاول الإغراب بشعره وأساليبه، وكان يطلب هذا الإغراب ويحققه لنفسه في صور مختلفة من التفلسف والتصوف والتشيع، وأخيرًا في تلك الصورة الغريبة من الألفاظ اللغوية النادرة التي يريد أن يروع بها أساتذة اللغة والغريب، فإذا هو يأتيهم بمثل «جَفَخَتْ» في قوله:

جَفَخَتْ وهمْ لا يَجْفخُونَ بها بهمْ شِيَمٌ على الحَسبِ الأغرِّ دلائلُ

فقد كان يستطيع أن يضع مكانها (فخرت)، ولكنه كان يريد الإغراب في اللفظ، حتى يثبت مهارته وتفوقه في اللغة، ولعله من أجل ذلك كان يصوغ الأراجيز يحاكي بها رؤبة والعَجَاج وأبا النجم وأضرابهم؛ وما يزال يكثر فيها من الغريب كثرة مفرطة. ولم يقف عند هذا الجانب بل طلب الشواذ في الحروف وبناء الأسماء، وكأنه لم يترك لغة شاذة في حرف أو اسم إلا جلبها في شعره». وانظر «الكشف عن مساوئ شعر المتنبي» (٧٣ ـ ٧٤)، وفيه: «وليس هذا بسائغ لمثله، وهو ولد قريته، ومعلِّم صبية».

وقال الهلالي في المقالة المنوه بها: «أي: جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر، وهم لا يجخفون بها، ومعنى (جفخ) هنا: افتخر».

إِنْ كَـانَ مِـثْـلَـكَ كَـانَ أَوْ هُـوَ كَـائِـنٌ فَـبَـرِئْـتُ حِـيـنَـئِـذٍ مِـنَ الإِسْـلَامِ[1]

فيه الركاكة وقبح البراءة من الإسلام لأمرٍ مكذوبٍ يريد به التملُّق، ومن ذلك قوله:

فَقَلْقَلْتُ بَالْهَمِّ الَّذِي قَلْقَلَ الْحَشَا قَـلَاقِـلُ هُـمْ[2] كُـلُّـهُـنَّ قَـلَاقِـلُ[3]

فيه من الركاكة والثقل على اللسان بتكرار حرف القاف ما لا يخفى[4].

---

(١) «ديوان المتنبي» (٢/ ٥٩٢ ـ شرح الواحدي)، وقال الواحدي: هذا من المدح البارد، الذي يدلُّ على رقة دين وسخافة عقل، وهو من شعر الضبي.
وأعجبني كلام الصاحب بن عباد في «الكشف عن مساوئ شعر المتنبي» (٥٠) على إثر البيت:
و«حينئذٍ» هاهنا أنفر من عَيْرٍ منفلت. وفي «اليتيمة» (١/ ١٢٤): من غير منفلت.
وأقر الثعالبيُّ كلام ابن عباد في «أبي الطيب المتنبي ما له وما عليه» (٨١) وعنون عليه: (الركاكة والسفسفة بألفاظ العامة والسوقة ومعانيهم)، وأورد عدة أبيات منها المزبور، ونقده ابن حمدون في «تذكرته» (٧/ ٣١٧)، وقال عنه ابن أيدمر المستعصمي في «الدر الفريد وبيت القصيد» (٤/ ٣١٧): «جمع قُبح اللفظ، وبَرْدَ المعنى».

(٢) بدلها في «الديوان»: «عيْس»، وكذا في «شروحه»: العكبري (٣/ ١٧٥)، والواحدي (١/ ٥٠) والتبريزي (٤/ ٢٧٨) واليازجي (١/ ١٣٤) والبرقوقي (٣/ ٢٩٣)، وفي «خزانة الأدب» (١/ ٥٤) لابن حجة الحموي: «عيش»!

(٣) قال أبو الفتح الزَّوزني في «قشْر الفسر» (١/ ٢٥٩٠):
«القَلاقِلُ: جمعُ قُلْقُلٍ، وهي الناقةُ الخَفيفَةُ، و«هُنَّ» مِن «كُلُّهُنَّ» يعودُ علَى العِيسِ لا علَى القَلاقل؛ كأنَّه قالَ: قَلاقِلُ القَلاقِلِ، كما تقولُ: سِراعُ السِّراعِ، وخِفَافُ الخِفافِ، وكذلكَ قولُكَ: أفضَلُ الفُضَلاءِ، وهو أبلَغُ في الوَصفِ من أنْ تكونَ «هُنَّ» من «كُلُّهُنَّ» عائدةً إلى القَلاقِلِ، فتَأَمَّلْهُ يَصِحُّ لكَ إنْ شَاءَ الله.
قالَ الشَّيْخ: هذَا وَجْهٌ حسنٌ، وسَمِعْتُ في: «كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ»: كُلُّهُنَّ حَركاتٌ؛ جَمْعُ قَلْقَلَةٍ لا جَمْعُ قُلْقُلٍ، وهذَا أيضًا وجه».

(٤) قال أبو مظفر الشيرازي في «البديع في نقد الشعر» (١٤٥) منتقدًا بيت المتنبي =

فأعرض عني، وقال للطالب الذي كان يقرأ عليه: (تشالو) يعني: استأنف القراءة، فأصابني من الغمِّ ما الله به عليم، ولم أكن قبضتُ شيئًا من المدرسة، وما كان عندي إلا أربع وعشرون روبية(١)، أي درهمًا هنديًّا، فعزمتُ على شراءِ «شرح ديوان المتنبي» للعكبري لأعرف أين يكمنُ سرُّ عدمِ فهمي لذلك الشَّطر، أهو في جهلي أم في الخطأ الواقع في الطبعة الهندية؟ فسألتُ أحد الطلبة عن لفظ السؤال عن المطبع المجتبائي بلغة أردو فلقنني إياه، فذهبت أسأل إلى أن وصلتُ، فسألتُ صاحبه عن «شرح العكبري لديوان المتنبي»، فقال لي: النسخة الأخيرة اشتراها مني طالب من مدرسة كذا وكذا(٢)، فذهبت إلى تلك المدرسة، ووجدتُ الطالب الذي اشترى النسخة فوجدت البيت هكذا:

أَنَالَهُ الشَّرَفَ الأَعْلَى تَقَدُّمُهُ فَمَا الَّذِي بِتَوقِّي مَا أَتَى نَالُوا(٣)

فظهر أنني كنتُ مصيبًا وأن الشطر كان محرَّفًا، والطامة الكبرى كانت في زيادة نقطة بلفظ (بتوقي) الذي هو جار ومجرور فصار (يتوقى) فعلًا مضارعًا، وظهر أن الشيخ عبد الرحمٰن لم يفهم منه شيئًا، فإن (ما) التي زعم أنها موصولة ليست موصولة بل هي استفهامية، و(يتَوقَّى) الذي اخترع له فاعلًا وجعله ضميرًا مستترًا تقديره هو ليس فعلًا، وإنما هو جار ومجرور.

= بعد كلام: قال بعض البلغاء: إن الأعشى شلشل، وإن مسلمًا سلسل، وإن المتنبي قلقل.
وانظر في نقده: «التذكرة الحمدونية» (٧/ ٣١٧).

(١) الروبية سكة الهند من الفضة، (١٣) روبية تساوي ليرة إنجليزية، أفاده الهلالي.

(٢) أفاد في مقالته أنها (مدرسة پهاتك حبشخان).

(٣) «ديوان المتنبي» (٣/ ٢٨٤ ـ شرح العكبري)، طبعة البابي الحلبي، سنة ١٣٩١هـ بتحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي.

فنقلت البيت على الوجه الصواب وما قاله العكبري في «شرحه».

ومعنى البيت[(١)]: (تقدُّمُ سيف الدولة في الحروب وهزيمته لأعدائه أكسبه الشرف الأعلى، فما الذي ناله أعداؤه بتوقِّيهم وإحجامهم عن فعل ما أتاه من ذلك؟! الجواب: نالوا الخزي والعار). فانطلقتُ إلى الشيخ عبد الرحمٰن النكرامي وهو يدرِّس، وكان لا يفتر عن التدريس طول النَّهار، فسلَّمت عليه فردَّ عليَّ السلام، وقلتُ له: أيها الشيخ! إنك قلت للطلبة: إن هذا الشطر يفهمه كلُّ أحدٍ حتَّى الحمار، وقد ظهر أنَّك لم تفهمه. وناولته الصحيفة[(٢)]، وقلت له: اقرأ ما قاله العكبري في «شرحه». فقرأه ثم ناولني الصحيفة، وقال للطالب الذي كان يقرأ عليه: (تشالو). فهجرتُه ثلاثة أيام، وهجوتُه بقصيدة[(٣)] لا أريد أن أذكر منها هنا شيئًا، فكان خيرًا مني؛ لأنه بعد ثلاثة أيام بدأني بالسلام.

(١) قال الواحدي في «شرح ديوان المتنبي» (٢/ ٧٠٩ ـ ط برلين، سنة ١٨٩١م): «تقدُّمه في الحرب، أعطاه أعلى الشَّرفَ، فما الذي نال أعداؤه بإحجامهم وتوقيهم ما يأتيه من المخاوف والأهوال».
وأما كلام العكبري في «شرحه» (٣/ ٢٨٤) فهو الذي لخّصه الهلالي، وعبارة العكبري هذه هي:
«المعنى: يقول: انتهى به تقدّمه وجرأته إلى نيل الشرف الأعلى، واحترم أعداؤه أن يصلوا إلى ما وصل إليه بتوقِّيهم ما ارتكبه من الأهوال، فغنم هو، وخابوا هم، فبلغ من الشرف أعلى منازله، ومن السلطان أرفع مراتبه بإقدامه وجرأته، واقتحامه المهالك، فما الذي نال أعداؤه بتوقيهم لما قدم عليه وإبطائهم عما تسرّع إليه».

(٢) التي انتسخها بخطه من «شرح العكبري»، وقال له: «وقد حكمت أنت بنفسك على أن من لم يفهم هذا البيت يكون (كدها) أي حمارًا بالهندستاني، فما هو حكم من جهله، وزعم أنه فهمه؟ فلم يجبني...».

(٣) كان الشيخ يحفظها، ويذكرها عند تحديثه بهذا الخبر، وسمعت ذلك من غير واحد من تلاميذه في الجامعة الإسلامية، وكان يحوم حولها فضيلة الشيخ =

التَّجوُّل في الهند

بعدما مضت على وصولي إلى دهلي ستّةُ أشهر جاء شهر رمضان وهو وقت تعطيل في مدارس أهل الحديث بالهند، وكنتُ قد جمعت شيئًا من المال، وكانت عندي نسخة من «عون المعبود شرح سنن أبي داود» تأليف جماعة من علماء أهل الحديث منهم شيخنا عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري كما أخبرني هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذلك، ولا تصح نسبته إلى شخص واحد[1]، وإن كان الشيخ شمس الحق العظيم آبادي هو

= وصي الله عباس، ويفيد أن الشيخ النكرامي ـ رحمه الله تعالى ـ كان معه سلس بول، وكان في الدرس يكثر من مسك مذاكيره. وهجو الهلالي له متضمن هذا الصنيع، قال:

لحى الله شيخًا واقفًا قابضًا على مذاكيره في درسه فعل نسناسي
فإن كان مجنونًا فإن جنونه عضالٌ عقامٌ ما له أوف من آسي

(١) كانت هناك إعانة بالمقابلة والمراجعة فحسب، وليست في التأليف، وزعم بعضهم أن الكتاب ليس لمؤلفه، أو أن أخًا لشمس الحق أبي الطيب الأبادي، اسمه محمد أشرف (ت١٣٢٦هـ) هو الذي ألفه لأنه جاء في أول (المجلد الأول): فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى أبو عبد الرحمٰن شرف الحق الشهير بمحمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر الصِّدِّيقي العظيم أبادي. . .» إلخ ما في «العون» (١/ ٢ ـ ط الحجرية)، وكذا في خاتمته (١/ ٥٦٩).

ولكنك ترى في آخر (٣/ ٤٣٣) و(٤/ ١ و٤٥٩) اسم مؤلفه على الجادة: أبو الطيب شمس الحق، ثم وجدتُ في «نزهة الخواطر» (٨/ ٤٠٨) في ترجمة (محمد أشرف): «وقد عزا إليه صنوه شمس الحق المجلد (الأول) (والثاني) من «عون المعبود»؛ أخبرني بذلك الشيخ شمس الحق».

هذا هو الصواب، وبينته ـ ولله الحمد ـ بما لا مزيد عليه في مقالة لي بعنوان: (من هو مؤلف «عون المعبود»)؛ نشرت في مجلتنا «الأصالة»، العدد (٥١)، ذو الحجة ١٤٢٦هـ (ص٥٥ ـ ٦٥)، وأصلها تقديمي لتحقيق «العون» نفسه، وقد طبع عن مكتبة المعارف ـ الرياض؛ انظر منه لزامًا (١/ ٨ ـ ١٨)، فقد =

= طولت النفس في بيان ذلك.
ومما ينبغي ذكره هنا أن ناشر الكتاب تلطف حسين العظيم أبادي (ت١٣٣٤هـ) قال في خاتمة (المجلد الرابع) ـ وهو الأخير ـ (ص٥٥٣ ـ ط الحجرية): «وإن الفاضل الجليل أبا الطيب قد جمع جماعة من الأعيان وقت تصحيح المتن والمعارضة وتأليف «الشرح»، واستعان منهم بما يليق بشأنهم، فمنهم: أخوه الأصغر الفاضل النبيه المولوي أبو عبد الرحمٰن شرف الحق الشهير بمحمد أشرف الديانوي العظيم آبادي (م ١٣٢٦هـ).
ومنهم: نخبة المبرزين، عمدة الفاضلين؛ المولوي عبد الرحمٰن المباركفوري الأعظم كدهى (م ١٣٥٣هـ).
ومنهم: ابن الشارح النبيل، وهو ذو القدر النفيس، الفطن الذكي؛ المولوي أبو عبد الله إدريس بن أبي الطيب الديانوي العظيم آبادي.
ومنهم: الصالح البار؛ الحاج عبد الجبار ابن الشيخ العالم نور أحمد الديانوي (م ١٣١٩هـ)، عليهما الرحمة من الله الغفار.
وغيرهم من أهل الفضل؛ جزاهم الله تعالى خيرًا، وسعى لهم سعيًا مشكورًا؛ فإنهم امتثلوا بما أمر به أبو الطيب الشارح، وقد قاموا لخدمة ما كلف به آناء الليل والنهار». انتهى.
وأفاد أخونا الباحث النابه محمد عُزَير شمس ـ حفظه الله تعالى ـ في كتابه القيّم «حياة المحدث شمس الحق وأعماله» (ص١٦٣ وما بعد) أنه من تأليف شمس الحق، وذكر أدلة عليه؛ منها: قوله: «إن المحدث العظيم آبادي كتب بقلمه على النسخة الخطية الموجودة في مكتبة خدابخش خان برقم ٣١١٨: «(الجزء الثاني) من «عون المعبود شرح سنن أبي داود»، من أول (كتاب الزكاة) إلى آخر (باب التولي يوم الزحف)، للعبد الضعيف أبي الطيب عفى الله عنه»، مع أن في خاتمة هذا الجزء المطبوع ما يدل على أن الكتاب من تأليف الشيخ محمد أشرف أخيه؛ فظهر أنه ليس له [أي: للشيخ محمد أشرف] حقيقة، وإنما هو منسوب إليه فقط».
وللهلالي رسالة لتلميذه محمد لطفي الصباغ ـ رحمهما الله تعالى ـ يسأله عن هذه القضية، وأجابه الهلالي، كما تراه في «العيون الزلالية» (ق ٥٢٤ ـ ٥٢٥) للهلالي وكتابي «مراسلات الهلالي» (٢/ ٧٢٥ ـ ٧٢٩). وكان يقرر مساعدة =

الذي كان ينفق على أولئك الجماعة زمان تأليفه ويشاركهم في العمل، بعثهُ بسبعَ عشرةَ روبية، فتوجَّهتُ من دهلي إلى لكناو، وفيها لقيتُ الشيخ محمد بن محسن اليمني الأنصاري(1)، فقرأتُ عليه أطرافًا من «الكتب الستة»، وأخذتُ عنه الإجازة في جميع مروياته عن أبيه عن آل الأهدل(2). ثم توجَّهتُ إلى بنارس ولقيتُ فيها الأديب الشيخ عبد المجيد

= المباركفوري لشمس الحق، وأكَّد لي ذلك الشيخ الصباغ في لقاء ضمَّني وإياه في بيته في عمان بعد مغرب يوم الاثنين ١٨/ ٩/ ٢٠٠٥م.

(1) هو العلامة المحدّث محمد بن محسن بن محمد بن مهدي ابن أبي بكر الخزرجي اليماني، ولد في الحديدة باليمن، ثم توجَّه إلى مدينة زَبيد إلى مفتيها وابن مفتيها العلامة سليمان بن محمد الأهدل، فقرأ عليه «الكتب السنة»، وهو شيخ أخيه حسين صاحب «التحفة المرضية في حل بعض المشكلات الحديثية» و«البيان المكمل في تحقيق الشاذ والمعلل» وفي أول كل منهما ترجمته له، وولده محمد الآتي إذ قرأ عليه «صحيح البخاري» قراءة بحث وتحقيق من أوله إلى آخره.

ولمحمد هذا ولد اسمه (خليل)، ذكره الهلالي في رسالة وجهها إلى شيخه المباركفوري صاحب «تحفة الأحوذي» (٢/ ٩١٧)، وترجمته في تعليقي عليه، وخليل هذا له ابنة اسمها (عطية) وهي طبيبة عالمة مسندة توفيت العام الماضي بدبي رحمها الله تعالى، وتروي عن أبيها عن جدها وعن عبد العزيز الميمني الراجكوتي، ولها أولاد: عمران وحسان، وهما أحياء، ومن طلبة العلم.

فهؤلاء جماعة من هذا البيت المبارك، وأُهيب ببعض المنتسبين إليه أن يترجم لعلمائه مع بيان جهودهم في علم الحديث، والله الموفق.

وجهدتُ أن أقف على إجازة العلامة محمد بن محسن للهلالي، فلم أظفر بها، وأخبرني الأخ الفاضل محمد زياد التُّكلة أنه اشترى للشيخ نظام يعقوبي «ثبتًا» ورسائل له محفوظة من حفيده زهير بن عُبيد الله بن محمد، ولا يوجد فيها إجازته للهلالي، وأروي عنه بواسطة شيخي مصطفى الأعظمي.

(2) سنده: محمد بن محسن اليمني، عن حسن عبد الباري الأهدل، عن عبد الرحمٰن بن سليمان بن يحيى بن عمر بن مقبول الأهدل، عن والده العلامة سليمان بن يحيى الأهدل، وينظر عن (آل الأهدل): «القول الأعدل في =

الحريري[1] الحاصل على شهادة ماجستير من جامعة (علي كر)، ففرح بي فرحًا عظيمًا، والتمس مني أن أبقى عنده ليستفيد من علمي، وعرض عليَّ راتبًا أكثر مما كنت آخذه في مدرسة (علي جان) وتكفَّل بجميع ما يلزمني من السكنى والمعيشة، فوعدته خيرًا. وتوجَّهتُ إلى مدينة (مو) ولقيت العالم الجليل الشيخ محمد أحمد، ومنها توجهت إلى مبارك بور بقصد لقاء العالم الجليل الورع النبيل خاتمة المحققين في تلك النواحي الشيخ عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المبارك بوري[2]، فأقمت عنده مدَّة يسيرة

= تراجم بني الأهدل» مطبوع في حمص سنة ١٣٥٩هـ.
وترى مرويات عبد الرحمٰن بن سليمان (١١٧٩ ـ ١٢٥٠هـ) في ثبته المطبوع المسمى «النفس اليماني والروح الريحاني في إجازة القضاة بني الشوكاني»، وقدم له أحمد بن عبد القادر الأهدل، واعتنى به وليد عبد الرحمٰن الربيعي.

(١) ولد ببنارس وتوفي بها، وهو من رجال العلم المعروفين في شبه القارة الهندية والأقطار العربية، وكان من كبار المشرفين على الجامعة السلفية المركزية ببنارس، وكانت له صداقة مع أكثر زعماء حركة التحرير في الهند، ولما تحررت الهند استخدمته حكومة عهد الاستقلال في مفوضية الهند في جدة التي تحولت فيما بعد إلى السفارة، واشتغل أخيرًا بالعلم، فعكف على ترتيب فهارس بعض المكتبات الأثرية في المدينة النبوية، له ترجمة في مجلة «البعث الإسلامي» المجلد (١٧) العدد (٨) سنة ١٩٧٣ (ص٩٩)، ومجلة «معارف» أعظم كره، المجلد (١١١) العدد (١) سنة ١٩٧٣م (ص٧٦). وذكره الهلالي في «مراسلاته» (٢/ ٩١٢، ٩١٣، ٩٣٨، ١١٧٦)، وينظر «رسائل الأعلام» (١٦ ـ ١٧).

(٢) اسمه: (محمد عبد الرحمٰن) بن عبد الرحيم بن بهادر المباركفوري، وسمّاه تلميذه الهلالي في رسائله كلها «عبد الرحمٰن» بإسقاط «محمد»، وهكذا صنع عبد الحي الحسيني الهندي في كتابه «نزهة النواظر» (٣/ ١٢٧٢ ـ ط البيروتية)، وكلاهما عارف به، وممن التقاه وخبره. ولا أشك أن اسمه (محمد عبد الرحمٰن) مركَّب، وشهر بـ (عبد الرحمٰن)، وفي ترجمته المثبتة في آخر (المجلد الأول) من الطبعة الحجرية لـ «تحفة الأحوذي»، وهي في (١٤) =

= صفحة، بقلم تلميذه أبي الفضل عبد السميع المباركفوري: «هو الشيخ الإمام الحافظ الحجة سيدنا أبو العُلى محمد عبد الرحمٰن ابن العلامة الحافظ الحاج الشيخ عبد الرحيم ابن الحاج الشيخ بهادر...».

ووجدت الهلالي ذكر ذلك في قصيدة له وجدتها مرفقة ببعض رسائله إليه قال:

بِعَبْدٍ إِلَى الرَّحْمَنِ نَالَ إِضَافَةً بِذَا الاسْمِ مَشْهُورٌ وَمَا كَانَ خَامِلًا

ولد سنة ألف ومئتين وثلاث وثمانين (١٢٨٣هـ)، وكان متضلعًا في علوم الحديث، وهو أول من نادى في بلدته بإحياء السنة واتباع الآثار، وكان محبًّا لأهل الحديث ناصرًا لهم، وكتابه «تحفة الأحوذي» أكبر دليل على وقوفه عند الدليل، وله ردود على الحنفية. وكان زاهدًا متواضعًا متقللًا من الدنيا، نزيه اللسان كثير الصمت، ابتلي بأمراض كان من آخرها أن كفّ بصره، ووافته منيته سنة ثلاث وخمسين وثلاث مئة وألف (١٣٥٣هـ)، رحمه الله تعالى.

ترجمته في «معجم المؤلفين» (٥/ ١٦٦)، وللهلالي ترجمة مطوّلة جدًّا له، نشرت في آخر مقالته «أهل الحديث في الهند»، نشرت في مجلة «صوت الجامعة» الهندية، السنة الخامسة، العدد الأول، شعبان ١٣٩٢هـ ـ سبتمبر ١٩٧٣م، (ص١٣ ـ ٣٤)، وهو كثير الذكر له في «مقالاته» (انظر فهرس الأعلام منه) وفي «مراسلاته» (٤/ ١٧٢٤ ـ فهرس الأعلام) و«ديوانه» (٤٢١، ٥٦٥، ٥٧٠، ٥٧٣، ٧٣٣). ونشر صديقنا البحاثة صلاح الدين مقبول أحمد السلفي مقالة في مجلة «الجامعة السلفية»، (العدد الأول) من (المجلد التاسع)، بتأريخ صفر ١٣٩٧هـ ـ فبراير ١٩٧٧م، (ص٦٠ ـ ٦٥)، وهي بعنوان (العلامة أبو العُلَى عبد الرحمٰن المحدث المباركفوري).

وظفرت بخمس رسائل للهلالي، ونعته في بعضها بـ «الفاضل الإمام، القدوة الهمام، وأعز الأحباب، ووليّ الله حقًّا وصدقًا، بقية السّلف وقدوة الخلف».

ثم وجدت بعضها في كتاب «العلامة المباركفوري ومنهجه في كتابه «تحفة الأحوذي»» (١٢٦، ١٢٧، ٤٢٤ ـ ٤٢٥).

وكان في بعض الرسائل طمس وحسن جودة في التصوير، ثم في ربيع الأول سنة ١٤٣٤هـ يوافق يناير ٢٠١٣هـ التقيت في الكويت بالأخ الهندي عارف جاويد محمدي ـ حفظه الله ـ فأعطاني أصولًا مجودة لبعضها فجزاه الله خيرًا، ثم نشر أخونا صلاح مقبول كتابه «أهل الحديث في شبه القارة الهندية» وذلك =

قرأتُ عليه فيها أطرافاً من «الكتب الستة» و«ثلاثيات البخاري»، وعارضتُ معه مواضع من كتابه القيم «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي»، والتمس منِّي أن أنظم قصيدة في تقريظه فنظمتُها وتركتُها عنده فأدرجها في آخر (المجلد الرابع)[1]، وكنتُ قد طبعت أربع قصائد في دهلي سمَّيتُها «الهاديات» تقدمت إحداها[2] وهي الميمية التي مطلعُها:

مَنْ فاته المصطفى المختار من مضر... إلخ.

وسأدرج هنا قصيدة أخرى منها. فنقل شيخنا المذكور في (مقدمة) «تحفة الأحوذي»[3] إحدى (القصائد الأربع) وهي تخميس قصيدة حُميد القرطبي[4] التي أنشدها القسطلاني في «مقدمة شرحه للبخاري»[5] ومطلعُها:

نُورُ الْحَدِيثِ مُبِينٌ فَادْنُ وَاقْتَبِسْ وَاحْدُ الرِّكَابَ لَهُ نَحْوَ الرِّضَى النَّدَسِ[6]

= سنة ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م، فوجدت فيه (ص٢٢٩ ـ ٢٣٤) رسالتين منها.

(١) (ص٤٠٣ ـ ٤٠٤)، وأولها:

«هذه قصيدة تاريخية للأستاذ الشيخ محمد تقي الدين الهلالي المراكشي العراقي تلميذ الشارح، ورئيس أساتذة آداب اللغة العربية بدار العلوم لندوة العلماء سابقًا. أنشدها بعدما أخبره الشيخ الشارح ـ رحمه الله تعالى ـ بإرادته الشروع في طبع (الجزء الأول) من «تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي»، في شهر ربيع الثاني سنة ثلاث وأربعين بعد ألف وثلاث مئة من هجرة النبي ﷺ.

(٢) انظر (ص٣٤١).

(٣) (ص١٠ ـ ١٢ ـ ط الحجرية الهندية).

(٤) اسمه: أحمد بن عبد الله بن الحسين الأنصاري، صرح باسمه في «سبيل الرشاد»، وقال: «المدعو حميد القرطبي شهرة، وهو مالقيٌّ».

(٥) المسمى «إرشاد الساري» (١/ ٥ ـ ٦)، وفيه قبلها: «ولله در أبي بكر حميد القرطبي، فقد أحسن وأجاد حيث قال:...» وساقها.

(٦) قال الهلالي في «ديوانه» (٤٢٠ ـ ٤٢١): =

= قلتُ في تخميس قصيدة العلامة أبي بكر حميد القرطبي، التي أنشدها القسطلاني في أول «شرح البخاري».
وسبب إنشائه: أنَّ الشيخ السلفي محمد حسين الفقيه، تلميذ جمال الدين القاسمي ـ رحمهما الله ـ سألني أَنْ أُخَمِّسَها في شهر صفر سنة **١٣٤٢**هـ، حين كنتُ هناك مقيمًا عند المفضال الشيخ محمد حسين نصيف، فجمدَتِ القريحةُ ـ حينئذٍ ـ بسبب الاهتمام بالظعن إلى بمباي، فلمَّا بلغتُ بلدة دهلي من بلاد الهند، وألقيتُ بها عصا الترحال، وأَسْفَرَ بَعْدَ السَّفَرِ صُبْحُ الاستقرارِ؛ دَرَّتِ القريحةُ بهذا التخميس، عسى أَنْ يكون سعيًا مشكورًا عند الله وعند المؤمنين.
وقد نَشَرَ هذا التخميس أستاذي العلامة، الورع، الزاهد، الرباني؛ عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري في شرحه لـ «الترمذي» الموسوم: بـ «تحفة الأحوذي»؛ مُعبرًا بقوله: «وخمسها بعضُ الفضلاء»، وهذه هي القصيدة، وهي من بحر البسيط:

إِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ عِلْمًا جِدُّ مُلْتَمِسِ ... وَحِرْتَ إِذْ غُمَّ عَنْكَ الرَّطْبُ بِاليَبَسِ
فَاسْمَعْ لِنُصْحِ لَبِيبٍ أَيِّ مُحْتَرِسِ
نُورُ الحَدِيثِ مُبِينٌ فَادْنُ وَاقْتَبِسْ ... وَاحْدُ الرِّكَابَ لَهُ نَحْوَ الرِّضَا النَّدَسِ

. . . وساق (تخميسه) للقصيدة.
وهي في «سبيل الرشاد» (**٤/ ٢١٩ ـ ٢٢٣**/ ط المغربية) أو (**٤/ ٢٨٤ ـ ٢٨٧**/ بتحقيقي).
وذكرها ـ أيضًا ـ غير واحد مثل البحاثة الأستاذ صلاح الدين مقبول أحمد السلفي في مقالته «العلامة أبو العلى عبد الرحمٰن المحدث المباركفوري» المنشورة في مجلة «الجامعة السلفية»، المجلد التاسع، العدد الأول، صفر **١٣٩٧**هـ ـ فبراير **١٩٧٧**م، (ص**٦٠ ـ ٦٤**)، قال عن الهلالي: «وله قصيدة تاريخية تحتوي على سبعة وستين بيتًا في «تحفة الأحوذي»، ومؤلفه كتبها سنة **١٣٤٣**هـ، وهي ملحقة بالجزء الأخير من «تحفة الأحوذي»».
ووجدتها أيضًا في كتاب مطبوع بالأردو بعنوان «مقالات محدث مباركفوري، مجمع الفضائل والفواضل، نخبة الأهلة والأماثل مولانا محمد عبد الرحمٰن مباركفوري» نشر سنة **٢٠٠٩** عن إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد (ص**٥٠٣ ـ ٥٠٤**).
ثم وجدتُ القصيدة ضمن مقالة للهلالي بعنوان «أهل الحديث في الهند» =

إلا أنه لم يسمّني بل قال: «وقال بعض الأعلام»[1] مخمّسًا هذه القصيدة، ولقيتُ منه من الإكرام ما أعجز عن وصفه؛ بل أسأل الله أن يكافأه على ذلك في جنات عدن مع الذين أنعم الله عليهم، مع أني أدعو له في كل صلاة.

ورأيتُ مِنْ زهده في الدنيا وتواضعه وحسن خُلُقه ما يفوق الوصفَ؛ فقد كان يقضي أوقاته كلها في خدمة العلم تدريسًا وتأليفًا وإفتاء، ودعاه الدهلويون حين عزموا على تأسيس دار الحديث في مكة ـ شرفها الله ـ إلى أن يكون رئيسًا فيها فأبى، ودعاه غيرهم من أصحاب المدارس فأبى، وكان لا يعيش إلا مما يكتسبه من العلاج لأنه كان طبيبًا حاذقًا، وكان لا يشتغل بالطب إلا من بعد صلاة العصر إلى المغرب.

وذكر مناقبه يفضي بي إلى التطويل الذي يجعل طبع الكتاب صعبًا، ولكن لا بد أن أذكر مكرمة له لا أستطيع تركها؛ وذلك أنه حتَّم عليَّ في تلك المدة أن لا آكل إلا عنده، ولما عزمت على السفر قال لي: لا تسافر في السكة الحديدية إلى مدينة أعظم كرفان، ذلك يشقُّ عليك، فهنا اثنان من أصحابنا يسافران على عربة تجرُّها الخيل في وسط الليل، فأردتُ أن أودِّعه فقال لي: لا بد أن أخرج لوداعك. وأصرَّ على ذلك، فقام في نصف الليل وذهب معي إلى المكان الذي فيه العربة، فوضع في كفِّي قرطاسًا وضمَّ يدي عليه وقال لي: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم

= منشورة في مجلة «صوت الجامعة» الهندية، السنة السادسة، العدد الأول، شعبان ١٣٩٤هـ، وفي مجلة «الوعي الإسلامي» الكويتية، العدد التاسع والثلاثون، غرة ربيع الأول، سنة ١٣٨٨هـ ـ أيار ١٩٦٨م، (ص٤٧ ـ ٥١).
والندس: الفطنة والكياسة.

(١) كذا في «سبيل الرشاد» و«تحفة الأحوذي»، وفي «الديوان» (٤٢١): «بعض الفضلاء».

عملك، زوَّدك الله التقوى ويسر لك الخير أينما توجهت. وظننت أن القرطاس ورقة مالية فوضعتها في يده وضممتها وقلت له: لست في حاجة. فأخذ بيدي إلى أن بعدنا عن الرجلين وبكى بكاءً شديدًا وهو يقول: اقبل مني اقبل مني. فاقشعر جلدي وندمتُ على ما فعلتُ وقبلتُ تلك الورقة وتأثرت بما رأيته من بكائه، حتى أنِّي حين طلع الفجر صليت الصبح إمامًا بالرفيقين فبكيت كثيرًا في أثناء القراءة، فالله يرحمه رحمة واسعة.

وهذه القصيدة التائية[1] في (صفة رحلتي من المغرب إلى الهند):

خَلِيلَيَّ عُوجَا[2] بِي إِلَى كُلِّ نَدْوَةِ ... بِهَا قَوْلُ خَيْرِ الرُّسْلِ يُرْوَى بِقُوَّةِ
وَلَا تَقْرَبَا بِي مَجْلِسَ الرَّأْيِ إِنَّهُ ... ضَلَالٌ يَحُطُّ التَّابِعِيهِ بِهُوَّةِ
عَلَى مَجْمَعٍ فِيهِ كِتَابُ إِلَهِنَا ... يُفَسَّرُ تَفْسِيرًا بِعِلْمٍ وَحِكْمَةِ
لَدَى ثُلَّةٍ قَدْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُمْ ... وَخَصَّهُمُ بِالْهَدْيِ أَفْضَلَ نِعْمَةِ
فَصَانُوا كِتَابَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ ... عَنِ اللَّغْوِ وَالتَّحْرِيفِ أَسْوَإِ بِدْعَةِ
وَرَدُّوا افْتِرَاءَ الْخَلْفِ مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ... وَقَدْ فَرَّقُوا مِنْ شُؤْمِهِمْ خَيْرَ شِرْعَةِ

(١) قالها بمسجد عليجان بدهلي سنة ١٣٤٢هـ، أفاده في «الديوان» (ص٢٠٨). وزاد: «ضمنتها رجوعي من الابتداع إلى السنة، ورحلتي من بلادي إلى الهند، وغير ذلك. وقد التزمت في جميع بيوتها لزوم ما لا يلزم»، وسبقت (ص١٢٩) بعض أبياتها، وهي بتمامها في كتابه «الهدية الهادية» (ص٩٠ ـ ٩٣)، وبعضها في «سبيل الرشاد» (١/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩).

(٢) عَاجَ يعوج عَوجًا: رجع، انظر «المعجم الوسيط»، و(عُوجا): فعل أمر للمثنى، ولكي يتضح الأمر أكثر، نأخذ الفعل (قال) فمضارعه: (يقول)، وأمره (قل)، وأمره للمثنى (قولا) كما في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، وضبط (عوجا) يجوز على الوجه الذي ضبطتُها به، ويجوز: (عَوْجا) على أنها مصدرٌ قام مقام فعله؛ وكلا الضبطين صحيح وزنًا ومعنًى، والله الموفق.

وَأَصْلَوْهُمُ حَرْبَ الْفِرِنْجِ بِهِمَّةٍ ... كَسَيْفٍ صَقِيلٍ فِي مَضَاءٍ وَلُمْعَةِ
إِلَيْهِمْ أَجُوبُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ آوِيًا ... لأَنْظُر مَنْ فَازُوا بِنُورٍ وَنَظْرَةِ(١)
وَأَقْبِسَ مِنْ أَنْوَارِهِمْ عِلْمَ سُنَّةٍ ... وَذَلِكَ قَصْدِي فِي اغْتِرَابِي وَهِجْرَتِي
وَأُبْعَدَ عَنْ أَهْلِ الْبَدَائِعِ والْخَنَا ... وَأُدْرِكَ رَوحًا مِنْ عَنَائِي وَغُرْبَتِي
وَلَيْسَ مُرَادِي غُرْبَةَ الْبُعْدِ وَالنَّوَى ... وَلَكِنَّهَا فِي الدِّينِ أَعْظَمَ كُرْبَةِ
وَلَمَّا أَبَانَ اللهُ لِي نُورَ دِينِهِ ... وَأَنْقَذَنِي مِنْ طُرْقِ أَصْحَابِ خِرْقَةِ(٢)
أُولَئِكَ قَوْمٌ بَدَّلُوا الدِّينَ بِالرَّدَى ... وَقَدْ مَرَقُوا مِنْ هَدْيِهِ شَرَّ مِرْقَةِ
وَأَبْغَضَنِي الأَقْوَامُ حِينَ نَبَذْتُهُمْ ... وَمِلْتُ إِلَى قَفْوِ الْكِتَابِ وَسُنَّةِ
وَقَدْ قَلَبُوا ظَهْرَ الْمِجَنِّ وَخُشِّنَتْ ... صُدُورُهُمُ لِي وَاسْتَعَدُّوا لِمِحْنَتِي
وَقَدْ زَعَمُوا هَجْرِي وَشَتْمِيَ قُرْبَةً ... وَكُلُّ جَلِيسٍ لِي سَيَرْدَى بِسُرْعَةِ
وَقَدْ جَزَمُوا أَنِّي أَمُوتُ عَلَى الرَّدَى ... وَأَخْلُدُ فِي النِّيرَانِ مِنْ أَجْلِ رَجْعَتِي
أَمَانِيَّ حُمْقٍ تُضْحِكُ الثَّاكِلَ الَّتِي ... بِوَاحِدِهَا سَارَتْ رِكَابُ الْمَنِيَّةِ
نَبَذْتُهُمُ نَبْذَ النَّوَى وَتَرَكْتُهُمْ ... وَهَاجَرْتُ كَيْ أَحْظَى بِسُؤْلِي وَمُنْيَتِي
وَمَا لِي وَلِيٌّ أَوْ رَفِيْقٌ مُصَاحِبٌ ... وَلَا نَاصِرٌ إِلَّا إِلَهَ الْبَرِيَّةِ
عَلَيْه اعْتِمَادِي لَا عَلَى أَحدٍ سِوَاهُ ... فَهُوَ قَدِيرٌ أَنْ يَجُودَ بِبُغْيَتِي
وَمَا أَطْلُبُ الْمَالَ الَّذِي هُوَ زَائِلٌ ... سِوَى بُلْغَةٍ لا بُدَّ مِنْهَا لِخِلَّتِي
سَفُرْتُ إِلى مِصْرٍ لأَخْبُرَ خُبْرَهَا ... وَأَنْظُر هَلْ فِيهَا شِفَاءٌ لِغُلَّتِي
وَمِنْ قَبْلُ قَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّ فِي رُبُوعِهَا ... رِجَالٌ لِنَصْرِ الدِّينِ أَصْحَابُ شِدَّةِ
وَصَلْتُ فَلَمْ أَلْفَ سِوَى أَهْلِ بِدْعَةٍ ... وَشِرْكٍ وَإِلْحَادٍ وَشَكٍّ وَرِدَّةِ
سَمِعْتُ بِهَا الإِلْحَادَ يُدْرَسُ جَهْرَةً ... بَجَامِعَةٍ لِلشَّرِّ مَعْ كُلِّ فِتْنَةِ

---

(١) في «الديوان»: «ونضرة».
(٢) يعني: «التجانيين». (خ)

رَأَيْتُ بِهَا الأوْثَان تُعْبَدُ جهرة[(١)] قُبُورًا عِظَامًا نَاخِرَاتٍ أَجِنَّتِ
وَيَدْعُونَ دُونَ اللهِ مَنْ لَا يُجِيبُهُمْ وَهُمْ عَنْ دُعَاءِ الْقَوْمِ فِي عُظْم غَفْلَةِ
لَهَا جَعَلُوا قِسْمًا بِمَالٍ وَإِلْدَةٍ فَلَا عَاشَ مَنْ قَدْ ظَنَّهُمْ أَهْلَ مِلَّةِ
حَشَا ثُلَّةٍ مُسْتَضْعَفِينَ رَأَيْتُهُمْ تَسُومُهُمُ الأَعْدَاءُ سُوءَ الأَذِيَّةِ
وَهُمْ صُبَّرٌ مُسْتَمْسِكُونَ بِدِينِهِمْ وَيَدْعُونَ مَا اسْطَاعُوا لِبَيْضَا نَقِيَّةِ
وَمَا صَدَّهُمْ إِيذاؤُهُم عَنْ جِهَادِهِمْ لأَنَّهُمُ أَهْلُ النُّفُوسِ الأَبِيَّةِ
أَقَمْتُ بِهَا عَامًا إِلَى اللهِ دَاعِيًا فَأَرْشَدَ رَبُّ النَّاسِ قَوْمًا بِدَعْوَتِي
يُعَدُّونَ بالآلافِ بالريرمون[(٢)] كُلُّـ ـهُمْ أَهْلُ إِخْلاصٍ وَأَهْلُ فُتُوَّةِ
وَمِنْ بَعْدِ ذَا سَافَرْتُ لِلْحَجِّ رَاجِيًا قَبُولًا مِنَ اللهِ الْكَرِيمِ لِحَجَّتِي
فَأَتْمَمْتَهُ وَالْحَمْدُ لِلهِ سَائِلًا مِنَ اللهِ يَهْدِينِي سَوَاءَ الْمَحَجَّةِ
وَكُنَّا سَمِعْنَا أَنَّ بِالْهِنْدِ فِرْقَةً عَلَى السُّنَّةِ الْغَرَّا بِصِدْقٍ وَحُجَّةِ
فَقُلْتُ عَسَى مَنْشُودَتِي[(٣)] عِنْدَهُمْ تُرَى وَهَزَّتْنِي الأَشْوَاقُ أَيَّةَ هَزَّةِ
بَلَغْتُ فَأَلْفَيْتُ الْمُخَبِّرَ صَادِقًا وَشَاهَدْتُ سُنَّاتٍ تَجَلَّتْ بِعِزَّةِ
قَدِ اخْتَرْتُ دِهْلِي لِلإِقَامَةِ إِنَّهَا بِلَادُ عُلُومِ الدِّيْنِ فِيْهَا تَسَنَّتِ
وَقَدْ شُفِيَتْ نَفْسِي وَزَالَ سِقَامُهَا غَدَاةَ رَأَتْ عَيْنِي مَسَاجِدَ سُنَّةِ
فَلا تَسْمَعَنْ فِيهَا سِوَى قَالَ رَبُّنَا وَقَالَ رَسُولُ اللهِ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ
لَقَدْ مَثَّلُوا خَيْرَ الْقُرُونِ لِنَاظِرٍ بِقَوْلٍ وَفِعْلٍ وَاجْتِهَادٍ وَنِيَّةِ
إِمَامُهُمُ خَيْرُ الأَئِمَّةِ كُلِّهِمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَنِ أَزْكَى تَحِيَّةِ[(٤)]

تمت

(١) في «الديوان»: «ظاهِرًا».
(٢) في «الديوان»: «وَعِدَّتُهُم أَلْفَان بالريرمون».
(٣) في «الديوان»: «أُنشُودَتِي».
(٤) تقدّم توثيق الأبيات.

السيد سليمان النَّدْوي[1]

السيد سليمان من أكبار علماء الهند ورؤسائهم في ذلك الزَّمان، وكان يدبر شؤون مؤسستين عظيمتين:

(١) ما تحته ترجمة حسنة له، وللمترجَم له علاقات متينة مع الهلالي، وأول ما التقاه في الهند، في الحوادث المذكورة هنا، وظهر لهذا اللقاء وما ترتب عليه من عمل الهلالي في ندوة العلماء أثر بالغ ومليح، وتخرج بسبب تهيئة الظروف للهلالي هناك تدريس العربية جيل من الأدباء، وعلى رأسهم أبو الحسن النّدوي، كما سيأتي.
وأصدر الهلالي مع سليمان الندوي مجلة عربية شهرية باسم «الضياء»، صدر العدد الأول منها في شهر محرم ١٣٥١هـ ـ مايو ١٩٣٢م. وكان رئيس تحريرها الأستاذ مسعود النّدوي، وفصل الأستاذ سعيد الأعظمي ذلك في مقالة له بعنوان (العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي المراكشي) نشرت في مجلة «البعث الإسلامي» الهندية، المجلد الثاني والثلاثون، العدد الخامس، محرم ١٤٠٨هـ ـ سبتمبر ١٩٨٧م (ص٨٠ ـ ٩٠)، وينظر لصاحب المقال: «تاريخ ندوة العلماء» (٢/ ٤١٦ ـ ٤١٧). ومما قال فيه: «إن الأثر العلمي العميق الذي خلّفه العلامة الهلالي في دار العلوم فريدٌ من نوعه؛ إنه استطاع وفي خلال مدة قصيرة أن ينشئ فيها جيلًا من كُتّاب العربية وآدابها».
وقال عنه في كتابه «رسائل الأعلام» (ص١٦ ـ ١٧):
«ومكث في دار العلوم نحو أربع سنوات ١٣٤٩ ـ ١٣٥٢هـ الموافق ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣، وأفاد ما لا يفيده كثيرٌ من المعلمين في مدة أطول من ذلك».
ولسليمان الندوي ذكر في بعض رسائل الهلالي إلى محمد رشيد رضا ورسائله المتبادلة مع مسعود الندوي.
وانظر: «مراسلات الهلالي» (٤/ ١٦٨٨ ـ الفهارس) و«الديوان» (٩٥٢).
وترجمة سليمان الندوي في «نموذج من الأعمال الخيرية» (٤٧٠)، «علماء العرب في شبه القارة الهندية» (٧٥٦ ـ ٧٥٨)، «نزهة الخواطر» (٨/ ١٦٣ ـ ١٦٨)، ومجلة «البعث» الهندية، مجلد (٣٤)، (ص١١٠)، ومجلة «المجتمع» الكويتية، ٢١/ ٥/ ١٤١٠هـ، ومجلة «الفيصل» السعودية (العدد ١٥٨)، ثم وجدت الشيخ غلام أحمد أفرده بمؤلف مطبوع اسمه «حياة الشيخ سليمان الندوي» في (٦٤) صفحة.

إحداهما: دار المصنِّفين التي أسسها هو بنفسه واختار نخبة من ذوي الكفاءة والمقدرة على تصنيف الكتب وطبعها، ومن أهمها «التاريخ» الذي بدأ تأليفه أستاذه الشيخ شِبْلي النُّعماني(١)، واستمر هو في تكميله، وهو من أحسن كتب التاريخ حسب ما شهر بذلك عند علماء الهند، وأنا لم أقرأه لأنه بلغة أردو ومعرفتي بها ضعيفة.

والمؤسسة الثانية: كلية نَدْوة العلماءِ التي تخرَّج فيها هو وغيره من الأدباء والعلماء، وقد أسسها قبل ذلك بزمان طويل ثلاثون رجلًا من كبار علماء الهند، ووضعوا لها مناهج الدراسة ليتخرَّج فيها رجال قادرون

(١) هو شبلي بن حبيب الله الندوي (١٢٧٣ ـ ١٣٣٢هـ يوافق ١٨٥٧ ـ ١٩١٤م)، الملقب بـ (شمس العلماء)، كان قويّ الحفظ، سريع الملاحظة، ذا نفوذ عجيب في جلساته، فلا يباحثه أحد في موضوع إلا شعر بانقياده إلى برهانه، يشبه السلف في العلم، وجودة التأليف، وحسن التنسيق، وفي مجلسه إمتاع ومؤانسة وإفادات علمية، وكان باحثًا، أديبًا، وشاعرًا منشئًا، وكاتبًا قديرًا، خطيبًا، مؤرخًا، مفكرًا، سياسيًّا، مصلحًا، محنّكًا، أخصائيًّا في التعليم، وثوريًّا تجاه كثير من متطلبات ومقتضيات العصر الراهن، فكأنه باقة أزهار متنوّعة، ذات ألوان زاهية جميلة.
وأما (التاريخ)، فله فيه مصنفات، منها: «التعليم في العهود الإسلامية الماضية» و«الجزية» و«حقوق الذميين» و«مكتبة الإسكندرية» و«الانتقاد على التمدن الإسلامي» ومؤلفه جرجي زيدان. و«كالمكير آخر الملوك المغول الأقوياء»، وله مصنفات في السيرة والتراجم، أهمها: «سيرة النبي ﷺ»، و«أبطال الإسلام»، و«المأمون» و«الفاروق» و«سيرة النعمان» و«الغزالي» و«حياة جلال الدين الرومي»، و«حياة حافظ شيرازي»، و«ترجمة الشيخ سعدي»، و«شعر العجم»، و«الموازنة بين أنيس ودبير».
والجهود في ترجمته كثيرة جدًّا لا تحصى، وكل من ترجمه اعتمد على كتاب سليمان الندوي «حياة شبلي»، ولمحمد أكرم الندوي «شبلي النعماني علامة الهند الأديب والمؤرخ الناقد الأريب»، وللسيد جقاوي «فن السيرة في الأدب الأردي عند شبلي النعماني»، وجميعها مطبوعة.

على الدَّعوة إلى دين الحق الإسلام، ولا تزال هذه المؤسسة سائرة في طريقها إلى الآن، وعلماؤها حنفيّون كأكثر علماء الهند، وكان ساعد السيد سليمان الأيمن في تدبير شؤونها الدكتور عبد العلي[1] رحمة الله عليه، والذي يتولى تدبير شؤونها في الوقت الحاضر هو تلميذي الأستاذ أبو الحسن علي النَّدْوي[2] أخو الدكتور عبد العلي، وهو مشهور في

(١) هو ابن عبد الحي الحسني، أخو أبي الحسن الندوي، ممن ذلل كثيرًا من الصعاب في طريق الهلالي في تدريس العربية في ندوة العلماء بلكنو، واسمه مقرون مع سليمان الندوي في بيان فضلهما على معرفة التلاميذ للعربية هناك.
وله ترجمة في «علماء العرب في شبه القارة الهندية» (٧٩٤ ـ ٧٩٥)، «نزهة الخواطر» (٨/ ٢٦١ ـ ٢٦٥)، وينظر للتفصيل كتابي «مراسلات الهلالي» (٢/ ٩٠٦، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٣٣، ٩٣٨، ٩٤٠، ٩٤٥) و(٣/ ١١٦٩، ١١٧١، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١٣٢٦) و«الديوان» (٢٥٩).

(٢) هو علي بن عبد الحي الحسني الندوي، أبو الحسن، كبير علماء المسلمين في شبه القارة الهندية، وهو من أسرة ذات أصل عربي يرفع نسبها إلى الحسن السبط، لها اشتغال بالعلم؛ فأبواه عالمان، ووالده مؤرخ الهند ومؤلف كتاب «نزهة الخواطر»، وأخوه عالم طبيب، وأُختاه عالمتان، وُلد بقرية تكيه من مديرية رائي بريلي من الولاية الشمالية بالهند سنة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م، مات أبوه وهو صغير؛ فكفله أخوه عبد العلي، وعاش صدر حياته في قصر الأمير نور الحسن ابن الأمير صديق حسن خان العالم السلفي، وتعلّم بدار العلوم (ندوة العلماء) ـ وإليها ينسب ـ، وفي دار العلوم بديوبند وجامعة لكهنو، وعمل مدرسًا بدار العلوم التابعة لندوة العلماء، وولي رئاسة ندوة العلماء عام ١٩٦١ حتى وفاته، وأصدر جريدة «ندائي ملّت» عام ١٩٦٢ بالاشتراك مع الشيخ محمد منظور النعماني، وأسس المجمع العلمي الإسلامي بالهند، وتولى رئاسته، وتولى تحرير مجلة «معارف» ردحًا من الزمن، وعمل على مكافحة الغزو الفكري، وبث روح الاعتزاز بالإسلام في المسلمين، وتولى رئاسة رابطة الأدب الإسلامي العالمية، واختير عضوًا في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وعضوًا مؤسسًا برابطة العالم الإسلامي، وعضوًا بمجامع اللغة العربية بدمشق والقاهرة وعمان، ونال جائزة الملك =

البلاد العربية بتآليفه وخطبه التي ألقاها في أمهات البلدان العربية.

أقمتُ عند السيد سليمان النَّدْوي أيامًا كنتُ ضيفَه فيها وأكرمني

= فيصل العالمية لخدمة الإسلام مشاركة مع الدكتور محمد ناصر عام ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، له «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، وهو أشهر مؤلفاته، وترجم إلى لغات، و«الطريق إلى المدينة»، و«النبوة والأنبياء في ضوء القرآن»، و«السيرة النبوية»، و«الأركان الأربعة»، و«الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»، و«المسلمون في الهند»، و«من نهر كابل إلى نهر اليرموك»، و«شخصيات وكتب»، و«المد والجزر في تاريخ الإسلام»، و«المدخل إلى الدراسة القرآنية»، و«إذا هبّت ريح الإيمان»، و«الصراع بين المادية والإيمان»، و«روائع إقبال» و«رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، و«العرب والإسلام»، و«مشكلات العمل الإسلامي». لشيخه الهلالي ردود عليه ـ ستأتي الإشارة إليها ـ حول (تصوّفه) و(مدحه لجماعة التبليغ)، وأبرز هذا الجانب مع بيان أخطائه على وجه جليٍّ أخونا البحاثة الهندي صلاح مقبول في كتابه الجيد «الأستاذ أبو الحسن الندوي، الوجه الآخر من كتاباته» خصوصًا: (الباب العاشر: الردود على الأستاذ الندوي)؛ **فإنه مهم**.

وظفرتُ بمراسلات بين أبي الحسن الندوي وبعض شيعة أندونيسيا، فيها موقف أبي الحسن الندوي من إيران، أرسلتها إلى أخينا صلاح مقبول لعله يضمها إلى نقداته عليه. توفي أبو الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، وصلي عليه صلاة الغائب في رمضان في المسجد الحرام.

أفرده غير واحد بترجمة؛ مثل: د. محمد اجتباء الندوي له «أبو الحسن الندوي»، والسيد عبد الماجد الغوري له «أبو الحسن علي الحسني الندوي، الإمام المفكر الداعية الأديب»، وطبع له ترجمة ذاتية بعنوان «في مسيرة الحياة»؛ وله ترجمة أيضًا في: «علماء العرب في شبه القارة الهندية» (٧١٠ ـ ٧١١)، «ذيل الأعلام» (٢/ ١٣١).

وظفرت بعدة مراسلات متنوعة بينه وبين الهلالي في «العيون الزلالية» (ق ١١٧ ـ ١١٨، ٢١٥، ٤٢٣ ـ ٤٢٤)، وأشار إليها الهلالي في عدة (مقالات) له، وفصلت ذلك في كتابي «مراسلات الهلالي» (١٧٣٨/٤ ـ الفهارس)، وبعضها في كتاب «رسائل الأعلام» لمحمد رابع الحسني.

غاية الإكرام، ثم توجَّهت إلى (بهريا) للقاء العالم الأديب الشاعر البليغ الشيخ عبد الحميد الفراهي[1]، وكانت له مدرسة كبيرة يعلم فيها علوم

(١) نشر الأستاذ محمد يوسف الشربجي في مجلة «جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية»، المجلد عشرون، العدد الثاني، سنة ٢٠٠٤، مقالة بعنوان (الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسيره «نظام القرآن»)، قال عن مقدمة «تفسيره» هذا: «. . . وهي التي سمعها العالم الأديب السلفي الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي رحمه الله من لسان المؤلف حينما زاره في رحلته الأولى إلى الهند سنة ١٣٤٢هـ؛ فقال في «مذكراته»: «سمعت منه خطبة تفسيره للقرآن؛ اغرورقت منها عيناي لفصاحتها وحقيتها»، وقد قلت عنها سابقًا: كأنها قبسات من التنزيل». انظر مقدمة الناشر لـ «التفسير» (ص٩).

قال أبو عبيدة: لي هنا ملاحظات:

الأولى: كانت زيارة الهلالي لعبد الحميد الفراهي في ١٧ رمضان سنة ١٣٤٢هـ.

الثانية: قرية الفراهي التي زاره الهلالي فيها هي (فرايها) وليست (بهريا)، وهي من قرى (أعظم كره) أحد أضلاع الإقليم الشمالي في الهند (أُتَرَّا براديش).

الثالثة: كان هذا اللقاء قبيل وفاة الفراهي بسبع سنين.

الرابعة: وصف الهلاليُّ الفراهيَّ في «مذكراته»: الرجل فصيح في التكلم لغاية، نادرٌ في علماء العرب فضلًا عن علماء الهند، . . . وهو عارف بمسألة الخلافة، محقِّق لها، لا يلتبس عليه شيء من أمرها، خلافًا لأهل الهند، مجتهد في العقائد والعمليات، لا ينتمي لمذهب، لكنه يتعبد على مذهب الحنفية، لأنه نشأ عليه، ويعتقد أن الأمر في مثل ذلك سهل. ماهر في الإنجليزية والعربية والفارسية والأردية، وبالجملة فهو أعلم من لقيتُه قبل هذا الحين، وهو ١٧ رمضان ١٣٤٢هـ».

الخامسة: ترجم الفراهي لنفسه إبَّان زيارة الهلالي له، فمن مراجع الأستاذ محمد أجمل محمد أيوب الإصلاحي التي ذكرها في مقدمه تحقيقه لـ «مفردات القرآن» (ص١): الترجمة الذاتية التي كتبها المؤلف رحمه الله بخطه في دفتر «مذكرات العلامة الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي» عندما زار قريته في ١٧ رمضان سنة ١٣٤٢هـ، قال عنها: =

الإسلام واللغة العربية، ففرح بي وأكرمني، والتمس مني أن أكون مدرسًا في مدرسته، وعرض عليّ راتبًا طيبًا مع السكنى والمعيشة، فاعتذرتُ له بأني وعدت الشيخ عبد المجيد الحريري في بنارس أن أقيم عنده.

ثم سافرت[1] إلى كَلكَتا وهي قاعدة بلاد (بنكال) ولقيت بها نابغة

= «وهي على وجازتها أوثق مصدر لسيرته. ثم ما كتبه الهلالي نفسه عن المؤلف في «مذكراته»».

السادسة: نقل أبو الليث شير محمد الإصلاحي النصين (نص الفراهي ونص الهلالي) في مقاله (الإمام حميد الدين الفراهي رحمه الله) المنشور في مجلة «الضياء» الشهرية التي كانت تصدر في لكناؤ، المجلد الثاني، العدد السابع، رجب ١٣٥٢ (ص٢٥٣ ـ ٢٦٠).

السابعة: ما قاله الهلالي ـ كما في «المجلة» ـ: «... ولما كانت هذه المشاغل تمنعني عن التجرد لمطالعة القرآن المجيد، ولا يعجبني غيره من الكتب التي مللت النظر في أباطيلها غير متون الحديث، وما يعين على فهم القرآن؛ تركت الخدمة، ورجعت إلى وطني، وأنا بين خمسين وستين من عمري، فيا أسفًا! على عمر ضيعته في أشغال ضرها أكبر من نفعها. ونسأل الله الخاتمة على الإيمان».

أفاده الأستاذ محمد أجمل محمد أيوب الإصلاحي في تقديمه لكتاب «مفردات القرآن» (ص١١، ٤١) وكتابه «كتاب مفردات القرآن للفراهي وأهميته في علم غريب القرآن» (ص١٣، ١٨).

الثامنة: قال الإصلاحي في تقديمه لـ «مفردات القرآن» (ص١١): «واتفق أن قدم الهلالي إلى الهند سنة ١٤٠٠هـ، فلقيته في وفد من مدرسة الإصلاح. فحدثنا عن الإمام الفراهي، فسألته أن يكتب لنا ما يحضره عن سيرة الفراهي فوعدنا، وفي اليوم التالي سلّم إليَّ ورقة كان أملاها على مرافقه، وختمها بإمضائه: «أملاه الدكتور محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي بمدينة بنارس ـ الهند في اليوم ٦/ ٤/ ١٤٠٠هـ»».

(١) كان ذلك في ١٥ رمضان سنة ١٣٤٢، أفاده في رسالته (الأولى) لشيخه المباركفوري وهي مؤرخة في ١٦/ربيع الثاني/سنة ١٣٤٩هـ، انظر كتابي «مراسلات الهلالي» (٢/ ٩١٤).

الهند في العلمِ والأدبِ والسياسةِ أبا الكلام آزاد[١]، فرحَّب بي وبقيت في ضيافته[٢] بإلحاح منه خمسة عشر[٣] يومًا، وكان له كاتب اسمه عبد الرزاق المليح آبادي[٤] هو الذي يحرر صحيفة[٥] عربية كان ينشرها

---

(١) أبو كلام آزاد هو أحمد (المكنى محيي الدين) بن خير الدين، الهندي الأب، العربي الأم والثقافة، مولده بمكة سنة ١٣٠٢هـ ـ ١٨٨٥م، أصله من دلهي، قصد الأزهر في الرابعة عشرة من عمره؛ فدرس على علمائه، ودرّس في خارجه، وعاد إلى وطن أبيه (الهند)؛ فسكن كلكته، أمضى في السجن أحد عشر عامًا ولم يصرفه عن هدفه في مقاومة الإنكليز، وكان من زعماء المسلمين في الهند أيام حركتها التحريرية.
وكان مع علمه بالعربية يكتب تأليفه ومقالاته بالأُردية، وقد ترجم بعضها إلى العربية، منها «من دلائل النبوة»، وهو مطبوع بتقديم الشيخ أحمد حسن الباقوري، وأعظم آثاره «ترجمة القرآن وتفسيره» في (١٥) جزءًا بالأُردية؛ مات سنة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م، ومعنى (آزاد): الحر؛ اختاره لقبًا له ليدل على تحرره الفكري.
ترجمته في «تراجم الأعلام المعاصرين» (٢١ ـ ٢٦)، «الأعلام» (١/ ١٢٢).

(٢) دارة أبي كلام الآن هي المكتبة الوطنية بكلكتا، زرتُها في شوال سنة ١٤٣٤هـ، وهي مقابل فندق (تاج بنغال).

(٣) الصواب أحد عشر يومًا، كما في رسالته المنوه بها آنفًا، وكان آنذاك قريب عهد بالحادثة.

(٤) هو اللكهنوي، وكان كاتب أبي كلام ومدير مجلته.

(٥) اسمها «الجامعة»، وهي مجلة أدبية علمية اجتماعية، تصدر مرتين في الشهر، المحرر والمدير المسؤول عبد الرزاق اللكنوي، أنشأها أبو كلام آزاد للتأثير على أفكار العرب ولكشف النقاب عن مكائد الإنجليز ضد الإسلام والمسلمين، وللفت انتباه المسلمين في العالم إلى الأضرار والخسائر التي لحقت بهم بسبب ابتعادهم عن التضامن الإسلامي، ولتعارف مسلمي الهند بإخوانهم العرب.
أصدرها كمجلة نصف شهرية من مدينة كلكتا في إبريل عام ١٩٢٣م، وجعلها لسان حال جمعية الخلافة المركزية التي كانت تقوم بالإنفاق عليها، وكان =

أبو الكلام، فالتمس مني أبو الكلام أن أنشر فيها ما يتيسر من المقالات، فنشرت فيها (ثلاث مقالات)[1]:

= يشرف عليها مولانا آزاد بنفسه، وفوض إدارة تحريرها إلى الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي. وكان من الأهداف الرئيسية وراء إنشاء هذه المجلة مساندة الخلافة العثمانية ومعارضة سلطة حلفاء الحكومة البريطانية، واتحاد جميع المسلمين بصفة خاصة وجميع الأمم الشرقية بوجه عام، وتعريف المسلمين الهنود بالبلاد العربية والإسلامية والحصول على الحرية السياسية والفكرية.

ومن أهدافها كذلك توجيه الأمم الشرقية إلى إصلاح أحوالهم، وفي الحقيقة أراد مولانا آزاد بهذه المجلة أن تكون منصة لتبادل الآراء والأفكار بين القادة والزعماء والمفكرين المسلمين المتواجدين في أقاصي الأرض وأدانيها، لكي يتمكن المسلمون في كل مكان من التوحد بدلًا من التشتت الذي أصابهم، ولكي يكونوا كالبنيان يشد بعضهم بعضًا؛ لا تهزمهم قوة في العالم، ولكي يكون لكلمتهم وزن وقيمة لدى الأمم الأخرى.

وكانت (الجامعة) أيضًا ـ مثل المجلات العربية السابقة في الهند ـ تهدف إلى نشر اللغة العربية وتوطيد دعائمها في الديار الهندية، كما أنها قامت بدور كبير في إحياء العلوم العربية والثقافة الإسلامية عن طريق نشر المقالات الدينية والعلمية والثقافية لعلماء ذلك العهد. وبالرغم من ذلك لم يمتد عمرها أكثر من عام واحد بالنظر إلى العوائق السياسية التي كانت أكبر سبب في توقفها عن الصدور، ومن ذلك موقفها تجاه الحكومة الإنجليزية الذي أثار غيظ الحكومة الإنجليزية ضد المجلة ومؤسسها، كما أن الوضع المالي أيضًا كان أحد الأسباب في قصر عمرها، وهكذا احتجبت هذه المجلة عن الصدور في مارس سنة ١٩٢٤م، وتعتبر هذه المجلة مصدرًا مهمًّا للمعلومات عن الأوضاع السياسية التي كانت توجد خلال عام ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤م في الهند والعالم الإسلامي وخاصة في تركيا والحجاز. ومن ثم عرف الناس أن الشعب الهندي يتطلع إلى الاستقلال من الاستعمار الإنجليزي، وعرفوا أن حركة الخلافة ظهرت في بلاد الهند لتحريرها من المستعمرين ولإنشاء الخلافة الإسلامية من جديد، فهي بمثابة مصدر تاريخي وسياسي في آن واحدٍ.

من كتاب «دور الهند في نشر التراث العربي» (٢١٦ ـ ٢١٧).

(١) صدرت المقالة الأولى في المجلد الثاني، الجزء الثاني والثالث، بتأريخ شوال =

في أخبار البربر وأحوالهم ولغتهم، وكان أبو الكلام لا يُفَرِّق بين البربر الذين هم أمة عظيمة في المغرب؛ تمتد الأراضي التي يسكنونها من حدود مصر شرقًا إلى حدود سنغال غربًا، وتشتمل على ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا كما تسمى هذه البلدان في هذا الزمان، لا يفرق بين هذه الأمة وبين سكان (بربرة) في السودان، فأخبرته بالفروق الكثيرة التي بين الفريقين، واهتم بذلك كثيرًا.

فإن قيل: إن الناس في المشرق العربي يعتقدون أن هذه البلدان عربية، فكيف جعلتها بربرية؟ فالجواب: إن سكان هذه البلدان الأصليين هم البربر، وقد نزح إليها العرب في أول الفتح الإسلامي، وفي القرن السادس الهجري كما في «مقدمة ابن خلدون»(١) عند ذكر بني هلال وبني عامر، وهؤلاء العرب النازحون عددهم قليل جدًّا بالنسبة إلى السكان الأصليين، ولكن الإسلام وحَّد بينهم وجعلهم أمة واحدة لا فضل لأحد الفريقين على غيره إلا بتقوى الله، وبطول الزمان انتشرت اللغة العربية في هذه البلدان فصارت أكثر الحواضر تتكلم بها، وعلى هذا يصح أن نسميهم عربًا مستعربة(٢)، ولكن إلى هذه الساعة لا يزال نحو نصف

= وذي القعدة سنة ١٣٤٢هـ ـ مايو ويونيو سنة ١٩٢٤ (ص٧ ـ ١٠)، وفيه قبل المقال: «صاحب هذه المقالة الرائعة حضرة صديقنا الفاضل محمد عبد القادر الهلالي المغربي من بلدة سجلماسة في المغرب. وقد قدم البلاد الهندية قبل شهور ليعرف أحوالها وأهاليها من المسلمين وغير المسلمين، بعد أن ساح في البلاد المغربية ومصر والحجاز، نشكره على هذه المقالة الجميلة التي تبيِّن أحوال بربر إفريقية الذين لا تعرف عنهم غير اسمهم وبعض أحوالهم التاريخية».

(١) انظر: (١/ ٢٨٨ و٢/ ٢٨ ـ ط الدرويش).

(٢) للأستاذ محمد علي هارون دراسة مهمة، منشورة بعنوان: «عروبة البربر، الحقيقة المغمورة»، مطبوعة في دمشق، سنة ١٩٩٢م عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وقرر هذا بروكلمان في كتابه «فقه اللغات السامية» (١٢).

سكان هذه البلدان يتكلمون بالبربرية، والخَطْبُ في ذلك سهل؛ فإن البربر من الشعوب التي خرجت من جزيرة العرب قبل زمان سحيق في القدم، ونحن معشر طلبة علم اللغات لا نشك في ذلك كما أن الواحد نصف الاثنين، ولذكر الأدلة على ذلك مقام آخر(١).

وكان عبد الرزاق المليح آبادي زنديقًا، وكان يعظِّم جمال الدين الأفغاني ويزعم أنه كان ملحدًا، ولا يعظِّم رفيقَه محمد عبده ولا صاحبه السيد رشيد رضا(٢)، لأنهما بزعمه لم يفهما فلسفته لأنها أعلى من

(١) قرر الهلالي في عدد من مقالاته، مثل: «من مكائد الاستعمار في بلاد المغرب» (٣٣٥ ـ ٣٣٦) ضمن «رسائل مسجد الجامعة»، و«حديث مع زائر كريم» المنشورة في مجلة «الجامعة الإسلامية» بالمدينة المنورة، العدد الرابع والعشرين، ربيع الثاني ١٣٩٤هـ (ص١٩ ـ ٢٤).
ونشرت أيضًا في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، مايو ـ يونيو ١٩٨٣م، (ص١٤ ـ ٢٦).
و«ما وقع في القرآن بغير لغة العرب»، المنشورة في «مجلة الإيمان» المغربية، السنة الرابعة، العدد التاسع والعاشر، بتأريخ ذي القعدة وذي الحجة ١٣٨٧هـ فبراير ومارس ١٩٦٨م (ص٣١ ـ ٤٣). وفي مجلة «الجامعة الإسلامية» السنة الثالثة، العدد الثالث، بتأريخ محرم ١٣٩١هـ (ص٢٠ ـ ٣٥).
ونشرت أيضًا ـ لكن بعنوان «هل توجد في القرآن كلمات معرَّبة» ـ في مجلة «البحوث الإسلامية» العدد الثامن، ذو القعدة ـ ذو الحجة عام ١٤٠٣هـ ومحرم ـ صفر عام ١٤٠٤هـ (ص٢٠٧ ـ ٢٢٢).
و«تعليق على مقالين» المنشورة في مجلة «دعوة الحق» المغربية، العدد الثاني، السنة الرابعة، جمادى الثانية ١٣٨٠هـ ـ نوفمبر ١٩٦٠م (ص١٠٥ ـ ١٠٦).
قرر فيها أن البربرية أصلها لغة عربية.

(٢) تغير محمد رشيد رضا في أواخر عمره وخرج عن منهج محمد عبده العقلاني، والأفغاني كسر الجمود والتقليد اللذين كانا سمة عصر العلماء في ذلك الوقت، ورُمِي بتُهم كثيرة، تحاصره وتقوى في حقه، وليس منها الإلحاد! وذهب غير واحد من الباحثين المعاصرين إلى أنه (ماسوني)، ويقدِّمون أدلَّة على ذلك ظاهرة، والله أعلم بحقيقة الأمر.

مستواهما، وقد جادلتُه في ذلك، وكثير من الناس في هذا الزمان يرون هذا الرأي، ولكن أقرب الناس إليه محمد عبده ورشيد رضا يشهدان بأنه مؤمن، وكتبه التي ألفها وخصوصًا «رسالته في الرد على الدهرية» لا تبقي شكًّا في أنه كان من المؤمنين.

ومن أعجب ما سمعتُه من عبد الرزاق المليح آبادي أننا كنا نتجادل في تارك الصلاة أهو مسلم أم كافر؟ واستعرضنا أدلّة العلماء وخلافهم في ذلك، فقال لي: عندي دليل قاطع لا يعرفه العلماء الذين ذكرتَ على أنَّ تارك الصلاة مؤمن، فقلت: وما هو؟ فقال لي: هو أنا، لأنني لا أصلِّي، ومع ذلك لا أشك في أنني مسلم.

ثم رجعتُ إلى بنارس[(١)] وأقمتُ عند الشيخ عبد المجيد الحريري ضيفًا مُكرَّمًا وأستاذًا محترمًا مدة ثلاثة أشهر، ثم سافرتُ إلى (عظيم آباد) ولقيتُ الشَّيخَ إدريسَ بن شمس الحق[(٢)] فأطلعني على خزانة كتب والده[(٣)]

---

(١) نزل في دفيور في طريقه من كلكتا إلى بنارس، ونزل عند مولوي عبد الرزاق يومًا واحدًا، ثم انصرف إلى عبد القيوم في بانكي يور وأقام عنده خمسة أيام ليرى كتبة هناك، ثم سافر إلى عظيم آباد، انظر: «مراسلات الهلالي» (٢/ ٩١٥ ـ ٩١٦).

ونزل العلامة الهلالي في بنارس في الجامعة السلفية هناك، أخبرني بذلك المسؤولون عنها عند زيارتي لها في شوال ١٤٣٤هـ، وأطلعوني على (صور فوتوغرافية) له فيها.

(٢) سافر بصحبة ولده عبد الله مع الهلالي إلى (دهاكة)، وأقام بها خمسة أيام، انظر: «رسائل الهلالي» (٢/ ٩١٦ ـ ٩١٧).

(٣) قال الهلالي في «رسائله» (٢/ ٩١٧): وأنا أطالع وأُقيِّد أسماء الكتب، حتى أتممت خزانة الكتب العلمية، فرجعنا إلى بتنه.

قال أبو عبيدة: ظفرت بتقييدات الهلالي في دفتر صغير فيه أسماء عدد من الكتب.

وأكرمني، وزرت خزانة كتب (خُدَابَخْش)[1] بتلك المدينة فرأيتُ في الخزانتين كتبًا نفيسة، منها كتاب «الاستذكار شرح الموطأ» لابن عبد البر، ومنها كتاب «الأحكام الكبرى»[2] لعبد الحق الإشبيلي.

ثم سافرتُ إلى لكناو ونزلت عند الشيخ خليل بن محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليمني[3] ففرح بي وأكرمني،

---

(١) هي في بتنه، في دورين، وعلى يمين الداخل قبر مؤسسها خدابخش، والمكتبة اليوم هي بيته الذي كان يقطنه، وكان غنيًّا جدًّا، وكان يرسل مندوبين إلى مصر والشام ليشتروا له المخطوطات، وكان مولعًا بها، حتى افتقر في آخر عمره بسبب ذلك!

ومن لطيف ما يؤثر عنه: (المجنون الذي يعير كتابًا، والأجن منه من يستعير كتابًا ويرجعه)! وزرتها في شوال سنة ١٤٣٤هـ، واطلعت فيها على مخطوطات قيمة، كثير منها بخط أصحابها، ومنها فهارس في (٣٥) مجلدة، ثم رتبها مولوي عبد الحميد في «مفتاح الكنوز الخطية» طبع في المكتبة نفسها في أربعة مجلدات، ودوَّنتُ ذلك مفصلًا في كتابي «رحلات إلى بلاد المخطوطات، الهند».

و(خُدَابَخْش) بضم الخاء، ومعناه بالعربية: عطايا الله، وظفرتُ في بعض مكتبات بتنه التجارية بكتاب بالأُردية في مجلدة ضخمة في ترجمته، وترجم لي الأخ أسلم المدني فحواه وزبدته، وأودعته في «رحلتي».

(٢) في ٢٧٣ ورقة، مسطرتها (٣٥) سطرًا، منسوخة سنة ٩٠٠هـ، تحت رقم (٣٧٥)، انظر: «مفتاح الكنوز الخطية» (١/ ٥٠).

(٣) أرسل الشيخ خليل للهلالي رسالة وهو في بنارس يلتمس منه القدوم إلى لكهنو، ومنها إلى بهوبال، قاله الهلالي في رسالة إلى شيخه المباركفوري، مؤرخة في أواسط ذي القعدة ١٣٤٢، أفاده في «مراسلاته» (٢/ ٩١٧). وزاد:

«أما لكهنو؛ فلملاقاة السيد سليمان وتجديدهم أمر ندوة العلماء؛ لأكون مدرسًا فيها، وهذا ما يتمنى الشيخ خليل بكل قلبه، لأكون معه في لكهنو.

وأما أنا؛ فليست لي رغبة شديدة في ذلك؛ فإن أهل بنارس طلبوا مني المقام عندهم، وقرروا لي ٢٥٠ روبية في الشهر، مع الأكل والمسكن، وأحبُّ أن =

وأخبرته بأني أريد لقاء والده الشيخ محمد حسين[1] في بهوبال، فكتب

= أقنع به، هذا أحسن من ندوة العلماء، والتزام نظامها، ولكن السيد سليمان (أي الندوي) كان مشغولًا بزواج ابنته؛ فلم يأت لكهنو في الميعاد المعين لذلك.

وأما بهوبال؛ فأراد الشيخ خليل باستقدامي أن يسعى في تعيين عطاء شهري على سبيل إعانة أهل العلم من صاحبة بهوبال، ولم يكن لي علم بذلك، وكنتُ من قبل أريد زيارة أبيه والأخذ عنه ليتصل سندي بسنده، ولكني كنتُ أردتُ تأخير ذلك بما لحقني من التعب بكثرة الأسفار والنفقات، وحيث كتب لي؛ قلت: خيرًا؛ هذا ما كنا نبغي؛ فذهبتُ».

وأما الشيخ الفاضل خليل بن محمد بن حسين بن محسن السبعي الأنصاري اليماني، ثم المالوي، فهو أحد العلماء الأذكياء، ولد في بهوبال سنة ١٣٠٤هـ، ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم، واشتغل على والده في طلب العلم، ودرس في دار العلوم وحصل على الشهادة منها، ثم درس الحديث على السيد أمير علي الحسيني اللكهنوي، ولازمه مدة طويلة حتى برع في شتى العلوم والفنون، ثم ولي التدريس في المدرسة العالية بكلكته، وتعلم اللغة العربية وآدابها بحكم أصله من العرب.

ثم انتقل إلى (دهاكه) ومكث مدة يدرس ويفيد حتى عين أُستاذًا في جامعة (لكهنو) سنة ١٣٤١هـ، ومكث بها أربع عشرة سنة ينشر اللغة العربية، ويدعو إلى حبِّ العرب، وكان محترمًا من جميع الطبقات، يحترمه جميع الناس حتى غير المسلمين، وكان بيته مدرسة غير نظامية يقصده طلاب العلم للاستفادة حتى تخرج على يديه جمع غفير من العلماء، إلى أن اعتزل الخدمة في الجامعة في شعبان سنة ١٣٥٥هـ؛ فاعتكف في بيته أعوامًا، ثم ذهب إلى بهوبال حيث اختير عضوًا في مجلس العلماء ومعلِّم أول في مدرستها، ولم ينقطع عن نشر اللغة العربية والكتاب والسنة، ثم انتقل إلى الباكستان سنة ١٣٦٩هـ، وقد أدى فريضة الحج سنة ١٣٤٤هـ، وقد صنف رسائل في مبادئ اللغة العربية وقواعدها، وتوفي لتسع خلون من جمادى الأولى سنة ١٣٨٦هـ؛ ترجمته في «سير المتأخرين» (ص٣٧)، و«نزهة الخواطر» (٨/ ١٣١ ـ ١٣٣)، و«علماء العرب في شبه القارة الهندية» (٧٤٥).

(١) ولد ببلدة الحديدة سنة ١٢٧٣هـ، وقرأ على والده بعض رسائل النحو والفقه، =

إلى والده بذلك فأجابه بأنه يستحسن أن أنزل في ضيافة ملكة بهوبال[1]،

= وكذلك على عمه الأكبر الشيخ محمد بن محسن اليماني، وقدم بهوبال نحو سنة ١٢٩١هـ، فلازم عمه وصنو أبيه الشيخ زين العابدين، وتأدب عليه وأخذ عنه الفقه الحديث، ثم سافر إلى الحجاز، وأدى فريضة الحج، ولما رجع إلى الهند تولى التدريس في مدرسة والده، وأفاد، ثم سافر إلى الحجاز، ثم إلى الشارقة، ثم قدم لكنهو، وتولى التدريس بدار العلوم، وله مؤلفات، منها: «الطراز الموشى بفوائد الإنشا» في مجلد، و«المورد الصافي في العروض والقوافي»، و«النور الساطع المقتبس من محاسن البدر الطالع»، وله قصائد عربية طويلة في الثناء على ندوة العلماء، نظمها سنة ١٣٢٠هـ، مات غرة ذي الحجة سنة ١٣٤٤هـ في بهوبال، ودفن بها، رحمه الله وإيانا.

ترجمته في «نزهة الخواطر» (٨/ ٣٨٨ ـ ٣٩٤)، «علماء العرب في شبه القارة الهندية» (٨٣٨ ـ ٨٣٩) وقال عنه: «عربي من الخزرج».

ونمي إليَّ أن الشيخ السري نظام اليعقوبي البحريني حصل بالشراء الشرعي على «ثبته» الأصلي، وأصول إجازته، ومؤلفاته.

(١) ملكة بهوبال هذه: أميرة إنجليزية فيما أظن، تزوجت العلامة صديق حسن خان القنوجي البخاري، صاحب التآليف العديدة. (خ)

قال أبو عبيدة: ليس كذلك، بل هي هندية مسلمة، لها ترجمة في «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» (٨/ ١٢٤٥)، فقال: «نواب شاهجهان بيكم بنت نواب سكندر بيكم بنت نواب قدسية بيكم الملكة الفاضلة الباذلة.

ولدت بحصن إسلام نكر على ثلاثة فراسخ من بهوبال سنة أربع وخمسين ومئتين وألف، وجلست مجلس أبيها نواب جهانكير محمد خان بالاستحقاق من غير شقاق وهي ابنة تسع سنين في الخامس عشر من محرم سنة ثلاث وستين ومئتين وألف، وأتت إليها خلعة فاخرة من جهة ملكة بريطانيا والهند، وربت في حجر أمها وحصلت الفنون، وتعلمت الخط والكتابة واللغة الفارسية والإنشاء والشعر، واستفادت أدب الرئاسة والسياسة حتى برعت في ذلك الأقران، وامتازت بينهم في القدرة على ترجمة القرآن، وتحرير الرسائل الدينية، وتقرير المسائل الدولية، وكان يضرب بها المثل في الذكاء والحفظ والكرم والجود، ولما بلغت من العمر اثنتين وعشرين سنة فوضت عنان الرئاسة إلى أمها، واكتفت لنفسها بولاية العهد. =

وقصد بذلك إكرامي، فقال لي الشيخ خليل: ابعث برقية إلى الكولونيل عبد القيوم أمير الضيافة فبعثتها إليه، وركبتُ القطار في الدرجة الثالثة التي كنت دائمًا أسافر فيها، لأن أجرة الركوب فيها رخيصة، ولو ركبتُ

= ولما توفيت والدتها سنة خمس وثمانين ومئتين وألف جلست على مسند الرئاسة، ولما مات زوجها نواب باقي محمد خان تزوجت بالسيد العلامة صديق حسن بن أولاد حسن الحسيني البخاري القنوجي سنة ثمان وثمانين ومئتين وألف، ثم إنها سافرت إلى «بمبئ» سنة تسع وثمانين، وهناك حصل لها الخطاب العالي من الدرجة الأولى والنيشان السلطاني، وسافرت بعد ذلك سنة اثنتين وتسعين إلى «كلكته»، ولاقت بها «برنس آف ويلز» أكبر أولاد ملكة بريطانيا وولي عهدها، وسافرت إلى «دهلي» سنة أربع وتسعين وحصل لها النيشان القيصري العظيم الشأن المكتوب عليه «العز من الله»، وأعطاها حاكم الهند العام سيفًا فرنجيًّا مع نطاق مطلي وصندوق محلًّى، ثم جاء لها خطاب آخر ترجمته «تاج الهند» وفي سنة ست وتسعين ورد مثالان عظيمان على اسمها مع نشان من الدرجة العليا التي يقال لها «شفقة» من جهة السلطان عبد الحميد خان الغازي ملك الدولة العثمانية.

وكانت صاحبة الفضل والكرم، وربة النعم، عمرت الديار، وأحيت المدارس العلمية، وبنت المساجد العظيمة، وقررت الوظائف الفخيمة، وحفرت الآبار، وغرست الحدائق والأشجار، وأحدثت العمائر الكبار، وأسبلت ذيول المنح والعطايا على أهل الفضل من أهل الهند، وأهل الحرمين الشريفين واليمن، والعراق، والشام وغيرها من البلاد، وأعطت الطلبة ألوفًا من المصاحف والكتب الدينية، وأوقفت أرزاقًا كثيرة على الفقراء والمحاويج، ولم تزل تمنح العفاة والواردين بمملكتها من الحجاج والغزاة والمسافرين والطلبة والمساكين، من الأقمشة والأموال والبيوت والرواتب الشهرية، وأنفقت مالًا عظيمًا على طبع المصحف والتفسير والحديث واللغة وغيرها من العلوم والفنون، وأسست المدرسة الجهانكيرية على اسم أبيها بدار ملكه.

ولها كتب مشهورة، منها «ديوان الشعر»، و«تهذيب النسوان».

ماتت لليلتين بقيتا من صفر سنة تسع عشرة وثلاث مئة وألف بدار ملكها «بهوبال»، رحمها الله تعالى.

الدرجة الثانية لما أمكنني أن أرى إلا قليلًا من البلدان، وأنا شابٌّ لا يهمُّني تحمل المشقة.

فلما وصل القطار إلى محطة بهوبال كانت سيارة ملكية[1] تنتظرني أمام عربات الدرجة الثانية، فلم يجدني فيها الكولونيل عبد القيوم، فبحث عني فوجدني من ركاب الدرجة الثالثة، فرحَّب بي وركبت السيارة الملكية، ووصلت إلى دار الضيافة[2] ووجدت أثاثها في غاية الفخامة والزينة، ثم توجَّهت إلى شيخنا محمد بن حسين بن محسن في بيته ففرح

(١) كانت السيارة سيارة (موتر)، وكان فيها الشيخ خليل، أفاده الهلالي في «رسائله» (٢/ ٩١٨).

(٢) زاد في «رسائله» (٢/ ٩١٩):
فأنزلني الرئيس في مكان من أحسن ما يكون، وطلب مني أن أُعد خطبة لأُلقيها في محفل يسعى هو في تعيينه، والمظنون أنه كان يريد أن يكون ذلك أمام عظيمتهم؛ فنزل بي من ذلك حمل ثقيل، وقلتُ في نفسي: ما لي وللملوك أو التملكن و. . . و. . . ومداراتهم، ولكن لم يمكني أن [أُخالف] الشيخ خليلًا، وهو إنما فعل ذلك لنفع يعود عليّ في ظنه؛ فقبلتُ، وشرعتُ أعد الخطبة، وقد اشترطوا عليّ فيها أن لا أتعرض للتقليد، ولا لدولة من دول أوروبا كالإنجليز وفرنسا مثلًا؛ فقبلتُ رغم أنفي!
فلما مضى يومان وجدتُ الشيخ خليل مهتمًّا، وقد نقل أدواتي من قصر ضيافة الرئاسة إلى بيتهم؛ فقلتُ له: ما الخبر؟ فارتُجَّ عليه! ثم قال: إن بعض الشياطين ذهب إلى الكاتب (السكرتاري) للملكة وخوَّفه في شأنك، وقال له: هذا من رعية فرنسا، ولا مناص يكون جاسوسًا لها؛ فإذا لاقى الملكة، أو علم الإنجليز أن بين الملكة وفرنسا اتصال؛ فإن الأمر يكون خطرًا، وعليكم سوءاتها؛ فتوقفوا! فقلتُ: الحمد لله على ذلك، والله! لقد كنتُ كارهًا لتلك الملاقاة الباردة، والخطبة الثقيلة التي فيها شروط ليست في كتاب الله؛ فقال لي: إننا سنسعى في إزالة هذا الأمر؛ فقلتُ له: أرجوك أن لا تعود إلى تكليفي وإرهاقي صعوبة، وإلا سافرتُ قبل أن آخذ على الوالد الذي لم أقدم إلا لزيارته؛ فترك ذلك، وانتقلتُ إلى ضيافتهم.

بي كثيرًا، وبدأتُ أُذاكره في علم الحديث، وكنت ألازمه في كلِّ وقتٍ إلا في أوقات الطَّعام فإني كنت أذهب إلى دار الضيافة، وأقمت على ذلك خمسة أيام، وعينت الملكة يومًا لزيارتها، وقبل ذلك اليوم بيوم واحد جاءني الكولونيل عبد القيوم وقال لي: إن الملكة تسلِّم عليك وتعتذر عما وعدت به من اللقاء، وقد أمرتني أن أنقلك من دار الضيافة إلى بيتي وأكون في خدمتك مدة إقامتك في بهوبال.

فقلت له: أمهلني حتى أخبر بهذا شيخنا محمد بن حسين، فركبت معه السيارة إلى بيته فوجدته قد عرف الخبر وقال لي: إني حين طلبتُ من المَلِكَة أن تكون ضيفَها لم أفعل ذلك بخلًا ولا عجزًا، وإنما أردتُ أن أكرمك وإكرام العلم الذي أنت طالبه، ولكن أعداءنا من متعصِّبة الحنفية ذهبوا إلى المِلِكَة وقالوا لها: إن هذا الرجل العربي الذي في ضيافتك ليس من سكان جزيرة العرب بل هو مغربي، ومن الشروط التي شرطها عليكِ الإنكليز أن لا تجتمعي بأي شخص ينتمي إلى دولة أجنبية، ولا يخفى عليك أن المغرب تابع للدولة الفرنسية، ففي لقائه خطر عليك، وقال الشيخ للكولونيل عبد القيوم: جزاك الله خيرًا على استعدادك لضيافة محمد تقي الدين الهلالي وجزى الله الملكة خيرًا على قصدها الحسن وإكرامها لأهل العلم، وجزى الله الوشاة شرًّا، فهذا الرجل محمد تقي الدين طالب علم لا علاقة له بأي دولة، إلا أن بلده المغرب تسلطت عليه دولة أجنبية ففرضت عليه حمايتها كما فرضت بريطانية حمايتها على بهوبال.

وبقيت عنده خمسة عشر[1] يومًا، ثم سافرتُ قافلًا إلى لكناو فزرتُ

(١) الصواب: سبعة أيام، فيما كتبه الهلالي في «رسائله» (٢/ ٩١٩) وكان ذلك في أواسط ذي القعدة ١٣٤٢هـ، وكان حينها قريب عهد بهذه الحادثة.

خزانة كتب الشيخ عبد الحي اللكناوي العالم الحنفي المشهور ذي التآليف الكثيرة في الحديث والفقه باللغة العربية، فوجدت فيها كنزين ثمينين: **أحدهما** (خمسة أسفار) من «مصنف ابن أبي شيبة»[1] وأول

(١) كان الهلالي أول ما سعى لنشر «الرد على أبي حنيفة»، وأغضب هذا متعصِّبة الحنفية، وعلى رأسهم الشيخ محمد زاهد الكوثري، ونبز الهلالي أنه كان متأثرًا بالغرب، وهو أول من رفع عقيرة هذه الدعوى المسمومة، فقال في مطلع كتابه «النكت الطريفة في التحدث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة» (ص٧ ـ ٩)، وأشار إلى الهلالي بقوله في أولها: «زارني عالم مغربي الأصل ينتسب هلاليًّا. . .»، وختمها بقوله: «ولا أدري ما إذا كان تمكّن من الاحتفاظ بتاج الإسلام في رأسه، نسأل الله السلامة»، ونقل كلامه وأقره وصرح بالمراد منه تلميذ الكوثري محمد عوامة في تعليقه على «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٠/ ٢٠ ـ ٢٣) قال معلقًا على آخر كلام شيخه: «كان هذا الزائر هو الشيخ تقيّ الدين الهلالي (١٣١١ ـ ١٤٠٧) والكوثري يشير بهذا إلى ما حصل للرجل حينئذ: أنه سافر إلى ألمانيا، وتزوج من امرأة ألمانية، وكانت هذه السفرة هي الثانية، والأولى سافر إليها متعلمًا ودارسًا».

ونقله أيضًا عبد الفتاح أبو غدة ـ دون آخره ـ في تتمة مطولة له وضعها في آخر تحقيقه لكتاب «الإمام ابن ماجه وكتابه السنن» (٣١٦).

قال أبو عبيدة: لا تصدر الدعوى الجائرة السابقة إلا من حاقد أو جاهل بحال العلامة الهلالي وإنجازاته وحرصه ودفاعه عن شرع الله، وقد كتب تلميذ العلامة الهلالي الشيخ أحمد بن محمد الحمزاوي مقالة جيدة يرد فيها على هذه الفرية، ونشرها في جريدة «الجزيرة» السعودية، العدد (١٠١٢٣)، يوم الجمعة بتأريخ ١٣ ربيع الأول سنة ١٤٢١هـ، بعنوان: (هل كان العلامة تقي الدين الهلالي متأثرًا بالغرب؟).

بقي: أن «رد ابن أبي شيبة على أبي حنيفة» طبع قديمًا سنة ١٣٣٣هـ، قبل سفر الهلالي للهند سنة ١٣٤١ ـ ١٣٤٢. واستغرقت رحلته إليها وتجوله فيها خمسة عشر شهرًا، كما في «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٩٧).

ولعله حث على نشره بعد ذلك، أو سعى في النشر، ولم يقدر الله ﷻ له تحقيق مسعاه.

ما وقع بصري فيه عليه حديثٌ موقوفٌ رواه ابن أبي شيبة بسنده إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن الخوارج: أكفارٌ هم؟ فقال: لا، من الكفر فروا[1]. **والكنز الثاني** هو كتاب «التقاسيم» المعروف بـ «صحيح ابن حبان»، وكلا الكتابين لم يطبع إلى الآن فيما علمت[2]. ومن لكناو سافرت إلى دهلي[3] ثم إلى بومباي بقصد الرجوع إلى المغرب مارًّا بالعراق فالشام فمصر، ووصلت إلى مدينة بومباي فنزلت عند العالم الصالح الشيخ شرف الدين الكُتبي[4] رحمة الله عليه، وأقمت في بومباي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦) والبيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ٤٥٠) وابن عساكر في «تاريخه» ـ كما في «كنز العمال» (٣١٧٠٧). **وإسناده صحيح**.

(٢) الأول طبع منه البعض، أما الثاني فإن الهلالي لم يطلع إلا على بعضه، لأنه لا يوجد تامًّا، وقد طبع (الجزء الأول) من ترتيبه المسمى «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» لابن بلبان الفارسي. (خ)

قال أبو عبيدة: أما «مصنف ابن أبي شيبة»، فطبع مرات، بتحقيقات متعددة، آخرها بتحقيق فضيلة الشيخ سعد الشَّثري، وانظر «المصنف» (١/ ٢٦٥ ـ ٢٧٥) بتحقيق حمد بن عبد الله الجمعة ومحمد بن إبراهيم اللحيدان. وكتبت الباحثة عيشة المشعبي «الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة ومنهجه في مصنفه»، ووضحت هذا توضيحًا جيدًا، وبيَّنتُ النقص الذي فيه، وهو قليل بالنسبة للمطبوع، أما «التقاسيم» ـ وتتمة اسمه: «والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها» ـ، طبع حديثًا كاملًا بتحقيق محمد علي سونمز وخالص آي دمير في سبعة مجلدات.

وأما «الإحسان»، فقد نشر العلامة أحمد شاكر (المجلد الأول) منه، ثم أصدر الأستاذ عبد الرحمٰن محمد عثمان جزأين آخرين، نشرتهما المكتبة السلفية بالمدينة النبوية سنة ١٩٧٠م، ثم حققه الشيخ شعيب الأرناؤوط رحمه الله تعالى، ونشره كاملًا في مؤسسة الرسالة ـ بيروت في (١٦) مجلدًا، ثم حققه شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ ووضع عليه «التعليقات الحسان»، وهو مطبوع مشهور.

(٣) وأقام فيها ثلاثًا، انظر «رسائل الهلالي» (٢/ ٩٢٠).

(٤) انظر عنه «رسائل الهلالي» (٢/ ٥٨٨، ٥٨٩، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١).

شهرين دخلت في أثنائها المستشفى وأجري لي عمل جراحي غير ناجح في عيني اليسرى[1]، وكان الشيخ شرف الدين رَحِمَهُ اللَّهُ في تلك المدة يغمرني ببرّه وإحسانه.

لقاء الشيخ مصطفى آل إبراهيم

بينما[2] أنا جالس في مكتب الشيخ شرف الدين رَحِمَهُ اللَّهُ إذا بشاب أقبل في سيارة فخمة، وكانت السيارة في ذلك الزمان قليلة، ودخل المكتب وعليه بزة فاخرة من الثياب[3] وروائح العطر تفوح منه، وهو

(١) فصل الهلالي هذا في (الرسالة الخامسة) من كتابي «رسائل الهلالي» (٢/ ٩٣٠ ـ ٩٣١) وهي موجهة لشيخه المباركفوري، قال له فيها:
«وقد أطمعني دكتور ـ تحتها في الأصل: يعني داكر ـ هنا في جلاء عيني التي فيها البياض بقدحها وإزالة البياض منها، وهو طبيب مجوسي ماهر، شفى الله على يده خلائق من العرب وأهل الهند، أخبرني أحد الثقات من إخواننا أهل نجد أن هذا الطبيب عالج أحد أبناء سلطان نجد، وكان لا يبصر شيئًا فعاد بصيرًا، وأخذ منه سبع مئة روبية، وأنا سخره الله لي، وقال لي: لا تفكر في الدراهم، ولكن لا بد أن تقيم في بمباي شهرين؛ لأن عينك تحتاج القدح ثلاث مرات؛ لأن فيها ثلاث غشاوات، وقال: إن له أملًا عظيمًا عظيمًا في نجاح العمل، وإني عزمت على أن أسلم له نفسي ليعالجني، ولو صرفت جميع ما عندي من الزاد، وبعت كتبي؛ فكل ذلك (شوي) إذا صحت عيني، واعتمادي إنما هو على الله وحده، ولا يخفاكم ما في هذا من المشاق؛ فادعُ الله لنا بظهر الغيب، وندعو لكم.
وكنت أريد الشروع في العلاج غدًا؛ فلم أجد خادمًا؛ فأخّرته إلى بعد غد؛ لأني بعد القدح يلزمني أن أبقى مستلقيًا على قفاي يومًا أو أكثر، ثم بعده يرخص بالتقلب على الجنب؛ فلا بد من خادم، فنحن نفتش على من يليق لنكريه».
(٢) في سنة ١٣٤٣هـ، على ما في «ديوان الهلالي» (ص٢٤٩).
(٣) في «الديوان»: «يرتدي بدلة هندية، ومعطفًا طويلًا إلى نصف الساقين، مشدودة =

شاب في الثانية والعشرين من عمره، فقام له الحاضرون كلهم وعظَّموه وتنافسوا في التقرُّب إليه وإطلاعه على ما طبع حديثًا من الكتب، أما أنا فبقيتُ جالسًا على كرسي أطالع في كتاب ولم أعبأ بمجيئه، فلما جلس واطَّلع على ما وجد من الكتب سأل الشيخ شرف الدين ـ وكان يعلِّمه الأدبَ العربي ـ عن قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ على أي شيء نصبت ﴿حَمَّالَةَ﴾ مع أن الظاهر يقتضي أن تكون مرفوعة لأنها صفة لامرأته؟ فقال الشيخ شرف الدين: أنا لا أجيبك بحضور الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي، لأنه أعلم مني بالجواب، فحينئذٍ سلم عليَّ الشيخ مصطفى وسألني عن حالي وبلدي، فأخبرته أني من المغرب، فقال لي: ما تقول في جواب السؤال الذي سمعت؟ فقلت له: هذه الكلمة تُرفع وتنصب، ورفعها ونصبها قراءتان سبعيتان[(١)]، أما الرفع فواضح، وأما النصب فبفعل محذوف وجوبًا تقديره: أَذمُّ، فطلب «تفسير البيضاوي»[(٢)] فوجد الأمر كما ذكرتُ له فأعجبه ذلك، واستمرَّ يسألني عن مسائل مختلفة مدة ساعة[(٣)]، ثم قال للشيخ شرف الدين: أتريد أن تركب معي لأوصلك إلى بيتك؟ قال: نعم. وفي صباح الغد قال لي الشيخ شرف الدين: إن ذلك الشاب الذي كان هنا أمس سألني عنك فأخبرته أنك تريد السفر إلى العراق ثم إلى الشام ثم إلى مصر، ولكن السفارة الإنكليزية رفضت إعطاءك سمة الدخول للعراق، لأن بريطانيا كانت في ذلك الوقت في نزاع مع الحكومة التركية على لواء الموصل فكانت لا تأذن لأحد في

= أزراره، وسرابيل بيضاء إلى القدمين».

(١) انظر «النشر» (٢/ ٤٠٤)، «معجم القراءات» (٢٠/ ٦٣١).

(٢) فيه (٢/ ٦٣٠): «وقرأ عاصم بالنصب على الشتم».

(٣) في «الديوان» (٢٥٠): «وأخذ يسألني مسألة بعد مسألة في علوم الأدب، حتى غربت الشمس».

زيارة العراق إلا إذا كان معروفًا عندها بولائه لها، فقال له الشيخ مصطفى: قل له أنا أستطيع أن آخذه إلى العراق بدون جواز، فإن شاء أن يقيم عندنا بالبصرة[1] لنستفيد من علمه فذلك ما نبغي، وإن أراد السفر إلى الشام أو مصر سهَّلتُ له طريقه إلى أن يصل إلى مقصوده، فقلت للشيخ شرف الدين: أنا موافقٌ كل الموافقة.

وبعد ذلك ببضعة[2] أيام كنت سائرًا في أحد شوارع بومباي يرافقني عبد الله ابن قاضي شقراء وهي بلدة مشهورة في نجد، فمرّ بنا الشيخ مصطفى آل إبراهيم في سيارته فوقف ونزل من السيارة وأقبل عليَّ وصافحني، وسأل عن الحال ببشاشة، وقال لي: هل أخبرك الشيخ شرف الدين بما اقترحتُ عليكَ؟ فقلت: نعم، وأنا موافق على ذلك. فعيَّن لي يوم السفر[3] وقال لي: في صباح اليوم الفلاني أجدك في مكتب الشيخ شرف الدين. ثم رجع إلى سيارته وركبها، فقال لي عبد الله: يا عجبًا! كيف عظَّمك الشيخُ مصطفى آل إبراهيم كل هذا التعظيم وعندنا هنا الشيخ عبد الرحمٰن القصيبي وهو مثله في الغنى والجاه، لو رأى وهو في سيارته عالمًا من علماء نجد، ثم دعاه ليكلمه وهو جالس في سيارته، لأقبل ذلك العالم يسعى إليه فرحًا مسرورًا؟ فحكيتُ له قصةَ لقائي للشيخ مصطفى وأنني حين جاء لم أقم له ولم أهتم به فلذلك عظَّمني، وقلتُ له: إنّ من عادتي أن لا أعظِّم غنيًّا إلا إذا كنت أستفيد من غناه، بخلاف ما عليه أكثر الناس الذين يعظّمون الأغنياء وإن كانوا يعلمون أنهم لا ينفعونهم بشيء، كما قال ابن دُريد في «المقصورة»:

(١) زاد في «الديوان»: «أجعل له راتبًا».

(٢) هي خمسة، كما في «الديوان».

(٣) في «الديوان»: «بعد شهر من اليوم، نسافر إلى العراق».

عَبِيدُ ذِي الْمَالِ إِنْ لَمْ يَطْمَعُوا   مِنْ مَالِهِ فِي شَرْبَةٍ تَرْوِي الصَّدَى[1]

وقال غيره:

إِنَّ الْغَنِيَّ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْخَطَأ   قَالُوا أَصَبْتَ وَصَدَّقُوا مَا قَالَا
وَإِذَا الْفَقِيرُ أَصَابَ قَالُوا كُلُّهُمُ   أَخْطَأْتَ يَا هَذَا وَقُلْتَ ضَلَالَا
إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي الأَمَاكِنِ كُلِّهَا   تَكْسُوا الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَمَالَا
فَهِيَ اللِّسَانُ لِمَنْ أَرَادَ فصَاحَةً   وَهْيَ السِّلَاحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالَا

وقال غيره:

يَمْشِي الْفَقِيْرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ضِدُّهُ   وَالنَّاسُ تُغْلِقُ دُونَهُ أَبْوَابَهَا
وَتَرَاهُ مَمْقُوتًا وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ   ويَرَى الْعَدَاوَةَ لَا يَرَى أَسْبَابَهَا
حَتَّى الْكِلَابُ إِذَا رَأَتْ ذَا غِنْيَةٍ   أَصْغَتْ إِلَيْهِ وَحَرَّكَتْ أَذْنَابَهَا
وَإِذَا رَأَتْ يَوْمًا فَقِيرًا مَاشِيًا   نَبَحَتْ عَلَيْهِ وَكَشَّرَتْ أَنْيَابَهَا

وأقوال الشعراء في هذا المعنى كثيرة[2]، أكتفي بهذا القدر.

---

(١) البيت في «خزانة الأدب» (٣/ ١١٨) وعجزه هكذا:
(من غمرهِ في جُرْعَة تشْفي الصَّدى).
وهو كذلك في «شرح نهج البلاغة» (٧/ ٢٠٧) وغيره.
(٢) ساق في «الديوان» (٢٥١، ٢٥٢) على هذا المعنى غيرها، فانظره غير مأمور.

السفر إِلى العراق في الباخرة

لما حان وقت السَّفر جاءني الشيخ مصطفى، فتوجَّهنا إلى المرسى لنركب الباخرة إلى البصرة، فقال لي: إن عندي سبعة من الخدام[١]، وقد بعثت أحدهم مع السفن الشراعية التي يحتاج راكبها إلى جواز، فإذا صعَدت سُلَّم الباخرة وسألك الإنكليزي ما اسمُك؟ فقل: اسمي حسن الحنيان، فقلت له: عفوًا! أنا لا أكذب، فضحك كثيرًا وقال لي: أنت عربي تريد أن تسافر إلى بلد عربي وقد منعك الإنكليز[٢] من حقّك، فأي حرج عليك إذا كذبتَ عليهم؛ لتتوصَّل إلى حقِّك؟ فقلت له: لم ينشرح صدري لذلك، فقال لي: هل تستطيع أن تسكت إذا سألك الإنكليزي؟ فقلت: نعم، فقال: إذا سألك الإنكليزي فاسكت، وأنا أجيب عنك، فلما صعدنا السُّلَّم تقدَّم هو وأنا خلفه[٣] فسألني الإنكليزي: إيش اسمك؟ فسكتُّ، فقال الشيخ مصطفى: اسمه حسن الحنيان. فدخلت الباخرة، وفي مساء ذلك اليوم[٤] قال لي: هل قلت شعرًا؟ فقلتُ: نعم، فقال لي: هل تستطيع أن تشطر هذه القصيدة وهي لشوقي مطلعها:

خَـدَعُـوهَـا بِـقَـوْلِـهِـمْ حَـسْـنَـاءُ   وَالْـغَـوَانِـي يَـغُـرُّهُـنَّ الـثَّـنَـاءُ

(١) زاد في «الديوان»: «مكتوبة أسماؤهم في جواز سفره، فترك أحدهم مع السفن الشراعية. . .» إلى آخره.

(٢) بعدها في «الديوان»: «أجانب مستعمرون ظالمون».

(٣) بعده في «الديوان»: «وخلفي الخدّام الستة».

(٤) في «الديوان» (٢٥٤): «وبعد العصر دعاني إلى غرفته في الدرجة الأولى، وقال لي: هل نظمت شيئًا».

فأعطاني القصيدة مكتوبة، فانصرفتُ إلى منزلي[1] وشطرتها في تلك الليلة، وسأدرجها مع التشطير هنا؛ لأني أشعر أنَّ بعض قراء هذا الكتاب ـ إن لم نقل: كلهم ـ يحبُّون الاطِّلاعَ عليها، والشُّطور المزيدة بين قوسين، ونصُّها:

خَدَعُوهَا بِقَوْلِهِمْ حَسْنَاءُ (وَامْتِدَاحُ الْكَوَاعِبِ اسْتِهْوَاءُ)
(فَرَنَتْ لِلْوِصَالِ[2] بَعْدَ نُفُورٍ) وَالْغَوَانِي يَغُرُّهُنَّ الثَّنَاءُ
مَا تَرَاهَا تَنَاسَتِ اسْمِي لَمَّا (أَنْ تَفَانَتْ فِي حُبِّهَا الْعُظَمَاءُ)
(وَالتَّنَاسِي شَأْنُ الخَرِيْدَةِ[3] إذا مَا) كَثُرَتْ فِي غَرَامِهَا الأَسْمَاءُ
إِنْ رَأَتْنِي تَصُدُّ عَنِّي[4] كَأَنْ لَمْ (يُلْفَ لِي في فُؤَادِهَا اسْتِيلَاءُ)
(لَا شَفَانِي وِصَالُهَا الْيَوْمَ إِنْ لَمْ) يَكُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا أَشْيَاءُ
نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ (لِفُؤَادي الْعَلِيلِ هُوَ الشِّفَاءُ)
(ثُمَّ رَدٌّ فَبَثُّ شَكْوَى بُعَادٍ) فَكَلامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ
يَوْمَ كُنَّا وَلَا تَسَلْ كَيْفَ كُنَّا (لَا وُشَاةٌ تُخْشَى وَلَا رُقَبَاءُ)
(فَخَلَعْنَا الْعَذَارَ ثُمَّ جَعَلْنَا) نَتَهَادَى مِنَ الْهَوَى مَا نَشَاءُ
وَعَلَيْنَا مِنَ الْعَفَافِ رَقِيبٌ (أَنْ تُدَنِّسَ وَصْلَنَا[5] فَحْشَاءُ)
(يَقِظٌ لَيْسَ يَعْتَرِيهِ مَنَامٌ) تَعِبَتْ فِي مِرَاسِهِ الأَهْوَاءُ
جَاذَبَتْنِي ثَوْبي[6] الْعَصِيَّ وَقَالَتْ (وَعَلَى وَجْهِهَا بَدَا اسْتِحْيَاءُ)

(١) بعدها في «الديوان»: «بالباخرة».
(٢) في الموطن الثاني من «الديوان» (٢٥٤): (استجابت للوصل...).
(٣) في «الديوان» (١١٩): «الخريد»، وهُنّ العذارى.
(٤) في «الديوان»: «تميل».
(٥) في «الديوان»: «لم تُدَنِّس وِصالَنا».
(٦) جميع الأصول: «ثوب»، والتصويب من «الشوقيات».

(لَكُمُ ذَلَّتِ الصِّعَابُ جَمِيعًا) أَنْتُمُ النَّاسُ أَيُّهَا الشُّعَرَاءُ
فَاتَّقُوا اللهَ فِي خِدَاعِ الْعَذَارَى (فَلَكُمْ فِي اصْطِيَادِهِنَّ دَهَاءُ)
(لَا تَصِيدُوا الأَبْكَارَ بِالشِّعْرِ خَتْلًا) فَالْعَذَارَى قُلُوبُهُنَّ هَوَاءُ[1]

وقد سهل عليَّ تشطير جميع أبيات القصيدة إلا بيتًا واحدًا وهو قوله:

نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ فَكَلامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ

فإن هذا البيت تضمَّن أمورًا ستَّة لا يمكن الفصل بينها لأن بعضَها في الواقع مترتب على بعض، ولم أكن أفهم ذلك حتى سافرتُ إلى أوروبا وأقمتُ فيها مدة فرأيتُ ذلك واقعًا كل يوم في المنتزهات والمطاعم والمقاهي والشوارع والمركبات العامة وقطر سكك الحديد؛ لأن العفاف عندهم معدوم، فأول ما يتقابل رجل وامرأة فيحدق بعضهما في بعض: إن كانت المرأة لا رغبة لها في الرجل تصرف بصرها، وإن كانت لها فيه رغبة تبتسم له فيتجرأ هو حينئذ على أن يحيِّيها فترد عليه، فيبدأ الكلام، حتى ينتهي إلى الموعد بإعطاء كل منهما رقم تليفون صاحبه فيعقب ذلك اللقاء، ولا يكون اللقاء كما قال شوقي في «قصيدته» لأن المتحابين هناك لا رقيب عليهم من عفاف ولا من غيره، ومن المعلوم أن شوقي درس في فرنسا وشاهد ذلك بعينه فعبَّر عنه بذلك البيت. ومن المزايا التي يختص بها شعر شوقي أنه جمع بين الأفكار الأوروبية والأفكار العربية، ونسق هذه الأفكار كلها ووحَّدها حتى امتزجت إلى حدٍّ أنه لا يستطيع التمييز بينها إلا من خالط العالم العربي

---

(١) الأبيات في «ديوان الهلالي» (١٨ ـ ١٢٠) دون قصته مع الشيخ مصطفى آل إبراهيم، وبعضها مع القصة فيه (٢٥٣ ـ ٢٥٥)، وكذا في كتابه «الطريق إلى الله» (ص١٧٠ ـ ١٧١) و«السلفية الوهابية بالمغرب» (١٤٥) و«الدفتر الخاص» به (ق ٢٨ ـ ٢٩).

والعالم الأوروبي، هذا مع المحافظة التامة على الأسلوب العربي البليغ الذي لا تشوبه شائبة من ركاكة المقتبسات الأعجمية[1]، وإذا قارنت بين شعر أحمد شوقي وبين شعر معروف الرصافي ـ وهو لا يقل عن شوقي في بلاغة شعره ـ تجد الفرق بينهما واضحًا، فإن شعر الرصافي ليس فيه إلا أفكار عربية شرقية؛ بخلاف شعر معاصره أحمد شوقي.

الوصول إِلى الدورة[2]

لما وصلت الباخرة في النهر المسمّى شط العرب ـ وهو مؤلف دجْلَة والفُرَات ـ إلى مكان بإزاء ممتلكات الشيخ مصطفى آل إبراهيم، وهي كثيرة ممتدة على الجانب الأيمن من شط العرب أميالًا كثيرة، طلب مِنْ رُبَّان الباخرة أن يوقفَ له الباخرة لينزل هو وأصحابه ويركب قاربًا يوصله إلى قصره في الدَّورة، فقبل الربان الإنكليزي[3] احترامًا له لأنه كان يعامل معاملة الأمراء لأنه كان من كبار الملاكين، فنزلنا في قوارب[4] وسارت بنا

(١) زاد في كتابه «الطريق إلى الله» (١٧١): «وأما الألفاظ، فإنه تجنَّب كلَّ ما يخدش وجه بلاغتها، وهذا شأن الفحول»، ووجدت مثله مع المزبور في مقال للهلالي، بعنوان «دواء الشاكين وقامع المشككين»، الحلقة (٢٣)، المنشور في مجلة «دعوة الحق» المغربية، السنة السادسة، العدد الثاني، سنة ١٣٨٢ ـ ١٩٦٢ (ص٢٢ ـ ٢٥). وفي «الديوان» (٢٥٥) زيادة: «وفي غد ذلك اليوم أتيته بالتشطير، فأكبره، وأثنى عليه، ولم يبق عنده شكٌّ في قدرتي على النظم».

(٢) رجع من الهند مرورًا بالبحرين ثم العراق في سنة ١٣٤٣هـ.

(٣) زاد في «الديوان» (٢٥٥): «مع أن الباخرة لا تقف إلا في البصرة التي فيها المرسى المسمّى بـ (معقل) التي يُحرِّفه العامة، فيسمّونه (مركل)، ولا يمكن أن تقف الباخرة في عرض النهر».

(٤) زاد في «الديوان»: «فبتنا في تلك الضيعة، وفي الصبح سارت بنا الزوارق إلى الدورة».

إلى الدورة، فلما وصلت القوارب إلى فرع شط العرب الذي يوصل إلى الدورة وجدنا أهل القرية كلَّهم في استقبال الشيخ مصطفى.

وكان الطَّريق ضيِّقًا بين البساتين والنهر، فقدَّمني أمامه، فأردت الامتناع فأشار إليّ إشارة فقبلت، وسار هو خلفي[1] وأهل القرية كلهم خلفه، وتعجّبتُ من ذلك كثيرًا؛ لأني شاهدت هذا المنظر لأول مرة، فإن العادة عندنا في المغرب قلما تُجرَى بذلك، فلما وصلنا إلى القرية قدَّمني أيضًا في التوجّه إلى المقصورة التي وضعت فيها الأطعمة[2]، فلما صلينا العصر سألته عن ذلك، فقال لي: أنا لا أبقى هنا دائمًا، فإني تارة أكون هنا وتارة أسافر إلى بومباي؛ لأكون عند عمي قاسمي آل إبراهيم، وهو من تجار اللؤلؤ المشهورين، وإنما قدمتك ليرى ذلك أهل القرية فيعظِّموك في غيبتي وحضوري ويعلموا أنك أستاذي. فشكرتُه على ذلك، وعَرَض عليَّ الإقامة عنده، فقبلت، وجعل لي راتبًا طيبًا جدًّا مع السكنى والمعيشة على أحسن وجه.

وأخذتُ ألقي دروسًا في علم الأدب عليه وعلى جماعة من الطلبة، وأُعلّم الشباب في مدرسة أنشأها، وألقي دروس وعظ في المسجد، ولما توجَّهنا إلى المسجد للصلاة قال للإمام والمؤذن: كل ما أمركما به الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي فامتثلاه، فمنعتهم من جميع البدع وأمرت الناس باتباع السنة، ومنها إلصاق القدم بالقدم عند القيام للصلاة، فامتثل الناس الأمر إلا رجلًا شيخًا من أقاربه[3] كان فيما مضى وكيلًا لوالده الشيخ

---

(١) في «الديوان»: «فوكَّل بي رجلًا، وسار هو أمامهم، وساروا كلهم خلفه، حتى وصلوا إلى القرية، ووصلتُ أنا بعد ذلك».

(٢) زاد في «الديوان»: «ولما جاء وقت الغداء، كان المدعوون للغداء معه نحو خمسين رجلًا، فدعاني وأمرني أن أسير أمامه، ومشى هو خلفي...».

(٣) في «الديوان» زيادة: «له أملاك خاصة به خارج الدورة، وكان وكيلًا للشيخ =

يوسف آل إبراهيم على تلك القرية يدبر أمر الحواصل من الغلات فيعطي الفلاحين حقوقهم والباقي يكون بيده يأخذ منه نفقة السركار (وهي كلمة هندية، معناها: رأس العمل)، والمقصود بها هنا: النفقات العامة[١] لمن في القصر من العيال والخدم والضيوف، وما فضل عن ذلك يبقى بيده؛ فهذا الرجل لم يقبل ما أمرتهم به من اتباع السنة وبدأ يحاربني، فمن ذلك أنني أمرتهم بأن يجعل المؤذن بين أذانه وإقامته وقتًا كافيًا لمجيء المصلين واستعدادهم للصلاة، وكانت العادة جارية عندهم بأن المؤذن إذا نزل من أذان المغرب يقيم الصلاة في الحين، فلما رأى ذلك الشيخُ المؤذنَ أذن لصلاة المغرب وجلس ينتظر أن آمره بالإقامة ـ لأني إذا حضرت كنت أتقدم إمامًا للصلاة بهم ـ غضب غضبًا شديدًا وقال لي: يا شيخ! المغرب غريب وقته ضيق، فقلت له: ليس الأمر كما توهمت والوقت واسع.

وفي «الصحيحين»[٢] عن ابن عباس أن النبي ﷺ صلى الظهر والعصر في أول وقت العصر ثماني ركعات جمع تأخير، وصلى المغرب والعشاء في أول وقت العشاء سبع ركعات جمع تأخير[٣]، هذا معنى

= يوسف أبي مصطفى، وصهرًا له، وهو يُؤدِّي زكاة أمواله إلى من يخضع له ويجذبه، . . .».

(١) عرَّفه في «الديوان» (٢٥٨) بقوله: «نفقة العامة، ففي كل سنة حين تجتمع أموال الثمار وغلال الضياع، يخرج وكيلُ الشيخ مبلغًا للنفقات العامة، وهو السركر، ينفق منه على الضيوف والأساتذة والخدم، والباقي يقتسمونه على حسب الميراث، وفي هذه السنة خصص الوكيل مئة ألف روبية للسركر، أي: مئة ألف درهم. وكان ذلك في سنة ١٣٤٤هـ».

(٢) هذا وهم منه رحمه الله، فالحديث مروي في «صحيح مسلم» فقط، ورواه أيضًا الإمام مالك في «الموطأ». (خ)

قلت: انظر الحاشية الآتية.

(٣) لا يوجد في نص الحديث: «جمع تأخير»، وإنما أخذه المصنف من مفهومه، =

الحديث، فقيل لابن عباس: ما أراد بذلك؟ قال: «أراد أن لا يحرج أمته»[1]، على أننا نحن لا نؤخر الصلاة إلا بضع دقائق، وأخرج الترمذي والحاكم عن جابر ـ وله شواهد ـ أن رسول الله ﷺ قال لبلال: «**إذا أذَّنت فترسَّل وإذا أقمت فاحدُرْ**[2]**، واجعل بين أذانك وإقامتك مقدار ما يفرغ الآكل من أكله**»[3] وهذا الحديث وإن كانت طرقه ضعيفة

= فأخرج البخاري (١١٠٧)، ـ واللفظ له ـ ومسلم (٧٠٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يجمع بين صلاة الظهر والعصر، إذا كان على ظهر سير، ويجمع بين المغرب والعشاء».

وأخرج البخاري (١١٠٩ و١٨٠٥) ومسلم (٧٠٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «رأيت رسول الله ﷺ إذا أعجله ـ وفي رواية: إذا جدَّ به ـ السير في السفر، يؤخر صلاة المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء».

وفي هذين اللفظين دلالة ظاهرة على مشروعية جمع التأخير، ففي الأول: «إذا كان على ظهر سير»، فبلازمه كان يبقى على سيره حتى يجمع، والأصرح منه الرواية الثانية، فهي نص صريح في تأخير صلاة المغرب إلى وقت صلاة العشاء، وهذا فهم جمع من السلف، وعلى رأسهم ابن عمر، ولذا وقع التصريح بفعلهم له في السفر، وفيه رد صريح على من أنكر الجمع الحقيقي، وتأوله بالصوري، وزعم أن الجمع جمع فعل لا وقت!

ورأيت اضطرابًا للهلالي في مشروعية الجمع، فكان ينكر جمع التقديم، ويرى أن الجمع الوارد في النصوص صوري، كذا رأيت في «فتاويه»، مع أنه يخالف تقريظه لكتاب أحمد الغُماري في الجمع، ثم صرح هنا في (ص٥١٥) برجوعه عن هذا المذهب.

(١) وهو لفظ مسلم.

(٢) الحدر: الإسراع.

(٣) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (١٠٠٨) والترمذي (١٩٥) والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٥٠) وابن عدي في «الكامل» (٨/ ٤٤٥ و١٠/ ٥١٢) والبيهقي في «الكبرى» (١/ ٤٢٨ و٢/ ١٩) من طريق عبد المنعم بن نعيم عن يحيى بن مسلم عن الحسن وعطاء عن جابر به. **وإسناده واهٍ**.

عبد المنعم بن نعيم الأسواري صاحب السقاء متروك. =

= ويحيى بن مسلم البصري مجهول.
وقال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث عبد المنعم، وهو إسناد مجهول».
وقال البيهقي ـ في الموضع الثاني ـ: «في إسناده نظر».
وقال في الموضع الأول بعد تعليق ضعفه بعبد المنعم قال: «وقد روي بإسناد آخر عن الحسن وعطاء عن أبي هريرة وليس بالمعروف»، ثم ساق بسنده من طريق حمدان بن الهيثم بن خالد البغدادي: حدثنا صبيح بن عمير السيرافي حدثنا الحسن بن عبيد الله عن الحسن وعطاء.
قال البيهقي: «الإسناد الأول أشهر من هذا».
قلت: إسناد مظلم.
حمدان بن الهيثم شيخ أبي الشيخ روى عنه ووثقه إلا أنه روى ما أُنكر عليه. انظر: «لسان الميزان» (**٣/ ٢٨٤**).
وصبيح بن عمير ـ في المطبوع: عمر ـ مجهول. انظر: «لسان الميزان» (**٤/ ٣٠٦**).
والحسن بن عبيد الله المذكور لم أعرفه!
وروي من وجه آخر:
أخرجه ابن عدي في «الكامل» (**١٠/ ٨٠**) من طريق معارك بن عباد العبدي عن عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن جده عن أبي هريرة نحوه.
وإسناده تالف.
معارك بن عباد ضعيف روى المناكير.
وعبد الله المقبري متروك.
ونقل ابن عدي عن الإمام أحمد أنه سئل عن الحديث فقال: «معارك لا أعرفه، وعبد الله بن سعيد هو أبو عباد؛ منكر الحديث متروك الحديث».
ورواه معارك بن عباد: حدثنا عبد الله بن الفضل عن عبد الله بن أبي الجوزاء عن أُبي بن كعب نحوه.
أخرجه عبد الله في «زوائد المسند» (**٢١٢٨٦** ط الرسالة) والشاشي في «المسند» (**١٥١٠**).
وهو وهم من معارك، فقد رواه مالك بن مغول عن أبي الفضل عن أبي الجوزاء عن أُبي بن كعب به. =

إنها بتعددها تنهض حجة[1]. قال شارح «بلوغ المرام»: «ويقويها المعنى الذي شُرِعَ له الأذان؛ فإنه نداء لغير الحاضرين ليحضروا الصلاة، فلا بد من تقدير وقت يتسع للتأهب للصلاة»[2]، فقال لي: لا حول ولا غوة إلا بالله (وهو يتكلم بلغة عامّة أهل الكويت يبدِّلُون القاف غينا) هذه صلاة سعودية لا فرض ولا نية إلا الخوف من الخيزرانية، فقلت له: بل هي صلاة محمدية ذات قصد ونية، والمتبعون للرسول ﷺ لا يحتاجون إلى خيزرانية، وغيرهم لا نبالي بهم. فقال لي: يا غريبُ كُنْ أديب! فقلتُ له: أنا لست غريبًا لأنني عربي في بلاد العرب، وإن كان أسلافي قد نزحوا إلى المغرب فإنَّ حقِّي لا يزال ثابتًا في بلادي الأصلية، فقال لي: روح إلى المغاربة واهدهم، فقلت له: هذه دعوى جاهلية، فإنَّ الله تعالى لم يُقل ذلك، بل قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ولم يحدد للدعوة زمانًا ولا مكانًا.

ولما أمرتهم بإلصاق القدم بالقدم، كما في حديث أنس: «كان

= أخرجه عبد الله في «زوائد المسند» (٢١٢٨٥).

وإسناده منكر.

أبو الفضل مجهول لا يعرف.

وأبو الجوزاء ـ أوس بن عبد الله ـ لا يعرف بالرواية عن أُبي بن كعب فضلًا عن إثبات سماعه منه.

وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٢/ ١٠٦): وله شاهد من حديث أبي هريرة، ومن حديث سلمان، أخرجهما أبو الشيخ، ومن حديث أُبي بن كعب أخرجه عبد الله بن أحمد في «زيادات المسند»، **وكلها واهية.**

قلت: وحديث سلمان لم أقف عليه.

(١) ليس كذلك كما تقدم في التخريج السابق، وسقت أسانيده ـ وطولت ـ من أجل هذا التعقب، وإلا فليس هذا موطن بسط، والله الواقي والعاصم.

(٢) «سبل السلام» (١/ ٣٨١ ـ ط. المعارف).

النبي ﷺ يأمرنا بتسوية الصفوف، فكان أحدنا يلزق قدمه بقدم من يليه ويحاذيه بركبتيه ومنكبيه، ولو فعلت ذلك بأحدهم اليوم لنفر كأنه بغل شموس»[١]، فكان الناس يمتثلون ويلصقون القدم بالقدم. وكان ذلك الشيخ إذا أراد أحد أن يلصق قدمه بقدمه رفسه بقدمه وسبَّه، وقال لي مرة: إن النبي ﷺ لا يمكن أن يأمر بهذا، لأن الرجل إذا ألصق قدميه بقدم من يليه يفحش ويدش الشيطان في دبره، فقلت له: هذا خيال باطل، فكيف ترد به سنة النبي ﷺ؟! وقوله: (يفحش) يعني يتسع ما بين قدميه، (ويدش) بمعنى يدخل، وقلت له: إن الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ كما قال تعالى في سورة النحل [الآيتان ٩٩ ـ ١٠٠]، وكنت أصلي بهم الجمعة فأزلت البدع التي كانوا يعملونها في يوم الجمعة، فغضب الشيخ غضبًا شديدًا وقال: هذا تبديل للدين، من يوم خلقنا الله لم نزل نرى العلماء، ما رأينا أحدًا منهم أنكر هذه الأمور، فقلت له: إن العلماء يخطئون ويصيبون، ويمنعهم الجبن في بعض الأحيان والضعف والعجز في أحيان أخرى من إنكار البدع. ولما جاءت صلاة العصر وذهبت أتقدم للصلاة إمامًا أخذ بطرف عباءتي وقال لي: (ما حد يبيك) معناه: لا يريد أحد أن تصلي إمامًا، فوضع الشيخ مصطفى يده برفق على يد الشيخ، وقال له: يا سيدي الوالد! أرجوك أن تتركه يصلي. فقال: كذا يا مصطفى؛ تفضِّل المغربي على والدك! أو قال: على أبيك؟ فقال الشيخ مصطفى: لا يا سيدي؛ أنا ما فضلته ولكن الله فضله لأنه عالم ونحن جهال. فقال الشيخ: (زين على شان خاطرك أخليه يصلي) معناه: سأتركه يصلي إمامًا إرضاء لك.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ٣٥١). **وإسناده صحيح.**
وأخرجه البخاري (٧١٩ و٧٢٥) دون قوله: «ولو فعلت...».

ولم يكن عند أولئك القوم شرك ظاهر، أعني: أهل السنة منهم ـ وهم قليل ـ وأكثر سكان القرية من الشيعة، ولكن كان فيهم جمود على التقليد والتعصب للمذهب مع جهلهم، فالمتعصبون للمالكية غضبوا بسبب تركي القنوت في صلاة الصبح، والمؤذِّن كان شافعيًّا فلما رآني قررت في الدرس أن بول ما يؤكل لحمه طاهر غضب وقال في غيبتي: إذا كان بول البقرة عنده طاهر فليشربه، فقلت له في أثناء الدرس: يا ملا أحمد! والملا كلمة فارسية يوصف بها أهل العلم كالفقيه عند العرب أو الشيخ، قلت له: ما حكم المخاط في مذهبك أهو طاهر أم نجس؟ فقال: طاهر. ثم قلت له: ما حكم الأوساخ طاهرة أم نجسة؟ قال: طاهرة، فقلت له: فاشرب المخاط وكل الأوساخ! فقال لي: يا شيخ! لا يليق بمثلك أن يخاطب أحدًا بمثل هذا الكلام، فقلت له: أنت بدأت بما هو أقبح من هذا والبادئ أظلم ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وأنا تكلمت بالعلم وأنت تكلمت بالجهل، وذكرت الأدلة على طهارة ما يؤكل لحمه.

مناظرة بين المؤلف وبين مجتهد الشيعة في المحمَّرة(١)

لما استقررتُ في الدورة أردت أن أجتمع مع بعض علماء الشيعة بعدما قرأتُ شيئًا من كتبهم، ووجدت فيها عجائب وغرائب، فاتفقتُ مع

(١) استل المصنف هذه المناظرة والتي بعدها ونشرها في كتيب صغير بعنوان «مناظرتان بين رجل سني وهو الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الحسيني وإمامين مجتهدين شيعيين» وقدم لهما بمقدمة في حب آل البيت، ووجدتهما في كتاب «الخلافات بين السنة والشيعة كما يراها الشيخ محمد رشيد رضا والشيخ تقي الدين الهلالي» (ص١١٣ ـ ١٢٩).

أحد الفلاحين وهو الحاج غلام حسين، ومعنى غلام حسين أي: عبد الحسين، والشيعة يسمون عبد علي وكلب علي وعبد الزهراء وعبد الأمير وأمثال ذلك من الأسماء الشركية.

ومن أغرب ما وقع لي في ذلك أنني سافرت من جُدَّة إلى بومباي ـ كما تقدم ـ ورأيت الحجاج يقتتلون على الماء، فاستأجرت شابًّا فارسيًّا يأتيني بالماء من مستقى الباخرة من جدة إلى بومباي بِرُبِّيَتَيْن، أي: درهمين هنديين، اسم ذلك الشاب عبد علي، فكنت أتجاهل اسمه وأناديه: يا عبد العلي، فيغضب ويقول: (عبد العلي نا) و(نا) بالفارسية هي حرف النفي، ترادف (لا) بالعربية، ثم يكرر عبد علي عبد علي، فإذا نسبته إلى الله العلي يغضب ويريد أن يُنْسَب إلى العبد، وهو علي!

سافر معي غلام حسين إلى المحمَّرة وهي على الجانب الشرقي من شط العرب، وقد انتزعتها الدولة الفارسية ـ التي تسمَّى في هذا الزَّمان إيران ـ من الأمير الشيخ خزعل الذي كان يحكم تلك الناحية، وسكانها عرب من بني تميم، وألحقتها بمملكتها[1]، فقلت لغلام حسين: اختر لي عالمًا من علمائكم أزوره لا يكون متعصِّبًا. فقال لي: أفضل علمائنا في هذا البلد هو الشيخ عبد المحسن الكاظمي[2]. فقصدناه في الحسينية،

(١) للهلالي مقالة بعنوان «الأراضي التي احتلها الجيش العراقي في المحيط الإسلامي عربية وليست فارسية»، نشرها في صحيفة «الميثاق» المغربية، عدد (٣٣٦) السنة (١٧) بتأريخ ١٠ محرم ١٤٠١هـ ـ ١٩ نوفمبر ١٩٨٠م (ص٣)، وله أيضًا في الصحيفة نفسها، عدد (٣٤٠) السنة (١٧) بتأريخ ٢٠ صفر ١٤٠١هـ (ص٧)، مقالة بعنوان (عبادان عربية عراقية).

(٢) هو عبد المحسن بن محمد بن علي بن محسن الكاظمي، أبو المكارم، من سلالة الأشتر النخعي (شاعر فحل)، كان يلقّب بـ(شاعر العرب)، امتاز بارتجال القصائد الطويلة الرنانة، ترجمته في «الأعلام الشرقية» (رقم ٨٦٧ ـ بتحقيقي)، و«موسوعة أعلام العراق» (١٣٦)، و«الأعلام» (٤/ ١٥٢) وغيرها. =

والحسينية مبنى للشيعة يجتمعون فيه لقراءة قصة مقتل الحسين رضي الله عنه وقصة حرب علي مع عائشة وطلحة والزبير في وقعة الجمل، وكان ذلك اليوم يوم جمعة، وهذا الشيخ من الاثنا عشرية الإخباريين، فإن الاثنا عشرية فرقتان: فرقة إخبارية وفرقة أصولية، فالإخبارية يعتمدون على ما روي من الأخبار وإن كان مخالفًا للقياس والأصول، وآراء فقهائهم، والأصولية بعكسهم يعرضون المرويات على الأصول، والإخباريون يصلون الجمعة والجماعة، خلاف الأصوليين؛ فإنهم لا يصلون جمعة ولا جماعة، فلما دخلتُ على الشيخ عبد المحسن قام لي وصافحني وأجلسني بقربه، وكان الحاضرون كثيرًا يقدر عددهم بثلاث مئة، فقال أحدهم للروضخون ـ وهم ينطقون بالضاد زايًا ـ والروضخون هو الذي يقرأ لهم قصة الحسين وقصة عائشة مع علي، قال له: عجِّل بقراءة القصتين نريد أن نسمع كلام العالِمَين. لأنهم من عادتهم أن يقرؤوا القصتين في ضحى يوم الجمعة، وحثه على أن لا يطول، وسيتبين لك مقصوده بذلك، فصعد الروضخون المنبر وبدأ يقرأ في قصة الحسين، فلما بلغ مقتله وما صنع به أعداؤه، وضعوا طيالسهم على وجوههم وأخذوا يبكون ويتباكون رافعين أصواتهم: واحسيناه! وا أبا عبد الله! والظاهر أن بكاءهم كان كاذبًا، وإنما هو تصنُّع، لأن هذه القصة يسمعونها في كلِّ أسبوعٍ مرارًا فقلَّما تؤثر فيهم، ولما فرغ من قصة الحسين شرع في قصة عائشة وذكر أنها بعثت رسولها إلى البصرة إلى علي وقالت له: إنه سيعرض عليك طعامه وشرابه، فإياك أن تأكل من طعامه أو تشرب من شرابه، فإن فيه السم، فلما سمع ذلك الحاضرون قالوا بصوت عال ونغمة تدل على

= ويبدو لي أن هذا غير المترجم له، لأن المترجم له دخل مصر سنة ١٣٦١هـ وبقي فيها إلى وفاته، وهذه المناظرة كانت بعد هذا التاريخ في العراق، والله أعلم.

الحقد: (لا يا ملعونة)! وأخذوا يكررونها في كل فقرة يسمعونها، فاستعجل بعض الحاضرين الروضخون وقال له: اختتم، نريد أن نسمع كلام العالِمَين، فغضب الروضخون، وقال: قد اختصرت القصتين وما ذكرت إلا ربعهما.

ولما فرغ القاص أخذتُ أتحدثُ مع الشيخ بالحديث التالي ـ حسب ما بقي في ذاكرتي، فقد مضى على هذه القصة زهاء **٤٨** سنة(١)، فإنها كانت سنة **١٣٤٣**هـ ـ سألت الشيخ: ما أهم كتب الحديث عندكم؟ فذكر لي أربعة كتب لا أذكر الآن منها إلا «كتاب الكُلَيني» وأثنى عليه وقال: كل أحاديثه صحيحة فهو عندنا بمنزلة.. ثم سكت وأخذ يفكِّر، فقلت: لعلك تقصد «البخاري» عندنا؟ فقال: نعم؛ هو عندنا بمنزلة «البخاري» عندكم، والبحث في صحة الحديث وضعفه في هذا الزمان عبث، لأن الأحاديث الصحيحة معلومة يقينًا. فقلت له: وكيف تعرف صحتها يقينًا؟ فقال لي: تعرف بنص الأئمة المعصومين على صحتها. ثم قال: دونك حديثًا متواترًا عندنا وعندكم. فقلت له: قل. فقال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»(٢) فقلت له: أما عندنا فليس هذا الحديث صحيحًا ولا حسنًا عند المحققين فضلًا عن أن يكون متواترًا وإنما هو حديث ضعيف. هكذا قلت له من حفظي، والآن أثبت ما قاله الأئمة في

---

(١) أي: من نحو مئة سنة من الآن.

(٢) للشيخ أحمد بن الصديق كتاب «فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي» تمحَّل فيه صحَّته، وناقش قواعد مسلّمة، ووضع قواعد جديدة من عنده، متأثّرًا في ذلك بالشيعة. (خ)

قال أبو عبيدة: وجميع طرق الحديث وشواهده واهية، ومتنه منكر، وأفرده بالتصنيف الأخ خليفة الكواري ونشره عن دار القبس، ودراسته مستوعبة وجيِّدة، نفع الله به.

هذا الحديث؛ قال السخاوي في «المقاصد الحسنة»[1] (ص٩٧) ما نصه باختصار: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**». رواه الحاكم في المناقب من «مستدركه» والطبراني في «معجمه الكبير» وأبو الشيخ في «السنة»[2] وغيرهم، كلهم من حديث أبي معاوية الضرير، عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا به بزيادة: «**فمن أتى العلم فليأت الباب**»، ورواه الترمذي في (المناقب) من «جامعه»، وأبو نعيم في «الحلية» وغيرهما من حديث علي أن النبي ﷺ قال: «**أنا دار الحكمة وعلي بابها**»[3]، قال الدارقطني في «العلل»[4] عقب ثانيهما (يعني: حديث الترمذي): إنه حديث مضطرب غير ثابت. وقال الترمذي: إنه منكر[5]. وكذا قال شيخه البخاري، وقال: إنه ليس له وجه صحيح[6]. وقال ابن معين فيما حكاه الخطيب في «تاريخ بغداد»[7] إنه كذب لا أصل له، وقال الحاكم عقب أولهما[8]: إنه صحيح الإسناد. وأورده ابن الجوزي من هذين الوجهين

---

(١) رقم (١٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تهذيب الآثار» (١٧٣ ـ مسند علي) والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٢٤) والطبراني في «الكبير» (١١/ ٦٥/رقم ١١٠٦١) والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٢٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٢٣) والطبري في «تهذيب الآثار» (ص١٠٤ ـ مسند علي) والآجري في «الشريعة» (١٥٤٩ و١٥٥٠) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٤) و«معرفة الصحابة» (٣٤٧).

(٤) (١/ ٤٠٤ ط الريان).

(٥) قال على إثر روايته السابقة: «هذا حديث غريب منكر».

(٦) كذا نقل السخاوي، وفي «علل الترمذي الكبير» (٦٩٩): «سألت محمّدًا عنه فلم يعرفه، وأنكر هذا الحديث».

(٧) (١٣/ ٤٠) بسنده إلى إبراهيم بن الجنيد عن ابن معين، وهو في «سؤالات ابن الجنيد» (٥٣).

(٨) يعني: المتقدم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

في «الموضوعات»[1] ووافقه الذهبي[2] وغيره على ذلك، وأشار إلى هذا ابن دقيق العيد[3] بقوله: هذا الحديث لم يثبتوه، وقيل: إنه باطل.

ثم قلت له: وعلى فرض ثبوته فإن أُريد أن هذه المدينة لها أبواب كثيرة وعليّ من أفضل أبوابها فهو صحيح، وإن أُريد أن هذه المدينة ليس لها إلا باب واحد وهو عليّ؛ فهذا باطل يكذبه القرآن والواقع ولا يختلف فيه العقلاء، لأن النبي ﷺ حين بُعث كان عليّ صغيرًا دون البلوغ، فلو كان هو الباب الوحيد لهذه المدينة ما استطاع النبي ﷺ أن يبلغ شيئًا ولا أن يؤدي رسالة، وكان يقول لكل من سأله عن مسألة: اذهب إلى عليّ وخذ منه الجواب. وهذا لا يقوله أحد يحترم نفسه، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وحذف المعمول هنا يدل على العموم، أي: بلغه جميع الناس، كما قال تعالى في سورة الأعراف [الآية: ١٥٨]: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

ولما وصلت إلى هذه المسألة اشترك مع الشيخ في المناظرة نحو عشرة أشخاص، فقال لي أحدهم: قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ معناه: بلغه عليًّا، فقلت له: هذه زيادة في القرآن، فلو قلت لك أنا: معناه: بلغه أبا بكر؛ لكان القولان متساويين، فبأي دليل ترجح أحدهما على الآخر، وكلاهما دعوى بلا دليل؟ فغضب الشيخ وقال: أبو بكر (يأكل خراه) ـ وهذا شتم قبيح مستعمل في تلك البلاد والعراق ونجد، ومعناه: يأكل العذرة التي تخرج منه !ـ كيف تقارن بينه وبين أمير

(١) (٢/ ١١١ وما بعدها ط أضواء السلف).
(٢) انظر: «تلخيص الموضوعات» (٢٥٦).
(٣) «شرح الإلمام بأحاديث الأحكام» (٣/ ٥٢٤ ط النوادر).

المؤمنين عليه السلام وهو جاهل لا يعرف (الأبَّ) المذكور في سورة عبس[1]، والعرب كلها تعرف الأبّ وهو العشب؟! فقلت له: أيها الشيخ! إن علماء المناظرات يقولون: إن الشتم سلاح العاجز، لأن القادر على المناظرة بالدليل والبرهان لا يلجأ إلى الشتم، أبو بكر لم يكن يجهل الأبّ لأنه كان من شيوخ العرب وحكمائهم، إنما قال ذلك تورعًا وخوفًا من الله تعالى وتعظيمًا لكتابه وعملًا بقول النبي ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه فقد كفر**»[2] وقد خاف أبو بكر رضي الله عنه أن يراد بالأبّ معنًى خاص يجيء فيه تفسير عن النبي ﷺ؛ فتوقف، وهذا من فضائله ومناقبه، ثم قلت له: إذا أراد الله أن تبليغ النبي ﷺ إنما هو لعليّ، فلماذا لم يسمّه كما سمى زيدًا في سورة الأحزاب؟ فقال لي: إن قريشًا حذفت كثيرًا من القرآن. فقلت له: قال تعالى في سورة الحجر [آية: ٩]: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ولا شك أن الله تعالى لا يخلف الميعاد، وقد حفظ هذا القرآن الكريم من التبديل والزيادة والنقص، وهذه مزية وفضيلة خص الله بها هذا القرآن الكريم من بين سائر الكتب السماوية، وقد أجمع المسلمون وغير المسلمين إلا من شذ من أعداء الإسلام على هذا،

---

(١) يعني: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٣٠ ـ ٣١].

قال أبو عبيدة: أخرج أبو عبيد في «فضائل القرآن» (**٨٤٢**) وابن أبي شيبة في «المصنف» (**١٠/ ٥١٣**) بسندهما إلى إبراهيم التيمي: «أن أبا بكر سئل عن ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: «وأي سماء تظلني وأي أرضٍ تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم».

إسناده معضل؛ إبراهيم بن يزيد التيمي من صغار التابعين.

(٢) أخرجه ـ باللفظ المذكور ـ الديلمي كما في «زهر الفردوس» (**٥/ ٢٥٩** هامش «الفردوس»)، وفي إسناده عباد بن عبد الصمد، وهو يروي نسخة موضوعة عن أنس. وأخرجه الترمذي (**٢٩٥١**) وغيره بلفظ: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**» وهو **ضعيف**.

فأنت تجد القرآن في جميع أنحاء العالم على اختلاف أديان أهل تلك البلدان لا يستطيع أحد أن يزيد حرفًا ولا نقطة ولا أن يغير منه حركة، وحتى صفات الحروف كالتفخيم والترقيق ـ مثلًا ـ محفوظة(١).

وإذا سلمنا أن القرآن قد حذفت منه قريش كثيرًا، فلا بد أن تكون قد زادت فيه أيضًا. فقال لي: أما الزيادة فلم تقع. فقلت: وكيف عرفت ذلك؟ قال: عرفناه من أقوال الأئمة المعصومين، فإنهم أخبروا بأن الزيادة لم تقع وإنما وقع الحذف، فقلت: هذا مخالف لنص القرآن الذي ذكرته آنفًا ومخالف للعقل، والله المستعان. ثم قلت له: فهل عندكم قرآن سالم من التغيير ليس فيه زيادة ولا نقص؟ فقال لي: لما رأى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قريشًا تحذف أشياء من القرآن وتكتبه على غير الوجه المتفق مع تاريخ النزول، دخل بيته وعكف فيه أربعين يومًا؛ فكتب القرآن من أوله إلى آخره على ترتيب نزوله من أول آية إلى آخر آية، فقلت له: وأين هذا المصحف؟ فقال: بقي عند الأئمة يتوارثونه آخرهم عن أولهم حتى وصل إلى الإمام المنتظر محمد بن الحسن العسكري عجل الله بخروجه، فلما غاب في سرداب سامراء أخذه معه، فقلت له: ولماذا لم

---

(١) قال الهلالي في مقالته «منقبة الملك فيصل قدس الله روحه»، المنشورة في مجلة «البحوث الإسلامية» الرياض، العدد الحادي عشر، ذو القعدة ـ ذو الحجة ١٤٠٤هـ/ محرم ـ صفر ١٤٠٥هـ (ص٣١٢ ـ ٣١٨):

«قبل بضع سنين كنت مقيمًا في باريس عند أحد الإخوان من الموحّدين، وكنتُ قد سمعتُ بأن الطبيب الجراح الشهير الدكتور موريس بوكاي ألّف كتابًا بيَّن فيه أن القرآن العظيم هو الكتاب الوحيد الذي يستطيع المثقّف ثقافة علمية عصرية أن يعتقد أنه حق منزّل من الله تعالى ليس فيه حرف زائد ولا ناقص».

قال أبو عبيدة: هذا أمر متفق عليه عند المسلمين، ومن اعتقد خلافه كفر، والزعم بأن في مصحف عثمان زيادة أو نقصان ردة عن دين الله ﷻ، وخروج من الملَّة.

يكتب عليّ ﷺ إلا مصحفًا واحدًا ثم لم ينسخ أحد منه في تلك الأزمنة المتطاولة ولا نسخة واحدة، وقد كان لعلي كما تعلمون من الأنصار وآل البيت الحريصين على الخير وحفظ العلم ولا سيما كتاب الله وخصوصًا قبل خلافته كثير، أما بعد خلافته فكان ينبغي أن يكون أول شيء يبدأ به هو إظهار هذا القرآن الصحيح وإحراق ما سواه من المصاحف، فإن لم يفعل ذلك على سبيل التسليم الجدلي فلا بد أن يفعله شيعته وأنصاره، وقد جمع أبو بكر الناس على هذا المصحف ثم جمعه عثمان طبقًا لمصحف أبي بكر وأحرق جميع المصاحف المشتملة على القراءة الشاذة، وعليّ ﷺ ليس دونهما في العلم والقدرة على إحقاق الحق، فكيف أهمل هذا الواجب العظيم؟ فقال لي: تأدب! فإن الأئمة لا يفعلون شيئًا إلا بأمر الله، وقد كان أمير المؤمنين ﵇ مشغولًا بأمور أخرى من حروب المرتدين وتدبير شؤون المسلمين، فقلت له: هذا الاعتذار لم يقنعني ولا أراه يقنع أحدًا من خصومكم، ثم لماذا أخذ الإمام المنتظر محمد بن الحسن العسكري المصحف الوحيد السالم من التغيير معه حينما أدخل في السرداب، وأنتم تعتقدون أنه معصوم وأنه يحفظ القرآن ولا يحتاج إلى مصحف، فكيف يترك شيعته على مصحف ناقص غير مرتَّب ويأخذ النسخة الوحيدة المشتملة على القرآن الصحيح معه إلى عالم الغيب؟ فقال لي: قلت لك: تأدَّبْ! فإن الأئمة معصومون ولا يفعلون إلا ما أمرهم الله به، ثم قال لي أحدهم: سأورد عليك آية من القرآن تحجك وتسكتك، فقلت: هات، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢] من هو الإمام المبين؟ أليس عليّ بن أبي طالب ﵇؟! فقلت: ذلك قولك، أما أنا فأقول: إن الإمام المبين هو اللوح المحفوظ المكتوب عند الله تعالى، وهذا القرآن الذي بأيدينا مطابق له، فقال لي: كيف يكون الكتاب إمامًا وكيف يكون مبينًا؟! فقلت

له: قال الله تعالى في سورة الأحقاف [الآيتان: ١١ ـ ١٢]: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ۞ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ فوقف حماره في العقبة ولم يستطع جوابًا. فقال لي شيخهم: أليس عليٌّ نفس النبي بنص القرآن؟! فقلت: وضِّحْ لي ما تقول؛ كيف يكون (عليٌّ نفسَ النبي)؟ فأخذ يتعتع ويكرر (أنفسنا وأنفسكم)، ولم يعرف أحد منهم آية المباهلة لا الشيخ ولا غيره، فعلمت أنه لا يحفظ القرآن أحد منهم، فقلت لهم: أنا أذكر لك الآية التي تريدون، قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فقالوا جميعًا: هذه الآية التي نريد وهي حجة عليكم، فإن قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ والمراد به علي بن أبي طالب. فقلت لهم: إن نفس النبي ﷺ هي النبي ولا تتحمل الدلالة اللغوية غير ذلك، فما هو دليلكم من جهة النقل أو اللغة على أن عليًّا هو نفس النبي ﷺ؟ فقالوا: هذا ثابت في التفاسير. فقلت: أنا لا أسلِّمه إلا إذا ثبت عن النبي ﷺ بسند صحيح.

هكذا قلت لهم، مع أني أعلم أنه روي في خبر **بسند ضعيف** أن معنى (أنفسنا) هو النبي ﷺ وعليّ، ومعنى (نساءنا) فاطمة، ومعنى (أبناءنا) الحسن والحسين، ثم راجعت الآن وأنا أكتب هذا «تفسير ابن كثير» فوجدت الخبر قد رواه ابن مردويه والحاكم في «المستدرك»[(١)]

---

(١) (٢/ ٥٩٣)، **وإسناده ضعيف جدًّا**؛ فيه أحمد بن محمد الأزهري وهو متروك.
وأخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٣٦٠)، وفي إسناده بشر بن مهران وهو متروك ـ أيضًا ـ.

وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه؛ قال ابن كثير[1]: «هكذا قال الحاكم، وقد رواه أبو داود الطيالسي[2] عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسلًا، **وهذا أصح**».اهـ.

قال محمد تقي الدين: ومن المعلوم أن المرسل من قسم الضعيف، ولو كان القوم أهل إنصاف لذكرتُ لهم هذا الخبر واعترفتُ به وبيّنتُ ضعفه وأنه لا حجة لهم في ذلك، لأن فضل عليّ وقربه من رسول الله ﷺ لا ينكره إلا ضال، وذلك لا يدل على أنه هو الإمام بعد النبي ﷺ، ولا يدل ألبتة على بطلان خلافة الخلفاء الثلاثة قبله، ولا يحط من قدرهم شيئًا، فإن الأئمة الثقات رووا أحاديث كثيرة صحيحة كالشمس تدل على صحة خلافتهم وفضلهم، ولكن لكل مقام مقال.

ثم قال الشيخ: ما تقول في أحاديث «صحيح البخاري» أصحيحة عندكم أم لا؟ فقلت: هي صحيحة لا نتوقف في قبول شيء منها. فقال: الآن أورد لك حديثًا من «صحيح البخاري» يثبت صحة اعتقادنا وفساد اعتقادكم. فقلت: ما هو؟ فقال: روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «**فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها**»[3] وأبو بكر آذاها فقد آذى النبي ﷺ، ومن آذى النبي فهو كافر، فكيف يكون الكافر خليفة؟! فقلت له: هذا

---

(١) في «التفسير» (٢/ ٥٥ ط طيبة).

(٢) ومن طريقه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٧٦٦).
وأخرجه سعيد بن منصور في «التفسير» (٥٠٠) من طريق هشيم، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٩٨ و١٤/ ٥٤٩) من طريق جرير كلاهما عن مغيرة به.
وأخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٥٨٠) وابن المنذر في «التفسير» (٥٥٣) من طريق عطاء بن السائب عن الشعبي به.

(٣) أخرجه البخاري (٣١١٠ و٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

الحديث صحيح، ولكن لمعرفة معناه على التحقيق يجب أن تذكره كاملًا حتى لا تكون مثل ذلك النصراني الذي احتج على المسلمين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٤٣] فقال: هذا كتابكم ينهاكم عن الصلاة.

قال: فاذكر أنت الحديث كاملًا، فقلت له: إن علي بن أبي طالب أراد أن يتزوج بابنة أبي جهل على فاطمة، فقام النبي ﷺ خطيبًا في الناس فقال: «**إن ابن أبي طالب يريد أن يتزوج بابنة أبي جهل على فاطمة ولا أحرم حلالًا، ولكن أخاف أن تفتن في دينها، فوالله! لا تجتمع ابنة نبي الله وابنة عدو الله في بيت واحد، فإن أراد ابن أبي طالب أن يتزوج بابنة أبي جهل فليطلق ابنتي، فإن فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها**» هذا معنى الحديث. فلما سمع القوم هذا الحديث ثاروا ثورة عظيمة وكثر ضجيجهم، فقال لي شيخهم رافعًا صوته: (كفرتم كفرتم كفرتم، أنتم كفرتم كل واحد حتى محمد بن عبد الله)! وسمعت من كان بقربي من الحاضرين يقولون بصوت ملؤه الحنق: (لا يا ملاعين الوالدين! اشلون يكذبون على أمير المؤمنين)؟ ومعنى ذلك: اخسأوا يا ملاعين الوالدين! كيف يكذّبون على أمير المؤمنين؟ يعنون: عليًّا. فقلت له: كيف تكفروننا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ونؤمن بكل ما جاء به الرسول ﷺ؟! وعليّ رضي الله عنه لسعة علمه وفضله لم يكفر الخوارج الذين كفّروه وقاتلوه، فقد روى ابن أبي شيبة(١) بسنده إلى عليّ أنه سئل عن الخوارج: أكفار هم؟ فقال: «لا؛ من الكفر فرّوا». فإن لم تقبلوا على عادتكم في ردّ أحاديث أهل السنة؛ فدونكم برهانًا نظريًّا لا تستطيعون رده أبدًا، قالوا: ما هو؟ فقلت: إن عليًّا رضي الله عنه قاتل الخوارج ولم يغنم أموالهم ولا سبى ذريتهم، كما

(١) في «المصنف» (١٥/ ٢٩٢) وإسناده ضعيف.

فعل هو وسائر أصحاب رسول الله ﷺ في قتال المرتدين من بني حنيفة، وأمُّ ولده محمدٍ سبيةٌ من بني حنيفة واسمها خولة، وأنتم تعلمون ذلك.

فقال: أنا لا أكفرك أنت، فقلت: لو كفرتني أنا وتركت البخاري ورجاله لكان ذلك أهون عليَّ؛ لأن كل ما نعتقده ونعلمه من أمور الدين فهو إما من القرآن أو من رواية هؤلاء الرواة، فقال لي: وأنا لا أكفِّر البخاري أيضًا فقد كان رجلًا صالحًا، ولكن معاوية كان يبذل الأموال للوضَّاعين فيضعون الأحاديث في تنقّص عليٍّ ويكذبون عليه، وقد توهم البخاري؛ فأدخل في كتابه هذا الحديث. فقلت له: إن رجال هذا الحديث كلهم أئمة ثقات وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه[1]. هذا ما قلته له، الآن أسوق هذا الحديث بألفاظه ليعرفه القاري على وجهه.

أخرج البخاري[2] بسنده عن المسور بن مخرمة في (باب الخمس) أن عليَّ بن أبي طالب خطب ابنة أبي جهل على فاطمة عليها السلام، فسمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس في ذلك على منبره ـ هذا وأنا يؤمئذٍ محتلم ـ فقال: «**إن فاطمة مني وأنا أتخوّف أن تفتن في دينها**»، ثم ذكر صهرًا له من بني عبد شمس فأثنى عليه في مصاهرته إيّاه قال: «**حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي، وإني لست أحرّم حلالًا ولا أحلّ حرامًا ولكن والله! لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبدًا**».

ورواه البخاري[3] في كتاب النكاح في باب ذبّ الرجل عن ابنته

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٠ و٥٢٣٠) ومسلم (٢٤٤٩) وأبو داوود (٢٠٦٩ و٢٠٧١) والترمذي (٣٨٦٧) وابن ماجه (١٩٩٨ و١٩٩٩) والنسائي في «الكبرى» (٨٣١٢ و٨٤٦٥ و٨٤٦٦).

(٢) برقم (٣١١٠).

(٣) برقم (٥٢٣٠).

في الغيرة، عن المسور بن مخرمة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «**إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن يُنكحوا ابنتَهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن؛ إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بَضْعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها**».

وفي إحدى الروايات(١): إن فاطمة عليها السلام ذهبت إلى النبي ﷺ فقالت له: إن الناس يقولون إنك لا تغضب لبناتك، وأخبرته الخبر، فخرج إلى المسجد وخطب الناس.

ثم قلت: وأبو بكر الصديق لم يؤذِ فاطمة، وإنما نفَّذ ما أمره به النبي ﷺ في قوله: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة**»(٢) وفاطمة غير معصومة من الخطأ. فإن كان هذا هو سبب تكفيركم لأبي بكر الصديق فهو سبب واه، وقد تبين بطلانه، فلماذا كفرتم عمر مع أنه حين جاءه عليّ والعباس بعد وفاة فاطمة يطالبان بأرض فدك التي طالبت بها فاطمة أحضر عشرة من الصحابة فشهدوا كلهم أن النبي ﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**»(٣) ثم قال لعلي والعباس: إن التزمتما أن تعملا في هذه الأرض بما كان يعمل به رسول الله ﷺ سلمتها لكما، فالتزما ذلك فسلمها لهما. ثم اختلف عليٌّ والعباس فجاء العباس عمر يشتكي عليًّا، فأبى عمر أن يغير ما حكم به.

ومما ذكرته لهم في تلك المناظرة ـ وإنما أمليها من حفظي ـ أن مما يدل على أن أهل بيت عليّ رضي الله عنه لم يكونوا يعتقدون عصمته أن

---

(١) البخاري (٣٧٢٩) ومسلم (٢٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٩٣) ومسلم (١٧٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٩٤) ومسلم (١٧٥٧) من حديث عمر رضي الله عنه.

عبد الله بن عباس أنكر عليه إحراق الغلاة الذين اعتقدوا ألوهية علي فأحرقهم بالنار، فخطَّأه ابن عباس وقال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يعذّب بالنار إلا رب النار**»[١] فقال الشيخ: هذا من وقاحته وقلة حيائه، كيف يعترض على إمامه؟!

ولما أخذوا يناظرونني ـ وهم جماعة كما ذكرت ـ أراد رفيقي أن يظهر دفاعه عنِّي، وقال: أيها القوم! إن كانت هذه مناظرة بين عالمين فدعوهما يتناظران وأنصتوا، وإن كانت حمية وعصبيَّة فأنا أيضًا أدافع عن صاحبي، ولما رجعنا إلى الدورة قال لأهل السنة: أشهد بالله أن عالمكم غلب عالمنا.

مناظرة بين المؤلف وبين شيعي آخر

اجتمعت في البصرة[٢] بمجتهد الشيعة الشيخ مهدي القَزْويني[٣] فأخبرته بأن عبد المحسن الكاظمي يقول: إن قريشًا حذفت كثيرًا من القرآن، فهل هذا صحيح؟ فقال: أما نحن فلا نقول بذلك، ونؤمن بأن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٧) بلفظ: «**لا تعذبوا بعذاب الله**».

(٢) أقام الهلالي في البصرة ثلاث سنين. انظر «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٩٧).

(٣) هو مهدي بن صالح الموسوي الكاظمي، الشهير بـ (القزويني)، إمامي، ولد سنة ١٢٧٢هـ ـ ١٨٥٥م ونشأ بالكاظمية، وسكن بالكويت، وانتقل إلى البصرة، فتوفي بها سنة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م، ودفن في النجف.
وله عدة كتب مطبوعة، منها «حلية النجيب في الرد على الماديين»، و«برهان الدين الوثيق في الرد على عمدة التحقيق»، و«تبصرة الحر الرشيد» في التقليد، و«حي على الحق» في الرد على كتاب «المسيح في الإسلام».
ترجمته في «أحسن الأثر» (٣٩ ـ ٤١)، «الذريعة» (٣/ ٩٥، ٣١٧) و(٥/ ١٩) و(٧/ ٦٢، ٨٤، ١٢٨) و(٨/ ٢٠٨)، «الأعلام» (٧/ ٣١٣).

القرآن هو ما بين دفتي المصحف لم ينقص منه شيء ولم يزد فيه شيء. وأظن أن الشَّيخ القَزْويني من الفرقة الأصولية.

ثم بعد ذلك[1] قرأت مقالًا في مجلة «المنار» الشهيرة التي كان يصدرها الشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ، كاتبه عالم من بلاد فارس أثبت فيه بالأدلة والبراهين المروية عن النبي ﷺ من طرق الشيعة الاثنا عشرية كل ما بيَّنه شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب من توحيد العبادة وتوحيد الربوبية، فمن ذلك تحريم البناء على القبور، روى فيه أحاديث عن أئمة الشيعة مرفوعة وغير مرفوعة إلى النبي ﷺ تثبت النهي عن البناء على القبر وتجصيصه، حتى ذكر عن جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «كل ما وضع على القبر من غير تراب القبر فهو ثقل على الميت»[2]، ومنها تحريم الذبح والنذر ودعاء الأموات والاستغاثة بهم.

فكتبت كتابًا إلى الشيخ مهدي المذكور وقلت له: نرجو أن تبين لنا هل هذه الأحاديث التي ذكرها صاحب المقال صحيحة عندكم أو غير صحيحة؟ فإن كانت صحيحة فما الذي يمنعكم من العمل بها؟ وكيف سكتم على القباب المشيَّدة المزخرفة في النجف وكربلاء والكاظم، وهي مخالفة لما رواه أئمة آل البيت الذين تدعون الناس إلى اتباعهم؟ فكتب إليّ رسالة طويلة مدحني فيها ولم ينكر شيئًا من تلك الأحاديث، ولكنه عمد إلى تحريفها؛ ففسَّر البناء على القبر بأن يبنى على القبر نفسه، أما بناء قبة حوله لتقي زائريه من الحر والقر؛ فلا بأس به! ومضى في

---

(١) كان ذلك في نحو سنة ١٣٤٥هـ، أفاده الهلالي في «ديوانه» (٥٣٢).
(٢) مذكور في كتب الشيعة، ولم أجد ذكرًا له في الكتب المعتمدة من دواوين السنة.

تحريف تلك الأحاديث كلها حتى أتى عليها، ثم قال لي: ونحن نتخذك حكمًا تحكم بيننا وبين صاحب «المنار». هذا بعدما ذمَّ صاحبَ «المنار» وكاتب المقال وغمرهما بالشتم والقدح والطعن.

فألَّفتُ في ذلك جزءًا سميته (القاضي العدل في حكم البناء على القبور) وبعثته إلى الشيخ رشيد رضا ـ رحمة الله عليه ـ فجزَّأه (سبعة أجزاء) ونشره في مجلة «المنار»[1]، وكان ذلك في أغلب الظن سنة ١٣٤٤هـ، ولما استقررت في المملكة السعودية أعدت تأليف الكتاب بأسلوب أخشن وقدمتُه للملك عبد العزيز ـ رحمة الله عليه ـ هدية، وأنشدتُه في ذلك القصيدة التالية جالسًا إلى جنبه، فلم يعب عليَّ ذلك لا هو ولا أحد من جلسائه، وذلك برهان قاطع على تواضعه واختياره سلوك أمراء السلف، فلا غرابة أن رفع الله قدره ومكَّن له في الأرض حتى أنشأ دولةً عظيمةً عصريَّةً على أنقاض الدولة السعودية التي قضى عليها آل رشيد، كما شهدت بذلك إذاعة لندن، وهذه القصيدة من بحر الكامل:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي سَعِدَتْ بِهِ ... أَرْجَاءُ مَكَّةَ وَالْحَطِيمُ وَزَمْزَمُ
وَكَسَى الإِلَهُ بِهِ بِلَادَ الْعُرْبِ ثَوْ ... بَ أَمَانَةٍ فَغَدَتْ بِهِ تَتَنَعَّمُ
وَأَشَاعَ نُورَ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ فِي ... أَرْجَائِهَا وَالْجَهْلُ فِيهَا مُظْلِمُ
وَغَدَتْ بِحِكْمَتِهِ أَهَالِيهَا وَهُمْ ... بَعْدَ الْعَدَاوَةِ فِي إِخًا لَا يُصْرَمُ
كَانَ التَّقَاطُعُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ ... حَتَّى الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ لَا يَرْحَمُ

(١) ظهرت (الحلقة الأولى) من (المقالات السبع) في مجلة «المنار» المصرية، بتاريخ ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٥هـ. وليس سنة ١٣٤٤هـ يوافق ٢٩ يونيو سنة ١٩٢٧، في (المجلد الثامن والعشرين) (الجزء الأول).
وأما الحلقة السابعة، فتأريخها ٣٠ رمضان ١٣٤٦هـ يوافق ٢٢ مارس سنة ١٩٢٨ في (الجزء الأول) من (المجلد التاسع والعشرين) من المجلة نفسها.
ثم رأيتها منشورة في مجيليد عن دار التوحيد ـ الرياض.

وَالْبَغْيُ وَالْعُدْوَانُ شِيمَتُهُمْ وَهُمْ ... شَتَّى الْعَقَائِدِ شِرْكُهُم مُسْتَحْكِمُ
مَا عِنْدَهُمْ مِنْ حُرْمَةٍ لِلشَّرْعِ بَلْ ... طَاغُوتُهُمْ بِالْجَهْلِ فِيهِمْ يَحْكُمُ
قَطْعُ الطَّرِيْقِ وَقَتْلُ سَالِكِهِ لَهُمْ ... خِيمٌ وَخِيمٌ عِنْدَهُمْ لَا يَحْرُمُ
شَنُّ الإِغَارَةِ دَأْبُهُمْ وَطَعَامُهُمْ ... وَشَرَابُهُمْ مِنْهُ وَبِئْسَ الْمَطْعَمُ
فَغَدَوْا تُقَاةً صَالِحِينَ وَخَوْفُهُمْ ... لِلهِ لَيْسَ يُزَالُ دَوْمًا يَعْظُمُ
بِسِيَاسَةِ الْمَلِكِ الإِمَامِ الْمُرْتَضَى ... عَبْدُ الْعَزِيزِ الْفَارِسُ الْمُسْتَلْئِمُ
هَذِي الْكَرَامَاتُ الْعِظَامُ حَقِيقَةً ... لَا مَا يَقُولُ مُشَعْوِذٌ يَتَوَهَّمُ
هَذَا هُوَ الْقُطْبُ الْكَبِيرُ دِيَانَةً ... وَشَجَاعَةً وَعَدَالَةً إِذْ يَحْكُمُ
قُطْبُ السِّيَاسَةِ وَالْمَكَارِمِ وَالْعُلَا ... حَامِي الْحَقِيقَةَ فِي الْوَغَى لَا يُحْجِمُ
يَلْقَى الْعُدَاةَ إِذَا الْجُيُوشُ تَلَاطَمَتْ ... أَمْوَاجُهَا مُسْتَبْشِرًا يَتَبَسَّمُ
يَلْقَى الْوُفُودَ وَوَجْهُهُ مُتَهَلِّلٌ ... رَائِيهِ مُغْتَبِطٌ بِهِ مُتَنَعِّمُ[(١)]
ذَا الْجُزْءَ أَرْفَعُهُ إِلَيْكَ هَدِيَّةً ... وَلأَنْتَ أَفْضَلُ مَنْ إِلَيْهِ يُقَدَّمُ
أَلَّفْتُهُ رَدًّا عَلَى شَيْخِ الرَّوَا ... فِضِ بِالأَدِلَّةِ مُبْطِلًا مَا يَزْعُمُ
زَعَمَ الْبِنَاءَ عَلَى الْقُبُورِ وَقَصْدَهَا ... مِنْ كُلِّ أُفُقٍ لِلدُّعَا لَا يَحْرُمُ
هَذَا وَدُمْ شَمْسًا لِهَذَا الدِّيْنِ فِي ... أَوْجِ السَّعَادَةِ بِالْمَكَارِمِ تُنْعِمُ[(٢)]

---

(١) بعده في مقدمة «القاضي العدل» (٤ ـ ٥):

لَاَ يَقْرُبُ الحُزْنُ امْرَأً فِي قُرْبِهِ ... ويُحَيِّرُ الأَلْبَابَ إِذْ يَتَكَلَّمُ
بِطَلَاقَةٍ وَبَلاغَةٍ عَرَبِيَّةٍ ... مَا شَانَهَا حَصْرٌ وَلَا مُتَلَعْثَمُ
يَا أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي بِلِوَائِهِ ... نَصْرٌ وَفَتْحٌ حَيْثُمَا يَتَيَمَّمُ
عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ السُّعُودِ إِمَامُنَا ... وَإِمَامُ مَنْ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُسْلِمُ

(٢) الأبيات في «الديوان» (٥٣٤ ـ ٥٣٥) و«القاضي العدل في حكم البناء على القبور» (ص٤ ـ ٥) و«مناظرتان بين رجُلٍ سنّي، وهو محمد تقي الدين الهلالي، وإمامين مجتهدين شيعيين» (ص١٥) و«السلفية الوهابية بالمغرب» (٢٩).

فتقبله بأحسن قبول وأمر بطبعه، فأخذه رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسلَّمه إلى الشيخ ماجد الكردي مدير المعارف، فطبع منه ألف نسخة ووزعت. ولا بد أن يكون الشيخ مهدي القزويني قد اطلع على هذا الكتاب، وقد بلغني أنه ألف كتابًا في الرد عليَّ ولكني لم أره، وهذا هو سبب ما ذكرته من قبل أنه يوجد في المحفظة الخاصة بي التي يسمونها بالعجمية (دوسيّا) أنني عدو لأبناء الشيعة. هكذا سجلوا عليّ ذلك لجهلهم وضلالهم، وإلا؛ فهل كان أئمة آل البيت الذين نقل عنهم ذلك الكاتب أحاديث النهي عن البناء على القبور كحديث «الصحيحين»: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[1] ونحوه؛ هل كان أولئك الأئمة ـ رضوان الله عليهم ـ أعداءً لأبناء الشيعة، ومنهم جعفر الصادق الذي ينتسبون إليه؟! إذًا فمن هو وليهم؟!

شيخ متملق

كان رجل ينسب إلى العلم ـ والعلم منه بعيد ـ يسكن في بلدة فاو الواقعة عند مصب شط العرب في خليج البصرة (ويسميه الأوروبيون: الخليج الفارسي)، وكان من المتملِّقين لذلك الشيخ المذكور الذي هو من أقارب الشيخ مصطفى آل إبراهيم، فشكى الشيخُ الغنيُّ إلى ذلك المتأكِّل بالدين ما أبطلته من البدع في مسجد الدورة، فقال الشيخ الغاوي: هذا الرجل منّاع للخير، يعنيني بذلك، فهجوته بقصيدة نسيت أكثرها[2] وأثبت

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٠) ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) قال في «الديوان» (٥٥٣): «لمَّا كنتُ في الدورة عند الشيخ مصطفى آل إبراهيم أَمَرَ المؤذنَ والإمامَ أنْ يسيرا في أمور الصلاة حسب إرشادي، وكان هناك =

هنا ما بقي في حفظي منها، وقد حذفت منها بيتًا[1] لأن فيه إقذاعًا كثيرًا. فإن قلت: إذا كان ذلك الإقذاع لا يجوز شرعًا، فلماذا قلتَه حتى احتجتَ إلى حذفه؟ فالجواب: أنه يجوز شرعًا ولكن تركه أيضًا جائز، وقد قال النبي ﷺ: «**من تعزى عليكم بعزاء الجاهلية فأعِضُّوه بِهَنِّ أبيه ولا تُكْنوا**»[2].

وهذا ما بقي من القصيدة:

أَتَانِيَ فُحْشُ الْقَوْلِ مِنْ جَاهِلٍ فَدْمِ[3] ... وَقِدْمًا كِلابُ الْجَهْلِ تَنْبَحُ ذَا الْعِلْمِ

وَلَسْتُ بِمُلّا[4] فِي الْقُرَى مُتَأَكِّلٌ ... بِدِينٍ وَلَا دِينٌ لَدَى الأَرْذَلِ الْوَخْمِ

= أحد عمومته يُدعى الشيخ صالح آل إبراهيم متعصِّبًا للمذهب الحنبلي وللبدع والعادات، فلما طهَّرتُ أنا المسجد من البدع غَاظَهُ ذلك؛ فاستفتى فقيهًا في قرية (الفاو)، فكتب له بضعة أسطر يتحسن البدع، ويُسمي مَن يمنعها مَنَّاعًا للخير؛ فنظمتُ (قصيدة ميمية) في هجوه، وجاءت في غاية البلاغة، وركبتُ فرسًا من الدورة إلى الفاو، وسجلتها بعنوانه في دائرة البريد، وضاعت منِّي، وسأثبت هنا ما بقي عالقًا بذهني، وكان ذلك سنة ١٣٤٤هـ، ونص ذلك من بحر الطويل: . . .» وساقها.

(١) هو الأخير في القصيدة، ذكره في «الديوان»، وهو:

بِفِعْلِ أبيكَ اعْضُضْ وكُلْ بَعْدُ سَلْحَهُ ... ومَصًّا لِبَظْرِ الأُمِّ والِدَةِ الشُّؤمِ

و«الشؤم» تقرأ بهمزة وصل للوزن.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٦٣)، وأحمد في «المسند» (٥/ ١٣٦)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٧٢) و(٦/ ٢٤٢)، والطحاوي في «المشكل» (٣٢٠٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٣١٥٣) من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه. **وصححه** شيخنا الإمام الألباني في «الصحيحة» (٢٦٩).

(٣) الفَدْم: ثقيل الفهم. (منه)

قلت: العَيِيُّ عن الكلام في ثِقَلٍ ورخاوةٍ، وقلة فهم. والغليظ الأحمق الجافي.

انظر: «القاموس المحيط» (١٤٧٧ ـ مادة الفَدْم).

(٤) يقصد الإمام الذي يتخذ الإمامة مهنة.

يَظَلُّ عَدُوُّ الْعِلْمِ يَكْذِبُ جَاهِدًا / عَلَى رَبِّهِ كَيْ يَأْكُلَ السُّحْتَ بِالرَّجْمِ
فَدَعْ عَنْكَ دَعْوَى الْعِلْمِ وَلْتَبْغِ قَارِبًا / تَصِيدُ بِهِ الْحِيتَانَ فِي لُجَّةِ الْيَمِّ
وَدُرْ بِهِ فِي كُلِّ الْبِلَادِ مُنَادِيًا / صَبُورًا صَبُورًا[١] وَاتْرُكِ الْعَيْشَ بِاللُّؤْمِ
فَذَلِكَ أَجْدَى مِنْ سُؤَالٍ وَكُدْيَةٍ / وَإِفْسَادِ دِينِ اللهِ بِالْخَرْصِ وَالْوَهْمِ
فَلَا تَحْسَبَنَّ الْعِلْمَ أَكْلَ ثَرِيدَةٍ / وَجَمْعَ زَكَاةٍ مِنْ عَرِيبٍ وَمِنْ عُجْمِ
وَمِثْلُكَ إِنْ يَسْأَلْ يَجِئْ يَوْمَ حَشْرِنَا / وَمَا وَجْهُهُ إِلَّا عِظَامٌ بِلَا لَحْمِ
وَإِنْ كَانَ كَالْعُصْفُورِ عَقْلُكَ خِفَّةً / وَطَيْشًا فَمِثْلُ الْبَغْلِ قَدْ صِرْتَ فِي الْجِسْمِ
عَلَامَ اسْتَطَبْتَ الأَكْلَ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ / أَأَعْرَجُ أَمْ أَعْمَى أَمْ انْتَ[٢] أَخُو سُقْمِ
نَعَمْ فِيكَ سُقْمٌ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ / وَذَلِكَ سُقْمُ الْعَقْلِ وَالدِّيْنِ وَالْفَهْمِ
وَفِيكَ عَمًى لَمْ تُبْصِرِ الْعَيْنُ مِثْلَهُ / عَمَى الْجَهْلِ إِنَّ الْجَهْلَ لِلْقَلْبِ قَدْ يُعْمِي
وَدَعْوَاكَ فِي الْعِلْمِ الْعَزِيزِ مَكَانُهُ / كَدَعْوَى بَنِي حَرْبٍ زِيَادًا عَلَى زَعْمِ
(لَقَدْ هَزُلَتْ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا / كُلَاهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ) ذِي عُدْمِ[٣]

قولي: (صبورًا صبورًا) الصبور: نوع من السمك يصاد من البحر، كبير الحجم كثير العظام، ولكن لحمه لذيذ، يدور الباعة بزوارقهم في أنهار جنوب البصرة منادين (صبور صبور)[٤].

(١) انظر تعليق المصنف آخر القصيدة.
(٢) تقرأ بهمزة وصل للوزن.
(٣) الأبيات في «منحة الكبير المتعالي»، (ص٥٥٤ ـ ٥٥٥).
(٤) مثله في «المنحة» (٥٥٥).

الدعوة إِلى الله في النخيل

لما نزلنا[1] بالمدينة النبوية ـ على من شرَّفها الله به أفضل الصلاة وأزكى التحية ـ وجدتُ بها من مشاهير الشيوخ (ألفا هاشم)[2]، وهو من السودان المغربي وأظنه سنغاليًّا، وكان مقدَّمًا للطريقة التجانية، فكتبت صحيفة ضمنتها ثلاث عشرة[3] مسألة من ضلالات التجانيين وناولتها الشيخ عبد الله بن حسن[4]، فلما قرأها اقشعرّ جلدُه منها وقال: أعوذ

(١) سنة ١٣٤٥هـ، وقد عُين الهلالي مراقبًا للمدرسين في المسجد النبوي، وتقدم ذكره لذلك، وصرح به في «رسائله» (٢/ ٧٤٥).

(٢) قال عنه في «رسائله» (٢/ ٧٤٥): «أكبر فقهاء المدينة في ذلك الزمان وأسنُّهم، وهو مقدَّم الطريقة التيجانية، وأحد كبار المدرسين في المسجد النبوي»، وستأتي ترجمتي له.

(٣) الأسئلة التي في الصحيفة التي أعطيت إلى (ألفا هاشم)؛ أوردها الهلالي في مقالة له نشرت في مجلة «الشهاب» الجزائرية، العدد (١٥٢)، بتأريخ ٣ محرم ١٣٤٧هـ ـ جوان ١٩٢٨م، (ص٥ ـ ٨).
وفيها تأكيد الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة لصحة الخبر.
وفي المجلة نفسها العدد (١٥٠) تفصيل للحادثة.

(٤) هو صاحب السماحة العلامة، الفاضل الجليل؛ الشيخ عبد الله ابن الشيخ حسن ابن الشيخ حسين ابن الشيخ علي ابن الشيخ حسين ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، رئيس القضاة في حياته رَحِمَهُ اللهُ.
ولد هذا العالم الشهير ببلدة الرياض، في اليوم الثاني عشر من شهر محرم الحرام، سنة ألف ومئتين وسبع وثمانين من الهجرة، كان محُبًّا للعلم والعلماء، ثاقب الرأي؛ مسددًا في شؤونه؛ حازمًا راجح العقل، تولى قضاء الجيش سنة ١٣٣٩هـ إلى أن توفي سنة ١٣٧٨هـ؛ انظر ترجمته: «الشيخ =

بالله أعوذ بالله! يوجد في الدنيا من يعتقد مثل هذا؟! فقلت: نعم وهو معك هنا في المدينة أحد كبار المدرسين في المسجد النبوي. فقال لي: من هو؟ فقلت: (ألفا هاشم)، ومعنى (ألفا) بلغة السودان: الفقيه، فكأنها مختصرة من كلمة الفقيه.

فدعا به، فلما جلس ناوله الصحيفة فقال: اقرأ هذه الصحيفة. فقرأها، فقال له الشيخ: هل تعتقدون ما في هذه الصحيفة؟ فقال: يوجد في كتب طريقتنا كل ما ذكر في هذه الصحيفة، ولكن أنا لا أعتقد هذا، فقلت له: قل: هذا حق أو باطل؟ فقال لي: إن الشيخ ليس محتاجًا إلى أن تعينه. فقال الشيخ عبد الله بن حسن رَحِمَهُ اللهُ: والله! بل أنا محتاجٌ إلى أن يعينني لأنه يعرف ضلالكم وأنا لا أعرفه، فاضطر (ألفا هاشم) إلى أن يقول: إن ذلك باطل، فقال له الشيخ عبد الله بن حسن رَحِمَهُ اللهُ: قد اعترفت الآن بأنك رئيس طريقة تشتمل على ضلالات، فتُبْ إلى الله منها. فقال: أنا تائبٌ إلى الله من كلِّ ضلالة. فقال له الشيخ عبد الله بن حسن: اكتب رسالةً وبيِّن فيها ضلال هذه الطريقة، وأنك تبتَ إلى الله منها لنوزِّعها على أتباعك وغيرهم ليحذرها الناس. فقال: نعم. فقال له: إذا كتبت الرسالة فسلّمها إلى محمد تقي الدين الهلالي[1]، لينظر هل هي وافية بالمطلوب، فإن وجدها كذلك يبعثها إليَّ وأن آمر بطبعها.

وقبل أن يسافر الشيخ عبد الله بن حسن ـ رحمة الله عليه ـ دعا أمير المدينة عبد العزيز بن إبراهيم[2] فجاءه إلى منزله بدار الضيافة، فقال له:

= عبد الله بن حسن آل الشيخ؛ حياته وجهوده» لوليد الفريان، و«مشاهير علماء نجد» (ص١٥٢).

(١) قال في «رسائله» (٢/ ٧٤٧): «وإذا أُكملت الرسالة، فأطلع عليها محمدًا تقي الدين الهلالي ومحمد بن عبد الرزاق بن حمزة، فإذا ارتضياها، يبعثانها إليَّ».

(٢) هو رابع أمير تولّى إمارة المدينة النبوية في العهد السعودي بعد حكم الملك =

= عبد العزيز آل سعود ـ رحمهما الله تعالى ـ، تولى من (١٠/ ٤/ ١٣٤٦هـ)؛ انظر «تاريخ معالم المدينة المنورة» لأحمد الخياري (٢٦٨ ـ ٢٦٩).

قال الشيخ حمَّاد الأنصاري ـ وهو من مُحبِّي الهلالي، المكثرين من الثناء عليه ـ: «تقي الدين الهلالي أخرجه أميرُها ابن إبراهيم؛ لأنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بشدَّة.

قلتُ له ذات مرَّة: علمك هذا لا يُستفاد منه! فالمغاربة يشتكون من شدَّتك. فغضب عليَّ، وقال: لم تسر الأمور معي إلَّا بالشِّدَّة»؛ انظر «المجموع» (٢/ ٥٩٢) لولده عبد الأول.

وقال الطنطاوي عنه في «ذكرياته» (٣/ ١٤٥): «هو رجل عبقري، كتبت عنه كثيرًا».

ثم وجدتُ في مجلة «الفتح» المصرية، المجلد الثاني، العدد (٦٧)، بتأريخ ٢٥ ربيع الثاني ١٣٤٦هـ ـ ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٧م أخبارًا عن الملك عبد العزيز وما يجريه من إصلاحات في جميع الميادين، وفيها الرسالة التي بعث بها الملك إلى أهل المدينة، قال محب الدين الخطيب ـ تحت عنوان (أسلوب الحكم في الحجاز) ـ:

«(رسالةٌ بعث بها الملك ابن السعود قبل أسبوعين إلى أهل المدينة عقب استقالة الأمير مشاري ـ أمير المدينة ـ، وصدور أمر جلالة ملك الحجاز ونجد بإسناد إمارة المدينة إلى الفاضلين الكاملين عبد العزيز بن إبراهيم وياسين الرواف، وكلاهما من أعيان نجد وأهل الإدراك فيها. . .).

وهذه مقتطفات من تلكم الرسالة الملكية:

«السلام عليكم ورحمة الله، وبعد؛ فقد استقال ولدنا مشاري؛ ترويحًا لنفسه من المرض الذي أصابه، ولم نأذن له لأول الأمر، ثم لما اشتد به المرض لم نر بُدًّا من الرخصة له، وقد أمرنا عبد العزيز بن إبراهيم أن يكون وكيلًا للإمارة، وأن يكون ياسين الرواف معاونًا له. . .»، وبعد أن تكلَّم عما يتعلق بالمجالس الإدارية والمجالس البلدية، قال: «. . . أما الدين؛ فالعمدة على ما قرره الشيخ عبد الله بن حسن وإخوانه المساعدون له، وهذا وكيل أمير المدينة قادم إليكم وربما بلغكم أخبار شدته، وهذا أمر لا حقيقة له؛ إنه شديد على العاتي، حبيب لمن سلك الطريق المستقيم وعرف حق نفسه، وزيادة على =

هذان الشيخان محمد الهلالي ومحمد بن عبد الرزاق نثق بعلمهما ودينهما، فعليك أن تشاورهما وتأخذ نصيحتهما. فقال الأمير: «حبًّا وكرامة. يقال: إذا رأيت العلماء عند أبواب الأمراء فبئس العلماء، وإذا رأيت الأمراء عند أبواب العلماء فنعمَّ العلماء ونعمَّ الأمراء. فحقُّهما أن آتي إلى زيارتهما لأستشيرهما وأستفيد من علمهما، ولكن أرجو من فضلهما أن يسامحاني في هذا الحق؛ لكثرة أشغالي ويتفضلا بزيارتي».

وبعد خمسةَ عشر يومًا لقيتُ ألفا هاشم فقلتُ له: هل أتممتَ الرسالة التي أمرك الشيخ بتأليفها؟ فقال: ما أكملتها بعد، فأمهلني. فانتظرتُ خمسة عشر يومًا أخرى، ولقيته فسألته، فقال لي: للآن ما أتممتها، فحثثتُه على إتمامها برفقٍ. فذهب إلى الأمير وقال له: نحن نعتقد أنك أمير هذا البلد وأنت الحاكم فيه، وقد آذاني محمد تقي الدين الهلالي وصار يتحكَّم فيّ ويأمرني وينهاني، فدعاني الأمير وقال لي: ما سبب الخلاف بينك وبين ألفا هاشم؟ فقلت له: ليس بيني وبينه خلاف، وحكيتُ له القصة من أوّلها إلى آخرها، فقال: أنا آخذ الكتاب منه وأبعثه إلى الشيخ، فقلت له: أنت لا تعرف ما يتضمَّنه الكتاب، وهل

= هذا؛ فقد أوصيناه بما يلزم، وأكَّدنا عليه التأكيد التام في جميع الأمور التي لا يتعدَّاها ـ إن شاء الله تعالى ـ.

أما أعماله؛ فهي قائمة بحول الله على الأحكام الشرعية، وقد أمرناه أن لا يتعدَّاها مثقال حبة، وأمرناه أن يجري في أمور الدوائر حسب ما هو مقرر لها في النظم التي أمرنا بوضعها. . . . ، وأوصيناه بالرفق، وإقامة أوامر الله، والأخذ بيد من قام بها، وستلقونه كما ذكرنا لكم وأكثر ـ إن شاء الله ـ.

وأنتم تتساعدون وإياه على البر والتقوى، وتجتهدون في حسم مادة الشقاق والقيل والقال، ومنع ترويج الأغراض الخصوصية، نرجو من الله تعالى أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه، وأن ينصر دينه ويعلي كلمته، في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٦، عبد العزيز السعود»».

هو وافٍ بالمطلوب أو غير وافٍ، وإنما كلَّفني الشيخ عبد الله بن حسن بقراءته قبل إرساله إليه، لأني أعرف هذه الطريقة وأعرف ما يجب على التائب منها ما يقول؛ لأني كنت متمسِّكًا بها تسعَ سنين، وانصرفتُ من عنده ولم أطلب ألفا هاشم(١) بعد ذلك بشيء، ولم يؤلِّف شيئًا(٢).

---

(١) اسمه محمد بن أحمد بن سعيد، فقيه مالكي، اشتهر في المدينة النبوية، ولد وتعلم ببلدة حلوار، من بلاد «فلاتة» في الصحراء الكبرى بإفريقية، ولما غزا الفرنسيون بلاده (سنة ١٣٢٠) توجه إلى الحجاز؛ فحج (١٣٢٢هـ) واستقر في المدينة، يلقي في مسجدها دروسًا في الفقه والحديث والتفسير، إلى أن توفي ودفن في البقيع، له مؤلفات حملت إلى مصر بعد وفاته لطبعها، وجُهل مصيرها. ترجمته في «جريدة المدينة» ٢٨/ ١١/ ١٣٧٨هـ، «الأعلام» (٦/ ٢٢).
قال أبو عبيدة: يوجد في مخطوطات مكتبة مكة المكرمة برقم (٣١٨): «إفادة أهل التنوير بما قيل من التفصيل في التصوير» (على المذاهب الأربعة) كتبت سنة ١٣٥٤هـ، بخط النسخ الجيد، وهو من جمع حسين حسن الطمائي، وتلقاها عن شيخه ألفا هاشم؛ فالرسالة جواب مطول عن التصوير، وهي منشورة في مصر، عن مكتبة القاهرة، سنة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م عن طبعة قديمة. ولألفا هاشم أيضًا «الأجوبة الهاشمية عن الأسئلة المدنية» طبع عن دار الطباعة التيجانية، القاهرة، دون تأريخ.

(٢) لكنه هل رجع؟ وهل تبرؤه من ضلالات التيجانيين كان عن اقتناع وإيمان واعتراف صادق؟ أم أنه مجرد إجراء قام به ليصرف عن نفسه التهمة والمطاردة والملاحقة؟! فإنه لا مناص له من التهرب؛ فكم أظهر أناس في تلك الفترة بالذات التوبة والرجوع تحت ضغط وإلزام الحكومة والمشايخ الذين وكلتهم بهذا الأمر، وحقيقة الحال أنهم لا يزالون على اعتقادهم، يخفونه ولا يجهرون به؛ لأن الدولة الآن لأهل التوحيد التي لا تتساهل في هذا الجانب؛ فيموتون على عقائدهم تلك، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله؛ انظر «مجموع أقوال الشيخ حماد» (٢/ ٤٩١).
فهل صدق (إلفا هاشم) وكان باطنه مطابقًا لما قاله بلسانه وخطه بيده؟! وكأن الأستاذ الهلالي تخوَّف من مثل هذا حين قال في «رسائله»: «ويصلح منا ومنه الظاهر والباطن..». =

= كانت هذه الحادثة في سنة ١٣٤٦هـ، وعاش (ألفا هاشم) إلى سنة ١٣٤٩هـ، تاريخ وفاته بالمدينة بالمسجد النبوي، ولم تشتهر توبته، ولم تشتهر رسالته ـ على فرض أنه كتبها ـ التي فيها براءته ـ في حدود علمي ـ، إن كان كتب رسالة كما طُلِبَ منه؛ لتطبع وتوزَّع، وإنما الذي وقفتُ عليه شيء آخر مؤسف، يجعلنا نستخلص أن تماطل (هاشم) أوَّلًا، وتهرُّبه وشكايته بـ (الهلالي)، ثم رضوخه مؤخرًا؛ أن كل ذلك للتخلص من المتابعة؛ إذ وجدتُ تلميذه (حسين حسن الطمائي) جامع رسالته: «إفادة أهل التنوير...» يذيلها بـ(نعي ورثاء) شيخه، بعد أن قال في أول الرسالة عن نفسه: «أنا العبد الفقير حسين بن حسن الطمائي بلدًا، المالكي مذهبًا، الأشعري عقيدةً! التجاني طريقةً! المحمدي حقيقةً! هذا كتاب...» (ص٢)، جاء في (النعي): «ذكرى رثاء المغفور له، سيدي ومولاي؛ ألفا هاشمي الفوتي الفلاتي، المحدث الشهير، والخليفة الأعظم للطريقة التيجانية المشرفة، المدفون بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم. اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم، سبحان ربك رب العزّة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

أما بعد؛ قد وصل خبر وفاة المغفور له، سيدنا ومولانا، الأستاذ العالم، العلامة الواعظ، والمحدث الشهير بالمدينة المنورة، صاحب التآليف الشهيرة، وخليفة الطريقة التيجانية الأعظم! صاحب المؤلفات الشهيرة؛ مولانا ألفا هاشمي الفوتي الفلاتي، أسكنه الله فسيح جنانه، وأناله رضوانه، وفي يوم ٣٠/ ٤/ ١٩٣١ تفضل سيدنا ومولانا العارف بالله تعالى، الأستاذ العلامة؛ الشيخ مصطفى أبو قصيصة الخليفة الأعظم للطريقة التيجانية المشرفة في عاصمة بربر في القطر السوداني المصري، ودعى جميع السادة التيجانية وسكان البلاد لاجتماع عام في ساحة الزاوية التيجانية العامرة لتلاوة آي الذكر الحكيم لروح الفقيد، وأولم وليمة كبيرة جدًّا قسمت للفقراء في ذلك اليوم، وقد لبَّى نداءه جمع كبير من إخواننا التيجانية وغيرهم، وكان ذلك بعد صلاة الجمعة وقبل الذكر المعتاد، وقد ضم هذا الذكر كثيرًا من العلماء والمستخدمين والتجار وغيرهم...» إلخ، وعقب هذا قصيدة رثاء، وهناك مزيد بيان، =

وهذا أول خلاف وقع بيني وبين الأمير، ثم تلاه اختلاف كثير شاركني فيه رفيقي الشيخ محمد بن عبد الرزاق، فكنَّا إذا سمعنا بمنكر وقعَ وكان الجنودُ المكلَّفون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يخبروننا بما يقع من الحوادث(١)، فإذا رأينا تقصيرًا نذهب إليه وننصحه، فكان يتحمَّل ذلك على مضضٍ واشمئزاز، ويقول في غيبتنا: هذان رجلان من المطاوعة (جمع مطوع، كلمة تطلق على الفقيه والعالم في نجد) يشتغلان بالدروس في المسجد، فلماذا يتدخلان في شؤون الأمير وفي شؤون جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! (والتعبير المعتاد: هيئة الأمر بالمعروف، وقد تركت هذا التعبير لأنه فاسد لأن الهيئة هي الشكل كما قال تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [آل عمران: ٤٩]) وزاد في طينه بلة وفي طنبوره نغمةً أن المكاتبة بيننا وبين الملك عبد العزيز ـ قدَّس اللهُ روحه ـ كانت متواصلة(٢)، ومن عادته ـ رحمة الله

= واستفدتُ هذا من تعليق الأخ أبي محمد الوهراني على «الطرائق القدد وعواقبها الوخيمة» (٩٣)، والله الموفق.

(١) قال الهلالي في «الديوان» (٢١٣): «وكلَّفني رئيس القُضاة الشيخ عبد الله بن الحسن أنا والشيخ محمد بن عبد الرزاق المصري أن نُرَاقب أعمال جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن نراقب الأمير فيما يتعلق بأمور الدين، ودعاه فحضر وأخبره أمامَنا بذلك؛ فأراد أَنْ يُسكتنا بإقامة المآدب، وفي ذلك قلتُ الأبيات التالية [البحر الطويل]:

أَيَا عِزَّةً تُفْضِي إِلَى ذُلِّ دِينِنَا … فَلَا كَانَ مَنْ يَهْوَاكِ يَوْمًا وَلَا كُنْتِ
وَيَا ذِلَّةً تُفْضِي إِلَى عِزِّ دِينِنَا … فَسُحْقًا لِمَن يَأْبَاكِ أَنْتِ المُنَى أَنْتِ
فَعِشْ فِي خُمُولٍ ذَا ارْتِيَاحٌ بِذِلَّةٍ … إِذَا العِزُّ أَضْحَى عَنْدَ ذِي الفِسْقِ وَالْمَقْتِ
إذا أَنْتَ لَمْ تَسْتَعْذِبِ الصَّابَ فِي الهَوَى … فَبِاللهِ لَا تَكْذِبْ فِمَا أَنْتَ بِالثَّبْتِ
فَتَعْسًا لِمَنْ بَاعَ الدِّيَانَةَ بِالدُّنَى … كما فَعَلَتْ فيما مضى عُصْبَةُ السَّبْتِ

(٢) انظر عنها كتابي «مراسلات الهلالي» (٤/ ١٧٠٠ ـ الفهارس)، وأودعت فيه بعضها مع مصورة خط الملك عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ.

عليه ـ: أنه إذا كتب لنا جوابًا يأمر الكاتب فيكتبه بآلة الكتابة، ثم يأخذ صحيفة فيكتب فيها بضعة أسطر بخط يده يُسمّي فيها المرسَل إليه ويسلم عليه يدعو له، وهذه مزية لا نعلم أحدًا من الملوك كان يفعلها، فنسأل الله أن يثيبه في جنات النعيم. وكانت الأجوبة التي تأتينا من الملك عبد العزيز تصل إلينا بواسطة الأمير المذكور، فكان كلما جاءنا كتاب من الملك يصيبه المُقيمُ المقعِدُ ويغضبُ ويقول: ما شأن هذين الرجلين ومكاتبة الملك، أهما من الأمراء؟ فيلتفت الأمير إلى الشيخ محمود شُوَيْل[1]، ويقول: يا محمود! ألا يمكنك أنْ تَمُون عليهما وتفتح الرسالتين؟! (ومعنى تمون: تتجرأ وتنوب)، فيقول الشيخ محمود: أصلح الله الأمير، إذا كنتَ أنتَ لا تستطيع أن تمون عليهما وأنتَ الأمير، فكيف أستطيع أنا وأفتح رسالة الملك المرسلة إلى شخصٍ بعينه؟! فيجيئنا الشيخ محمود شُوَيْل ويقول: إن الأمير مهتمٌّ بهاتين الرسالتين، فإن لم يكن فيهما شيء تخفيانه عنه فأرجو أن تفرِّجا عنه بتمكينه من قراءتهما. فنعطيه الرسالتين فيقرأ كلَّ رسالة، يقرأ صحيفتيها المكتوبة بخط اليد والمكتوبة بالآلة، وتوسوس له نفسه بأنه يمكن أن تكون هناك صحيفة ثالثة لم ندفعها إليه!

الاختلاف مع الشيخ عبد الله بن بُلَيْهِد

ندع الآن خلافَنا مع الأمير لنستأنفه فيما بعد، ونذكر قصَّة طريفة وقعت بيننا وبين الشيخ عبد الله بن بُلَيْهِد[2] ـ رحمة الله عليه ـ، فإنه قصد

---

(١) ستأتي ترجمته قريبًا.

(٢) عبد الله بن سليمان بن سعود ابن بليهد: فقيه حنبلي نجدي ولد سنة ١٢٨٤هـ ـ ١٨٦٧م. من بني خالد، اشتهر بموالاته لحركة الإصلاح والتجديد في نجد، أيام تعصب بعض «الإخوان» هناك في مقاومة ما يجهلونه من وسائل العصر =

المدينة ليصوم فيها رمضان سنة ١٣٤٧هـ، ولما كنتُ أنا أقوم بمراقبة المدرِّسين في المسجد النبوي ويعينني على ذلك رفيقي الشيخ محمد بن عبد الرزاق؛ كان بعض المدرسين يجتمعون عندنا في مكتب المراقبة، وكان في غرفة فوق باب المجيدي، فنتذاكر في مسائل العلم، فجرى ذكر مسألة الأرض: هل هي كرة أو سطح[(١)]؟ فبيَّنّا لهم أنها كرة يقينًا، وذكرنا العلماء الذين نصّوا على ذلك ومنهم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية[(٢)] وتلميذه ابن القيم[(٣)]، فأسرُّوها في أنفسهم، فلما جاء الشيخ عبد الله بن

= الحديث. مولده بالقرعاء (من قرى القصيم)، ودراسته في القصيم وفي الهند (حيث ذهب للعلاج)، وعاد فدرّس في بلدان القصيم إلى أن عين قاضيًا بحائل (١٣٤١) فرئيسًا للقضاة بمكة ١٣٤٣ ـ ١٣٤٥ وأعفي وأعيد إلى حائل، وتوفي بمكة. ولم أر له تأليفًا غير رسالة في (مناسك الحج) واسمه «جامع المسالك في أحكام المناسك» طبع في أم القرى سنة ١٣٤٥هـ. وأهداه إلى الملك عبد العزيز بأبيات شعرية، ورسالة في «الردّ على مدّع للخلافة» نشرت في جريدة أم القرى (٤/ ٦/ ١٣٤٥)، توفي سنة ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م رحمه الله تعالى.
قال الهلالي عنه في «دواء الشاكين» (٢٢): «كان آية في الأدب العربي وعلوم الدين، وكان طاعنًا في السن، ولكنه يستحضر كل ما قرأه بألفاظه غالبًا، فيقول ـ مثلًا ـ قال المؤلف الفلاني في الكتاب الفلاني في الصفحة الفلانية ما نصه، ويمليه عن حفظه».
ترجمته في «علماء نجد خلال ثمانية قرون» (٤/ ١٣٨ ـ ١٥٠)، «الأعلام» (٤/ ٩١)، «طلائع الأنوار في تراجم علماء السلف الأبرار» (٢/ ٢٣٨ ـ ٢٤٢).

(١) للهلالي مقالة نشرت في مجلة «لسان الدين» التطوانية، السنة الرابعة، الجزء العاشر، ذو القعدة ١٣٦٩هـ ـ سبتمبر ١٩٤٩م (ص١٧ ـ ١٩) بعنوان (مدرس يقول: الأرض ليست كروية بل هي مسطح كسطح المسجد!).
وطوّل في سردها والكلام على المسألة في «دواء الشاكين وقامع المشككين» (ص١٩ ـ ٢٢)، فلتنظر فيه.

(٢) سيأتي بيانه.

(٣) سيأتي بيانه. =

بليهد سألوه: هل الأرض كرة أو سطح؟ فقال: لا يقول أحد بأنها كرة إلا المعطلة الذين ينفون استواء الله على عرشه. فقالوا: إن مراقب التدريس محمد تقي الدين الهلالي ورفيقه محمد بن عبد الرزاق يقولان بذلك، فغضب غضبًا شديدًا.

فلما جئنا لزيارته رحَّب بنا، ثم قال: محمد ومحمد هؤلاء المدّعون للعلم من أهل الأمصار يزعمون أن الأرض كرة، ولا بد أن تكون لهم شبهة وأنتما تعلمانها فأخبراني بها، فقلنا له: سلَّمك الله؛ إن أقوى ما يستدلون به على كروية الأرض اختلاف الليل والنهار، فإن

= وقال في مقالته المنوّه بها قريبًا عمن ينكر (كروية الأرض):

«ولعمري إنها جناية متنوعة: جناية على القرآن وكذب عليه، وجناية على العلم، وجناية على المدرسة، وجناية على الطلبة، وجناية على الأُمَّة.

وقد قرّرَ علماء الإسلام ـ منهم الغزالي وابن حزم والشيرازي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم ـ أنَّ الأرض كرة، وقال بعضهم: إن مَن نَسَبَ إلى القرآن أنه نفى كون الأرض كرة؛ فقد جَنَى على الإسلام أعظم جناية، وصد الناس عنه؛ لأن علماء الفلك من المسلمين وغيرهم قد تحقّقوا أنها كرة.

فإذا سمع أهل الملل الأخرى أن القرآن يقول: إن الأرض ليست كرة؛ يضطرون إلى تكذيبه، ويكون الإثم على الفقيه الجاهل الذي يخوض فيما لا يعنيه، بل يُعنيه ـ بضم الياء ـ، ويقفو ما ليس له به علم ويضل الناس.

وكونها مسطوحة لا ينافي كونها كرة؛ إذ معنى سطحها أنَّ الله جعلها مهادًا وفراشًا وقرارًا وبساطًا؛ أي: صالحة للسكنى.

والقرآن الكريم قد اشتمل على علوم كثيرة منها علم الفلك؛ فلا يجوز للجاهل أن يفسره برأيه؛ فقد ذكر ﷻ إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وتكوير كل منهما على الآخر، وأن النهار يسلخ من الليل.

ولا يمكن فهم شيء من ذلك إلا بمعرفة أن الأرض كرة؛ إذ لو لم تكن كرة لما اختلفت الأقطار؛ فكان في أحدها ليل وفي غيره نهار في وقت واحد...» إلى آخر كلامه.

الشمس حتى في القطر الواحد تختلف في الشروق والغروب، ويبلغ اختلافها في القطر الكبير إلى ساعة بين مشرق ذلك القطر ومغربه، ومثال ذلك: أن الشمس تشرق في الرياض قبل المدينة بنحو نصف ساعة، وتغرب في الرياض قبل المدينة بمثل ذلك، وقلنا له: واستدلوا على ذلك أيضًا بأنَّ المسافر في البحر أول ما يرى من سفينة مقبلة رءوس أعمدتها المعروفة بالصواري، ثم كلَّما دنت انكشف له الجزء الأسفل من العمود حتى تنكشف له السفينة كلها، وإذا كان في البر مقبلًا على بلد فيه نخل فأول ما يرى رؤوس النخيل، ثم كلما تقدم انكشف له الأجزاء السفلى إلى أن ينكشف النخيل كله، وكان عندنا دليل آخر هو أوضح من هذا كلِّه، ولكن خفنا أن نذكره له؛ وهو أن المسافر إذا سافر إلى الشرق على خط مستقيم أو شبه مستقيم واستمر في وجهته لا يغيرها يرجع إلى البلد الذي سافر منه، فلما سمع كلامَنا غضب غضبًا شديدًا، وقال: هذا كلام المعطِّلة، فتوبا إلى الله منه، ولم يقصدوا بهذا الكلام إلا أن يقولوا: لا إلٰه فوق العرش! وتشفَّى فينا المدرِّسون وكثر لهطهم وأخذوا يضحكون علينا، فقال بعضهم ـ يعنينا ومن يقول بقولنا ـ: هؤلاء القوم ليس لهم عقول؛ لو كانت الأرض كرة سابحة في الفضاء، فلماذا لم تنصبّ هذه البحار ومياه الآبار؟ ولماذا لم تسقط الصخور والأحجار وكل ما على الأرض من حيوان وإنسان؟! وعلى قول هؤلاء يمشي الناس على وجه الأرض ورؤوسهم إلى أسفل! وكان المدرّسون يبغضوننا؛ لأنهم كانوا يمرون بآيات التوحيد وأحاديث التوحيد مرور الكرام باللغو، فلا يبيِّنون للناس توحيد الربوبية وتوحيد العبادة وتوحيد الأسماء والصفات، فكنت أدعوهم إلى المراقبة وأعظهم وأحذِّرهم من وعيد من كتم علمًا، ولكنهم كانوا مصرّين على حيدتهم إلا من سأذكره فيما بعد.

فانصرفتُ من عند الشيخ عبد الله بن بُلَيْهِد نادمًا على زيارته، ومع أنه التمس مني أن أتعشى معه مدة رمضان لكني لم أزره بعد ذلك. فجلتُ جولةً في الكتب وكانت كثيرةً عندي، لأن خزانتي كانت قد وصلت إلي من العراق، وهي حافلة بأصناف الكتب، وأصل هذه الخزانة خزانة الشيخ علي بن سليمان القصيمي الذي كان ساكنًا بالدورة إلى أن توفِّي رحمة الله عليه، فوصلتُ أنا الدورة بعد وفاته فوهبنيها ورثتُه بإشارةٍ من كبيرهم الشيخ حسن بن علي، قالوا: لأنه ليس فينا ـ لسوء الحظ ـ من يستطيع الانتفاع بهذه الكتب، ونحن نريد أن نهبك إياها رجاء أن ينفع الله بثواب هذه الهبة والدنا، ولا تزال عندي بقايا من هذه الخزانة، وبعضها تلِف بالنَّقل من بلد إلى بلد، وبعضها تلف بالبلى والقِدَم(١).

(١) في هذا الكلام فائدة مهمة في مَآل مكتبة الشيخ علي بن سليمان بن حلوة آل يوسف القصيمي، صاحب «أربح البضاعة في معتقد أهل السنة والجماعة»؛ وهو من وفيات سنة (١٣٣٧هـ)، وله ترجمة مطولة في «علماء نجد خلال ثمانية قرون» (٥/ ١٩٥ ـ ٢٠٠).

وهو كذلك مفيد غايةً في مآل مكتبة الهلالي، وأنَّ قسمًا مما جمعه من الكتب في العراق وصل إليه وهو في المدينة، وما قاله أخونا البحاثة أحمد العلاونة في كتابه «العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم» (١٨٢) عن مكتبة الهلالي: «آلت مكتبته إلى كلية الشريعة بفاس، وأُدخلت ضمن مكتبة كتبها» ولم يزد على ذلك، والحق أن الهلالي ـ وهو في الزبير ـ آلت مكتبته إلى مدرسة النجاة بها، وآلت كتب مدرسة النجاة إلى مكتبة بابطين في الكويت، ومن بينها مجموعة من كتب الهلالي، ومنها ـ على سبيل المثال ـ «فتح الباري»، إذ وجد في (المجلد الرابع) منه رسالة أرسلت إليه من مصر بتأريخ ٨/ إبريل/ ١٩٢٥م من مجهول، ولعله إسماعيل بن محمد الصيفي، ومنها أيضًا «الإصابة في معرفة الصحابة» إذ وُجد في (الجزء الأول) منه رسالة أرسلت إليه من خالد السند مؤرخة بـ ١٦/ ربيع الثاني/ ١٣٤٥هـ، ومصورتهما في كتاب «وثائق مكتبة مدرسة النجاة الأهلية بمدينة الزبير في مكتبة البابطين المركزية =

فوجدت أن شيخ الإسلام أبا العباس أحمد بن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ ذكر هذه المسألة في «الرسالة العرشية» ووضَّحها كل التوضيح، فبعدما بيَّن أن الأجرام السماوية كلها كروية الشكل ذكر الأرض وأخبر أن كل جهاتها فوق، والتحت إنما هو وسط جوفها، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلو وضعت حجرًا في المشرق وحجرًا في المغرب ولم يجد مانعًا من النزول هذا من المشرق وهذا من المغرب حتى يجتمعا في مركز الأرض، ولو جعلت بدل الحجرين إنسانين أحدهما يخترق الأرض من المشرق والآخر يخترقها من المغرب لالتقت أقدامهما في المركز[1]»، فخططتُ بالقلم الأحمر على هذا الكلام وبعثته إلى الشيخ عبد الله بن بُلَيْهد، فبلغني أنه ازداد غضبًا وقال: يا عجبًا للهلالي! يريد أن يُعرِّفني بما في كتب الشيخين؛ إن كلام الشيخين لا يفهمه كلُّ الناس، لأن فيه إطلاقًا وتقييدًا وخصوصًا وعمومًا وإجمالًا وتفصيلًا، وأنا أشتغل بدراسة كتب الشيخين منذ كنت مثل هذا الورع، وأشار إلى صبي صغير (وأهل نجد يسمون الغلام ورعًا). ثم أخذت أبحث في كتاب «مفتاح دار السعادة» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوجدته نص على أن الأرض كرة نصًّا لا يحتمل تأويلًا[2] وعلَّل اختلاف الليل والنهار في البلدان المختلفة بكروية الأرض، فبعثته

= للشعر العربي» (ص١٥٢، ٣١٠)، وله في «مقالاته» إفاضات عن مكتبته، والذي يبدو أن ما تركه من كتب بعد استقراره في المغرب آل بعضها إلى كلية الشريعة بفاس، والله أعلم. وصرح الهلالي أنه قدم بعض كتبه إلى جمعية الطالب المغربية في مدرسة الأميرة عائشة، مع التنويه أن مكتبته التي كانت في المدينة شحنت إلى المغرب على نفقة الملك فيصل، أخبرني بذلك بعض أعيان المدينة النبوية.

(١) هذا معنى كلام ابن تيمية، وعبارته في «الرسالة العرشية» (ص٢٤)، فلتنظر.

(٢) عبارته فيه (٢/ ٢١٢): «والأرض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب».

إليه مع الشيخ محمد بن عبد الرزاق، فلما أعطاه الكتاب قرأ كلام ابن القيم مرارًا، ثم قال له: إن كانت الأرضُ كرةً في الجهة الأخرى التي لسنا فيها، فذلك ممكن أن الجهة التي نحن فيها فنحن نشاهدها سطحًا، وسَكَنَ غضبُه عليَّ ولكن لم يعترف، ثم لقيتُ بعد ذلك الشيخ الجليل مقدَّم آل الشيخ وكبيرهم وعالمهم في عصره؛ أعني: الشيخ محمد بن عبد اللطيف[(١)] رحمة الله عليه، فقال لي: بلغني ما وقع بينك وبين ابن بُلَيْهِد وهو مخطئ، وإياك أن تعتقد أن علماء أهل نجد كلهم على رأيه، فإن عندي ثلاثة كتب للشيخين في كل واحد منها ما يكفي ويشفي للدلالة على أن الأرض كرة.

الشيخ الطَّيِّب التَّنبكْتي

تقدم أن المدرسين كانوا يحيدون عن بيان الحق في مسائل التَّوحيد، وكانوا يتعصَّبون لمذاهبهم كلَّ التَّعصب، وكان الشيخ الطيب ـ رحمة الله عليه ـ حين جئنا إلى المدينة أنا ورفيقي الشيخ محمد بن عبد الرزاق ـ المصري مولدًا ونشأة، السعودي مستوطنًا ودارًا ـ نسأل الله له الشفاء، كان الشيخ الطيب[(٢)] متمسِّكًا بالطَّريقة القادرية وبعقيدة

(١) هو محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولد بالرياض عام ١٢٧٣هـ، ونشأ بها، وطلب العلم على عدد من شيوخها وجدّ واجتهد، حتى صار له يد طولى في التوحيد والتفسير والحديث والفقه وعلوم العربية، حتى عدّ من كبار علماء وقته، وآلت بعض مكتبته إلى المكتبة السعودية بالرياض، وفيها أجزاء خطية من مخطوط «التمهيد» لابن عبد البر، توفي عام ١٣٦٧م، رحمه الله تعالى.
ترجمته في «علماء نجد خلال ثمانية قرون» (٦/ ١٣٤ ـ ١٣٩)، وهو جدّ سماحة الشيخ عبد العزيز مفتي المملكة العربية السعودية الآن.

(٢) هو محمد الطيب بن إسحاق بن الزبير بن محمد الأنصاري الخزرجي المدني، =

المتأخِّرين من الأشعرية ومتعصِّبًا للمذهب المالكي، وكان لا يطيل الجلوس معنا، ولكنه كان يبعث إلينا تلميذه الشيخ عبد الله بن محمود، وكان في ذلك الوقت شابًّا لم تستدر لحيته، وكان يأتينا كلَّ يوم بمسائل يلقيها علينا فنجيبه عنها، فيحمل الجواب إلى أستاذه، ومضى على ذلك مدة تقارب ستة أشهر، وعند ذلك جاءنا الشيخ الطيب وقال لنا: إنني فكَّرتُ في أجوبتكما فوجدت أن ما تدعوان إليه هو الحقَّ وأشهدُكما أنِّي تركت كلَّ ما كنتُ عليه من طريقةٍ وعقيدةٍ أشعريةٍ وتعصُّبٍ للمذهب، ففرحنا بذلك فرحًا عظيمًا.

وكان المدرِّسون من أهل المدينة يأخذون ستة دنانير ذهبًا أو

= مالكي المذهب، شهر بـ (الطيب التنبكتي) نسبة إلى (تنبكتو) التي تقع على نهر النيجر، ولد فيها سنة ١٢٩٦هـ، وهناك نشأ وتربى، وتعلم، وهاجر وبعض أقاربه إلى المدينة النبوية سنة ١٣٢٣ بعد احتلال الفرنسيين للمناطق التي كان يسكنها، وذهب إلى مكة وتلقى العلم خلال عام أو قرابة عام على علمائها.

له عدة مؤلفات، منها: «الدرة الثمينة» نظم بها «شذور الذهب» وألفه لصغار طُلَّابه عام ١٣٢٥هـ، و«البراهين الواضحات في نظم كشف الشبهات» طبع في مطبعة جريدة المدينة، و«السراج الوهاج في اختصار صحيح مسلم بن الحجاج»، و«التحفة البكرية في نظم الشافية» لابن الحاجب، توفي سنة ١٣٦٣ ـ ١٩٤٤، ودفن بالبقيع.

له ترجمة في «شخصيات متميزة في مجتمع المدينة المنورة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري» (١/ ١٧٩ ـ ١٨٨)، «معجم المؤلفين» (١٠/ ١٠٨)، «الأعلام» (٦/ ١٧٨)، ونُشِر في جريدة «الرياض»، العدد (١٧٠٩٨)، يوم الجمعة ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ ـ ١٧ إبريل ٢٠١٥ م، مقال بعنوان (عالم ومجدد بارز وأحد أبرز علماء المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري) وفيه: «وما أن حلَّ العام ١٣٤١هـ! إلا وعيِّن محمد الطيب رئيسًا لمدرسي المسجد النبوي»!!

ثم يسر الله ﷻ لي الوقوف على ترجمة له بخطه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ما يعادلها بسعر الوقت أريلة فضية، وكنا نحن نأخذ عشرة دنانير لكلّ واحد منا، فكتبنا إلى ولاة الأمر ـ رحمهم الله ـ وقلنا لهم: إن الشَّيخ الطيِّب الأنصاري التَّنبكتي ترك ما كان عليه ورجع إلى عقيدة السلف، فنرجو أن يُعطى راتبًا كرواتبنا. فجاء الجواب بالموافقة ـ وقد نسيت الآن: هل كتبنا للملك عبد العزيز نفسه أو لمن دونه ـ وصار يأخذ عشرة دنانير ذهبًا، وكانت المعيشة في المدينة رخيصة تكفي أهل البيت بعيالهم وضيوفهم ثلاثة دنانير في الشهر يعيشون بها عيشة راضية، وثبت الشيخ الطيب على العقيدة السلفية إلى أن جاءه الأجل، فرحمه الله رحمة واسعة، وقد أخبرني بعض الإخوان أنه اختصر «تفسير ابن جرير»(١)، وأن اختصارَه هذا موجودٌ، فنسأل الله أن يوفِّق أهل الفضل والإحسان وفي مقدمتهم إمامهم جلالة الملك فيصل لطبع هذا الكتاب.

الشيخ محمود شُوَيّل

لما وصلنا إلى المدينة كان الشيخ محمود شُوَيْل(٢) خرافيًّا

(١) اسمه «تحبير التحرير في اختصار تفسير الإمام ابن جرير»، قال الزّركلي في «الأعلام» (٦/ ١٧٨): «هُيِّئَ للطبع».
وعرَّف به منصور العساف في مقالته المنوّه بها في جريدة «الرياض» بقوله: «في عدة مجلدات، بدأ به أثناء تدريسه لـ «تفسير ابن جرير» في المسجد النبوي، والذي وصل فيه إلى سورة ﴿قَدْ سَمِعَ﴾».

(٢) هو مدني، ولد بالمدينة سنة **١٣٠٢هـ ـ ١٨٨٥م**، مصري الأصل، قام برحلات عديدة وطويلة إلى إسبانيا وتركيا وبخارى والهند، وأذن له في التدريس بالحرم المدني سنة **١٣٢٧هـ**، فاستمر إلى آخر حياته، وولي نيابة القضاء، وكان من أهل الدعوة للإصلاح معوانًا لذوي العون، له رسائل مطبوعة، منها «القول السديد في قمع الضال العنيد»، و«منزلة الحديث من الدين»، وله مع الشيخ الهلالي مصاهرة، مات بالمدينة سنة **١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م**، ترجمته في «ماذا في =

ومتعصِّبًا للمذهب المالكي أشدَّ التعصُّب، كنا نفطر صباحًا في بيتي فأخذ يذكر فضائل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ويدَّعي أنه لا نظير له في الأئمة ولا أحد يكاد يبلغ منزلته في العلم والفضل، فقلت له: إن البخاري أعلم منه لأن كل حديث صحيح رواه مالك يعرفه البخاري ويزيد على ذلك بآلاف الأحاديث، فغضب غضبًا شديدًا وترك الأكل وقال في البخاري كلامًا قبيحًا لا يحسن ذكره، واستمر على مجالستنا إلى أن تخلَّص من عقيدته وخرافاته وتعصُّبه للمذهب، وأخبرتُه بوجود شيخ سلفي من كبار العلماء له تآليف وهو الشيخ حسن عبد الرحمٰن، من أغنياء مصر، له مزارع كثيرة بين دمنهور والإسكندرية، لا أذكر اسم بلدته الآن، فكتب إليه الشيخ محمود شُوَيل يلتمس منه شيئًا من كتبه التي ألَّفها في الدعوة إلى السلفية، وقال له في كتابه إليه: الشيخ محمد بن عبد الرزاق والشيخ محمد تقي الدين الهلالي وثالثهم كلبهم محمود شُوَيل. فبعث إليه الشيخ حسن عبد الرحمٰن رحمة الله عليه ما طلب من الكتب، وقال له في جواب كتابه ما نصه: يظهر أنك داخلٌ في المقدَّر من جديد، لأن المؤمن لا ينزل بنفسه إلى أن يصير كلبًا، وبالغ الشيخ محمود شُوَيْل في التمسك بالتوحيد والسنة، وكانت فيه حدة شديدة، فأخذ في كل يوم يتخاصم مع الناس إذا سمعهم يشركون بالله أو يبتدعون في الدين، فكثرت به الشكايات إلى الأمير فاتخذه مستشارًا علميًّا ليشغله عن الخصومات، ولكن ذلك لم يمنعه مما كان عليه من الشدة حتى نفي إلى نجد أكثر من مرة.

= الحجاز» (٣٧)، جريدة «البلاد» السعودية بتأريخ ١٣٦٣/٦/٢١هـ، أفاده الزركلي في «الأعلام» (٧/ ١٧٤).

الخروج إلى البادية

كنت قد طلبتُ من الشَّيخ عبد الله بن حسن[1] رئيس القضاة ـ تغمده الله برحمته ـ أن أخرج إلى القرى والبوادي للدعوة إلى الله تعالى في بعض الأحيان، فاستحسن ذلك كلَّ الاستحسان، وأمر الأمير عبد العزيز بن إبراهيم[2] أن يهيّئ لي راحلتين ورجلًا يرافقني فأجاب إلى ذلك، ووعد به، فلما طالبته بالوفاء اقترح عليَّ أن أذهب إلى الجرف[3] والعوالي[4] ولم يكن غرضي ذلك، لأن أهل هذه القرى شيعة لا يكادون يقبلون شيئًا من واعظ سُنِّيٍّ، وإنَّما كان مرادي التوجُّه إلى البوادي السُّنيَّة في ناحية الحناكية[5] وغيرها من قبائل حرب وكان بعضهم متديِّنًا، وبعضهم لا يزال على الجاهلية الأخرى، فأخبرتُ بذلك الأمير فقال: ابدأ بالأقربين وبعد ذلك أهيّئُ لك السفر إلى غيرهم، واخترت الشيخ الحميدي بن رديعان[6] ـ أحد الأئمة في المسجد النبوي، وكان شيخًا صالحًا من أهل حائل ـ لمرافقتي، فذهبنا إلى القرى المحيطة بالمدينة فلم نجد أحدًا منهم تأثر بدعوتنا إلا رجلًا في الجرف وأظنه كان سنِّيًّا، أما الباقون فإنهم كانوا يضيفوننا ولا يظهر عليهم أثرٌ لقبول وعظنا.

---

(١) مضت ترجمته.

(٢) مضت ترجمته.

(٣) الجرف: حي من أحياء المدينة، يقع في شمالها.

(٤) العوالي: يقع في جنوب المدينة بالقرب من مسجد قباء.

(٥) عرف بها في «الديوان» (٦٤٥) بقوله: «هي قرية شرقي المدينة على نحو أربعين ميلًا».

(٦) الحميدي لقب عرف به منذ صغره، وهو تصغير من محمد، وهو ابن عبد العزيز بن صالح بن عمر الرديعان، ولد ١٢٨٦هـ ومات ١٣٦٨هـ، أول من تولى الإمامة بأمر من الملك عبد العزيز آل سعود واستمر حتى نهاية سنة ١٣٤٥هـ.

وكرَّرتُ الطَّلبَ على الأمير أن يهيّئ لي أسباب السفر إلى الحناكية ونواحيها فكان يماطل، فاتفقتُ مع الأمير ماجد بن موقد أمير عوف[1] القاطن في قرية النَّخيل، وسافرتُ معه إلى النَّخيل بدون استئذان الأمير، وبقيتُ هناك زهاء شهر[2]. وأشهد بالله أنني ما مرتْ عليّ في حياتي كلِّها

(١) زاد في «الديوان» (٦٤٥): «وهي إحدى قبائل حرب».

(٢) في «الديوان»: «وألقيتُ دروسَ وعظٍ في نواحي مختلفة، وغبتُ نحو عشرين يومًا عن المدينة، ورأيتُ أهل تلك النواحي إلى قسمين: قسم متدينين، يُسمّون (الإخوان؛ إخوان مَن أطاع الله)، وهم مُوحِّدون، محافظون على الصَّلوات في أوقاتها بالجماعة، لا يتخلف عنها أحدٌ من الصِّبيان البالغين سبع سنين إلى الشيوخ، ومَن غاب عن صلاة الصبح والعشاء بلا عُذْرٍ؛ يُعاقب بالتَّوبيخ أمام الجماعة.

والعادة أنَّ الإمام يتفقد أهلَ القريةِ ـ كلَّهم ـ في هذين الوقتين؛ فينادي عليهم بأسمائهم مُبتدئًا بالأمير؛ فيقول: فلان؟ فيجيبه: (سم)؛ أي: سم الله، ويقصد بذلك أنا حاضر، فإذا نادى على أحدٍ ولم يُجِبْ يقول له بعضهم: (سموح)، بمعنى أنه بات خارج القرية، وفي ذات صباح نادى على صبيٍّ فلم يَجدْهُ حاضرًا، وكان معلومًا عندهم أنه نام مع أمه في بيتها؛ فبعد صلاة الصبح يلقي الإمامُ درسًا في التوحيد وأمور الدين في مضيف الأمير، ويشربون القهوة عنده، وبعد ذلك بعث الأمير إلى أمِّ الصبي فسأل عنه؛ فقالت له: إنها أيقظته قبل الفجر فتوضأ وذهب إلى المسجد؛ فاقتفوا أثره، فوجدوه نائمًا في الطريق!».

قلت: سيأتي في (القصيدة التائية) في (البيت التاسع) أنه مكث سبعة عشر يومًا، وهو نحو (العشرين) وأدقُّ من (الشهر). وممن استفاد من الشيخ الهلالي في النخيل: مشعان بن غانم بن سعد بن موقد العوفي الحربي (١٣٢٨ ـ ١٤٢٥هـ)، الذي أصبح أميرًا للنخيل وشيخًا لقبيلة عوف، وعهدت له الإمارة عام ١٣٤٤هـ، درس على الشيخ الهلالي القرآن والتفسير وبعض الفنون العلمية الأخرى، وكانت له جهود دعوية كبيرة في إمرته، أفاده ولده خالد في (٢٨/ ٩/ ١٤٢٥هـ)، انظر «محمد تقي الدين الهلالي وجهوده في الدعوة إلى الله» (ص٤٢ ـ مرقومة).

أيام صفا فيها قلبي وازداد إيماني وإقبالي على ذكر الله تعالى مثل تلك الأيام. وكانتْ معيشتهم في غالب الأوقات ـ بل في كلها ـ اللبن المخيض فقط؛ إلا إذا جاءهم ضيف فإنهم يذبحون له ذبيحة ويبحثون عن شيء من الأرز من أردأ أصنافه فيطبخونه نصف طبخ فلا أستسيغه، وكذلك اللحم يطبخونه نصف طبخ، ولكني كنت آكل من الألية لأنها تنضج بأدنى طبخ، ومع ذلك كانت عندي تلك المعيشة أحسن من موائد الأمراء والمترفين، وسأشير إلى ذلك في القصيدة الآتية إن شاء الله.

ولما سمع الأمير بسفري غضبَ غضبًا شديدًا، ولعنني ولعن قبيلة بني هلال كلها ـ توهمًا منه أنني أنتسب إليها، وأنا إنما أنتسب إلى هلال وهو الجد الحادي عشر من ذرية الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما ـ وقال للشيخ محمود شُوَيل: يا محمود! قل له إذا رجع لا يمسك ورقةً ولا يجلس في المسجد، وقل لمحمد بن عبد الرزاق لَا يجعله نائبًا عنه في الصلاة أبدًا. فلما رجعتُ زرتُه ومعي الأمير ماجد بن موقد وأخبرتُه أنَّ رحلتي إلى النخيل كانت بإذنٍ وحثٍّ وترغيبٍ من رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن حسن، وهو يعلم ذلك. فلم يقل شيئًا.

واستمرَّ الأمر على تلك الحال مدة سنتين، فضاق الأمير بنا ذرعًا ونفد صبرُه، فدعانا ذات يوم إلى قصره بعد صلاة الظهر، وكانت العادة أن تكون الضيافة في الطبقة الأولى، ولكنه صعد بنا إلى الطبقة الرابعة التي يسكن فيها عياله، ووضع لنا تمرًا وجُحًّا ـ وهو الحبحب[1] بلغة أهل الحجاز ـ ولبنًا، وقال لنا: هذا طعامنا معشر أهل نجد في النهار،

(١) قال في «الديوان» (٢١٦): «البطيخ الأحمر، ويسميه أهل نجد: (الجح)، وأهل الحجاز: (الخربز)، وأهل الموصل: (الشمزي)، وأهل بغداد: (الرقي)، وفي المغرب يسمى (الدلاح) وله أسماء أخرى.

ثم قال: أنا ما دعوتُكما للطَّعام، ولكن دعوتُكما لأخبركما بأني لا أشك في صحَّة عقيدتكما، وأنكما تريدان الخير، ولكنكما تجاوزتما الحدَّ في الشِّدَّة، وأنتما تسمعان كلام الملِك في مجالسه العامة وتفهمان منه شيئًا، ونحن نسمع كلامه في المجالس الخاصة وفي الرسائل الخاصة ونفهم منه شيئًا آخر، فعلى أيِّ شيء نعمل: على فهمنا أم على فهمكما؟! فقلنا له: إن كان الأمر كذلك ينبغي أن تعملوا على فهمكم. فقال: إذًا فتلطَّفا واتركا الشِّدَّة. وكلامًا طويلًا من هذا القبيل، ثم انصرفنا من عنده.

وكان يعني بالكلام الذي يقوله الملك في المجالس العامة: ما كان يلهج به ـ رحمة الله عليه ـ إذا اجتمع عنده مشايخ العلم، وهو قوله: أيها العلماء! مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فقد أخذتُ هذه الأمانة من عنقي ووضعتُها في أعناقكم، وأول من تبدؤون به في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنا ثم أهل بيتي ثم عامة الناس.

فلم نصدِّقه في قوله، واعتقدنا أنه أراد أن يخدّر أعصابنا بذلك الكلام الباطل، واستمررنا على خطتنا، فتهيَّأ هو للانتقام، وعرف ذلك أخوه العالم الصالح الشيخ محمد بن إبراهيم رحمة الله عليه، فدعانا وقال لنا: أُشهد الله على محبَّتكما، وكأنه يتنصَّلُ بذلك ويتبرَّأ مما يبيِّته أخوه، وكذلك العالم الورع الشيخ عمر بن سَلِيم[1] رحمة الله عليه حذرنا من مكايد الأمير.

(١) ولد في بريدة سنة ١٢٩٩، واعتنى به أبوه، فدرس عليه، ثم أرسله إلى الرياض يدرس عند الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، وبلغ من العلم مبلغًا كبيرًا، ثم تولى إمامة مسجد في بريدة، ثم عيّن في قضاء بريدة وخطابة الجامع وإمامته بأمر من الملك عبد العزيز، وتوفي عام ١٣٦٢هـ، رحمه الله رحمة واسعة، ترجمته في «علماء نجد خلال ثمانية قرون» (٥/ ٣٢٩ ـ ٣٣٥).

فأما الشيخ محمد بن عبد الرزاق فكاد له كيدًا عظيمًا، وكان ـ والحق يقال ـ أشدَّ وأعنفَ عليه منِّي، وذلك أنه كتب إلى الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إن محمد بن عبد الرزاق لا يطاق بقاؤه، فقد كرهه سكان المدينة لغلظته وشدَّته، وبلغ به التَّهورُ إلى أن وقف على المنبر، وقال: (لعنة الله عليكم يا أهل المدينة كلكم كفَّار)! وهذا بهتان عظيم، فإني كنت جالسًا عند المنبر أستمع الخطبة التي زعم أنه قال ذلك فيها، وكانت من خطب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بدون زيادة إلا ما جرت به العادة من الدعاء في آخر الخطبة الثانية، فجاءت برقية من الملك تأمر الشيخ عبد الرزاق بالتوجُّه إلى مكة ليكون واعظًا في المسجد الحرام كما كان من قبل(١).

أما أنا؛ فكتب في شأني إلى المَلِك عبد العزيز وأخبره أنِّي مشوِّش منفِّر، قال: ولم يكفه إطلاع الإخوان الذين يزورونه في المدينة، على ما يزعم أنه من تقصير الحكومة؛ حتى سافر إليهم في النَّخيل، وجرَّأهم على انتقاد ولاة الأمر(٢). وكان سبب غضبه عليَّ أنه لم يكن يريد أن أتَّصل بقبائل حرب؛ لأنهم كانوا يشتكون غلظتَه وشدَّتَه وظُلمَه في أخذ الزكاة وغيرها من الأحكام، فظنَّ أنني ذهبتُ لأعرف ما ينتقد عليه وأكشفه، ويعلم الله أنِّي كنتُ في وادٍ وهو في وادٍ، وأن الوقت الذي

(١) في «الديوان» (٤٧٧): «وصار كما كان من عامّة الوعّاظ في المسجد الحرام».

(٢) قال في «الديوان» (٢١٦ ـ ٢١٧) بعد كلام: «فعندئذ عمد إلى السلاح الوحيد الذي ظنَّ أنه ينتصر علينا به، وهو (الوشاية)؛ فكان له ما أراد، فكتب إلى الملك وكذب علينا أكاذيب عظيمة؛ منها: أنني أنا من المسببين لثورة (الدويش) وسلطان بني بجاد؛ فإنِّي أُخبرُ أهل البادية بتفسير الحكومة في أمور الدين، وأنِّي من المتآمرين، وكذب على صاحبي أكاذيب أخرى، ولو ذهبتُ أُفصِّلُ ما جرى بيننا وبينه لطال القول».

قضيته عندهم كان كلُّه في ذكر الله ومجالس العلم والوعظ والإرشاد، ولم أر مدة إقامتي عندهم منكرًا، حتى تمنّيتُ أنني أبقى عندهم في ذلك الجوِّ الرباني الصَّافي من كل الأكدار، ولم أفكر قط في التدخل في شؤون الأمير.

ولما كتب بذلك إلى الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، انتظر أن تأتيني برقية تدعوني إلى مكة كما وقع لرفيقي، فلم يأتني شيء، فأمر وكيل المالية الشيخ عبد العزيز الخريجي أن لا يدفع لي راتبًا، وحان وقت الحجِّ فمرّ بنا الشيخ محمد بن عبد اللطيف ـ رحمة الله عليه ـ فسافرت معه إلى مكة، وطلبتُ النَّقلَ إلى التدريس في المسجد الحرام، فأجابني إلى ذلك الشيخ عبد الله بن حسن وطيَّب خاطري بكلامٍ حسنٍ، أسأل الله أن يجزيه عنِّي خيرًا في دار القرار، وكان ذلك آخر العهد بالمدينة[1] إلى أن ردَّني الله إليها بدعوة من صاحب السَّماحة العالم الصالح الورع الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز قبل ثلاث سنين[2]، زاده الله من فضله وأعلى درجته وجعله من الصدِّيقين الأخيار.

---

(١) قال الشيخ عطية محمد سالم في «التراويح أكثر من ألف عام في المسجد النبوي» (ص٧٣) عن صديقه الهلالي: «الشيخ عبد الرزاق كان ينيبه عنه في بعض الصلوات خاصة في صلاة الصبح، ومكث سنتين بالمدينة المنورة ثم وقع نزاع بينه وبين أمير المدينة آنذاك... وقد سمعت من فضيلته أن سبب هذا النزاع هو الاختلاف في أسلوب الدعوة وتغيير المنكر بين الشدة واللين، وقد هجا بعض الأشخاص المسؤولين آنذاك لتراخيه في أمر العقيدة، وقد أملى علي أبياته في هجائه غير أني لم أرد ذكره لما فيه من التصريح باسمه، وقد توفي قريبًا رَحِمَهُ اللَّهُ فلا حاجة لذكرها بعد وفاته.
والجدير بالذكر أن زميله الشيخ عبد الرزاق كان سفره إلى مكة لنفس السبب».

(٢) كان ذلك لتدريسه في الجامعة الإسلامية، وكان يدرس التوحيد والتفسير وبعض مباحث اللغة العربية.

ذكر ما قلته من الشعر أيام[١] إقامتي الأولى في المدينة...

(اللامية):

أَصْبَحَ قَوْلُ[٢] الْحَقِّ فِي طَيْبَةٍ ... مِثْلَ يَتِيمٍ مَا لَهُ كَافِلُ
أَنْصَارُهُ مُسْتَضْعَفُونَ عَلَى ... قِلَّتِهِمْ وَضِدُّهُمْ صَائِلُ
مَنْ يَأْمُرَنْ بِالْعُرْفِ أَوْ يَنْهَ عَنْ ... نُكْرٍ يَغُلْهُ مِنْهُمُ غَائِلُ
يَكِيدُهُ زَعِيمُهُمْ مِثْلَ مَا ... يَكِيدُهُ السُّوقَةُ وَالسَّافِلُ
وَذَنْبُهُ عِنْدَهُمْ جَلَّ أَنْ ... يَشْمَلَهُ مِنْ عَفْوِهِمْ[٣] شَامِلُ
إِذْ كُلُّ ذَنْبٍ عِنْدَهُمْ دُونَ ذَنْـ ... ـبِ مَنْ يَغَارُ إِنْ بَدَا بَاطِلُ
وَيَرْمُقُونَهُ بَأَبْصَارِهِمْ ... شَزْرًا وَفِيهَا حِقْدُهُمْ جَائِلُ
وَإِنْ رَأَى شِرْكًا وَأَنْكَرَهُ ... بِالْقَوْلِ فَهْوَ الظَّالِمُ الْعَائِلُ
قَدْ عَكَسُوا حُكْمَ إِلَهِ الْوَرَى ... فِي الشِّرْكِ بِئْسَ الْفِعْلُ وَالْفَاعِلُ
اللهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ مَعًا ... وَهْوَ لِكُلِّ تَائِبٍ قَابِلُ
إِلَّا الَّذِي قَدْ جَاءَ بِالشِّرْكِ فَهُـ ... ـوَ آيِسٌ مِنْ عَفْوِهِ عَاطِلُ
لأَنَّهُ أَكْبَرُ ذَنْبٍ وَأَدْ ... هىٰ مُنْكَرٍ يَعْمَلُهُ الْعَامِلُ
إِنْكَارُهُ التَّوْحِيدَ حَتْمًا فَمَنْ ... أَقَرَّهُ فَدِينُهُ بَاطِلُ[٤]
وَيَنْصُرُ الشِّرْكَ عَلَى عِلْمِهِ ... بِسُوءِ عُقْبَى مَنْ لَهُ مَائِلُ
إِنْ جَاءَهُ مُسْتَنْصِرًا صَالِحٌ ... شَاكٍ لَهُ لِنَصْرِهِ آمِلُ
قَدْ غَرَّهُ بِزَعْمِهِ أَنَّهُ ... مُحَقِّقٌ دِينَ الْهُدَى كَامِلُ

---

(١) وجدت في (دفتر خاص) بالهلالي هذه القصيدة، وقبلها: «وقلتُ فيما اقتضى ذلك بالمدينة في **٢٠** من جمادى سنة **١٣٤٧هـ**».

(٢) في «الديوان»: «دِينُ».

(٣) أو (مَنْ عَفوهم).

(٤) في «الدفتر الخاص» هنا زيادة بيت، هو:

فكيف مَنْ يُنْكِرُ إنْكَارَهُ ... مُسْتَغْضِبًا إنْ عَذَل العَاذِلُ

يَكُنْ كَمَنْ قَدِ اسْتَجَارَ بِعَمْـ ... ـرٍو فَأَتَاهُ حَتْفُهُ الْعَاجِلُ
يَأْمُرُ بِالرِّفْقِ وَبِاللِّينِ فِي ... حَقِّ الإِلَهِ صَفْحُهُ شَامِلُ
وَمَنْ يَرُمْ مِنْ حَقِّهِ ذَرَّةً ... فَهْوَ عَلَيْهِ ضَيْغَمٌ صَائِلُ
لَا سَامِعٌ عَذْلًا وَلَا رَاحِمٌ ... ضَعْفًا وَلَا شَكَاتَهُ قَابِلُ
يَسْلُبُ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعُرْفِ حَقْـ ... ـقًا قَدْ حَبَاهُ الْمَالِكُ الْعَادِلُ
وَيَسْتَبِدُّ بِالأُمُورِ مَعًا ... حَتَّى الْقَضَا فَهْوَ بِهِ دَاخِلُ
إِنْ وَافَقَ الْحُكْمُ هَوَاهُ مَضَى ... أَوْ لَا يَحُلْ مِنْ دُونِهِ حَائِلُ

قصة ابن منصور(١):

وَيْحَ ابْنَ مَنْصُورٍ غَدَاةً أَتَا ... هُ وَهْوَ لِانْتِصَارِهِ آمِلُ
الرَّافِضِيُّ خَصْمُهُ طَالِبٌ ... تَعْزِيرَهُ بِكَيْدِهِ عَامِلُ
الرَّافِضِيِّ قَالَ: يَا سَيِّدِي ... إِنَّكَ أَنْتَ الْحَاكِمُ الْفَاضِلُ
كُنْتُ أَسِيرُ فِي طَرِيقِ قُبَا ... وَشُرْبُ تَتْنٍ شُغْلِيَ الشَّاغِلُ
فَجَاءَنِي هَذَا بِظُلْمٍ فَقَا ... لَ أَلْقِ هَذَا التَّتْنَ يَا جَاهِلُ
قُلْتُ لَهُ: دَعِ الْفُضُولَ وَرُحْ ... مِثْلُكَ مَا أَنَا بِهِ حَافِلُ
تَنَاوَلَ التَّتْنَ وَأَلْقَاهُ مِنْ ... يَدِي فَبِي مِنْ فِعْلِهِ خَابِلُ
وَهَذِهِ يَا سَيِّدِي قِصَّتِي ... فَاحْكُمْ فَإِنَّ حُكْمَكَ الْفَاصِلُ
قَالَ الأَمِيرُ لابْنِ مَنْصُورٍ: هَلْ ... وَقَعَ مَا قَدْ قَالَ ذَا الْقَائِلُ
قَالَ: نَعَمْ سَلَّمَكَ اللهُ مَا ... ذَكَرَهُ فَكُلُّهُ حَاصِلُ
وَقَادَنِي لَكَ فَقُلْتُ لَهُ: ... تَسْعَى إِلَى حَتْفِكَ يَا سَافِلُ
وَالْيَوْمَ ظَنِّي فِيكَ أَنْ تُعْلِيَ الْـ ... ـحَقَّ وَأَنْ يَنْخَفِضَ الْبَاطِلُ
مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الأَمِيرِ سِوَى ... رُكُوبِ عَارٍ مَا لَهُ غَاسِلُ

(١) ستأتي نثرًا.

إِلَّا بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ، وَحُبْـ ... ـبُ الْجَاهِ سَدٌّ دُونَهَا حَائِلُ
تَنَاوَلَ الْعَصَا وَأَمْعَنَ فِي ... ضَرْبِ فَتًى عَنِ الأَذَى غَافِلُ
وَهْوَ إِمَامُ مَسْجِدٍ طَالِبٌ ... لِعِلْمِ حَقٍّ وَبِهِ عَامِلُ

ضَيم الحق:

خَدَشَ وَجْهَ الْحَقِّ فِي ذَلِكَ النْـ ... ـنَهَارِ حَتَّى دَمُهُ سَائِلُ
ضَرْبُ الْمُوَحِّدِ لإِرْضَاءِ ذِي الرْ ... رَفْضِ بَلاءٌ غَمُّهُ طَائِلُ
نَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ نُصْحًا لَهُ ... يَوْمَئِذٍ شَقِيقُهُ الْفَاضِلُ
قَالَ لَهُ خَفِ الإِلَٰهَ فَذَا ... أَمْرٌ عَظِيمٌ شَرُّهُ هَائِلُ
ضَرْبُكَ مَنْ يَأْمُرُ بِعُرْفٍ[1] فِي ... طَيْبَةَ لَا يَرْضَى بِهِ عَاقِلُ

فرح الفسَّاق وحزن أهل الحق:

يَا فَرْحَةَ الْفُسَّاقِ يَوْمَئِذٍ ... طُرًّا بِمَا ارْتَكَبَهُ الْعَامِلُ
وَحُزْنَ أَهْلِ الْحَقِّ إِنَّهُمُ ... مِنْ ذَا الْمُصَابِ كُلُّهُمْ ذَاهِلُ
وَذَا نَمُوذَجٌ لأَفْعَالِهِ ... وَجُلُّهَا عَنِ الْهُدَى مَائِلُ
تَلَوُّنُ الْحِرْبَاءِ فِي قَوْلِهِ ... وَفِعْلِهِ لَا حَبَّذَا الْفَاعِلُ
فَأَيْنَ رِفْقُهُ بَلَى إِنَّهُ ... لِلْمُجْرِمِينَ وَحْدَهُمْ شَامِلُ
لَكِنَّ أَهْلَ الأَمْرِ بِالْعُرْفِ لَا ... يَنَالُهُمْ مِنْ رِفْقِهِ نَائِلُ
رِفْقٌ بِذِي شِرْكٍ وَذِي بِدْعَةٍ ... وَذُو الرَّشَادِ لَيْسَ يَسْتَاهِلُ
وَحَسْبُهُ مِنْ رِفْقِهِ أَنَّهُ ... بِسَوْطِهِ لِرَأْسِهِ صَامِلُ[2]
كَأَنَّ ذَا الْمَغْرُورَ يَحْسَبُ أَنْ ... نَ اللهَ عَنْ أَعْمَالِهِ غَافِلُ
بَاعَ الْهُدَى بِعَرَضٍ عَاجِلٍ ... وَعَنْ قَرِيبٍ كُلُّهُ زَائِلُ
مَنْ بَاعَ بِالْعَاجِلِ آجِلَهُ ... يَفُوتُهُ الْعَاجِلُ وَالآجِلُ

---

(١) في «الديوان»: «بالعُرف».
(٢) صَمَله بالعصا صَمْلًا: إذا ضربه. (منه)

لَمْ يَعْتَبِرْ مَا قَالَ خَيْرُ الْوَرَى[1] يَا حَبَّذَا الْمَقُولُ وَالْقَائِلُ
مَنْ يُحْدِثُ الْحَدَثَ فِي طَيبَةٍ عَلَيْهِ لَعْنُ رَبِّهِ نَازِلُ
وَلَعْنَةُ الأَمْلَاكِ وَالنَّاسِ أَجْـ ـمَعِينَ قَدْ صَحَّحَهُ النَّاقِلُ
مَهْمَا أَتَى بِمُنْكَرٍ مُوبِقٍ يَقُلْ كَذَا أَمَرَنِي الْعَاهِلُ
وَإِنْ أَتَاهُ الأَمْرُ مِنْهُ بِإِصْـ ـلَاحٍ فَمَا هُوَ بِهِ عَامِلُ
مُعْتَذِرٌ بِأَنَّهُ قَدْ يَرَى الشْـ ـشَاهِدُ مَا يَجْهَلُهُ الرَّاحِلُ

تبرئة الإمام:

حَاشَا إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ فَلا يَرْضَى بِمَا يَفْعَلُ ذَا الْخَاتِلُ
قَوَّامُ لَيْلٍ خَائِفٌ رَبَّهُ فَوْقَ الَّذِي يَأْمَلُهُ الآمِلُ
ذُو ذِلَّةٍ عَلَى الأُلَى آمَنُوا وَعِزَّةٍ إِذَا اعْتَدَى الْجَاهِلُ
نُورُ الْهُدَى بِوَجْهِهِ لَائِحٌ مَا هُوَ مَخْسُوفٌ وَلا آفِلُ
مَنْ يَرَهُ بَدِيهَةً حَبَّهُ بَدْرٌ عَلَاهُ مُشْرِقٌ كَامِلُ
سُبْحَانَ مَنْ أَلْبَسَهُ حُلَّةً مِنْ فَضْلِهِ فَهْوَ بِهَا رَافِلُ
مِنْ مُعْجِزَاتِ الْمُصْطَفَى أَمْرُهُ لأَنَّهُ بِهَدْيِهِ عَامِلُ
يَا أَوْحَدَ الأَمْلَاكِ يَا أَوَّلَ السْـ ـسَبْعَةِ يَا مَنْ بِرُّهُ هَاطِلُ
عَبْدَ الْعَزِيزِ الْعَلَمَ الْفَرْدَ مَنْ عَزَّ بِهِ دِينُ الْهُدَى الْكَامِلُ
ابْنَ سُعُودٍ سَعِدَ النَّاسُ مُذْ بَدَا لَهُم فَغَمُّهُمْ زَائِلُ
تَشْكُو إِلَيْكَ طَيْبَةٌ أَمْرَهَا فَالدِّينُ فِيهَا مَا لَهُ كَافِلُ
أَزْكَى سَلَامٍ طَيِّبٍ كَامِلٍ إِلَيْكُمُ مِنْ رَبِّنَا وَاصِلُ

(١) يشير إلى ما أخرجه البخاري (١٨٦٧، ٧٣٠٦) ومسلم (١٣٦٦) عن أنس بن مالك رفعه: «**المدينة حرم من كذا إلى كذا، لا يقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدث، من أحدث حدثًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**».

يُـرْوَى عَـنِ الـرِّيَـاضِ عَـنْ زَهْـرِهَـا   إِلَـى الـرِّيَـاضِ طِـيـبُـهُ حَـامِـلُ[1]

(تمت)

التائية[2]

. . . .

(١) الأبيات في «الديوان» (٤٦٩ ـ ٤٧٦) وزاد عليها فيه أربعة أبيات، ووضع عليها عنوان (اعتذار)، هذا نصُّها:

لَوْ كُنْتُ سَحْبَانَ اللُّغَى لَمْ يَفِي   وَصْـفَـكَ مَـا أَنَـا لَـهُ قَـائِـلُ
مَا ضَرَّنِي النُّقصَانُ فِي مَنْطِقِي   وَحُبُّكُـمْ وَسْطَ الـحَشَا كَـامِـلُ
فَـدُمْ لِـدِيـنِ الْـحَـقِّ مُـنْـتَـصِـرًا   وَخَـاذِلًا لِـمَـنْ لَـهُ خَـاذِلُ
وَلِـلْـمُـلـوكِ شَـمْـسُـهُـمْ أَبَـدًا   وَلِـلْـعُـصَـاةِ الـصَّـيِّـبُ الْـوَابِـلُ

(٢) قال تحت هذا العنوان في «الديوان» (٢١٤):

وقلتُ في ليلة ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٤٧ في المدينة، وسببها ما تقدَّم من خُبثِ أمير المدينة عبد العزيز بن إبراهيم، وحبِّه للاستئثار بجميع الدوائر في المدينة؛ التعليم وأمور المساجد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان الملك عبد العزيز يقول لنا ويُكرِّرُ في كلّ مجلسٍ: أيُّها العلماء! إني نزعتُ هذا الأمر من عنقي وجعلتُهُ في أعناقكم؛ غَيِّروا المنكرَ، وابدؤوا بي، ثم بأهل بيتي.

ومن أعظم أسباب العداوة بيننا وبين هذا الأمير أنَّ الشيخ عبد الرشيد الأفغاني اقترح على الملك عبد العزيز أن يفتح مدرسةً لتعليم المطوفين بمكة المناسك والتوحيد والأخلاق، وأَنْ يُؤسس مدرسةً للمزَّوِّرين بالمدينة يُعلَّمون فيها آداب زيارة المسجد النبوي وآداب زيارة القبور الشرعية، والتوحيد والأخلاق؛ فكتب نائب الملك إذ ذاك الأمير فيصل بن عبد العزيز ـ الذي هو ملك اليوم ـ إلى الأمير المذكور يأمره بتنفيذ هذا الاقتراح، وكتب إلينا مدير المعارف بمكة يأمرنا بوضع منهاج لهذه المدرسة، وتعيين الكتب، والمدرسين، ومراقبة الدروس، وحضور المزَّوِّرين وامتحانهم، وكان المَزَّوِّرون ـ كلهم ـ من أعيان المدينة، وعددهم نحو مئتين، وخدامهم ثلاث مئة، فلما وضعنا المنهاج وعيَّنَّا الكتب والمدرسين وجدنا في سبيل ذلك عقبات: =

يُحَرِّكُنِي لِلشِّعْرِ مِنْ بَعْدِ تَرْكِهِ سِنِينَ هُمُومٌ أَكْثَرَتْ زَفَرَاتِي
أَرَى كُلَّ يَوْمٍ مُنْكَرَاتٍ كَثِيرَةً يُقَطِّعُ نَفْسِي رَأْيُهَا حَسَرَاتِ

= منها: أنَّ الْمُزَوِّرين يتكبَّرون عن الحضور في حلقات الدروس، ويكتفون ببعث صبيانهم وخَدَمهم.

ومنها: أنَّ المدرسين في المسجد النبوي أكثرهم من عُبَّاد القبور؛ يحيدون في دروسهم عن التصريح بالحق، ويملؤونها بحكايات لا علاقة لها بالموضوع.

والأمير يقف إلى جانب المدرسين والمزَوِّرين والفساق إذا كانوا من أعيان البلد؛ ليكتسب رضاهم؛ فَيَطُول بقاؤه في الإمارة!

ولكن الله ـ تعالى ـ انتقم منه، وعامله بنقيض ما أراده، وشَرْحُ ذلك يطول، وكان يرى أنَّ معارضتنا له عدم خضوعنا لجميع أوامره، واتصالنا بالملك ورئيس القضاة، وقاحة وعدوانًا على حقِّه، وكلَّ ما جاءتنا رسالة من الملك تغلي مَراجِلُهُ ويقول في جلسائه: ما لهذين الرجلين ومكاتبة الملك؛ هل هما أميران يحكمان معي هنا؟!!

ثم يجيئنا أحد كُتَّابِهِ ويقول لنا: إنَّ الأمير قلق من هذه الرسالة؛ فإِنْ لم يكن فيها شيء لا تحبان الاطلاع عليه فدعوه يقرؤها؛ فنبعث بها إليه؛ فلا يجد شيئًا مما يخافه.

وبعد مشادَّة طويلة دامت نحو سنتين؛ دعانا إلى الطبقة الرابعة من قصره حيث يسكن...» إلى آخر ما تقدم.

قال أبو عبيدة: وكان الاقتراح المنوّه به في سنة **١٣٤٧**هـ، وقد صدرت في شهر صفر منه إرادة ملكية تنظِّم الدراسة في هذه المدرسة، وتقرر أن تكون مدة الدراسة سنة واحدة، يدرس فيها: التوحيد، والعبادات، ومناسك الحج على المذاهب الأربعة، وقد نصت الإرادة الملكية على وجوب التحاق جميع المطوّفين بها. وفي أوائل سنة **١٣٤٧** وكِّل تدريس المطوفين إلى أصحاب الفضيلة المشايخ: عبد الظاهر أبي السمح، بهجت البيطار، محمد حامد الفقي، محمد عبد الرزاق حمزة، محمد تقي الدين الهلالي، وغيرهم.

انظر مجلة «العرب» العدد (٧، ٨)، محرم وصفر **١٤٠٤**هـ (ص٥٠٧)، «الشيخ العلامة المحدث محمد عبد الرزاق حمزة من كبار علماء الحرمين الشريفين» (ص١٣٤) للشيخ محمد بن أحمد سيد أحمد.

فَنَادَيْتُ فِي كُلِّ النَّوَادِي مُؤَذِّنًا ... بِنُصْحٍ وَكَمْ رَهَّبْتُهُمْ بِعِظَاتِ
أَيَا قَوْمَنَا هُبُّوا مِنَ النَّوْمِ أَنْكِرُوا ... وَغَارُوا عَلَى هَتْكٍ لِذِي الْحُرُمَاتِ
أَلَا غَاضِبٌ لِلهِ يَحْمِي حُدُودَهُ ... أَلَا قَائِمٌ بِالْحَقِّ حِلْفُ ثُبَاتِ[(1)]
أَلَا بَاذِلٌ لِلهِ نَفْسًا كَرِيمَةً ... وَعِرْضًا مَصُونًا أَصْدَقَ الْبَذَلَاتِ
يَصِيحُ يَا أَهْلَ[(2)] الشِّرْكِ وَالْفِسْقِ صَائِلًا ... كَزَأْرَةِ ضِرْغَامٍ عَلَى حُمُرَاتِ
وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ بِالصِّدْقِ دَعْوَةً ... مُعَزَّزَةً مَحْمِيَّةً بِظُبَاتِ[(3)]
يَسُلُّ عَلَى أَهْلِ الْعُقُولِ لِسَانَهُ ... كَسَيْفٍ صَقِيلٍ صَادِقِ اللَّهَجَاتِ
يَشُنُّ عَلَى أَهْلِ الْبَدَائِعِ غَارَةً ... فَيَحْصِدُ مَا أَبْدَوْا مِنَ الشُّبُهَاتِ
وَيَخْطُبُ فِي التَّوْحِيدِ يُبْدِي مَحَاسِنًا ... تَفِيضُ لَدَيْهَا الْعَيْنُ بِالْعَبَرَاتِ
يُجِيبُهُ أَهْلُ الْعَقْلِ لَبَّيْكَ دَاعِيًا ... يَخِفُّونَ وِحْدَانًا لَهُ وَثُبَاتِ[(4)]
وَمَنْ قَدْ أَبَى إِلَّا ضَلَالًا فُؤَادُهُ ... مُصِرًّا عَلَى الإِشْرَاكِ وَالْبِدِعَاتِ
وَيَزْرِي عَلَى التَّوْحِيدِ إِمَّا مُصَرِّحًا ... وَإِمَّا بِتَعْرِيضٍ بِمُشْتَبِهَاتِ
مُكِبًّا عَلَى نَشْرِ الضَّلَالَةِ مُوضِعًا ... إِلَى الشِّرْكِ يَهْوَى الْخَبْطَ فِي الظُّلُمَاتِ
فَذَلِكَ حَدُّ السَّيْفِ أَشْفَى لِدَائِهِ ... وَإِلَّا فَسَوْطٌ مُؤْلِمُ الضَّرَبَاتِ
وَإِلَّا فَحَبْسٌ فِي السُّجُونِ مُخَلَّدًا ... وَإِلَّا فَنَفْيٌ مُؤْذِنٌ بِشَتَاتِ
وَإِلَّا فَرَفْعٌ لِلإِمَامِ بِسُرْعَةٍ ... يَرَى فِيهِ رَأْيًا صَادِقَ الْعَزَمَاتِ
وَإِلَّا فَقَدْ خُنْتُمْ أَمَانَةَ رَبِّكُمْ ... وَخُنْتُمْ لِخَيْرِ الْخَلْقِ كُلَّ وَصَاةِ
وَخُنْتُمْ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ بِغِشِّكُمْ ... وَقَدْ أَوْجَبَ الرَّحْمَنُ نُصْحَ وُلَاةِ
وَخُنْتُمْ عِبَادَ اللهِ سِرًّا وَجَهْرَةً ... وَكُنْتُمْ لِمَا تَرْعَوْنَ شَرَّ رُعَاةِ

(١) ثبات: مفردها: ثُبَة، وهي الجماعة. (منه)
(٢) في «الديوان»: «بأهل».
(٣) مفردها: ظبة، أي: حد السيف. (منه)
(٤) أي: متفرقين.

فَلا تَحْسَبَنَّ اللهِ يَغْفُلُ عَنْكُمُ تَعَالَى عَنِ الإِهْمَالِ وَالْغَفَلَاتِ
أَلَمْ تَسْمَعُوا إِيعَادَهُ فِي كِتَابِهِ لِمَنْ لَا يُزِيلُ النُّكْرَ بِاللَّعَنَاتِ
بَلَى قَدْ سَمْعْتُمُ وَعْدَهُ وَوَعِيْدَهُ وَلَكِنَّكُمْ سَاهُونَ فِي الْغَمَرَاتِ
أَغَرَّكُمُ إِمْهَالَهُ فَطَغَيْتُمُ وَصَارَتْ قُلُوبٌ مِنْكُمُ صَخَرَاتِ
أَفِيقُوا أَفِيقُوا وَيْحَكُمْ قَدْ هَلَكْتُمُ وَإِنَّ الَّذِي قَدْ تُوعَدُونَ لآتِ
وَلَا يَأْتِكُمْ[(١)] عَمَّا قَرِيْبٍ تَرَوْنَهُ[(٢)] سَرَابًا وَلَا يَبْقَى سِوَى الْحَسَرَاتِ
أَفِيقُوا أَفِيقُوا وَيْحَكُمْ قَدْ بُلِيتُمُ وَلَا يَفْتِنَنْكُمْ زُخْرُفُ الشَّهَوَاتِ
فَتُوبُوا إِلَى الرَّبِّ الْغَفُورِ وَأَصْلِحُوا وَأُوبُوا لِنَهْجِ الرُّشْدِ قَبْلَ فَوَاتِ
لَعَمْرِي لَقَدْ نَبَّهْتُ مَنْ كَانَ نَائِمًا وَأَيْقَظْتُ مَنْ يُصْغِي إِلَى كَلِمَاتِي
فَيَا عَجَبًا مِنْ نَاصِرٍ لِضَلَالَةٍ وَخَاذِلٍ لِدِينِ[(٣)] الْحَقِّ فِعْلَ غُوَاةِ
وَمِنْ بَائِعٍ راشدًا[(٤)] بِغَيٍّ سَفَاهَةً وَلَمْ يَكُ ذَا جَهْلٍ بِمَا هُوَ آتِ
مُخَادِعُ دِينِ اللهِ سَاعٍ لِهَضْمِهِ بِكَيْدٍ عَظِيمٍ مُحْكَمِ الشُّبُهَاتِ
أَلَمْ يَدْرِ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ جَهْرَهُ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفِيهِ فِي الْخَلَوَاتِ
أَلَمْ يَدْرِ أَنَّ اللهَ نَاصِرُ دِينِهِ وَقَاذِفُ أَهْلِ الْبَغْيِ فِي الْهَلَكَاتِ
وَيَلْبَسُ مَسْكَ الْكَبْشِ سَيِّدٌ عَمَلَّسٌ[(٥)] لِتَأْمِينِ أَغْنَامٍ وَخَدْعِ رُعَاةِ
فَكَمْ خَدَعَ الرَّاعِي وَعَاثَ بِضَأْنِهِ فَيَا ضَيْعَةَ الْخِرْفَانِ وَالنَّعَجَاتِ

---

(١) كذا في «الديوان»، وفي مطبوع الكتاب: «وليأتينَّكم»، وكتب العلامة بوخبزة في الحاشية: «الصواب: ولايتكم».
(٢) في «الديوان» «ترونها».
(٣) في «الديوان»: «دين».
(٤) في «الديوان» «رشدًا».
(٥) أي: ذئب مخادع، ومنه العَمَلَّسُ ـ بفتح العين والميم واللام المشددة ـ: القوي على السير السريع، والذئب الخبيث، «القاموس المحيط» (ص٥٦٠).

وَيَا ضَيْعَةَ الدِّينِ الَّذِي صَارَ لُعْبَةً ... بِأَيْدِي طَغَامٍ فِي الشُّرُورِ سُعَاةِ
وَإِنْ هُمْ دُعُوا لِلْعُرْفِ أَوْ نَفْيِ مُنْكَرٍ ... تَوَلَّوْا وَحَاصُوا حِيصَةَ الْحُمُرَاتِ
وَصَدُّوا عَنِ الدَّاعِي وَعَدُّوهُ أَحْمَقًا ... ثَقِيلًا بَلِيدَ الطَّبْعِ غَيْرَ مُؤَاتِ
يَخُوضُ بِأَمْرٍ لَيْسَ يَعْنِيهِ سَاعِيًا ... إِلَى حَتْفِهِ جَهْلًا بِغَيْرِ حَصَاةِ
وَقَالُوا لَهُ ذَا لَيْسَ شَأْنَكَ فَانْتَهِ ... وَإِلَّا تُلَاقِي عَاجِلَ النَّكَبَاتِ
فَمَا أَنْتَ وَالأَمْرُ الَّذِي لَسْتَ أَهْلَهُ ... هَذَا ذَيْكَ[1] يَا مِسْكِينُ فُزْ بِنَجَاةِ
فَنَحْنُ وُلَاةُ الأَمْرِ فَوْقَكَ حُكْمُنَا ... وَنَحْنُ اصْطُفِينَا لاعْتِلَا الرُّتَبَاتِ
وَأَنْتَ لِحُمْقٍ فِيكَ أُبْقِيتَ مُهْمَلًا ... وَلَمْ تَكُ أَهْلًا لِارْتِقَا الدَّرَجَاتِ
فَدُمْ فِي خُمُولٍ وَاسْتَعِدَّ لِمِحْنَةٍ ... مُعَجَّلَةٍ مِنْ أَعْظَمِ الْمِحَنَاتِ
وَقَالُوا تَعَالَوْا دَبِّرُوا فِي مَكِيدَةٍ ... لِنُوقِعَ ذَا الْمَجْنُونَ فِي الْهَلَكَاتِ
تَعَالَوْا فَشُوا[2] عِنْدَ الإِمَامِ وَنَمِّقُوا ... لَهُ فِرْيَةً مِنْ زُخْرُفِ الْكَذِبَاتِ
وَقُولُوا لَهُ هَذَا شَدِيدٌ مُنَفِّرٌ ... عَدِيمُ سِيَاسَاتٍ عَدِيمُ أَنَاةِ
فَكَمْ فِتْنَةٍ قَدْ شَبَّ فِي النَّاسِ نَارَهَا ... وَكَمْ ذَا لَهُ مِنْ طَائِشِ الْحَرَكَاتِ
نَخَافُ اتِّسَاعَ الْخَرْقِ إِنْ دَامَ أَمْرُهُ ... فَأَنْزِلْ عَلَيْهِ أَعْظَمَ النَّقَمَاتِ
لِيَزْدَجِرَ الْحَمْقَى مِنَ النَّاسِ مِثْلُهُ ... وَتَنْتَظِمَ الأَحْكَامُ مُنْضَبِطَاتِ
لَقَدْ غَفَلُوا عَنْ قَوْلِ أَصْدَقِ قَائِلٍ ... لَدَى (النَّمْلِ) تَحْذِيرًا لَنَا وَعِظَاتِ
فَأَخْبَرَ أَنَّ الْقَوْمَ جَاؤُوا بِمَكْرِهِمْ ... فَقَدْ جَاءَهُمْ مَكْرٌ مِنَ اللهِ آتِ
فَفِي (آلِ عِمْرَانَ) وَ(الاعْرَافِ)[3] وَ(النِّسَا) ... كَذَلِكَ آيٌ غَيْرُ مُشْتَبِهَاتِ
وَهَلْ تَنْفَعُ الآيَاتُ إِلَّا أُولِي تُقًى ... وَأَفْئِدَةٍ صِينَتْ مِنَ الْكَدَرَاتِ
وَأَمَّا الْقُلُوبُ الْمغْفَلَاتُ عَنِ الْهُدَى ... فَلَيْسَتْ ـ وَإِنْ تَحْرِصْ ـ بِمُنْتَفِعَاتِ

(١) أي: قطعًا بعد قطع.
(٢) أي: من الوشاية. (منه)
(٣) تقرأ (الاعراف) بهمزة وصل للوزن.

وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَذُو الْبَصَرِ الَّذِي ... يَمِيزُ بِهِ الْبَيْضَا مِنَ الْحُفُرَاتِ
وَمَا يَسْتَوِي النُّورُ الْمُبِينُ و[لا][1] الدُّجَى ... وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَا وَأَهْلُ مَمَاتِ
فَيَا أَيُّهَا الْقَوْمُ الَّذِينَ تَوَاطَئُوا ... عَلَى نَصْرِ ضُلَّالٍ وَكَيْدِ هُدَاةِ
أَلَمْ تَسْمَعُوا لَعْنَ الرَّسُولِ لِمُحْدِثٍ ... بِطَيْبَةَ يَرْوِيهِ أَجَلُّ رُوَاةِ[2]
وَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ يَلْعَنُهُ كَذَا الْـ ... مَلَائِكُ طُرًّا أَعْظَمَ اللَّعَنَاتِ
وَيَلْعَنُهُ الإِنْسَانُ مَعْ كُلِّ لَاعِنٍ ... مَدَى الدَّهْرِ فِي الآصَالِ وَالْبُكُرَاتِ
وَيَشْمَلُ هَذَا اللَّعْنُ مَنْ كَانَ رَاضِيًا ... بِمَا قَدْ أَتَى مِنْ سَيِّئِ الْفَعَلاتِ
تَحَمَّلَ هَذَا اللَّعْنَ مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُ ... لِيَسْتَمْتِعَ الْمَغْبُونُ بِالشَّهَوَاتِ
فَيَا وَيْلَهُ مَاذَا تَحَمَّلَ مِنْ بَلَا ... لِحَظٍّ قَلِيلٍ مُعْقَبٍ بِفَوَاتِ
وَلَوْ عَاشَ فِيهَا عُمْرَ نُوحٍ وَضِعْفَهُ ... لَمَا عُدَّ شَيْئًا إِذْ يَرَى الْهَلَكَاتِ
فَعَمَّا قَرِيبٍ يَقْرَعُ السِّنَّ نَادِمًا ... إِذَا مَا صَحَا فِي سَكْرَةِ الْغَفَلاتِ
إِلَى اللهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ أَنَّنِي ... أَرَى الدِّيْنَ فِي نَقْصٍ وَفَقْدِ حُمَاةِ
وَيَزْدَادُ فِي الدُّنْيَا بِمِقْدَارِ نَقْصِهِ ... فَيَا لَكَ رُزْءًا مُحْكَمَ الْحَلَقَاتِ
وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَى اللهِ مَلْجَأٌ ... لِمَا مَسَّنَا مِنْ فَادِحِ النَّكَبَاتِ
وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَى اللهِ مَفْزَعٌ ... يُفَاجِئُ أَهْلَ الزَّيْغِ بِالنَّقَمَاتِ
فَيَا رَبُّ، يَا اللهُ، يَا سَامِعَ الدُّعَا ... وَيَا كَاشِفَ الضَّرَاءَ وَالْكُرُبَاتِ
أَغِثْنَا بِنَصْرٍ مِنَ لَدُنْكَ مُؤَيِّدٍ ... لِدِينِ الْهُدَى مُخْزٍ لِمَنْ هُوَ عَاتِ
فَيَخْسَرُ حِزْبُ الْمُبْطِلِينَ إِذَا بَدَا ... وَيَفْرَحُ حِزْبُ اللهِ سَاعَةَ يَاتِي
وَبَصِّرْ إِمَامَ الْمُسْلِمِيْنَ بِمَكْرِ مَنْ ... غَدَا لَابِسًا لِلْحَقِّ بِالشُّبُهَاتِ
وَوَفِّقْهُ لِلْخَيْرَاتِ وَانْصُرْ جُنُودَهُ ... عَلَى جُنْدِ إِشْرَاكٍ وَكُلِّ بُغَاةِ
وَيَا رَبُّ مَتِّعْنَا بِطُولِ حَيَاتِهِ ... وَحِفْظًا لَهُ مِنْ كَيْدِ كُلِّ عُدَاةِ

---

(١) أضيفت ليستقيم الوزن.

(٢) إشارة إلى حديث في «الصحيحين»، تقدم لفظه وتخريجه.

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ الأَنَامِ وَمَنْ مَشَى   عَلَى نَهْجِهِ بِالصِّدْقِ خَيْرَ صَلَاةِ
وَذِي نَفْثَةُ الْمَصْدُورِ فِي وَجْهِ مَنْ بَغَى   ثَمَانُونَ بَيْتًا مِثْلُ نَبْلِ رُمَاةِ[1]

(تمت)

اليائية[2]

خَرَجْتُ بِحَمْدِ اللهِ لِلْبَدْوِ دَاعِيَا   إِلَى اللهِ حَسْبِي نَاصِرًا وَكَفَانِيَا
عَلَى جَمَلٍ صَعْبٍ بَطِيءٍ مَسِيرُهُ   وَقَرٌّ شَدِيدٌ فِي الشِّتَاءِ عَرَانِيَا[3]
بِأَرْضٍ قَفَارٍ لَا أَنِيسَ بِهَا سِوَى   أَبِي جَعْدَةٍ يَعْوِي عَلَى الْحُزْنِ عَالِيَا
وَإِلَّا قَلِيلًا مِنْ أُعَيْرَابِهَا وَهُمْ   كَمِثْلِ وُحُوشٍ فِي الْفَلَاةِ رَوَاعِيَا
تَحَمَّلْتُ فِي ذَاكَ الْمَسِيرِ شَدَائِدًا   أُرِيدُ بِهِ وَجْهَ الَّذِي قَدْ بَرَانِيَا
تَرَكْتُ وَثِيرَ الْفُرْشِ مَعْ لَذَّةِ الْغِذَا   وَرَاحَةَ جِسْمٍ فِي الْمَقَامِ بِدَارِيَا
فَوَاللهِ لا مَالًا أُرِيدُ بِهِ وَلا   لِرِفْعَةِ جَاهٍ كُنْتُ إِذْ ذَاكَ سَاعِيَا
وَلَكِنَّ مَقْصُودِي هِدَايَةُ مَعْشَرٍ   غَدَوْا فِي قِفَارٍ مَا رَأَوْا قَطُّ هَادِيَا
تَنَقَّلْتُ فِي أَحْيَائِهِم سَبْعَ عَشْرَةً[4]   أُذَكِّرُ فِي أَيَّامِهَا وَاللَّيَالِيَا

---

(١) الأبيات في «منحة الكبير المتعالي» (ص٢١٩ ـ ٢٢٦).
(٢) نظمها بالمدينة في ٢١/ ١٠/ ١٣٤٧هـ.
(٣) أي: أصابنيا.
(٤) إشارة إلى الأيام التي خرجت فيها إلى البوادي ورافقني الأمير ماجد بن موقد رحمة الله عليه، وكان أولئك البداة على دين الجهل والشرك وإتيان الكهان وترك الصلاة، فكانت الكاهنة تُشدّ إليها الرحال ولا تتكهن لأحد إلا إذا دفع لها جملًا أو ناقة حلوانًا، وكان الأمير ماجد رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديدًا عليهم لا يبدؤهم بالسلام، وإذا نزلنا في حي يأمرهم أن يأتوا بالشاة التي تعد لضيافتنا، فيذبحها أحد رفقائنا لأنه كان يعتبرهم مشركين لا تحل ذبائحهم، وحدثني ونحن بين ظهرانيهم فقال: قد علمتنا التجارب التي شاهدناها بأعيننا أن **النصر مقرون** =

وَمَـا مِـنْـهُـمُ إِلَّا مُـطِـيـعٌ وَمُـقْـبِـلُ ... سِوَى بَعْضِ أَعْرَابٍ فَمَا كَانَ صَاغِيَا

فَلِلَّهِ أَوْقَاتٌ مَضَتْ فِي دِيَارِهِمْ ... لَقَدْ كَانَ فِيهَا الدَّهْرُ صَفْوًا مُؤَاتِيَا

مُعَمَّرَةً بِالذِّكْرِ وَالْفِكْرِ فِي الْهُدَى ... فَلَمْ يَكُ فِيهَا الْقَلْبُ كَالآنَ لَاهِيَا

بِقَوْلِ إِلَـهِ الْـحَقِّ طَابَتْ وَبَعْدَهُ ... بِـقَـوْلِ رَسُـولِ اللهِ يُـذْكَـرُ قَـافِـيَـا

مُـنَـزَّهَـةً عَـنْ فُـحْشِ قَـوْلٍ وَلَـغْـوِهِ ... لَقَدْ كَانَ فِيهَا الْقَلْبُ أَبْيَضَ صَافِيَا

وَيَزْعُمُ ذُو الْبُهْتِ الْمُبِينِ بِأَنَّنِي ... خَـرَجْـتُ لإِفْـسَـادٍ وَمَـا زَالَ فَـارِيَـا

وَيَزْعُمُ أَنِّي قَدْ رَكَنْتُ لِمَنْ بَغَوْا ... فَـقَـبَّـحَ رَبِّـي أَيَّـنَـا كَـانَ بَـاغِـيَـا

فَـيَـا لَـيْـتَـهُ يَـأْتِـي إِلَـيَّ مُـبَـاهِـلًا ... لَـدَى بَـابِ بَـيْـتِ اللهِ لَـهُ[1] دَاعِـيَـا

فَـنَـجْـعَـلَ لَـعْـنَـاتِ الإِلَـهِ جَـمِـيـعَـهَـا ... عَلَى أَيِّنَا قَدْ كَانَ فِي الشَّرِّ سَاعِيَا

وَلا بُـدَّ يَـوْمًـا أَنْ يُـهَـشَّـمَ بَـاطِـلُ ... وَيَـظْـهَـرَ حَـقٌّ كَـانَ مِـنْ قَـبْـلُ خَـافِـيَـا

عَلَى الْمَلِكِ النَّقَادِ يَطْمَعُ ذُو الْغَبَا ... يُـرَوِّجُ مَـكْـذُوبًـا مِـنَ الْـقَـوْلِ وَاهِـيَـا

وَيَـأْبَـى لَـهُ الْـعَـقْـلُ الـرَّجِـيـحُ وَدِيـنُـهُ ... قَـبُـولًا لِـبُـهْـتَـانِ الَّـذِي جَـاءَ وَاشِـيَـا

وَإِنْـصَـافُـهُ عَـمَّ الـنَّـوَاحِـي وَحِـلْـمُـهُ ... وَبَـذْلُ الـنَّـدَى مَـنْ أَمَّ نَـحْـوَهُ جَـائِـيَـا

= **بالتوحيد والهزيمة مقرونة بالشرك**، فقد كنا نحن أنفسنا ـ قبل أن يمن الله علينا بالهداية ـ نستعد لقتال أهل التوحيد إخوان من أطاع الله بالآلاف والخيل والسلاح، فيأتينا منهم ثلاث مئة أو أربع مئة، فإذا رأينا قلَّتهم طمعنا في استئصالهم، حتى إذا رفعوا أصواتهم وقالوا: لا إلٰه إلا الله وهجموا علينا تفرق جمعنا وانهزمنا لا نلوي على شيء، ونسيت أيضًا أن أقول فيما مضى: إن أمير النخيل في الوقت الحاضر المجمع على صلاحه وتقواه مشعان ابن أخت ماجد كان في ذلك الوقت يافعًا، وكان يقرأ عليَّ القرآن في أوقات فراغه، فكان الصلاح عليه ظاهرًا في تلك السن، لأنه كان لا يمل من حفظ القرآن كعادة الصبيان، وهو الآن حي يشهد بصحة كل ما ذكرت، وأن ما ادعاه أمير المدينة في ذلك الزمان علي كان اختلاقًا. **(منه)**

(١) في «الديوان»: «لله».

لِعَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَلِكِ مِنْ آلِ فَيْصَلٍ ... ثَبَاتٌ بِهِ فَاقَ الْجِبَالَ الرَّوَسِيَا(١)
وَلَكِنَّهُ خِفٌّ إِلَى الْمَجْدِ وَالنَّدَى ... وَتَلْقَاهُ يَوْمَ الرَّوْعِ عَضْبًا(٢) يَمَانِيَا
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ الْوَاشِي أَتَى الْمَيْنَ(٣) غَاوِيَا
فَمَا الْبَاطِلُ الْمَأْفُوكُ إِلَّا ضَبَابَةٌ ... تَزُولُ وَيَبْدُو الْحَقُّ أَبْلَجَ صَافِيَا
لِتَبْحَثْ إِمَامَ الْمُسْلِمِيْنَ بِعَزْمَةٍ ... سُعُودِيَّةٍ تُجْلِي الأُمُورَ كَمَا هِيَا
وَعِنْدِي مِنَ الْبُرْهَانِ مَا يَهْدِمُ الَّذِي ... بَنَاهُ الْعِدَا مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ وَاهِيَا
أَصِغْ لِي إِمَامَ الْخَيْرِ وَاسْمَعْ أَدِلَّتِي ... فَلا زِلْتَ لِلْمَظْلُومِ مَلْجَأً وصَاغِيَا
بِعَدْلٍ وَإِنْصَافٍ أَقَامَكَ رَبُّنَا ... مَلِيكًا عَلَى هَذِي الْبِلَادِ وَرَاعِيَا
أَوَائِلُهُ بِالشَّامِ تَلْفِي وَحَدُّهُ ... يَمُدُّ إِلَى أَرْضِ الْعِرَاقَيْنِ ضَافِيَا
فَلَا زِلْتَ شَمْسًا فِي اعْتِلَاءٍ وَرِفْعَةٍ ... تُضِيءُ عَلَى الْمَوْلَى وَتُفْنِي الأَعَادِيَا
وَلَا زِلْتَ ذَا شُكْرٍ عَلَى النِّعَمِ الَّتِي ... حَبَاكَ إِلَهُ النَّاسِ لِلْخَيْرِ هَادِيَا
وَصَلِّ إِلَهِي كُلَّ حِينٍ وَسَاعَةٍ ... عَلَى الْمُصْطَفَى الْمَبْعُوثِ لِلْخَيْرِ دَاعِيَا(٤)

(تمت)

بيان قصة ابن منصور الواردة في القصيدة اللامية

هو محمد بن منصور إمام قرية من القرى التابعة لإمارة المدينة نسيت اسمها، كان صالحًا حريصًا على الخير يحب في الله ويبغض في الله ويرضى لله، وهو شاب من أهل نجد، وقعت له مع الأمير قضيتان:

(١) في «الديوان»: «الرواسيا».
(٢) العضب: السيف.
(٣) أي: الكذب.
(٤) الأبيات في «منحة الكبير المتعالي» (ص٦٤٧ ـ ٦٥٠)، وفيه: «هاديًا»، بدل «داعيًا».

الأولى: هي التي ذكرت في القصيدة، كان ماشيًا إلى قبا فلقي رجلًا من شيعة المدينة يشرب الدُّخانَ، فأمره بإلقائه فأبى، فأخذه من يده وألقاه على الأرض، فأمسك به الشِّيعيُّ، وقال: أخاصمك إلى الأمير، فتعجَّب ابن منصور وقال: أنتَ تخاصمني إلى الأمير، أو أنا أخاصمك إليه، فأيُّنا المذنب؟! فقال الشيعي: أنتَ المذنب الظَّالم! فانطلق إلى الأمير وتبعه محمد بن منصور، فلما وصلا إلى الأمير، ذكر الشيعيُّ ما وقع بينه وبين ابن منصور، فقال: إن ما قاله واقع وأنا اقتصرتُ في تغيير المنكر على أدنى ما يجب، وهو أَخْذُ لفافةِ الدخان من يده وإلقاؤها على الأرض، وهو يستحقُّ عقابًا أكثر من هذا. فضرب الأميرُ ابنَ منصور ووبَّخه وقال له: ما لك وله؟! كان يشرب الدخان في الفضاء خارج البلد، ومن جعلك رقيبًا عليه؟! هل أنت من جماعة الأمر بالمعروف؟ فقال ابن منصور: إن الأمر بالمعروف واجب على كل مسلم عمومًا، وخصوصًا على الأمراء، فغضب عليه وضربه.

القصة الثانية وهي أفظع

كان ابن منصور يدقُّ الأبوابَ على أهل القرية قبل الفجر يوقظهم للصلاة، فنهاه أهل القرية عن ذلك، فلم ينته فضربوه، وعلم أنه إذا اشتكى إلى الأمير لا يأخذ له حقًّا ولا يدفع عنه ضيمًا، فانتظر حتى جاء الملك عبد العزيز بن عبد الرحمٰن رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الرياض مارًّا بالمدينة إلى مكة، فكتب شكوى وسلَّمها إليّ راجيًا أن أبلِّغها إلى الملك، فأخذتُها حتى وضعتها في يد الملك، فقرأها وسلَّمها إلى الشيخ عبد الله بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليحكم فيها، فدعا الشيخ الأمير وسلمها له وقال له: كيف يقع هذا في إمارتك؟ فقال: ما جاءني ولا أخبرني ـ وأظهر تحمسًا

لنصره ـ، وقال للشيخ: كن مطمئنًّا فإني سأعاقب أولئك الأنذال عقابًا يردعهم! فلما توجَّه الملك عبد العزيز ومعه الشيخ عبد الله بن حسن إلى مكة دعا الأمير الذين ضربوه وأحضر ابن منصور وأوصى حاشيته أن يطلبوا منه العفو عنهم ويلحُّوا عليه في ذلك، فوبخهم الأمير وسبهم وهَمَّ بضربهم، فقام أصحابه وقالوا: أيها الأمير! أصلحك الله مهلًا؛ لعله يصفح عنهم، فطلبوا منه الصفح وألحُّوا عليه، وأظهر أهل القرية التوبة، فعرف أنه مخذول، وأنَّ الأمر بُيِّت بليل، فصفح عنهم ولم يحصل على طائل.

ولم أدرج هذه القصة في القصيدة، لأنها وقعت بعد نظمها(١)، وفيما ذكرته في القصائد الثلاث كفاية.

التدريس في المسجد الحرام

تقدم أني نُقلت أنا ورفيقي(٢) إلى التدريس في المسجد الحرام، والتدريس في المسجد الحرام امتحانٌ عظيم للمدرِّس، فبينما ترى مدرِّسًا مشهورًا بالعلم والفضل قد جلس للتدريس في المسجد الحرام فلم يحضر درسه إلا قليلٌ من الناس لا يكادون يتجاوزون عشرة، ترى مدرِّسًا آخر ربما يكون دونه في الشهرة أو في العلم قد حضر درسه مئات من المستمعين، وهذه الأمور تسير طبقًا لقسمة الله تعالى؛ كما ترى أصحاب الدكاكين: هذا يزدحم المشترون عليه ويتدافعون، وإلى جانبه دكان يحتوي على مثل ما في ذلك من البضائع أو أحسن وصاحبه عاطل لا يأتيه أحد،

---

(١) كان تاريخ النظم في المدينة بتأريخ ٢٠/ ٥/ ١٣٤٧هـ.

(٢) هو فضيلة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة المصري رحمه الله تعالى.

وكنتُ ـ ولله الحمد ـ من القسم المحظوظ، فكان يحضر درسي أمام باب إبراهيم مئات من الناس، ولم أعرف لذلك سببًا إلا أني كنت أتكلم بلغةٍ يفهمها أهلُ الأقطار المختلفة من البلاد العربية، وأولئك المدرسون الذي كانوا في أزمة من قلَّة المستمعين كانوا يتكلَّمون بعاميتهم الخاصة.

التدريس في المعهد السعودي

كانت مدارس الفلاح التي أسسها الشيخ عبد الله حمدوه[1] منتشرة في أنحاء مكة والتلاميذ يقبلون عليها كلَّ الإقبال؛ لأن الشيخ عبد الله حمدوه[2] كان مربِّيًا عظيمًا ناجحًا في عمله، وكان يدعوني كل سنة

(١) الصواب: أسسها الحاج محمد علي زينل سنة **١٣٣٠ ـ ١٩١١م**، وعرض فكرته على عبد الله حمدوه، فأيدها، وقام على تحقيقها بانتقاله وهو وكُتّابه إلى المدرسة الجديدة، وكان موقعها بالقشاشية، بدار علي باشا أمام باب علي، ثم انتقلت إلى حارة الباب بدار آل نصيف، ثم انتقلت بعد ذلك إلى حي الشبيكة، ثم حي النزهة، وظلت به حتى أُنشئ لها مبنى كبير في الحي نفسه على أحدث الطُّرُز المعمارية، كي تستمر في أداء دورها التعليمي والتربوي الذي أُنشئت من أجله.

انظر عن المواد والمقررات التي درست بمدرسة الفلاح مع المراحل التعليمية في «الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية» **(١٤٩ ـ ١٥٠)**، «تاريخ التعليم في مكة» **(١٤٢ ـ ١٤٣)**، «الحياة العلمية في مكة» **(١١١٠ ـ ١٣٣٤ ـ ١٧٠٣ ـ ١٩١٦م)** **(١/ ٣٩٤ ـ ٣٩٩)**، وهي مفردة بتآليف؛ منها كتاب بعنوان «مدارس الفلاح، الحضارة والتراث».

(٢) هو عبد الله بن إبراهيم بن حموده بن محمد نور الحسني السناري السوداني ثم المكي. ولد سنة ١٢٨٤هـ. عالم فاضل مقرئ، مربي الجيل الجديد في مكة المكرمة في عصره. أخذ العلم وتدرج فيه ورحل حتى نبغ، ثم رجع إلى مكة المكرمة من المدينة المنورة وفتح محلًّا لتعليم القرآن الكريم وتجويده، واعتنى اعتناءً كبيرًا بتعليم الصغار وتحفيظهم القرآن الكريم مجودًا، وتنشئتهم نشأة =

للاشتراك في الامتحان مع أساتذة المدرسة العليا له، وكان المعهد السعودي[1] قد أسس قبل ذلك بمدة، ولم يحصل عليه إقبال للدعاية السيئة

= صالحة في شفقة وحنان وعطف دون تمييز بين فقير وغني، أو رفيع ووضيع. افتتح كتَّابه في باب الزيادة، ثم في باب الباسطية وأدخل تحسينات على كتَّابه إذ قسّمه إلى صفوف، وقرر تعليم الحساب وتحسين الخط بجانب حفظ القرآن الكريم وتجويده، فازداد الإقبال على كتَّابه وذاع صيته، لا سيما بعد أن شاهد أولياء الطلبة إقبال أبنائهم على حفظ القرآن وتناوبهم في الإمامة بصلاة التراويح تحت إشراف مربيهم. وحينما فكر الشيخ محمد علي زينل في نشر العلم وإشاعته بمكة المكرمة وقع اختياره على الشيخ عبد الله حمدوه، فرحب بفكرته ونقل طلابه إلى الصفا، وكوَّن منهم مدرسة الفلاح بمكة سنة ١٣٣٠هـ، ثم كان مديرًا لها إلى جانب ما يقوم به من التدريس فيها. توفي رحمه الله بمكة سنة ١٣٥٠هـ ١٩٣١م، له ترجمة في «تشنيف الأسماع» (٣٢٩)، «سير وتراجم» (١٦٤)، «نثر الدرر» (ق ٤١)، «الانطلاقة التعليمية في المملكة العربية السعودية» (١/ ٥٣٢)، «أعلام المكيين» (١/ ٣٩٦)، «قرة العين في أسانيد شيوخي من الحرمين» (١/ ٢٢٧) للفاداني، جريدة «المدينة» مقالة (لمحات من حياة الشيخ عبد الله حمدوه) العدد (٩٥٢٥) في ٢٧/ ١٢/ ١٤١٣هـ) (ص٣) لأنس يعقوب كتبي.

(١) ظفرتُ في أوراق المؤلف بكلمة ألقاها شقيقه محمد العربي أمام الملك عبد العزيز بن سعود عند افتتاح هذا المعهد في مكة، وهي بخط الشيخ عبد الظاهر أبي السمح، انظرها في النماذج المرفقة، (نموذج رقم ١٤).

وأفاد الهلالي في رسالته إلى محمد الزمزمي المؤرخة في ١٩/ ١٠/ ١٣٨٦هـ أنه درَّس فيه سنة ونصفًا، انظر «رسائل الهلالي» (١/ ١٤٤)، وأفاد أيضًا في رسالته إلى صديقه العلامة عبد الله كنون أن أخاه محمد العربي أتم دراسته فيه سنة ١٣٥١هـ، انظر «رسائله» (١/ ٢٤٢)، ودرَّس فيه محمد بهجت البيطار لمدة خمس سنوات من أول تأسيسه، انظر «ذيل الأعلام» (١٦٧ ـ ١٦٨) للعلاونة.

وتولى الإدارة فيه أيضًا فضيلة الشيخ إبراهيم الشوري، والأساتذة هم فضيلة المشايخ: محمد بن عثمان الشاوي، ومحمد بن علي البيز، وصادق ماجد الكردي، ومحمد حلمي، وعبد المنعم الدشلوطي، وغيرهم، أفاده الشيخ =

الراسخة في أذهان العامة أنه معهد وهَّابي يعلّم تلامذته المذهب الوهَّابي، حسبما يزعمه أعداء التوحيد، ولم يكن ذلك هو السبب وحده، بل كان هنالك سبب آخر وهو عدم كفاية المدرِّسين، فاجتمع رجال الشورى للنظر في رفع مستوى المعهد السعودي، واتفق رأيهم برئاسة سمو الأمير فيصل نائب الملك على أن يختاروا للمعهد معلِّمين أكفاء، فوقع اختيارهم على مؤلف هذا الكتاب ورفيقه الشيخ محمد بن عبد الرزاق وأخيهم العالم السلفي الشيخ بهجت البيطار[1]، فانتعش بذلك المعهد وكثر طلابه،

= عبد الله خياط في كتابه «لمحات من الماضي» (٣٨ ـ ٣٩).

وفي مراسلة للهلالي مع البيطار تعليق على العودة إلى التدريس فيه على الاستخارة، وهي ـ للأسف ـ غير مؤرَّخة، انظر «رسائله» (٢/ ٨٠٩)، ثم اعتذر عن ذلك له، وهو بالزبير بتأريخ ١٥/ ٣/ ١٣٥٥هـ، انظر «رسائله» (٢/ ٨١٤، ٨١٦)، وذكر عبد الله الخياط في «لمحات من الماضي» (٣٣٢ ـ ٣٣٤) ما درسه على الهلالي فيه، قال: «درست عليه في المعهد الكثير من علوم الدين كلها في إطار السنة»، وقال عنه بعد كلام: «إنه عالم ضليع في علم الحديث، بل وفي علوم الدين واللغة العربية، وهو من علماء المغرب، قَدِم إلى مكة للإسهام بقسط في إشاعة العلم والتوجيه، لكنه كان من المغمورين، لأنه خطط لمسيرته بأن لا يخرج بها عن مسلك العلماء في الحفاظ على علمه من الهبوط به، تتلمذتُ عليه في المسجد الحرام؛ فقرأت عليه «صحيح البخاري» و«مسلم»، وعديدًا من كتب السنة؛ فكان ممن لا يشق له غبار في ميدانه، ودرستُ عليه أيضًا في علوم اللغة العربية كتاب «مُلحة الإعراب» أول دراستي للغة؛ فكان يشرح «المنظومة» بيتًا بيتًا، ثم يقرأ عليها الشرح بما لا يترك أمام الطالب غموضًا أو لبسًا».

(١) محمد بهجة بن محمد بهاء الدين بن عبد الغني البيطار، أبو اليسار، علّامة وشاعر، هاجر جده الأعلى من الجزائر إلى دمشق، وفيها ولد صاحب الترجمة [سنة ١٣١١هـ ـ ١٨٩٤م] وتعلم على جده لأمه الشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ بدر الدين الحسني، وتولى الخطابة والإمامة والتدريس في جامع القاعة في حي الميدان، ثم في جامع كريم الدين =

= المعروف بالدقاق بحي الميدان أيضًا خلفًا لوالده، وشارك بمؤتمر العالم الإسلامي سنة ١٣٤٥ الذي عقد بمكة المكرمة، واستبقاه الملك عبد العزيز آل سعود ليشرف على المعهد العلمي السعودي؛ فبقي من العاملين فيه خمس سنوات، ثم غلبه الحنين إلى وطنه؛ فعاد إلى دمشق مُدرسًا في ثانوياتها وفي كليتي الآداب والشريعة بجامعتها. وعندما عزمت الحكومة السعودية على إنشاء دار التوحيد بالطائف عهدت إليه بتولي إدارتها؛ فأقام فيها ثلاث سنوات، ثم عهدت إليه جامعة دمشق تدريس التفسير والحديث بكلية الآداب إلى أن أحيل على التقاعد.

وانتخب عضوًا بمجمع اللغة العربية بدمشق والمجمع العلمي العراقي. كان واسع الاطلاع، سديد البحث، أصولي النزعة، سلفي المعتقد، حاضر البديهة، باسم الثغر، لين القول، يستمتع بالنكتة ويقولها، وكان رقيق الشعور، وكان إذا اضطر للأكل عند من يشتبه برزقه أو عند بعض الرسميين أيام الانتداب الفرنسي خرج حالًا، وتصدق بضعف قيمة ما أكل حسب تقديره، وكان يرى أن ذهاب ريح المسلمين من ذهاب أخلاقهم، وأن معظم بلائهم من كبرائهم وأثريائهم وعلمائهم.

له تصانيف منها: (حياة شيخ الإسلام ابن تيمية)، و(الإسلام والصحابة الكرام بين السنة والشيعة)، و(السنة والشيعة)، و(كلمات)، و(الكوثري وتعليقاته)، و(تاريخ فكرة إعجاز القرآن الكريم)، و(تخريج أحاديث كتاب البخلاء) للجاحظ، و(أسرار العربية) للأنباري ـ تحقيق، و(الموفي في النحو الكوفي) للكنغراوي ـ تحقيق، و(قواعد التحديث) لجمال الدين القاسمي ـ تحقيق، و(حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر) للشيخ عبد الرزاق البيطار ـ تحقيق، [مات سنة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م].

وللدكتور عدنان الخطيب «الشيخ محمد بهجة البيطار في سيرته»، وهو في الأصل مقالة في مجلة «مجمع دمشق».

وترجمه: أحمد راتب النفاخ في مجلة «مجمع اللغة العربية بدمشق» (٥٣/ ٢٢٣ ـ ٢٤٥)، وظافر القاسمي في مقدمة كتاب «كلمات وأحاديث».

وله ترجمة في: «رجال من التاريخ» (٤١٢ ـ ٤٢٠)، «معالم وأعلام» (١٦٦ ـ ١٦٧)، «المستدرك على معجم المؤلفين» (٦١٤ ـ ٦١٥)، «من هو في سورية» =

وصارت له مكانة عند الناس، وكان مدير المعهد أخانا ورفيقنا الشيخ إبراهيم الشُّوري[1]، وكان يبذل جهده في رفع مستوى المعهد.

= (١٢٥)، «من هم في العالم العربي» (١٠٤ ـ ١٠٥)، «عالمنا العربي» (٥٦٨ ـ ٥٦٩)، «النظائر» (٦٤)، «معجم المؤلفين» (٣/ ١٧٢ ـ ١٧٣)، «أعلام الأدب والفن» (٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨)، «عيون البصائر» (٦٣٨ ـ ٦٤٣)، «ذيل الأعلام» (١٦٧ ـ ١٦٨).

وللهلالي محبة له منقطعة النظير، وفي رسائله له أريحية، وباح بما في نفسه في قضايا شائكة، وصرح له بمواقفه من بعض الأمور على وجه عزّ أن يصنعه مع غيره، وينظر للتفصيل كتابي «رسائل الهلالي» (٤/ ١٧٢١ ـ الفهارس).

(١) هو إبراهيم بن محمد الشُّوري، عالم مصري، ولد عام ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م، تخرج في مدرستي القضاء الشرعي ودار العلوم، واشتغل بالتدريس، وقدم إلى مكة عام ١٣٤٧هـ، واستقر فيها حتى توفي عام ١٤٠٤هـ، فعمل مدرسًا في المعهد العلمي السعودي حتى غدا مديرًا له، ومديرًا لشؤون الحج، وعضوًا في رابطة العالم الإسلامي، ومديرًا لإذاعة المملكة بمكة المكرمة، وشارك في أعمال كثيرة، وكان حازمًا في إدارته، ذا هيبة بين الطلبة، وله عناية بالحديث. وقرأ على رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم، انظر «الثمر الينيع في إجازات الصنيع» (ص٤٦).

السفر إِلى الهند

أقمت في الحجاز أكثر من ثلاث سنين وأنا لا أزال في عنفوان الشباب، ورأيتُ حتى في ذلك الزَّمان أنَّ العالم بلا شهادة كالمسافر بدون جواز سفر ليس له مكان في المدارس العليا، وإذا أَلَّف كتابًا أو أنشأ مقالًا فأول سؤال يسأله الناس: هل عنده شهادة عالمية؟ فيجيء الجواب: لا. هل يعرف لغة أجنبية؟ فيكون الجواب: لا. هل درس في أوروبا؟ فيكون الجواب: لا. فيقال حينئذٍ: (سيبك منه) يعني: دعه ولا تلْتَفِت إليه، وتاقت نفسي إلى الحصول على شهادة عالمية، وكنتُ متَّصلًا بالمكاتبة مع عالمين جليلين أحدهما تقدَّم ذكرُه وهو السيد سليمان النَّدْوي[1]، والآخر لم يتقدَّم ذكره وهو الشيخ أحمد السُّركَتي[2] في أندونسيا، فلما علما بغرضي دعاني كلٌّ واحدٍ منهما أن أكون مدرِّسًا في مدرسته[3]، وأمَّلت أني أستطيع أن أدرس دراسة عالية في الهند أو في

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) نظرتُ في مذكراته وكتبه ومجلاته التي كان يصدرها؛ لَعلِّي أظفر بشيء فيما يخص الهلالي، فلم أفز بأثر، ولا قوة إلا بالله! ثم سألتُ تلميذ السركتي: أحمد بن محفوظ ـ حفظه الله ـ المقيم في سورابايا ـ أندونيسيا؛ إبان زيارتي له في بيته؛ فأخبرني أنه لا يعلم شيئًا عن ذلك، ولي عناية بالسركتي والإرشاديين، وجمعتُ مقالاتهم وما وقع بينهم وبين العلويين من ردود ومآخذات، والأيام حبالى، ولا ندري بم تلد!

(٣) أسس (معهد الإرشاد العالي لتعليم اللغة العربية والدين)، وكان ذلك في سورابايا ـ أندونيسيا، وزرتُه، وحاضرت فيه إبان رئاسة الأخ الفاضل فضيلة =

أندونسيا، وأحصل على شهادة أستطيع بها أن أروّج علمي وآخذ حقِّي، وأغزو المدارس العليا بدعوتي، فرجَّحت بقضاء وقدر من الله تعالى التوجه إلى الهند؛ كان ذلك في أول سنة **١٣٤٩**، فعُينت رئيسًا لأساتذة الأدب العربي في كلية نَدْوة العلماء[١]، وبقيت فيها ثلاث سنين ونيفًا، أبذل كلَّ جهد في تعليم أدب اللغة العربية بأسلوب جديد لا عهد لعلماء الهند به، وهو تعليم الأدب العربي باللغة العربية من أول درس إلى آخر درس بدون استعمال لغة أخرى.

وقد كتب المربي الجرماني (برلتس)[٢] في مقدمة كتابه (في تعليم اللغات الحية) كلامًا موزونًا مفيدًا جدًّا[٣] أقتبس منه قليلًا، قال: «يجب على كلِّ معلم للغة أن يعلم تلك اللغة بنفسها من أول درس إلى آخر

= الشيخ عبد الرحمٰن التميمي ـ حفظه الله ـ، ثم تحول إلى جامعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه الإسلامية، برئاسته أيضًا، ثم أصبح الآن رئيسها الأستاذ مبارك بامعلم حفظه الله تعالى.

وتتبّعت أوراق سجلات المعهد في سورابايا وجاكرتا لأظفر بذي بال منها عن الهلالي، فلم أجد ـ للأسف ـ شيئًا.

(١) فصَّل الهلالي ذلك في مقالة له نشرت في مجلة «البعث الإسلامي» الهندية، المجلد العشرون، الأعداد الخامس والسادس والسابع، محرم وصفر وربيع الأول، سنة ١٣٩٦هـ (ص٢٣٧ ـ ٢٣٨) بعنوان (ندوة العلماء ودار علومها لأحد المشاركين فيها).

(٢) من أساتذة الكلية الشرقية في موسكو، وأعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق، ولد سنة ١٨٩٠م وتوفي سنة ١٩٥٧م، وله جهود عظيمة في توصيف المخطوطات، انظرها في «معجم أسماء المستشرقين» (١٥١).

(٣) كرره الهلالي في عدة مقالات له، وكان ذلك في معرض تدريسه للغة العربية في ندوة العلماء في الهند، انظر ـ على سبيل المثال ـ مقالته (مسعود الندوي أفضل تلامذتي الهنديين) المنشورة في مجلته «لسان الدين» (السنة الأولى) (الجزء السابع) صفر ١٣٦٦ (ص٣٣ ـ ٣٨).

درس، ويمتنع من الترجمة امتناعًا كليًّا، فإن تعلُّمَ لغة بلغة أخرى عقيم وفيه مفاسد:

أولها: أن أكثر الوقت يمضي في استعمال لغة غير مقصودة بالذات، فيشتغل اللسان والفكر بشيء غير مقصود لذاته، وذلك تضييع للوقت.

وثانيها: أن المتعلِّم بتوسُّط لغة أخرى يضطر إذا أراد أن يكتب أو يتكلم إلى التفكير باللغة المتوسطة، ثم ينتقل منها إلى اللغة المقصودة؛ ولنضرب لذلك مثلًا: طالب عربي يريد أن يتعلم اللغة الإنكليزية، إذا علمناه اللغة الإنكليزية بواسطة اللغة العربية، وأراد أن يتكلم بالإنكليزية أو يكتب مقالًا فلا بد أن يفكر أولًا بالعربية، ثم ينتقل منها إلى اللغة الإنكليزية، فيجيء كلامه وإنشاؤه ركيكين خاليين من الفصاحة وحسن البيان.

ثالثها: أن مدة تعليمه تطول؛ لأن اللغة المقصودة بالذات لا تنال من وقته إلا القليل كما تقدم. وضرب لذلك مثلًا الأطفال الصغار: كل طفل يتعلم لغة أمه بدون ترجمة ـ مع ضعف إدراكه ـ في مدة قصيرة، فينطق بها بغاية الفصاحة ولا يشعر بأدنى تكلف.

وهذا هو الأسلوب الصحيح لتعلم اللغات وهو تكرار السماع على أذنيّ المتعلِّم يعقبه النُّطقُ الصحيح، والكبير أحوج إلى هذا الأسلوب وأكثر انتفاعًا به؛ لكمال إدراكه، وكم رأينا من رجلٍ غريبٍ حلَّ بأرضِ قومٍ وهو لا يعرف من لغتهم شيئًا، وفي بضع سنين صار فصيحًا في لغتهم دون استعمال ترجمة.

ومن نصائح العالم الجرماني (برلتس) لمن يريد أن يُعلِّم النَّاس لغةً، أن يبدأ بالمرئيات؛ فيأخذ الكتاب مثلًا، ويشير إليه وينطق بلفظ (كتاب)

فيسمعه المتعلِّم فينطق مثله، ويكرر ذلك، حتى يرسخ اسم الكتاب في ذهنه، ثم ينتقل إلى القلم والقرطاس والمسطرة وهكذا دواليك. أما في الأفعال؛ فيقوم المعلم وينطق بلفظ (أقوم)، ويجلس وينطق بلفظ (أجلس)، ويمشي وينطق بلفظ (أمشي)، وهكذا إلى أن يتعلم الطالب ما يكفي السؤال والجواب، فينتقل معه إلى طريقة السؤال والجواب، وهي أحسن الطرق في تعليم اللغات، وقد شاع هذا الأسلوب في هذا الزمان.

وقد استعملتُ هذا الأسلوب ولقيت صعوبة في أول الأمر، لأنِّي كنت أدرّس كتب النهايات، وبعد شهرين زالت الصعوبة وصار الطلبة يفهمون. وكنتُ أعلِّم الإنشاء والخطابة مرتين في الأسبوع في مقصورة واسعة مُعدَّة لإلقاء الخطب، ففي ثلاث سنين وبضعة أشهر تخرج في الأدب العربي جماعة من الشباب؛ أذكر منهم: مسعود عالم النَّدْوي[(١)]، وأبا الحسن علي النَّدْوي[(٢)] ـ وقد ذكرتُه من قبل ـ ومحمد ناظم النَّدْوي[(٣)]، وأبا الليث شير

(١) هو الأستاذ الكبير الشيخ مسعود الندوي، منشئ مجلة «الضياء» الصادرة من ندوة العلماء ـ الهند، ومؤسس دار العروبة في باكستان، وكاتب العربية القدير، والصحافي البارع، مؤلف كتاب «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» و«محمد بن عبد الوهاب؛ مصلح مظلوم ومفترى عليه»، كان في مقدمة من استفاد من الشيخ الهلالي وعلى رأسهم، وهو أشهر من أَنْ يُعرَّف، مات في ١٠ رجب سنة ١٣٧٣هـ.

وللهلالي معه مراسلات وذكريات، انظر «مراسلات الهلالي» (٤/ ١٧٢٩ ـ الفهارس).

ترجمته في «الثقافة العربية في باكستان» (٢٢٥٤) «علماء العرب في شبه القارة الهندية» (٨٦٣).

(٢) سبقت ترجمته، وبيان صلته بالهلالي، وظفرت بعدة مراسلات بينهما تراها في كتابي «مراسلات الهلالي» (٢/ ٩٣٢ ـ ٩٥٦)، وينظر تعليقي عليها.

(٣) كان مدير جامعة (بهاون بول) في الباكستان. انظر عنه «مراسلات الهلالي» =

محمد النَّدْوي[1]، وهو رئيس الجماعة الإسلامية في الهند في الوقت الحاضر، وصار هؤلاء وغيرهم كتَّابًا ومؤلفين وخطباء، ولم يعهد مثل ذلك في الهند، وقد بين ذلك تلميذي الأستاذ أبو الحسن عليّ النَّدوي في مقالات نشرها. ولم يكن راتبي يزيد على مائة روبية، ولكنني كنت أحتسب عند الله من الأجر والثواب في العاجل والآجل ما يفوق القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. واغتبَطَ بذلك رئيس الندوة السيد سليمان النَّدوي ونائبه وساعده الأيمن الطبيب الماهر الدكتور عبد العلي[2]، واقترح عليَّ السيد سليمان أن أنشئ مجلة باللغة العربية ليتدرب فيها المتقدِّمون في العلم من الطلبة بكتابة المقالات، فأنشأت مجلة «الضياء»، وكان لها شأن عظيم لمدة من الزمن[3]، والآن تصدر في الندوة حفيدتها

= (٣/ ١١٧٢، ١٣٢٩)، «آراء وأحاديث مع تقي الدين الهلالي» (٢٥).

(١) هذا اسمه القديم، و(شير) تعني: الأسد، وسماه الهلالي (أبا الليث)، وهو من كبار العلماء الزهاد، انتخب بعد انقسام الهند أميرًا للجماعة الإسلامية الهندية، فقادها أكثر من ثلاثين سنة. توفي في ١٦ جمادى الأولى سنة ١٤١١هـ.

(٢) هو الحسيني، مضت ترجمته، وهو أخو أبي الحسن الندوي.

(٣) ما أجمله الهلالي هنا فصَّله تلميذه سعيد الأعظمي النَّدْوي في مقالة له بعنوان (العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي المراكشي)، نشرت في مجلة «البعث الإسلامي»، المجلد الثاني والثلاثون، العدد الخامس، محرم ١٤٠٨هـ ـ سبتمبر ١٩٨٧م (ص٨٠ ـ ٩٠)، وتخدم كثيرًا موضوع الكتاب، ويبيِّن جهد الهلالي في الدعوة إلى الله تعالى من خلال التعليم، ونظريته الإصلاحية فيه، وتراه بطوله في كتابي «مراسلات الهلالي» (٣/ ١١٦٨ ـ ١١٧٩)، فراجعه فإنه (مهم).

ثم وجدت تعريفًا جيدًا لهذه «المجلة» لحفظ الرحمٰن الإصلاحي يقول في كتابه «دور الهند في نشر التراث العربي» في (الفصل الثامن: إطلالة على ازدهار الصحافة العربية في الهند) (ص٢١٨ ـ ٢٢٠)، قال: (الضياء) مجلة عربية =

= شهرية بارزة طلعت على سماء الصحافة العربية في الهند، صدرت هذه المجلة في شهر محرم ١٣٥١هـ الموافق مايو **١٩٣٢**م من مدينة لكناو، تولى إدارتها الكاتب الإسلامي الشيخ مسعود عالم الندوي، وأشرف عليها الأستاذان الجليلان العلامة سيد سليمان الندوي والشيخ تقي الدين الهلالي المغربي الذي حقًّا يعد رائد النهضة الأدبية العربية في بلاد الهند، والذي تدرب على يده جماعة من العلماء والأدباء والكتَّاب باللغة العربية أثناء مكوثه في ندوة العلماء ـ لكناو بالهند.

كانت «مجلة الضياء» مجلة علمية أدبية تعليمية، وكانت تصدر في منتصف كل شهر عربي، ولهذه المجلة أثر بالغ في تنشيط الحركة الصحفية باللغة العربية وترسيخ جذورها في شبه القارة الهندية؛ لأنها أحدثت ثورة فكرية في الدوائر العربية والإسلامية في الهند، وبها بلغت الصحافة العربية في الهند أوجها وقمتها، وكانت في الحقيقة نقطة انطلاق لتطور الصحافة العربية وازدهارها في الهند حيث تصدر الآن حوالي خمسين دورية ـ صغيرة وكبيرة ـ باللغة العربية، والفضل في كل ذلك يرجع إلى «مجلة الضياء».

والجدير بالذكر أن «الضياء» ظهرت في عصر كانت فيه اللغة العربية بالهند تعاني من الجمود والركود، وكانت الكتابة العربية تتسم بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية، فقامت «الضياء» بإحياء اللغة العربية في الهند وأعادت إليها النشاط والحيوية واستخدمتها لأغراض علمية أدبية، ففي مثل هذه البيئة صدرت هذه المجلة وبلغت مستوًى عاليًا بين الصحف؛ حتى نالت إعجاب الصحفيين والمثقفين في الهند وخارجها وخاصة في البلاد العربية، لأن «الضياء» كانت ترجمانًا وحيدًا لمسلمي الهند لدى إخوانهم العرب في ذلك الحين، فأشاد بها كثير من كبار الشخصيات والعلماء والمفكرين من البلدان العربية، ونوه بها عدد من الجرائد والمجلات العربية، وننقل هنا بعض المقتطفات منها: فقد كتبت عنها جريدة «الصفاء» اللبنانية: «في مدينة لكناو مجلة عربية اسمها «الضياء» ينشرها الأستاذ السيد مسعود عالم الندوي، مطبوعة على الحجر، مشتملة من البحوث الإسلامية على كل مفيد، وليس في الهند مجلة ولا جريدة عربية اللغة سواها. هي أصح لغة وأروع أسلوبًا من أكثر الجرائد والمجلات التي تنشر في الأقطار العربية». =

مجلة «البعث الإسلامي» وهي أشهر عند قراء اللغة العربية من نارٍ على عَلَم.

محنة

كل قاصد لأمر عظيم لا بد له من امتحان، فإذا صبر ظفر وانتصر، وإذا جزع وملّ خاب وانكسر، كان للنَّدْوة رجال من مشاهير العلماء والأغنياء يدبِّرون شؤونها تحت رئاسة السيد سليمان النَّدْوي، واتفق أن أحد كبارهم ويسمَّى الشيخ الشرواني لقيني وكان يريد أن أخضع له كما يفعل معه غيري من الشباب، فلم أخضع له بل سلَّمتُ عليه سلامًا عاديًّا

= وذكرتها مجلة «العرفان» بهذه الكلمات: «دخلت مجلة «الضياء» الهندية في سنتها الرابعة وهي تحمل مشعل الضياء والهداية وتنشر المواضيع النافعة، ولولا طبعها الحجري ـ وهو غير مألوف اليوم ـ لعددناها في طليعة مجلاتنا العربية الراقية، لأنها في قطر أعجمي».

وأضافت المجلة نفسها قائلة عن «الضياء»: «مجلة علمية أدبية تعليمية اجتماعية شهرية تصدر في منتصف كل شهر لمنشئها مسعود عالم الندوي، الذي هو من أفاضل المنورين، وهي من المجلات الراقية، المواضيع فصيحة والتعبير بليغ، نتمنى لها التوفيق والازدهار».

ومن المؤسف جدًّا أن مجلة الضياء انقطعت عن الصدور بعد أربع سنوات بسبب الظروف الاقتصادية القاسية، إلا أنها تركت أثرها البالغ على عقول مسلمي الهند بمقالاتها العلمية القيمة، كما جلبت للمساهمين فيها السمعة والشهرة في البلاد العربية لاهتمامهم باللغة العربية وآدابها، وتقدمت بها مسيرة الصحافة العربية في الهند تقدمًا ملموسًا.

فالصحافة العربية التي بدأت رحلتها منذ صدور النفع العظيم لأهل هذا الإقليم في عام **١٨٧١**م بلغت أوجها مع صدور الضياء في عام **١٩٣٢**م، وبذلك انتهى العهد البدائي للصحافة العربية في الهند، ليبدأ عصر التطور والازدهار في مجال الصحافة العربية في الهند.

فاغتاظ، وقال لي: لماذا تقصُّ لحيتَك؟ مع أنِّي كنتُ أترك منها قبضة اليد كما جاء عن عبد الله بن عمر[1]، فقلت له: أقصها لأنها لحيتي وليست لحيتك!! فقال: لا تأخذ منها شيئًا لأن الطلبة يقتدون بك، فقلت له: أنا أستاذ الأدب العربي وهناك أستاذ الفقه[2] وأستاذ الحديث[3] ولهما لحيتان طويلتان، فكيف يتركون الاقتداء بهما ويقتدون بي؟! فغضب وانصرف، وكان ذلك من نزوات الشَّباب، فعمل على إخراجي من النَّدْوة، فانتظر إلى أن انعقد مجلس رجال النَّدْوة (ولا أقول: **أعضاؤها**؛ لأنه محدث مقتبس من اللغات الأجنبية)، فخطب فيهم الشيخ الشرواني وقال لهم: هذا الأستاذ العربي لا يعرف لغة أردو ولا يمكن أن يتمكَّن من تفهيمِ الطلبة مسائل العلم دون أن يشرحها لهم بلغتهم التي يفهمونها، فردَّ عليه السيد سليمان النَّدوي والدكتور عبد العلي وبيَّنا له شدَّة حاجة الطلبة إلى سماع علوم الأدب العربي باللغة العربية، فوقع خلافٌ بين شيوخ النَّدْوة وأُخذت الآراء، فانتصر الشرواني.

فجاءني السيد سليمان النَّدْوي والدكتور عبد العلي متأسِّفَيْنِ ومعتذِرَيْنِ، وقالا لي: لا شكَّ عندنا أنك تريد بعملك في هذه المدرسة وجهَ الله تعالى بتعليم لغة القرآن، وقد قدر الشيخ الشرواني أن يقنع أكثر

---

(١) علَّق ذلك عنه البخاري في «صحيحه» على إثر (٥٨٩٢) بصيغة الجزم؛ وهو **صحيح** عنه.

(٢) أفاد في «الديوان» (٢٦٠) أن اسمه الشيخ شبلي. وهو من كبار أساتذة دار العلم، وأستاذ الفقه فيها، توفي في ١٧ رمضان سنة ١٣٦٤هـ.

(٣) أفاد في «الديوان» (٢٦٠) أن اسمه الشيخ حيدر حسن خان، عميد دار العلوم، وشيخ الحديث فيها، ومن كبار علماء الهند، ومن تلاميذ العلامة حسين بن محسن الأنصاري، توفي في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٦١هـ، رحمه الله تعالى.

الشيوخ برأيه الباطل، لجهلهم بشئون التعليم، فنرجو من فضلك أن تمهلنا أربعة أشهر، نجعل لك فيها سبعين[1] روبية بنقص ثلاثين من الراتب، وبعد أربعة أشهر، نرجو أن نفهم شيوخ الندوة مقدار الفائدة التي يجنيها الطلبة من علمك. فقبلت اقتراحَهما، وأسست مدرسة صغيرة في بيتي لتعليم التلاميذ الصغار اللغة العربية لأبين خطأ رأي الشرواني الذي يزعم أن تعليم اللغة العربية بدون ترجمة لا يمكن، فاتفقتُ مع الدكتور عبد العلي ورجل من أشراف البلد كنا ندعوه (منشى صاحب) نسيت اسمه، فاخترنا عشرة من التلاميذ من صبيان المحلة لا يزيد عمر أحد منهم على أربع عشرة سنة، وأخذت أعلمهم اللغة العربية بدون ترجمة طبعًا، وبعد أربعة أشهر دعونا الأساتذة ليمتحنوهم، فامتحنوهم في الإنشاء والإملاء والتحدُّث بالعربية والقراءة، فوجدوهم قد تعلَّموا في أربعة أشهر ما لم يتعلَّمْه غيرُهم من الطلبة الكبار في خمس عشرة سنة بالترجمة، فتعجَّب الحاضرون وازدادوا يقينًا بصحة ما قلته لهم. ثم انعقد مجلس النَّدوة وكان الرئيسان المذكوران قد عملا في تلك المدة على تفهيم شيوخ النَّدوة وإقناعهم بأن اللغة العربية لا يمكن تعلمها تعلمًا ناجحًا إلا باستعمالها نفسها، فأُخذت الآراء، فانهزم الشرواني ورجعتُ إلى الندوة.

مكرمة عربية

لما علم السَّري النبيل الشيخ مصطفى آل إبراهيم بهذه الحادثة[2] بعث إليَّ ألفًا ومائتي روبية وقال لي: إنّي سمعتُ أنَّ أهل الندوة عزلوك، فبعثتُ

(١) في «الديوان» (٢٥٩): «والاكتفاء بثُلثي الراتب».

(٢) في «الديوان» (٢٦٠): «فكتب إليَّ كتابًا يطلب مني الرجوع، وبعث إليَّ...» إلى آخره.

إليك هذه الدراهم وأنا مستعد لتلبيتك في كلِّ طلب. وهذا المقدار الذي أهداه إليَّ هذا الرجل الكريم يساوي راتبي في الندوة لمدة سنة، وكم له من مكارم. وهذه مكرمة أخرى نسيتُ أن أذكرها في موضعها: لما أمضيت سنة في الدورة اجتمع عندي من المال ما يكفي للتزوج والمعيشة، استشرت العالم السلفي المحقق المتفنن في علوم كثيرة الشيخ محمد بن أمين الشنقيطي(1) نزيل (الزبير) بلدة قرب البصرة، استشرته وطلبته أن يساعدني على اختيار زوجة ولم أكن أعلم أن عنده بنتًا بلغتْ سنَّ الزواج، فلما أُخبرت بذلك خطبت إليه ابنته فقال لي رَحِمَهُ اللَّهُ: أنا لا أجد لها أحدًا أفضلَ منك، ولكن أمرها يبدأ منها(2) فأنا أكون واسطة بينكما، فقلت: إنِّي مستعدٌّ لإرضائها، فلْتطلب من المهر ما شاءت، فطلبت مهرًا عاليًا فأجبتُها إلى طلبها.

(١) هو محمد الأمين بن عبدي فال الخير الحسني الشنقيطي. ولد سنة ١٢٩٣هـ، وتوفي سنة ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.
التقى الهلالي به أثناء إقامته بمدينة البصرة سنة ١٣٤٣هـ، وزوَّجه ابنته عائشة، وانتفع كثيرًا بمجالسته ومذاكرته، والشنقيطي هذا ليس هو صاحب «أضواء البيان»! وللهلالي ترجمة مطولة عنه نُشرِتْ في «الفتح» المصرية، المجلد السابع، العدد (٣١٩)، بتأريخ ١٨ رجب ١٣٥١هـ (ص٣ ـ ٤)، وعنها «المنار» الجزء الثاني، المجلد الثالث والثلاثون، ذو الحجة ١٣٥١هـ ـ إبريل ١٩٣٣م (ص١٣٠ ـ ١٣٣)، وأودعتُها في كتابي «مقالات الهلالي».
له ترجمة في «علماء الكويت وأعلامها خلال ثلاث قرون» (٦٨٩)، «من أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر» (٧١)، «شيخ الأدباء في البحرين إبراهيم بن محمد خليفة» (ص٩٥) للشيخة مي محمد الخليفة، «أعلام الشناقطة في الحجاز والمشرق» (ص٣١٢ ـ ٣٢١)، «إمارة الزبير بين هجرتين» (٣/١٤٦).
ولتلميذه عبد اللطيف الدليشي «الشيخ محمد الأمين الشنقيطي» نشره عن وزارة الأوقاف العراقية، ثم في مؤسسة المطبوعات العربية سنة ١٤٠١هـ.
واعتمد الدليشي في ترجمته على مذكرات خاصة للمترجم له.

(٢) الصواب: أمرها بيد أُمِّها. (خ)

وكان الشيخ مصطفى آل إبراهيم إذ ذاك في الهند، فلما سمع بعزمي على الزواج بعث كتابًا إلى وكيله الشيخ أحمد المشاري آل إبراهيم ـ بارك الله في حياته ـ يقول له: اجعل نفقات زواج الهلالي من السركار[1]، فقال لي الشيخ أحمد: إن مصطفى كتب إليَّ بكذا وكذا، فكم تحتاج إليه من النفقة؟ فقلت: لا أحتاج إلى شيء، فقال: لا بد من تنفيذ ما طُلِب منِّي، فأصررت على أني لا أريد شيئًا، فكتب لي كتابًا إلى الحاج أحمد الذكير[2] بالبصرة يقول فيه: أي مقدار طلبه منك حامل الكتاب فلان فأعطه إياه. ورافقني أحدُ عبيدهم وهو أبو مقبل، فقال لي: إن الشيخ أحمد كتب إلى الذكير بكذا وكذا، فكيف تمتنع من قبول هديتهم وأنت أستاذهم ونحن عبيدهم وخدامهم يزوجوننا من السركار؟! وأخذ يخاصمني طول الطريق من الدورة إلى البصرة، ويقترح عليَّ أن أطلب من الحاج أحمد على الأقل ألفي روبية، وكان سعر الروبية في ذلك الزمان ثلاث عشرة روبية بجنيه إنكليزي، فلما وصلنا إلى الحاج أحمد الذكير قال لي: كم تريد؟ فقلت: ألفًا وخمسمائة. فلما علم ذلك الشيخ مصطفى بعث إليَّ من الهند حوالة[3] قدرها سبعمائة روبية، فصار المجموع ألفين ومائتين روبية، فأسأل الله سبحانه أن يكرمه في الدنيا والآخرة، والسبب في ذلك كلِّه حركة إعراب وهي فتحةُ قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] لأنها كانت سبب التعارف[4] ثم صارت بيننا رابطة توحيد الله واتباع رسوله ﷺ.

---

(١) سبق بيان معنى ذلك في التعليق على (ص٤٢٠).

(٢) ذكر اسمه في المواطن الآتية: (حمد)، فصوبتها إلى (أحمد)، فاقتضى التنويه.

(٣) انظر مصوَّرتها في (النماذج) المرفقة آخر الكتاب (رقم ٩).

(٤) سبق بيانه (ص٤١٢).

رحلة إِلى أفغانستان[١]

وقعت في أفغانستان في ذلك الزمان حركة أمان الله خان[٢]، وأُشيع أنه أراد تغيير أحكام الإسلام من جنس ما فعله مصطفى كمال في البلاد التركية، فثار عليه الملك نادر شاه وقضى على حركته[٣] واستولى على الملك، فتاقت نفسي إلى معرفة أحوال المسلمين في تلك البلاد، فتوجَّهتُ إلى سملة وهي عاصمة بلاد الهند الصينية[٤]، وحصلت على سمة دخول إلى أفغانستان من السفارة الأفغانية. ومدينة سملة مبان متفرقة في سفح أحد جبال هملايا، والتجول فيها لا يمكن إلا بركوب الركشة، وهي عربة فيها مقعد واحد يجرُّها رجلان من أمام ويدفعها رجلان من خلف، لأن الطريق جبلية ضيقة[٥] ولا

---

(١) كان ذلك في سنة ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م في فرصة مدرسة دار العلوم الصيفية، من الهند إلى أفغانستان، واستمرت خمسين يومًا.

(٢) فصَّل الهلالي (محدثات أمان الله خان) في مقالته (دار الأمان أو كابل الجديدة) المنشورة في مجلة «الفتح»، المصرية، المجلد التاسع، العدد (٧٠٤) الخميس ٢٨ ربيع الثاني ١٣٥٣هـ (ص٩). وذكرتها عنه في كتابي «رسائل الهلالي» (٣/ ١٢٣٢ ـ ١٢٣٤)، فلتنظر فيه، وهي تحت العناوين الآتية (اللباس، كشف الحجاب، بعثة الطالبات، تبديل يوم الجمعة، إغلاق المساجد، الطامة الكبرى)، وكتبها في مدينة كابل في ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ، ونشرها وهو في البصرة ٧ ربيع الثاني سنة ١٣٥٣هـ.

(٣) حكم البلاد تسعة أشهر، وقام عليه محمد نادر خان، وحاربه ستة أشهر، حتى انتصر عليه، أفاده الهلالي في المقالة المنوّه بها.

(٤) هي الآن (البنغال) الواقعة في الهند.

(٥) أتيتُها في شوال سنة ١٤٣٤هـ، والطريق في الصعود إلى جبال هملايا مرعبة، =

يوجد في ذلك الجبل عدا ذلك إلا سكة الحديد وطريق واحد يمتد في وسط المدينة يمكن أن تسير فيه السيارة.

وكان الشيخ إسماعيل الغزنوي رَحِمَهُ اللهُ كتب لي توصية إلى إمام المسّجد، وبعد مشقَّةٍ وصلت إلى المسجد فلم أجد الإمام، فأعطاني قيِّم المسجد غرفةً مفروشةً حين أخبرتُه أنني جئت إلى الإمام بوصية، وكان الوقت بعد صلاة الظهر وكنت جائعًا، فخرجت من المسجد فرأيت بيتًا كالدكان فيه رجل يطالع كتابًا له لحية طويلة سوداء، فتوسَّمتُ أن يكون مسلمًا فسلَّمتُ عليه فردَّ عليَّ أحسن رد، وقلت له: إني جائع أريد طعامًا. فدلني على مطعم قريب، فطوى كتابه وقام وسَدَّ الدكان وقال: اتبعني. فصعد في الجبل في طريق للمشاة ويسمّى في جبال نمسا بـ (الطريق الحنشي) لأنه يشبه الحنش، حتى وصلنا إلى بيت، فدخل وأذن لي في الدخول ثم فتح مقصورة وأمرني بالجلوس فجلست، وغاب عني قليلًا وأنا أتعجب لأن هذا المكان ليس بمطعم قطعًا، فجاءني بطعام كثير، فأكلت، ثم جاء بالحلوى، ثم قال لي: هذا بيتي أرجو أن يكون هذا الطعام قد وافقك. وكان كلامه كله بالعربية، ثم سألني: من أنتَ؟ فقلت له: أنا محمد تقي الدين الهلالي أستاذ اللغة العربية بندوة العلماء. فعانقني وقبَّل رأسي، وقال لي: هذا يوم مبارك سعيد. فنادى ابنه وهو شاب في سن العشرين، وقال له: إن الله أكرمنا في هذا اليوم بكرامة عظيمة؛ هذا الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي مؤسس مجلة «الضياء» الذي نقرأ مقالاته، ونحن في شوق إلى لقائه، قد جاءنا وشرَّف بيتنا. فعانقني ابنه، وبالغا كلاهما في الترحيب، ومن سوء الحظ نسيت اسم هذا الرجل وكنت أذكره إلى وقت

= واضطرتنا إلى الوصول إليها بركوب طائرة هولكبتر، وفصلت ذلك في كتابي «رحلات إلى بلاد المخطوطات ـ الهند».

قريب، ثم ذهبنا إلى المسجد، والتقينا بالإمام الذي جئتُ بتوصيةٍ إليه، فقرأها، وتنافس الرجلان في ضيافتي وإكرامي؛ فبقيت في ضيافتهما ثلاثة أيام، قضيت في أثنائها الوطر الذي سافرت إلى سملة من أجله؛ وهو طلب سمة الدخول إلى أفغانستان من السفارة الأفغانية، إلا أن رجال السفارة مع إكرامهم لي اعتذروا لي بأن النظام المتبع يقتضي أن تبعث رسالة برقية إلى وزارة الخارجية في كابل، فإذا جاء الإذن منها يمكن إعطاء سمة الدخول. قال لي أحد رجال السفارة: أيمكنك أن تدفع ثمن البرقية؟ فقلت: نعم. فقال لي: سأحاول أن أجعلها رخيصة الثمن، لأن العادة تقضي بأن نكتبها باللغة الفارسية لكن بحروف إنكليزية، والقانون يقضي على مكتب البريد أن يعدَّ كلَّ خمسة عشر حرفًا كلمة واحدة، ولذلك سأجمع لهم في كلّ كلمة عدة كلمات. فشكرته على ذلك، فلم يبطئ الجواب، وجاء بالقبول، فتوجَّهتُ من سملة إلى لاهور ومنها إلى بشاور، وبقي عليَّ أمران:

أحدهما: طلب الإذن بالدخول إلى أفغانستان من السفارة الفرنسية، وأقرب سفارة فرنسية إلى بشاور هي بومباي، والمسافة بين بشاور وبومباي خمس وثلاثون ساعة في القطار ذهابًا ومثلها إيابًا، وفي ذلك من النفقة والتعب ما لا يخفى، وكان عندي جواز مغربي فرنسي آخرُ بلد مذكور فيه (فارس) وتسمى بالفرنسية (لابرس)، وقواعد اللغة الأوروبية كالفرنسية والإنكليزية والجرمانية والإسبانية تقضي في المتعاطفات أن لا يذكر حرف العطف إلا في آخرها، فإذا أرادوا ـ مثلًا ـ أن يقولوا: جاء زيد وعمرو وبكر وخالد، يقولون: جاء زيد عمرو بكر وخالد، ومَنْ تفطَّن إلى لغة القردة من كتّاب العرب ومذيعيهم يجدهم يستعملون هذه القاعدة في اللغة العربية، ففكرتُ للمرة الأولى والأخيرة في التصرف في جواز السفر بزيادة لفظة (أفغانستان) فجربت ألوانًا من الحبر حتى وجدت حبرًا مشابهًا للحبر الذي كُتِبَتْ به أسماء البلدان المأذون في دخولها في

جواز سفري، وكان جواز سفري قد بلغ بكثرة الإضافات خمسين صفحة يتحير فيه كل من رآه حتى أرشده أنا إلى ما يريده، فلما وجدت الحبر المناسب عمدت إلى حرف العطف الذي قبل فارس فكشطته بسكين حادة ثم كتبت مثله وبعده كلمة (أفغانستان)، وهذه مخاطرة عظيمة ولا سيما في مدينة بشاور، لأنها آخر مدينة في حدود المستعمرة البريطانية العظمى التي كانت تسمى الهند الإنكليزية، وفيها من الشرطة السرية والعلنية ومراقبة المسافرين ما يوجد عادة في البلاد التي على الحدود، فلا بد أن أدخل امتحانًا عظيمًا حين أقدم جوازي لرجال الأمن لأنهم يفحصونه فحصًا دقيقًا، وإذا اطلعوا على التزوير يبالغون في عقابي. وكنت قد نزلت ضيفًا مكرمًا عند الشيخ عبد العزيز النَّدْوي البشاوري[1]، وكان من كبار التجار ومن العلماء، فبقيت عنده أسبوعًا. ومن خصائص هذه المدينة أن أهلها لهم صهاريج كبيرة يملأونها ثلجًا في وقت الشتاء، وفي وقت الصيف يأخذون منه كل يوم ما يبردون به مشروباتهم، وأظن أني رأيتُ مثل ذلك في مدينة كركوك وأربيل في شمال العراق، وكتب لي توصية لابن عمِّه في كابل، وهو تاجر كبير اسمه (إلهي بخش).

ثم دخلت الامتحان وهو تقديم جواز سفري لرجال الأمن ليرخِّصوا لي في الخروج من الهند إلى أفغانستان، وكنت خائفًا جدًّا أن يكتشفوا التزوير، فأعماهم الله عنه ورخصوا لي في الخروج من الهند. وقبل أن أخرج من بشاور أخبر القارئ أن سكانها أفغانيون يتكلمون بأربع لغات: لغتهم الخاصة، ولغة أردو، ولغة بشتو وهي الأفغانية، واللغة الفارسية وهي لغة حكومة أفغانستان الرسمية والعلمية، ولغة بشاور قريبة من لغات بنجاب!

ويختلف الأفغانيون عن أهل الهند ببياض ألوانهم وقوة أجسامهم

(١) كان الهلالي يعدّه حكيمًا، وانظر «مراسلات الهلالي» (٤/ ١٧٠١ ـ الفهارس).

وكثرة أكلهم بالنسبة إلى أهل الهند. ركبتُ سيارة البريد وتوجهت إلى كابل، ولما وصلتها أخذت عربية إلى بيت إلهي بخش فوصلت إلى بيته وناولته الكتاب، فقال لي بلغة أردو: بأي لغة تتكلم؟ فقلت له: بالعربية. فقال لي: بالعربية فقط؟ فقلت: نعم، ثم قلت له: إن العربية لغة القرآن ولغة الرسول ﷺ فيجب على كل مسلم أن يتعلمها. فقال: (مشكل) وهذه الكلمة تستعمل في لغة أردو بمعناها العربي، ثم قال لي: ادخل. فدخلت وصعدت معه الدرج إلى الطبقة الأولى، بناء على اصطلاح الأوروبيين، فإنهم لا يعدون الطبقة الأرضية، فوجدت فيها مكتبه التجاري وغرفًا أخرى، فجاءني بالشاي الأخضر، لأن أهل أفغانستان يشربون الشاي الأخضر كالمغاربة، وجاء بالخبز، فملأ كأسي وحلّاها بالسكر فشربتها وأكلت معها شيئًا من الخبز، ثم صبّ لي الكأس الثانية إلى نصفها ولم يملأها ولا وضع فيها سكرًا! فقلت له: ضع فيها السكر. فقال لي: إنها الكأس الثانية. فقلت له: وهل الكأس الثانية تشرب مُرَّة؟ فقال: نعم هذه عادتنا نحن لا نحلّي إلا الكأس الأولى، وما زاد عليها نجعله إلى النصف مرًّا، فقلت: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. ثم صعد بي إلى الطبقة الثانية وأدخلني غرفة مفتوحة للسطح وفيها فراش، فقال لي: اجلس هنا وأنا أرجع إلى أشغالي التجارية وسأعود إليك بعد صلاة الظهر، فأخرجت القرطاس والقلم وكتبت إلى الشيخ عبد العزيز الندوي كتابًا قلت له فيه: إن ابن عمك إلهي بخش لم يكرمني ولم يتلقني ببشاشة، فبدلًا من أن يرحّب بي قال لي: (مشكل) وسأنتقل من بيته إلى (مسافر خانه) أي: بيت المسافر، وهو بمنزلة الفندق في أقرب فرصة، ووضعتُ الكتابَ في غلاف وكتبت عليه العنوان باللغة الإنكليزية، فلما جاء بعد صلاة الظهر رأى ذلك الكتاب موضوعًا إلى جانبي، فقال لي: من كتب هذا؟ فقلت: أنا. فقال: تعرف اللغة الإنكليزية؟ فقلت: نعم.

فتهلل وجهه وظهرت عليه أمارات الفرح وأخذ يتكلم معي بالإنكليزية، فقال لي: لما سألتك ماذا تعرف من اللغات قلت: لا أعرف إلا العربية، فلماذا لم تخبرني بأنك تعرف اللغة الإنكليزية؟ فقلت: لم يخطر ببالي أنك تعرفها؛ لأنَّ هيئتك بهذه اللحية الطويلة والثياب الأفغانية لا تدلّ على ذلك. فقال لي: بلى أنا سافرت إلى البلاد البريطانية مرارًا لجلب البضائع. واستمر على تلك البشاشة مدة إقامتي في كابل وهي خمسون يومًا، وبلغ به الحرص على إكرامي إلى أننا حين زرنا وزير الخارجية فضل محمد[1] لنأخذ منه الإقامة، دعاني الوزير إلى أن أكون ضيفًا على الحكومة الأفغانية، فجزع إلهي بخش لذلك، وقال له: أنا خادم الحكومة، وأنا أنوب عنها فأرجو أن تسمحوا ببقائه عندي. فقال: لا بأس.

ثم زرت العلماء وهم: الشيخ سيف الرحمٰن الأفغاني[2] والشيخ

(١) كذا قال الهلالي هنا، وهو خطأ، صوابه (فيضي محمد). هكذا سماه الهلالي في مقالة له نشرت في مجلة «الفتح» المصرية، المجلد التاسع، العدد (٧٠٤) بتأريخ ٢٨ ربيع الثاني ١٣٥٣هـ بعنوان (دار الأمان أو كابل الجديدة)، كتبها وهو في كابل في ربيع الأول سنة ١٣٥٢م.
وقال له في رسالة أخرى مؤرخة بـ ٨ ربيع الأول ١٣٥٢هـ: «حكومة أفغانستان اليوم هي هي بالأمس، والخطة واحدة، ولم يتبدل إلا الملك، فالطريقة التي تسلكها الحكومة الأفغانية اليوم هي طريقة مصطفى كمال قبل فتح إزمير».
وظفرت برسالة للهلالي وجهها إلى العلامة محمد رشيد رضا، وهو في لكناو بتأريخ ١٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢هـ، شرح له سفره إلى أفغانستان ومشاهداته هناك، ومما فيها: «وأما كون الوزراء كلهم ملاحدة إلا وزير الخارجية ـ يريد: فيضي هذا ـ، فلم يظهر إلحاده، فنعدُّه مسلمًا وجمهور الموظفين» وسماه (فيضي محمد)، انظر كتابي «مراسلات الهلالي» (٣/ ١٢٣٤، ١٢٣٧).

(٢) قال عنه الهلالي في الرسالة المنوّه بها سابقًا: «ومولانا سيف الرحمٰن لسان =

منصور الهندي[1] وشيخ الطريقة الشيخ المجددي؛ والطريقة المجددية في البلاد الأفغانية هي أعظم الطرائق انتشارًا وتليها الطريقة القادرية، وأهل أفغانستان كلهم إلا المتفرنجين متمسكون بطرائق المتصوفة، وشيوخ الطرائق كثير عددهم. وقد كنت جالسًا في مكتب إلهي بخش فجاء رجلٌ يتبعه ستةُ نفر ويعظِّمونه غاية التَّعظيم، فجلس وشرب الشاي ثم أعطاه إلهي بخش شيئًا من الدراهم وانصرف وتبعه عبيده، فقال لي الشيخ إلهي بخش: أتدري من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا شيخ طريقة. قلت: ومن هم أولئك النفر الذين يتبعونه؟ فقال لي: هم كل ما عنده من المريدين، وقد فرض عليهم أن يخصصوا يومًا في الأسبوع لخدمته من الصبح إلى المساء؛ يطوفون معه على التجار لجمع الصدقات. فتعجبت من ذلك، فقال لي: لا تعجب؛ فإن هذا شيخ محظوظ لأنه حصل على ستة مريدين، وهناك شيوخ ليس لهم ولا مريد واحد وهم يبحثون عمن يكون مريدًا لهم فلا يجدون، فيأتي أحدهم ـ مثلًا ـ إلى الرجل فيقول له: أريد أن تجعل لي بعض أولادك يكون مريدًا لي، فيقول: كل أولادي يتبعون شيوخًا آخرين. فيقول: أعطني من سيولد لك!! فيقول: قد وعدت بهم

= الوفد الأفغاني إلى ابن سعود، وهو مجاهد بلسانه، حارب الإنجليز سنين، وحارب الروس سنين، وهو في الحقيقة يعدُّ عالمًا، وجدتُه يعتقد أن صاحب «المنار» وشيخه محمد عبده إلى الإلحاد أقرب إلى الإسلام! ففهَّمْتُه غلطه، وشرحت له الحقيقة، . . .» انظر «مراسلات الهلالي» (٣/ ١٢٢٨، ١٢٣٥ ـ ١٢٣٦)، وسيف الرحمٰن هذا من علماء الحديث، واسمه ـ كما رأيته في إجازاته لبعض العلماء ـ سيف الرحمٰن بن غلا مجاتان بن عبد المؤمن فان الأفغاني الدراني العليكوزائي الفشاوري.

(١) قال عنه الهلالي في الرسالة المنوه بها سابقًا: «هو رجل عظيم، وعالم كبير، وسياسي محنك، وإنه كان معتمد سفارة أفغانستان في أنقرة أيام بداية مصطفى كمال». انظر «رسائل الهلالي» (٣/ ١٢٣٥).

شيخًا آخر. فإذا ظفر برجل يعده بأنه إذا وُلد له ولد يكون مريدًا له ينتظره إلى أن يولد ويكبر فيتخذه مريدًا.

أما الطريقتان المجددية والقادرية فهما غنيتان عن مثل هذا العمل. ورأيت الشيخ المجددي وأنا عنده يأتيه الشخص ويذكر له أن عنده مريضًا فيأخذ عُوذة من وعاء مملوء بالعُوَذ ويناولها إياه ويأخذ منه دريهمات. وهذا الشيخ المجددي يعظِّمه جميعُ الناس ويُقبِّلون يده حتى الملك نادر شاه(١)، وقد عرض عليه أن يكون وزيرًا للعدل فامتنع من ذلك لأنه يحطُّ

---

(١) كتب الهلالي وهو في لكناو في **١٤** جمادى الأولى سنة **١٣٥٢**هـ إلى السيد محمد رشيد رضا عن رحلته هذه، ومما قال له فيها عن (نادر شاه) ما نصه:
«أما أفغانستان؛ فكما ذكرتُ لكم، وما دعاني إلى تجشم السفر إليها إلا حبها وحسن الظن بها، وكنت سألتُ عنها الشيخ حسين أحمد ـ أحد أركان ديوبند، وأحد زعماء الهند سياسيًّا ـ؛ فراعني جوابه أنه قال لي: (إن نادر شاه أحد أصابع الإنكليز)! وحزنتُ لهذا القول، ولكني تأولته على تفسير زعماء الهند للمعاهدة التي بين الإنكليز ونادر تفسيرًا سيئًا.
ولقيت فيها إسماعيل الغزنوي، فأخبرته أن مدير المعارف ـ بل وزيرها ـ علق صورة لينين في مكتبه، فسأله إسماعيل عن ذلك؟ فقال له: (إني أعبد هذا الرجل)!
ثم لقيت الحكيم عبد العزيز النَّدْوي؛ فتكلم في نادرٍ بكلام شنيعٍ من قبيل ما ذكره حسين أحمد؛ فجادلته في ذلك، ولم أقبل منه، وكُنتُ أُسلِّي نفسي بأن الوجهة الدينية محفوظة، وإن خدشت الوجهة السياسية، مع علمي أن من لا سياسة له لا دين له! فلما وصلتُ إلى كابل واطلعتُ على الحقائق وجدتُ ـ لسوء الحظ ـ أن أملي كان في غير محله!».
انظر كتابي «مراسلات الهلالي» (**٣/ ١٢٣٢**).
ولخص شكيب أرسلان في كتابه «السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة» (ص**٤٦٤ ـ ٤٦٥**) رأي الهلالي، فكتب ما نصه: «إن صديقنا الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي سافر في فرصة مدرسة دار العلوم الصيفية من الهند إلى أفغانستان للوقوف على حال الإسلام والمسلمين فيها، فعاد كئيبًا حزينًا؛ وجد =

مِنْ قَدره؛ إذ يحتاج إلى أن يقف مع الوزراء في المحافل الرسمية، ثم قبله على أن ينيب عنه صهره في الاشتراك في المحافل ولا يباشر هو بنفسه عمل الوزارة. وقد رحَّب بي هؤلاء الشيوخ وفرحوا بمقدمي، وأجمعوا على أنه لا بد أن أنزل في ضيافة الحكومة، فكلموا وزير الخارجية، فقال لهم: لقد دعوته إلى ذلك من قبل فلم يقبل أبو مثواي، فحتَّموا عليَّ أن أنزل في دار الضيافة، فنزلت فيها وهي في الفندق الفخم المسمى (هوتيل دي كابل) خارج المدينة، ونزّال هذا الفندق ما بين أوروبي وأمريكي وتركي أو متفرنج يتزيا بزيهم، وبين الفندق ووسط المدينة نصف ساعة لراكب العربة، فشقَّ عليَّ أن أقيم في ذلك الفندق للأسباب التي ذكرتها، أضف إلى ذلك أن أجرة اليوم الواحد في ذلك الفندق ست عشرة روبية أفغانية، وأنا أستطيع أن أعيش بروبية واحدة في كل يوم، فإن الأطعمة والفواكه كثيرة ورخيصة، فلماذا أتحمل تلك المنَّة؟!

فبقيتُ ثلاثة أيام ثم قلتُ لأولئك العلماء: أنا جئتُ من الهند لزيارتكم والتحدُّث معكم، وقد أبعدتموني عنكم وصعَّبتُم عليَّ لقاءكم بهذه الضيافة التي حتّمتم عليَّ. فقالوا لي: نحن أردنا إكرامك، فإن كان

= أن رجال حكومة نادر خان، لا دين ولا إيمان، ولكن إعجاب بمصطفى كمال، لا يُقبل معه كلمة انتقاد، وعلماء جامدون جاهلون، ومشايخ طرق خرقيُّون معظَّمون، ولكن الملك نفسه يُعنى بإقامة الشعائر الشرعية وغير الشرعية كالموالد، وقد منع تهتك النساء وما أشبهه من الظهور بالمفاسد، وهم أسوأ الناس ظنًّا أو اعتقادًا بالوهابية، يُصرحون بكفرهم، ويدينون بشدة بغضهم، فالمتديّن الخرافي يبغضهم تدينًا، والمتفرنج الإلحادي يبغضهم لأنهم عرب. . .

يتردد الهلالي في بيان حال الأفغانيين في الجرائد، واستشارني فأشرت عليه بأن يصبر، فإن ضاق صدره بالكتمان فليكتب ناصحًا لا منتقدًا مشهرًا، وليرسل إليَّ ما يكتبه أولًا، ويأذن لي بتنقيح ما أرى المصلحة في تنقيحه».

الأمر كذلك فاذهب إلى وزير الخارجية واعتذر له بمثل ما ذكرت لنا، وكان الوزير قد عيَّن لي شهرًا كاملًا في الضِّيافة، فذهبت إليه فأعفاني من ذلك، ورجعتُ إلى بيت إلهي بخش.

الشيخ عمر أوزبك

من فوائد هذه الرحلة أنِّي لقيت العالم الأمير المجاهد الشيخ عمر أوزبك، وهو عالم من خيرة علماء أوزبكستان[1] من الأتراك المسلمين القاطنين بالاتحاد السوفييتي، حارب الاستعمار الروسي اثنتي عشرة سنة كما أخبرني هو بنفسه بذلك رحمة الله عليه، وقص لي قصته، وهي باختصار: أنه لما وصل الزحف الشيوعي إلى بلاده نادى في الناس بالجهاد فتبعه تلامذته وكثير من المؤمنين، وخرجوا إلى الجبال وأخذوا يغيرون على العدو المغير على بلادهم ليسلبهم أثمن شيء عندهم وهو الدين، فما زالوا يحاربون مدة اثنتي عشرة سنة حتى قُتِلَ أكثرهم وضاقت عليهم المعيشة، ففروا إلى الحدود الأفغانية فقبض عليهم الأفغانيون، وكان مع الشيخ أهله وثلاث مئة من خيرة أنصاره، ثم عرفت الدولة الأفغانية فضل هذا الشيخ وعلمه وصلاحه فأطلقت سراحه وأعطته مبنى كبيرًا سكن فيه، وجعل بعضه مدرسة ومسجدًا، ففرحت كثيرًا بلقاء هذا الشيخ لأن نور الإيمان كان يشرق على وجهه، كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) هي بلدة استقلت عن الاتحاد السوفييتي (روسيا)، وعادت لها العافية في دينها، وعاصمتها (طشقند) ـ التي كانت تسمّى (الشاش) قديمًا ـ، وفيها المدن التي ينتسب إليها مشاهير علماء الحديث، كـ (بخارى) و(ترمذ) و(الكش) و(سمرقند)، ولي رحلة إليها في سلخ جمادى الأولى ١٤٣٣هـ يوافق ٢٠١٢م، وهي مدوّنة، لم تنشر.

الكلام بالعربية

كنتُ أزورُ هذا الشيخ مرّة بعد مرَّة، فجاءني يومًا رجل وقال لي: إن زوجة الشيخ تسلِّم عليك، وتقول: إنها علمت أن الشَّيخ قد فرح بقدومك وأَجَلَّك، فهي ترجو أن تشفع لها ولأولادها عنده أن يتكلَّم معهم بلغتهم ولو ساعة في كلِّ يوم. فقلت في نفسي: هذه معضلة! ثم ذهبت إليه وشفعتُ عنده، فقال لي: إن الروسيين أجبرونا على تعلم لغتهم فتعلّمناها، وأتقنَّاها، ولولا أنهم علموا أن تعلم لغة القوم يقرب المتعلِّم منهم لما أجبرونا على تعلُّم لغتهم، فأنا لا أتكلَّم مع المسلمين الأقربين والأبعدين إلا بلغة القرآن والرسول ﷺ، فإنْ شاءت هي وأولادها أن أتحدَّث معهم فليتعلَّموا لغة القرآن والرسول وأنا مستعدٌّ لتعليمهم إياها. وكان هذا الشيخ الجليل يتقن ثلاث لغات: التركية، وهي لغته، والفارسية، والروسية، كتابةً وقراءةً وتحدُّثًا وتأليفًا، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ صادقًا فيما ذكر.

زيارة الملك

في تلك الأيام جيء بجنازة محمد عزيز خان أخي الملك نادر شاه قُتِلَ في جرمانية، وكان سفيرًا لأخيه في برلين، فوجهت أم الملك السابق أمان الله خان طالبًا أفغانيًّا لقتله انتقامًا لابنها فقتله، وكان وزير الخارجية فضل[1] محمد قد عرض عليَّ مرتين زيارة الملك فدعوت للملك بخير، وقلت: لا حاجة لي عند الملك وإنما جئت للقاء العلماء، فإن كان واجب الضيافة يقضي عليَّ بزيارته فأنا مستعدٌّ لها، فلما جاءت جنازة

(١) صوابه: «فيضي محمد»، وتقدّم.

أخيه رأى العالمان الجليلان الشيخ سيف الرحمٰن والشيخ منصور أنه لا بد من زيارته وتعزيته، فذهبت معهما وعزَّيناه، فتلقَّانا بما ينبغي للعلماء من الإجلال، وجلسنا في مكان غير بعيد من مجلسه، وكان المجلس يضم جميعَ الوزراء والأعيان وسفراء الدول كلهم، فكانت الوفود من القبائل والمدن تأتي لتعزيته، فلا يكاد الوفد الواحد يحصل على أكثر من خمس دقائق؛ لكثرة الوفود، وضيق الوقت المحدد، وكان كلُّ وفدٍ يقدِّم أمامه قارئ القرآن فيقرأ آية واحدة قصيرة ثم يعزونه بالفارسية وينصرفون ليتقدم وفد آخر، ولما تكلم بالفارسية فهمت تقريبًا كل ما قال، وفي السوق إذا سمعت كلام أصحاب الدكاكين لا أفهم ما يقولون إلا قليلًا، وسبب ذلك أن المتكلمين باللغة الفارسية في تلك البلاد مختلفون، فكلما ازداد أحدهم علوًّا في الثقافة والأدب الفارسي يُكثر من إدراج المفردات والجمل العربية في كلامه، فلا يبقى إلا الضمائر وبعض الأفعال التي تُختم بها الجمل، وبينما نحن كذلك جاء الشيخ عمر أوزبك، ولم يصحبه أحد ـ مع أن تلامذته يُعدّون بالمئات كما تقدم ـ وأظنُّه فعل ذلك تواضعًا، ووقف أمام الملك فتعوذ وبسمل بصوت عال وبدأ سورة طه حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]، وذلك ربع هذه السورة، وكانت قراءته في غاية الترتيل ولم يجسر أحد أن يقول له: قد أطلت وأخذت أكثر من حقك من الوقت فاختِمْ، ثم عزاه بالعربية الفصحى وانصرف.

لماذا لم أحرص على زيارة المَلِك؟

لم أحرص عليها؛ لأنَّ القوم اعتادوا أن لا يجيئهم أحدٌ من العرب إلا طامعًا في رفدهم، فتوكَّلتُ على الله، وقلتُ في نفسي: لأقيمنَّ لهم

البرهان على أن العرب ليسوا كلهم مُسْتجدين، لا سيما وقد علمتُ من أستاذ اللغة العربية وهو مصري ـ نسيت اسمه لسوء الحظ ـ أنه في تلك السنة زار أفغانستان رجلان ممن ينتمون إلى العلم والأدب؛ أحدهما عراقي والآخر شامي (ولا أقول: سوري لأنه معرَّب سرياني، كما أن سوريا معناه: بلاد السريانيين، والعرب لا تعرف بين العراق ومصر إلا الشام كما قال شاعرها:

أَزَمَـانُ سَـلْـمَـى لَا يَـرَى مِـثْـلُـهَـا   الرَّاؤُونَ فِي شَامٍ وَلَا فِي عِرَاقْ[1]

وأشعارهم في ذلك كثيرة).

أما العراقي فحكى لي عنه أمورًا قبيحة؛ منها أنه عندما أراد التوجه إلى أفغانستان ذهب إلى سفيرها الأستاذ المجدِّدي في جدة فسأله توصية إلى الحكومة لتضيفه وتكرمه، فكتب له ما أراد، فلما وصل لم يستقبله وزير الخارجية ولا رجال الضيافة بما كان يؤمل من الحفاوة، وزاد في الطين بلّة وفي الطنبور غنة أنه طلب لقاء الملك فلم يرَوْهُ أهلًا لذلك، إلا أنهم أنزلوه في دار الضيافة، ولما أراد السفر سألوه: ما هي وجهتك؟ فقال: بغداد. فقالوا: بأي طريق؟ فقال: إيران. فقدموا له من المال ما يكفي لنفقات سفره في الدرجة الأولى، وظن أنَّ ذلك المال جائزةٌ فاستصغرها وأطلق لسانه في الفندق بسبِّ الحكومة والطعن فيها، فبلغ ذلك وزير الخارجية فدعاه وقال له: بلغنا أنك تسبنا على رؤوس الأشهاد، فما ذنبنا؟ فقال: أنا صحفي كبير مرتبط مع صحيفة واسعة

(١) قائله: خفاف بن ندبة، ينظر: «الكامل في اللغة والأدب» (١/ ١٩٨)، «العقد الفريد» (٦/ ٣٣٧)، «القوافي» للتنوخي (ص١٥٦)، «شرح التسهيل» لابن مالك (١/ ١٨١).

الانتشار ولم تسهِّلوا لي لقاء الملك، ثم أعطيتموني جائزة حقيرة. فقال له الوزير: لولا أن الناس رأوك في ضيافتنا لأمرت بسجنك ثم إخراجك من البلاد على حالة لا تسرك، ولو علمنا أنك هكذا ما استقبلناك ولا أنزلناك في دار الضيافة، والنقود التي أعطيناك ليست جائزة كما توهمت ولا ثمنًا لدعاية تعملها لنا في الصحيفة التي تذكر أنك مراسلها، فلا حاجة لنا بدعايتك، ولكن من عادتنا أن كل ضيف ننزله في دار ضيافتنا إذا أراد الرحيل قدمنا له زادًا يوصله في الدرجة الأولى إلى البلد الذي جاء منه، وقد سألتك عن وجهتك وطريق سفرك وإلى أين تسافر فأخبرتني، فقدمنا لك مقدار ما يكفي لسفرك في الدرجة الأولى. فقال: عدلت عن السفر بطريق إيران وأريد أن أسافر بطريق البحر، وهذا لا يكفيني. فقال له الوزير: فهلا جئتني وأخبرتني بذلك فأزيدك في مقدار الدراهم دون أن تطلق لسان السوء في فندق مشحون بالأجانب من أجناس مختلفة؟!

وأخبرني الأستاذ المصري بأمر هو أخبث من ذلك، فقال: قال لي ذلك العراقي: هل تريد أن تسافر إلى مصر بطريق العراق؟ قال: فقلت: نعم. قال: فقال لي: إذا وصلت إلى بغداد فزرني؛ فإن لي أختًا جميلةً أقدِّمها لك لترافقك. (قال مؤلف هذا الكتاب: ووجود هذا الرجل في العراق لا يضير العراقيين ولا ينقص من قدرهم، فهم أهل الشجاعة والكرم والإباء وشرف النفس، ولا يوجد في الدنيا شعب كلهم خيار، فهذا من الشذاذ، وقد سجنه العراقيون سنين ونبذوه، فهام على وجهه)، أما العالم الشامي فإنه لم يفعل شيئًا من مثل ذلك، إلا أنه جاءهم بقصد الاستجداء وقبل ما قدموه له من المال ولم يتعفف عنه، ولذلك صممت ألا أقبل منهم شيئًا.

المرض بالحُمَّى النَّافض

كانت مدينة كابل في ذلك الزمان وهو سنة **١٣٥٢**هـ غير نظيفة ولا مبلَّطة الشوارع، وكانت المياه القذرة تجري في وسط المدينة في قنوات مكشوفة وتنبعث منها رائحة كريهة، فبعد إقامتي فيها نحو شهر أصابتني الحمى النافض التي تسمَّى في هذا الزَّمان (ملاريا)، وكنت في دار إلٰهي بخش ولا أستطيع أن أتفاهم مع خدَّامه، وأخذني إلى طبيب متخرج في لندن، فأعطاني دواءً فلم ينفعني، وكان يتردد علي لطلب علم الأدب العربي الشيخ محمد عمر الأفغاني، وكان قد درس في بلاد الشام وتزوج بامرأة شامية وله منها ولد عمره اثنتا عشرة سنة، وكان قد اقترح علي أن أنتقل إلى منزله ليخدمني هو وأهله فأبى إلٰهي بخش، فلما مرضت وعجزت حتى عن تناول الماء للشرب استأذنت أبا مثواي في الانتقال إلى بيت محمد عمر فأذن لي، فأقمت في بيته مدة تقارب عشرين يومًا، وكان إلهي بخش لا ينقطع عن زيارتي، ومما قاله لي ذات يوم: نحن ما رأينا من العرب أحدًا عفيفَ النَّفس يحافظ على شرفه مثلك، فقلت له: إن في العرب من أهل الفضل والشرف والعفاف الجم الغفير، ولو أنك ذهبت إلى بلادهم لرأيت إباءهم وكرمهم وعلو همتهم، ولا يأتيكم هنا منهم إلا قليل جدًّا من ذوي الحاجات.

وكانت الحمى تأتيني يومًا وتتركني يومًا، وفي اليوم الذي تأتيني فيه تبدأ قبل الزوال بساعة فلا يأتي وقت العصر إلا وقد فقدت إدراكي وصرت أهذي هذيانًا، وكان محمد عمر وأهل بيته يعتنون بي أشد العناية بحيث لو كنت في بيتي لما لقيت أكثر من ذلك، فجزاهم الله خيرًا وأكرمهم في الدنيا والآخرة، وكانت لغتهم هي العربية فلا أحتاج إلى كلفة فيما أريد، ولم تكن تفارقني الحمّى إلا بعد منتصف الليل، وكنت

في ذلك الزمان أعتقد أن جمع التقديم للمسافر لا يجوز، وإنما يجوز جمع التأخير، فكنت أؤخر صلاة الظهر إلى أول وقت العصر فلا يكون عندي من الإدراك ما أضبط به الصلاة، فكنت أشرع في الصلاة مضطجعًا بالفكر وحده، فتأخذني غمرة من الإغماء ثم أفيق ثم أشرع في الصلاة مرة أخرى ثم يأخذني الإغماء ثم أشرع فيها مرة ثالثة، فلا أكاد أتمها إلا في الثالثة أو الرابعة، ولو كنت في ذلك الوقت آخذًا بالرخصة كما آخذ بها الآن، لصليت الظهر والعصر جمعًا في أول وقت الظهر قبل أن يختل عقلي، وكانت تلك الحمى تبلغ من الشدة إلى حد أنني حين أبول أصيح من شدة حر البول، فلم يمل محمد عمر ولم يكل.

علاج غريب

كنتُ في زمان الجهل أكتب للمحموم في قشرة لوز (فرعون) وفي أخرى (قارون) وفي أخرى (هامان) كلهم في النار، فآمر المحموم أن يتبخر بالقشرات الثلاث في كل يوم حين تجيئه الحمى، فقلت في نفسي وقد ضعف عقلي وجسمي: دعني أجرِّب هذا العلاج[١]، ثم قلت: ليس عندي دليل شرعي على أن هذا يجوز، ولكن غلبني الضعف، وقلت لمحمد عمر: ائتني بشيء من اللوز لأكتب على قشوره. فلم يجد شيئًا، فقلت له: اكتب على قطع من القرطاس بدل قشرة اللوز ما تقدم ذكره. فكتب ذلك، ولما جاءتني الحُمَّى وبدأ غليانها يشتد تبخَّرْتُ بتلك القطعِ فخفَّتْ عنِّي الحُمَّى إلى حدٍّ أنني لم أفقد عقلي في ذلك، وصليت الظهر والعصر جالسًا، وقلت لمحمد عمر: ينبغي أن أرجع إلى الهند. فقال

(١) التجربة لها قيمة، ولكنها ليست دليلًا شرعيًّا.

لي: أنت ضعيف جدًّا لا تستطيع السفر. فقلت له: اطلب من مدير المدرسة رخصة ثلاثة أيام لتصحبني إلى حدود الهند، فإن مت في الطريق فغسِّلني وصلّ عليّ وادفني، وإن وصلت إلى الحدود فارجع راشدًا. فطلب الإجازة وحصل عليها.

وفي ذلك اليوم جاءني إلٰهي بخش، فقلت له: سلِّم لي على وزير الخارجية فضل[1] محمد وقل له: إني أشكره وأشكر جلالة الملك ورئيس الوزارة على إكرامهم، وأستأذن في السفر، فرجع إليَّ في اليوم الثاني الذي لا تجيئني الحمَّى، ووجد رجلين من المدينة النبوية عند محمد عمر، فسألني عن الحال، وبلَّغني سلام وزير الخارجية، وأنه يدعو لي بالشفاء، وناولني صحيفة مطبوعًا عليها وزارة الخارجية، وقال لي: اكتب عليها بالإنكليزية أنك تسلَّمت خمس مئة روبية أمر لك بها رئيس الوزراء على ما جرت به العادة من تقديم الزاد لكل ضيف ينزل في ضيافة الحكومة بقدر ما يوصله إلى البلد الذي يقصده، وقد أخبرته أنك تريد الرجوع إلى لكناو، وهذا المقدار هو أجرة السفر إلى لكناو في الدرجة الأولى، فكتبت على تلك الصحيفة بالإنكليزية أني أشكر جلالة الملك ومعالي رئيس الوزراء، ومعالي وزير الخارجية، وأعتذر عن قبول هذه الهدية لأني كما أخبرت معالي الوزير في البرقية قبل دخول أفغانستان وأخبرته مرارًا مشافهة أن غرضي من زيارة أفغانستان زيارة العلماء والاطلاع على أحوال المسلمين، ولا حاجة لي بذلك المال، فقرأه إلهي بخش وقال: الحمد لله، هذا الذي كتبتَ كنتُ أتوقعه، وأخبرتُ الوزير به وأنا خائف أن أكون مخطئًا، فإني قلت له: غالب ظني أن محمدًا تقي الدين الهلالي لا يقبل هذه الدراهم، وقد صدق ظني.

(١) صوابه: «فيضي» كما تقدّم.

ففهم الرجلان المدنيان أنني رفضت قبول ذلك المال، فلما انصرف إلهي بخش أظهرا غضبهما، وقالا لي: يا شيخ إيش سويت؟ ما تخاف الله نحن جئنا من المدينة إلى هنا وقطعنا بحورًا وبرًّا ونحن محتاجان إلى روبية واحدة، وهذا مال حكومة، فإن كنت مستغنيًا عنه فهلَّا قبلته وقدَّمتَه لنا، حتى يكون لك عند الله أجر عظيم، وأغلظا عليَّ في القول حتى اتهماني بالنفاق، فأنكر ذلك عليهما محمد عمر، فقلت له: دَعْهُما فإنَّ الحاجة أنطقتهما بذلك، وشرحتُ لهما قصة العراقي والشامي، فأصرَّا على أنَّ عملي كان خطأً، فقلتُ لهما: هذا هو اجتهادي.

حال المسلمين في أفغانستان في ذلك الزمان

كان أمان الله خان الملك السابق قد أجبر النساء على السفور ولبس الثياب التي لا تستر عورة المرأة، وهي كلها عورة إلا الوجه والكفين، وأجبر الرجال حتى قاضي كابل وعمره ثمانون سنة أن يلبسوا الثياب الأوروبية الضيقة، وكان يشجع الفتيات على حضور الحفلات شبه عاريات، فلما انتصر عليه الملك نادر شاه رجعت النِّساءُ إلى حجابهن ومُنعن من الخروج إلا لحاجة مع التستر التام، ولكن كانوا غالين في التمسك بفروع المذهب الحنفي، فكانوا يؤخِّرون العصرَ إلى قرب الاصفرار، ولا يقبلون من مسلم أن يكون له مذهب غير حنفي، حتى إنني لما كنت مسافرًا من بشاور إلى كابل وصار وقت الظهر ووقفت السيارة فنزلت وتوضأت وتوضَّأ بعض المسافرين وجاؤوا ليصلوا معي، فلما رأوني رفعت يدي عند الركوع قطعوا صلاتهم وصلى كل واحد وحده!

ومرة سافرت في سيارة من لاهور إلى بشاور، فلما جاء وقت[1]

(١) كان ذلك بين البلدتين المذكورتين، في مدينة (راول بندي)، كما سيأتي.

الصلاة توضأت وصليت معهم مأمومًا، فلما رأوني أرفع يدي عند الركوع وعند الرفع منه وعند القيام من التشهد الأول، أخذوا يتكلَّمون مع الإمام غضابًا باللغة الأفغانية، وطال خصامُهم معه حتى بعد ما ركبنا في السيارة، فلما انتهت الخصومة التفتَ إليَّ وقال بالعربية: أتعرف لماذا كان هؤلاء يخاصمونني؟ قلت: لا. قال: لأنك رفعت يديك في الصلاة ظنوا أنك من الفرق الضالة! فبيَّنتُ لهم أنَّ الحقَّ ليس منحصرًا في المذهب الحنفي وحده، وأن أئمة أهل السنة كل واحد منهم روى عن النبي ﷺ أحاديث صحت عنده فعمل بها وعمل بها أتباعه[1].

(١) فصل الهلالي هذه الحادثة في مقالة نشرت في مجلة «الثقافة الإسلامية» البغدادية، السنة الثانية، العدد الأول، يوم الجمعة بتأريخ **٢٠** ربيع الأول **١٣٧٣**هـ يوافق **٢٧** تشرين الثاني **١٩٥٣**م، وهي بعنوان (الرحمة والمودة والتسامح في الإسلام) ومما قال فيها بعد كلام:
«كنت ومعي شقيقي الأستاذ محمد العربي في مدينة (راول بندي) في باكستان نريد السفر إلى مدينة (بيشاور) عاصمة الولاية الشمالية من باكستان، وكان معنا من ركاب السيارة المصلين نفر من الأفغانيين وواحد من الدعاة من جماعة مولاي إلياس، فأردت أن أصلي الظهر إمامًا ومعي ـ أي: المذكور ـ وابني شكيب، فجاءني هذا الأستاذ متلطّفًا ببشاشة، وقال لي: ألا نصلي جماعة؟ فقلت: نعم، وكنت واقفًا في موضع الإمام، فهمس في أذني أن أولئك الأفغانيين من العوامّ وهم لا يعرفونك، فأخاف أن يمتنعوا من الاقتداء بك، فلو سمحتَ لي بالإمامة. فقلتُ: حبًّا وكرامةً، فتقدَّم، وصلى بنا الظهر ركعتين.
وكنت أخاف أن يتم؛ فيصلي أربعًا وأضطر أنا إلى مخالفته فأكتفي بركعتين وَفْقَ مذهبي، وهو وجوب القصر على المسافر وبطلان إن أتم عمدًا، وهذا القول مروي عن ابن عمر، وقد أخذ به الظاهرية وبعض المالكية، وهو مذهب الحنفية على ما أذكر إلا أنهم لا يقولون بالبطلان، بل يعتبرون الثالثة والرابعة نافلة؛ لأن السلام عندهم ليس بفرض.
ولكن الذي خفت منه لَمْ يقع؛ فإن الرجل صلى ركعتين، ولما رآني أولئك =

وكان ذلك الإمام من جماعة مولاي إلياس[1] وهي جماعة مشهورة في الهند عندها شيء من التصوف[2] يطوف رجال هذه الجماعة في

= النفر أرفع يدي عند الركوع وعند الرفع منه، سألوا الإمام عن ذلك مستنكرين له، فأخذ يشرح لهم أن الرفع سنة ثابتة [**قال أبو عبيدة**: بل متواترة، قاله الذهبي في «السير» (٥/ ٢٩٣)] عن النبي ﷺ، وقد أخذ بها الشافعي وأحمد، وهو أحد القولين عند المالكية، وهو الذي ذكره مالك في «الموطأ» وبوَّب له، وهو رواية المدنيين من أصحاب مالك، ولم يأخذ به أبو حنيفة وسفيان الثوري وأكثر الكوفيين؛ لأنهم أخذوا الأحكام عن عبد الله بن مسعود ولم يكن يرفع.

ثم أفاض ذلك الأستاذ في وجوب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين، بل ومحبتهم وموالاتهم على أي مذهب كانوا من مذاهب الأئمة الهداة، والبعد عن التعصب لمذهب بعينه؛ لأن ذلك يوقع الشقاق بين المسلمين، وهو من أعظم أسباب تفرقهم وفساد أحوالهم واستيلاء العدو عليهم، وكان يشرح لهم ذلك باللغة الأُرديَّة، . . .» إلى آخر كلامه.

(١) يقصد: جماعة التبليغ. (خ)

قلت: كان الهلالي إبان هذه الحادثة لا يعرف عنهم شيئًا، فوسَّع تحسين الظن بهم، ولم يمنع تلاميذه وأصحابه من مرافقتهم، إلا أنه ألَّف ـ فيما بعد ـ كتابًا في التحذير منهم، بل حث الشيخ محمد الزمزمي بن الصديق الغماري أن يؤلف في التحذير منهم، فكتب إليه يقول:

«وقد سمعت أنك مررت بالمدينة المسماة بسليمان في الغرب، ووعظتهم بأنواع التوحيد، وحذرتهم من الطريقة الإلياسية الهندية التي يروجها عبيد أهل الهند من المغاربة المضللين؛ وجزاك الله خيرًا.

وينبغي أن تُؤلِّف كتابًا في نصيحة المسلمين، وتحذيرهم من هذه الطائفة، الله يديم علينا وعليكم نعمة التوفيق، ويعيننا وإياكم على أداء الواجب واتباع رضوانه». انظر كتابي «رسائل الهلالي» (١/ ١٨٩).

(٢) فصَّلتُ موقف الهلالي منهم في مقدمة كتابي «الإمام الألباني وجماعة التبليغ» (١٢٦ ـ ١٣٩)، وألَّفت هذا الكتاب لما علمت رواج كذب بعضهم عليَّ، أني أصبحت تبليغيًّا وخرجت معهم مرتين كل مرة أربعة أشهر، ويذكرون هذا بمناسبة تقريرهم توبة شيخنا الألباني في التحذير منهم، وأنه أشهدني على ذلك!!

جميع أرجاء الهند وفي أوروبا وأمريكا وفي أفريقية، وكانوا يزورون المغرب في كل سنة يدعون الناس إلى قول لا إلٰه إلا الله والمحافظة على الصلاة، وهم موجودون هنا في المدينة أيضًا، ومن عادتهم أنهم لا يقبلون من أحد من أهل البلدان التي يزورونها شيئًا لا مالًا ولا طعامًا إلا إذا تحققوا أن من قدم لهم ذلك الطعام من أهل العلم والصلاح وإخلاص النية لله، وكان يخرج معهم بعض أصحابنا السلفيين إلى القرى والبوادي للدعوة، والذي أخذته عليهم هو الالتزام الشديد لفروع الحنفية، فلا يكادون يعملون بالأحاديث الصحيحة إذا خالفت فروع الحنفية، وهناك شيء آخر أقبح من ذلك، وذلك أنهم يصلون في المساجد المبنية على القبور التي اتُّخِذَتْ أوثانًا تُعبد من دون الله ولا يُنكرون على عبّادها! وحضرت مجالسهم في بشاور يجتمعون كل يوم جمعة بعد العصر في بيت أحدهم، وما عندهم لا رقص ولا غناء ولا ذكر مشتمل على بدعة، يقرأ كل واحد منهم ما تيسر من القرآن في المصحف ثم يترجمه إلى لغة يفهمها الحاضرون إما لغة أردو أو الفارسية أو الإنكليزية، وقرأت أنا أيضًا نصيبًا من القرآن وترجمته بالإنكليزية، وأنا لا أمنع أصحابنا من مرافقتهم[1] إلا أنني أحذرهم من الصلاة في المساجد المبنية على القبور،

---

(١) نشر الهلالي في شبابه وأوائل حياته العلمية مثل هذا، وذكر نحوه في مقالته المنشورة في مجلة «الثقافة الإسلامية» ببغداد، السنة الثانية، العدد الأول، يوم الجمعة بتأريخ **٢٠** ربيع الأول سنة **١٣٧٣** يوافق **٢٧** تشرين الثاني **١٩٥٣**م بعنوان (الرحمة والمودة والتسامح في الإسلام).

إلا أنه بعد احتكاكه بهم، وسماعه منهم، والوقوف على حقيقة دعوتهم، كان ـ رحمه الله تعالى ـ يحذر منهم، وألَّف في ذلك كتابه الشهير «السراج المنير في تنبيه جماعة التبليغ على أخطائهم»، ومما ذكر فيه (ص٥ ـ ٦) (بيان غلوّ التبليغيين في الخروج). وهذا ـ والله الذي لا إلٰه إلا هو! ـ حق واقع، لا ينكره إلا أعمى. ومما قال فيه: «فوجب على كل من كان عنده علم =

= يقلل به شر هذه الطائفة أن يبرز علمه، وأن يظهر للمسلمين ضلالهم وتضليلهم».

وينظر له أيضًا عنهم: كتابه «سبيل الرشاد» (٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

ثم وجدت في «مذكرات إسماعيل الخطيب» المسماة «عَرف الطيب من ذكريات الخطيب» (ص١٨١ ـ ١٨٢) المنشور في تطوان سنة ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م بيانًا عن موقف الهلالي من (التبليغيين)، وكان ذلك في آخر عمره، عند استقراره في المغرب، وخرج هذا التحذير عفو الخاطر بمناسبة زيارة جماعة من التبليغيين له ـ كعادتهم مع العلماء ـ، وهذا نص كلامه بحرفه وفصِّه:

«أثناء مقام الدكتور محمد تقي الدين الهلالي في تطوان في الفترة الممتدة من ١٣٦٥ (١٩٤٦) إلى ١٣٧١ (١٩٥٢)، انقسم فقهاء تطوان في معاملتهم له إلى فريقين، فجلهم ناصبوه العداء مما جعله يندفع لهجوهم أقذع ما يكون الهجو، وبعضهم وقف منه موقفًا حياديًّا، لكن قلة قليلة ساندته ودعمته، منهم والدي ـ يرحمه الله ـ فقد اتصل به ودعاه لزيارته في بيته، وتعددت هذه الزيارات... لكني لا أذكر أني حضرت في جلسة من هذه الجلسات، غير أني كنت مرارًا أسمع من والدي التنويه به وبعلمه، ولم ألتق به وأجالسه إلا مرة واحدة في منزله بمدينة الدار البيضاء صحبة أفراد من (جماعة التبليغ) التي دعت إلى لقاء كبيرٍ أُقيم بالقاعة الكبرى بمعرض الدار البيضاء وحضره ما يزيد عن خمسة آلاف من التبليغيين، وكنت تلقيت دعوة من مرشد الجماعة الداعية الحمداوي، فلبيت الدعوة سعيًا مني إلى التعرف على الجماعة عن قرب، وكعادة هذه الجماعة فقد شكلت جماعات تضم بضعة أفراد لزيارات علماء المدينة فانضممت إلى إحداها، وقد وضع اسم الدكتور الهلالي على رأس قائمة العلماء الذي سيزارون.

وقد استقبلنا بباب منزله أحد طلبته الملازمين له، وبعد جلوسنا ذكر له أن هؤلاء هم من جماعة التبليغ، فأطرق برأسه وهو يستمع إلى أسمائهم على طريقة الجماعة: «أخوكم في الله يحبكم في الله... فلان»، وعندما أسمعته اسمي، قال لي: هل أنت من ذرية الشيخ محمد العربي الخطيب؟ فقلت له: هو والدي. قال: فكيف تسمح لنفسك بمصاحبة هؤلاء وهم أهل طريقة وبدع وضلالات بينما كان أبوك صاحب عقيدة سلفية صحيحة وإيمان صادق؟ قلت =

وآمرهم بإنكار الشرك والبدعة كلما رأوا شيئًا من ذلك بقدر جهدهم.

ولم أر في أفغانستان منكرات ظاهرة كتبرج النساء وشرب الخمور، ونسيت أن أقول: إنني لما قطع أولئك الأفغانيون صلاتهم خلفي، لُمْتُهم على ذلك، فقال لي رجل من الذين لم يصلّوا: لا تعبأ بهؤلاء فإنهم لا صلاة لهم لأنهم (سود خور) يعني: أكلة الربا.

بُوْزِ دُوْزَخ

ذَكرتُ فيما مضى أني لم أر في أفغانستان منكرات ظاهرة، وذلك يدل على أنهم كانوا متمسكين بالدين على قدر مبلغهم من العلم، ولكن كان هناك متفرنجون قليل عددهم عظيم كفرهم، وكانوا مستائين من انتصار الملك نادر شاه وقضائه على دعوة أمان الله خان التي تشبه الدعوة الكمالية؛ ومن هؤلاء نائب وزير التعليم(1)، وكان الأفغانيون يسمونه (بوز دوزخ)؛ ومعناه بالفارسية: تيس جهنَّم، أخبرني الشيخ إسماعيل الغزنوي ـ رحمة الله عليه ـ أنه زاره في مكتبه فرأى صورة لينين معلَّقة فوق رأسه، فقال له: كيف تعلِّق هذه الصورةَ وأنت تعلم أن

= له: إني إنما رغبتُ في الحضور معهم سعيًا مني لمعرفة حقيقة أمرهم، وإني لم أر منهم ما ذكرتم من الطرقية والبدع. فقال لي: إذا لم تكن قد علمت فأنا أُبيّن لك، ثم صار يتحدث عن مؤسسي الجماعة وموطنها الأول؛ وما يلاحظه عليها، مما ذكر أنه من البدع والضلالات.

وقد لاحظتُ أن أفراد الجماعة ظلوا صامتين مطرقين، وعندما سلَّمتُ عليه مودّعًا أمسك بيدي وهو يردد كلمات تحذيريّة، داعيًا إلى الأخذ بمنهج السلف الصالح والابتعاد عن المناهج المبتدعة».

(1) سماه الهلالي في «رسائله» (٣/ ١٢٣٥): (مُعين معارف)، وقال عنه: «من أكفر خلق الله».

صاحبها عدو للدين؟ فأجابه بقوله: إني أعبد هذا الرجل[1].

عودة إلى السفر

خرجتُ مسافرًا من كابل يرافقني الصَّديق المخلص محمد عمر في اليوم الذي لا تأتيني فيه الحُمَّى، على أنها بعد ذلك العلاج الغريب صارت لا تأتيني إلا خفيفة جدًّا! ركبنا في سيارة البريد وسارت بنا ساعة واحدة، فأحسست بالجوع ولم أحس به منذ أصابتني الحمى إلا في تلك الساعة، فقلت: يا محمد عمر! أنا جائع، فقال: هذه علامة خير، أنا ما جئت بطعام لعلمي أنك لا تأكل وما عندي إلا شيء من الخبز والمشمش، والمشمش في كابل مطعَّم بالخوخ كبير الحجم لذيذ الطعم، (والتطعيم هو أن يؤخذ غصن من شجرة فيحفر له في ساق شجرة أخرى غار ويدخل بعض الغصن في ذلك الغار ثم يسد، فتتغير ثمرة الشجرة وتصير ممتزجة مع ثمرة الشجرة التي أخذ منها الغصن، فيتألف منهما حجم جديد وطعم جديد). فأخرج لي ما عنده من الخبز والمشمش فأكلته كله ولم أشبع، ومررت على مطعم فيه قدور كبيرة مملوءة باللحم والمرق وخبز أفغاني كبير يكاد الرغيف منه يكون كخُمرة المصلي ـ أي: الحصير الذي يصلي عليه ـ، فقلت لصاحب السيارة: قف فإني جائع جدًّا! فقال لي: أمامك مطاعم أفضل من هذا.

ثم تعطَّلت السيارة فلم نصل إلى أول مطعم إلا بعد مضيّ هزيع الليل، وكنت خائفًا أن لا أجد طعامًا، ولكني وجدته فأكلت شيئًا كثيرًا

(١) انظر «مراسلات الهلالي» (٣/ ١٢٣٢) ومقالة «الفتح» المنوّه بها سابقًا بعنوان (دار الأمان أو كابل الجديدة)، وتقدم النقل منها.

من اللحم والمرق والبطيخ ولم أجد خبزًا، ولم يضرني شيء من ذلك ولا أصابتني الحمى بعد ذلك، فتعجَّبتُ من تأثير ذلك العلاج العجيب ولم أستطع تعليله إلى الآن، وخطر ببالي أنه ربما يكون حر الجمر والدخان الذي كنت أتبخر به سببًا في زوال الحمى، وقد خبرني بعض الأطباء الأوروبيين الذين هم معجبون بطب العرب أن العرب كانوا يداوون الشيء بجنسه لا بضده، كما يفعل اليونانيون؛ فيداوون الحرارة بحرارة من نوع آخر والبرودة ببرودة من نوع آخر وهكذا، فإن صح ما قاله هذا الطبيب فلعل حرارة النار أذهبت حرارة الحمى بإذن الله، والله أعلم.

ولما وصلنا إلى حاكم بلاد الحدود بين أفغانستان ومستعمرة الهند الإنكليزية، ويسمى هذا الحاكم سرحد دار (ومعنى سرحد بالفارسية: رأس الحد، و(دار) جزء كلمة تُختم بها أسماء المحترفين، فيقال للخازن: خزنه دار).

أكرمنا حاكم الحدود وقدم لنا نوعًا من البطيخ ليِّنًا يؤكل بالملعقة، تقطع البطيخة نصفين وتغرز ملعقة في وسط كلِّ نصف، ويقدم للضيف في صحن فيأكل اللباب بالملعقة ويبقى القشر كأنه إناء مستدير، وجاءت امرأة أوروبية وقدمت له جوازها فسألها بالفارسية فلم تفهم شيئًا، وتكلمت باللغة الفرنسية فلم يفهم أحد من الحاضرين ما قالت، ثم تكلمت بالإنكليزية فلم يفهم أحد شيئًا، فاستأذنتُ الحاكم في أن أترجم له كلامها ففرح بذلك، فقالت له: إنها فرنسية وإنها مسافرة إلى كابل لزيارة زوجة السفير الفرنسي في كابل، فقدم لها نصف بطيخة وفيها ملعقة مغروزة، وكنا نحن قد فرغنا من أكل البطيخ، فتحيرت وقالت لي: كيف يمكن أكل البطيخ بالملعقة؟ فقلت لها: هذا النوع لين جدًّا يمكن أن تدخلي فيه الملعقة وتأخذي ملئها ثم تملئيها مرة أخرى حتى يبقى القشر كأنه إناء فارغ.

استدراك

ذكرت شيئًا وقع لي في كابل نسيت أن أذكره في محله: جاءني صاحب صحيفة «إصلاح»[1]، وسألني أسئلةً كثيرة تتعلق بحال المسلمين في المغرب، فأخبرته بجميع ما يرتكبه المستعبدون الفرنسيون في المغرب من الفظائع من قتلٍ وسجنٍ ونفيٍ وتعذيبٍ واغتصابِ أملاك، وكان جواز سفري قارب الانتهاء فعزمت على أن أرجع إلى الهند قبل انتهاء مدته، لأنني كنتُ لا أشكُّ بأن السفارة الفرنسية في كابل قد اطلعت على ذلك المقال وعلى مقال آخر نشرتُه في مجلة أخرى نسيتُ اسمها، فمنعني الشيخان سيف الرحمٰن ومنصور، فقلت لهما: إن السفير الفرنسي لا بد أن يكون قد اطلع على المقالين، فإذا أقمت هنا إلى أن تنتهي مدة الجواز وذهبت إليه؛ ينتزع مني الجواز ويطردني، فقالا: توكَّل على الله ولا تعجل بالرحيل، وربما تأخذ لك جوازًا أفغانيًّا. وهذا من المستحيل، ولكنهما شيخان من شيوخ علم الدين لا علم لهما بقوانين جواز السفر. فبقيتُ إلى أن انتهت مدة الجواز، وتوجَّهت إلى السفارة الفرنسية وأنا خائف أشد الخوف، فلمَّا قدَّمتُ جوازي للكاتب أخذ يسألني عن المغرب وعن رحلتي إلى هذه البلاد، وقبل ذلك قال لي: بأي لغة تتكلم؟ فقلت: بالعربية والإنكليزية، فقال لي: ولا تعرف الفرنسية؟ فقلت: لا، فدعا بترجمان يسمع كلامي بالعربية، ثم يترجمه بالفارسية، ثم يُترجم بالفرنسية! ثم قال لي: تكلم بالعربية. فتكلمت، فقال لي: أنا أفهم كل ما تقول ولا حاجة إلى الترجمة، وقد أقمت بالمغرب سنين وبالجزائر سنين فما رأيت أحدًا يتكلم بالعربية بفصاحة

---

(١) لم أظفر بها، والمقابلة ستكون منشورة باللغة الفارسية، وأسأل الله أن ييسرها لي لعلي ألحقها في كتابي «مقالات الهلالي».

مثلك. وأخذ الجواز وجدده وقال لي: إن ثمن التجديد خمس عشرة روبية، وقد أعفيتك من دفعها إكرامًا لعلمك باللغة العربية. ثم قال لي: أين تعلمت الإنكليزية؟ فقلت: في الهند، فقال لي: كم سنة قضيت في تعلمها؟ فقلت: سنتين، فقال: سنتان فقط وتقدر أن تتكلم بها!! فقلت: نعم[1].

---

(١) فصل طريقة تعليمه لها في مقالة بعنوان (الجواب عن مقترح وسؤال فضيلة أبي السمح) ونشرها في مجلته «لسان الدين» السنة الأولى، الجزء السادس في محرم ١٣٦٥هـ ـ دسمبر ١٩٤٦م (ص٢٩ ـ ٣٢). ومما قال فيه:
«حين كنت في الهند سنة خمسين وثلاث مئة وألف أخذتني الغيرة من أهل الهند في استكثارهم من تعلم اللغات، فبدأت أتعلم اللغة الإنكليزية بمساعدة صديق، وكان علي أن أتعلم تلفظ الكلمات ومعانيها مفردات، ثم معانيها جملًا، فمضيت على ذلك نحو شهر، فلم أحصل على طائل، وأخذ الملل واليأس يدب إلى نفسي. فشكوت ذلك إلى صديقي الأستاذ السيد طلحة أستاذ اللغة العربية في كلية لاهور ـ وهذا الأستاذ عصامي؛ حفظ القرآن وتعلم العلوم واللغات على كبر، بقوة عزيمته، وحسن مثابرته، حتى نال الشهادة العليا في الجامعات الهندية ـ، فشد هذا الأستاذ عزمي، وعلمني طريقة لتعلم اللغة الإنكليزية؛ قال لي: خذ كتابًا من كتب المفردات التي تذكر الكلمات المفردة مع تلفظها ومعناها بالعربية، واحفظ المفردات حتى يجتمع عندك منها ألفان أو ثلاثة آلاف، ثم اعمد إلى أية سلسلة من سلاسل كتب القراءة، وهي تكاد تفوق الحصر في اللغة الإنكليزية، واقرأها بمساعدة الأصدقاء؛ فإنك تجدها سهلة، لأن أغلب المفردات التي تحتوي عليها هو محفوظ عندك لفظًا ومعنًى. فعملت بهذه النصيحة، وأخذت أحفظ كتاب «المفردات الدرية في الإنكليزية والعربية» وهو يشتمل على أكثر من ألفي كلمة، ثم دروسًا قليلة في المحادثة، فكنت أحفظ في أول الأمر عشر كلمات في اليوم، ثم ارتقيت في الحفظ إلى أن صرت أحفظ سبعين كلمة في اليوم، فأتيت على ذلك الكتاب في مدة قصيرة، ثم بدأت في سلسلة نلسن (Nelson) وأكملت الكتاب الأول منها في ثمانية أيام ووجدته في غاية السهولة؛ فلم تمر علي إلا سنتان حتى صرت أترجم بعض المقالات ترجمة صحيحة، ولكني لم أكن أستطيع أن =

عودة إلى الهند

لما وصلنا إلى حدود الهند ودَّعني الشيخ محمد عمر راجعًا إلى كابل؛ لأنه وجد سيارة متوجِّهة إليها، ولما رأى مفتِّش الأجوزة جوازي، قال لي: أنت ليست عندك سمة الدُّخول إلى الهند، فأريته أن نائب القنصلية الفرنسية في البصرة كتب في جوازي ما نصه: (يجوز لحامله أن

= أتكلم ولا أن أفهم من المتكلمين ولو جملة واحدة؛ لأن المحادثة (Conversation) إنما تجيء من المحادثة والمحاورة، والقراءة والتفهم لا تجيء إلا من القراءة، والكتابة لا تجيء إلا من الكتابة، فهذه أنواع التعلم الثلاثة لا يغني أحد منها عن سواه، ولذلك نرى كبار علماء المشرقيات يفهمون أعلى كتب الأدب العربي حق الفهم، بل يفهمون غرائب الأشعار، كأشعار الجاهلية وأراجيز رؤبة بن العجاج ونحوها، وإذا كلمتهم بالعربية لا يفهمون منك شيئًا. وكذلك حال جميع اللغات الميتة كالسريانية والعبرانية واللاتينية واليونانية القديمتين والآشورية والسنسكريتية، والعلة في ذلك واضحة كما ذكرنا، وتجد بعض العوام الأوروبيين المستوطنين في البلاد العربية يتكلمون باللغة العامية بفصاحة مساوية لأهلها، ولكنهم لا يفهمون من الأدب شيئًا. فلما سافرت إلى أوروبا سنة خمس وخمسين وثلاث مئة وألف صرت مضطرًّا إلى التكلم باللغة الإنكليزية، إذ لم أكن أعرف لغة أوروبية سواها، وبقيت أتكلم بها وأدرس بها وأشتغل بها إلى أن تعلمت اللغة الألمانية».

ومن الجدير بالذكر هنا أمران:

الأول: نشر الهلالي في مجلته «لسان الدين» سلسلة مقالات بعنوان (في تعليم اللغة الإنكليزية بلا معلم) في (أربعة عشر) درسًا، أولها في السنة الأولى، الجزء الأول، شعبان ١٣٦٥هـ ـ يوليه ١٩٤٦ (ص٢٨ ـ ٣٢)، وآخرها في السنة الثانية، الجزء الخامس، محرم ١٣٦٧ ـ نوفمبر ١٩٤٧م (ص٣١ ـ ٣٢).

الآخر: لم يعجب الهلالي طريقة الهنود في تعلم الإنجليزية ولا نطقهم بها، فازداد بعد ما شرح الطريقة التي ذكرها أخذها عن أهلها، ولم يجد إلا بعثة تنصيرية وشرطوا عليه قراءة الإنجيل. وقيل: وكان ذلك سبب تأليفه كتابه البديع «البراهين الإنجيلية على أن عيسى عليه السلام داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية»، وذكر هذا في ديباجته.

يدخل الهند كم شاء من المرات ما لم تنقض سنة من تاريخه)، فأخرج لي كراسًا مكتوبًا بالآلة وقال لي: اقرأ هنا. فقرأت بالإنكليزية ما معناه: (كل قادم من أفغانستان يجب أن تكون عنده سمة دخول إلى الهند إما من كابل وإما من جلال آباد)، وجلال آباد مدينة صغيرة على نحو الثلث من طريق كابل، ثم قلت له: راجع رؤساءك في بشاور بالتليفون. فقال لي: إن القانون صريح فمراجعتي لهم تكون غباوة مني، وإياك أن تظن أنني أريد بك شرًّا، هذا سرير للنوم وأنا مستعد لضيافتك إلى أن تمر بنا سيارة متوجهة إلى أفغانستان، ففوضت أمري إلى الله، وذهبت حقيبتي مع سيارة البريد التي كنت مسافرًا فيها إلى بشاور، وقال لي: تريد شايًا أخضر أو أسود؟ فقلت: لا أريد شيئًا، فلم يمض إلا وقت قليل حتى جاءت سيارة من الهند متوجهة إلى أفغانستان، فأمر سائقها أن يوصلني إلى سرحد.

فلما رجعت إلى حاكم الحدود وأخبرته بما جرى تأسف، وقال لي: مرحبًا بكَ؛ بِتْ هذه الليلة هنا، وفي الصباح تسافر إلى جلال آباد فإن قُضي غرضك فيها فذاك وإلا تتوجه إلى كابل، وأخبرني أن تلك المرأة الفرنسية لما ذهبت أنا إلى حدود الهند سألتهم بالإشارة عني فأخبروها أني مغربي فطلبت لقائي، فلما بحثوا وجدوا السيارة قد سارت، وكان الفرنسيون في ذلك الوقت يحكمون المغرب الكبير ـ أي: معظمه ـ من حدود تونس إلى حدود سينيغال ويعطفون على المغاربة إذا رأوهم خارج المغرب كأنهم منهم، أما في داخل المغرب فيذيقونهم العذاب الأليم.

فبتُّ تلك الليلة عند الحاكم، وفي الصباح توجَّهت إلى جلال آباد، فلقيت الكاتب المختص فلم يأذن لي بالدخول إلا بعد مُضيّ ساعتين، ولما أذن لي وأخبرته بمرادي أخذ يقرأ جوازي ويسألني عن كل شيء

خفي عليه منه إلى أن أتى عليه، ثم قال لي: لا بد أن تسافر إلى كابل. واستغرق بحثه في الجواز ساعة، وكان من أخبث الكتّاب، وكان هنديًا. ثم توجهت إلى كابل وأقمت بها أربعة أيام حتى حصلت على سمة الدخول إلى الهند من السفارة الإنكليزية، ورجعت إلى بشاور ونزلت عند الشيخ عبد العزيز الندوي، ثم عدت إلى لكناو.

ركوب الفيل

ترددت قليلًا في إثبات قصة ركوب الفيل؛ لأنها من الاستطراد الذي لا علاقة له بالدعوة ولا بطلب العلم، فتخيَّلتُ أن بعض القراء الذين يحبون الاطلاع على كل شيء يقول لي: أثبتها كما أثبتَّ غيرها مما لا علاقة له بالموضوع، ونهمة القراءة كنهمة الطعام؛ فكما أن الطاعم لا يصبر على طعام واحد، فكذلك القارئ.

كان في الهند رجل من أهل العلم يتردد عليّ حين كنت في لكناو وقد أخبرني أن أصله من العرب وأبوه (راجًا) أي: من رؤساء الإقطاع، ودعاني مرارًا لزيارة والده[١] فأجبته إلى ذلك[٢]، وأخذت معي أخي محمد العربي ومحمد مظهر وكلاهما كان طالبًا في المعهد السعودي بمكة، ثم انضم محمد مظهر إلى تلامذة نَدْوة العلماء، وهو مولود بمكة وأصله من الهند، فبعث لنا ابن الراجا فيلًا قد جعل على ظهره مُتَّكأً من الزرابي والوسائد، وركبنا القطار من لكناو حتى وصلنا إلى المحطة التي كان الفيل ينتظرنا فيها، فأناخ الفيَّال الفيل، ولم أكن أعلم قبل ذلك أن

(١) كان منزله بكوپامو، وهي قرية من توابع ضلع هردوي من أَوَدْ، أفاده الهلالي في مقالته التي سننوّه بها قريبًا.

(٢) في شهر شعبان سنة ١٣٥١هـ.

الفيل يُناخ كما يُناخ البعير، وبعد ما أناخه لم ينقص من علوه إلا قليل لقصر قوائمه وضخامة بطنه، فأعاننا الفيال حتى ارتقينا إلى ظهره، وجلسنا نتحدث ونطالع الكتب[1]، فركب الفيال على قفا الفيل وبيده عصى كعصى القدوم في رأسها حديدة يضرب بها الفيل على رأسه عند الحاجة، فسار بنا الفيل سيرًا سريعًا، وكان الفيّال قاسيًا على من يصادفه في الطريق من الفلاحين الذين كانوا يسافرون من مكان إلى مكان في

(١) للهلالي مقالة نشرها في مجلة «الفتح» المصرية، المجلد الثامن، عدد (٣٩٣) بتأريخ ١٩ المحرم ١٣٥٣هـ (ص٦ ـ ٧، ١٨ ـ ١٩) بعنوان (ركوب الفيل، محاورة بين إنكليزي وهندي) فصَّل فيها هذه الحادثة وطوَّل، ومما قال فيها بعد كلام:

«المدهش أن طول قوائم الفيل لا مناسبة بينه وبين جسمه، فالفرق بين ارتفاعه قائمًا وبينه باركًا قليل لقصر قوائمه الضخمة العَبِلَة، فكأنها أربع سوار مستديرة عليها غرفة هي جسمه. تقدم الفيال وكلم الفيلة فرفعت ذنبها وقال لي: ضع رجلك. فوضعت رجلي عليه وهو ممسك بطرفه، ولكني دهشت إذ رأيت الفيلة بعد ما وضعتُ رجلي أخذتْ ترفع ذنبها رويدًا رويدًا، فعرفت أنها عالمة بما يراد منها، وأنها تساعد الراكب على الركوب، فازددت تقديسًا وتعظيمًا للخالق واعتبارًا بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]. ثم زال عجبي بعد ما استويت على ظهر هذا الحيوان الذي كان عليه ولية مربعة شُدت فوقها زرابي، وكان المجلس واسعًا يسع أربعة من غير مضايقة، وهو صالح للنوم اذا أراده الراكب، ورأيت الفيال ذهب ليركب فوقف بإزاء رقبة الفيلة القصيرة وكلمها كلمة فرفعت خرطومها فوضع عليه رجله كأنه ركاب؛ ثم رفعته رويدًا رويدًا حتى استوى على رقبتها؛ وذاك موضع ركوبه، وكانت بيده مقرعة من حديد رأسها معقف محدد وهي ضخمة يضرب بها الفيلة، وكأن بيده معولًا ينقر به الحجارة، ولو ضرب الكبش ضربة واحدة بها لبرد في مكانه وصار جثة هامدة.

وللفيال لغة خاصة يخاطب بها الفيل لا يعرفها إلا الفيالون والأفيال، فمتى أراد من الفيل أن يقف أو يبرك أو يجدّ في السير أو غير ذلك خاطبه بهذه اللغة الخاصة، فيفعل ما أمر به ولا علم للراكب بشيء من ذلك».

عربات تجرُّها الثيران، فإذا أحسّ الثور بصوت الفيل ينفر ويخرج من الطريق وهو مرتفع فيقع في المزرعة ويسقط الفلاحون من عرباتهم المفتوحة وتسقط أمتعتهم، فيضحك الفيَّال، فرحمناهم ونهيناه عن ذلك.

ولما حان وقتُ صلاة الظهر قلنا له: نريد أن نصلِّي. فأناخ الفيل حتى نزلنا وصلينا ثم عدنا للركوب. وللفيالين لغة تعرفها الأفيال ولا يعرفها أحد غيرهم، فوصلنا إلى الراجا ووجدنا له قصرًا تحيط به أراض واسعة يملكها كلها ويملك من فيها من الفلاحين؛ فأقمنا عنده بضعة أيام وأكرمنا غاية الإكرام، وأخبرنا أن جده جاء من عُمان منذ زمان وأن أسلافه تركوا له هذه الثروة وهو يحنُّ إلى وطنه الأصلي إلى بلاد العرب.

وعلى ذكر الفيلة أقول: إن أمثال هذا الراجا في الهند كثير وكلهم رؤساء إقطاع؛ الواحد منهم يملك بضعة وعشرين فيلًا، علفُ الفيل الواحد منها يكفي للنفقة على إطعام خلق كثير من الناس، وليس لهم غرض بهذه الفيلة إلا التفاخر والتكاثر، وكنت أشاهد مواكب الفيلة في مدينة لكناو إذا كان عند أحد الرؤساء الملقبين بهذا اللقب فَرح ـ كعُرس أو خطبة ـ يؤلف رعاياه موكبًا من الفيلة، وعلى ظهرها قباب من الحرير المذهَّب يجلس فيها أقارب الراجا من رجال ونساء، ويطوف الموكب المدينة كلها، وتكون القباب التي على ظهور الفيلة مساوية في الارتفاع تقريبًا لمن يجلس في الطبقة الأولى من البيوت.

أقمنا عند الراجا العربي بضعة أيام(١) كما تقدم، ثم استأذنَّاه في السفر، فهيأ لنا الفيل، وكان أخي محمد العربي(٢) مولعًا بركوب الإبل،

(١) جرت للهلالي في أول وصوله محاورة مع إنكليزي، أثبتها في المقالة المنوّه بها، وفيها فوائد، وهي في كتابنا «مقالات الهلالي».

(٢) وجدتُ له عدة (مقالات)، جعلتها ملحقة بمقالات أخيه تقي الدين.

فسأله أن يعطيه ناقة يركبها بدل الفيل، فأعطاه إياها، ولما أخذ الفيل يسير بنا في الطريق إلى محطة سكة الحديد ـ وبيننا وبينها ثلاث ساعات بسير الفيل ـ أخذ يسير ببطء شديد، فقلنا له: أسرع كما كنت تسرع في المجيء حتى لا يفوتنا القطار، فقال لنا: إنني سأسرع بكما كما أسرع بسيدي الراجا، ولكن لا أضمن لكما أن تصلا إلى المحطة قبل وصول القطار إليها، وإذا وصلنا متأخرين ووجدنا القطار قد فات يلزمكم أن تبيتوا في القرية المتصلة بالمحطة، ولا تجدون فيها طعامًا ولا مأوى، وتمضون فيها يومًا وليلة إلى أن يجيء القطار من الغد، ففهمنا مقصوده وهو أنه يريد البخشيش، فأخذني العناد وقلت في نفسي: سيده يدعونا ليكرمنا وهو عبد يتحكم في رقابنا ويغرمنا، فقلت له: إما أن تسرع كما فعلت في المجيء وإلا كتبت إلى سيدك لينزل بك أشد العقاب يا غدر يا لكع! فأخذ يتكلم مع الفيل بلغة الفيالين ويضربه على رأسه بالحديد ويقول له: مَجَمّ مَجَمّ (بفتح الميم والجيم وتشديد الميم)، أي: أبطىء فلا يزيد الفيل إلا إبطاء وتثاقلًا، فتعجبنا من ذلك(١).

وكنا قد سبقنا أخي محمد العربي بمسافة طويلة، فلما تباطأ الفيل لحقنا، فسمع الفيل رغاء الناقة فنفر وهرب بنا فأخذ الفيال يضربه بالحديدة ويقول: مَجَمّ مَجَمّ فلم يطعه، فقلنا: الحمد لله انحلت المشكلة. وأمرت أخي محمد العربي أن يبقى دائمًا خلفنا بناقته ويضربها لترغي، فبطل كيد الفيال وضحكنا عليه كثيرًا، فوصلنا المحطة قبل مجيء القطار

---

(١) من باب الاستطراد فيما يخص الفيلة ما ترجمه الهلالي ملخصًا في مجلته «لسان الدين» التطوانية، السنة الأولى، الجزء الخامس، بتأريخ ذي الحجة ١٣٦٥هـ ـ نوفمبر ١٩٤٦م (ص٧ ـ ١١) في مقالة بعنوان (الصيد في غابات الهند على ظهور الفيلة).

بساعة، وكان الفيّال وثنيًّا، فلما نزلنا وأراد أن يرجع جمع كفيه وألصق يديه بصدره إشارة لتحية الوداع وهي تحية معروفة عند الوثنيين، وطلب البخشيش؛ وهو ما يعطى من الإكرام للخدم، فقلت له: مَجَمّ مَجَمّ، هذا هو البخشيش الذي نعطيك الذي أعطيتنا وهو مجم مجم. فانصرف خائبًا.

وهذه القرية التي فيها محطة سكة الحديد هي أحد أملاك الراجا.

الحُمَّى النَّافض

اشتد عليَّ مرض الحمّى حتى أصابتني في تسعة أشهر سبع مرات، في كل مرة أبقى محمومًا من أسبوع إلى أسبوعين، ومن أجلّ من عرفته من الأطباء النطاسيين في مدينة لكناو الدكتور محمد نعيم الأنصاري، وقد نزلت عنده ضيفًا مكرَّمًا مرارًا قبل أن أستوطن لكناو؛ في إحداها أقمت عنده خمسة عشر يومًا ليس لنا طعام إلا العدس لأن الحرب شبت نارها بين المسلمين والهنادك فتعطلت الأسواق، وجعل أغنياء الهنادك لكل من يأتيهم من سفلتهم برأس شخص مسلم ـ سواء أكان ذكرًا أو أنثى، صغيرًا أو كبيرًا، قويًّا أو عاجزًا، مبصرًا أو أعمى ـ عشر روبيات.

وكان غاندي[1] الزعيم الهندي طليقًا غير مسجون، وكان في إمكانه

---

(١) هو غاندي موهنداس كرمشند (١٨٦٩ ـ ١٩٤٨م)، أحد كبار القادة السياسيين في القرن العشرين. وقد دعاه الهنود (المهاتما)، أي: الروح العظيمة. ساعد على تحرير الهند من الحكم البريطاني، بأسلوب فريد تمثل في المقاومة دون عنف، وله سيرة ذاتية سماها «قصة تجربتي مع الحقيقة»، واعتبر (الآها) (اللاعنف) الفضيلة المثلى، انظر «الموسوعة العربية العالمية» (١٧/ ٧٧ ـ ٥٨).

وللهلالي مقالة منشورة بعنوان (غاندي في طوره الجديد) نشرت في مجلة «الفتح» المصرية، المجلد السابع، عدد (٣٢٤) بتأريخ ٢٤ شعبان ١٣٥١هـ (ص١٤).

أن يخمد تلك الحرب بكلمة واحدة فلم يفعل لأنه كان من أكبر أعداء الإسلام، والجاهلون بحاله من العرب يقدِّسونه كما يقدسه الوثنيون في الهند ويسمونه (المهاتما) جهلًا منهم، والمهاتما معناه: المقدس عند الوثنيين، وكان عالي الثقافة شديد التعصب عظيم المكر والدهاء، يتظاهر للمسلمين بالمسالمة والمحبة كالحية الرقطاء، وقد زعم في صحيفته «هريجان» أن الله أوحى إليه أن طهِّر المنبوذين وألحقهم بإخوانهم من الطبقات العليا. وقال في صحيفته: فإن سألتموني دليلًا حسيًّا على أن الله أوحى إليَّ بذلك، أقول لكم: ما عندي دليل، ولكني لا أشك في هذا الوحي!!

وهذا العمل منه يدلُّ على أنه لم يكن مؤمنًا بدين أسلافه البراهمة؛ لأن محو الطبقات وتوحيدها يهدم الدِّين البرهمي من أساسه، لأنه مبنيٌّ على عقيدة تناسخ الأرواح(١)، وذلك أن الأرواح تأتي إلى الدنيا في أجسام الأطفال عند ولادتهم، فإذا كبر الطفل وعمل أعمالًا مطابقة لما تريده الآلهة، وكان في طبقة سافلة كالمنبوذين تنتقل روحه بعد موته وترجع إلى الدنيا في مولود من طبقة أعلى منها، فإذا عمل بما تريده الآلهة في هذه الطبقة الثانية يرجع إلى الدنيا بعد موته في جسم مولود من الطبقة الثالثة، ثم إذا عمل بما تريده الآلهة في الدور يرجع بعد موته إلى الدنيا في جسم مولود من الطبقة العليا وهي طبقة البراهمة.

أما إذا عمل بخلاف ذلك وكان في طبقة عالية غير طبقة البراهمة فإنه يعود إلى الدنيا في طبقة أسفل منها، وإن استمر على فعل السيئات

(١) هي عقيدة باطلة، إذ معناها: تعلق الروح بالبدن بعد المفارقة من بدن لآخر، بغير تخلُّل زمن بين المتعلّقين، انظر «التوقيف» (٢٠٨)، ولعلمائنا ـ قديمًا ـ ردود على هذا المعتقد، انظر «معجم الموضوعات المطروقة» (١/ ٣٣١).

في نظرهم لا يزال يسفل إلى أن ترجع روحه في أجسام الحيوان، ثم لا تزال تسفل حتى ترجع في أجسام الحشرات؛ طبقًا لقانون الجزاء وهو الثواب أو العقاب، ولذلك قتله المتعصبون من أبناء جنسه غَيْرةً منهم على دينهم، وكنت مجاورًا لأحد أتباعه من خاصته، وكان طلبة العلم يأتون إلى بيتي فنجتمع على ذكر الله، فآذاني ذلك الجار حتى اضطرني إلى الانتقال من شدة بغضه للمسلمين.

والآن بعد هذه الجولة أرجع إلى علاج الحمّى: كان الدكتور محمد نعيم الأنصاري إذا لم يكن مسافرًا يفحصني ويكتب لي العلاج ويحدد لي يومًا وليلة لزوال الحمّى، وإذا كان مسافرًا لا ينفعني علاج غيره، وهذا سبب عزمي على الرجوع إلى العراق وترك السكنى في الهند، وكان ذلك في شعبان سنة **١٣٥٢**هـ، ولم أبق في العراق إلا مدة يسيرة حتى سافرت إلى أوروبا، كما تقدم.

الدَّعوة إِلى الله في مكناس

سافرت من العراق إلى البلاد الجرمانية كما تقدم في سنة ١٩٥٩ بتاريخ النصارى، ثم توجهت إلى المغرب(١)، وجلت فيه جولة، ثم نزلت عند عميد الدعوة السلفية في المغرب أستاذي ومرشدي شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي(٢) في بيته(٣) بمدينة فاس رحمة الله عليه، وبقيت عنده إلى أن تم نقل عملي من جامعة بغداد إلى جامعة الرباط، والفضل في ذلك لله وحده ثم لنابغة المغرب العالم الأديب المتفنن ذي التآليف المفيدة والفضائل العديدة السيد عبد الله كنون(٤) أطال الله بقاءه وأدام في المعالي ارتقاءه.

ولما استقررت في مدينة فاس عزمتُ على استئناف العمل في الدعوة إلى اتباع الوحي، عملًا بقوله تعالى في سورة الزخرف [٤٣، ٤٤]: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ ما أعظم هذه الآية! وما أشد موت قلب من لا تحركه ولا تؤثر فيه! فشاورت شيخنا المذكور في ذلك فوجدته قد استولى عليه اليأس، فقال لي: دع هؤلاء الأموات، فقد طبع الله على قلوبهم، فقد

(١) وصل الهلالي المغرب في سنة ١٩٥٩م وبقي فيها إلى سنة ١٩٦٨م. أفاده المجذوب في «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢١٧).

(٢) مضت ترجمته.

(٣) في حي العِنَانيّة.

(٤) مضت ترجمته.

تعبت في دعوتهم، وتعب قبلي رائد الدعوة السلفية العالم الكبير الشيخ شعيب الدكالي[١] وكان بحرًا زاخرًا في علم الكتاب والسنة وعلوم كثيرة. فقلت له: يا أستاذي! إني دعوت إلى الله في أقطار مختلفة فنجحت دعوتي وبلغت فوق ما أمَّلْتُ، وهؤلاء القوم بشر كأولئك الذين دعوتُ، فدعني أجرِّب. فقال لي: توكَّل على الله.

فبدأت دروس الدعوة في مسجد المدرسة العنانية في فاس، فما مضى إلا أسبوع واحد حتى غصَّ المسجد بالمستمعين، وبعد مدة حضر درسي رجل يرتدي بزة أوروبية فاخرة، فلما فرغنا من الدروس وصلينا العشاء عرَّفني بنفسه، وأخبرني أنه وزير الأوقاف، وأثنى على درسي، وقال لي: أين تريد أن تذهب؟ فقلت: أنا نازل في بيت أستاذي شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي. فقال لي: أنا آخذك بالسيارة إلى هناك. وذهبنا إلى هناك، فرحب به شيخنا وزاده تعريفًا بي، فقال لي: إذا أتيت الرباط فأرجو أن تزورني في وزارة الأوقاف. فزرته لما ذهبت إلى الرباط لألقي دروسي في الجامعة، وبين فاس والرباط مائتان من الأميال المعروفة بكيلو متر.

وإنما سكنت في فاس مع بعدها من الجامعة خوفًا من مرض الربو الذي يشتد عليَّ بقرب البحر ويخفّ أو يزول إذا ابتعدت منه، وقد

---

(١) الصواب: أبو شعيب الدكالي. (ع)

قلت: هو أبو شعيب بن عبد الرحمٰن الدكالي، ولد سنة (١٢٩٥هـ ـ ١٨٧٨م) ومات سنة (١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م)، وأفرده عبد الله الجراري بترجمة في كتاب مطبوع بعنوان «المحدث الحافظ أبو شعيب الدّكالي»، وألَّف العلامة الأديب جعفر بن أحمد الناصري السلوي (ت ١٣٩٩هـ): «ترجمة شيخنا العلامة المحدث أبي شعيب الدكالي»، وهو مطبوع بتحقيق د. محمد بن عزوز؛ له ترجمة في «سل النصال للنضال» (ص٨٢)، و«التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير» (٩/ ١٢٠ ـ ١٢٢)، ومجلة «دعوة الحق» العدد (٧) سنة ١٩٦٩م (ص٨ ـ ٩).

علمتني التجارِب أن كل من أصيب بهذا المرض في بلاد رطبة الهواء كشواطئ البحار فدواؤه أن يفر إلى الأراضي الجافة الهواء كالصحاري، أما من أصيب به في بلد يابس الهواء فدواؤه شواطئ البحار.

فزرتُ الأستاذ السيد مكي بادو، فرحب بي ودعاني للطعام وأكرمني غاية الإكرام، ولما خرجتُ من عنده جاءني أحد الموظَّفين وقال لي: إن السيد المكي يعلم أنك تلقي دروس الوعظ والإرشاد لوجه الله لا تريد عليها مكافأة، ولكنه يحب أن تكون واعظًا رسميًّا معيّنًا من قبل وزارة الأوقاف، وقد جعل لك مائتي درهم في كل شهر، وهذا شيء حقير جدًّا بالنسبة إلى مقامك ودروسك القيمة، ولكن نظام الوزارة لا يسمح بأكثر من هذا، فإن رواتب الوعّاظ لا تزيد على مائة درهم، فقبلتُ ذلك واستمررتُ في دروسي ثمانية أشهر.

ثم انتقلتُ إلى مكناس بإشارة من أستاذي؛ لأنها أقرب إلى الرباط؛ فبينهما مائة وأربعون ميلًا بنقص ستين ميلًا، هذا بعد ما جربتُ هواءها ووجدته مناسبًا، وشرعتُ ألقي دروس الوعظ في الجامع الكبير، فأقبل الناس كذلك على درسي في مكناس إقبالًا عظيمًا، ولكن الجامدين من الفقهاء وأصحاب الطرائق شرِقوا بتلك الدروس وكذلك المتأكلون بالنَّسب، ورأوا أنها أخذت تهدم ما بنوه من قصور الخرافات على الرمال، وتظهر للعامة جهلهم وانحرافهم عن الجادة، فأجمعوا على أن يكيدوا لي كيدًا يقضي عليَّ، وكان الذي تولى كِبْرَ ذلك رجلًا له نفوذ ودالّة على أمير مكناس ونواحيها، وكان هذا الأمير من أبناء عمومة الملك محمد الخامس رحمة الله عليه وبينهما مصاهرة، فكان يفعل في إمارته ما يشاء، ولعلوِّ مكانته عند الملك لا يستطيع وزير ولا رئيس أن يعارضه، فكتب ذلك الشخص ومع أولئك الأعداء كتابًا إلى وزارة الأوقاف يطلبون

منعي من التدريس لأمور؛ منها: أنني بزعمهم أنكر كرامات الأولياء، وأنقض المذهب المالكي، وعدّوا أمورًا سمعوها في درسي من إنكار الشرك والبدع، ووقَّع على هذا الكتاب خمس مئة شخص.

وكان وزير الأوقاف في ذلك الوقت كما هو الآن معالي الأستاذ الحاج أحمد بركاش[1] ومدير شؤون الوعظ والإرشاد هو العالم السلفي صاحب الفضيلة السيد محمد الطنجي[2] وهما يعلمان أن الساعي في ذلك له نفوذ عظيم عند الأمير لا يرد له طلبًا، ومع ذلك وفقهما الله سبحانه إلى جواب حاسم كان شجًّا في حلوق المبتدعين، ومضمونه: إنكم طلبتم عزل محمد تقي الدين الهلالي من دروس الوعظ ونقمتم عليه مسائل نسبتموها له، فنحن نأمركم أن تكتبوا أدلتكم على صحة ما ذهبتم إليه في تلك المسائل، ونأمره أن يكتب أدلته على صحة ما ذهب إليه فيها، ثم تُؤلف لجنة برئاسة الأستاذ عبد الله كنون وتنظر في تلك المسائل وتحكم بالحق، فسقط في أيديهم ولم يكتبوا شيئًا.

وذهبت إلى شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي[3] رَحِمَهُ اللهُ وأخبرته بذلك، فقال لي: اذهب إلى الأمير وقل له: إن أستاذي محمد بن العربي العلوي حثني على زيارتك وأخبرني أنك من أعزِّ أصدقائه، ولا تزده على ذلك شيئًا، وقبل أن أقوم بزيارة الأمير اجتمعت بذلك الشخص الذي أثار تلك الفتنة فقال لي: إن المخبرين بلغوني أنك تخوض في مسائل السياسة

---

(١) كان وزيرًا للمعارف، ثم عُيِّن وزيرًا للأوقاف سنة ١٩٦٣ إلى سنة ١٩٧٢م، وظفرت برسالة ممهورة بتوقيعه موجّهة للهلالي، مؤرخة بـ(٤) نوفمبر سنة ١٩٧٧م، يكلفه بمحاضرات في رمضان لتلقى بواسطة الإذاعة والتلفزة، انظرها في كتابي «مراسلات الهلالي» (٣/ ١٤٠١ ـ ١٤٠٢).

(٢) مضت ترجمته.

(٣) مضت ترجمته.

في دروس وعظك، والخوض في السياسة لا يجوز لأي واعظ. فقلت له: أنا لا أذكر في دروسي إلا ما دل عليه الكتاب والسنة، وقد دأبت على إلقاء الدروس بهذه الطريقة في أقطار مختلفة منذ أربعين سنة، وتصدى لمحاربتي رجال أقوى منك، فلم يستطيعوا أن يصدوني عن هذه السبيل، وليس بيني وبينك إلا هذه الدريهمات، وسأذهب إلى الرباط وأتكلم مع معالي وزير الأوقاف، فإن كان ما نسبتَ إليه صحيحًا نبذتُ لكم الدريهمات واستمررتُ على الدعوة إلى الله إلى أن تمنعوني بالعنف والقوة التي تدَّعون. فدعا شخصًا من الموظفين وقال: يا فلان! تعال اسمع ما يقول، فقلت له: أنا لا أنكر كلامي، فلا حاجة بك إلى الاستشهاد، وانصرفت من عنده.

ثم زرت الأمير وأخبرته بما أمرني به أستاذي أن أقوله له، فرحب بي، وقال لي: إن شؤون الأوقاف ليست بيدي، هي بيد وزير الشؤون الإسلامية علّال الفاسي(١)، أما ما سواها من الأمور المدنية فكل ما تريده

(١) علال (أو محمد علال) بن عبد الواحد بن عبد السلام بن علال بن عبد الله بن المجذوب الفاسي الفهري ولد سنة ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م، زعيم وطني، من كبار الخطباء العلماء في المغرب. ولد بفاس وتعلم بالقرويين.

وشارك في إنشاء مدرسة تخرج بها بعض طلائع اليقظة المغربية الأولى، وعارض سلطات الاستعمار الفرنسية حين أرادت منح جماعة من الفلاحين الفرنسيين ماء مدينة فاس، وحين أصدرت الظهير البربري، وهاج معه أهل المغرب، فاعتقلته السلطة وضربته ونفته إلى بلدة «تازة»، وعاد إلى فاس فمنعته من التدريس. وأسس أول نقابة للعمال (٣٦) وعمل في إنشاء «كتلة العمل الوطني» السرية، التي ظهرت باسم «الحزب الوطني»، وأُبعد إلى الغابون منفيًّا ونقل إلى الكونغو، وأطلق فأنشأ مع بعض إخوانه حزب الاستقلال، وسافر إلى فرنسا، ثم إلى القاهرة، وتنقل في بعض العواصم، وهو على اتصال دائم بحزب الاستقلال في المغرب، وعاد إلى بلاده فمنعه الفرنسيون من دخولها، =

من الحاجات فأنا مستعد لقضائه. فقلت له: أطال الله بقاءك أنا ما جئت لحاجة تتعلق بالأوقاف ولا بغيرها، وإنما جئت لامتثال ما أمرني به أستاذي من زيارتكم. ثم انصرفت من عنده.

وبقيت في مكناس(١) تسع سنين، في أثنائها هجم عليّ أولئك

= فأقام بطنجة، وكانت يومئذٍ دولية. ودعا إلى الثورة بعد إبعاد محمد الخامس، وانفرد بزعامة الحزب بعد الاستقلال. وتولى وزارة الدولة للشؤون الإسلامية مدة، ثم انصرف إلى «المعارضة» غير العنيفة في مجلس النواب، ولم ينفك مواليًا للبيت المالك في أيام محمد الخامس وابنه الحسن الثاني، ودرّس في كلية الحقوق. وصدرت له كتب منها «هنا القاهرة ـ ط» مما ألقاه في إذاعتها، و«النقد الذاتي ـ ط» و«المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى» و«دفاع عن الشريعة ـ ط» و«مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها» و«الحماية الإسبانية في المغرب من الوجهة التاريخية والقانونية» وأصيب بأزمة قلبية في بخارست وهو يزور رومانيًّا، فتوفي بها سنة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م، ونقل إلى الرباط. وكتب عبد الكريم غلاب، بالرباط «ملامح من شخصية علال الفاسي» من «الأعلام» (٤/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧) للزركلي، وللهلالي تواصل شديد مع هذا الزعيم، وعملا معًا في محاربة الاستعمار، وتعاونا في كثير من الأمور. يظهر هذا من مراسلاته له ومع غيره، فله فيها ذكر، وللعلامة الهلالي كلمة جيدة عن (علال الفاسي) نشرت في كتاب «علال الفاسي في ذكراه الأربعين» المنشورة عن لجنة الإعلام والنشر لحزب الاستقلال، بتأريخ ٧ جمادى الثانية ١٣٩٤هـ ـ ٢٨ يونيو ١٩٧٤م (ص١٠٥ ـ ١٠٦)، وللعلامة الأديب جعفر بن أحمد الناصري كلمة مهمة عن علال الفاسي في (ملحق تراجم من لازم دروس الدكالي الحديثية) منشور مع كتابه «ترجمة شيخنا العلامة المحدث أبي شعيب الدكالي» (ص٩٧).

وعين علال وزيرًا للدولة مكلفًا بالشؤون الإسلامية في عام ١٣٨٠هـ، وهي إبان هذه الحادثة، وانظر: «مراسلات الهلالي» (٣/ ١٣٧٨ ـ ١٣٨٠) و(٤/ ١٧٠٥ ـ ١٧٠٦).

(١) درس الهلالي بكلية الآداب فيها، دلّنا على ذلك الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، قال في ملاحظات أولى عن تطور البحث اللساني بالمغرب: «في =

المحاربون برئاسة الشخص المشار إليه مرارًا، وفي كل مرة يُجمعون أمرهم ويجتهدون في كيدهم حتى يظنوا أنني لا أفلت، فينجيني الله تعالى ويبطل كيدهم.

المكيدة الثانية

بُني في المدينة الجديدة من مكناس مسجد جديد بأمر من الملك محمد الخامس رحمة الله عليه، وهذا المسجد قريب من بيتي، وعُيّن فيه إمام وخطيب من أحد إخواننا السلفيين مولاي هاشم العلوي، ففرحنا بذلك وجعلنا نصلي فيه الجمعة، وكنت أصلي فيه صلاة الصبح إمامًا، ويحضر الصلاة بعض إخواننا ويحضر كذلك المبتدعون، وكان المسجد بعيدًا من بيت الإمام، فلم يكن يستطيع أن يحضر لصلاة الصبح، وكنت كذلك ألقي فيه درسًا أسبوعيًّا بين العشاءين، فكنت أصلي المغرب والعشاء إمامًا بإذن منه ولو كان حاضرًا، واستمررنا على ذلك مدة سنة، فاتفق ذلك الشخص الذي تسبب في المكيدة الأولى مع فقيه منحرف على الكيد للإمام السلفي ولجماعتنا السلفيين.

ومن عادة سكان المدن المغربية أن يصلُّوا الصبح على حساب المنجِّمين، ولا يكلِّف أحدٌ منهم نفسه أن ينظر إلى الفجر أطلع أم لم يطلع، فكانوا يصلُّون الصُّبحَ قبل طلوع الفجر الذي يرى بالبصر بنحو نصف ساعة[1]، فنهيت جماعتنا عن مشاركتهم في هذه الصلاة الباطلة،

= سنة **١٩٦٧** كنت طالبًا في شهادة فقه اللغة بكلية الآداب بفاس، كان الأستاذ تقي الدين الهلالي رَحِمَهُ اللَّهُ يدرس العبرية مع بعض المقارنة بالعربية».

(١) كان الهلالي من أوائل من نبَّه على ضرورة ضبط دخول أوقات الصلوات عند أداء الفرائض، وانتقل ذلك منه إلى غيره، من أئمة الحرمين الشريفين =

فكنا نؤخِّر الصَّلاة إلى أن يتحقق طلوع الفجر، وكان المبتدعون يمتعضون لذلك، ولكنهم لم يتجرؤوا على الكلام حتى وقع الاتفاق بين الرئيس والفقيه، فأوعز الفقيه إلى اثنين من الجهَّال المتحمسين للبدعة أن يوقعا فتنة في المسجد، فجاءا ذات يوم بل ذات ليلة، ولما وصل الوقت المعين لصلاة الصبح بحساب المنجِّمين قالا لشخص كان ينوب عن الإمام في حال غيبته: قُمْ صلِّ الوقت، فلماذا ننتظر الهلالي وهو نائم في بيته؟ فامتنع إخواننا من الصلاة لأول وهلة، ثم خافوا أن تقع مشاجرة في المسجد، فصلوا معهم، فلما وصلتُ أنا وجدتهم قد فرغوا من الصلاة، فأمرتُ إخواننا أن يعيدوا صلاتهم، وصلَّيتُ بهم وبمن حضر من غيرهم(١).

وكنتُ ألقي درسًا بعد صلاة الصبح كل يوم، فلُمتهم على موافقتهم للمبتدعين، وبيَّنتُ بالأدلة القاطعة أنَّ مَنْ صلَّى أي صلاة قبل أن يتحقق دخول وقتها بالرؤية لطلوع الفجر وغروب الشمس إن لم يحجب طلوعها حاجب [فهي باطلة](٢)، فإن كان هناك حاجب من سحاب وضباب وجب الانتظار إلى أن ينتشر الضوء، وإلى أن يأتي ظلام الليل مساء، أما صلاة الظهر والعصر والعشاء في أوقات الغيم فيقدر لها بالتأخير إلى أن يتحقق دخول الوقت.

= وتلاميذهم، والمعنيِّين بذلك، ومنهم شيخنا الإمام الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ وكان حريصًا على ضبط الوقت بنفسه، وكانت عنده (مزولة) رأيته يضبط دخول وقت صلاتي الظهر والعصر من خلالها، ولتنظر «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٥٢) رقم (٢٠٣١)، وأشار فيها إلى الهلالي بقوله: «بعض الغيورين».

(١) للهلالي «بيان الفجر الصادق وامتيازه عن الفجر الكاذب» نشر أكثر من مرة، أحسنها بتحقيق الأستاذ عمر بن مسعود الحدوشي.
وله أيضًا «تعريف أوقات الصلاة في بعض نواحي المغرب» نشر على هيئة كتيب في (١٥) صفحة عن دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء، دون تأريخ.

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة منَّا يقتضيها السياق.

وفي الغد حضر ذانك الشخصان الساعيان في الفتنة، فأرادا من نائب الإمام والحاضرين تعجيل الصلاة فمنعهما أصحابنا، فدعا ذلك الرئيس الإمامَ السلفي وقال له: لماذا تركت الصلاة في مسجدك الذي أنت معين فيه وأذنت لمحمد تقي الدين الهلالي أن يصلي عوضًا عنك؟ فقال: لأن المسجد بعيدٌ من بيتي وليس لي سيارة. فاتخذ الرئيس ذلك سببًا لعزله، وهو المقصود بإثارة تلك الفتنة، فعزله وولَّى ذلك الفقيه المنحرف.

واتفق أن إمام المسجد الكبير توفي في تلك الأيام وكان مسالمًا لنا لا يُظهر شيئًا من الشرك، بل نحن نظنُّ أنه كان موحِّدًا حقًّا وصدقًا، فوُلِّيَ شخص مبتدع معلن للشرك، ولَّاه ذلك الرئيس الإمامة في المسجد الكبير، فلما شرع الإمامان إمام الجامع الكبير وإمام المسجد الجديد يؤمان الناس قام نفر لا يزيدون على خمسة من الشباب السلفيين في وجه إمام الجامع الكبير، وقالوا له: أنت مشرك لا تصح الصلاة خلفك. وصلوا وحدهم جماعة ثانية وهو يؤم المصلين في وقت واحد، وفعلوا مثل ذلك في المسجد الجديد، فظن الرئيس أن هذه فرصة عظيمة للقضاء على دعوتنا وحرَّك رؤوس الفتنة من الفقهاء والطرقيين، ومن غريب المصادفات أن عامل الإقليم كان قد ولي العمالة جديدًا ولم يكن يعرف أحوال المدينة، فذهب إليه خلق كثير بتحريض من ذلك الرئيس يؤمهم الفقهاء المنحرفون الطرقيون، وقالوا له: إن جماعة الهلالي أثاروا فتنة عظيمة في المساجد وصار الناس يصلون جماعتين في وقت واحد، ووقع نزاع ومشاجرة في كل مسجد بسبب هؤلاء، مع أنهم وهَّابيون خارجون عن مذاهب أهل السنة!!

فأخذ العامل التليفون وكلَّم معالي وزير الأوقاف الأستاذ الحاج أحمد برقاش ـ بارك الله فيه وأدام توفيقه للخيرات ـ، فأخبره بشكوى

المبتدعين، فقال له: نحن نعرف محمد تقي الدين الهلالي، فدع عنك هذه المسألة، فسأتولى التحقيق فيها أنا بنفسي. وكنت مسافرًا في فاس، فلما رجعتُ علمتُ أن معالي الوزير فتح التليفون ليكلمني فلم يجدني، فقال لمن كان ممسكًا للتليفون: قل له: يتوجه إلى الرباط للاجتماع بي. فتوجهتُ إليه، وكان عنده شيء من الشك في صحة ما نسب أولئك المبتدعون لجماعتنا، فأوعز إلى نائبه في الشؤون الدينية الأستاذ الفاضل السيد عبد الرحمٰن الدكالي أن يتحدث معي في تلك القضية، فقال لي الأستاذ الدكالي في فاتحة الحديث: سافرتُ إلى الهند، فما زرتُ جامعةً ولا محفلًا علميًّا إلا وجدت الناس هناك يلهجون بالثناء عليك، وكثير منهم أخبروني أنهم تلامذتك ففرحت بذلك كثيرًا، ولما رجعتُ أخبرت سيدنا المنصور بالله يعني: جلالة الملك الحسن الثاني وأخبرت معالي الوزير، ونحن نفتخر بك. يضاف إلى ذلك أن والدي العلامة الكبير الشيخ شعيبًا[1] الدكالي هو أول من دعا إلى السلفية في المغرب، فأنا من المؤيدين لدعوتك المعجبين بها، ولكن ينبغي الاعتدال وترك التشدد الذي يثير الفتن. فقلت له: ماذا تعني بهذا؟

فأخبرني بمكالمة العامل مع الوزير وإخباره بما زعمه المبتدعون، فقلت له: إن ما ذكروه غير صحيح، خمسة من تلامذة المدارس من الشباب عارضوا الإمامين مرة واحدة، ولما جاء اليوم الذي أُلقي فيه الدرس في الجامع الأعظم تكلمتُ في درسي وبيَّنتُ أن ما فعله أولئك النفر من الشباب خطأ عظيم واستنكرته أشد الاستنكار، وصرَّحتُ بأن تولية الأئمة هي لصاحب الجلالة لا ينازعه فيها أحد، وقد أناب صاحبُ الجلالة الملك المعظم صاحبَ المعالي الأستاذ الحاج أحمد

---

(١) هو أبو شعيب، كما سبق.

برقاش وزير عموم الأوقاف، فالواجب على الناس جميعًا أن لا يتعرَّضوا لإمام من أئمة المساجد الرسميين ولا ينازعوه، لأن ذلك عصيان لأمر صاحب الجلالة وتدخل في الشؤون المنوطة بمعالي وزير الأوقاف، وليست تولية الأئمة راجعة إلى شهوة المصلِّين، ولو كان الأمر كذلك ما صحت تولية إمام قط؛ لأنَّ المصلين لا يكادون يتفقون على إمام واحد.

وحين كنت أبين هذا كان الإمام نفسه يسمع ومئات من الناس كانوا حاضرين، وهؤلاء المبتدعون إنما ظنوها فرصةً مواتيةً؛ فاغتنموها.

وأخبرني رفيقي أن سعادة الكولونيل عبد الرحمٰن الدكالي لما سمع هذا البيان تهلل وجهه، فذهب إلى معالي الوزير، وأنبأه بما قلت له، فدعاني الوزير وعانقني وقال لي: معاذ الله أن نظن بك ما نسبوا إليك. وتحدَّثنا مليًّا في طبع كتاب «التمهيد»(١) الذي أمر به صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني أجزل الله مثوبته وخلد في الصالحين ذكره وأطال عمره، ليضيف إلى هذه الحسنة حسنات أخرى.

وبعد ما رجعتُ إلى مكناس علمتُ أن معالي الوزير الأستاذ الحاج أحمد برقاش كلم العامل في التليفون وأخبره بأنه أجرى تحقيقًا دقيقًا في القضية، فوجد ما قاله أولئك الوشاة كذبًا وبهتانًا، وقال له: أرجو من

---

(١) للهلالي به عناية متميزة، وقال عنه في بعض «رسائله»: «هو خير شروح «الموطأ»، وهو يطبع في المغرب ببطء شديد». **قال أبو عبيدة**: ثم طبع على تحريف وتصحيف، وفي التعليق على كلام ابن عبد البر في الصفات طامات، يظهر هذا من (المجلد الثامن)، ثم نشره الأستاذ الدكتور بشار عواد، وانتقد الطبعة المغربية بأنها تلفيق من إبرازتين للكتاب، انظر مقدمة تحقيقه (١/ ١٩)، مع أن سقطًا يسيرًا وقع له في هذه النشرة! وأرسل في **٢٥/ ٨/ ١٩٦٧م** نسخة منه إلى العلامة الشيخ ابن باز.

فضلك أن لا تتسرع مرة أخرى في مثل هذه الأمور. فباء أعداءُ التوحيد والسنة بخيبة وخسران مبين.

المكيدة الثالثة

قبيل توجُّهي إلى المدينة للانخراط في سلك المدرسين في الجامعة الإسلامية أراد رؤساء الشرك والبدعة أن يجعلوا خاتمة وعظي في الجامع الكبير سيئة؛ ليبنوا عليها ما تسوّل لهم أنفسهم من الفرى، وكنت أدرس كتاب «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه، ولم أترك تدريسه قط منذ حللت مكناس إلى أن توجهت إلى المدينة؛ أختمه ثم أبدؤه من جديد، وبينما أنا أقرر تفسير قوله تعالى في سورة الشعراء [٩٠ ـ ١٠٢]: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۞ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۞ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۞ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۞ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۞ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۞ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۞ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فبينت في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أن كل من دعا إلى عبادة القبور وتعظيمها ببناء القباب عليها والذبح والنذر لها، والطواف بها وسؤال قضاء الحاجات وتفريج الكربات من المقبورين فيها، وأقام لها المواسم والأعياد؛ فهو من هؤلاء المجرمين الذين ذكرهم الله تعالى. فقام رجل من دعاة الشرك والبدعة فرفع صوته وقال: حتى صاحب الجلالة من المجرمين؟ فبادرتُ بالجواب، وقلت له: أنت المجرم، وصاحب الجلالة بريء مما تريد أن تلصقه به من عبادة القبور، وهو أعلم بالله وأتقى وأجل من أن يعبد القبور فقد كذبتَ

عليه، وجاوزتَ الحدَّ في الوقاحة إذ تنسب هذا الإمام العظيم ملك العلماء وأعلم الملوك إلى عبادة القبور التي لا يرضى بها إلا شرار الجهال أمثالك(١).

فارتفعت أصوات من الجالسين وكان عددهم نحو سبع مئة: أنتَ المجرم أنتَ المجرم! وأرادوا أن يضربوه، فقام العالم المصلح السلفي الحكيم الحاج محمد بن عبود ونصح لهم أن لا يضربوه، لأنهم إذا ضربوه يمكنونه من مراده في إثارة الفتنة وادعاء أن درس التوحيد يفضي إلى المشاجرة والتقاتل، فيجب منعه، وأصاب هذا الناعق رعب شديد،

---

(١) نشر الهلالي في مجلة «دعوة الحق» المغربية مقالتين فيهما ترجمة للملك الحسن الثاني، ضمنها تحريضه على الاتباع، وهما:
الأولى: ما هي الدواعي التي تدعو أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني ـ أيده الله ـ إلى نصر السنة المحمدية ونشرها وحمايتها.
نشرت في مجلة «دعوت الحق» المغربية، العدد الثالث، السنة الرابعة عشرة، ١٩٧١م، (ص٧١ ـ ٧٥)، ثم نشر ناقصًا من آخره في المجلة نفسها، العدد الثاني، السنة الثامنة عشرة، ربيع الأول ١٣٩٧هـ ـ مارس ١٩٧٧م، (ص٤١ ـ ٤٤)، وسيأتي التنبيه على مقدار النقص.
الأخرى: حرص ملوك المغرب على اتباع الكتاب والسنة: جلالة الملك الحسن الثاني؛ جدير بأن يبني كما بنوا، ويفعل فوق ما فعلوا.
نشرت في مجلة «دعوة الحق» المغربية، العدد الأول، السنة الخامسة عشرة، محرم الحرام سنة ١٣٩٢هـ ـ مارس ١٩٧٢م، (ص٢٢ ـ ٢٨).
ثم وجدت ثالثة منشورة في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، المجلد الثالث عشر، العدد السادس، شعبان ١٤٠١هـ ـ يونيو ١٩٨١م (ص٥ ـ ٧)، وهي بعنوان (منقبة المجاهد الأكبر محمد الخامس ـ طيَّب الله ثراه ـ).
وهذا من حكمة الهلالي في الدعوة إلى الله تعالى، وكذا في موقفه الذي يشرحه بهذا الصدد، فالأصل في مكامن القوة في الأمة أن تجتمع وأن لا تفترق، ولا يكون ذلك كذلك إلا بتوفيق من الله ﷻ ورحمته.

فأراد أن يخرج من المسجد فخاف أن يضرب خارجه ولم يستطع البقاء بين الجالسين، لكثرة إنكارهم عليه، فما وجد سبيلًا إلا أن التجأ إلى الصعود إلى المنارة.

ومع هذه الهزيمة التي وقعت للمشركين طمعوا أن يتخذوها ذريعةً لمنع دروس التوحيد، واتفق أن الرؤساء من الحُكَّام كانوا غائبين عن مدينة مكناس؛ لأنهم ذهبوا ليستقبلوا جلالة الملك الحسن الثاني عند رجوعه إلى عاصمة ملكه من زيارة الجزائر، ولم يوجد إلا نائب من نواب المتصرف، فالتجأوا إليه وطلبوا منه أن يمنع دروس التوحيد، فانتظر إلى قُرب أذان المغرب الذي بعده يكون الدرس فبعث إليّ شيخين من شيوخ الحارات راكبين على سيارة العمالة، فدخلا عليّ وقالا لي: إنَّ سعادة العامل ـ يعنون: الأمير ـ يقول لك: اترك التدريس في الجامع الكبير إلى أن ينظر في القضية التي حصلت البارحة، وقال لنا: قولوا له يجيبكم بنعم أو لا. فقلت لهم: أنا لا أعارض أمر العامل. وامتنعت من التدريس في المساء، ففرح المشركون فرحًا عظيمًا وظنُّوا أنهم أدركوا وطرهم وقضوا على الموحِّدين المتَّبعين للرَّسول قضاءً مبرمًا، ولكنَّ الله العلي العظيم الذي نصرنا في المرة الأولى والثانية نصرنا في هذه أيضًا نصرًا مؤزرًا من فضله ورحمته لا باستحقاق لأنَّنا مقصِّرون في طاعته.

بعد يوم واحد رجع العامل ورجع النائب الأول للمتصرف، ومتصرف مكناس هو الحسيب النسيب صاحب السعادة مولاي سلامة بن زيدان العلوي، وما رأينا منه إلا البر والإكرام حاشا له أن ينضمَّ إلى مَنْ يحارب سنَّة جدِّه المصطفى، وعند ذلك ذهبتُ يصحبني جماعة من إخواننا إلى العامل، فقلتُ له بعد التحية: إنَّ أحدَ نواب المتصرف بعث إليَّ شيخين من شيوخ الحارات في سيارة من سيارات العمالة، يقول: إنَّ

العامل يأمرك بالامتناع من إلقاء دروس التوحيد في الجامع الكبير، فقال لي: أنا كنتُ مسافرًا ولم يصدر منِّي أيُّ شيء مما زعم، وقد قدَّر هؤلاء المحاربون للسنة أن يكذبوا عليَّ ويوهِّموني صدقَ مفترياتهم فيما مضى، ولن يستطيعوا أن يروِّجوا عليّ مكرهم مرة أخرى، فأنا لا أتعرَّض لدروسك أبدًا، فاستمر فيها على بركة الله. وقال النائب الأول لسعادة متصرف المدينة مثل ذلك.

وقد قام العالم السلفي السيد محمد بن عبد الله العلوي[1] القاضي بجهود مشكورة في ذلك اليوم أيضًا، فسُقط في أيدي أولئك المفسدين وانهزموا شر هزيمة، فاستمررت في الدرس كلَّ مساءٍ إلى أن سافرت إلى المدينة، وقرت بذلك أعين أهل التوحيد والاتباع، وخسر هنالك أهل الشرك والابتداع ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

المدرسة الحسنية

لم يزل أولئك المفسدون ينقلون الوشايات إلى جلالة الملك المعظم الحسن الثاني ـ أيده الله وأدام توفيقه وتسديده ـ، فلم يستطيعوا

(١) هو الشريف الفقيه القاضي محمد بن عبد الله بن الصادق العلوي الهاشمي المدغري، ولد بمدغر نحو عام ١٣٣٧هـ، رحل إلى فاس سنة ١٣٤٩هـ، ودرس في جامعة القرويين، وتربع بين أحضان شيوخها، وانخرط في سلك القضاء في ٢٤ محرم عام ١٣٦٧هـ، ويعتبر من الوطنيين المكافحين من أجل تحرير بلادهم من رق الاستعمار، وهو فقيه وعالم مشارك، إلا أن له براعة في الفقه والنحو، والأصول والبلاغة. توفي في صباح يوم الأربعاء ٢٢ ربيع الأول عام ١٤١٢هـ يوافق ٢ أكتوبر سنة ١٩٩١م بعد صلاة العصر، رحمه الله. ترجمته في «إسعاف الإخوان الراغبين» (١٦٨ ـ ١٧٠).

أن يؤثروا فيه لحكمته وتثبته، وبلغني ـ والعهدة على الراوي ـ أنه حين أكثروا عليه حضر الدرس بنفسه متنكرًا؛ فعلم أن دروسي إنما هي دعوة لاتباع الكتاب والسنة وتحذير من الشرك والبدعة، اللذين هما سبب كل شقاء أصاب المسلمين، فلم أرَ من هذا الملك الرشيد إلا الخير.

وقبل بضع سنين ألهم الله جلالة الملك الحسن الثاني أن يبني مكرمةً طالما غفل عنها الملوك السابقون، وهي من المزايا التي خصه الله بها والله يختصُّ بفضله مَنْ يشاء، ألا وهي تأسيس (دار الحديث الحسنية) ولما نشر خبر هذه الفكرة امتلأت قلوبنا سرورًا؛ لأنَّ علم الحديث أُهمل منذ عصور طويلة إلى أن اندرس ولم يبق له وجود؛ لا من الوجهة العلمية، ولا من الوجهة العملية، وصار الوعَّاظ وخطباء الجماعات يملؤون حديثهم بالموضوعات، ولا يميزون خبرًا صحيحًا من خبر ضعيف أو موضوع، ومن المعلوم أن علم الحديث هو مفتاح علوم الدين كلّها؛ لأنه لا تعرف معاني القرآن الذي هو حجة الله على خلقه إلا بأقوال النبي ﷺ وأفعاله، كما قال تعالى في سورة النحل [٤٤]: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وخفنا أن لا تخرج هذه الفكرة إلى حيِّز العمل، ولكن أبا محمد الحسن الثاني ـ أيده الله ـ من أهل العزم الذين إذا قالوا فعلوا وإذا فعلوا أجادوا، فخرجت هذه الفكرة إلى حيِّز العمل، وأُنْشِئَت (دار الحديث الحسنية)، ولم أُدعَ إلى التدريس فيها إلا بعد مضي شهرين من إنشائها بسبب وشاية أولئك الوشاة، ثم دعاني وزير الأوقاف الأستاذ أحمد برقاش إلى مكتبه بالوزارة، وتلقاني بغاية الحفاوة، وقال لي: إن سيدنا المنصور بالله أسس هذه المدرسة وإننا نرجو أن يكون لها مستقبل عظيم، فينبغي أن تشارك في هذا العمل المبرور، فقلت له: منذ ظهرت فكرة إنشاء هذه الدار وقبل أن تُحقق وتخرج إلى حيز الوجود كنت أول المرحِّبين بها المستبشرين

بظهورها، ونشرت في ذلك مقالًا طويلًا في مجلة «دعوة الحق»[1] التي تصدرها وزارتكم نظمًا ونثرًا. فقال لي: لم أطلع عليه. فقال له الأستاذ الحاج عبد الرحمٰن الدّكالي: بلى يا صاحب المعالي! نُشر هذا المقال في المجلة منذ زمان. فأعطاني معالي الوزير أهم الدروس التي تلقى في دار الحديث وهو تفسير القرآن، وكتاب «الموطأ» في الحديث للإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ.

فبدأت في إلقاء الدروس أحضِّر دروس القرآن والحديث، ثم ألقيها على الطلبة[2] وكان عددهم في أول الأمر ثلاثين طالبًا، ففرح الطلبة بتلك الدروس وأقبلوا عليها إلا أربعة كانوا طرقيين تجانيين؛ فإنهم كرهوا دروسي وأخذوا يشاغبون ويكثرون من الأسئلة التعنتية، وأنا أدفعهم بالتي هي أحسن[3].

(١) بعنوان (دار الحديث وفضل علم الحديث)، نشرت في العدد السابع، السنة السابعة، ذو الحجة ١٣٨٣هـ يوافق ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤م، وهي ضمن كتابي «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره.

(٢) قال في «الديوان» (٣٧٩): «وشمّرت عن ساعدي، وبذلت كل جهدي في تحضير الدروس، وكانت دروسي في الجامعة تنتهي في الزوال، وكنتُ أشرع في إلقاء دروسي في دار الحديث بعد الظهر».

(٣) قال في «الديوان» (٣٧٩ ـ ٣٨٠) مبيّنًا الصعاب التي واجهته، وموضحًا الخلل الذي بسببه لم يستمر في عطائه: «أول ما لاحظتُه ضعف الإدارة، وإهمالها مراقبة الطلبة، وإلقاؤها الحبل على الغارب، وعدم هيبة الطلبة لها، ووقوع الفوضى في الدروس بالمشاغبة، وعدم حسن الإنصات والجد في تلقي الدروس.
والطامة الكبرى: وجود نفر ممن يسمون أساتذة القرويين، لا هَمَّ لهم إلا المشاغبة وإفساد الدروس، وإظهار جهالاتهم، وتسميتها عِلْمًا في أثناء الدرس؛ فينقلب الأستاذ تلميذًا، والتلامذة أساتذة، ويشتد النزاع بينهم تارة، وبينهم وبين الأستاذ تارة أخرى.

=

وكان عندي أربعة دروس في كل أسبوع فكنتُ أتوجَّه إلى الرباط لإلقاء دروسي في جامعة محمد الخامس رَحِمَهُ اللهُ وأنتهي منها قبل الزوال، وكان الوقت المحدد للدَّرْسَين اللذين كنت ألقيهما في دار الحديث الحسنية أحدهما قبل صلاة العصر والثاني بعدها، وكنا في رمضان، فكنت أرجع إلى مكناس بعد الفراغ من الدرس الثاني فيدركني المغرب في الطريق فأفطر على التمر والماء، وكنت أتلقى تلك المشقة بصدر رحيب بل بفرح وسرور، لما كنت أرجو من أجرها وثوابها وانتفاع الطلبة بها، ولكن مشاغبة أولئك المفسدين كانت تسوءني وخصوصًا في رمضان الذي يجب فيه على كل مسلم أن لا ينطق إلا بالكلم الطيب، فقلت في نفسي: لعل شر هذه الدروس أكثر من خيرها.

وفي ذات يوم كنت أفسِّر قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فبيَّنتُ أنَّ كلَّ مَنْ دعا غير الله أو استغاث به لجلب نفع أو دفع ضر فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يُغفر، فضج التجانيون وقالوا: كفَّرتَ أسلافَنا!! فقلت: إن كان أسلافكم يدعون إلى الشرك بالله، فأبعدهم الله. وأخرجت أحدهم من الدروس.

= وأكثر الطلبة كانوا مُهَذَّبين، ومنهم مَن تخرَّج في الجامعات الشرقية، وكان أهلًا لتلقي المباحث العلمية؛ كالأستاذ محمد بن عبد الواحد بناني، ولكن تلك العصابة بتزعم المدعو (الزيزي) وقفَتْ عقبةً في طريقهم بتضييع الوقت باللغط، والنزاع بقصد إفساده، وإظهار عِلْمِهم ـ بزعمهم! ـ، وخصوصًا بعدما شرحت توحيد العبادة، وسلَلْتُ سيوف البراهين على الشرك والبدع والخرافات!

فَزِعَتْ هذه العصابة! وعبست! وبسرت! واستعدت للحرب العوان! فصبرتُ على مكروهها حتى عيل صبري، ولم أجد مَن أشتكي إليه، ولا مَن يُساعدني، أو ينصفني، أو يردّني إلى الصواب إنْ كنتُ مخطئًا؛ لأن المدير الحازم المهيب هو روح المدرسة وربان السفينة؛ فمتى فُقِدَ؛ تلاعبت بها الأمواج، وخرجت عن طريقها».

ولم يكن معالي الوزير موجودًا في الرباط بل كان مسافرًا، وعميد الكلية[1] كان متصوفًا خرافيًّا يزعم أن الأولياء إذا وصلوا إلى درجة الفناء تسقط عنهم التكاليف ويُباح لهم ارتكاب الكبائر كلها! فصمَّمت على ترك التدريس وكتبتُ استقالتي إلى معالي الوزير، وأعترف أن ذلك كان تسرُّعًا مني، وكان ينبغي لي أن أنتظر أوبته، ولكن المقدَّر كائنٌ، وعذري في ذلك أني أردت أن أصون صيامي من اللغو، عملًا بقول من قال:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّمْعِ مِنِّي تَصَوُّنٌ ... وَفِي بَصَرِي غَضٌّ وَفِي مَنْطِقِي صَمْتُ
فَحَظِّي إِذًا مِنْ صَوْمِيَ الْجُوعُ وَالظَّمَا ... وَإِنْ قُلْتُ: إِنِّي صُمْتُ يَوْمًا فَمَا صُمْتُ[2]

وقال آخر:

---

(١) هو خليل الورزازي، وهو زيادة على ذلك ممن بايع محمد بن عرفة. (خ)
قلت: الفقيه العلامة محمد خليل بن محمد بن الطاهر بن عمر الورزازي، من مواليد مراكش سنة ١٨٨٩م. عين مدرسًا بمدرسة الباشا الكلاوي سنة ١٩٢٣م. ولما زار السلطان محمد الخامس المدرسة واستمع ـ صحبة مرافقيه ـ إلى درسه سر به فأصدر أمره الشريف بتعيينه أستاذًا لأنجاله بالمدرسة المولوية بالرباط، كما عُيِّنَ أستاذًا بثانوية مولاي إسماعيل، وفي هذه الأثناء زاول خطة العدالة مع قاضي العاصمة الفقيه مولاي أحمد ابن اليزيد البدراوي بعد مزاولتها بمراكش، وحين تأسيس دار الحديث الحسنية بالرباط عين أول مدير لها، وبعد انتهاء مأمورية التعليم بالمدرسة المولوية عين قاضيًا بأيت أورير سنة ١٩٤٥م، وفي سنة ١٩٥٧م عين بنفس الصفة بمراكش، كما عين مستشارًا مقررًا بالمجلس الأعلى بالرباط، وبقي في هذه المهمة إلى أن أحيل على التقاعد بتاريخ ٢ يناير ١٩٧١م، توفي يوم الأربعاء ٢٥ سبتمبر ١٩٨٦ ودفن بمقبرة باب أغمات بعد صلاة العصر. (ع)

(٢) البيتان لأبي بكر غالب بن عطية المحاربي الأندلسي، ذكرهما أبو طاهر السِّلفي في «معجم السفر» (١/ ٥٠)، وهي في «خريدة القصر» (قسم شعراء المغرب والأندلس) (١٥/ ٤٩٠)، «نفح الطيب» (٢/ ٥٢٤).

وَاعْلَـمْ بِـأَنَّـكَ لَا تَـكُـونُ تَـصُـومـهُ   حَتَّـى تَـكُـونَ تَـصُـومُـهُ وَتَـصُـونُـهُ[١]

فلما رجع معالي الوزير تأسف على ذلك وقبل استقالتي، وكانت مدة تدريسي في دار الحديث الحسنية شهرين ونصفًا.

وهذه القصيدة التي قلتُها في الترحيب بفكرة دار الحديث الحسنية[٢]:

بِدَارِ حَدِيثِ الْمُصْطَفَى حَقَّتِ الْبُشْرَى   فَأَشْـرَقَـتِ الآفَاقُ وَامْـتَـلأَتْ بِـشْـرًا
هي الْفِكْرَةُ الْحُسْنَى بِهَا (الحَسَنُ) ارْتَقَى   إِلَى ذِرْوَةِ الإِحْسَانِ وَهْوَ بِهَا أَحْرَى

---

(١) قائله أبو بكر غالب نفسه، وليس آخر كما قال المصنف، انظر «خريدة القصر» (١٧/ ٥٢٧)، «نفح الطيب» (٢/ ٥٢٥).

(٢) قال في «الديوان» (٣٧٧ ـ ٣٧٨) قبل الأبيات:
«قلت في الترحيب بإنشاء دار الحديث، والثناء على منشئها؛ جلالة الحسن الثاني ـ أدام الله توفيقه للصالحات ـ، وقد كانت هذه الفكرة تشغل بالي وبال الكثير من المواطنين ذوي الغيرة على الدين، والحرص على إحياء سنة سيِّد المرسلين، وسيرة السلف الصالح؛ ومنهم الأستاذ السيد مهدي الصقلي، وقد تذاكرتُ معه في هذه القضية حين كان عاملًا بفاس سنة ١٣٧٦هـ الموافق ١٩٥٧م، وَالتَمَسَ منِّي أَنْ أكلم أستاذنا السيد محمد بن العربي العلوي ـ رحمة الله عليه ـ، وقال لي: إنَّ جلالة الملك محمد الخامس رَحِمَهُ اللهُ يتلقَّى بالقبول كل اقتراح وطلب يُقدِّمه له شيخ الإسلام؛ فكلمت أستاذنا في ذلك فلم ينشط له، ثم دعانا السيد مهدي إلى داره للعشاء وكلمناه معًا في القضية فلم يَعِدْنَا بشيء.
ولمَّا سمعتُ أنَّ جلالة الملك الحسن الثاني عزم على إنشاء دار الحديث كانت مفاجأة كِدْتُ أطير لها فرحًا، وكتبتُ مقالًا مطولًا نشر في مجلة «دعوة الحق» رحبتُ فيه بهذه الفكرة، وشكرت جلالة الملك عليها، واقترحتُ دعوة رجال من أعلم الناس بالحديث في هذا الزمان إلى المغرب؛ ليتولوا التدريس فيها حتى يطابق الاسم معناه، ويجري الماء في مجراه؛ فكانت نصيحتي صيحةً في وادٍ، أو نفخة في رماد، ومع ذلك لم أيأس من ثمرات هذه الفكرة؛ لأن مجرد وجودها يسرُّ كل مؤمن؛ فكيف إذا خرجت إلى حيز الفعل، ثم خرجت فعلًا إلى حيز الفعل على شكل ناقص».

فَلَا شَكَّ أَنَّ اللهَ أَلْهَمَ عَبْدَهُ ... لِذَا الْعَمَلِ الْمَحْمُودِ[١] وَالنِّعْمَةِ الْكُبْرَى
وَصِيَّةُ خَيْرِ الْخَلْقِ طُرًّا وَعَهْدُهُ ... إِلَى أُمَّةِ الْقُرآنِ يَا سَعْدَ مَنْ بَرَّا
عَلَى حِينَ عَمَّ الْجَهْلُ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ ... وَلَا سِيَّمَا بِالذِّكْرِ وَالسُّنَّةِ الْغَرَّا
وَشَاعَ ابْتِدَاعٌ فَاتِكٌ فِي رُبُوعِهِمْ ... فَأَظْلَمَتِ الأَرْجَاءُ وَامْتَلأَتْ نُكْرَا
وَسَادَ رُءُوسُ الْجَهْلِ وَاشْتَدَّ كَيْدُهُمْ ... وَقَدْ أَضْمَرُوا لِلأُمَّةِ الْمَكْرَ وَالْغَدْرَا
مَضَوْا يَسْلُبُونَ الْمَالَ وَالْعَقْلَ وَالْهُدَى ... وَيَسْتَعْبِدُونَ النَّاسَ بِالْحِيَلِ الحَقْرَا
فَأَطْلَعَهَا نُورًا يُضِيءُ حنَادِسًا[٢] ... مِنَ الْجَهْلِ ذَاقَ النَّاسُ مِنْ طَعْمِهَا الْمُرَّا
وَأَحْيَا مِنَ الآمَالِ مَا كَانَ مَيِّتًا ... فَأَصْبَحَ ثَغْرُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مُفْتَرَّا
وَمَنْ يُحْيِ سُنَّاتِ الرَّسُولِ وَهَدْيَهُ ... يُهَيِّئْ لَهُ الرَّحْمَنُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرَا
وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا[٣] وَيَرْفَعْ ذِكْرَهُ ... وَيُبْلِغْهُ آمَالًا وَيَشْرَحْ لَهُ الصَّدْرَا
وَمَنْ رَامَ مِنْ أَعْدَائِهِ أَنْ يَكِيدَهُ ... بِبَغْيٍ فَإِنَّ اللهَ يَمْنَحُهُ النَّصْرَا
وَمَنْ يَنْصُرِ الرَّحْمَنَ يَنْصُرْهُ عَاجِلًا ... وَيَنْصُرْهُ يَوْمَ الْحشْرِ فِي النَّشْأَةِ الأُخْرَى
وَمَنْ يَقْرَأُ الْقُرآنَ مِنْ غَيْرِ سُنَّةٍ ... يَضِلَّ ويَلْقَ فِي عَوَاقِبِهِ خُسْرَا
فَتَفْسِيرُ قَوْلِ اللهِ هَدْيُ رَسُولِهِ ... وَذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ مُتَّضِحٌ يُقْرَا
فَيَا أَيُّهَا المَلْكُ الْهُمَامُ الَّذِي سَرَتْ ... بِأَخْبَارِهِ الرُّكْبَانُ تَنْشُرُهَا نَشْرَا
وَمَا زَالَ بِالأَفْعَالِ يُشْفَعُ قَوْلُهُ ... فَتَبْنِي لَهُ بَيْنَ الْوَرَى الْمَجْدَ وَالْفَخْرَا
جَزَاكَ إِلَهُ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... عَلَى دَارِ عِلْمٍ شِدْتَهَا لِلْهُدَى فَجْرَا[٤]
إِلَيْكَ أَسُوقُ الْيَوْمَ نَظْمًا مُلَفَّقًا ... وَكَانَ بِوُدِّي أَنْ أَنَظِّمَهُ دُرَّا

---

(١) في مجلة «دعوة الحق»: «المبرور».
(٢) مفردها: حندس وهو الظلمة، والليل الشديد الظلمة.
(٣) في «الديوان»: «أمرًا».
(٤) في «الديوان»: «فخرًا».

وَلَكِنْ هَجَرْتُ الشِّعْرَ دَهْرًا فَأُوصِدَتْ عَلَيَّ[1] قَوافِيْهِ وَكَافَأَنِي هُجْرَا
فَقَابِلْهُ بِالصَّفْحِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَأَسْدِلْ عَلَيْهِ[2] جَمِيْلَ الرِّضَى سِتْرَا[3]

(١) في مجلة «دعوة الحق»: «بوجهي».
(٢) بعدها في «الديوان»: «مِنْ».
(٣) الأبيات في «منحة الكبير المتعالي» (ص٣٨٠ ـ ٣٨١)، ومقالة «دعوة الحق» المنوّه بها سابقًا، وفي «قرة العين في مدح المليكين» (٩ ـ ١٢).

الرجوع إلى المدينة المنورة

قد عرف القراء سبب خروجي من هذه المدينة المباركة فيما مضى، ولما أراد الله بفضله ورحمته أن يردَّني إليها ألهم صاحب السماحة العالم السلفي ناصر السنة وقامع البدعة الورع الزاهد الأواب الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز[1] ـ رئيس الجامعة الإسلامية ـ أن يدعوني

(١) سبقت ومضة في مدح المؤلف للعلامة ابن باز، وكانت المحبّة متبادلة بينهما، وبقي الهلالي على العهد في حُبِّه وتقديره للشيخ ابن باز؛ فها هو يكتب من مكناس في رسالة لتلميذه عليّ بن أحمد الريسوني بتأريخ ٣/ ١/ ١٣٨٧هـ:

«أما الشيخ عبد العزيز بن باز؛ فإني أعرفه معرفة شخصية، وهو شيخ صالح، معتدل محقق منصف، وأصل أسلافه من مصر، وآخر مرة اجتمعتُ به في مكة سنة ١٩٥٧م»، انظر «رسائل الهلالي» (رقم ٧٤).

ويقول الهلالي في جواب استفتاء ورد إليه في فاتح صفر سنة ١٣٩٣هـ: «أشركت معي عالمًا كبيرًا مشهورًا بالورع، وهو رئيس جامعتنا الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز».

ويقول الشيخ ابن باز في «مجموع فتاويه» (٢١/ ٣٩٣) جوابًا على مسألة في الطلاق: «فقد عرض عليَّ فضيلة الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي الخطاب الموجَّه له منكم بتأريخ ١٦/ ١/ ١٣٨٩هـ، وطلب مني الإجابة على السؤال المرفق، وقد لبيْتُ طلبه تعاونًا على البر والتقوى، وخشية من تبعة كتمان العلم. . .».

والعلامة ابن باز يكنُّ كلَّ الاحترام والتقدير والحب للعلامة الهلالي؛ فهو يقول عنه في رسالة تراها برقم (٣٩٩): «يا محبّ»، ويقول: «وصلنا منكم كتب كثيرة».

ويقول في «مجموع فتاويه» (٢٠/ ٨٤) في جواب سؤال: «ونفيدكم أنا قد بحثنا =

إلى التدريس في الجامعة الإسلامية، وعندما لقيته بمنى سنة ١٣٨٨هـ قال لي: إن الجامعة الإسلامية في حاجة إليك. فقلت له: وأنا في حاجة إليها أيضًا. فقال لي: بأي طريق ندعوك إلى التَّدريس فيها؟ فأخبرته، فدعاني دعوةً رسميّةً بطريق وزارة الخارجية السعودية، فالسفارة السعودية بالمغرب، فوزارة التعليم العالي بالرباط، وأتيتُ إلى هذا البلد المبارك[1]، وأنا أسأل الله متوسلًا إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن

= الموضوع بحضرة جماعة من الأساتذة؛ منهم: فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وفضيلة الدكتور تقي الدين الهلالي...».

بل وجدت في أطروحة الماجستير لأخينا خالد الزهراني المسماة «تقي الدين الهلالي وجهوده في الدعوة إلى الله» (ص٥٧ ـ مرقومة على الآلة الكاتبة) يقول: «قال تلميذ العلامة ابن باز الشيخ محمد شطو ـ وفقه الله وأكرمه ـ عن شيخه ابن باز أنه كان يقول عن التقي الهلالي: شيخي في التوحيد».

قال أبو عبيدة: ثم سمعتها من الشيخ شطو بنفسي في سحر الليلة الأخيرة من رمضان سنة ١٤٢٥هـ.

وبقي وفاء العلامة ابن باز لأخيه أبي شكيب الهلالي حتى بعد وفاته، فله عناية حسنة بأبنائه.

(١) حاولت تحصيل عقد الهلالي مع الجامعة الإسلامية، فلم أجده في أوراقه في (الملف) الذي له في الجامعة. ولكن نشر في مجلة «الجامعة الإسلامية» السنة الأولى، العدد (٢) في رجب ١٣٨٨هـ يوافق تشرين الأول ١٩٦٨م (ص١٤٢) تحت (أخبار الجامعة) ما نصه: «تعاقدت الجامعة الإسلامية مع فضيلة الدكتور تقي الدين الهلالي للتدريس بها، وقد وصل فضيلته وباشر عمله ابتداء من يوم السبت الموافق ٦/ ٧/ ١٣٨٨هـ».

وبقي الهلالي في المدينة إلى سنة ١٣٩٤هـ توافق ١٩٧٤م، وكانت له علاقات مع كثير من العلماء إبان هذه الفترة، والتقى فيها كثيرًا مع علمائها، والمدرسين في الجامعة بها، أمثال: شيخنا الألباني، والعلامة حماد الأنصاري، والعلامة محمد الأمين الشنقيطي.

وفي مواطن عديدة مبعثرة من «مجموع الشيخ حماد» أخبار مطربة مدهشة عن =

يجعل إقامتي فيه طبق ما يجب على كلِّ ساكن فيه من مراعاة حرمته والبعد عن ارتكاب أي حدث يتنافى مع قدسيته.

وهذه (القصيدة المكناسية)[1] تعبِّر عما تقدَّم بالأسلوب الشِّعري، وقد حذفت عشرة من أبياتها[2] إبقاء على بعض الناس، على أنني لم أصرح فيها باسم أحد لا في المحذوف ولا في المثبت، وبالله التوفيق:

لَقَدْ طَالَ لَيْلِي وَالْجَوَى مَالِئٌ صَدْرِي ... وَبرَّح بِي شَوْقٌ إِلَى رَبَّةِ الْخِدْرِ
أُقَضِّي نَهَارِي دَائِمَ الْفِكْرِ وَالأَسَى ... وَلَيْلِيَ تَسْهَادٌ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ
وَأَكْتُمُ أَسْرَارِي حِذَارًا مِنَ الْعِدَا ... وَمَهْمَا أَبُحْ فَالحُبُّ أَفْقَدَنِي صَبْرِي
تَذَكَّرْتُ أَيَّامَ الْوِصَالِ فَكَادَ مِنْ ... تَذَكُّرِهَا قَلْبِي يَطِيرُ مِنَ الصَّدْرِ
فَيَا وَيْحَ قَلْبِي مَا يُلَاقِي مِنَ الْهَوَى ... وَمِنْ فَرْطِ آلامِ الصَّبَابَةِ وَالْهَجْرِ
وَعَاذِلَةٍ جَاءَتْ بِلَوْمٍ كَأَنَّهُ ... نُعَابُ غُرَابٍ لِلْفُؤَادِ غَدَا يَبْرِي

= الهلالي، تراها مجموعة في كتابنا «الجامع لترجمة الهلالي».
ولازم الشيخ وصيُّ الله عباس الهلاليَّ في هذه الفترة، فاستفاد منه علمًا وسمتًا وهديًا، أسأل الله أن يرحم الأموات ويحفظ الأحياء.
وكانت هذه الفترة مباركة في حياة الهلالي، فترجم فيها معاني القرآن الكريم؛ و«صحيح البخاري» بمشاركة الشيخ الدكتور محسن خان، وألف فيها كتابه هذا ـ كما قدمناه ـ، وكتب عددًا من مقالاته، ولا سيما التي نشرها في مجلة «الجامعة الإسلامية»، وترى ذلك في هيكل «المقالات» في كتابنا المختص بذلك.

(١) سماها أيضًا: (قصيدة في مدح الملك محمد الخامس) و(ملك المغرب الصالح محمد الخامس) و(أتوعد سنات الرسول بمحوها) و(السهام الصائبة) و(الكتيبة المظفرة في رجم شياطين البغي والشرك والبدع المستنكرة)، انظر: «الديوان» (٣٨٢ ـ ٣٨٤) وتعليقي عليه.

(٢) سأذكرها في محلها في التعليق، وهي موزعة في ثلاثة مواضع من القصيدة.

وَلَسْتُ بِسَالٍ لَوْ أَطَلْتِ مَلَامَتِي فَكُفِّي عَنِ الإِسْفَافِ وَالْمَنْطِقِ الْهُجْرِ
وَكَيْفَ سُلُوِّي بَعْدَ مَا شَابَ مَفْرَقِي وَأَنْفَقْتُ فِي حُبِّي لَهَا زَهْرَةَ الْعُمْرِ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الْمَلَامَ وَإِنْ غَدَا عَدِيمًا مِنَ الْجَدْوَى فَبِالْحُبِّ قَدْ يُغْرِي
وَطُفْتُ بِلَادَ اللهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا عَلَى قَدَمِي طَوْرًا وَطَوْرًا عَلَى مُهْرِ
وَأَنْضَيْتُ بُعْرَانًا[1] وَحَلَّقْتُ فِي السَّمَا عَلَى جَائِبَاتِ الْجَوِّ كَالنَّجْمِ إِذْ يَسْرِي
وَطَوْرًا عَلَى فُلْكٍ عَظِيمٍ كَأَنَّهُ ثَبِيرٌ[2] يَرُوعُ الْحُوتَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ
حَلِيفَ اغْتِرَابٍ فِي ثَوَاءٍ وَرِحْلَةٍ[3] وَإِنْ كُنْتُ فِي أَهْلٍ كَثِيرٍ ذَوِي وَفْرِ
(وَمَا غُرْبَةُ الإِنْسَانِ مِنْ شُقَّةِ النَّوَى وَلَكِنَّهَا) فِي الدِّينِ وَالْخُلْقِ وَالْبِرِّ
إِلَى اللهِ أَشْكُو غُرْبَةَ الدِّينِ وَالْهُدَى وَطُغْيَانَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ وَالْغَدْرِ[4]
وَمَنْ يَقْلِ سُنَّاتِ الرَّسُولِ فَإِنَّهُ يُعَذَّبُ فِي الدُّنْيَا وَفِي فِتْنَةِ الْقَبْرِ
وَيَسْأَلُهُ فِيهِ نَكِيرٌ وَمُنْكَرٌ وَمَا مِنْ جَوَابٍ عِنْدَهُ غَيْرُ لَا أَدْرِي
وَذِي سُنَّةُ الْجَبَّارِ فِي كُلِّ مَنْ غَدَا يُحَارِبُ دِينَ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ
أَلَمْ تَدْرِ أَنَّ اللهَ نَاصِرُ دِينِهِ وَمَوْقِعُ أَهْلِ الْبَغْيِ فِي دَارَةِ الْخُسْرِ
وَكَمْ قَدْ سَعَى سَاعٍ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ بِكَيْدٍ فَرَدَّ اللهُ كَيْدَهُ فِي النَّحْرِ

---

(١) مفردها: بعير، وأنضيت: أهزلت، والكلام كناية عن طول السفر. (منه)
(٢) ثبير: جبل بمكة. (منه)
(٣) في «سبيل الرشاد» (٦/ ٢٦١): «تواعد رحلة».
(٤) بعدها في «الديوان» (٣٨٥):
وَأَرْعَنُ غُمْرٌ جَاءَ يُرْعِدُ مُبْرِقًا يُحَرِّقُ أَنيابًا مِنَ الْغَيْظِ وَالكِبْرِ
فَقُلْتُ لَهُ (شُؤْشُؤْ) لَكَ الْوَيْلُ إِنَّمَا وَعِيدُكَ تَطْنَانُ الذُّبَابِ عَلَى النَّهْرِ
وَلَيْسَ يَضِيرُ النَّهْرَ صَوْتُ ذُبَابَةٍ وَمَهْمَا دَنَتْ تَرْدَى وَتَهْوِي إِلَى القَعْرِ
أَتُوعِدُ سُنَّاتِ الرَّسُولِ بِمَحْوِهَا تَعَرَّضْتَ لِلتَّدْمِيرِ ـ وَيْلَكَ! ـ وَالثَّبْرِ
و(شُؤشُؤ) من «شأشأ»، وشُؤشُؤ: دعاء الحمار إلى الماء وزجر الغنم والحمار للمُضيِّ، أو شُؤشُؤ: دُعاءٌ للغنم لتأكل أو تشرب. «القاموس المحيط» (٤٩٥).

وَتَنْصُرُ إِشْرَاكًا وَفِسْقًا وَبِدْعَةً ... وَنَاصِرُ هَذَا خَاسِرٌ أَبَدَ الدَّهْرِ
دَعَا الْمُصْطَفَى قِدْمًا عَلَيْهِ بِلَعْنَةٍ ... وَمَنْ يَلْعَنِ الْمُخْتَارُ فَهْوَ إِلَى شَرِّ
وَتَلْعَنُهُ الأَمْلَاكُ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةٍ ... كَذَلِكَ أَهْلُ الأَرْضِ فِي السَّهْلِ وَالْوَعْرِ[1]
فَيَا نَاطِحَ الطَّوْدِ الْمَتِينِ بِهَامَةٍ ... مُدَوَّرَةٍ جَوْفَا حَذَارِ مِنَ الْكَسْرِ
وَلَيْسَ يَحِيقُ الْمَكْرُ إِلَّا بَأَهْلِهِ ... وَحَافِرُ بِئْرِ الْغَدْرِ يَسْقُطُ فِي الْبِئْرِ
وَكَمْ حَافِرٍ لَحْدًا لِيَدْفِنَ غَيْرَهُ ... عَلَى نَفْسِهِ قَدْ جَرَّ فِي ذَلِكَ الْحَفْرِ
وَكَمْ مُشْرِكٍ طَاغٍ تَرَدَّى بِشِرْكِهِ ... وَسَادِنِ قَبْرٍ بَاءَ بِالْخِزْيِ وَالْخُسْرِ
وَكَمْ رَائِشٍ سَهْمًا لِيَصْطَادَ غَيْرَهُ ... أُصِيبَ بِذَاكَ السَّهْمِ فِي ثُغْرَةِ النَّحْرِ[2]
وقُبَّرَةٍ أَضْحَى لَهَا الْجَوُّ خَالِيًا ... مِنَ النَّسْرِ وَالْعِقْبَانِ[3] وَالْبَازِ وَالصَّقْرِ
فَلَا تَفْرَحِي[4] يَوْمًا سَيَأْتِيكِ صَائِدٌ ... وَيَسْقِيكَ كَأْسَ الْحَتْفِ كَالصَّابِ[5] وَالصَّبْرِ[6]
(فَإِنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ ... وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي) زِدْتَ وِزْرًا عَلَى وِزْرِ
وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ... ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ كَالسَّاقِطِ الْقَدْرِ

---

(١) بعدها في «الديوان»:
تُحَدِّدُ لِلْوُعَّاظِ مَا يَدْرُسُونَهُ ... وَأَنْتَ يَمِينُ اللهِ أَجْهَلُ مِنْ حُمْرِ
(لَقَدْ هَزُلَتْ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا ... كُلَاهَا وَحَتَّى سَامَهَا) كُلُّ ذِي عُسْرِ
تَدُسُّ جَوَاسِيسًا لِئَامًا بِوَعْظِهِمْ ... لِتَلْفِيقِ أَخْبَارٍ مِنَ المَيْنِ وَالْمَكْرِ
لَقَد فُقْتَ الاستِعْمَارَ فِي اللُّؤْمِ وَالْخَنَا ... وَفِي الْكَيْدِ وَالْبُهْتَانِ وَالْخَتْلِ وَالْخَتْرِ
تُحَارِبُ مَنْ يَدْعُو لِسُنَّةِ أَحْمَدٍ ... وَتِلْكَ لَعَمْرُ اللهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ
(٢) بعده في «الديوان»:
وهل أنتَ يا مُغرورُ إلا مُعَبَّدٌ ... حقيرٌ كَفَأرٍ صَالَ في غَيْبَةِ الهِرِّ
(٣) بدلها في مجلة «الجامعة الإسلامية»: «والثعبان».
(٤) في «الديوان»: «تَفْرَحن».
(٥) الصَّاب: شجر مر. (منه)
(٦) الصَّبِرُ ـ ككتِفٍ ـ ولا يُسكَّنُ إلا في ضرورة الشعر ـ: عُصارةُ شجرٍ مُرٍّ. «القاموس المحيط» (ص٤٢٢).

فَيَا عَجَبًا حَتَّى كُلَيْبٌ تَسُبُّنِي ... كَأَنَّ أَبَاهَا مِنْ لُؤَيٍّ وَمِنْ فِهْرِ
أَتَغْتَرُّ بِالإِمْهَالِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... عَدِمْتُكَ إِهْمَالٌ وَذَا دَيْدَنُ الْغُمْرِ
وَمَا نَحْنُ إِلَّا خَادِمُونَ لِسُنَّةٍ ... أَتَتْ عَنْ نَبِيِّ اللهِ ذِي الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ
وَخَادِمُ سُنَّاتِ الرَّسُولِ حَيَاتُهُ ... كَخَادِمِهَا مِنْ بَعْدِ مَا صَارَ فِي الْقَبْرِ
وَمَا غَابَ إِلَّا شَخْصُهُ عَنِ عُيُونِنَا ... وَأَنْوَارُهُ تَبْقَى إِلَى الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ
فَيَا مُبْغِضِي هَدْيِ النَّبِيِّ أَلَا ابْشِرُوا ... بِخِزْيٍ عَلَى خِزْيٍ وَقَهْرٍ عَلَى قَهْرِ
سَلَكْتُمْ سَبِيلًا قَدْ قَفَاهَا إِمَامُكُمْ ... أَبُو جَهْلٍ الْمَقْصُومُ فِي مُلْتَقَى بَدْرِ
وَعَاقِبَةُ الْمَتْبُوعِ حَتْمٌ لِتَابِعٍ ... كَمَا لَزِمَ الإِحْرَاقُ لِلْقَابِضِ الْجَمْرِ
فَإِنْ أَنْتُمُ كَذَّبْتُمُ بِوَعِيدِهِ ... فَكَمْ كَذَّبَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ أُمَمُ الْكُفْرِ
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ سَوْطَ نِقْمَةٍ ... فَصَارُوا أَحَادِيثَ الْمُقِيْمِينَ وَالسَّفْرِ
(فَيَا رَبِّ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُرْتَجَى ... عَلَيْهِمْ) إِلَيْكَ الأَمْرُ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
قَلَوْا سُنَّةَ الْمُخْتَارِ يَبْغُونَ مَحْوَهَا ... وَكَادُوا لَهَا فَاجْعَلْ لَهُمْ كَيْدَهُمْ يَفْرِي
هُمُ اسْتَضْعَفُونَا الْيَوْمَ مِنْ أَجْلِ أَنَّنَا ... قَلِيلٌ وَقَدْ يَعْلُو الْقَلِيْلُ عَلَى الْكُثْرِ
وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ لِلَّهِ قَائِمًا ... وَأَعْدَاؤُهُ لِلْبَغْيِ مِنْ جَهْلِهَا تَجْرِي
وَإِدْرَاكُ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ مُحَقَّقٌ ... لِمَنْ يَقْتَدِي بِالْمُصْطَفَى مِنْ ذَوِي الْحِجْرِ
وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ اللهَ مُخْلِفُ وَعْدِهِ ... وَخَاذِلُ أَنْصَارِ النَّبِيِّ بِذَا الْعَصْرِ
فَذَاكَ غَلِيظُ الطَّبْعِ أَرْعَنُ جَاهِلٌ ... عَرِيضُ الْقَفَا بَيْنَ الْوَرَى مُظْلِمُ الْفِكْرِ
تَكَفَّلَ بِالنَّصْرِ الْعَلِيُّ لِحِزْبِهِ ... حَيَاتَهُمُ هَذِي وَفِي مَوقِفِ الْحَشْرِ
فَفِي (غَافِرٍ) قَدْ جَاءَ ذَلِكَ وَاضِحًا ... وَلَكِنَّهُ يَخْفَى عَلَى الْفَدْمِ وَالْغُمْرِ
سَلَامٌ عَلَى أَنْصَارِ سُنَّةِ أَحْمَدٍ ... فَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ فِي كُلِّ مَا دَهْرِ
إِلَيْهِمْ أَجُوبُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ قَاصِدًا ... فَرُؤْيَتُهُمْ تَشْفِي السَّقِيمَ مِنَ الضُّرِّ
هُمُ حَفِظُوا الدِّينَ الْحَنِيفَ وَنَاضَلُوا ... عَنِ الْحقِّ بِالْبُرْهَانِ وَالْبِيضِ وَالسُّمْرِ
هُمُ خَلَفُوا الْمُخْتَارَ فِي نَشْرِ سُنَّةٍ ... بِفِعْلٍ وَأَقْوَالٍ تَلأْلأُ كَالدُّرِّ

هُمُ جَرَّدُوا التَّوْحِيدَ مِنْ كُلِّ نَزْغَةٍ ... مِنَ الشِّرْكِ وَالإِلْحَادِ وَالزَّيْغِ وَالنُّكْرِ(١)
فَلَا قُبَّةً تُبْنَى عَلَى قَبْرِ مَيِّتٍ ... وَلَمْ يَعْبُدُوا قَبْرًا(٢) بِذَبْحٍ وَلَا نَذْرِ
وَلَا بِطَوَافٍ أَوْ بِتَقْبِيلِ تُرْبَةٍ ... فَذَلِكَ فِعْلُ الْمُشْرِكِينَ ذَوِي الْكُفْرِ
وَلَا رَحَلُوا يَوْمًا لِغَيْرِ ثَلَاثَةٍ ... مَسَاجِدَ خُصَّتْ بِالْفَضَائِلِ وَالأَجْرِ
وَلَمْ يَسْتَغِيثُوا فِي الشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... بِغَيْرِ إِلَهِ النَّاسِ ذِي الخَلْقِ وَالأَمْرِ
وَلَمْ يَصِفُوا الرَّحْمَنَ إِلَّا بِمَا أَتَى ... بِنَصِّ كِتَابِ اللهِ وَالسُّنَنِ الزُّهْرِ
يُقِرُّونَ آيَاتِ الصِّفَاتِ جَمِيعَهَا ... كَمَا فَعَلَ الْمُخْتَارُ مَعَ صَحْبِهِ الْغُرِّ
فَلَوْ كَانَ فِي التَّأْوِيلِ خَيْرٌ لَبَادَرُوا ... بِهِ فَهُمُ الْفُرْسَانُ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ
(أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ ... إِذَا مَا) اجْتَمَعْنَا فِي الْمَجَالِسِ لِلْفَخْرِ
وَقَدْ أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ قَبْلُ دِينَهُ ... فَلَمْ يَبْقَ مِنْ زَيْدٍ لِزَيْدٍ وَلَا عَمْرِو
بِـ (مَائِدَةٍ) قَدْ جَاءَ بِالنَّصِّ خَتْمُهُ ... وَإِتْمَامُ (إِنْعَامٍ) يَجِلُّ عَنِ الْحَصْرِ
وَكَمْ زَائِدٍ فِي الدِّينِ أَصْبَحَ نَاقِصًا ... يُبَدِّلُ دِينَ اللهِ بِالْحَدْسِ وَالْحَزْرِ
وَمَنْ ظَنَّ تَقْلِيدَ الأَئِمَّةِ مُنْجِيًا ... فَأَفْتَى بِتَقْلِيدٍ فَيَا لَهُ مِنْ غِرِّ
كَمُنْتَحِلٍ عُذْرًا لِيُغْفَرَ ذَنْبُهُ ... أَضَافَ لَهُ جُرْمًا تَجَدَّدَ بِالْعُذْرِ
أَلَا إِنَّمَا التَّقْلِيدُ جَهْلٌ وَظُلْمَةٌ ... وَطَالِبُهُ خِلْوٌ مِنَ العِلْمِ وَالْخُبْرِ(٣)
كَطَالِبِ وِرْدٍ بَعْدَ مَا شَفَّهُ الظَّمَا ... جَرَى خَلْفَ آلٍ لَاحَ فِي مَهْمَهٍ قَفْرِ
فَإِنْ قُمْتَ بِالإِفْتَاءِ أَوْ كُنْتَ قَاضِيًا ... فَإِيَّاكَ وَالتَّقْلِيدَ فَهْوَ الَّذِي يَزْرِي
وَجَرِّدْ سُيُوفًا مِنْ بَرَاهِينَ قَدْ سَمَتْ ... عَنِ الحَدْسِ وَالتَّخْمِينِ وَالسُّخْفِ وَالْهَتْرِ
وَطَرْفَكَ سَرِّحْ فِي الْكِتَابِ فَإِنَّهُ ... رِيَاضٌ حَوَتْ مَا تَشْتَهِيهِ مِنَ الزَّهْرِ
وَمِنْ بَعْدِهِ فَاعْلَقْ بِسُنَّةِ أَحْمَدٍ ... فَأَنْوَارُهَا تَسْمُو عَلَى الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ

---
(١) في مطبوع مجلة «الجامعة»: «والمكر».
(٢) بدلها في «سبيل الرشاد» (٦/ ٢٦٥): «ميتًا».
(٣) في سائر المصادر: «والخير».

وَلَا تَحْكُمَنْ بِالرَّأْيِ إِلَّا ضَرُورَةً ... كَمَا حَلَّتِ الْمَيْتَاتُ أَكْلًا لِمُضْطَرِّ
وَمَهْمَا بَدَا أَنَّ الْقَضَاءَ عَلَى خَطَا ... أُقِيمَ فَبَادِرْ لِلرُّجُوعِ عَلَى الْفَوْرِ
وَمَنْ يَقْضِ بِالتَّقْلِيدِ فَهْوَ عَلَى شَفَا ... كَعَشْوَا[1] غَدَتْ فِي كَافِرٍ حَالِكٍ تَسْرِي
وَمَنْ يُفْتِ بِالتَّقْلِيدِ فَهْوَ قَدِ افْتَرَى ... وَفِي (النَّحْلِ) نَصٌّ جَاءَ فِي غَايَةِ الزَّجْرِ
لَعَمْرُكَ مَا التَّقْلِيدُ لِلْجَهْلِ شَافِيًا ... وَأَمَّا نُصُوصُ الْوَحْيِ فَهْيَ الَّتِي تُبْرِي
وَصَلِّ وَسَلِّمْ يَا إِلَهِي عَلَى النَّبِي ... صَلَاةً تَدُومُ الدَّهْرَ طَيِّبَةَ النَّشْرِ
فَدُونَكَهَا بِكْرًا عَرُوبًا خَرِيدَةً ... مُهَفْهَفَةً غَيْدًا عَرُوسًا مِنَ الشِّعْرِ
يُضِيءُ ظَلَامَ اللَّيْلِ نُورُ جَمَالِهَا ... وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْقِرَاءَةُ مِنْ مَهْرِ
قَصَدْتُ بِهَا نَصْرًا لِسُنَّةِ أَحْمَدٍ ... وَنَاصِرُهَا لَا شَكَّ يَظْفَرُ بِالنَّصْرِ
وَعِدَّتُهَا تِسْعُونَ مِنْ بَعْدِ خَمْسَةٍ ... وَأَخْتُمُهَا بِالْحَمْدِ لِلهِ وَالشُّكْرِ[2]

---

(١) العشواء: الناقة التي بعينيها سوء إذا خبطت بيدها. يقال: هو يَخْبط خبطَ عشواء. والكافر المذكور في البيت هو الليل.

(٢) القصيدة مذكورة بتمامها في «الديوان» (٣٨٤ ـ ٣٩١)، وفي «قرة العين في مدح المَلِكَيْن» (ص٤ ـ ٨)، وفي مجلة «دعوة الحق»، السنة الثالثة، العدد الثالث، بتأريخ جمادى الأولى ١٣٧٩هـ ـ ديسمبر ١٩٥٩م، (ص٧٨ ـ ٧٩)، بعنوان: «ملك المغرب الصالح محمد الخامس»، لكن دون ذكر البيت الأخير، وبعض أبيات القصيدة في «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» (٤/ ٢١٩ ـ ط. المغربية) أو (٤/ ٢٩٤ ـ بتحقيقي)، وأورد مخلص السبتي في كتابه «السلفية الوهابية بالمغرب» (ص١١٠) ما في «سبيل الرشاد»، وزاد عليه أربعة أبيات، وفي «سبيل الرشاد» قبل الأبيات: «وقال مؤلف هذا الكتاب محمد تقي الدين الهلالي من قصيدة مدح بها الملك الخامس رَحِمَهُ اللَّهُ».

ثم وجدتُهَا ـ أيضًا ـ في «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» (٦/ ٢٦٠ ـ ٢٦٧ ط. المغربية) أو (٦/ ٣٠٢ ـ بتحقيقي)، وقال قبلها:

«قال محمد تقي الدين: ونختم هذه الجيوش الشعرية بقصيدتي التي سميتُها: «الكتيبة المظفرة في رجم شياطين البغي والشرك والبدع المستنكرة»، وقد =

هذا مما حضرني من الحوادث المتعلِّقة بالدعوة إلى الله والاشتغال بالعلم، أمليتُه مما بقي عالقًا بذاكرتي بعد مضي عشرات السنين، وتركت كثيرًا من الحوادث التي لا تمت إلى الغرض المقصود بصلة(1)، وأسأل الله حسن الخاتمة إنه جواد كريم، وصلّ اللهم على محمد سيد

= صدرتها بالغزل اقتداءً بشعراء العرب، وخصوصًا الصحابة؛ كحسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وغيرهما، وهذه هي القصيدة...».

ووجدتُها في «سبيل الرشاد» ـ أيضًا ـ (٤/ ٢٢٩ ـ ٢٣٢ ط المغربية) أو (٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٨ بتحقيقي)؛ قال: «وهذه القصيدة قُلْتُها في مكناس سنة ١٣٨١هـ وهذا أولها...» وساق مقاطع منها.

ونشرت أيضًا في مجلة «الجامعة الإسلامية»، العدد الثامن عشر، شوال سنة ١٣٩٢هـ (ص٢٣ ـ ٢٧)، وعنوانها: «أتوعد سنات الرسول بمحوها»، وقال قبلها: «وقلتُ في أحد الرؤساء من أهل المغرب، كان يُحارب توحيد الله واتباع سنة رسوله ﷺ، وغرَّه منصبه؛ فأخذ يبعث الجواسيس ليحضروا دروسي، وجمعني معه مجلس؛ فأراد أَنْ يوبخني ويهددني، فأغلظتُ له القول، ولم أعبأ بتهديده، فكاد لي ولجماعتي السلفيين الذين معي كيدًا عظيمًا؛ فردَّ الله كيده في نحره كما جاء في القصيدة، وكم حاول أعداء السنة إطفاء نور الله ـ تعالى ـ؛ فأحبط الله أعمالهم، وتفضل بالنصر على أنصار توحيد الله وسنة رسوله ﷺ؛ فله الحمد والشكر، ونسأله أَنْ يجعلنا منهم، ويحيينا ويميتنا على الحنيفية ملة إبراهيم، والحمد لله ربِّ العالمين».

ثم وجدتُ الهلالي يقول في مقالة له بعنوان (أهل الحديث في الهند)، وهي منشورة في مجلة «صوت الجامعة» الهندية، السنة الخامسة، العدد الأول، شعبان ١٣٩٣هـ ـ سبتمبر ١٩٧٣م (ص١٣ ـ ٣٤): «وقلتُ أنا في قصيدة سمَّيتُها (السهام الصائبة)...، وأورد البيت (٣٣) من القصيدة، وفي هذا فائدة زائدة، وهي اسمٌ جديدٌ للقصيدة.

(1) بل ترك أشياء مهمة، ولها صلة قوية بالدعوة إلى الله ﷻ، ولا سيما وهو في العراق، وحاولت التنبيه على ذلك قدر الجهد والطاقة، والله المستعان، وعليه التكلان.

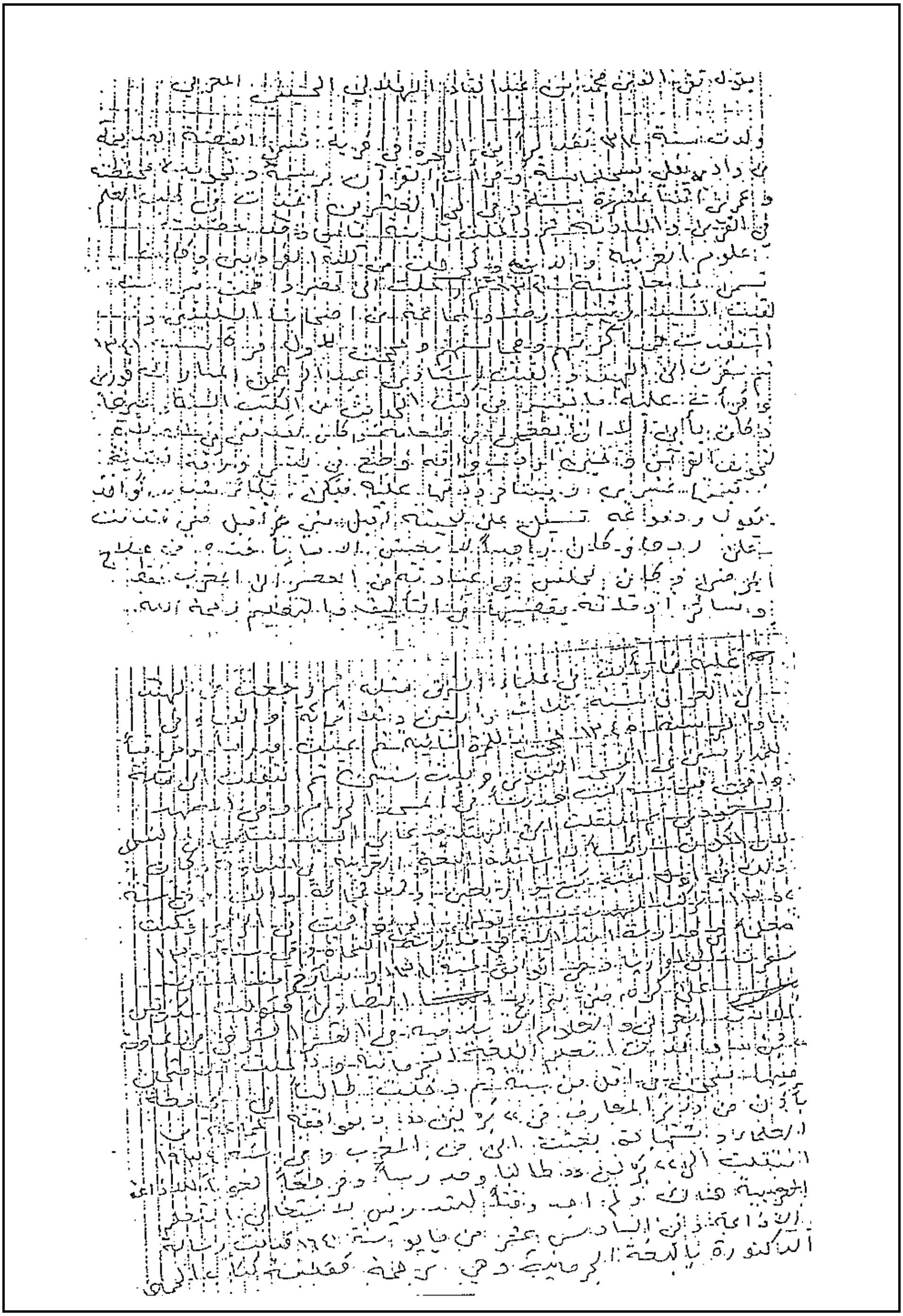
المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلينا معهم بمنِّك يا أكرم الأكرمين.

وكان الفراغ من إملائه مساء يوم السبت بمنزلي[1] بالمدينة النبوية لاثنتي عشرة خَلَوْن من ربيع الثاني سنة **١٣٩١**هـ من هجرة النبي الأكرم ﷺ، والحمد لله رب العالمين[2].

(١) في حي المصانع، أفاده العلامة حماد الأنصاري في «المجموع» (٢/٥٩٨) رقم (٤٧).

(٢) فرغت من قراءته والتعليق عليه في منتصف ليلة الاثنين الموافق الثامن من رجب سنة تسع وثلاثين وأربع مئة وألف من هجرة النبي ﷺ. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ملحق نماذج
الصور والمخطوطات

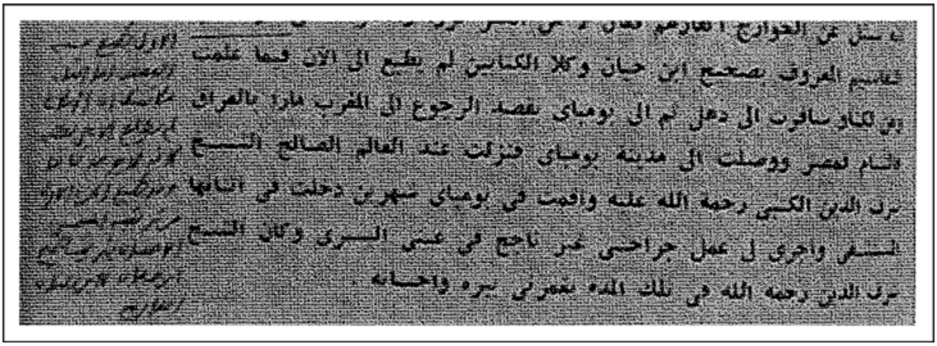


نموذج رقم (١/أ)

في الجواهر مع تحقيقات رددت فيها على أشهر المستشرقين الألمانيين الأستاذ Pr. Sachau و Pr. Brockelmann . الأستاذ سخاو والأستاذ بروكلمان في زعمهما أن البيروني كان تقيةً وعقله أعظم من أن ينعت بالإسلام ومفتريات أخرى وكانت الرسالة حجة على أولئك الجرمانيين فسلموا ذلك بالإجماع وقد قبلت الامتحان الشفهي في الوقت نفسه ونجحت بدرجة عالية وفي سنة ١٩٣٦ انتقلت إلى تطوان شمال المغرب بطريق فرنسا لحماية إسبانية وأقمت هناك خمس سنين وحدث أن الفرنسيين نفوني نفياً رسمياً وأمروا بالقبض علي إن جاوزت الحدود بين المنطقتين التي كانت تحت الإسبانية والمنطقة التي كانت تحت فرنسية وفي سنة ١٩٤٠ بعد جهود كبيرة شارك فيها عبدالرحمن عزام والحبيب أبو [illegible] رقيبة ومحمد علي الطاهر رجعت

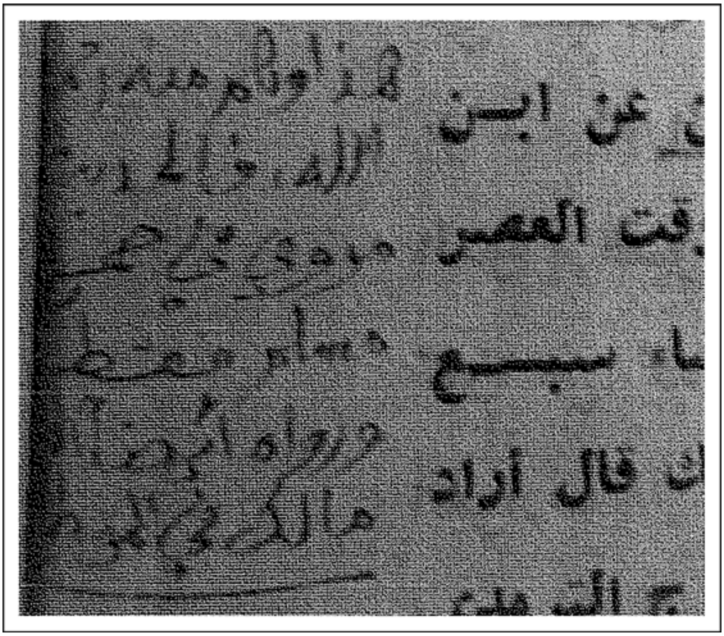
(٤)

إلى العراق وعينت مدرساً في كلية الملكة عالية في بغداد ثم في كلية الآداب ثم أعطيت لقب أستاذ معاون ثم أعطيت لقب أستاذ وفي سنة ١٩٥٩ جاءني طلب من وزارة المعارف المغربية إلى وزارة المعارف العراقية بأن تأذن لي بالمجيء للتدريس فيها فتوجهت إلى ... ودرست في ... سنة ... إلى سنة ١٩٦٤ ... وفي سنة ١٩٦٥ انتقلت إلى دار الحديث الحسنية ... كلفتني ... عند طلبتها ... ولا أزال ... إلى الآن وأسأل الله أن يختم لي بالحسنى وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه أجمعين



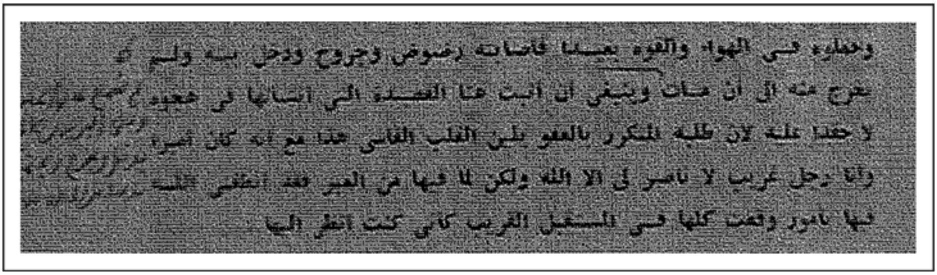
تقاسيم العروق بصحيح ابن حبان وكلا الكتابين لم يطبع الى الآن فلما علمت
ذلك سافرت الى دهلي ثم الى بومباي بقصد الرجوع الى المغرب مارا بالعراق
والشام لمصر ووصلت الى مدينة بومباي فنزلت عند العالم الصالح الشيخ
شرف الدين الكتبي رحمة الله عليه واقمت في بومباي شهرين دخلت في اثنائها
المستشفى واجري لي عمل جراحي غير ناجح في عيني اليسرى وكان الشيخ
شرف الدين رحمه الله في تلك المدة يغمرني ببره واحسانه .

نموذج رقم (٢)



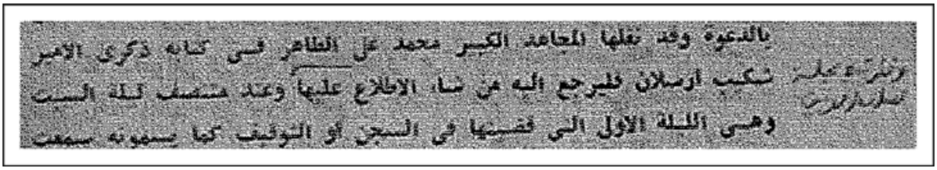
عن ابن
وقت العصر
سبع
قال اراد

نموذج رقم (٣)



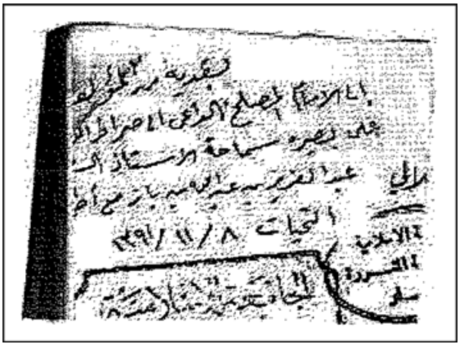
وخطاوه في الهواء والقوه بعيدا فاصابته رضوض وجروح ودخل بسببه ولم
يخرج منه الى ان مات وينبغي ان اثبت هنا القصيدة التي انشأتها في هجوه
لا حقدا عليه لان طلبه المتكرر بالعفو يلين القلب القاسي هذا مع انه كان امره
وانا رجل غريب لا ناصر لي الا الله ولكن لما فيها من العبر فقد انطفئ
فيها بامور وقعت كلها في المستقبل القريب كاني كنت انظر اليها

نموذج رقم (٤)



بالدعوة وقد نقلها المجاهد الكبير محمد علي الطاهر في كتابه ذكرى الامير
شكيب ارسلان فليرجع اليه من شاء الاطلاع عليها وعند منتصف ليلة السبت
وهي الليلة الاولى التي قضيتها في السجن او التوقيف كما يسمونه سمعت

نموذج رقم (٥)



نموذج رقم (٦)



ROYAUME D'IRAK — المملكة العراقية

PASSEPORT — باسبورت

Au Nom De Sa Majesté Le Roi D'Irak — باسم صاحب الجلالة ملك العراق

A tous ceux qui ces présentes verront: SALUT ! — لكل من له اختصاص تحية !

Les Fonctionnaires du Gouvernement Royal Irakien dans le territoire du royaume, ses Représentants et Fonctionnaires à l'extérieur ainsi que les Autorités Etrangères Compétentes sont priés de laisser librement passer le porteur et de lui accorder toute aide et protection en cas de besoin.

يرجى من كافة موظفي الحكومة العراقية الملكية داخل العراق وممثليها في الخارج ومن جميع السلطات الاجنبية المختصة ان يسمحوا لحامل الباسبورت هذا بحرية المرور وان يقدموا له كل ما يحتاج اليه من مساعدة ورعاية عند مساس الحاجة.

Délivré à Bgdd — صدر في بغداد

le Douze Juin 1952 — في هذا اليوم الثاني عشر من شهر حزيران ١٩٥٢

Le Chef du Bureau des Passeports — مدير الباسبورت

Ce passeport contient 32 Pages. — يشتمل هذا الجواز على ٣٢ صحيفة

ROYAUME D'IRAK — المملكة العراقية

PASSEPORT — باسبورت

No. du passeport — رقم الباسبورت: 13819

Nom du porteur — اسم حامله: Dr. Mohammed Taki Ed-Din El-Hilali — الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

Nom de sa femme — اسم زوجته: Aisha Mohammed — عائشة محمد

Nombre d'enfants — عدد الاولاد

Nationalité — الجنسية: Irakien — عراقي



٤ — 4

الممالك التي يجوز الدخول اليها بهذا الباسبورت

Ce passeport expire le — ينتهي هذا الباسبورت في

11 - 6 - 953

à moins de renouvellement — الا اذا جدد

Délivré à Bgdd — صدر في بغداد

Date 12-6-952 — التاريخ ١٢/٦/١٩٥٢

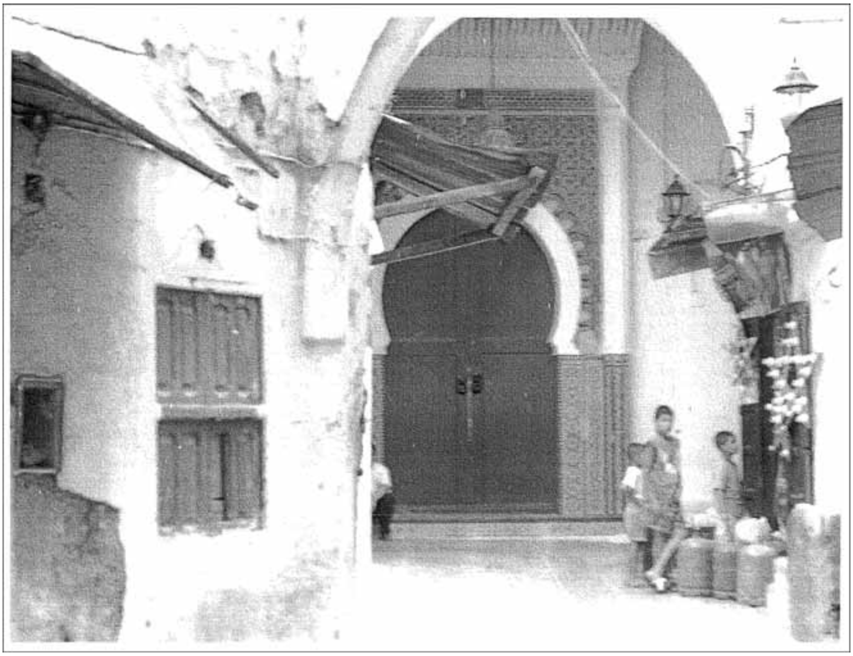
٥ — 5

RENOUVELLEMENTS — التجديدات

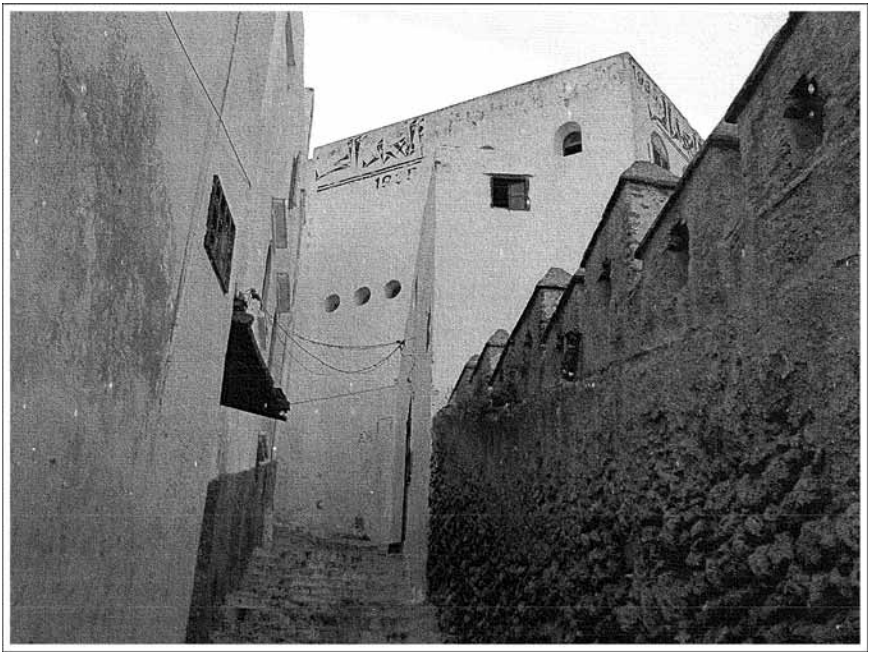
1267 21-6-52

11-6-954

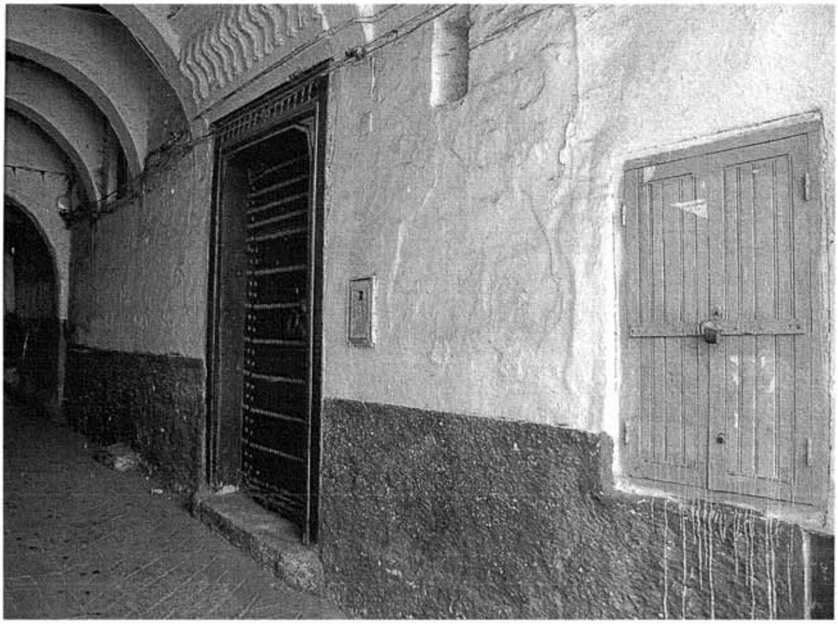
نموذج رقم (٧)



نموذج رقم (٨/أ)



نموذج رقم (٨/ب)



نموذج رقم (٨/ج)



نموذج رقم (٩)

وزارة الخارجية

القنصلية الملكية المصرية العامة

بمدينة مدريد

بشأن منح تاشيرة سفر الى مصر

حرر في ٧ فبراير سنة ١٩٤٧

رقم القيد ٥٧٨

رقم الملف ٢/٢٤/٩

عدد المرفقات ـ

حضرة المحترم الدكتور تقي الدين الهلالي

صندوق البريد ١٢٧ تطوان

المنطقة الخليفية

بعد التحية ـ بالاشارة الى خطابكم بتاريخ اول فبراير ١٩٤٧
نرجو ارسال جواز سفركم لاعطائكم تاشيرة مرور الى مصر
كما نرجو ارسال مبلغ خمسة بسيطات ونصف رسم تاشير.
وتفضلو بقبول فائق الاحترام.

القائم بالاعمال بالنيابة

[توقيع]

نموذج رقم (١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على خير خلقه محمد سيد المرسلين وامام المتقين وعلى آله واصحابه اجمعين ومن اتبعهم باحسان الى يوم الدين اما بعد فقد اطلعت على كتاب ازالة الوطر برفع الحرج وازالة الخطر على من جمع بين الصلاتين في الحضر بغير مرض ولا مطر لمؤلفه العالم الجليل المحقق الباحث المتقن الموفق الداعي بالحق الى تحقيق الاتباع والاجتهاد المجاهد في ذلك كل الجهاد ابي العباس احمد بن الصديق زاده الله توفيقا. فوجدته على غرار تآليفه الجياد التي نفع الله بها من شاء من العباد. وقد جمع هذا الكتاب من الاحاديث الشريفة والمباحث المنيفة ما يبهر العقول من نقول عزز بها اسانيدها وبحوث قامت عليها شواهدها [illegible] رصده وزبد [illegible]. وقد انتظم هذا السفر مسالة الجمع التي وقع فيها النزاع بجميع انواعها من التقديم والتاخير والجمع الصوري الذي [illegible] جوده بعض المتكلفين [illegible] القصر [illegible] بالاحتجاج على المنازع بكلام ائمة مذهبه الذي به يدين والنص الذي يركن [illegible] ثم قفى على اثر ذلك بذكر الادلة من الكتاب والسنة ثم ذكر اقوال ائمة الاعلام من جميع المذاهب والطوائف التي لا ينعقد الاجماع بدونها. [illegible] ما يسر الناظر في هذا الكتاب [illegible] ان يعجب به كل الاعجاب. فكله غرر وطرف ودرر مع استيفاء المباحث حتى لم يبق فيها زيادة لمستزيد

فقال كجيد السيف بين المحافل اذا جاء لم يترك مقالا لقائل

ولما سألني المؤلف حفظه الله ابداء رأيي وما ادين الله به في هذه المسألة رأيت ان اختم به هذا التقريظ فاقول انى اختار جمع التاخير في السفر والحضر اذا دعت اليه الحاجة ولم يفوت جماعة. وقد ذهب الى جمع التقديم في السفر ائمة مهتدون معتمدين على ادلة كافية مقنعة غير ان ادلة جمع التاخير ارجح الا في عرفة. واما جمع التقديم في الحضر ففي النفس منه شيء. والمؤلف حفظه الله عالم مجتهد له الحق ان يعمل ويفتي بما يختار ولاسيما اذا كان له سلف صالح كما في هذه المسألة. ونسأل الله ان يكثر

١٦١

العلماء الناسجين على هذا المنوال المحمدي السلفي الشريف وان يفتح بهم آذانا صما وعيونا عميا وقلوبا غلفا وان يجعلنا منهم بفضله وكرمه ﴿ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين اماما﴾ وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

وكتبه بثغر طنجه لثمان بقين من رجب الحرام عام 1363

الفقير الى عفو ربه الغني به محمد تقي الدين الهلالي

نموذج رقم (١١)

قال مرتضى الدين كلما قلته في تهوين أمر اللحية قصدت به محاربة
المشركين وقمعهم وهو غير صحيح . والصحيح هو الأخذ
بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وامتثال أمره سواء أكانت
في العقائد أم في الفرائض أم في الأخلاق أم في
سنن الفطرة وعليه فأنا راجع عما قلته منذ زمان طويل
وأنا أقول إن الحديث يجب قبوله مع من كان وهو توفير اللحية
فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بإعفاء اللحى وإنهاك الشوارب ومخالفة
المشركين غفرانك ربنا وإليك المصير) أملاه مساء الثلاثاء
يوم ١٢/٤/٩٧ بمنزله بالمدينة

نموذج رقم (١٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور محمد تقي الدين الهلالي
ص.ب : ٥٦٤ - المدينة النبوية
المملكة العربية السعودية
التاريخ / / ١٣٩

Dr. T. Alhilali
P.B, 564 Medina El Nabwi
Saudi Arabia
Date / / 197

الحمد لله رب العالمين الذي يهب ما شاء لمن شاء
من عباده المؤمنين من الأرزاق الحسية والمعنوية
وأهمها الخلق الكريم والدين المتين وصلى الله
على عبدك محمد الداعي إلى صراطك المستقيم وعلى آله
الذين ساروا على نهجه القويم ومن تبعهم بإحسان
إلى يوم الدين أما بعد فأقول إن الشيخ محمد المانع السليم
الذي هو بمقام الابن البار أو أفضل منه اتخذته كاتبا
وأمينا على جميع أموري زهاء أربع سنين فرأيت
من استقامته وصدقه وحسن سمته ما يندر نظيره
في أبناء هذا الزمان ولذلك أكتب له هذا الكتاب ليكون
تذكارا له وليطلع غيره على ما آتاه الله من مكارم الأخلاق
وإني أوصيه بتقوى الله في السر والعلانية وأن يدعو لي
في أوقات الاستجابة وأسأل الله تعالى أن يبارك له في
إيمانه ويوفقه للطاعات ويبارك له في الأبناء

نموذج رقم (١٣/أ)

بسم الله الرحمن الرحيم

Dr. T. Alhilali

P.B. 564 Medina, El. Nabvi

Saudi Arabia

Date / / 197

الدكتور محمد تقي الدين الهلالي

ص.ب: ٥٦٤ ـ المدينة النبوية

المملكة العربية السعودية

التاريخ / / ١٣٩

ويجعلهم قرة عين، ونمي المال والدعاء

بهذه الأمور هو السنة. النبي صلى الله عليه وسلم فقد دعا

لخادمه أنس بن مالك، فقال اللهم أكثر ماله وولده وأطل

عمره فكان أكثر الناس مالاً في البصرة وأكثر الناس

ولداً وطال عمره إلى أن عجز عن الصيام وكان في السنين

الأخيرة من عمره إذا أقبل رمضان جمع ثلاثين مسكيناً

وأشبعهم خبزاً ولحماً وأكل رمضانه كله فأنا أيضاً

أدعو لمحمد المانع بالإيمان والتقوى وطول العمر وكثرة

المال والولد كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وآخر دعوانا

أن الحمد لله رب العالمين أملاه محمد تقي الدين الهلالي

ليلة الثلاثاء لثلاث بقين من شوال سنة أربع وتسعين

وثلاثمائة وألف من هجرة النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم

نموذج رقم (١٣/ ب)



نموذج رقم (١٤)

الفهارس(١)

ـ فهرس الآيات القرآنية الكريمة.

ـ فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.

ـ فهرس الآثار.

ـ فهرس الأعلام.

ـ الموضوعات والمحتويات.

(١) تشتمل على ما في المَتْن فقط.

فهرس الآيات القرآنيَّة الكريمة

الآيــــة	رقمها	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	٥٥٣
سورة البقرة		
﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾	١٣٧	٨٦
سورة آل عمران		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾	٥	٣٢٦
﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾	٤٩	٤٥٢
﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ... فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾	٦١	٤٣٤
سورة النساء		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾	٤٣	٤٣٦
سورة المائدة		
﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾	٤٤	٢٠٠
﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾	٤٥	٢٠٠
﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾	٤٧	٢٠٠
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ... وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾	٦٧	٤٣٠

الآيـــة	رقمها	رقم الصفحة
سورة الأنعام		
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ . . . أُوتُوٓاْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	٤٤ ـ ٤٥	٢٧٥، ٢٨١، ٥٥٠
سورة الأعراف		
﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾	١٣٨	٣٦٣
﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾	١٥٨	٤٣٠
سورة التوبة		
﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ . . . وَأَبْنَآؤُكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾	٢٤	١٦٢، ٢٢٩
﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ . . . أَرْبَابًا عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾	٣١	٢٤١
﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾	٥٢	١٨٨
سورة هود		
﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾	١٢١	٢٦٢
سورة يوسف		
﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾	١٠٨	٤٢٣
سورة الرعد		
﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	١٧	٨٧
سورة الحجر		
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾	٩	٤٣١
سورة النحل		
﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ . . . أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾	٢٥	٣٦٦

الآيـــــة	رقمها	رقم الصفحة
﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾	٤٤	٥٥١
﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾	٩٩ ـ ١٠٠	٤٢٤
سورة طه		
﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾	٥٤	٥١١
﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾	١١٤	٥٠٤
سورة الأنبياء		
﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾	٥٢	٩٧
﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	٦٧	١٤٥
﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ... فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾	٨٠	٢٢٥
سورة الحج		
﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ﴾	١٨	١٦٠
سورة النور		
﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ... أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	٦٣	١٤٤
سورة الشعراء		
﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ... فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٩٠ ـ ١٠٢	٥٤٧
سورة النمل		
﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا... وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾	٥٠ ـ ٥٣	٢٨١

الآيـــة	رقمها	رقم الصفحة
سورة القصص		
﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ . . . مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾	٥ ـ ٦	٢٨١
سورة الأحزاب		
﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾	٢٥	١٠١
﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾	٣٣	٩٥
﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ . . . وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾	٤٠	٣١٧
سورة يس		
﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾	١٢	٤٣٣
سورة غافر		
﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾	٥١	٢٠٠، ٢٨١
سورة الشورى		
﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ . . . وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾	٢٨	٢٤٤، ٢٤٧
﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾	٤٠	٤٢٥
سورة الزخرف		
﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ . . . وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾	٤٣ ـ ٤٤	٥٣٦
سورة الأحقاف		
﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ . . . وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾	١١ ـ ١٢	٤٣٤

الآيـــــة	رقمها	رقم الصفحة
سورة الفتح		
﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾	٢٩	٥٠٩
سورة الحشر		
﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَانِ﴾	١٠	٢٣٥
سورة الطلاق		
﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ❁ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾	٢ ـ ٣	١٩٩، ٣٥٨
سورة القلم		
﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾	٣٠	١٠١
المسد		
﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾	٤	٤١٢، ٤٩٩

فهرس الأحاديث النبويَّة الشَّريفة

مرتَّبة على الحروف

طرف الحديث	الراوي	رقم الصفحة
• أخنع اسم عند الله: رجل تسمَّى بِـ: مِلِك	أبو هريرة	٣١٥
• إذا أذَّنتَ فترسَّل	بلال بن رباح	٤٢١
• إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت	أبو مسعود الأنصاري	١٧٤
• اقتدوا باللَّذَين من بعدي	حذيفة بن اليَمان	٣١٩
• أكل كلِّ ذي ناب من السباع حرام	أبو هريرة	٢٤٠
• ألا إنَّ كلَّكم يناجي ربه؛ فلا يؤذِيَنَّ	أبو سعيد الخُدري	٢٥٨
• ألقِ عنك هذا الوثن	عَدِيُّ بن حاتم	٢٤١
• الله أكبر! إنَّها السُّنن	أبو واقد الليثي	٣٦٣
• أمَّا أنتِ فقد غُفِر لكِ	والد وائل بن علقمة	١٤٧
• أنا دار الحكمة وعليٌّ بابها	علي بن أبي طالب	٤٢٩
• أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها	عبد الله بن عبَّاس	٤٢٨، ٤٢٩
• أنشد بين يدَي رسول الله ﷺ	أنس بن مالك	٨٥
• إنَّ ابن أبي طالب يريد أن يتزوَّج	-	٤٣٦
• أنَّ امرأة وقع عليها رجل في سواد	وائل والد علقمة	١٤٦
• إنَّ بني هشام بن المغيرة استأذنوا	المِسوَر بن مَخرَمة	٤٣٨
• أنَّ رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذي	أبو ثعلبة الخُشَني	٢٣٩
• إنَّ فاطمة منِّي وأنا أتخوَّف أن تُفتن	المِسوَر بن مَخرَمة	٤٣٧
• إنَّ المصلِّي يناجي ربَّه؛ فلينظر بِمَ يناجيه	فروة بن بَيَاضَة	٢٥٩

طرف الحديث	الراوي	رقم الصفحة
• إنَّ الناس يقولون: إنَّك لا تغضب لبناتك	ـ	٤٣٨
• أنَّ النَّبي ﷺ صلَّى الظهر والعصر	عبد الله بن عباس	٤٢٠
• اهجُهُم وروح القُدُس معك	ـ	٨٥
الخاء		
• خالفوا اليهود والنصارى فإنَّهم	أبو هريرة	١٥٩
• خلِّ عنه يا عمر	أنس بن مالك	٨٥
الراء		
• الراحمون يرحمهم الرحمٰن	عبد الله بن عمرو	١٩٣
السين		
• السَّخِيُّ قريب من الله	أبو هريرة	٣٦٧
الفاء		
• فاطمة بَضعَة مِنِّي؛ يؤذيني ما آذاها	المِسوَر بن مَخرَمة	٤٣٥
• فمن أتى العلم فليأتِ الباب	عبد الله بن عبَّاس	٤٢٩
الكاف		
• كان النَّبي ﷺ يأمرنا بتسوية الصفوف	أنس بن مالك	٤٢٣
• كلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار	جابر بن عبد الله	١٢٨
• كلُّكم يناجي ربَّه؛ فلا يجهر بعضكم	ـ	٢٦١
اللام		
• لا تتمنَّوا لقاء العدُوِّ	عبد الله بن أبي أوفى	١٢٢
• لا يعذِّب بالنار إلَّا ربُّ النار	ـ	٤٣٩
• لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور	عائشة	٤٤٣

طرف الحديث	الراوي	رقم الصفحة
الميم		
• ما جاءك من هذا المال شيء وأنت غير	عمر بن الخطاب	٢١٢
• من تعزَّى عليكم بعزاء الجاهلية	أُبَيٌّ بن كعب	٤٤٤
• من قال في القرآن برأيه؛ فقد كفر	-	٤٣١
النون		
• نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث	عائشة	٤٣٨

فهرس الآثـــار

مرتَّبة على القائلين

طرف الأثر	رقم الصفحة
أحمد بن حنبل	
ـ قال للفضل بن زياد: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشِّرك	١٤٤
أنس بن مالك رضي الله عنه	
ـ فكان أحدنا يُلزِق قَدَمَه بِقَدَم مَن يليه	٤٢٤
جعفر الصادق	
ـ كلُّ ما وُضع على القبر من غير تراب القبر؛ فهو ثِقَل على الميِّت	٤٤٠
العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه	
ـ جاء بعد وفاة فاطمة يُطالب عمر بن الخطاب بأرض فَدَك	٤٣٨
عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما	
ـ أنكر على عليٍّ رضي الله عنه إحراق الغلاة الذين اعتقدوا ألوهيته	٤٣٩
عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه	
ـ جاء بعد وفاة فاطمة يُطالب عمر بن الخطاب بأرض فَدَك	٤٣٨
ـ خطب ابنة أبي جهل على فاطمة رضي الله عنها	٤٣٧
ـ سُئل عن الخوارج: أكُفَّارٌ هم؟	٤١٠، ٤٣٦

طرف الأثر	رقم الصفحة
عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه	
ـ جاءه علي والعباس بعد وفاة فاطمة يُطالبان بأرض فَدَك	٤٣٨
ـ قال لعبد الله بن رواحة: يا ابن رواحة! بين يدَيْ رسول الله	٨٥
ـ قال لعليٍّ والعباس: إن التزمتما أن تعملا في هذه الأرض	٤٣٨
الفضل بن زياد	
ـ قال له الإمام أحمد: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشِّرك	١٤٤
المِسوَر بن مَخرَمة رضي الله عنه	
ـ أنَّ عليَّ بن أبي طالب خطب ابنة أبي جهل على فاطمة	٤٣٧

فهرس الأعــلام

مرتَّبة على الحروف

العَلَم	رقم الصفحة

الهمزة

- إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ٨٩، ٣٥٠
- إبراهيم الدادسي ١٠٣
- إبراهيم الشوري ٤٨٨
- إبراهيم الطبيب ١٠٥
- إبراهيم المراكشي ٣٦٥
- إبراهيم النخعي ٢٤٠
- إبراهيم الوادنوني ٣٥٣، ٣٦٥
- أحمد بركاش (أو برقاش)، وزير الأوقاف ٥٣٩، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٥١
- أحمد بن البشير، الكاتب العام ٢١٢، ٢٩٠
- أحمد بن حنبل ١٥٩، ٢٠٨، ٣١٠، ٣٤١
- أحمد بن الصِّدِّيق، شيخ الطريقة الشاذلية ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٧٤، ١٨١
- أحمد بن عبد الحليم الحراني = ابن تيمية، شيخ الإسلام
- أحمد التجاني ٢٨٣
- أحمد الجباري ٢٣٦
- أحمد الذكير ٤٩٩
- أحمد الرزيني ٢٩٣

العلم	رقم الصفحة
ـ أحمد الرهوني	٢١٧
ـ أحمد الريسوني	١٩٠، ٢٥٠
ـ أحمد السركتي	٤٨٩
ـ أحمد السنوسي	٣٥٠
ـ أحمد الشمس الشنقيطي	٣٣٩ ، ٣٤٤
ـ أحمد شوقي	٤١٥، ٤١٧، ٤١٨
ـ أحمد عشعاش (أشعاش)	٢١٣
ـ أحمد الغنيمة	٢١٣
ـ أحمد المشاري آل إبراهيم	٤٩٩
ـ أحمد هارون	١٨٩، ١٩٥
ـ إدريس بن شمس الحق	٤٠٢
ـ أسباط بن نصر	١٤٦
ـ إسماعيل الصيفي	١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٢
ـ إسماعيل الغزنوي	٥٠١، ٥٢٢
ـ الأعمش	٤٢٩
ـ ألفا هاشم	٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥٠
ـ إلهي بخش	٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٤، ٥١٦، ٥١٧
ـ أمان الله خان، الملك	٥٠٠ ، ٥١٠، ٥١٧، ٥٢٢
ـ أمين الحسيني، السيد المفتي	١٣٣، ١٥٨، ١٧٠، ١٧١، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٣
ـ أنس بن مالك رضي الله عنه	٤٢٣

الباء

ـ البخاري، صاحب «الصحيح»	١٢٤، ١٩٣، ٣٨٦، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٦٢
ـ بردا أو بلدا، أحد الضباط	١٣٦، ١٣٧، ١٤٦
ـ برلتس، المربي الألماني	٤٩٠، ٤٩١

العَلَم	رقم الصفحة
ـ برناردشو، المؤلِّف الإنكليزي	١٨٦
ـ بشارة الخوري، رئيس الجمهورية اللبنانية	١٦٦
ـ البقاعي، إبراهيم بن عمر	١٧٧، ١٨٠
ـ بلال بن رباح رضي الله عنه	٤٢١
ـ بهجت البيطار	٤٨٦
ـ بوز دوزخ	٥٢٢
ـ البيضاوي	٤١٢
ـ بيلدا، الحاكم الإسباني	٢١٤، ٢١٥، ٢٢٢، ٢٢٣

التاء

ـ تامر، الدكتور	٣٠٤
ـ الترمذي	١٩٥، ٣٨٦، ٤٢١، ٤٢٩ ، ٤٣٧
ـ التيجاني	٩٥
ـ تقي الدين الأندلسي	١٧٩
ـ تقي الدين الفاسي	١٧٩

الجيم

ـ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما	٤٢١
ـ الجعد بن درهم	٣٥٣
ـ جعفر الصادق	٤٤٠، ٤٤٣
ـ جمال الدين ابن هشام	١٧٩
ـ جمال الدين الأفغاني	٤٠١
ـ جمال عبد الناصر	٣٣٨
ـ الجهم بن صفوان	٣٥٣

العَلَم	رقم الصفحة
الحاء	
ـ الحافظ أبو الفيض	١٥٧
ـ الحاكم، صاحب «المستدرك»	٤٢١، ٤٢٩، ٤٣٤
ـ حامد الفقي، الشيخ	٩١، ٢٩٩
ـ حبيب الله بن مايابا الجكني الشنقيطي	٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٦٤، ٣٦٥
ـ حسان بن ثابت رضي الله عنه	٨٣
ـ حسن بن علي، الشيخ	٤٥٧
ـ الحسن بن علي رضي الله عنهما	٤٣٤
ـ حسن البنا	٢٥٤، ٢٥٥
ـ الحسن الثاني، أبو محمد، الملك	٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١
ـ حسن الحنيان	٤١٥
ـ حسن عبد الرحمٰن	٩١، ٤٦٢
ـ الحسن العمرتي	٢٥٨، ٢٦١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠، ٢٨١
ـ الحسن اليوسي المغربي	٢٠٧
ـ الحسين بن علي رضي الله عنهما	٤٢٧، ٤٣٤، ٤٦٥
ـ حسين بن علي، ملك مكة	٩٦ ، ٣٣٩، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٨
ـ حسين التريكي	٣٠٤
ـ حمدي الأعظمي	٣٣٧
ـ حميد القرطبي	٣٨٦
ـ الحميدي بن رديعان، أحد أئمة المسجد النبوي	٤٦٣
الخاء	
ـ خالد الريسوني، أمير العرائش	١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ٢٣٤، ٢٥٠، ٢٧٨، ٢٧٩
ـ خديجة النعيمي	١١٧
ـ خزعل، الأمير الشيخ	٤٢٥

العَلَم	رقم الصفحة
ـ الخطيب	٤٢٩
ـ خليل بن إسحاق، صاحب «المختصر»	١٤٥، ٢٣٩، ٢٦٠
ـ خليل بن محمد بن حسين الحديدي الأنصاري اليمني	٤٠٣، ٤٠٦
الدال	
ـ داود عليه السلام	٢٢٥
ـ الدارقطني	٤٢٩
الذال	
ـ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان	١٧٩، ٤٣٠
الراء	
ـ رشيد رضا	٣٥٣، ٤٠١، ٤٠٢ ، ٤٤٠ ، ٤٤١
ـ رشيد عالي الكيلاني	١٧١، ٣٠٢
الزاي	
ـ الزبير بن العوام رضي الله عنه	٤٢٧
ـ زيد بن ثابت رضي الله عنه	٤٣١
ـ زين الدين العراقي	١٧٨
ـ زين العابدين، أبو البراء، الدكتور	٨٣
ـ زينل، القائم مقام حاكم جُدَّة	٣٧١
السين	
ـ سرحد دار	٥٢٤، ٥٢٨
ـ السَّخاوي	٤٢٩
ـ السَّعيدي، رئيس أولياء عبَّاد القبور في تطوان	١٨٧، ٢٣٤
ـ السَّهروردي	١٨٠

العَلَم	رقم الصفحة
ـ سفيان الثوري	١٩١
ـ سليمان الأيمن	٣٩٤
ـ سليمان بن عبد الله	٣٦٣
ـ سليمان الندوي	٣٩٢، ٣٩٥، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥، ٤٩٦
ـ سِماك بن حرب	١٤٦، ١٤٩
ـ سهيل بن بيضاء رضي الله عنه	٢٢١
ـ سوفوليس، القنصل الفرنسي بتطوان	١٦٨، ١٦٩
ـ سيف الدولة	٣٧٣
ـ سيف الرحمٰن الأفغاني	٥٠٥، ٥١١، ٥٢٥

الشين

ـ الشافعي	٣٤٠، ٣٤١
ـ شبلي النعماني	٣٩٣
ـ شرف الدين الكتبي	٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣
ـ الشرواني، الشيخ	٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧
ـ شعبة	٤٣٥
ـ الشعبي	٤٣٥
ـ شعيب الدكالي	٥٣٧، ٥٤٥
ـ شكيب أرسلان، أمير البيان	١٦٤، ٢٦٣
ـ شمس الحق العظيم آبادي	٣٨١
ـ شمهروش، أمير الجن	١١٥
ـ شير محمد الندوي، أبو الليث	٤٩٢

الصاد

ـ صالح جبر	٣٠٦
ـ صدر الدين، المدبر لشؤون مدرسة (علي جان)	٣٧١، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤، ٣٧٥

العَلَم	رقم الصفحة
ـ صديق الملاح	٣٠٨

الطاء

ـ الطبراني	٤٢٩
ـ الطَّيِّب التَّنبكتي	٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١
ـ طلحة رضي الله عنه	٤٢٧
ـ طه الفياض، الحاج	٣١٥

العين

ـ العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه	٤٣٨
ـ عبد الإله بن علي بن الشريف حسين	٣٢٣، ٣٣٢
ـ عبد الله ابن قاضي شقراء	٤١٣
ـ عبد الله بن بلهيد	٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩
ـ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه	٨٥
ـ عبد الله بن حسن	٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٢، ٤٤٣، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٥٠، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٦٨، ٤٨٢، ٤٨٣
ـ عبد الله بن الصِّدِّيق	١٧٥
ـ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما	١٥٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٩، ٤٣٩
ـ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما	٤٩٦
ـ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما	١٩١
ـ عبد الله بن محمود	٤٦٠
ـ عبد الله حمدوه	٤٨٤
ـ عبد الله السنوسي	١٤٥
ـ عبد الله قريش	٢٥٢
ـ عبد الله كنون	١٨٢، ٢٠٩، ٢٧٩، ٥٣٦
ـ عبد الله النعمة	٣٠٨

العَلَم	رقم الصفحة
ـ عبد الحفيظ بن الحسن الأول، السلطان	٢٢٣
ـ عبد الحق الإشبيلي	٤٠٣
ـ عبد الحميد الدهان	٣١٥، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٥
ـ عبد الحميد الفراهي	٣٩٦
ـ عبد الحي اللكناوي	٤٠٩
ـ عبد الخالق الطُّرَيْس، رئيس حزب الإصلاح الوطني	١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٥٨، ١٨٨، ٢١٢، ٢٣٤
ـ عبد الرؤوف الصَّبَّان	٣٦٩، ٣٧٠
ـ عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري	٣٨١، ٣٨٤
ـ عبد الرحمٰن الدكالي	٥٤٥، ٥٤٦، ٥٥٢
ـ عبد الرحمٰن القصيبي	٤١٣
ـ عبد الرحمٰن النكرامي	٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٩، ٣٨٠
ـ عبد الرحمٰن ياسين	٢٩٧
ـ عبد الرزاق المليح آبادي	٣٩٨، ٤٠١، ٤٠٢
ـ عبد السلام الأسمر	١١٥، ١١٦
ـ عبد السلام بن محمد، المؤذن	٢٧٠، ٢٧١
ـ عبد السلام بن مشيش	١٨٧، ١٩٠، ١٩١، ٢١٨، ٢٢٦، ٢٣٠
ـ عبد السلام حسيسن	٢٣٠، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٨٩
ـ عبد السلام عارف	٣٣٠، ٣٣٣، ٣٣٤
ـ عبد السلام المجاهد	١٨١
ـ عبد الظاهر أبو السمح	٩١، ٩٢، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٦
ـ عبد الظاهر الريرموني	١٠٣، ١٠٥،١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٨، ١١٩، ١٢٤
ـ عبد العزيز آل سعود، ملك الحجاز	٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٢، ٣٦٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٢، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٦١، ٤٦٧، ٤٦٨ ، ٤٧٢ ، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣

العَلَم	رقم الصفحة
ـ عبد العزيز بن إبراهيم، الأمير	٤٤٧، ٤٦٣
ـ عبد العزيز بن عبد الله بن باز	٨٩، ١٨٦، ٤٦٨، ٥٥٨
ـ عبد العزيز الخريجي، وكيل المالية	٤٦٨
ـ عبد العزيز الخولي	٩١
ـ عبد العزيز الغماري	١٥٩
ـ عبد العزيز الندوي البشاوري	٥٠٣، ٥٠٤، ٥٢٩
ـ عبد علي	٤٢٦
ـ عبد العلي الندوي، الدكتور	٣٩٤، ٤٩٣ ، ٤٩٦، ٤٩٧
ـ عبد العليم، الشيخ	١٠٥، ١٠٧
ـ عبد الغفار الدهلوي	٣٧١
ـ عبد القادر الجزائري	١٥١، ١٥٤
ـ عبد القادر الجيلاني	٢١٦، ٣٤٠
ـ عبد القادر الكيلاني	١٧١، ٣٣٧
ـ عبد القيوم، الكولونيل	٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨
ـ عبد الكريم الصاعقة	٣١٠
ـ عبد الكريم قاسم	٣٣٠، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦
ـ عبد الكريم كنونة، الدكتور	٣٢٦
ـ عبد المجيد الحريري	٣٨٣، ٣٩٧، ٤٠٢
ـ عبد المحسن الكاظمي	٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٩
ـ عبد الملك بن إبراهيم	١٨٥
ـ عبد الملك بن مروان	٣١٩
ـ عبد الودود بن عبد التواب الملتاني	٣٧٢، ٣٧٤
ـ عبد الوهاب الدهلوي	٣٤٨، ٣٧١
ـ عثمان بن عفان رضي الله عنه	٣١٧، ٤٣٣
ـ عدي بن حاتم رضي الله عنه	٢٤١

العَلَم	رقم الصفحة

- عرفة الغماري، محرِّر صحيفة «الأخبار» ١٤٨
- عز الدين بن عبد السلام ١٧٨
- العكبري ٣٧٩، ٣٨٠
- علقمة بن وائل ١٤٦
- علال فارس، وزير الشؤون الإسلامية ٥٤٠
- علي أبو غالب، قطب البلد ٢٣٦
- علي بن أبي طالب رضي الله عنه ١١٠، ١١٦، ١٢٤، ٤١٠، ٤٢٧، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩
- علي بن راشد ٢٦٩
- علي بن الحسين، الأمير ثم الملك ٣٦٩، ٣٧٠
- علي بن سليمان القصيمي ٤٥٧
- علي التونسي ١١١
- علي جان ٣٧٢، ٣٨٤
- عمر أوزبك ٥٠٩ ، ٥١١
- عمر بن حسن آل الشيخ ١٨٦
- عمر بن حماد بن طلحة ١٤٦
- عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٨٥، ٤٣٨
- عمر بن سليم ٤٦٦
- عَمرو بن دينار ١٩١
- عيسى بن رميح ١٠٧
- العياشي العلمي ٢٥٢، ٢٨٠

الغين

- غاندي ٥٣٣
- غلام حسين ٤٢٦

العَلَم	رقم الصفحة
الفاء	
ـ فؤاد، الملك	٩٩، ١١٢
ـ الفاسي، الشيخ	٢٢٠
ـ الفاطمي بن سليمان، السفير المغربي	٣١٦
ـ فرعون	٥١٥
ـ فروة بن بياضة	٢٥٩
ـ فضل محمد، وزير الخارجية	٥٠٥ ، ٥١٠، ٥١٦
ـ فيصل، الأمير، نائب الملك	٤٨٦
ـ فيصل الأول، ابن الملك حسين	٣٦٨، ٤٦١
ـ فيصل الثاني، ملك العراق	١٨٥، ٣٢٣، ٣٣١
القاف	
ـ قارون	٥١٥
ـ قاسمي آل إبراهيم، عم مصطفى آل إبراهيم	٤١٩
ـ القسطلاني	٣٨٦
ـ قسطنطين، الملك	٢٧٤
الكاف	
ـ كاساس، المراقب الإسباني	٢٧٤، ٢٧٥ ، ٢٨٨، ٢٩٠
ـ كعب بن مالك رضي الله عنه	٨٥
ـ الكُليني	٤٢٨
اللام	
ـ اللواجري، محمد	٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٥
ـ لينين	٥٢٢

العَلَم	رقم الصفحة

الميم

ـ ماء العينين ٣٣٩، ٣٤٠

ـ ماجد بن موقد، أمير عوف ٤٦٤، ٤٦٥

ـ ماجد الكردي ٤٤٣

ـ مالك بن أنس، الإمام ١٩١، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٩، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٥٩، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٤١، ٣٦٥، ٤٦٢، ٥٥٢

ـ المتنبي ٢٨٧، ٣٥٣، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٧

ـ مجاهد ٤٢٩

ـ المجددي، الأستاذ ٥١٢

ـ محسوب، الحاج ٣١١، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٩، ٣٣٠

ـ محمد، رسول الله ﷺ ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٩ ، ٩٧، ٩٨، ١٠٦، ١٠٨، ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١٢٢، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٢، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٩، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦ ، ٢٨٧، ٣١٢، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٧٤، ٣٩١، ٤٢٠، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠ ، ٤٧٢، ٤٨٠، ٤٩٩، ٥٠٤، ٥١٠، ٥١٨، ٥٥٦، ٥٦١، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٧

ـ محمد، الأخ الأكبر لخليفة تطوان ٢٩٠

ـ محمد أبو زيد ٩١

ـ محمد أجانا ١١٤

ـ محمد أحمد، العالم الجليل ٣٨٤

ـ محمد الأمير الصنعاني ١٩٦

ـ محمد بن إبراهيم، مفتي المملكة العربية السعودية ١٨١، ١٨٤، ٤٦٦

العَلَم	رقم الصفحة
ـ محمد بن أبي طالب الحسني الهاشمي	١٤٥
ـ محمد بن أحمد التغزوتي	٢١٥
ـ محمد بن أمين الشنقيطي	٤٩٨
ـ محمد بن تومرت	٢٠٥
ـ محمد بن جرير الطبري	٣١٠
ـ محمد بن جعفر الكتاني الفاسي المغربي	٢١٨، ٢٢٣، ٢٢٤
ـ محمد بن الحسن	٢٤٠
ـ محمد بن الحسن العسكري، الإمام المنتظر	٤٣٢، ٤٣٣
ـ محمد بن حسين بن محسن	٤٠٤، ٤٠٧، ٤٠٨
ـ محمد بن عبود	٥٤٨
ـ محمد بن عبد الله العلوي	٢٠٩، ٥٥٠
ـ محمد بن عبد الرزاق حمزة	٩١، ١١٤، ٣٥٦، ٣٥٩، ٤٤٩، ٤٥٢، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٩، ٤٦٢، ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٨٦
ـ محمد بن عبد السلام حسيسن	٢٣٥
ـ محمد بن عبد الكريم، أخو قائد ثورة الريف	١٧٣
ـ محمد بن عبد الكريم، قائد ثورة الريف	١٧٢، ٢٩٩
ـ محمد بن عبد اللطيف	٤٥٩، ٤٦٨
ـ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان الدرعي	١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٥، ٣٦٢، ٤٤٠، ٤٦٧، ٥٤٧
ـ محمد بن العربي العلوي	١٦٩، ٢٣٠، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٩
ـ محمد بن علي بن أبي طالب	٤٣٧
ـ محمد بن فريحة	٢٩٣
ـ محمد بن مبارك السوسي، الشيخ التيجاني	٩٤، ٩٦
ـ محمد بن محسن اليمني الأنصاري	٣٨٣
ـ محمد بن موسى، وزير الأوقاف	١٩١، ٢١٢

العَلَم	رقم الصفحة

ـ محمد بن يحيى بن كثير الحراني ١٤٦
ـ محمد تقي الدين الهلالي، الدكتور ٨٣، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ١١٨، ١٣٧، ١٦٣، ١٦٨، ١٦٩، ١٧١، ١٩١، ١٩٨، ٢٠٩، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٦٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠، ٣١٢، ٣١٦، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٥٣، ٣٥٦، ٤٠٨، ٤١٩، ٤٣٥، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦٢، ٤٩٩ ٥٠١، ٥١٦، ٥٣٩، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥
ـ محمد الخامس، الملك ١٦٨، ١٧٤، ٢٨١، ٥٣٨، ٥٤٢، ٥٥٣
ـ محمد الخرشي الشنقيطي ١٠١، ١٠٢
ـ محمد الخضر ٣٥١
ـ محمد الدادسي ٩٥
ـ محمد رشيد رضا ٩٠، ٣٦٦
ـ محمد الرمالي ٩١
ـ محمد الروابحية ٣٣٦
ـ محمد الزمزمي بن الصِّدِّيق ١٤٢، ١٤٣، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠
ـ محمد السلاوي ٢١٦
ـ محمد الشرتي، الحاج ٢٢٤
ـ محمد شكري الآلوسي ٣١٠
ـ محمد، صاحب أبي حنيفة ٣١٣
ـ محمد الطَّنجي ١٣٩، ١٩٨، ٥٣٩
ـ محمد العبودي ١٨٧، ٢١١، ٢٧٠
ـ محمد عبد الرزاق حمزة ٩٢، ١٨٢
ـ محمد عبده ٤٠١ ، ٤٠٢
ـ محمد العربي الهلالي ١٢٥، ١٨٦، ٣٥٦، ٥٢٩، ٥٣١، ٥٣٢
ـ محمد عزيز، أخو الملك نادر شاه ٥١٠
ـ محمد علي الطاهر ٢٦٣

العَلَم	رقم الصفحة
ـ محمد عمر الأفغاني	٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٣، ٥٢٧
ـ محمد المؤذن الإدريسي	٢٢، ٢٧٠، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠، ٢٨٩
ـ محمد مظهر	٥٢٩
ـ محمد ناظم الندوي	٤٩٢
ـ محمد نصيف، أبو مثواي	٣٦٦، ٣٧١ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨، ٥١٤
ـ محمد نعيم الأنصاري، الدكتور	٥٣٣، ٥٣٤
ـ محمود باشا الديب	٩٤
ـ محمود شويل	٤٥٣، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٥
ـ محمود مهدي الإسطنبولي	٣٣٣
ـ مسعود عالم الندوي	٤٩٢
ـ مسلم بن الحجاج، صاحب «الصحيح»	١٤٩، ٤٣٥، ٤٣٧
ـ المِسور بن مخرمة	٤٣٧، ٤٣٨
ـ مشيل عفلق	٣٣٥
ـ مصطفى آل إبراهيم	٣٥٣، ٣٥٦، ٣٥٧، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٤ ، ٤٤٣ ، ٤٩٧، ٤٩٩
ـ مصطفى كمال	٥٠٠
ـ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما	٤٣٧
ـ معروف الرصافي	٤١٨
ـ المغيرة	٤٣٥
ـ مكي بادو	٥٣٨
ـ الملالي، القائد، حاكم القصر الكبير	٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨ ، ٢٨٣
ـ منشى صاحب	٤٩٧
ـ منصور الهندي	٥٠٦ ، ٥١١، ٥٢٥
ـ منير القاضي	٣٢٢
ـ مهدي القزويني، مجتهد الشيعة	٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٣

العلم	رقم الصفحة
ـ المواق، أبو عبد الله المالكي	٢٦٠
ـ مولاي إلياس	٥١٩
ـ مولاي الحسن بن المهدي، خليفة السلطان	٢٠٩، ٢٧٦، ٢٨٠
ـ مولاي سلامة بن زيدان العلوي، متصرف مكناس	٥٤٩
ـ مولاي هاشم العلوي	٥٤٢
ـ مولر، رئيس مستشفى العيون	٣٣٧

النون

ـ نادر شاه، الملك	٥٠٠، ٥٠٧، ٥١٠ ، ٥١٧ ، ٥٢٢
ـ النسائي، صاحب «السنن»	١٤٦
ـ نوح عليه السلام	٤٧٨
ـ نوري السعيد	٣٣٢

الهاء

ـ هامان	٥١٥
ـ هتلر	٣٠٢
ـ هشام بن المغيرة	٤٣٨
ـ هلال بن الحسين بن أحمد	٢١٧

الواو

ـ وائل والد علقمة	١٤٦
ـ وجيه زين العابدين، الدكتور	٣٣٤

الياء

ـ اليزيد بن صالح، أمير شفشاون	٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢، ٢٨٣
ـ يوسف آل إبراهيم	٤٢٠
ـ يوسف، شيخ البلد	١٠٨، ١١٢، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩

العَلَم	رقم الصفحة
الآبـــــاء	
ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه	٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٨
ـ أبو بكر الطرطوشي	٣٦٣، ٣٦٤
ـ أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه	٢٣٩
ـ أبو جهل	٤٣٦
ـ أبو حامد الغزالي	٢٠٥
ـ أبو الحسن الأشعري	٢٠٧
ـ أبو الحسن علي الندوي	٣٩٤، ٤٩٢، ٤٩٣
ـ أبو حنيفة النعمان	٢٤٠، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦
ـ أبو حيان الأندلسي	١٧٩
ـ أبو داود السجستاني	١٩٥، ٢٥٨، ٢٨٧، ٣٨١
ـ أبو داود الطيالسي	٤٣٥
ـ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه	٢٥٨، ٢٥٩
ـ أبو شامة، صاحب «الباعث على إنكار البدع»	١١٣، ٣١٩، ٣٦٤
ـ أبو الشيخ الأصبهاني	٤٢٩
ـ أبو علي الفارسي	٣٧٧
ـ أبو قابوس مولى عبد الله بن عمرو	١٩١
ـ أبو القاسم القشيري	١٧٩
ـ أبو الكلام آزاد	٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠
ـ أبو معاوية الضرير	٤٢٩
ـ أبو مقبل، أحد عبيد آل إبراهيم	٤٩٩
ـ أبو نعيم الأصبهاني	٤٢٩
ـ أبو هاشم المهندس	٩٢
ـ أبو واقد الليثي	٣٦٢
ـ أبو يوسف، صاحب أبي حنيفة	٣١٣

العَلَم	رقم الصفحة

الأبنـــــــاء

ـ ابن أبي شيبة	٤٠٩، ٤١٠، ٤٣٦
ـ ابن تيمية، شيخ الإسلام	١٧٨، ١٨٤، ٤٤٠، ٤٥٤، ٤٥٨
ـ ابن جرير	٤٦١
ـ ابن الجوزي	٣٤٠، ٤٢٩
ـ ابن الحاج، صاحب كتاب «المدخل»	٣١٩
ـ ابن حبان	٤١٠
ـ ابن خلدون	٤٠٠
ـ ابن دريد	٤١٣
ـ ابن دقيق العيد	١٧٨، ٤٣٠
ـ ابن الراجا	٥٢٩، ٥٣١، ٥٣٢
ـ ابن عبد البر	٢٥٩، ٤٠٢
ـ ابن عبد القادر الطود، فقيه القصر الكبير	٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٢
ـ ابن عربي الحاتمي	٩٥، ١٤٣، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ٣٤٠
ـ ابن عساكر	٢٠٨
ـ ابن عيينة	١٥٩
ـ ابن الفارض	١٧٧، ١٧٨، ٣٤٠
ـ ابن القيِّم، شمس الدين	١٤٦، ١٧٩، ٤٥٤، ٤٥٨، ٤٥٩
ـ ابن كثير	٤٣٤، ٤٣٥
ـ ابن ماجه	٤٣٦، ٤٣٧
ـ ابن مردويه	٤٣٤
ـ ابن معين	٤٢٩
ـ ابن المقرئ	١٨٠
ـ ابن منصور محمد، إمام قرية	٤٧٠، ٤٨١، ٤٨٢
ـ ابن الوردي	١٩٦

العَلَم	رقم الصفحة
ـ ابن اليماني	٢٦٢

النســـاء

ـ خولة زوجة علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٤٣٧
ـ عائشة رضي الله عنها	٤٢٧
ـ فاطمة رضي الله عنها	٩٥، ٣٦١، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٨

الموضوعات والمحتويات

الموضوع	رقم الصفحة

* تقديم عميد الرحالين العرب الشيخ العلامة محمد بن ناصر العبودي ... ٥
* مقدِّمة المحقِّق؛ وفيها:
ـ من خصائص الكتاب ١٩
ـ التعريف بالكتاب ٢٢
ـ خدمتي للكتاب ٢٥
ـ تعليقات العلامة أبي أويس محمد الأمين بوخبزة ٢٦
ـ أوهام الشيخ تقي الدين الهلالي ٢٧
ـ لماذا وقعت الأوهام في كتاب الهلالي؟ ٢٧
ـ تأريخ تأليف الكتاب ٢٨
ـ مصادري في التعليق على الكتاب وتوثيق الأخبار ٢٩
ـ طريقة تأليف الهلالي لكتابه ٣٠
ـ عملي في الكتاب ٣٤
* نبذة من ترجمة المؤلِّف مع مصادر ترجمته؛ وفيها:
ـ مصادر ترجمته (ت) ٣٧
ـ نسبه ٤٣
ـ نشأته ٤٤
ـ دراسته ٤٤
ـ مؤلَّفاته ٥١
ـ وفاة الهلالي ورثاء العلماء له ٦٠

الموضوع	رقم الصفحة
ـ عالم مجتهد ومحدِّث حافظ	٦٤
ـ جهاده في سبيل الدعوة	٦٥
ـ زياراته ورحلاته العلمية	٦٧
❋ ترجمة الهلالي بخطِّه	٧٧
❋ مقدمة المؤلف	٨٣
❋ الدعوة إلى الله في الإسكندرية	٨٧
♦ امتحان الدعاة إلى الله	٩٣
♦ سبب منع أبي السمح من الصلاة والوعظ في مسجد أبي هاشم برمل الإسكندرية	٩٧
❋ الدعوة إلى الله في الصعيد	١٠٧
♦ السر الخفي	١٠٩
♦ عودة إلى دروس الوعظ	١١١
♦ عودة إلى الريرمون	١١٨
♦ المناظرة	١٢٠
❋ الدعوة إلى الله في تندا	١٢٣
♦ قدّم مراد الله يقدم الله مرادك	١٢٤
♦ هل بقي أهل الريرمون ثابتين على الدعوة؟	١٢٥
♦ من مخارق شيوخ المتصوفة المبتدعين	١٣٠
❋ الدعوة إلى الله في تطوان	١٣٣
♦ الحوادث التي وقعت أثناء إقامتي في شمال المغرب	١٤٢
♦ الحدث الثاني في تطوان ونواحيها	١٨٠
♦ الحدث الثالث: همُّ جماعة من الناس بقتلي	١٨٧
♦ معركة مع شيخ متصوف من أهل تطوان	١٩٢
♦ السفر إلى مكة في لحظة	١٩٧
♦ عزل الشيخ المتصوف الذي حج على سطح بيت من جميع المناصب	١٩٩

الموضوع	رقم الصفحة
♦ فتوى الشيخ المتصوف	٢٠١
♦ عقيدة الأشعرية	٢٠٤
♦ التعيين في خزانة الكتب العامة	٢١٠
♦ خمس مئة بسيطة من وزارة الأوقاف	٢١٢
♦ غضب رئيس الوزراء أحمد الغنيمة	٢١٣
♦ معركة مع فقيه مقلد مشرك	٢١٤
♦ ترف أهل تطوان	٢٢٢
♦ الأمير الملالي والاستسقاء	٢٣٤
♦ صلاة الاستسقاء	٢٣٥
♦ الاجتماع بالأمير الملالي	٢٣٧
♦ الاستسقاء بذبح الخيل	٢٤٢
♦ الاستسقاء بالحصى	٢٤٧
♦ هجو فقيه مبتدع مر علينا ولم يسلم	٢٤٨
♦ انتقام المستعمرين مني	٢٥٠
♦ الاتصال بالوطنيين المقاومين للاستعمار	٢٥٢
♦ تأليف «مختصر هدي الخليل»	٢٥٢
♦ التعاون مع الإمام الشهيد حسن البنا	٢٥٤
♦ الاجتماع بالحاكم الإسباني	٢٦٤
♦ الانتقال إلى تطوان	٢٧٢
♦ لماذا خذلني خليفة السلطان؟	٢٧٦
♦ طلب أمير شفشاون للصلح مرة أخرى	٢٧٩
♦ عاقبة أمير شفشاون اليزيد بن صالح	٢٨١
♦ بين اليزيد والملالي	٢٨٣
♦ شكر أهل شفشاون في قصيدة من بحر الطويل	٢٨٤
♦ كيف كانت عاقبة وزير العدل؟	٢٨٦

الموضوع	رقم الصفحة

♦ تبديل الدراهم في البنك ٢٨٨
♦ في مكتب كاساس مرة ثانية ٢٨٨
♦ في مكتب كاساس مرة ثالثة ٢٩٠
♦ في السفارة الإنكليزية ٢٩١
♦ حادثة أصيلا ٢٩٤
*** السفر إلى مجريط ثم إلى القاهرة** ٢٩٧
♦ الإقامة بالقاهرة ٢٩٩
♦ الصدق منجاة والكذب مهلكة ٣٠٣
*** الدعوة إلى الله في العراق** ٣٠٥
♦ جامع الدهان ٣١٥
♦ تطهير الجامع من البدع ٣١٧
♦ هجوم مدير الأوقاف علينا ٣٢١
♦ وقوف فضيلة الأستاذ منير القاضي إلى جانب الحق ٣٢٢
♦ مكيدة أخرى ٣٢٢
♦ أخذ الأجرة على صلاة الجمعة ٣٢٥
♦ ملاحقة الاستعمار الإنكليزي لمؤلف هذا الكتاب ٣٢٦
♦ الانقلاب ٣٣٠
*** الدعوة إلى الله في الدورة** ٣٣٩
♦ كيف كان حال السلفيين؟ ٣٤٥
♦ مناظرة مؤلِّف هذا الكتاب لحبيب الله بن مايابا الشنقيطي ٣٤٥
♦ مداهنة حبيب الله لمن يسميهم بالوهابية ٣٥٠
♦ إزالة بستان فاطمة ٣٦١
♦ العَشاء في قصر الملك حسين ٣٦٥
♦ ملك الحجاز غير المتوج ٣٦٦
♦ عبد الرؤوف الصبان ٣٦٩

الموضوع	رقم الصفحة
❊ **السفر إلى الهند**	٣٧١
♦ حادثة عجيبة	٣٧٣
♦ التجول في الهند	٣٨٠
♦ السيد سليمان النَّدْوي	٣٩٢
♦ لقاء الشيخ مصطفى آل إبراهيم	٤١١
❊ **السفر إلى العراق في الباخرة**	٤١٥
♦ الوصول إلى الدورة	٤١٨
♦ مناظرة بين المؤلِّف وبين مجتهد الشيعة في المحمرة	٤٢٠
♦ مناظرة بين المؤلِّف وبين شيعي آخر	٤٣٩
♦ شيخ متملق	٤٤٣
❊ **الدعوة إلى الله في النخيل**	٤٤٦
♦ الاختلاف مع الشيخ عبد الله بن بُلَيهد	٤٥٣
♦ الشيخ الطيب التّنبكتي	٤٥٩
♦ الشيخ محمود شُوَيْل	٤٦١
♦ الخروج إلى البادية	٤٦٢
♦ التائية	٤٧٣
♦ اليائية	٤٧٩
♦ قصة ابن منصور الواردة في القصيدة اللامية	٤٨١
♦ القصة الثانية وهي أفظع	٤٨٢
♦ التدريس في المسجد الحرام	٤٨٣
♦ التدريس في المعهد السعودي	٤٨٤
❊ **السفر إلى الهند**	٤٨٩
♦ محنة	٤٩٥
♦ مكرمة عربية	٤٩٧
❊ **رحلة إلى أفغانستان**	٥٠٠

الموضوع	رقم الصفحة

♦ الشيخ عمر أوزبك ٥٠٩
♦ الكلام بالعربية ٥١٠
♦ زيارة الملك ٥١٠
♦ لماذا لم أحرص على زيارة الملك؟ ٥١١
♦ المرض بالحمى النافض ٥١٣
♦ علاج غريب ٥١٥
♦ حال المسلمين في أفغانستان في ذلك الزمان ٥١٧
♦ بوز دوزج ٥٢٢
♦ عودة إلى السفر ٥٢٣
♦ استدراك ٥٢٥
♦ عودة إلى الهند ٥٢٧
♦ ركوب الفيل ٥٢٩
♦ الحمى النافض ٥٣٣
❊ **الدعوة إلى الله في مكناس** ٥٣٦
♦ المكيدة الثانية ٥٤٢
♦ المكيدة الثالثة ٥٤٧
♦ المدرسة الحسنية ٥٥٠
❊ **الرجوع إلى المدينة المنورة** ٥٥٨
❊ **ملحق نماذج الصور والمخطوطات** ٥٦٩
❊ **الفهارس** ٥٨٣
♦ فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٥٨٥
♦ فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٥٩١
♦ فهرس الآثار ٥٩٥
♦ فهرس الأعلام ٥٩٧
♦ الموضوعات والمحتويات ٦١٧